تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل

تأليف الامام العلامة قدوة الامة وعلم الائمة ناصر الشريعة ومحيي السنة علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى الصوفى المعروف بالخازن تغمده الله برحمته آمين

وبهامشه تفسير الشيخ الاكبر العارف بالله تعالى العلامة محيي الدين عربى اعاد الله علينا من بركاته آمين

طبعه حسن حلمى الكتبى ومحمد حسن جمالى الحلبى برخصة نظارة المعارف التى لابد منها فى سنة سبعة عشر وثلاثمائة والف



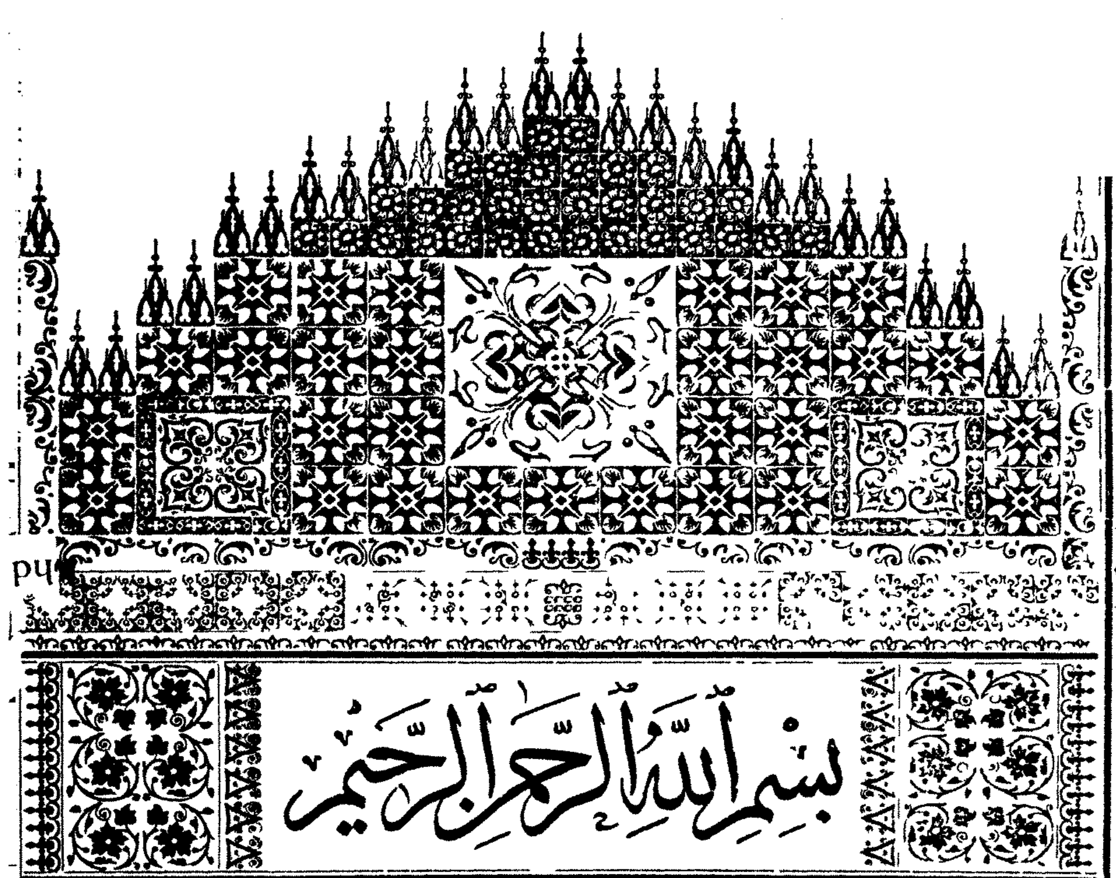


الجزء الثانى

من تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل تأليف الامام العلامة قدوة الامة وعلم الائمة ناصر الشريعة ومحي السنة علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى الصوفى المعروف بالخازن تغمده الله برحمته آمين

وبهامشه تفسير الشيخ الاكبر العارف بالله تعالى العلامة محيي الدين بن عربى اعاد الله علينا من بركاته آمين

طبعه حسن حلمى الكتبي ومحمد حسن جمالى الحلبي برخصة نظارة المعارف التى لابد منها فى سنة سبع عشرة وثلاثمائة والف



* (تفسير سورة الانعام) *

* (فصل فى ذكر نزولها) * روى مجاهد عن ابن عباس ان سورة الانعام مما نزل بمكة وهذا قول الحسن وقتادة وجابر بن زيد وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس قال نزلت سورة الانعام جملة ليلا بمكة وحولها سبعون الف ملك وروى ابو صالح عن ابن عباس قال هى مكية نزلت جملة واحدة نزلت ليلا وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فانها مدنيات وهى قوله تعالى قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم الى آخر الثلاث آيات وقوله تعالى وماقدروا الله حق قدره الآية وقوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا اوقال اوحى الىّ ولم يوح اليه شئ الى آخر الآيتين وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين وهما قوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق الآية وقوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية وروى عن ابن عباس ايضا وقتادة انهما قالا هى مكية الا آيتين نزلتا بالمدينة قوله وما قدروا الله حق قدره وقوله وهو الذى انشأ جنات معروشات وغير معروشات الآية ولما نزلت سورة الانعام ومعها سبعون ألف ملك قد سدوا مابين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد قال النبى صلى الله عليه وسلم سبحان ربى العظيم سبحان ربى العظيم وخر ساجدا قال البغوى وروى عنه مرفوعا من قرأ سورة الانعام صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وذكره بغير سند والله سبحانه وتعالى أعلم

(بسم الله الرحمن الرحيم) * قوله عز وجل (الحمد لله الذى خلق السموات والارض) قال

(كعب)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) ظهور الكمالات وصفات الجمال والجلال على مظاهر تفاصيل الموجودات باسرها الذى هو كمال الكل والحمد المطلق مخصوص بالذات الالهية الجامعة لجميع صفاتها واسمائها باعتبار البداية الذى اوجد سموات عالم الارواح وارض عالم الجسم وانشاء فى عالم الجسم ظلمات مراتبه التى هى حجب ظلمانية لذاته وفى عالم الارواح نور العلم والادراك (ثم) اى بعد ظهور هذه الآيات (الذين كفروا) حجبوا مطلقا (بربهم يعدلون) غيره يثبتون موجودا يساويه فى الوجود (هو الذى خلقكم من طين)

كعب الاحبار هذه الآية أول آية فى التوراة وآخر آية فى التوراة قوله تعالى وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية وفى رواية عنه ان آخر آية فى التوراة آخر سورة هود قال ابن عباس افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله الذى خلق السموات والارض وختمه بالحمد فقال تعالى وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وفى قوله الحمد لله تعليم لعباده كيف يحمدونه أى قولوا الحمد لله وقال أهل المعانى لفظه خبر ومعناه الامر أى احمدوا الله وانما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الامر لانه أبلغ فى البيان من حيث انه جمع الامرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الامرين فكان قوله الحمد لله ابلغ وقد تقدم معنى الحمد فى تفسير سورة فاتحة الكتاب بما فيه مقنع الذى خلق السموات والارض اى احمدوا الله الذى خلق السموات والارض وانما خصهما بالذكر لانهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد لان السماء بغير عمد ترونها وفيها العبر والمنافع والارض مسكن الخلق وفيها ايضا العبر والمنافع (وجعل الظلمات والنور) الجعل هنا بمعنى الخلق أى وخلق الظلمات والنور قال السدى يريد بالظلمات ظلمات الليل وبالنور نور النهار وقال الحسن يعنى بالظلمات الكفر وبالنور الايمان وقيل يعنى بالظلمات الجهل وبالنور العلم وقيل الجنة والنار قال قتادة خلق الله السموات قبل الارض وخلق الظلمة قبل النور وخلق الجنة قبل النار روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل ذكره البغوى بغير سند (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) يعنى والذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يشركون وأصل العدل مساواة الشئ بالشئ والمعنى انهم يعدلون بالله غير الله ويجعلون له عديلا من خلقه فيعبدون الحجارة مع اقرارهم بان الله خلق السموات والارض وقال النضر بن شميل الباء فى قوله بربهم بمعنى عن أى عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشئ وقيل دخول ثم فى قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو انه تعالى دل به على انكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك ان تقول لرجل أكرمتك وأحسنت اليك وأنت تكرنى وتجحد احسانى اليك فتقول ذلك منكرا عليه ومتعجبا من فعله ❊ قوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين) يعنى انه تعالى خلق آدم من طين وانما خاطب ذريته بذلك لانه أصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا من يحيى العظام وهى رميم أعلمهم بهذه الآية انه خلقهم من طين وهو القادر على اعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت قال السدى لما أراد الله عز وجل ان يخلق آدم بعث جبريل الى الارض ليأتيه بقبضة منها فقالت الارض انى أعوذ بالله منك أن تقبض منى فرجع ولم يأخذ منها شيأ فقال يارب عاذت بك فبعث الله ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله ان أخالف امره وأخذ من وجه الارض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بنى آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم قال الله لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الارض ولم ترحمها لاجرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك عن أبى موسى الاشعرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن

المادة الهيولانية (ثم قضى اجلا) مطلقا غير معين بوقت وهيئة لان احكام القضاء الثابت الذى هو ام الكتاب كلية منزهة عن الزمان متعالية عن التشخصات اذ محلها الروح الاولى المقدس عن التعلق بالمحل فهو الاجل الذى يقتضيه الاستعداد طبعا بحسب هويته المسمى اجلا طبيعيا بالنظر الى نفس ذلك المزاج الخاص والتركيب المخصوص بلا اعتبار عارض من العوارض الزمانية (واجل مسمى) معين (عنده) هو الاجل المقدر الزمانى الذى يجب وقوعه عند اجتماع الشرائط وارتفاع الموانع المثبت فى كتاب النفس الفلكية التى هى لوح القدر المقارن لوقت معين ملازماله كما قال تعالى فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (ثم انتم تمترون وهو الله فى السموات وفى الارض) بعد ما علمتم قدرته على ابدائكم وافنائكم

والخبيث والطيب أخرجه ابو داود والترمذى ❊ واما قوله تعالى (ثم قضى اجلا واجل مسمى عنده) فاختلف العلماء فى معنى ذلك فقال الحسن وقتادة والضحاك الاجل الاول من وقت الولادة الى وقت الموت والاجل الثانى من وقت الموت الى البعث وهو البرزخ وروى نحو ذلك عن ابن عباس قال لكل احد اجلان اجل الى الموت واجل من الموت الى البعث فان كان الرجل برا تقيا وصولا للرحم زيد له من اجل البعث الى اجل العمر وان كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من اجل العمر وزيد فى اجل البعث وذلك قوله ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره الا فى كتاب وقال مجاهد وسعيد ابن جبير الاجل الاول اجل الدنيا والاجل الثانى أجل الآخرة وقيل الاجل هو الوقت المقدر فاجل كل انسان مقدر معلوم عند الله لايزيد ولاينقص والاجل الثانى هو اجل القيامة وهو ايضا معلوم مقدر عند الله لايعلمه الا الله تعالى وقال ابن عباس فى رواية عطاء عنه ثم قضى اجلا يعنى النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند الانتباه واجل مسمى عنده هو اجل الموت وقيل هما واحد ومعناه ثم قضى اجلا يعنى قدر مدة لاعماركم تنتهون اليها وهو اجل مسمى عنده يعنى ان ذلك الاجل عنده لايعلمه الا هو والمراد بقوله عنده يعنى فى اللوح المحفوظ الذى لايطلع عليه غيره (ثم انتم تمترون) يعنى ثم انتم تشكون فى البعث ❊ قوله عز وجل (وهو الله فى السموات وفى الارض) يعنى وهو اله السموات واله الارض وقيل معناه وهو المعبود فى السموات وفى الارض وقال محمد بن جرير الطبرى معناه وهو الله فى السموات (يعلم سركم وجهركم) فى الارض وقال الزجاج فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الارض وقيل معناه وهو المنفرد بالتدبير فى السموات وفى الارض لاشريك له فيهما والمراد بالسر مايخفيه الانسان فى ضميره فهو من اعمال القلوب وبالجهر مايظهره الانسان فهو من اعمال الجوارح والمعنى ان الله لايخفى عليه خافية فى السموات ولافى الارض (ويعلم ماتكسبون) يعنى من خير اوشر بقى فى الآية سؤال وهو ان الكسب اما ان يكون من اعمال القلوب وهو المسمى بالسر اومن اعمال الجوارح وهو المسمى بالجهر فالافعال لاتخرج عن هذين النوعين يعنى السر والجهر فقوله ويعلم ماتكسبون يقتضى عطف الشئ على نفسه وذلك غير جائز فما معنى ذلك واجيب عنه بانه يجب حمل قوله ويعلم ماتكسبون على مايستحقه الانسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب والحاصل فيه انه محمول على المكتسب فهو كما يقال هذا المال كسب فلان اى مكتسبه ولايجوز حمله على نفس الكسب والا لزم عطف الشئ على نفسه ذكره الامام فخر الدين (وماتأتيهم) يعنى لاهل مكة (من آية من آيات ربهم) يعنى من المعجزات الباهرات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك وقيل المراد بالآيات آيات القرآن (الا كانوا عنها معرضين) يعنى الا كانوا لها تاركين وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق) يعنى بآيات القرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما اتى به من المعجزات (لما جاءهم) يعنى لما جاءهم الحق من عند ربهم كذبوا به (فسوف يأتيهم انباء ما كانوا به يستهزؤن) يعنى فسوف يأتيهم اخبار استهزائهم اذا عذبوا فى الآخرة ❊ قوله تعالى (ألم يروا) الخطاب لكفار مكة يعنى ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتى (كم اهلكنا من قبلهم من قرن) يعنى مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الامم الماضية والقرون الخالية والقرن الامة من الناس واهل كل زمان قرن سموا بذلك لاقترانهم فى الوجود فى ذلك الزمان وقيل سمى قرنا لانه زمان بزمان وامة بامة واختلفوا فى مقدار القرن فقيل ثمانون سنة وقيل

واحاطة علمه بكم تشكون فيه وفى قدرته فتثبتون لغيره تأثيرا وقدرة وهو الله فى صورة الكل سواء الوهيته بالنسبة الى العالم العلوىّ والسفلىّ (يعلم سرّكم) فى عالم الارواح الذى هو عالم الغيب (وجهركم) فى عالم الاجسام الذى هو عالم الشهادة (ويعلم ماتكسبون) فيهما من العلوم والعقائد والاحوال والحركات والسكنات والاعمال صحيحها وفاسدها صوابها وخطئها خيرها وشرّها فيجازيكم بحسبها (وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم انباء ما كانوا به يستهزؤن ألم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا

ستون سنة وقيل اربعون سنة وقيل مائة وعشرون سنة وقيل مائة سنة وهو الاصح لما روى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبدالله بن بشر المازني انك تعيش قرنا فعاش مائة سنة فعلى هذا القول المراد بالقرن اهله الذين وجدوا فيه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يعني اصحابي وتابعيهم وتابعي التابعين (مكناهم في الارض مالم نمكن لكم) يعني اعطيناهم مالم نعطكم يا أهل مكة وقيل امددناهم في العمر والبسطة في الاجسام والسعة في الارزاق مثل اعطاء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وارسلنا السماء عليهم مدرارا) مفعال من الدر يعني وأرسلنا المطر متتابعا في اوقات الحاجة اليه والمراد بالسماء المطر سمي بذلك لنزوله منها (وجعلنا الانهار تجري من تحتهم) يعني وأجرنا لهم العيون تجري من تحتهم والمراد منه كثرة البساتين (فاهلكناهم بذنوبهم) يعني بسبب ذنوبهم وكفرهم (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) يعني وخلقنا من بعد هلاك اولئك اهل قرن آخرين وفي هذه الآية مايوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الامم السالفة والقرون الخالية فانهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الاتباع اهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا فكيف حال من هوا ضعف منهم واقل عددا وعددا وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهلة * قوله عزوجل (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس) الآية قال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحرث وعبدالله بن أمية ونوفل بن خويلد قالوا يامحمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عندالله ومعه اربعة من الملائكة يشهدون عليه انه من عندالله وانك رسوله فانزل الله تعالى هذه الآية ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس يعني من عندي يعني مكتوبا في قرطاس وهو الكاغد والصحيفة التي يكتب فيها (فلمسوه بأيديهم) يعني فعاينوه ومسوه بأيديهم وانما ذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لانه ابلغ في ايقاع العلم بالشئ من الرؤية لان المرئيات قد يدخلها التخيلات كالسحر ونحوه بخلاف الممسوس (لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) يعني لوانزلنا عليهم كتابا كما سألوا لما امنوا به ولقالوا هذا سحر مبين كما قالوا في انشقاق القمر وانه لاينفع معهم شئ لما سبق فيهم من علمي بهم (وقالوا) يعني مشركي مكة (لولا) يعني هلا (انزل عليه) يعني على محمد (ملك) يعني نراه عيانا (ولوانزلنا ملكا لقضي الامر) يعني لفرغ الامر ولوجب العذاب وهذه سنة الله في الكفار انهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤ صلوابه (ثم لاينظرون) يعني انهم لايمهلون ولايؤخرون طرفة عين بل يعجل لهم العذاب (ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يعني ولوارسلنا اليهم ملكا لجعلناه في صورة رجل وذلك ان البشر لايستطيعون ان ينظروا الى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ولو نظر الى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ولذلك كانت الملائكة تأتي الانبياء في صورة الانس كما جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان الى داود عليه السلام في صورة رجلين وكذلك اتى الملائكة الى ابراهيم ولوط عليهما السلام ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه * وقوله تعالى (وللبسنا عليهم مايلبسون) يقال لبست الامر على

آخرين ولونزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لاينظرون ولوجعلناه) الرسول (ملكا لجعلناه رجلا) اي لجسدناه لان الملك نور غير مرئي بالبصر وهم ظاهريون لايدركون الاما كان محسوسا وكل محسوس فهو جسم اوجسماني ولا صورة تناسب الملك الذي ينطق بالحق حتى يتجسد فيها الا الصورة الانسانية اما لكونه نفسا ناطقة تقتضي هذه الصورة واما لوجوب وجود الجنسية التي لولم تكن لما امكنهم السماع منه واخذ القول (وللبسنا عليهم مايلبسون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين قل لمن

القوم اذا اشبهته عليهم وجعلته مشكلاولبست عليه الامر اذاخلطته عليه حتى لايعرف جهته ومعنى الآية ولخلطنا عليهم مايخلطون على انفسهم حتى يشكون فلايدرون املك هوام آدمي * وقيل في معنى الآية انالوجعلنا الملك في صورة البشر لظنوه بشرا فتعود المسئلة بحالها انالانرضى برسالة البشر ولوفعل الله عزوجل ذلك صارفعل الله مثل فعلهم في التلبيس وانما كان تلبيسا لانهم يظنون انه ملك وليس بملك ويظنون انه بشروليس هوبشرا وانما كان فعلهم تلبيسالانهم لبسوا على ضعفتهم في امر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا انما هوبشر مثلكم ولوراوا الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل مالحق بضعفائهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ماكان منهم من التخليط في السؤال واللبس على الضعفاء * قوله عزوجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) يعني كما استهزؤابك يامحمد وفي هذه الآية تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له عما كان من تكذيب المشركين اياه واستهزائهم به اذجعل له اسوة في ذلك بالانبياء الذين كانوا قبله (فحاق) اى فنزل وقيل احاط وقيل حل (بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزؤن) والمعنى فنزل العذاب بهم ووجب عليهم من النقمة والعذاب جزاء استهزائهم وفي هذه الآية تحذير للمشركين ان يفعلوا بنبيهم كافعل من كان قبلهم بأنبيائهم فينزل بهم مثل مانزل بهم (قل سيروا في الارض) اى قل يامحمد لهؤلاء المستهزئين سيروا في الارض معتبرين ومتفكرين وقيل هو سير الاقدام (ثم انظروا) فعلى القول الاول يكون النظر نظر فكرة وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر وعلى القول الثاني يكون المراد بالنظر نظر العين والمعنى ثم انظروا باعينكم الى آثار الامم الخالية والقرون الماضية السالفة وهو قوله تعالى (كيف كان عاقبة المكذبين) يعني كيف كان جزاء المكذبين وكيف اورثهم الكفر والتكذيب الهلاك فحذر كفار مكة عذاب الامم الخالية * قوله عزوجل (قل لمن مافي السموات والارض قل لله) هذا سؤال وجواب والمعنى قل يامحمد لهؤلاء المكذبين العادلين بربهم لمن ملك مافي السموات والارض فان اجابوك والافأخبرهم ان ذلك الله الذي قهر كل شئ وملك كل شئ واستعبد كل شئ لاللاصنام التي تعبدونها انتم فانها موات لاتملك شيأ ولاتملك لنفسها ضرا ولانفعا وانما امره بالجواب عقب السؤال ليكون ابلغ في التأكيد وآكد في الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته اردفه بكمال رحمته واحسانه اليهم فقال تعالى (كتب على نفسه الرحمة) يعني انه تعالى اوجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتولين عنه الى الاقبال عليه واخبار بانه رحيم بعباده وانه لايعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة والانابة ممن تاب واناب (ق) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي وفي البخاري ان الله كتب كتابا قبل ان يخلق الخلق ان رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش وفي رواية لهما ان الله لما خلق الخلق وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده زاد البخاري على العرش ثم اتفقا ان رحمتي تغلب غضبي (ق) عن ابي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وانزل في الارض جزأ واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة

مافي السموات والارض قل لله كتب على نفسه الرحمة) اى الزم ذاته من حيث هي افاضة الخير والكمال بحسب استعداد القوابل فمامن مستحق لرحمة وجود اوكمال الا اعطاه عند حصول استحقاقه لها(ليجمعنكم الى يوم القيامة) الصغرى والاعادة اوالكبرى في عين الجمع المطلق (لاريب فيه)في كل واحد من الجمعين في نفس الامر عند التحقيق وان لم يشعر به المحجوبون وهم(الذين خسروا انفسهم فهم لايؤمنون) باهلاكها في الشهوات واللذات الفانية ومحبة مايفنى سريعا من حطام الدنيا وكل محب لشئ فهو محشور فيه فهؤلاء لمحبتهم اياها واحتجابهم بها عموا عن الحقائق الباقية النورانية واستبدلوا بها المحسوسات الفانية الظلمانية (وله ماسكن في الليل والنهار وهو السميع العليم قل اغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يطعم ولايطعم قل انى أمرت ان كون اول

(حافرها)

حافرها عن ولدها خشية ان تصيبه زاد البخارى فى رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذى عندالله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عندالله من العذاب لم يأمن من العذاب ولمسلم ان لله مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (م) عن سلمان الفارسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق يوم خلق السموات والارض مائة رحمة كل رحمة طباق مابين السماء والارض فجعل منها فى الارض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فاذا كان يوم القيامة اكملها بهذه الرحمة (ق) عن عمر قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبى فاذا امرأة من السبى تبتغى اذ وجدت صبيا فى السبى اخذته فألصقته ببطنها وارضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اترون هذه المراة طارحة ولدها فى النار قلنا لا والله وهى تقدر ان لا تطرحه فقال صلى الله عليه وسلم الله ارحم بعباده من هذه المراة بولدها وقوله تعالى (ليجمعنكم) اللام فى قوله ليجمعنكم لام القسم تقديره والله ليجمعنكم (الى يوم القيامة) وقيل معناه فى قبوركم الى يوم القيامة (لا ريب فيه) اى لا شك فى انه آت (الذين خسروا انفسهم) يعنى بالشرك بالله اوغبنوا انفسهم باتخاذهم الاصنام فعرضوا انفسهم لسخط الله واليم عقابه فكانوا كمن خسر شيأ واصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل اذا غبن فى بيعه (فهم لا يؤمنون) يعنى لما سبق عليهم القضاء بالخسران فهو الذى حملهم على الامتناع من الايمان * قوله تعالى (وله ماسكن فى الليل والنهار) يعنى وله مااستقر وقيل ماسكن وماتحرك فاكتفى بذكر احدهما عن الآخر وقيل انما خص السكون بالذكر لان النعمة فيه اكثر * وقال ابن جرير كل ماطلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار فيكون المراد منه جميع ماحصل فى الارض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما فى البر والبحر وهذا يفيد الحصر والمعنى ان جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره (وهو السميع) لاقوالهم وأصواتهم (العليم) بسرائرهم واحوالهم * قوله عز وجل (قل اغير الله اتخذ وليا) قال مقاتل لما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه انزل الله هذه الآية فقال قل لهم يا محمد اغير الله اتخذ وليا يعنى ربا ومعبودا وناصرا ومعينا وهو استفهام ومعناه الانكار اى لا اتخذ غير الله وليا (فاطر السموات والارض) اى خالق السموات والارض ومبدعهما ومبتدئهما (وهو يطعم ولا يطعم) يعنى وهو يرزق ولا يرزق وصف الله عز وجل نفسه بالغنى عن الخلق وباحتياج الخلق اليه لان من كان من صفته ان يطعم الخلق لاحتياجهم اليه وهو لا يطعم لاستغنائه سبحانه وتعالى عن الاطعام فهو غنى عن الخلق ومن كان كذلك وجب ان يتخذ ربا وناصرا ووليا ومعبودا (قل انى امرت ان اكون اول من اسلم) يعنى من هذه الامة والاسلام بمعنى الاستسلام يعنى امرت ان استسلم لامر الله وانقاد الى طاعته (ولا تكونن من المشركين) يعنى وقيل لى يا محمد لا تكونن من المشركين (قل انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى عبادة غيرى ان ربى امرنى ان اكون

من اسلم) قال ذلك مع قوله ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابرهيم حنيفا وكذلك قال موسى سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين لان مراتب الارواح مختلفة فى القرب والبعد من الهوية الآلهية وكل من كان ابعد فايمانه بواسطة من تقدمه فى الرتبة واهل الوحدة كلهم فى المرتبة الالهية اهل الصف الاول فكان ايمانهم بلا واسطة وايمان غيرهم بواسطتهم الاقدم فالاقدم وكل من كان ايمانه بلا واسطة فهو اول من آمن وان كان متأخر الوجود بحسب الزمان كما قال النبى عليه الصلاة والسلام نحن الآخرون السابقون فلا يقدح اتباعه لملة ابراهيم فى سابقيته لان معنى الاتباع هو السير فى طريق التوحيد مثل سيره فى الزمان الاول ومعنى اوليته كونه فى الصف الاول مع السابقين (ولا تكونن من المشركين قل انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين وان يمسسك الله

اوّل من اسلم ونهانى عن عبادة شئ سواه وانى اخاف ان عصيت ربى فعبدت شيأ سواه عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة (من يصرف عنه) يعنى العذاب (يومئذ) يعنى يوم القيامة (فقد رحمه) يعنى بان انجاه من العذاب ومن انجاه من العذاب فقد رحمه واناله الثواب لامحالة وانما ذكر الرحمة من صرف العذاب لئلا يتوهم انه صرف العذاب فقط بل تحصل الرحمة مع صرف العذاب (وذلك الفوز المبين) يعنى ان صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين * قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر) يعنى بشدة وبلية والضر اسم جامع لما ينال الانسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو فى معناه (فلا كاشف له الا هو) يعنى فلا يدفع ذلك الضر الا الله عز وجل (وان يمسسك بخير) يعنى بعافية ونعمة والخير اسم جامع لكل ما ينال الانسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك (فهو على كل شئ قدير) يعنى من دفع الضر وجلب الخير وهذه الآية خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى لاتتخذ وليا سوى الله لانه هو القادر على ان يمسسك بضر وهو القادر على دفعه عنك وهو القادر على ايصال الخير اليك وانه لايقدر على ذلك الا هو فاتخذه وليا وناصرا ومعينا وهذا الخطاب وان كان للنبى صلى الله عليه وسلم فهو عام لكل احد والمعنى وان يمسسك الله بضر ايها الانسان فلا كاشف لذلك الضر الا هو وان يمسسك بخير ايها الانسان فهو على كل شئ قدير من دفع الضر وايصال الخير * عن ابن عباس قال كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال لى يا غلام انى اعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك وان اجتمعت على ان يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف اخرجه الترمذى زاد فيه رزين تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة وفيه وان استطعت ان تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان الصبر على ماتكره خير كثير * واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين قال ابن الاثير وقد جاء نحو هذا اومثله بطوله فى مسند احمد بن حنبل * قوله عز وجل (وهو القاهر فوق عباده) يعنى وهو الغالب لعباده القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته والقاهر والقهار معناه الذى يريد فيقع فى ذلك مايشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه فلا يستطيع احد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وهذا معنى القاهر فى صفة الله تعالى لانه القادر والقاهر الذى لايعجزه شئ اراده ومعنى فوق عباده هنا ان قهره قد استعلى على خلقه فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذى لايقدر احد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيأ فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة * وقال ابن جرير الطبرى معنى القاهر المتعبد خلقه العالى عليهم وانما قال فوق عباده لانه تعالى وصف نفسه بقهره اياهم ومن صفة كل قاهر شيأ ان يكون مستعليا عليه فمعنى الكلام اذا والله الغالب عباده المذلل لهم العالى عليهم بتذليله اياهم فهو فوقهم بقهره اياهم وهم دونه وقيل فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذى تفرد به الله عز وجل (وهو الحكيم) يعنى فى امره وتدبيره عباده (الخبير) يعنى باعمالهم وما يصلحهم * قوله عز وجل (قل اى شئ اكبر شهادة) قال الكلبى اتى اهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد ارنا من يشهد انك رسول الله

بضرّ فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير وهو القاهر فوق عباده) بافنائهم ذاتا وصفة وفعلا بذاته وصفاته وافعاله فيكون قهره عين لطفه كما لطف بهم بايجادهم وتمكينهم واقدارهم على انواع التمتعات وهيالهم ماارادوا من انواع السم والمشتهيات فحجبوا بها عنه وذلك عين قهر فسبحان الذى اتسعت رحمته لاوليائه فى شدة نقمته واشتدت نقمته على اعدائه فى سعة رحمته (وهو الحكيم) يفعل مايفعل من القهر الظاهر المتضمن اللطف الواسع او اللطف الظاهر المتضمن للقهر الكامل بالحكمة (الخبير) الذى يطلع على خفايا احوالهم واستحقاقها للطف والقهر (قل اى شئ اكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم واوحى الىّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ ائنكم لتشهدون انّ مع الله آلهة اخرى قل لااشهد قل انما هو اله واحد واننى برئ مما تشركون

فانا لا نرى احدا يصدقك ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا ان ليس لك عندهم ذكر فانزل الله عز وجل قل يعني يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك و يجحدون نبوّتك من قومك اى شئ اكبر شهادة يعني اعظم شهادة فان هم اجابوك والا (قل) انت يا محمد (الله شهيد بيني وبينكم) قال مجاهد امر محمد صلى الله عليه وسلم ان يسأل قريشا اى شئ اكبر شهادة ثم امر ان يخبرهم فيقول الله شهيد بيني وبينكم يعني يشهد لي بالحق وعليكم بالباطل الذى تقولونه والحاصل انهم طلبوا شاهدا مقبول القول يشهد له بالنبوّة فبين الله تعالى بهذه الآية ان اكبر الاشياء شهادة هو الله تعالى ثم بين انه يشهد له بالنبوّة وهو المراد بقوله (واوحى الىّ هذا القرآن لانذركم به) يعني ان الله عز وجل يشهد لي بالنبوّة لانه اوحى الى هذا القرآن وهو معجزة لانكم انتم الفصحاء البلغاء واصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته فكان معجزا واذا كان معجزا كان نزوله على شهادة من الله بأنى رسوله وهو المراد بقوله لانذركم به يعني اوحى الى هذا القرآن لاخوّفكم به واحذركم مخالفة امر الله عز وجل (ومن بلغ) يعني وانذر من بلغه القرآن ممن يأتي بعدى الى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الامم فكل من بلغ اليه القرآن وسمعه فالنبي صلى الله عليه وسلم نذير له قال محمد بن كعب القرظي من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه وقال انس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم الى الله عز وجل (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبي صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار * شرح ما يتعلق بهذا الحديث فيه الامر بابلاغ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم الى من بعده من قرآن وسنة وقوله وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج الحرج الضيق والاثم ومعنى الحديث انه مهما قلتم عن بني اسرائيل فانهم كانوا في حال اكثر مما قلتم واوسع وليس هذا فيه اباحة الكذب والاخبار عن بني اسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض البلاغ وان لم يتحقق ذلك بنقل لانه امر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نضر الله امرأ سمع منا شيأ فبلغه كما سمعه فرب مبلغ اوعى له من سامع اخرجه الترمذي وله عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نضر الله امرأ سمع حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه الى من هو افقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه عن ابن عباس قال تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم اخرجه ابوداود موقوفا وقوله تعالى (ائنكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوّتك واتخذوا آلهة غيرى انكم ايها المشركون لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى يعني الاصنام التى كانوا يعبدونها وانما قال اخرى لان الجمع يلحقه التأنيث كما قال تعالى ولله الاسماء الحسنى فما بال القرون الاولى ولم يقل الاول ولا الاولين (قل لا اشهد) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا اشهد بما تشهدون به ان مع الله آلهة اخرى بل اجحد ذلك وانكره (قل انما هو اله واحد) يعني قل لهم انما الله اله واحد ومعبود واحد لا شريك له وبذلك اشهد (وانني برئ مما تشركون) يعني وانا برئ من كل شئ تعبدونه سوى الله وفي هذه الآية دليل على اثبات التوحيد لله عز وجل وابطال كل

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) باثبات وجود غيره (او كذب) بصفاته باظهار صفات نفسه فاشرك به وغاية الظلم الشرك بالله (انه لا يفلح الظالمون) لاحتجابهم بما وضعوه في موضع ذات الله وصفاته (ويوم نحشرهم جميعا) في عين جمع الذات (ثم نقول للذين اشركوا) باثبات الغير (اين شركائى الذين كنتم تزعمون) لفناء الكل في التجلي الذاتى (ثم لم تكن فتنتهم) عند تجلية الحال وبروز الكل للملك القهار نهاية شركهم وعاقبته (الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) لامتناع وجود شئ نشركه بالله (انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل) بافتراء الوجود والصفات لها واوضاع (عنهم ما كانوا يفترون ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا

معبود سواه لان كلمة انما تفيد الحصر ولفظة الواحد صريح فى التوحيد ونفى الشريك فثبت بذلك ايجاب التوحيد وسلب كل شريك والتبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى قال العلماء يستحب لكل من اسلم ان يأتى بالشهادتين ويبرأ من كل دين خالف الاسلام لقوله تعالى وانى برئ مما تشركون ※ قوله عزوجل (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم) المراد بالذين اوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان كفار مكة لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم انا سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا انه ليس لك عندهم ذكر وانكروا معرفته بين الله عزوجل ان شهادته له كافية على صحة نبوته وبين فى هذه الآية انهم يعرفونه وانهم كذبوا فى قولهم انهم لا يعرفونه وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة واسلم عبدالله بن سلام قال له عمر بن الخطاب ان الله عزوجل انزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمكة الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم فكيف هذه المعرفة فقال عبدالله ابن سلام ياعمر لقد عرفته حين رأيته كما اعرف ابنى ولانا اشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم منى بابنى فقال عمر وكيف ذاك قال اشهد انه رسول الله حقا ولا ادرى مايصنع النساء ※ وقوله تعالى (الذين خسروا انفسهم) يعنى اهلكوا انفسهم وغبنوها واوبقوها فى نار جهنم بانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى الذين خسروا انفسهم قولان احدهما انه صفة للذين الاولى ويكون المقصود من ذلك وعيد المعاندين الذين يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم ويجحدون نبوته وهم كفار اهل الكتابين (فهم لا يؤمنون) يعنى به والقول الثانى انه كلام مبتدا ولا تعلق له بالاول وهم كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا فى معنى الخسار وجهين احدهما انه الهلاك الدائم الذى حصل لهم بسبب كفرهم وانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والوجه الثانى انه جعل لكل واحد من بنى آدم منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار فاذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التى فى الجنة وجعل للكفار منازل المؤمنين التى فى النار فذلك هو الخسران ※ قوله تعالى (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى ومن اشد عنادا واخطأ فعلا واعظم كفرا ممن اختلق على الله كذبا فزعم ان له شريكا من خلقه والها يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الاصنام اوادعى ان له صاحبة وولدا كما قالت النصارى (اوكذب بآياته) يعنى كذب بحجته واعلام ادلته التى اعطاها رسله كما كذبت اليهود بمعجزات الانبياء وقيل معناه اوكذب بآيات القرآن الذى انزله على محمد صلى الله عليه وسلم (انه لا يفلح الظالمون) يعنى انه لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل (ويوم نحشرهم جميعا) اى اذكر يوم نحشر العابدين والمعبودين وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين اشركوا اين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) يعنى انها تشفع لكم عند ربكم ※ قوله عزوجل (ثم لم تكن فتنتهم) يعنى قولهم وجوابهم وقال ابن عباس معذرتهم والفتنة التجربة فلما كان سؤالهم تجربة لاظهار مافى قلوبهم قيل له فتنة قال الزجاج فى قوله ثم لم تكن فتنتهم معنى لطيف وذلك ان الرجل يفتتن بمحبوب ثم تصيبه فيه محنة فيتبرأ من محبوبه فيقال لم تكن فتنته الا بذلك المحبوب فكذلك الكفار فتنوا بمحبة الاصنام ثم لما رأوا العذاب تبرؤا منها يقول الله تبارك وتعالى ثم لم تكن فتنتهم ومحبتهم للاصنام الا ان تبرؤا منها ※ وهو قوله تعالى (الا ان قالوا والله ربنا ماكنا مشركين) وذلك

الا اساطير الاولين وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا انفسهم ومايشعرون) فلم يجدوه شيأ بل وجدوه لا شيأ سوى المفترى او كذبوا على انفسهم بنفى الشرك عنها مع رسوخ ذلك الاعتقاد فيها (ولو ترى اذ وقفوا على النار) نار الحرمان والتعذب بهيآت نفوسهم المظلمة واستيلاء صور المفتريات عليهم فى العذاب (فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) من تجليات صفاته (ونكون من المؤمنين) الموحدين لكان مالا يدخل تحت الوصف (بل بدا) ظهر (لهم ماكانوا يخفون من قبل) من العقائد الفاسدة والصفات المهلكة والهيآت المظلمة ببروزهم لله وانقلاب باطنهم ظاهرا فتعذبوا به (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) لرسوخ تلك الاعتقادات والملكات فيهم (وانهم لكاذبون) فى الدنيا والآخرة لكون الكذب ملكة راسخة فيهم (وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين ولو ترى اذ وقفوا على ربهم أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم

اذا شاهدوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى لاهل التوحيد فيقول بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا نجو مع اهل التوحيد فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم على افواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر * قال الله تعالى (انظر كيف كذبوا على انفسهم) يعنى انظر يا محمد بعين البصيرة والتأمل الى حال هؤلاء المشركين كيف كذبوا على انفسهم يعنى اعتذارهم بالباطل وتبرؤهم من الاصنام والشرك الذى كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه فى دار الدنيا وذلك لا ينفعهم وهو قوله (وضل عنهم) يعنى زال عنهم وذهب (ما كانوا يفترون) يعنى ما كانوا يكذبون وهو قولهم ان الاصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله فى ذلك اليوم * قوله تعالى (ومنهم من يستمع اليك) الآية قال الكلبى اجتمع ابو سفيان صخر بن حرب وابو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعتبه وشيبة ابنا ربيعة وامية وابى ابنا خلف والحرث بن عامر يستمعون القرآن فقالوا للنضر يا اباقتيبة ما يقول محمد قال ما ادرى ما يقول الا انى اراه يحرك لسانه ويقول اساطير الاولين مثل ما كنت احدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية واخبارها فقال ابو سفيان انى لأرى بعض ما يقول حقا فقال ابو جهل كلا لا تقر بشئ من هذا وفى رواية للموت اهون علينا من هذا فانزل الله تعالى ومنهم من يستمع اليك يعنى الى كلامك وقراءتك يا محمد (وجعلنا على قلوبهم اكنة) يعنى اغطية جمع كنان (ان يفقهوه) يعنى لئلا يفقهوه او كراهية ان يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) يعنى وجعلنا فى آذانهم صمما وثقلا وفى هذا دليل على ان الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى والايمان فتقبله ويجعل بعضها فى اكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) يعنى كل معجزة من المعجزات الدالة على صدقك لا يؤمنوا بها يعنى لا يصدقوا بها ولا يقروا انها دالة على صدقك (حتى اذا جاؤك يجادلونك) يعنى انهم اذا رأوا الآيات واستمعوا القرآن انما جاؤا ليجادلوك ويخاصموك لا ليؤمنوا بها (يقول الذين كفروا ان هذا) اى ما هذا القرآن (الا اساطير الاولين) يعنى احاديث الاولين من الامم الماضية واخبارهم واقاصيصهم وما سطروا يعنى وما كتبوا والاساطير جمع اسطورة واسطارة وقيل واحدها سطر واسطار جمع واساطير جمع الجمع فعلى هذا لو قال قائل لم عابوا القرآن وجعلوه اساطير الاولين وقد سطر الاولون فى كتبهم الحكم والعلوم النافعة وما لا يعاب قائله اجيب عنه بانهم انما نسبوا القرآن الى اساطير الاولين بمعنى انه ليس بوحى من الله تعالى وانما هو اخبار مجردة كما تروى اخبار الاولين وقيل فى معنى اساطير الاولين انها الترهات وهى عند العرب طرق غامضة ومسالك وعرة مشكلة يقول قائلهم اخذنا فى الترهات بمعنى عدلنا عن الطريق الواضح الى الطريق المشكل الذى لا يعرف فجعلت الترهات مثلا لما لا يعرف ولا يتضح من الامور المشكلة الغامضة التى لا اصل لها * قوله عز وجل (وهم ينهون عنه) يعنى ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم (وينأون عنه) يعنى ويتباعدون عنه بانفسهم نزلت فى كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن الاجتماع به وينهونهم عن استماع القرآن وكانوا هم كذلك وقال ابن عباس نزلت فى ابى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى المشركين عن اذى النبى صلى الله عليه وسلم ويمنعه منهم وينأى هو بنفسه عن الايمان به يعنى يبعد حتى

تكفرون) فى القيامة الكبرى وهو تصوير حالهم فى الاحتجاب والبعد والالم يكن ثم قول ولا جواب لحرمانهم عن الحضور والشهود وان كانوا فى عين الجمع المطلق واعلم ان الوقف على الشئ غير الوقوف معه فان الوقوف مع الشئ يكون طوعا ورغبة والوقف على الشئ لا يكون الا كرها ونفرة فمن وقف مع الله بالتوحيد كمن قال وقف الهوى من حيث انت فليس لى * متأخر عنه ولا متقدم لا يوقف للحساب بل هو من اهل الفوز الاكبر الذين قال فيهم واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شئ ويثاب بأنواع النعيم فى الجنان كلها ومن وقف مع الغير بالشرك وقف على الرب وعذب بجميع انواع العذاب فى مراتب السير ان كلها لكون حجابه اغلظ وكفره اعظم ومن وقف مع الناسوت بمحبة اللذات والشهوات ولبث فى حجاب الآثار وقف على الملكوت وعذب بنيران الحرمان عن المراد وسلط عليه زبانية الهيآت المظلمة وقرن بشياطين الاهواء

روی انه اجتمع اليه رؤس المشركين وقالوا له خذ شابا من اصبحنا وجها وادفع الينا محمدا فقال ماانصفتمونی ادفع اليكم ابنی محمدا لتقتلوه واربی لكم ابنكم وروی ان النبی صلی الله عليه وسلم دعا اباطالب الی الايمان فقال لولا تعيرنی قريش لاقررت بها عينك ولكن اذب عنك ماحييت وقال فی ذلك ابياتا

والله لن يصلوا اليك بجمعهم * حتی اوسد فی التراب دفينا
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة * وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنی وعرفت انك ناصحی * ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد علمت بانه * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة او حذار مسبة * لوجدتنی سمحا بذاك مبينا

* وقوله تعالی (وان يهلكون الا انفسهم) يعنی لا يرجع وبال كفرهم وفعلهم الا عليهم (ومايشعرون) يعنی بذلك قوله تعالی (ولو تری اذ وقفوا علی النار) يعنی فی النار فوضع علی موضع فی كقوله علی ملك سليمان ای فی ملك سليمان وقيل معناه اذ عرضوا علی النار وجواب لو محذوف والمعنی ولو تری الكفار الذين ينهون عنك وينأون عنك يامحمد فی تلك الحالة لرايت امرا عجيبا وموقفا فظيعا (فقالوا) يعنی الكفار (ياليتنا نرد) يعنی الی الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) تمنوا ان يردوا الی الدنيا مرة اخری حتی يؤمنوا ولا يكذبوا بآيات ربهم فرد الله عليهم ذلك فقال تعالی (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) يعنی ليس الامر كما قالوا لو ردوا الی الدنيا لآمنوا بل ظهر لهم ما كانوا يسرون فی الدنيا من الكفر والمعاصی وقيل ظهر لهم ما كانوا يخفون من قولهم والله ربنا ما كنا مشركين اخفوا شركهم وكتموه فاظهره الله عليهم حين شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا من شركهم وقيل ظهر لهم مااخفوا من الكفر فعلی هذا تكون الآية فی المنافقين (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) يعنی فی قولهم لو رددنا الی الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (وقالوا ان هی الا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين) وهذا خبر عن حال منكری البعث وذلك ان النبی صلی الله عليه وسلم لما اخبر الكفار عن احوال القيامة واهوالها وما اعدالله فی الآخرة من الثواب للمؤمنين المطيعين وما اعدالله من العقاب للكفار والعاصين قالوا يعنی الكفار ان هی ای ما هی الا حياتنا الدنيا ای ليس لنا غير هذه الدنيا التی نحن فيها ومانحن بمبعوثين يعنی بعد الموت وقال عبدالرحمن بن زيد بن اسلم هذا خبر من الله عن هؤلاء الكفار الذين وقفوا علی النار انهم لو ردوا الی الدنيا لقالوا ان هی الا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين * قوله عزوجل (ولو تری اذ وقفوا علی ربهم) يعنی علی حكم ربهم وقضائه ومسئلته وقال مقاتل عرضوا علی ربهم (قال اليس هذا بالحق) ای يقول الله يوم القيامة اليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذی كنتم تنكرونه فی الدنيا وتكذبون به وتقولون لا بعث ولا نشور حقا (قالوا بلی وربنا) يعنی انهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه فاجابوا وقالوا بلی والله انه لحق وقيل تقول لهم خزنة النار بامر الله اليس هذا بالحق يعنی البعث حقا فاجابوا بقولهم بلی وربنا قال ابن عباس للقيامة مواقف ففی موقف ينكرون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وفی موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه فی الدنيا (قال فذوقوا العذاب) ای يقول الله لهم ذلك

(اوالخزنة)

المردية ومن وقف مع الافعال وخرج عن حجاب الآثار وقف علی الجبروت وعذب بنار الطمع والرجاء ورد الی مقام الملكوت ومن وقف مع الصفات وخرج عن حجاب الافعال وقف علی الذات وعذب بنار الشوق فی الهجران وان كان من أهل الرضا وهذا الموقف ليس هو الموقف علی الرب فان الموقوف علی الذات يعرف ربه الموصوف بصفات اللطف كالرحيم والرؤف والكريم دون الموقوف علی الرب فهو حجاب الانية كما ان الواقف مع الافعال فی حجاب أوصافه والواقف مع الناسوت فی حجاب افعاله التی هی من جملة الآثار فالمشرك موقوف فی المواقف الاربعة أولا علی الرب فيحجب بالبعد والطرد كما قال اخسؤا فيها ولا تكلمون وقال وذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ثم علی الجبروت ويطرد بالسخط والقهر كما قال ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ثم علی الملكوت ويزجر بالغضب واللعن كما قيل ادخلوا ابواب جهنم ثم علی النار فيعذب بأنواع النيران أبدا كما قال علی لسان مالك انكم ماكثون فيكون

اوالخزنة تقول لهم ذلك بامر الله تعالى وانما خص لفظ الذوق لانهم في كل حال يجدون الم العذاب وجدان الذائق في شدة الاحساس (بما كنتم تكفرن) يعنى هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت ❊ قوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعنى خسروا انفسهم بسبب تكذيبهم بالمصير الى الله تعالى وبالبعث بعد الموت وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم وحصول العذاب الاليم في دركات الجحيم (حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة) يعنى جاءتهم القيامة فجاة وسميت القيامة ساعة لانها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها احد الا الله تبارك وتعالى وقيل سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لان حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة او اقل من ذلك (قالوا) يعنى منكرى البعث وهم كفار قريش ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد (ياحسرتنا) يعنى ياندامتنا والحسرة التلهف على الشئ الفائت وذكرت على وجه النداء للمبالغة والمراد تنبيه المخاطبين على ماوقع بهم من الحسرة (على ما فرطنا) يعنى قصرنا (فيها) يعنى في الدنيا لانها موضع التفريط في الاعمال الصالحة والمعنى ياحسرتنا على الاعمال الصالحة التى فرطنا فيها في دار الدنيا وقال محمد بن جرير الطبرى الهاء والالف في قوله فيها تعود الى الصفقة ولكن اكتفى بدلالة قوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله عليها من ذكرها اذ كان معلوما ان الخسران لا يكون الا في صفقة بيع قد جرى ومعنى الآية قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم الايمان الذى يستوجبون به رضوان الله وجنته بالكفر الذى يستوجبون به سخط الله وعقوبته وهم لا يشعرون بذلك حتى تقوم الساعة فاذا جاءتهم الساعة بغتة وراوا مالحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وروى الطبرى بسنده عن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم في قوله ياحسرتنا قال يرى اهل النار منازلهم في الجنة فيقولون ياحسرتنا وقوله تعالى (وهم يحملون اوزارهم) يعنى اثقالهم (على ظهورهم) والاوزار الخطايا والذنوب واصل الوزر الثقل والحمل يقال وزرته اذا حملته وانما قيل للذنوب اوزار لانها تثقل ظهر من يحملها قال قتادة والسدى ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله احسن شئ صورة واطيبه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول انا عملك الصالح فاركبنى فقد طالما ركبتك في الدنيا فذلك قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا يعنى ركبانا واما الكافر فيستقبله اقبح شئ صورة وانتنه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول انا عملك الخبيث طالما ركبتنى في الدنيا فانا اليوم اركبك فذلك معنى قوله وهم يحملون اوزارهم على ظهورهم وقال عمرو بن هانئ يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح كلما رأى هول صورته وقبحه زاده خوفا فيقول له بئس الجليس انت فيقول انا عملك طالما ركبتنى فلاركبنك اليوم حتى اخزيك على رؤس الخلائق فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدى ربه تعالى فذلك قوله تعالى وهم يحملون اوزارهم على ظهورهم وقال الزجاج الثقل كما يذكر في الوزن فقد يذكر في الحال والصفة يقال ثقل على كلام فلان بمعنى كرهته فالمعنى انهم يقاسون من الم عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل ذلك عليهم فعلى هذا القول يكون قوله وهم يحملون اوزارهم على ظهورهم مجازا عما يقاسونه من شدة العذاب وقيل في معنى الآية اوزارهم لا تزايلهم كما تقول شخصه نصب عينى اى ذكره ملازم لى (الا ساء ما يزرون) يعنى بئس الشئ شيأ يحملونه وقال ابن عباس بئس الحمل حملوا ❊ قوله عز وجل (وما الحياة الدنيا

وقفه على النار متأخرا عن وقفه على الرب معلولا منه كما قال ثم اليناس جعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون واما الواقف مع الناسوت فيقف للحساب على الملكوت ثم على النار وقد ينجى لعدم السخط وقد لا ينجى لوجوده والواقف مع الافعال لا يوقف على النار اصلا بل يحاسب ويدخل الجنة واما الواقف مع الصفات فهو من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه والله أعلم بحقائق الامور (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) المحجوبون المكذبون بلقاء الحق (حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها) القيامة الصغرى ندموا على تفريطهم بها (وهم يحملون اوزارهم) من اعباء التعلقات وافعال محبة الجسمانيات ووبال السيئات وآثام هيآت الحسيات (على ظهورهم) اى ارتكبتهم واستولت عليهم للرسوخ في نفوسهم فحجبتهم وعذبتهم وثبطتهم عما ارادوا (الا ساء ما يزرون وما الحيوة الدنيا) اى الحياة الحسية لان المحسوس ادنى الى الخلق من المعقول (الا لعب ولهو)

الالعب ولهو) اى باطل وغرور لابقاء لها وهذا فيه رد على منكرى البعث فى قولهم ان هى الاحياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين فقال الله رداعليهم ومكذبالهم وماالحياة الدنيا الالعب ولهو وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن اوالكافر قولان احدهما ان المرادبها حياة الكافر لان المؤمن لا يزداد بحياته فى الدنيا الاخيرا لانه يحصل فى ايام حياته من الاعمال الصالحة والطاعة مايكون سببا لحصول السعادة فى الآخرة واما الكافر فان كل حياته فى الدنيا وبال عليه ٭ قال ابن عباس يريد حياة اهل الشرك والنفاق والقول الثانى ان هذا عام فى حياة المؤمن والكافر لان الانسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لان الذى كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لابقاء له فبان بهذا التقرير ان المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر وانه عام فيهما وانماشبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشئ الذى يلعب به وقيل معناه ان امر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فاما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وان كان وقوعه فى الدنيا وقيل معناه وما اهل الحياة الدنيا الا اهل لعب ولهو لانه لايجدى شيأ ولاشتغالهم عما امروا به نسبوا الى اللعب واللهو وقوله تعالى (وللدار الآخرة) يعنى الجنة واللام فيه لام القسم تقديره والله لدار الآخرة (خير) يعنى من الدنيا وافضل لان الدنيا سريعة الزوال والانقطاع (للذين يتقون) يعنى الشرك وقيل يتقون اللعب واللهو (افلا تعقلون) ان الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها ٭ قوله تعالى (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون) يعنى قد نعلم يامحمد انه ليحزنك الذى يقوله المشركون لك قال السدى التقى الاخنس ابن شريق وابوجهل بن هشام فقال الاخنس لابى جهل يااباالحكم اخبرنى عن محمد اصادق هو ام كاذب فانه ليس هنا احد يسمع كلامك غيرى فقال ابوجهل والله ان محمدا لصادق وما كذب محمد قط ولكن اذاذهب بنوقصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فاذا يكون لسائر قريش فانزل الله هذه الآية وقال ناجية بن كعب قال ابوجهل للنبى صلى الله عليه وسلم مانتهمك ولانكذبك ولكنانكذب الذى جئت به فانزل الله هذه الآية عن على بن ابى طالب ان اباجهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لانكذبك ولكن نكذب بما جئت فانزل الله فيهم فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون اخرجه الترمذى من طريقين وقال فى احدهما وهذا اصح فى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية عما يواجهه به قومه لانهم كانوا يعتقدون صدقه وانه ليس بكذاب وانما حملهم على تكذيبه فى الظاهر الحسد والظلم (فانهم لايكذبونك) يعنى انهم لايكذبونك فى السر لانهم قدعرفوا انك صادق (ولكن الظالمين) يعنى الكافرين (بآيات الله يجحدون) يعنى فى العلانية وذلك انهم جحدوا القرآن بعد معرفة صدق الذى انزل عليه لعنادهم وكفرهم كما قال تعالى فى حق غيرهم وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا ٭ وقيل ظاهر الآية يدل على انهم لم يكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وانما جحدوا آيات الله وهى القرآن الدال على صدقه فعلى هذا يكون المعنى فانهم لايكذبونك لانهم قدعرفوا صدقك وانما جحدوا صحة نبوتك ورسالتك ٭ قوله عزوجل (ولقد كذبت رسل من قبلك) يعنى ولقد كذبت الامم الخالية رسلهم كما كذبك قومك (فصبروا على ماكذبوا واوذوا) يعنى ان الرسل عليهم السلام صبروا على تكذيب

اى الا شئ لا اصل له ولاحقيقة سريع الفناء والانقضاء (وللدار الآخرة) اى عالم الروحانيات (خير للذين يتقون) يتجردون عن ملابس الصفات البشرية واللذات البدنية (افلا تعقلون) حتى تختاروا الاشرف الاطيب على الاخس الادون الفانى (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون) عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظهور نفسه بصفة الحزن (لايكذبونك ولكن الظالمين بايات الله يجحدون) اى ليس انكارهم تكذيبك لانك لست فى هذه الدعوة قائما بنفسك ولاهذا الكلام صفة لك بل تدعوهم بالله وصفاته وهذه عادة قديمة (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا) بالله سلاه بالله بعدما اتاه لئلا يبقى فى التلوين ولاتأسف بعد ذهابه فيقع فى القبض بل يطمئن قلبه ولهذا عقبه بقوله (ولامبدل لكلمات الله) اى صفات الله التى يتجلى بها لعباده ولا تغير ولاتتبدل بانكار المنكرين ولايمكنهم تبديلها ونفى عنه القدره وعجزه بقوله (ولقد جاءك من

قومهم اياهم وصبروا على اذاهم فاصبر انت يامحمد على تكذيب قومك واذاهم لك كما صبر من كان قبلك من الرسل وهذا فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وازالة حزنه على تكذيب قومه له واذاهم اياه (حتى اتاهم نصرنا) يعني باهلاك من كذبهم (ولامبدل لكلمات الله) يعني ولاناقض لما حكم الله به من اهلاك المكذبين ونصر المرسلين كما قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقال الله تعالى كتب الله لاغلبن انا ورسلي ولاخلف فيما وعدالله به ❊ وقوله تعالى (ولقد جاءك من نبا المرسلين) يعني ولقد انزلت عليك في القرآن من أخبار المرسلين مافيه تسلية لك وتسكين لقلبك وقال الاخفش من هنا صلة كما تقول اصابنا من مطر وقال غيره بل هي للتبعيض لان الواصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصص بعض الانبياء واخبارهم كما قال تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ❊ قوله تعالى (وان كان كبر عليك اعراضهم) ذكر ابن الجوزي في سبب نزول هذه الآية ان الحرث بن عامر اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش فقال ائتنا بآية كما كانت الانبياء تأتي قومها بالآيات فان فعلت آمنا بك فنزلت هذه الآية رواه ابوصالح عن ابن عباس ومعنى الآية وان كان عظم عليك يامحمد اعراض هؤلاء المشركين عنك وعن تصديقك والايمان بك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على ايمان قومه اشد الحرص وكان اذا سألوه آية أحب ان يريهم الله ذلك طمعا في ايمانهم فقال الله عزوجل (فان استطعت ان تبتغي) يعني تطلب وتتخذ (نفقا في الارض) يعني سربا في الارض والنفق سرب في الارض تخلص منه الى مكان آخر (اوسلما في السماء) يعني اوتتخذ مصعدا الى السماء والسلم المصعد وهو مشتق من السلامة (فتأتيهم بآية) يعني بالآية التي سألوا عنها ومعنى الآية وان كان كبر وعظم عليك اعراض قومك عن الايمان بك فان قدرت ان تذهب في الارض اوتصعد الى السماء فتأتيهم بآية تدلهم على صدقك فافعل وانما حسن حذف جواب الشرط لانه معلوم عند السامع والمقصود من هذا ان يقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعه عن ايمانهم ولايتأذى بسبب اعراضهم عنه وعن الايمان به ويدل عليه قوله تعالى (ولوشاء الله لجمعهم على الهدى) اخبر الله عزوجل نبيه صلى الله عليه وسلم انهم انما تركوا الايمان واعرضوا عنه واقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذ قضائه فيهم وانه لوشاء لجمعهم على الهدى (فلاتكونن من الجاهلين) يعني بان لوشاء الله لجمعهم على الهدى وانه يؤمن بك بعضهم دون بعض وقيل معناه لايشتد تحسرك على تكذيبهم اياك ولاتجزع من اعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لاصبر لهم وانما نهاه عن هذه الحالة وغلظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة ❊ قوله عزوجل (انما يستجيب الذين يسمعون) يعني المؤمنين الذين فتح الله اسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله (والموتى) يعني الكفار الذين لايسمعون ولايستجيبون (يبعثهم الله) يعني يوم القيامة (ثم اليه يرجعون) فيجزيهم باعمالهم (وقالوا) يعني رؤساء كفار قريش (لولا) يعني هلا (نزل عليه آية من ربه) يعني الملك

نبا المرسلين وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض اوسلما في السماء فتأتيهم بآية ولوشاء الله لجمعهم على الهدى) تشلا نظهر نفسه بصفاتها (فلا تكونن من الجاهلين) الذين لايعلمون [illegible] حكمة تفاوت الاستعدادات فتأسف على احتجاب من احتجب فان المشيئة الآلهية اقتضت هداية بعض وحرمان بعض لحكمة ترتب النظام وظهور الكمالات الظاهرة والباطنة فلا يستجيب الا من فتح الله سمع قلبه بالهداية الاصلية ووهب له الحياة الحقيقية بصفات الاستعداد ونور الفطرة لاموتى الجهل الذين ماتت غريزتهم بالجهل المركب اوبالحجب الجبلية اولم يكن لهم استعداد بحسب الفطرة فانهم لايمكنهم السماع بل (انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) بالاعادة في النشأة الثانية في عين الجمع المطلق للجزاء اوالمكافاة مع احتجابهم وقد يمكن رفع الحجب في الآخرة للفريق الثاني دون الباقين (وقالوا

ليشهد لمحمد بالنبوة وقيل الآية المعجزة الباهرة كمثل معجزات الانبياء (قل) يعني قل لهم يامحمد (ان الله قادر على ان ينزل آية) يعني انه تعالى قادر على ايجاد ماطلبوه وانزال مااقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات (ولكن اكثرهم لايعلمون) يعني ماذا عليهم في انزالها من العذاب ان لم يؤمنوا بها وقيل معناه انهم لايعلمون ان الله قادر على انزال الآيات وقيل انهم لايعلمون وجه المصلحة في انزالها * قوله تعالى (وما من دابة في الارض ولاطائر يطير بجناحيه الاامم امثالكم) قال العلماء جميع ماخلق الله عزوجل لايخرج من هاتين الحالتين اماان يدب على الارض اويطير في الهواء حتى الحقوا حيوان الماء بالطير لان الحيتان تسبح في الماء كما ان الطير يسبح في الهواء وانما خص مافي الارض بالذكر دون مافي السماء وان كان مافي السماء مخلوقا له لان الاحتجاج بالمشاهد اظهر واولى مما لايشاهد وانما ذكر الجناح في قوله بجناحيه للتوكيد كقولك كتبت بيدي ونظرت بعيني الا امم امثالكم قال مجاهد اي اصناف مصنفة تعرف باسمائها يريد ان كل جنس من الحيوان امة فالطير امة والدواب امة والسباع امة تعرف باسمائها مثل بني آدم يعرفون باسمائهم كما يقال الانس والناس ويدل على ان كل جنس من الدواب امة ماروى عن عبدالله بن مغفل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا ان الكلاب امة من الامم لامرت بقتلها فاقتلوا منها كل اسود بهيم اخرجه ابوداود والترمذي والنسائي * فان قلت ثبت بالآية والحديث ان الدواب والطير امم امثالنا فاوجه هذه المماثلة قلت اختلف العلماء في وجه هذه المماثلة فقيل ان هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبحه وتصلي له كما انكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلون له وقيل انها مخلوقة لله كما انكم مخلوقون لله عزوجل وقيل انها يفهم بعضها عن بعض ويألف بعضها بعضا كما ان جنس الانسان يألف بعضهم بعضا ويفهم بعضهم عن بعض وقيل امثالكم في طلب الرزق وتوقي المهالك ومعرفة الذكر والانثى وقيل امثالكم في الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب حتى يقتص للجماء من القرناء وهو قوله تعالى (مافرطنا في الكتاب من شي) يعني في اللوح المحفوظ لانه يشتمل جميع احوال المخلوقات وقيل ان المراد بالكتاب القرآن يعني ان القرآن مشتمل على جميع الاحوال (ثم الى ربهم يحشرون) يعني الدواب والطير قال ابن عباس حشرها موتها وقال ابوهريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كوني ترابا (م) عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء * قوله عزوجل (والذين كذبوا بآياتنا) يعني بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل كذبوا بحجج الله وادلته على توحيده (صم) يعني عن سماع الحق (وبكم) يعني عن النطق به والمعنى انهم في حال كفرهم وتكذيبهم كمن لايسمع ولايتكلم ولهذا شبه الكفار بالموتى لان الميت لايسمع ولايتكلم (في الظلمات) يعني في ظلمات الكفر حائرين مترددين فيها لايهتدون سبيلا (من يشاالله يضلله) يعني عن الايمان (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) يعني ومن يشأ يجعله الله على دين الاسلام وفي هذا دليل على

(ان)

لولانزل عليه آية من ربه قل ان الله قادر على ان ينزل آية ولكن اكثرهم لايعلمون) نزول الآيات فان ظهور كل صفة من صفاته على كل مظهر من مظاهر الاكوان آية له يعرفها اهل العلم (ومامن دابة في الارض ولاطائر يطير بجناحيه الاامم امثالكم) الى آخره يمكن حمله على المسخ اي امم امثالكم في الاحتجاب والاعتداء وارتكاب الرذائل كاصحاب السبت الذين مسخوا قردة وخنازير (مافرطنا في الكتاب من شيء) ماقصرنا في كتابهم الذي فيه صور اعمالهم وهو صحيفة النفس الفلكية اوصحيفة نيتهم التي ثبتت فيها صور اعمالهم (ثم الى ربهم يحشرون) للجزاء محجوبين في عين الجمع المطلق والظاهر ان المراد انهم امم امثالكم مربوبون بما احتاجوا اليه من معايشهم مكفيون مؤنتهم بتقدير من الله وحكمه ماقصرنا في كتاب اللوح المحفوظ من شيء يصلحهم بل اثبتنا فيه ارزاقهم وآجالهم واعمالهم وكل مااحتاجوا اليه ثم الى ربهم يحشرون

ان الهادى والمضل هوالله تعالى فمن احب هدايته وفقه بفضله واحسانه للايمان به ومن احب ضلالته تركه على كفره وهذا عدل منه لانه تعالى هو الفاعل المختار لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ❋ قوله تعالى (قل اراتيكم) يعنى قل يامحمد لهؤلاء الكفار الذين تركوا عبادة الله عزوجل وعبدوا غيره من الاصنام اخبرونى تقول العرب اراتيك بمعنى اخبرنا بحالك واصله ارايتم والكاف فيه للتأكيد (ان اتاكم عذاب الله) يعنى قبل الموت مثل مانزل بالامم الماضية الكافرة من الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب (اواتتكم الساعة) يعنى القيامة (اغير الله تدعون) يعنى فى كشف العذاب عنكم (ان كنتم صادقين) يعنى دعواكم ومعنى الآية ان الكفار كانوا اذانزل بهم شدة وبلاء رجعوا الى الله بالتضرع والدعاء وتركوا الاصنام فقيل لهم اترجعون الى الله فى حال الشدة والبلاء ولاتعبدونه ولاتطيعونه فى حال اليسر والرخاء (بل اياه تدعون) يعنى بل تدعون الله ولاتدعون غيره فى كشف مانزل بكم (فيكشف ماتدعون اليه ان شاء) يعنى فيكشف الضر الذى من اجله دعوتموه وانما قيد الاجابة بالمشيئة رعاية للمصلحة وان كانت الامور كلها بمشيئة الله تعالى (وتنسون ماتشركون) يعنى وتتركون دعاء الاصنام التى تعبدونها فلاتدعونها لعلمكم انها لاتضر ولاتنفع وقيل معناه انكم فى تركم دعاء الاصنام بمنزلة من قد نسيها وهذا معنى قول الحسن لانه قال وتعرضون عنها اعراض الناسى لها ❋ قوله تعالى (ولقد ارسلنا الى امم من قبلك) فى الآية محذوف والتقدير ولقد ارسلنا الى امم من قبلك يامحمد رسلا فخالفوهم وكفروا وحسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامع (فاخذناهم بالبأساء) يعنى بالفقر الشديد واصله من البؤس وهو الشدة والمكروه وقيل البأساء شدة الجوع (والضراء) يعنى الامراض والاوجاع والزمانة (لعلهم يتضرعون) يعنى يخضعون ويتوبون والتضرع التخشع والتذلل والانقياد وترك التمرد واصله من الضراعة وهى الذلة ومقصود الآية ان الله تعالى اعلم نبيه صلى الله عليه وسلم انه قد ارسل من قبله رسلا الى اقوام بلغوا فى القسوة الى ان اخذوا بالبأساء والضراء وهى الشدة فى النفس والمال فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (فلولا) يعنى فهلا (اذجاءهم بأسنا تضرعوا) معناه نفى التضرع فلم يتضرعوا (ولكن قست قلوبهم) يعنى ولكن غلظت قلوبهم فلم تضرع ولم تخشع بل اقاموا على كفرهم وتكذيبهم رسلهم (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) يعنى من الكفر والتكذيب وتزيين الشيطان اغواؤه بما فى المعصية من اللذة قال ابن عباس يريد زين الشيطان الضلالة التى كانوا عليها فأصروا على معاصى الله عزوجل ❋ قوله عزوجل (فلما نسواماذكروا به) اى تركوا ما وعظوا به وقيل تركوا العمل بما امرتهم به الرسل وانما كان النسيان بمعنى الترك لان التارك للشئ معرضا عنه كانه قدصيره بمنزلة ماقدنسى (فتحنا عليهم ابواب كل شئ) يعنى بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة فى الرزق والعيش ومكان الضراء الصحة والسلامة فى الابدان والاجسام وذلك استدراج منه لهم وقيل فتحنا عليهم ابواب كل شئ من الخير كان مغلقا عنهم (حتى اذا فرحوا بما اوتوا) يعنى فرحوا بما اوتوا من السعة والرخاء والصحة فى الابدان والمعيشة وظنوا ان

لجزاء اعمالهم كما هو مروى فى الحديث من حشر الوحوش وقصاص الاعمال بينهم وكل واحدة منها آية لكم تعرف بها احوالكم وارزاقكم وآجالكم واعمالكم فاعتبروا بها ولاتصرفوا هممكم ومساعيكم فى طلب الرزق واصلاح الحياة الدنيا فتخسروا انفسكم وتضروها وتشقوا بها فى آخرتكم (والذين كذبوا بآياتنا) بتجليات صفاتنا لاحتجابهم بغواشى صفات نفوسهم (صم) بآذان القلوب فلا يسمعون كلام الحق (وبكم فى الظلمات) بالسنتها التى هى العقول فلاينطقون بالحق فى ظلمات صفات نفوسهم وجلابيب ابدانهم وغشاوات طبائعهم كالدواب فكيف يصدقونك وما هداهم الله لذلك بالتوفيق (من يشأ الله يضلله) باسبال حجب جلاله (ومن يشا يجعله على صراط مستقيم) باشراق نور وجهه وسبحات جماله (قل اراتيكم ان اتاكم عذاب الله اواتتكم الساعة اغير الله تدعون ان كنتم صادقين بل اياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه

ان شاءو تنسون ماتشركون ولقد ارسلنا الى امم من قبلك فاخذناهم بالبأساء والضرآء لعلهم يتضرعون فلولا اذجاءهم باسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعلمون فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمدلله رب العالمين قل ارايتم ان اخذالله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون قل ارايتكم ان اتاكم عذاب الله بغتة اوجهرة هل يهلك الا القوم الظالمون ومانرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن واصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولااعلم الغيب ولااقول لكم انى ملك ان اتبع الامايوحى الى قل هل يستوى الاعمى والبصير افلا تتفكرون) اى كل مشرك

ماكان نزل بهم من الشدة لم يكن انتقاما من الله تعالى فانهم لما فتح الله عليهم مافتح من الخير والسعة فرحوا به وظنوا ان ذلك باستحقاقهم وهذا فرح بطر كما فرح قارون بما اوتى من الدنيا (اخذناهم بغتة) يعنى جاءهم عذابنا فجأة من حيث لايشعرون قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة وقال اهل المعانى انما اخذ وافى حال الرخاء والسلامة ليكون اشد لتحسرهم على مافاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف فى ضروب اللذة فاخذناهم فى آمن ماكانوا واعجب ماكانت الدنيا اليهم (فاذاهم مبلسون) اى آيسون من كل خير وقال الفراء المبلس اليائس المنقطع رجاؤه ولذلك يقال لمن يسكت عند انقطاع حجته ولايكون له جواب قد ابلس وقال الزجاج المبلس الشديد الحزن والحسرة وقال ابوعبيدة المبلس النادم الحزين والابلاس هو الاطراق من الحزن والندم روى عقبة بن عامر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذارايت الله تعالى يعطى العبد مايحب وهومقيم على معصيته فانما ذلك استدراج ثم تلا فلما نسوا ماذكروا به الآية ذكره البغوى بغير سند واسنده الطبرى ❊ وقوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) اى آخرهم الذى يدبروه يقال دبر فلان القوم اذا كان آخرهم والمعنى انهم استؤصلوا بالعذاب فلم تبق منهم باقية (والحمدلله رب العالمين) قال الزجاج حمدالله نفسه على ان قطع دابرهم واستأصل شأفتهم ومعنى هذا ان قطع دابرهم نعمة انعم الله بها على الرسل الذين ارسلوا اليهم فكذبوهم فذكر الحمد تعليما للرسل ولمن آمن بهم ليحمدوا الله على كفايته اياهم شرالذين ظلموا وليحمد محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه ربهم اذاهلك المشركين المكذبين وقيل معناه الثناء الكامل والشكر الدائم لله رب العالمين على انعامه على رسله واهل طاعته باظهار حجتهم على من خالفهم واهلاك اعدائهم واستئصالهم بالعذاب ❊ قوله تعالى (قل ارايتم) اى قل يامحمد لهؤلاء المشركين (ان أخذالله سمعكم) يعنى الذى تسمعون به فاصمكم حتى لاتسمعوا شيأ (وابصاركم) يعنى واخذ ابصاركم التى تبصرون بها فاعماكم حتى لاتبصروا شيأ اصلا (وختم على قلوبكم) يعنى حتى لاتفقهوا شيأ اصلا ولاتعرفوا شيأ مما تعرفون من امور الدنيا وانما ذكر هذه الاعضاء الثلاثة لانها اشرف اعضاء الانسان فاذا تعطلت هذه الاعضاء اختل نظام الانسان وفسد امره وبطلت مصالحه فى الدين والدنيا ومقصود هذا الكلام ذكر مايدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره ان القادر على ايجاد هذه الاعضاء واخذها هو الله تعالى المستحق للعبادة لاالاصنام التى تعبدونها وهو قوله تعالى (من اله غير الله يأتيكم به) يعنى يأتيكم بما اخذالله منكم لان الضمير فى به يعود على معنى الفعل ويجوز ان يعود على السمع الذى ذكر اولا ويندرج تحته غيره (انظر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره اى انظر يامحمد (كيف نصرف الآيات) يعنى كيف نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة (ثم هم يصدفون) يعنى يعرضون عنها مكذبين لها (قل ارايتكم ان اتاكم عذاب الله بغتة) يعنى فجأة (اوجهرة) يعنى معاينة ترونه عند نزوله وقال ابن عباس ليلا اونهارا (هل يهلك الا القوم الظالمون) يعنى المشركين لانهم ظلموا انفسهم بالشرك ❊ قوله عزوجل (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) يعنى لمن آمن بالثواب (ومنذرين) يعنى لمن اقام على كفره بالعقاب

(والمعنى)

والمعنى ليس فى ارسالهم ان يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات انما ارسلوا بالبشارة والنذارة (فمن آمن واصلح) يعنى آمن بهم واصلح العمل لله (فلا خوف عليهم) يعنى حين يخاف اهل النار (ولاهم يحزنون) اى اذا حزن غيرهم (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) يعنى يصيبهم العذاب (بما كانوا يفسقون) يعنى بسبب ماكانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة ❊ قوله تعالى (قل لااقول لكم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى قل يامحمد لهؤلاء المشركين لااقول لكم (عندى خزائن الله) نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فامره الله تعالى ان يقول لهم انما بعثت بشيرا ونذيرا ولااقول لكم عندى خزائن الله جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشئ وخزن الشئ احرازه بحيث لاتناله الايدى والمعنى ليس عندى خزائن رزق الله فاعطيكم منها ماتريدون لانهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت رسولا من الله فاطلب منه ان يوسع علينا عيشنا ويغنى فقرنا فاخبر ان ذلك بيدالله لابيدى (ولااعلم الغيب) يعنى فاخبركم بما مضى وما سيقع فى المستقبل وذلك انهم قالوا له اخبرنا بمصالحنا ومضارنا فى المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار فاجابهم بقوله ولااعلم الغيب فاخبركم بما تريدون (ولااقول لكم انى ملك) وذلك انهم قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ويتزوج النساء فاجابهم بقوله ولااقول لكم انى ملك لان الملك يقدر على مالايقدر عليه البشر ويشاهد مالايشاهد فلست اقول شيأ من ذلك ولاادعيه فتنكرون قولى وتجحدون امرى وانما نفى عن نفسه الشريفة هذه الاشياء تواضعا لله تعالى واعترافا له بالعبودية وان لايقترحوا عليه الآيات العظام (ان اتبع الا مايوحى الى) يعنى مااخبركم الابوحى من الله انزله على ومعنى الآية ان النبى صلى الله عليه وسلم اعلمهم انه لايملك خزائن الله التى منها يرزق ويعطى وانه لايعلم الغيب فيخبر بما كان وماسيكون وانه ليس بملك حتى يطلع على مالايطلع عليه البشر انما يتبع مايوحى اليه من ربه عزوجل فما اخبر عنه من غيب يوحى الله اليه وظاهر الآية يدل على ان الرسول صلى الله عليه وسلم ماكان يجتهد فى شئ من الاحكام بل جميع اوامره ونواهيه انما كانت يوحى من الله اليه (قل هل يستوى الاعمى والبصير) يعنى المؤمن والكافر والضال والمهتدى والعالم والجاهل (افلاتتفكرون) يعنى انهما لايستويان ❊ قوله عزوجل (وانذر به) يعنى وخوف بالقرآن والانذار اعلام مع تخويف (الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم) قال ابن عباس يريد المؤمنين لانهم يخافون يوم القيامة ومافيه من شدة الاهوال وقيل معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كل معترف بالبعث من مسلم وكتابى وانما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وان كان انذاره صلى الله عليه وسلم لجميع الخلائق لان الحجة عليهم اوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر وقيل المراد بهم الكفار لانهم لايعتقدون صحته ولذلك قال يخافون ان يحشروا الى ربهم وقيل المراد بالانذار جميع الخلائق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له لانه ليس احد الاوهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه اوكان يشك فيه ولان دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وانذاره لجميع الخلق (ليس لهم من دونه) يعنى من دون الله (ولى) اى قريب ينفعهم (ولاشفيع) يعنى

عند وقوعه فى العذاب اوعند حضور الموت ان فسرنا الساعة بالقيامة الصغرى او رفع الحجاب بالهداية الحقانية الى التوحيد الحقيقى ان فسرناها بالقيامة الكبرى يتبرأ عن حول من اشركه بالله وقوته ويتحقق ان لاحول ولاقوة الابالله ولايدعو الاالله وينسى كل من تمسك به واشركه بالله من الوسائل ولهذا قيل البلاء سوط من سياط الله يسوق عباده اماترى كيف عقب كلامه بمقارنة الاخذ بالبأساء والضراء بارسال الرسل لعل تضاعف اسباب اللطف كقود الانبياء وسوق العذاب يزعجهم عن مقار نفوسهم ويكسر سورتها وشدة شكيمتها فيطعوا ويبرزوا من الحجاب وينقادوا متضرعين عند تجلى صفة القهر وتأثيرها فيهم ثم بين انهم ماتضرعوا لقساوة قلوبهم بكثافة الحجاب وغلبة غش الهوى وحب الدنيا وميل اللذات الجسمانية (وانذر به الذين يخافون) اى انذر بما اوحى اليك المستعدين الذين هم اهل الخوف والرجاء واعرض عن الذين قست قلوبهم

يشفع لهم ثم ان فسرنا الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ان المراد بهم الكفار فلا اشكال فيه لقوله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع وان فسرنا الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ان المراد بهم المؤمنون ففيه اشكال لانه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للمذنبين من امته وكذلك تشفع الملائكة والانبياء والمؤمنون بعضهم لبعض والجواب عن هذا الاشكال ان الشفاعة لا تكون الا باذن الله لقوله عز وجل من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه واذا كانت الشفاعة باذن الله صح قوله ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع يعني حتى يأذن الله لهم في الشفاعة فاذا اذن فيها كان للمؤمنين ولي وشفيع (لعلهم يتقون) يعني مانهيتهم عنه * قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) قال سلمان وخباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية جاء الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري هما من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قاعدا مع صهيب وبلال وعمار وخباب في نفر من ضعفاء المؤمنين فلما راوهم حوله حقروهم فأتوه فقالوا يارسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وارواح جبابهم وكانت عليهم جباب صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها لجالسناك واخذنا عنك فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما انا بطارد المؤمنين قالوا فانا نحب ان تجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحي ان ترانا العرب مع هؤلاء الاعبد فاذا نحن جئناك فاقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعدهم ان شئت قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتابا قال فاتى بالصحيفة ودعا عليا ليكتب قال ونحن قعود في ناحية اذ نزل جبريل عليه السلام بقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الى قوله أليس الله باعلم بالشاكرين فالقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعانا فاتيناه وهو يقول سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فاذا اراد ان يقوم قام وتركنا فانزل الله تبارك وتعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فاذا بلغ الساعة التي يريد ان يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال لنا الحمد لله الذي لم يمتني حتى امرني ان اصبر نفسي مع قوم من امتي معكم المحيا ومعكم الممات وروي عن سعد بن ابي وقاص قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا قال وكنت انا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست اسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشاء الله ان يقع فحدث نفسه فانزل الله عز وجل ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه اخرجه مسلم وقال الكلبي قالوا له يعني اشراف قريش اجعل لنا يوما ولهم يوما قال لا افعل قالوا فاجعل المجلس واحدا واقبل علينا وول ظهرك اليهم فانزل الله هذه الآية وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن ام عبد يعني ابن مسعود لبايعناك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود مر ملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك اهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا انحن تكون تبعا لهؤلاء اطردهم فلعلك ان طردتهم ان نتبعك فنزلت هذه الآية وقال عكرمة جاء عتبة بن ربيعة

فانه لا ينجع فيهم كما قال في اول الكتاب هدى للمتقين (ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) اي يعلمون بصفاء استعدادهم انه لا بد من الرجوع الى الله فيخافون ان يحشر واليه في حال كونهم محجوبين عنه بحجب صفاتهم وافعالهم لا ولي ينصرهم غير الله فينقذهم من ذلة البعد وعذاب الحرمان ولا شفيع لهم فيقربهم منه ويكرمهم لفناء الذوات والقدر كلها في الله وقهره اياهم كما قال يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فيتعظون بما عهم له ويحدث فيهم الرجاء فيشمرون في السلوك بالجد والاجتهاد (لعلهم يتقون) لكي يحذروا حجب افعالهم وصفاتهم وذواتهم ويتجرّدوا عنها بالمحو والفناء في الله ويحتمل ان يكون الولي القلب والشفيع الروح اي لم يصلوا الى مقام القلب الذي هو ولي النفس فينقذها من العذاب وينصرها من الحرمان ولا الى مقام الروح فتشفع لهم بامداد مدد القرب لها واستمدادها من الله وتوسل بينهم وبين الله (ولا تطرد الذين يدعون)

ومطعم بن عدى والحرث بن نوفل فى اشراف بنى عبدمناف من اهل الكفر الى ابى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يااباطالب لو ان ابن اخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانهم عبيدنا وعسفاؤنا كان اعظم فى صدورنا واطوع له عندنا وادنى لاتباعنا اياه وتصديقنا له فأتى ابوطالب النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلموه به فقال عمر بن الخطاب لو فعلت ذلك حتى ننظر ماالذى يريدون والى ماذا يصيرون فانزل الله عزوجل هذه الآية وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم الى قوله اليس الله باعلم بالشاكرين فجاء عمر فاعتذر من مقالته قلت بين هذه الروايات والرواية الاولى التى عن سلمان وخباب بن الارت فرق كثير وبعد عظيم وهو ان اسلام سلمان كان بالمدينة وكان اسلام المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وسورة الانعام مكية والصحيح ماروى عن ابن مسعود والكلبى وعكرمة فى ذلك ويعضده حديث سعد بن ابى وقاص المخرج فى صحيح مسلم من ان المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء يعنى ضعفاء المسلمين والله اعلم واما معنى الآية فقوله ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى ولا تطرد هؤلاء الضعفاء عنك ولاتبعدهم عن مجلسك لاجل ضعفهم وفقرهم ثم وصفهم فقال تعالى الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى قال ابن عباس يعنى يعبدون ربهم بالغداة والعشى يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر وروى عنه ان المراد منه الصلوات الخمس وانما ذكر هذين الوقتين تنبيها على شرفهما ولانهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات ولان الصلاة تشتمل على القراءة والدعاء والذكر فعبر بالدعاء عن الصلاة لهذا المعنى قال مجاهد صليت الصبح مع سعيد بن المسيب فلما سلم الامام ابتدر الناس القاص فقال سعيد بن المسيب مااسرع الناس الى هذا المجلس فقال مجاهد يتأولون قوله تعالى يدعون ربهم بالغداة والعشى قال اوفى هذا انما هو فى الصلاة التى انصرفنا عنها الآن وقال ابن عباس ان ناسا من الفقراء كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال ناس من اشراف الناس نؤمن لك واذا صلينا فأخر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا وقيل المراد منه حقيقة الدعاء والذكر والمعنى انهم كانوا يذكرون ربهم ويدعونه طرفى النهار يريدون وجهه يعنى يطلبون بعبادتهم وطاعتهم وجه الله مخلصين فى عبادتهم له وقال ابن عباس يطلبون ثواب الله تعالى (ماعليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ) يعنى لاتتكلف امرهم ولايتكلفون امرك وقيل ماعليك حساب رزقهم فتملهم وتطردهم ولك ولارزقك عليهم انما الرزاق لجميع الخلق هو الله تعالى فلاتطردهم عنك (فتطردهم فتكون من الظالمين) يعنى بطردهم عنك وعن مجلسك فقوله فتطردهم جواب النفى وهو قوله ماعليك من حسابهم من شئ وقوله فتكون من الظالمين جواب النهى وهو قوله ولاتطرد الذين يدعون ربهم واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا ان النبى صلى الله عليه وسلم لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لاجل الاشراف عاتبه الله على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك يقدح فى العصمة وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين والجواب عن هذا الاحتجاج ان النبى صلى الله عليه وسلم ماطردهم ولاهم بطردهم لاجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وانما كان هذا الهم لمصلحة وهى التلطف بهؤلاء الاشراف فى ادخالهم فى الاسلام فكان ترجيح هذا الجانب اولى وهو اجتهاد منه فاعلمه الله تعالى ان ادناء هؤلاء الفقراء اولى من الهم بطردهم فقربهم منه

اى لاتزجرهم به وهم اهل الوحدة الكاملون الواصلون فان الانذار كما لاينجع فى الذين قست قلوبهم لاينفع فى الذين طاشت قلوبهم فى الله وتلاشت (ربهم بالغداة والعشى) اى يخصونه بالعبادة دائما بحضور القلب وشهود الروح وتوجه السر اليه لايريدون بالعبادة الاذاته بالمحبة الازلية لايجعلون عباداتهم معللة بغرض من توقع ثواب جنة او خوف عقاب او نقمة ولايريدونه بمحبة الصفات فتتغير ارادتهم باختلاف تجلياتها ولايستحلون توسيط ذاته فى مقصد او مطلب بل شاهدوا افناء الوسائط والوسائل فيه ولم يبق فى شهودهم شئ يقع نظرهم عليه حتى ذواتهم (يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شئ) فيمايعملون من شئ اى لاواسطة بينهم وبين ربهم من ملك او نبى فلست من دعوتهم الى طاعة اوالى جهاد اوالى غير ذلك فى شئ لحسابهم على الله اذ علمه ليس الابالله وفى الله (ومامن حسابك عليهم من شئ) اى لايخوضون فى امور دعوتك بنصر واعانة للاسلام ولا بدفع وقع للكفر

وادناهم واما قوله فتطردهم فتكون من الظالمين فان الظلم في اللغة وضع الشئ في غير موضعه فيكون المعنى ان اولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب فلانهم بطردهم عنك فتضع الشئ في غير موضعه فهو من باب ترك الافضل والاولى لا من باب ترك الواجبات والله اعلم *
قوله عز وجل (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) يعني وكذلك ابتلينا الغني بالفقير والفقير بالغني والشريف بالوضيع والوضيع بالشريف فكل احد مبتلى بضده فكان ابتلاء الاغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم الى الاسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول في الاسلام لذلك فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم واما فتنة الفقراء بالاغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم فكان ذلك فتنة لهم (ليقولوا) يعني الاغنياء والشرفاء والرؤساء (اهؤلاء من الله عليهم من بيننا) يعني من على الفقراء والضعفاء بالاسلام ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى فاجابهم بقوله (اليس الله باعلم بالشاكرين) يعني انه تعالى اعلم بخلقه وباحوالهم واعلم بالشاكرين من الكافرين * قوله تعالى (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) قال عكرمة نزلت في الذين نهى الله نبيه عن طردهم فكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا رآهم بدأهم بالسلام وقال عطاء نزلت في ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم بن ابي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والارقم بن ابي الارقم وابي سلمة بن عبد الاسد وقيل ان الآية على اطلاقها في كل مؤمن وقيل لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التي تقدمت في رواية عكرمة وقال ما اردت الا الخير نزلت واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم (كتب ربكم) يعني فرض ربكم وقضى ربكم (على نفسه الرحمة) وهذا يفيد الوجود وسبب هذا انه تعالى يتصرف في عباده كيف يشاء واراد فاوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم لانه اكرم الاكرمين وارحم الراحمين (انه من عمل منكم سوأ بجهالة) قال مجاهد كل من عمل ذنبا او خطيئة فهو بها جاهل واختلفوا في سبب هذا الجهل فقيل لانه جاهل بمقدار ما استحقه من العقاب وما فاته من الثواب وقيل انه وان علم ان عاقبة ذلك السوء والفعل القبيح مذمومة الا انه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل ومن آثر القليل على الكثير فهو جاهل وقيل انه لما فعل فعل الجهال نسب الى الجهل وان لم يكن جاهلا (ثم تاب من بعده) يعني من بعد ارتكابه ذلك السوء ورجع عنه (واصلح) يعني اصلح العمل في المستقبل وقيل اخلص توبته وندم على فعله (فانه غفور) يعني لمن تاب من ذنوبه (رحيم) بعباده قال خالد بن دينار كنا اذا دخلنا على ابي العالية قال واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية عن ابي سعيد الخدري قال جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارئ يقرأ علينا اذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا فلما قام علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت القارئ فسلم ثم قال ماكنتم تصنعون قلنا يارسول الله كان قارئ لنا يقرأ علينا وكنا نستمع الى كتاب الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعل من امتي من امرت ان اصبر نفسي معهم وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بنفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتحلقوا وبرزت وجوههم قال فما رأيت صلى الله عليه وسلم عرف منهم احدا غيري

شغلهم بالله عما سواه ودوام حضورهم كما قال تعالى والذين هم على صلوتهم دائمون لايعنهم شان من امرك ونبوتك (فتطردهم) عما هم عليه من دوام الحضور بانه ضمهم لشغل ديني او مصلحة اوتشوش وقتهم وجمعيتهم (فتكون من الظالمين وكذلك فتنا) اى مثل ذلك الفتن والابتلاء العظيم فتنا (بعضهم ببعض) وهم المحجوبون بالبعض فان المحجوبين لما لم يروا منهم الا صورتهم وسوء حالهم في الظاهر وفقرهم ومسكنتهم ولم يروا قدرهم ومرتبتهم وحسن حالهم في الباطن استحقروهم وازدرتهم اعينهم بالنسبة الى ماهم فيه من المال والجاه والتنعم وخفض العيش فقالوا فيهم (ليقولوا اهؤلاء من الله عليهم من بيننا) بالهداية استخفافا وهم والله الاطيبون عيشا الارفعون حالا ومنزلا الاعظمون قدرا ورتبة عند الله وعند من يعرفهم كما قال نوح عليه السلام ولا اقول للذين تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا مل الخير كل الخير ما آتاهم الله (اليس الله باعلم الشاكرين) الذين يشكرونه بالحقيقة

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابشروا يامعشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل اغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة عام اخرجه ابوداود * وقوله عز وجل (وكذلك نفصل الآيات) يعنى وكما فصلنالك يامحمد فى هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وابطال ماهم عليه من الشرك كذلك نميز ونبين لك ادلة حججنا وبراهيننا على تقرير كل حق ينكره اهل الباطل (ولتستبين) قرئ بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وليظهر لك الحق يامحمد ويتبين لك (سبيل المجرمين) يعنى طريق هؤلاء المجرمين وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه وليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة اذا صاروا الى النار * قوله تعالى (قل) اى قل يامحمد لهؤلاء المشركين (انى نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله) يعنى نهيت ان اعبد الاصنام التى تعبدونها انتم من دون الله وقيل تدعونها عند شدائدكم من دون الله لان الجمادات اخس من ان تعبد اوتدعى وانما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى وهو قوله تعالى (قل لااتبع اهواءكم) يعنى فى عبادة الاصنام وطرد الفقراء (قد ضللت اذا) يعنى اد عبدتها (وما انا من المهتدين) يعنى لو عبدتها (قل) يعنى قل يامحمد لهؤلاء المشركين (انى على بينة من ربى) قال ابن عباس يعنى على يقين من ربى وقيل البينة الدلالة التى تفصل بين الحق والباطل والمعنى انى على بيان وبصيرة فى عبادة ربى (وكذبتم به) يعنى وكذبتم بالبيان الذى جئت به من عند ربى وهو القرآن والمعجزات الباهرات والبراهين الواضحات التى تدل على صحة التوحيد وفساد الشرك (ماعندى ماتستعجلون به) يعنى العذاب وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم وكانوا يستعجلون به استهزاء وكانوا يقولون يامحمد ائتنا بما تعدنا يعنى من نزول العذاب فأمر الله تعالى ولايقدر احد على تقديمه ولاتأخيره وقيل كانوا يستعجلون بالآيات التى طلبوها واقترحوها فاعلم الله ان ذلك عنده ليس عند احد من خلقه وقيل كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى يستعجل بها الذين لايؤمنون بها (ان الحكم الالله) يعنى الحكم الذى يفصل به بين الحق والباطل والثواب للطائع والعقاب للعاصى اى ماالحكم المطلق الاالله ليس معه حكم فهو يفصل بين المختلفين ويقضى بانزال العذاب اذا شاء (يقص الحق) قرئ بالصاد المهملة ومعناه يقول الحق لان كل ما اخبر به فهو حق وقرئ يقض بالضاد المعجمة من القضاء يعنى انه تعالى يقضى القضاء الحق (وهو خير الفاصلين) يعنى وهو خير من بين وفصل وميز بين المحق والمبطل لانه لايقع فى حكمه وقضائه جور ولاحيف على احد من خلقه (قل لوان عندى ماتستعجلون به) يعنى من انزال العذاب والاستعجال المطالبة بالشئ قبل وقته فلذلك كانت العجلة مذمومة والاسراع تقديم الشئ فى وقته فلذلك كانت السرعة محمودة والمعنى قل يامحمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو ان عندى ماتستعجلون به لم امهلكم ساعة ولكن الله حليم ذواناة لايعجل بالعقوبة وقوله تعالى (لقضى الامر بينى وبينكم) يعنى لانفصل مابينى وبينكم ولاتاكم ماتستعجلون به من العذاب (والله اعلم بالظالمين) يعنى انه اعلم بمايستحقون من العذاب والوقت الذى يستحقونه فيه وقيل علم انه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب فلذلك اخره عنهم وقال والله اعلم بالظالمين وباحوالهم * قوله عز وجل (وعنده مفاتح الغيب) المفتاح الذى يفتح به المغلاق جمعه مفاتيح ويقال فيه مفتح

باستعمال نعمة وجودهم وصفاتهم وجوارحهم وما يقوم به من ارزاقهم ومعايشهم يؤمنون بآياتنا) بمحو صفاتهم (فقل سلام عليكم) لتنزهكم عن عيوب صفاتكم وتجردكم عن ملابسها (كتب ربكم على نفسه الرحمة) الزم ذاته ابدال صفاتكم بصفاته رحمة لكم لان فى الله خلفا عن كل مافات (انه من عمل منكم سوا بجهالة) اى ظهر عليه فى تلوينه صفة من صفاته بغيبة وغفلة ثم رجع عن تلوينه من بعد ظهور تلك الصفة وفاء الى الحضور فعرفها وقمعها بالانابة الى الله والتضرع بين يديه والرياضة (ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور) يسترها عنه (رحيم) يرحمه بهبة التمكين ونعمة الاستقامة (وكذلك نفصل الآيات (اى مثل ذلك التبيين الذى بينا لهؤلاء المؤمنين نبين لك صفاتنا (ولتستبين سبيل المجرمين) المحجوبين بصفاتهم الذين يفعلون مايفعلون بها وذلك اجرامهم (قل انى نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله) ماسوى الله من الذين تعبدون بهواكم من مال اونفس اوشهوة

بكسر الميم وجمعه مفاتح والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الاشياء فهى مفتح وجمعه مفاتح فقوله وعنده مفاتح الغيب يحتمل ان يكون المراد منه المفاتيح التى يفتح بها ويحتمل ان يكون المراد منه الخزائن فعلى التفسير الاول فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لان المفاتيح هى التى يتوصل بها الى ما فى الخزائن المستوثق منها بالاغلاق فمن علم كيف يفتح بها ويتوصل الى ما فيها فهو عالم وكذلك ههنا لان الله تعالى لما كان عالما بجميع المعلومات ما غاب منها وما لم يغب عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة وعلى التفسير الثانى يكون المعنى وعنده خزائن الغيب والمراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات ثم اختلفت اقوال المفسرين فى قوله وعنده مفاتح الغيب (لا يعلمها الا هو) فقيل مفاتح الغيب خمس وهى ما روى عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب لا يعلمها الا الله تعالى لا يعلم احد ما يكون فى غد الا الله ولا يعلم احد ما يكون فى الارحام الا الله ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا ولا تدرى نفس باى ارض تموت ولا يدرى احد متى يجئ المطر وفى رواية اخرى لا يعلم احد ما تغيض الارحام الا الله ولا يعلم ما فى غد الا الله ولا يعلم متى يأتى المطر احد الا الله ولا تدرى نفس باى ارض تموت الا الله ولا يعلم متى الساعة الا الله اخرجه البخارى وقال الضحاك ومقاتل مفاتح الغيب خزائن الارض وعلم نزول العذاب وقال عطاء هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب وقيل هو انقضاء الآجال وعلم احوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم اعمالهم وقيل هو علم ما لم يكن بعد ان يكون اذ يكون كيف يكون وما لا يكون ان لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود اوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شئ الا مفاتح الغيب وقال ابن عباس انها خزائن غيب السموات والارض من الاقدار والارزاق (ويعلم ما فى البر والبحر) قال مجاهد البر المفاوز والقفار والبحر القرى والامصار لا يحدث فيها شئ الا وهو يعلمه وقال جمهور المفسرين هو البر والبحر المعروفان لان جميع الارض اما بر واما بحر وفى كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه (وما تسقط من ورقة الا يعلمها) يريد ساقطة وثابتة والمعنى انه يعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقى على الشجر من ذلك ويعلم كم انقلبت ظهرا لبطن الى ان تسقط على الارض (ولا حبة فى ظلمات الارض) قيل هو الحب المعروف يكون فى بطن الارض قبل ان ينبت وقيل هى الحبة التى فى الصخرة التى فى اسفل الارضين (ولا رطب ولا يابس) قال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ما ينبت وما لا ينبت وقيل المراد بالرطب الحى واليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شئ لان جميع الاشياء اما رطبة واما يابسة فان قلت ان جميع هذه الاشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح الغيب فلم افرد هذه الاشياء بالذكر وما فائدة ذلك قلت لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على سبيل الاجمال ذكر من بعد ذلك الاجمال ما يدل على التفصيل فذكر هذه الاشياء المحسوسة ليدل بها على غيرها فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان واصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن ادراكها ثم ذكر بعد ذلك وهو اقل من ذلك وهو مشاهد لكل احد لان الورقة الساقطة والثابتة يراها كل احد لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها الا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو اصغر من الورقة وهى الحبة ثم ذكر بعد ذلك مثالا

ولذة بدنية او غير ذلك فلا (قل لا اتبع اهواءكم قد ضللت اذا وما انا من المهتدين) بعبادتها فأضل اذا بإ حتجابى بها فلا أهتدى الى التوحيد ومعنى الماضى انه تحقق ضلالى على هذا التقدير وما انا من الهدى فى شئ (قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين قل لو ان عندى ما تستعجلون به لقضى الامر بينى وبينكم والله اعلم بالظالمين وعنده مفاتح الغيب) اعلم ان الغيب مراتب اولها غيب الغيوب وهو علم الله المسمى بالعناية الاولى ثم غيب عالم الارواح وهو انتقاش صورة كل وجد وسيوجد من الازل والابد فى العالم الاول العقلى الذى هو روح العالم المسمى بأم الكتاب على وجه كلى وهو القضاء السابق ثم غيب عالم القلوب وهو ذلك الانتقاش بعينه مفصلا تفصيلا علميا كليا وجزئيا فى عالم النفس الكلية التى هى قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ ثم غيب عالم الخيال وهو انتقاش الكائنات باسرها فى النفوس

يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الاشياء وانه لا يخرج شئ منها من علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الامثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير ※ قوله تعالى (الا فى كتاب مبين) فيه قولان احدهما ان الكتاب المبين هو علم الله الذى لا يغير ولا يبدل والثانى ان المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ لان الله كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل ان يخلق السموات والارض وفائدة احصاء الاشياء كلها هذا الكتاب لتقف الملائكة على انفاذ علمه ونبه بذلك على تعظيم الحساب واعلم عباده انه لا يفوته شئ مما يصنعونه لان من اثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب فى كتاب فهو الى اثبات ما فيه ثواب وعقاب اسرع ※ قوله تعالى (وهو الذى يتوفيكم بالليل) يعنى يقبض ارواحكم اذا نمتم بالليل (ويعلم ما جرحتم) ما كسبتم (بالنهار ثم يبعثكم فيه) اى يوقظكم فيه اى فى النهار (ليقضى اجل مسمى) يعنى اجل الحياة الى الممات يريد استيفاء العمر على التمام (ثم اليه مرجعكم) فى الآخرة (ثم ينبئكم) اى يخبركم (بما كنتم تعملون) قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) يعنى وهو العالى عليهم بقدرته لان كل من قهر شيا وغلبه فهو مستعل عليه بالقهر والقدرة فهو كما يقال امر فلان فوق امر فلان يعنى انه اقدر منه واغلب هذا مذهب اهل التأويل فى معنى لفظة فوق فى قوله وهو القاهر فوق عباده واما مذهب السلف فيها فامرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا اطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو القاهر لخلقه وقهر كل شئ بضده فقهر الحياة بالموت والايجاد بالاعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة ※ قوله تعالى (ويرسل عليكم حفظة) يعنى ان من جملة قهره لعباده ارسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون اعمال بنى آدم من الخير والسر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الاقوال والافعال قيل ان مع كل انسان ملكين ملكا عن يمينه وملكا عن شماله فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر عليه لعله يتوب منها فان لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال وفائدة جعل الملائكة موكلين بالانسان انه اذا علم ان له حافظا من الملائكة موكلا به يحفظ عليه اقواله وافعاله فى صحائف تنشر له وتقرأ عليه يوم القيامة على رؤس الاشهاد كان ذلك زاجرا له عن فعل القبيح وترك المعاصى وقيل المراد بقوله ويرسل عليكم حفظة هم الملائكة الذين يحفظون بنى آدم ويحفظون اجسادهم قال قتادة حفظة يحفظون على ابن آدم رزقه واجله وعمله (حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا) يعنى اعوان ملك الموت الموكلين بقبض ارواح البشر فان قلت قال الله تعالى فى آية الله يتوفى الانفس حين موتها وقال فى آية اخرى قل يتوفيكم ملك الموت الذى وكل بكم وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع بين هذه الآيات قلت وجه الجمع بين هذه الآيات ان المتوفى فى الحقيقة هو الله تعالى فاذا حضر اجل العبد امر الله ملك الموت بقبض روحه ولملك الموت اعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فاذا وصلت الى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه فحصل الجمع بين الآيات وقيل المراد من قوله توفته رسلنا ملك الموت وحده وانما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له وقال مجاهد جعلت الارض لملك الموت مثل الطشت يتناول من حيث شاء وجعلت له اعوان ينزعون الانفس ثم يقبضها منهم وقال ايضا ما من اهل بيت شعر ولا مدر الا وملك الموت يطيف بهم كل يوم مرتين

الجزئية الفلكية المنطبعة فى اجرامها معينة مشخصة مقارنة لاوقاتها على ما يقع بعينه وذلك العالم هو المعبر عنه فى الشرع بالسماء الدنيا اذ هو اقرب مراتب الغيوب الى عالم الشهادة لوح القدر الالهى الذى هو تفصيل قضائه وعلم الله وهو العناية الاولى عبارة عن احاطته بالكل بحضور ذاته لكل هذه العوالم التى هى عين ذاته فيعلمها مع جميع تلك الصور التى فيها باعيانها لا بصورة زائدة فهى عين علمها ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض فالمفاتح ان كان جمع مفتح بفتح الميم الذى هو المخزن فمعناه عنده هذه الخزائن المشتملة على جميع الغيوب لحضور ذاته لها (لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين) وان كان جمع مفتح بكسر الميم بمعنى المفتاح فمعناه اما ذلك المعنى بعينه يعنى ابوابها مغلقة ومفاتيحها بيده لا يطلع على ما فيها احد غيره واما ان اسباب اظهارها واخراجها من مكانها

وقيل ان الارواح اذا كثرت عليه يدعوها فتستجيب له * وقوله (وهم لايفرطون) يعنى
الرسل لايقصرون فيما امروا به ولايضيعونه * قوله عزوجل (ثم ردوا الى الله مولاهم
الحق) يعنى ثم رد العباد بالموت الى الله فى الآخرة وانما قال مولاهم الحق لانهم كانوا فى الدنيا
تحت ايدى موال بالباطل والله مولاهم وسيدهم ومالكهم بالحق (الا له الحكم) يعنى
لاحكم الا له (وهو اسرع الحاسبين) يعنى انه تعالى اسرع من حسب لانه لايحتاج
الى فكر وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لايشغله حساب بعضهم عن بعض * قوله تعالى (قل
من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) يعنى يامحمد قل لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام من دون الله
من ذا الذى ينجيكم من ظلمات البر اذا ضللتم فيه وتحيرتم واظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذى ينجيكم
من ظلمات البحر اذا ركبتم فيه فأخطأتم الطريق واظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل ظلمات البر
والبحر مجاز عما فيهما من الشدائد والاهوال وقيل الحمل على الحقيقة اولى فظلمات البر هى ما اجتمع
فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء الى
الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة
والامواج الهائلة فيحصل من ذلك ايضا الخوف الشديد من الوقوع فى الهلاك فالمقصود ان عند
اجتماع هذه الاسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الانسان فيها الا الى الله سبحانه وتعالى لانه
هو القادر على كشف الكروب وازالة الشدائد وهو المراد من قوله (تدعونه تضرعا وخفية)
يعنى فاذا اشتدكم الامر تخلصون له الدعاء تضرعا منكم اليه واستكانة جهرا وخفية يعنى سرا حالا
وحالا (لئن انجيتنا من هذه) يعنى قائلين فى حال الدعاء والتضرع لئن انجيتنا من هذه الظلمات
وخلصتنا من الهلاك (لنكونن من الشاكرين) يعنى لك على هذه النعمة والشكر هو معرفة النعمة
مع القيام بحقها لمن انعم بها (قل الله ينجيكم منها) يعنى من الظلمات والشدائد التى انتم فيها (ومن
كل كرب) يعنى وهو الذى ينجيكم من كل كرب ايضا والكرب هو الغم الشديد الذى يأخذ بالنفس
(ثم انتم تشركون) يريد انهم يقرون بان الذى انجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى ثم انهم
بعد ذلك الاقرار يشركون معه الاصنام التى لاتضر ولاتنفع * قوله عزوجل (قل هو القادر
على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم) اى قل يامحمد لقومك ان الله هو القادر على ان يبعث
عليكم عذابا من فوقكم يعنى الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود
وقوم لوط (او من تحت ارجلكم) يعنى الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون وقال
ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم يعنى ائمة السوء والسلاطين الظلمة او من تحت ارجلكم يعنى
عبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم يعنى من قبل كباركم او من تحت ارجلكم يعنى السفلة
(او يلبسكم شيعا) الشيع جمع شيعة وكل قوم اجتمعوا على امر فهم شيعة واشياع واصله من
التشيع ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضا وقيل الشيعة هم الذين يتقوى بهم الانسان قال الزجاج
فى قوله او يلبسكم شيعا يعنى يخلط امركم خلط اضطراب لاخلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفين
يقاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن عباس قوله او يلبسكم
شيعا يعنى الاهواء المختلفة ويذيق بعضكم بأس بعض يعنى انه يقتل بعضكم بيد بعض وقال مجاهد
يعنى اهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف وقال ابن زيد هو الذى فيه الناس اليوم

الى عالم الشهادة حتى يطلع
عليه الخلق بيد قدرته
وتصرفه محفوظة عنده
لايقدر غيره على انتزاعها
منه حتى يطلع على مافيها
وهى اسماؤه تعالى *
والكتاب المبين هو السماء
الدنيا لتعين هذه الجزئيات
فيها مع عددها وتشخصها
(وهو الذى يتوفاكم بالليل
ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم
يبعثكم فيه) اى فيما جرحتم
من صواب اعمالكم ومكا
سبكم للجزاء (ليقضى
اجل مسمى ثم اليه مرجعكم
ثم ينبئكم بما كنتم تعملون)
هينه للبعث والاحياء (ثم
الى ربكم ترجعون) فى عين
الجمع المطلق فينبئكم باظهار
صور اعمالكم عليكم
وجزائكم بها (وهو القاهر
فوق عباده) بتصرفه
فيهم كما شاء وافنائهم فى عين
الجمع المطلق اذ لاشئ
الا وهو مقهور فيه (ويرسل
عليكم حفظة حتى اذا جاء
أحدكم الموت توفته رسلنا وهم
لايفرطون ثم ردوا الى الله
مولاهم الحق الا له الحكم)
هى قواهم التى ينطبع فيها
كل حال بحسب الرسوخ
وعدمه فيظهر عليهم عند
انسلاخهم عن البدن فيتمثل

من الاختلاف والاهواء وسفك بعضهم دماء بعض ثم اختلف المفسرون فيمن عنى بهذه الآية فقال قوم عنى بها المسلمين من امة محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم نزلت هذه الآية قال ابو العالية فى قوله قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم الآية قال هن اربع وكلهن عذاب فجاءت اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعا واذيق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان وهما لابد واقعتان يعنى الخسف والمسخ وعن ابى بن كعب نحوه هن اربع خلال وكلهن واقع قبل يوم القيامة مضت ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة البسوا شيعا واذيق بعضهم بأس بعض وثنتان واقعتان لامحالة الخسف والرجم وقال مجاهد فى قوله من فوقكم اومن تحت ارجلكم لامة محمد فاعفاهم منه او يلبسكم شيعا ماكان بينهم من الفتن والاختلاف زاد غيره ويذيق بعضكم بعض يعنى ماكان فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (خ) عن جابر قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اعوذ بوجهك اومن تحت ارجلكم قال اعوذ بوجهك او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال هذا اهون اوهذا ايسر (م) عن سعد بن ابى وقاص انه اقبل مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية حتى اذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف الينا فقال سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألت ربى ان لايهلك امتى بالسنة فأعطانيها وسألت ربى ان لايهلك امتى بالغرق فأعطانيها وسألت ربى ان لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها عن خباب بن الارت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فاطالها فقالوا يارسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال اجل انها صلاة رغبة ورهبة انى سألت الله فيها ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألته ان لايهلك امتى بسنة فأعطانيها وسألته ان لايسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها وسألته ان لايذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها اخرجه الترمذى ❊ وقوله تعالى (انظر كيف نصرف الآيات) اى انظر يامحمد كيف نبين دلائلنا وحججنا لهؤلاء المكذبين (لعلهم يفقهون) يعنى يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ❊ قوله تعالى (وكذب به قومك) يعنى بالقرآن (وهو الحق) يعنى فى كونه كتابا منزلا من عند الله وقيل الضمير فى به يرجع الى العذاب وهو الحق يعنى انه نازل بهم ان اقاموا على كفرهم وتكذيبهم وقيل الضمير يرجع الى تصريف الآيات وهو الحق لانهم كذبوا كونها من عند الله (قل لست عليكم بوكيل) اى قل يامحمد لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى اجازيكم على تكذيبكم واعراضكم عن قبول الحق بل انما انا منذر والله هو المجازى لكم على اعمالكم وقيل معناه انى انما ادعوكم الى الله والى الايمان به ولم اومر بحربكم فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف وقيل فى معنى الآية قل لست عليكم بوكيل يعنى حفيظا انما اطالبكم بالظاهر من الاقرار والعمل لابما تحويه الضمائر والاسرار فعلى هذا تكون الآية محكمة (لكل نبأ مستقر) اى لكل خبر من اخبار القرآن حقيقة ومنتهى ينتهى اليه اما فى الدنيا واما فى الآخرة وقيل لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولاتأخير فكان ماوعدهم به من العذاب فى الدنيا وقع يوم بدر

بصورتنا سبها امارو حانية لطيفة توصل اليها الروح والثواب واما جسمانية مظلمة توصل اليها العذاب بل تظهر تلك الصور على جوارحها واعضائها فتتشكل بهيآتها وتنطق عليهم باعمالها بلسان الحال والقوى السماوية التى اشرنا اليها والى انتقاش جميع الحوادث الجزئية فيها فتظهر عليهم باسرها عند مفارقتها عن بدنها لاتغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصتها عليهم وهى باعيانها الرسل التى توفتهم عند الموت والرد ايضا يكون فى عين الجمع المطلق فانه للجزاء (وهو اسرع الحاسبين) لوقوع حسابهم فى آن وهو توفيهم (قل من ينجيكم من ظلمات البر) التى هى حجب الغواشى البدنية والصفات النفسانية (و) ظلمات (البحر) التى هى حجب صفات القلوب وفكر العقول (تدعونه) الى كشفها (تضرعا) فى نفوسكم (وخفية) فى اسراركم (لئن انجيتنا من هذه) الحجب (لنكونن من الشاكرين) الذين شكروا نعمة الانجاء

(وسوف تعلمون) يعنى صحة هذا الخبر امافى الدنيا وامافى الآخرة ❊ قوله تعالى (واذا رأيت الذين يخوضون فى اياتنا) الخطاب فى واذا رأيت للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى واذا رأيت يامحمد هؤلاء المشركين الذين يخوضون فى آياتنا يعنى القرآن الذى انزلناه اليك والخوض فى اللغة هو الشروع فى الماء والعبور فيه ويستعار للاخذ فى الحديث والشروع فيه يقال تخاوضوا فى الحديث وتفاوضوا فيه لكن اكثر ما يستعمل الخوض فى الحديث على وجه اللعب والعبث ومايذم عليه ومنه قوله وكنا نخوض مع الخائضين وقيل الخطاب فى واذا رأيت لكل فرد من الناس والمعنى واذا رأيت ايها الانسان الذين يخوضون فى آياتنا وذلك ان المشركين كانوا اذا جالسوا المؤمنين وقعوا فى الاستهزاء بالقرآن وبمن انزله وبمن انزل عليه فنهاهم الله ان يقعدوا معهم فى وقت الاستهزاء بقوله (فاعرض عنهم) يعنى فاتركهم ولاتجالسهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره) يعنى حتى يكون خوضهم فى غير القرآن والاستهزاء به (واماينسينك الشيطان) يعنى فقعدت معهم (فلاتقعد بعد الذكرى) يعنى اذا ذكرت فقم عنهم ولا تقعد (مع القوم الظالمين) يعنى المشركين ❊ قوله تعالى (وماعلى الذين يتقون من حسابهم من شئ) قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم قال المسلمون كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون ابدا وفى رواية قال المسلمون انا نخاف الاثم حين نتركهم ولا ننهاهم فانزل الله هذه الآية وما على الذين يتقون يعنى يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من حساب المشركين من شئ يعنى ليس عليهم شئ من حسابهم ولا آثامهم (ولكن ذكرى) يعنى ولكن ذكروهم ذكرى وقيل معناه ولكن عليكم ان تذكروهم (لعلهم يتقون) يعنى لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء

❊(فصل)❊ قال سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل هذه الآية منسوخة بالآية لتى فى سورة النساء وهى قوله تعالى وقد نزل عليكم فى الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها وذهب الجمهور الى انها محكمة لانسخ فيها لانها خبر والخبر لايدخله النسخ لانها انما دلت على ان كل انسان انما يختص بحساب نفسه لابحساب غيره وقيل انما اباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة فلاتكون منسوخة ❊ قوله عزوجل (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويعنى وذر يامحمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم الذى امروا به ودعوا اليه وهو دين الاسلام لعبا ولهوا وذلك حيث سخروا به واستهزؤا به وقيل انهم اتخذوا عبادة الاصنام لعبا ولهوا وقيل ان الكفار كانوا اذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه وقيل ان الله جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم يعنى عيدهم لعبا ولهوا يلعبون ويلهون فيه الا المسلمين فانهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيرا وفعل الخير فيه مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى انهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا لاجل انهم غرتهم الحياة الدنيا وغلب حبها على قلوبهم فاعرضوا عن دين الحق واتخذوا دينهم لعبا ولهوا ومعنى الآية وذر يامحمد الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا واتركهم ولاتبال بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضى الاعراض عنهم ثم نسخ ذلك الاعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدى وقيل انه خرج مخرج التهديد فهو كقوله ذرنى ومن خلقت وحيدا وهذا قول مجاهد فعلى هذا تكون الآية محكمة وقيل المراد بالاعراض عنهم ترك معاشرتهم ومخالطتهم لاترك الانذار

(والتخويف)

بالاستقامة والتمكين (قل الله ينجيكم منها) بكشف تلك الحجب بانوار تجليات صفاته (ومن كل كرب) اى مابقى فى استعدادكم بالقوة من كمالاتكم بابرازها حتى لوكانت بقية من بقايا وجودكم كربالكم لاستعدادكم للفناء والخلاص منها بالكلية لقوة الاستعداد وكمال الشوق لانجاكم منها (ثم انتم) بعد علمكم بهذا المقام الشريف وما ادخر لكم (تشركون) به انفسكم واهواءكم فتعبدونها (قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم) باحتجابكم بالمعقولات والحجب الروحانيات (اومن تحت ارجلكم) باحتجابكم بالحجب الطبيعية (او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) اويخلطكم فرقا متفرقة كل فرقة على دين قوة من قواكم هى امامهم تقابل الفرقة الاخرى فيقع بينكم الهرج والمرج والقتال اوفرقا مختلفة العقائد كل فرقة على دين دجال اوشيطان انسى

والتخويف يدل عليه قوله (وذكر به) يعنى وذكر بالقرآن وعظ به هؤلاء المشركين (ان تبسل نفس بما كسبت) اى لئلا تبسل نفس واصل البسل فى اللغة التحريم وضم الشئ ومنعه وهذا عليك بسل اى حرام ممنوع فمعنى تبسل نفس بما كسبت ترتهن وتحبس فى جهنم وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام وقال ابن عباس تبسل تهلك وقال قتادة تحبس يعنى فى جهنم وقال الضحاك تحرق بالنار وقال ابن زيد تؤخذ يعنى بما كسبت وقيل تفضح والمعنى وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكى لاتهلك نفس وترتهن فى جهنم بسبب الجنايات التى اكتسبت فى الدنيا وتحرم الثواب فى الآخرة (ليس لها) يعنى لتلك النفس التى هلكت (من دون الله ولى) اى قريب يلى امرها (ولا شفيع) يعنى يشفع لها فى الآخرة (وان تعدل كل عدل) يعنى وان تفتد بكل فداء والعدل الفداء (لا يؤخذ منها) يعنى ذلك العدل وتلك الفدية (اولئك الذين) اشارة الى الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا (ابسلوا بما كسبوا) يعنى اسلموا الى الهلاك بسبب ما اكتسبوا (لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون) ذلك لهم بسبب كفرهم ❊ قوله تعالى (قل اندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى دين آبائك اندعو يعنى انعبد من دون الله يعنى الاصنام التى لاتنفع من عبدها ولاتضر من ترك عبادتها (ونرد على اعقابنا) يعنى ونرد الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) يعنى الى دين الاسلام والتوحيد (كالذى استهوته الشياطين فى الارض) يعنى كالذى ذهبت به الشياطين فالقته فى هوية من الارض واصله من الهوى وهو النزول من اعلى الى اسفل (حيران) يقال حار فلان فى الامر اذا تردد فيه فلم يهتد الى الصواب ولا المخرج منه (له اصحاب يدعونه الى الهدى) يعنى لهذا المتحير الذى استهوته الشياطين اصحاب على الطريق المستقيم (ائتنا) يعنى يقولون له ائتنا وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو الى عبادة الاصنام التى لاتضر ولاتنفع ولمن يدعو الى عبادة الله عز وجل الذى يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل فى رفقة ضل به الغول والشيطان عن الطريق المستقيم فجعل اصحابه ورفقته يدعونه اليهم يقولون هلم الى الطريق المستقيم وجعل الغيلان يدعونه اليهم فبقى حيران لايدرى اين يذهب فان اجاب الغيلان ضل وهلك وان اجاب اصحابه اهتدى وسلم (قل ان هدى الله هو الهدى) يعنى ان طريق الله الذى اوضحه لعباده ودينه الذى شرعه لهم هو الهدى والنور والاستقامة لاعبادة الاصنام ففيه زجر عن عبادتها كأنه يقول لاتفعل ذلك فان هدى الله هو الهدى لاهدى غيره (وامرنا لنسلم) اى وامرنا ان نسلم ونخلص العبادة (لرب العالمين) لانه هو الذى يستحق العبادة لاغيره (وان اقيموا الصلاة واتقوه) يعنى وامرنا باقامة الصلاة والتقوى لان فيهما مايقرب اليه (وهو الذى اليه تحشرون) يعنى فى يوم القيامة فيجزيكم باعمالكم ❊ قوله عز وجل (وهو الذى خلق السموات والارض بالحق) يعنى اظهارا للحق فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام لانه جعل صنعه دليلا على وحدانيته وقيل خلقها بكمال قدرته وشمول علمه واتقان صنعه وكل ذلك حق وقيل خلقها بكلامه الحق وهو قوله كن وفيه دليل على ان كلام الله تعالى ليس بمخلوق لانه لايخلق مخلوق بمخلوق (ويوم يقول كن فيكون) وقيل انه راجع الى خلق السموات والمعنى اذكر يوم قال للسموات والارض كن فيكون وقيل

او جنى هو امامهم او يجعل انفسكم شيعا باستيلاء كل قوة من قواكم على القلب بطلب لذتها المخصوصة بها احداها تجذبه الى غضب والآخرى الى شهودة اوطمع اوغير ذلك فيغرق القلب عاجزا فيما بينهم اسيرا فى قبضتهم كلما همت بتحصيل لذة هذه منعته الآخرى ويقع بينهم الهرج والمرج فى وجودكم لعدم ارتياضهم بسياسة رئيس واحد قاهر يقهرهم ويسوسهم بامر وحدانى يقيم كلا منهم فى مقامها مطيعة منقادة فتستقيم مملكة الوجود ويستقر الملك على رئيس القلب وعلى هذا التأويل يكون كل واحد منهم فرقة او فرقا متفرقة على اديان شتى لاشخصا واحدا (وكذب به) اى بهذا العذاب قومك (وهو الحق) الثابت النازل بهم (قل لست عليكم بوكيل) بموكل بحفظكم ويمنعكم من هذا العذاب (لكل نبأ مستقر) ماينبأ عنه محل وقوع واستقرار (وسوف تعلمون) حين يكشف عنكم اغطية ابدانكم فيظهر عليكم الم هذا العذاب

رجع الى القيامة ويدل عليه سرعة البعث والحساب كأنه قال ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا للحساب فيقومون احياء (قوله الحق) يعني ان قول الله تبارك وتعالى للشئ اذا اراده كن فيكون حق وصدق وهو كائن لامحالة (وله الملك يوم ينفخ في الصور) انما اخبر عن ملكه يومئذ وان كان الملك له سبحانه وتعالى خالصا في كل وقت في الدنيا والآخرة لانه لامنازع له يومئذ يدعى الملك وانه المنفرد بالملك يومئذ وان من كان يدعى الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا في الدنيا قد زال ملكهم واعترفوا بان الملك لله الواحد القهار وانه لامنازع له فيه وعلموا ان الذي كانوا يدعونه من الملك في الدنيا باطل وغرور واختلف العلماء في الصور المذكور في الآية فقال قوم هو قرن ينفخ فيه وهو لغة اهل اليمن قال مجاهد الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ماروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ماالصور قال قرن ينفخ فيه اخرجه ابوداود والترمذي عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف انعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته واصغى سمعه ينتظر ان يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على اصحابه فقالوا كيف نفعل يارسول الله وكيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وربما قال توكلنا على الله اخرجه الترمذي وقال ابوعبيدة الصور جمع صورة والنفخ فيها احياؤها بنفخ الروح فيها وهذا قول الحسن ومقاتل والقول الاول اصح لما تقدم في الحديث ولقوله تعالى في آية اخرى ثم نفخ فيه اخرى ولاجماع اهل السنة ان المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب وقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) يعني انه تعالى يعلم ماغاب عن عباده ومايشاهدونه فلايغيب عن علمه شئ (وهو الحكيم) يعني في جميع افعاله وتدبير خلقه (الخبير) يعني بكل مايفعلونه من خير اوشر * قوله تعالى (واذ قال ابرهيم لابيه آزر) اختلف العلماء في لفظ آزر فقال محمد بن اسحق والكلبي والضحاك آزر اسم ابي ابراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة فعلى هذا يكون لابي ابراهيم اسمان آزر وتارح مثل يعقوب واسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل ان يكون اسمه الاصلي آزر وتارح لقب له وبالعكس والله سماه آزر وان كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر ابو ابراهيم من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة وقال سليمان التيمي آزر سب وعيب ومعناه في كلامهم المعوج وقيل الشيخ الهرم وهو بالفارسية وهذا على مذهب من يجوز ان في القرآن الفاظا قليلة فارسية وقيل هو المخطئ فكان ابراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم كان والد ابراهيم يعبده وانما سماه بهذا الاسم لان من عبد شيأ اواحبه جعل اسم ذلك المعبود اوالمحبوب اسماله فهو كقوله يوم ندعوا كل اناس بامامهم وقيل معناه واذ قال ابراهيم لابيه ياعابد آزر فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه والصحيح هو الاول ان آزر اسم لابي ابراهيم لان الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين ان اسمه تارخ ففيه نظر لانهم انما نقلوه عن اصحاب الاخبار واهل السير من اهل الكتاب ولاعبرة بنقلهم وقد اخرج البخاري في افراده من حديث ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه السلام اباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة

بصور ماتقتضيه نفوسكم (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) اى صفاتنا باظهار صفات نفوسهم واثبات العلم والقدرة لها (فاعرض عنهم) فانهم محجوبون مشركون (حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك الشيطان) بتسويل بعض الاباطيل والخرافات عليك لاوسوسة نفسك فتنظهر بعض صفاتها وتجانسهم بذلك فتميل الى صحبتهم (فلا تقعد بعد الذكرى) ماتذكرت بتذكيرنا اياك (مع القوم الظالمين) الذين ظلموا انفسهم بوضع صفاتهم موضع صفاتي وحجبوها بصفاتهم فان صحبتهم تؤثر فيوشك ان تقع في الاحتجاب بشؤم صحبتهم على سبيل التلوين (وما على الذين يتقون من حسابهم) الموحدين الذين يتجردون عن ملابس صفاتهم ويجتنبون هيآتها من حساب اولئك المحجوبين (من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون) اى لايحتجبون بواسطة مخالطتهم فيكون معهم سواء ولكن ذكرناهم لعلهم يحترزون عن صحبتهم

الحديث فسماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر ايضا ولم يقل اباه تارخ فثبت بهذا ان اسمه الاصلي آزر
لا تارخ والله اعلم * وقوله تعالى (اتتخذ اصناما آلهة) معناه اذكر لقومك يا محمد قول ابراهيم
لابيه آزر اتتخذ اصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك والاصنام جمع صنم وهو
التمثال الذي يتخذ من خشب او حجارة او حديد او ذهب او فضة على صورة الانسان وهو الوثن
ايضا (اني اراك وقومك في ضلال مبين) يعني يقول ابراهيم لابيه آزر اني اراك وقومك الذين
يعبدون الاصنام معك ويتخذونها آلهة في ضلال يعني عن طريق الحق مبين يعني بين لمن ابصر
ذلك فانه لا يشك ان هذه الاصنام لا تضر ولا تنفع وهذه الآية احتجاج على مشركي العرب
باحوال ابراهيم ومحاجته لابيه وقومه لانهم كانوا يعظمون ابراهيم صلى الله عليه وسلم ويعترفون
بفضله فلا جرم ذكر الله قصة ابراهيم عليه السلام مع ابيه وقومه في معرض الاحتجاج على المشركين
* قوله عز وجل (وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات والارض) معناه وكما اريناه ابراهيم
البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الاصنام نريه ملكوت
السموات والارض فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله وكذلك نري ابرهيم
لانه تعالى كان اراه بعين البصيرة ان اباه وقومه على غير الحق فخالفهم فجزاه الله بان اراه بعد ذلك
ملكوت السموات والارض فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة
كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة قال ابن عباس يعني خلق السموات
والارض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعني آيات السموات والارض وذلك انه اقيم على صخرة
وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب وحتى رأى
مكانه في الجنة فذلك قوله وآتيناه اجره في الدنيا يعني اريناه مكانه في الجنة وكشف له عن الارض
حتى نظر الى اسفل الارضين ورأى ما فيها من العجائب قال البغوي وروي عن سلمان ورفعه بعضهم
عن علي قال لما رأى ابراهيم ملكوت السموات والارض ابصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك
ثم ابصر آخر فدعا عليه فهلك ثم ابصر آخر فاراد ان يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى يا ابراهيم
انت رجل مجاب الدعوة فلا تدعون على عبادي فانما انا من عبدي على ثلاث خلال اما ان يتوب
الي فأتوب عليه واما ان اخرج منه نسمة تعبدني واما ان يبعث الي فان شئت عفوت وان شئت
عاقبت وفي رواية وان تولى فان جهنم من ورائه قال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم
وملكوت الارض الجبال والشجر والبحار واختلف في هذه الرؤية هل كانت بعين البصر او بعين
البصيرة على قولين احدهما انها كانت بعين البصر الظاهر فشق لابراهيم السموات حتى رأى
العرش وشق له الارض حتى رأى ما في بطنها والقول الثاني ان هذه الرؤية كانت بعين البصيرة
لان ملكوت السموات والارض عبارة عن الملك وذلك لا يعرف الا بالعقل فبان بهذا ان هذه الرؤية
كانت بعين البصيرة الا ان يقال المراد بملكوت السموات والارض نفس السموات والارض
وقوله تعالى (وليكون من الموقنين) عطف على المعنى ومعناه وكذلك نري ابراهيم ملكوت
السموات والارض ليستدل به وليكون من الموقنين واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل
بعد زوال الشبهة لان الانسان في اول الحال لا ينفك عن شبهة وشك فاذا كثرت الدلائل وتوافقت
صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة في القلب وزالت الشبهة عند ذلك قال ابن عباس

وماهي يقعون فيه من
التلوين او وبالهم وشأنهم
وحسابهم حتى يصاحبونهم
ولكن فليذكروهم احيانا
بادنى مخالطة لعلهم
يحذرون شركهم ويجبهم
فينجون ببركة صحبتهم او
وما عليهم مما يحاسب به من
اعمالهم ووبالها من شئ
ولكن ليذكروهم بالزجر
والنهي لعلهم يحترزون
عنها (وذر الذين اتخذوا
دينهم لعبا ولهوا وغرتهم
الحيوة الدنيا وذكر به
ان تبسل نفس بما كسبت
ليس لها من دون الله ولي
ولا شفيع) اي اترك الذين
دينهم وعادتهم الهوى
واللهو لانهم لا يرفعون
بذلك رأسا لرسوخ ذلك
الاعتقاد فيهم واغترارهم
بالحياة الحسية واعرض
عنهم وانذر بالقرآن كراهة
ان تحبس نفس بكسبها
اي لا يكون دينها وديدنها
ذلك ولم ترسخ تلك العقيدة
فيها لكن ترتكب بالميل
الطبيعي افعالا مثل افعالهم
فتحبس بسببها فانها
تتأثر به وتسخط فتنتهي
فأنذرها حتى لا تصير مثلهم
فتحبس بعملها عن الهداية
وحينئذ لا يقبل منها فدية
اذ حبست بكسبها والشراب

فى وليكون من الموقنين جلاله الامر سره وعلانيته فلم يخف عليه شىء من اعمال الخلائق فلما جعل يلعن اصحاب الذنوب قال الله تعالى انك لاتستطيع هذا فرده الله كما كان قبل ذلك فمعنى الآية على هذا القول وكذلك اريناه ملكوت السموات والارض ليكون ممن يوقن علم كل شىء حسا وخبرا * قوله تعالى (فلما جن عليه الليل) يقال جن الليل واجن اذا اظلم وغطى كل شىء واجنه الليل وجن عليه اذا ستره بسواده (رأى كوكبا قال هذا ربى)

(ذكر القصة فى ذلك)

قال اهل التفسير واصحاب الاخبار والسير ولد ابراهيم عليه السلام فى زمن نمرود بن كنعان الملك وكان نمرود اول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس الى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد فى بلدك هذه السنة غلام يغير دين اهل الارض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك فى كتب الانبياء وقال السدى رأى نمرود فى منامه كان كوكبا قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد فى ناحيتك فى هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك اهل دينك على يديه فامر بذبح كل غلام يولد فى تلك السنة ناحيته وامر بعزل النساء عن الرجال وجعل على كل عشرة رجلا يحفظهم فاذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لانهم كانوا لايجامعون فى الحيض فاذا طهرت من الحيض حالوا بينهما قالوا فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بابراهيم وقال محمد بن اسحق بعث نمرود الى كل امرأة حبلى بقرية فحبسها عنده الا ما كان من ام ابراهيم فانه لم يعلم بحبلها لانها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحبل فى بطنها وقال السدى فخرج نمرود بالرجال الى العسكر وعزلهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة الى المدينة فلم يامن عليها احدا من قومه الا آزر فبعث اليه فاحضره عنده وقال له ان لى اليك حاجة احب ان اوصيك بها ولم ابعثك فيها الا لثقتى بك فاقسمت عليك ان لاتدنو من اهلك فقال آزر انا اشح على دينى من ذلك فاوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك ثم قال لو دخلت على اهلى فنظرت اليهم فلما دخل على ام ابراهيم ونظر اليها لم يتمالك حتى واقعها فحملت من ساعتها بابراهيم قال ابن عباس لما حملت ام ابراهيم قال الكهان لنمرود ان الغلام الذى اخبرناك به قد حملت به امه الليلة فامر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة ام ابراهيم واخذها المخاض خرجت هاربة مخافة ان يطلع عليها فيقتل ولدها قالوا فوضعته فى نهر يابس ثم لفته فى خرقة ووضعته فى خلفاء ثم رجعت فاخبرت زوجها بانها ولدت وان الولد فى موضع كذا فانطلق اليه ابوه فاخذه من ذلك المكان وحفر له سربا فى النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع وكانت امه تختلف اليه فترضعه وقال محمد بن اسحق لما وجدت ام ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة كانت قريبا منها فولدت فيها ابراهيم واصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ثم سدت عليه باب المغارة ثم رجعت الى بيتها وكانت تختلف اليه لتنظر ما فعل فتجده حيا وهو يمص ابهامه قال ابو روق قالت ام ابراهيم لانظرن الى اصابعه فوجدته يمص من اصبع ماء ومن اصبع لبنا ومن اصبع سمنا ومن اصبع عسلا ومن اصبع تمرا وقال محمد بن اسحق كان آزر قد سال ام ابراهيم عن حملها ما فعل فقالت

الجحيم هو شدة شوقها الى الكمال لقوة استعدادها والعذاب الاليم حرمانها عنه باحتجابها باعمالها وهيآتها (وان تعدل كل عدل لايؤخذ منها اولئك الذين ابسلوا بما كسبوا لهم شراب من وعذاب اليم بما كانوا يكفرون قل اندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا) اى انعبد مالا قدرة ولا وجود له حقيقة فينفع او يضر (ونرد) الى الشرك (على اعقابنا بعد اذ هدانا الله) الهداية الحقيقة الى التوحيد (كالذى استهوته الشياطين فى الارض) ذهبت به شياطين الوهم والتخيل فى مهمه ارض النفس (حيران) لايدرى اين يمشى ومايصنع بلا طريق ولا مقصد (له أصحاب) رفقاء من الفكر والعاقلة العملية والنظرية (يدعونه الى الهدى) يقولون (ائتنا) فان هذا هو الطريق ولايسمع لارتتاق سمع قلبه بالهوى (قل ان هدى الله) هداية التى هى طريق التوحيد (هو الهدى) لاغير (وامرنا لنسلم لرب العالمين) لننقاد لصفة الربوبية بمحو صفاتنا فى المتجلى بها واسلامها اليه ونقيم صلاة الحضور القلبى ونتقيه ونجعله وقاية

ولدت غلاما فمات فصدقتها وسكت عنها وكان ابراهيم يشب فى اليوم كالشهر وفى الشهر كالسنة فلم يمكث فى المغارة الا خمسة عشر شهرا حتى قال اخرجينى فاخرجته عشاء فنظر وتفكر فى خلق السموات والارض وقال ان الذى خلقنى ورزقنى واطعمنى وسقانى لربى الذى مالى اله غيره ونظر فى السماء فراى كوكبا قال هذا ربى ثم اتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب فلما افل قال لا احب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى واتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب ثم طلعت الشمس قال هكذا الى آخره ثم رجعت به الى ابيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه وبرئ من دين قومه الا انه لم ينادهم بذلك فلما رجعت به امه اخبرته انه ابنه واخبرته بما صنعت به فسر بذلك وفرح فرحا شديدا وقيل انه مكث فى السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة قالوا فلما شب ابراهيم وهو فى السرب قال لامه من ربى قالت انا قال فمن ربك قالت ابوك قال فمن رب ابى قالت اسكت ثم رجعت الى زوجها فقالت ارايت الغلام الذى كنا نحدث انه يغير دين اهل الارض فانه ابنك ثم اخبرته بما قال فاتاه ابوه آزر فقال ابراهيم يا ابتاه من ربى قال امك قال فمن رب امى قال انا قال فمن ربك قال نمرود قال فمن رب نمرود فلطمه لطمة وقال اسكت فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر فى خلال الصخرة فابصر كوكبا قال هذا ربى ويقال انه قال لابويه اخرجانى فاخرجاه من السرب حين غابت الشمس فنظر ابراهيم الى الابل والخيل والغنم فسأل اباه ماهذه قال ابل وخيل وغنم فقال ابراهيم مالهذه بد من ان يكون لها اله وهو ربها وخالقها ثم نظر فاذ المشترى قد طلع ويقال انها الزهرة وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فذلك قوله عز وجل فلما جن عليه الليل يعنى ستره بظلامه اى كوكبا قال هذا ربى ثم اختلف العلماء فى وقت هذه الرؤية وفى وقت هذا القول هل كان قبل البلوغ او بعده على قولين احدهما انه كان قبل البلوغ فى حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة عليه فلم يكن لهذا القول الذى صدر من ابراهيم فى هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لان الاحكام انما تثبت بعد البلوغ وقيل ان ابراهيم لما خرج من السرب فى حال صغره ونظر الى السماء ومافيها من العجائب ونظر الى الارض ومافيها من العجائب وكان قد خصه الله بالعقل الكامل والفطرة السليمة تفكر فى نفسه وقال لابد لهذا الخلق من خالق مدبر وهو اله الخلق ثم نظر فى حال تفكره فراى الكوكب وقد ازهر فقال هذا ربى على ماسبق الى وهمه وذلك فى حال طفوليته وقبل استحكام النظر فى معرفة الرب سبحانه وتعالى واستدل اصحاب هذا القول على صحته بقوله لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين قالوا وهذا يدل على نوع تحير وذلك لايكون الا فى حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة وهذا القول ولا مرضى لان الانبياء معصومون فى كل حال من الاحوال وانه لايجوز ان يكون لله عز وجل رسل ياتى عليه وقت من الاوقات الا وهو بالله عارف وله موحد وله من كل منقصة منزه ومن كل معبود سواه برىء وكيف يتوهم هذا على ابراهيم وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل واراه ملكوت السموات والارض افبرؤية الكوكب يقول معتقدا هذا ربى حاشا ابراهيم صلى الله عليه وسلم من ذلك لان منصبه اعلى واشرف من ذلك صلى الله عليه وسلم والقول الثانى الذى عليه جمهور المحققين اهذا القول

لنا فى الصفات ليكون هو الموصوف به فنتخلص به عن وجودنا فيكون هو المحشور اليه بذاته عندفنائنا فيه (وان اقيموا الصلوة واتقوه وهو الذى اليه تحشرون وهو الذى خلق السموات والارض بالحق) سموات الارواح وارض الجسم قائما بالعدل الذى هو مقتضى ذاته (ويوم يقول كن فيكون) اى وقت السرمدى الذى هو ازل آزال ظهور الاشياء فى ازلية ذاته التى هى ازلية الازل مطلقا وهو حين تعلق ارادته القديمة بالظهور فى تعينات ذاته المعبر عنه بقوله كن وهو بعد ازلية الآزال بالاعتبار العقلى لا انها تتأخر عن تلك الازلية بالزمان بل بالترتيب العقلى الاعتبارى فى ذاته تعالى فان التعينات تتاخر عن مطلق الهوية المحضة عقلا وحقيقة وظهورها بالارادة المسماة بقوله كن فيكون بلا فصل وتأخير يعبر عنه بيكون لانها لم تكن فى الازل وكانت (قوله الحق وله الملك) فى حالها غير متغيرة اقتضت مااقتضت على احسن مايكون من النظام والترتيب واعدل مايكون من الهيئة

كان بعد بلوغ ابراهيم وحين شرفه الله بالنبوة واكرمه بالرسالة ثم احتلف اصحاب القول في تأويل الآية ومعناها ذكروا فيها وجوها الوجه الاول ان ابراهيم عليه السلام اراد ان يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطاهم في تعظيم النجوم وعبادتها لانهم كانوا يرون ان كل الامور اليها فأراهم ابراهيم انه معظم ماعظموه فلما افل الكوكب والقمر والشمس اراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والافول ليثبت خطأ ماكانوا يعتقدون فيها من الالوهية ومثل هذا كمثل الحوارى الذى ورد على قوم كانوايعبدون صنما فأظهر تعظيمه فأكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رايه في كثير من امورهم الى ان دهمهم عدو لاقبل لهم به فشاوروه في امر هذا العدو فقال الراى عندى ان ندعوهذا الصنم حتى يكشف عنا مانزل بنا فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون اليه فلم يغن شيأ فلما تبين لهم انه لاينفع ولايضر ولايدفع دعاهم الحوارى وامرهم ان يدعو الله عزوجل ويكشف عنهم مانزل بهم فدعوا الله مخلصين فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فاسلموا جميعا الوجه الثانى ان ابراهيم عليه السلام قال هذا القول على سبيل الاستفهام وهو استفهام انكار وتوبيخ لقومه تقديره اهذا ربى الذى تزعمون واسقاط حرف الاستفهام كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى افان مت فهم الخالدون يعنى افهم الخالدون والمعنى ايكون هذا ربا ودلائل النقص فيه ظاهرة * الوجه الثالث ان ابراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول هذا ربى بزعمكم فلما غاب قال لوكان الها كما تزعمون لما غاب فهو كقوله ذق انك انت العزيز الكريم يعنى عند نفسك وبزعمك وكما اخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى انظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا يريد الهك بزعمك الوجه الرابع ان في هذه الآية اضمارا تقديره يقولون هذا ربى واضمار القول كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا اى يقولان ربنا تقبل منا الوجه الخامس ان الله تعالى قال في حقه وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ثم قال بعده فلما جن عليه الليل والفاء تقتضى التعقيب فدل هذا ان هذه الواقعة كانت بعد ان اراه الله ملكوت السموات والارض وبعد الايقان ومن كان معه بهذه المنزلة العالية الشريفة لايليق بحاله ان يعبد الكواكب ويتخذها ربا فاما الجواب عن قوله لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين فان الانبياء عليهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبيت ومنه قوله وجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام واما قوله تعالى (فلما افل) يعنى غاب والافول غيبة النيرات (قال) يعنى ابراهيم (لااحب الآفلين) يعنى لااحب ربا يغيب ويطلع لان امارات الحدوث فيه ظاهرة * قوله تعالى (فلما راى القمر بازغا) يعنى طالعا منتشر الضوء (قال هذا ربى) معناه ماتقدم من الكلام في الكوكب (فلما افل) يعنى غاب (قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين) يعنى ان لم يثبتنى ربى على الهدى وليس المراد انه لم يكن مهتديا لان الانبياء لم يزالوا على الهداية من اول الفطرة وفي الآية دليل على ان الهداية من الله تعالى لان ابراهيم اضاف الهداية الله تعالى (فلما راى الشمس بازغة) يعنى طالعة (قال هذا ربى) يعنى هذا الطالع او انه

والتركيب (يوم ينفخ في الصور) وقت نفخة في الصور اى احياء صور المكونات بافاضة ارواحها عليها لاملاك الاله فانها بنفسها ميتة لا وجود لها ولاحياة فضلا عن المالكية (عالم الغيب) اى حقائق عالم الارواح التى هى ملكوته (والشهادة) اى صور عالم الاجسام التى هى ملكه (وهو الحكيم) الذى اوجدها ورتبها بحكمته فأفاض على كل صورة مايليق بها من الارواح (الخبير) الذى علم اسرارها وعلانيتها وخواصها وافعالها تلخيصه هو مبدع الارواح والجسم المطلق بارادته القديمة الازلية الثابتة التى لاتغير فيها ابدا ابدا على وجه العدل والحكمة الذى اقتضاه ذاته ومكون الكائنات بانشائها في عالم الملك الذى هو مالكه لاغير كيف شاء عالما بما يجب ان يكون عليها حكيما اتقانها ونظامها وترتيبها خبيرا بما يحدث فيها من الاحوال الحادثة على حسب ارادته بذاته لاشريك له في ذلك كله (واذ قال ابرهيم لابيه آزر) اى اذكر وقت سلوك ابراهيم طريق التوحيد عند

اشار الى الضياء والنور لانه راى الشمس اضوا من الكوكب والقمر وقيل انما قال هذا ولم يقل
هذه لان تأنيث الشمس غير حقيقى فلهذا اتى بلفظ التذكير (هذا اكبر) يعنى من الكوكب
والقمر (فلما افلت) يعنى فلما غابت الشمس (قال ياقوم انى برئ مما تشركون) يعنى انه لما
أثبت ابراهيم عليه السلام بالدليل القطعى ان هذه النجوم ليست بآلهة ولاتصلح للربوبية
تبرأ منها واظهر لقومه انه برئ مما يشركون ولما اظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم اظهر
ماهو عليه من الدين الحق فقال (انى وجهت وجهى) يعنى انى صرفت وجه عبادتى وقصرت
توحيدى (للذى فطر السموات والارض) يعنى للذى خلقهما وابتدعهما (حنيفا) يعنى مائلا
عن عبادة كل شئ سوى الله تعالى واصل الحنف الميل وهو ميل عن طريق الضلال الى
طريق الاستقامة وقيل الحنيف هو الذى يستقبل الكعبة فى صلاته (وما انا من المشركين)
تبرا من الشرك الذى كان عليه قومه * قوله عز وجل (وحاجه قومه) يعنى وخاصمه قومه
وذلك لما اظهر ابراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التى كانوا يعبدونها واظهر التوحيد لله عز وجل
خاصمه قومه وجادلوه فى ذلك فقال أتحاجونى فى الله يعنى اتجادلونى فى توحيدى لله وقد هدانى
وقد تبين لى طريق الهداية الى توحيده ومعرفته وقال البغوى لما رجع ابراهيم الى ابيه وصار
من الشباب بحالة تسقط عنه طمع الذابحين وضمه آزر الى نفسه جعل آزر يصنع الاصنام ويعطيها
ابراهيم ليبيعها فيذهب ابراهيم وينادى من يشترى مايضره ولاينفعه فلايشتريها احد فاذا بارت
عليه ذهب بها الى نهر فصوب فيه رؤسها وقال اشربى استهزاء بقومه وبما هم فيه من الضلالة
حتى فشا استهزاؤه بها فى قومه واهل قريته حاجه قومه يعنى خاصمه وجادله قومه فى دينه (قال)
يعنى ابراهيم (أتحاجونى فى الله وقد هدان) يعنى الى توحيده ومعرفته (ولا اخاف ماتشركون به)
وذلك انهم قالوا له احذر الاصنام فانا نخاف ان تمسك بخبل او جنون لعيبك اياها فاجابهم بقوله
ولا اخاف ماتشركون به فانها جمادات لاتضر ولاتنفع وانما يكون الخوف ممن يقدر على النفع
والضر وهو قوله (الا ان يشاء ربى شيأ) يعنى لكن ان يشأ ربى شيأ كان مايشاء لانه قادر
على النفع والضر وانما قال ابراهيم ذلك لاحتمال ان الانسان قد يصيبه فى بعض حالاته وايام
عمره مايكرهه فلو اصابه مكروه نسبوه الى الاصنام فنفى هذه الشبهة بقوله الا ان يشاء وهذا
استثناء منقطع وليس هو من الاول فى شئ والمعنى ولكن ان شاء ربى شيأ كان (وسع ربى
كل شئ علما) يعنى احاط علمه بكل شئ فلايخرج شئ عن علمه (افلاتتذكرون) يعنى افلا
تعتبرون ان هذه الاصنام جمادات لاتضر ولاتنفع وان النافع والضار هو الذى خلق السموات
والارض ومن فيهما (وكيف اخاف مااشركتم) يعنى وكيف اخاف الاصنام التى اشركتم
بها لانها جمادات لاتبصر ولاتسمع ولاتضر ولاتنفع (ولاتخافون انكم اشركتم بالله) يعنى وانتم
لاتخافون وقد اشركتم بالله وهو من اعظم الذنوب (مالم ينزل به عليكم سلطانا) يعنى ماليس
لكم فيه حجة وبرهان (فاى الفريقين احق بالامن ان كنتم تعلمون) يعنى يقول من اولى
بالامن من العذاب فى يوم القيامة الموحد او المشرك (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم)
وهذا فصل قضاه الله بين ابراهيم وبين قومه يعنى ان الذين يستحقون الامن يوم القيامة هم الذين
آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وقيل هو من تمام كلام ابراهيم فى المحاجة لقومه والمعنى ان

تبصيرنا وهدايتنا اياه واطلاعه
على شرك قومه واحتجابهم
بظهور عالم الملك عن حقائق
عالم الملكوت وربوبيته تعالى
للاشياء باسمائه معتقدين
لتأثير الاجرام والاكوان
ذاهلين بها عن المكوّن فغيرهم
بذلك وقال لمقدّمهم واكبرهم
ابيه (أتتخذ أصناما آلهة)
وتعتقد تأثيرها (انى اراك
وقومك فى ضلال مبين)
ظاهر يعرف بالحس ومثل
ذلك التبصير والتعريف العام
الكامل نعرف ابراهيم ونريه
(وكذلك نرى ابرهيم
ملكوت السموات والارض)
اى القوى الروحانية التى
يدبر الله بها أمر السموات
والارض فان لكل شئ
قوة ملكوتية تحفظه وتدبر
أمره باذن الله (وليكون
من الموقنين) فعلنا ذلك
اى بصرناه ليعلم ويعرف
ان لا تأثير الا لله يدبر باسمائه
التى هى ذاته مع كل
واحدة من الصفات فتتكثر
الافعال من وراء حجب
الاكوان فالمحجوب
بالكون واقف مع الحس
يرى تلك الافعال من
الاكوان والمجاوز عنه الذى
خرق حجاب الكون ووقف
مع العقل محبوسا فى قيده
يراها من الملكوت والمهتدى

الذين يحصل لهم الامن يوم القيامة هم الذين آمنوا يعنى آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به
شيأ ولم يلبسوا ايمانهم بظلم يعنى ولم يخلطوا ايمانهم بشرك (ق) عن ابن مسعود قال لما نزلت
الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم شق ذلك على المسلمين وقالوا اينا لايظلم نفسه فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس ذلك انما هو الشرك الم تسمعوا قول لقمان لابنه يابنى
لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم وفى رواية ليس هو كما تظنون انما هو كما قال لقمان لابنه وذكره
وقيل فى معنى قوله ولم يلبسوا ايمانهم بظلم يعنى ولم يخلطوا ايمانهم بشئ من معانى الظلم
وذلك بان يفعل بعض مانهى الله عنه اويترك ماامر الله به فعلى هذا القول تكون الآية على
العموم لان الله لم يخص به معنى من معانى الظلم دون غيره والصحيح ان الظلم المذكور فى هذه الآية
هو الشرك لما تقدم من حديث ابن مسعود ان النبى صلى الله عليه وسلم فسر الظلم هنا بالشرك
وفى الآية دليل على ان من مات لايشرك بالله شيأ كانت عاقبته الامن من النار لقوله (اولئك)
يعنى الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم (لهم الامن) يوم القيامة من عذاب النار (وهم مهتدون)
يعنى الى سبيل الرشاده* وقوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) يعنى ماجرى بين
ابراهيم وبين قومه واستدل على حدوث الكوكب والقمر والشمس بالافول وقيل لما قالوا لابراهيم
انا نخاف عليك من آلهتنا لسبك اياها قال افلا تخافون انتم منها اذ سويتم بين الصغير والكبير
فى العبادة ان يغضب الكبير عليكم وقيل انه خاصم قومه المشركين فقال اى الفريقين احق بالامن
من يعبد الها واحدا مخلصا له الدين والعبادة ام من يعبد اربابا كثيرة فقالوا من يعبد الها واحدا
فقضوا على انفسهم فكانت هذه حجة ابراهيم عليهم (نرفع درجات من نشاء) يعنى بالعلم والفهم والعقل
والفضيلة كما رفعنا درجات ابراهيم حتى اهتدى الى محاجة قومه وقيل نرفع درجات من نشاء
فى الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة وفى الآخرة بالثواب على الاعمال الصالحة (ان ربك حكيم)
يعنى انه تعالى حكيم فى جميع افعاله عليم بجميع احوال خلقه لايفعل شيأ الا بحكمة وعلم
* قوله عزوجل (ووهبنا له اسحق ويعقوب) لما اظهر ابراهيم عليه السلام دينه وغلب
خصمه بالحجج القاطعة والبراهين القوية والدلائل الصحيحة التى فهمه الله تعالى اياها وهداه
اليها عدد الله نعمه عليه واحسانه اليه بان رفع درجته فى عليين وابقى النبوة فى ذريته
الى يوم الدين فقال تعالى ووهبنا له يعنى لابراهيم اسحق يعنى ابنا لصلبه ويعقوب يعنى ابن
اسحق وهو ولد الولد (كلا هدينا) يعنى هدينا جميعهم الى سبيل الرشاد ووفقناهم الى طريق
الحق والصواب (ونوحا هدينا من قبل) يعنى من قبل ابراهيم ارشدنا نوحا ووفقناه للحق
والصواب ومننا عليه بالهداية (ومن ذريته) اختلفوا فى هذا الضمير الى من يرجع فقيل
يرجع الى ابراهيم يعنى ومن ذرية ابراهيم (داود وسليمان) وقيل يرجع الى نوح وهو
اختيار جمهور المفسرين لان الضمير يرجع الى اقرب مذكور ولان الله ذكر فى جملة
هذه الذرية لوطا وهو ابن اخى ابراهيم ولم يكن من ذريته فثبت بهذا ان هاء الكناية ترجع
الى نوح وقال الزجاج كلا القولين جائز لان ذكرهما جميعا قد جرى وداود هو ابن ايشا وكان
ممن آتاه الله الملك والنبوة وكذلك سليمان بن داود (وايوب) هو ابن يعقوب بن اسحق بن
ابراهيم (وموسى) هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب (وهرون) هو

بنور الهداية الالهية المنفتحة عين بصيرته يرى ان الملكوت بالنسبة الى ذات الله تعالى كالملك بالنسبة الى الملكوت فكما لايرى التأثير من الاكوان لايراها من ملكوتها بل من مالكها ومكونها فيقول حقا لااله الا الله (فلما جن عليه الليل) اى فلما اظلم عليه ليل عالم الطبيعة الجسمانية فى صباه واول شبابه (راى كوكبا) كوكب ملكوت الهيكل الانسانى التى هى النفس المسماة روحانية وجد فيضه وحياته وربوبيته منها اذ كان الله تعالى يربه فى ذلك الحين باسمه المحيى فقال بلسان الحال (قال هذا ربى فلما افل) بعبوره من مقام النفس وطلوع نور القلب واشراقه عليه بآثار الرشد والتعقل ومعرفته لامكان النفس ووجوب انطباعها فى الجسم (قال لااحب الآفلين) الغاربين فى مغرب الجسم المحتجبين به المستترين بظلمة الامكان والاحتياج الى الغير (فلما رأى القمر بازغا) قمر القلب بازغا بوصوله الى مقام القلب وطلوعه من افق السر بظهوره عليه ورأى

اخو موسى وكان اكبر منه بسنة (وكذلك نجزى المحسنين) يعنى وكما جزينا ابراهيم على توحيده وصبره على اذى قومه كذلك نجزى المحسنين على احسانهم (وزكريا) هو ابن آذن بن بركيا (ويحيى) هو بن زكريا (وعيسى) هو ابن مريم بنت عمران (والياس) قال ابن مسعود هو ادريس وله اسمان مثل يعقوب واسرائيل وقال محمد بن اسحق هو الياس بن سنا بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران وهو الصحيح لان اصحاب الانساب يقولون ان ادريس جد نوح لان نوحا ابن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس ولان الله تعالى نسب الياس فى هذه الآية الى نوح وجعله من ذريته (كل من الصالحين) يعنى ان كل من ذكرنا وسميناه من الصالحين (واسمعيل) هو ابن ابراهيم وانما اخر ذكره الى هنا لانه ذكر اسحق وذكر اولاد من بعده على نسق واحد فلهذا السبب اخر ذكر اسمعيل الى هنا (واليسع) هو ابن اخطوب بن العجوز (ويونس) هو ابن متى (ولوطا) هو ابن اخى ابراهيم (وكلا فضلنا على العالمين) يعنى على عالمى زمانهم ويستدل بهذه الآية من يقول ان الانبياء افضل من الملائكة لان العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه الملك فيقتضى ان الانبياء افضل من الملائكة واعلم ان الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبيا من الانبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لان الواو لا تقتضى الترتيب ولكن هنا لطيفة اوجبت هذا الترتيب وهى ان الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الانبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل فذكر اولا نوحا وابراهيم واسحق ويعقوب لانهم اصول الانبياء واليهم ترجع انسابهم جميعا ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد اعطى الله داود وسليمان من ذلك حظا وافرا ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه ايوب عليه السلام ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف عليه السلام فانه صبر على البلاء والشدة الى ان اعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الانبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله تعالى موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا والاعراض عنها وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى والياس عليهم السلام ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الانبياء من لم يبق له اتباع ولا شريعة وهم اسمعيل واليسع ويونس ولوط فاذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شئ يذكر والله اعلم بمراده واسرار كتابه * (ومن آبائهم) يعنى ومن آباء الذين سميناهم ومن هنا للتبعيض لان من آبائهم من لم يكن مسلما (وذرياتهم) يعنى ومن ذرياتهم اى بعضهم لان عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان فى ذرية بعضهم من هو كافر كابن نوح (واخوانهم) يعنى ومن اخوانهم والمعنى ان الله تعالى وفق من آباء المذكورين ومن اخوانهم وذرياتهم للهداية وخالص الدين وهو قوله تعالى (واجتبيناهم) يعنى اخترناهم واصطفيناهم (وهديناهم) يعنى وارشدناهم (الى صراط مستقيم) اى الى دين الحق (ذلك هدى الله) قال ابن عباس ذلك دين الله الذى كان عليه هؤلاء الانبياء وقيل المراد بهدى الله معرفة الله وتنزيهه عن الشركاء والاضداد والانداد (يهدى به من يشاء من عباده) يعنى يوفق من يشاء من عباده ويرشده الى دينه وطاعته وخلع الاضداد والشركاء (ولو اشركوا) يعنى هؤلاء الذين سميناهم (لحبط) يعنى لبطل

فيضه بمكاشفات الحقائق وعلمه وربوبيته منه اذ كان الله تعالى يربه حينئذ باسمه العالم والحكيم (قال هذا ربى فلما افل) باحتجابه عنه وعبوره من طوره وشعوره بأن نوره مستفاد من شمس الروح وانه قد يتغيب فى ظلمة النفس وصفاتها فيحتجب بها ولا نور له اعرض عن مقامه سالكا طريق تجلى الروح قائلا (قال لئن لم يهدنى ربى) الى نور وجهه (لأكونن من القوم الضالين) الذين يحجبون بالبواطن عنه كالنصارى الواقفين مع الحجب النورانية (فلما رأى الشمس) الروح (بازغة) بتجليها عليه وظهور نورها وجد فيضه وشهوده وربوبيته منها اذ كان الله تعالى يربه حينئذ باسمه الشهيد والعلى العظيم (قال هذا ربى هذا اكبر) لعظمته وشدة نورانيته (فلما افلت) باستيلاء انوار تجلى الحق وطلوع سبحات الوجه الباقى وانكشاف حجاب الذات بوصوله الى مقام الوحدة رأى النظر الى الروح والى وجوده شركا فقال (قال ياقوم انى برئ مما تشركون) به اى اى شئ كان اذ لا وجود لغيره (انى وجهت

وذهب (عنهم ما كانوا يعملون) من الطاعات قبل ذلك لان الله تعالى لايقبل مع الشرك من الاعمال شيأ * قوله عزوجل (اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) يعنى اولئك الذين سميناهم من الانبياء اعطيناهم الكتب التى انزلناها عليهم وآتيناهم العلم والفهم وشرفناهم بالنبوّة وانما قدم ذكر الكتاب والحكمة على النبوّة وان كانت النبوّة هى الاصل لان منصب النبوّة اشرف المراتب والمناصب فذكر اوّلا الكتاب والحكم لانهما يدلان على النبوة (فان يكفر بها هؤلاء) يعنى فان يجحد بدلائل التوحيد والنبوّة كفار قريش (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) قال ابن عباس هم الانصار واهل المدينة وقيل هم المهاجرون والانصار وقال الحسن وقتادة هم الانبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال والدليل عليه قوله اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقال رجاء العطاردى هم الملائكة وفيه بعد لان اسم القوم لاينطلق الاعلى بنى آدم وقيل هم الفرس قال ابن زيد كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا او نبيا او من الصحابة او التابعين وفى الآية دليل على ان الله تعالى ينصر نبيه صلى الله عليه وسلم ويقوّى دينه ويجعله عاليا على الاديان كلها وقد جعل ذلك فهو اخبار عن الغيب * قوله تعالى (اولئك الذين هدى الله) يعنى النبيين الذين تقدم ذكرهم لانهم هم المخصوصون بالهدية (فبهداهم اقتده) اشارة الى النبى صلى الله عليه وسلم يعنى فبشرائعهم وسننهم اعمل واصل الاقتداء فى اللغة طلب موافقة الثانى للاول فى فعله وقيل امره ان يقتدى بهم فى امر الدين الذى امرهم ان يجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه من جميع النقائص التى لاتليق بجلاله فى الاسماء والصفات والافعال وقيل امره الله ان يقتدى بهم فى جميع الاخلاق الحميدة والافعال المرضية والصفات الرفيعة الكاملة مثل الصبر على اذى السفهاء والعفو عنهم وقيل امره ان يقتدى بشرائعهم الاماخصه دليل آخر فعلى هذا القول يكون فى الآية دليل على ان شرع من قبلنا شرع لنا

*(فصل) * احتج العلماء بهذه الآية على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل من جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبيانه ان جميع خصال الكمال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على اذى قومه وكان ابراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة فى الله عزوجل وكان اسحق ويعقوب من اصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود عليه السلام وسليمان من اصحاب الشكر على النعمة قال الله فيهم اعملوا آل داود شكرا وكان ايوب صاحب صبر على البلاء قال الله فيه انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اوّاب وكان يوسف قد جمع بين الحالتين يعنى الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزة الباهرة وكان زكريا ويحيى وعيسى والياس من اصحاب الزهد فى الدنيا وكان اسمعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع واخبات ثم ان الله تعالى امر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقتدى بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرقة فيهم فثبت بهذا البيان انه صلى الله عليه وسلم كان افضل الانبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التى كانت متفرقة فى جميعهم والله اعلم * وقوله تعالى (قل لااسئلكم عليه اجرا) يعنى قل يا محمد لااطلب على تبليغ الرسالة جعلا قيل لما امره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هداهم عدم طلب الاجر على ايصال الدين وابلاغ الشريعة

(لاجرم)

وجهى) اى اسلمت ذاتى ووجودى (للذى فطر السموات والارض حنيفا) وجد سموات الارواح وارض النفس مائلا عن كل ماسواه حتى عن وجودى بالفناء فيه (وما انا من المشركين) اى لست من الشرك فى شئ كوجود البقية وظهورها وغير ذلك (وحاجه قومه) فى نفى التأثير من الاجرام والاكوان وترك تعبد كل ماسوى الله (قال اتحاجونى فى الله وقد هدان) الى توحيده (ولا اخاف ما تشركون به) وتقولون بتأثيره ابدا (الا) وقت (ان يشاء ربى شيأ) من جهتها من مكروه اوضر يلحقنى من جهتها وذلك منه وبعلمه لامنها (وسع ربى كل شئ علما) يعلم حالى ومافيه صلاحى ان علم اضرارى من جهتها اولى بى فعل (افلا تذكرون) فتميزوا بين العاجز والقادر وكيف أخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأىّ الفريقين احق بالامن ان كنتم تعلمون (الذين آمنوا) بالتوحيد الذاتى (ولم) يخلطوا (ايمانهم بظلم) من ظهور نفس القلب اووجود

لاجزم اقتدى بهم فقال لا اسالكم عليه اجرا ان هو) يعني ماهو يعني القرآن (الاذكرى
للعالمين) يعني ان القرآن موعظة وذكرى لجميع العالم من الجن والانس وفيه دليل على انه
صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى جميع الخلق من الجن والانس وان دعوته عمت جميع الخلائق
* قوله عزوجل (وماقدروا الله حق قدره) قال ابن عباس معناه ماعظموا الله حق عظمته
وعنه ان معناه ماآمنوا ان الله على كل شئ قدير وقال ابو العالية ماوصفوا الله حق صفته وقال
الاخفش ماعرفوا الله حق معرفته يقال قدر الشئ اذاخرره وسبره واراد ان يعلم مقداره يقال
قدره يقدره بالضم قدرا ثم يقال لمن عرف شيا هو يقدر قدره واذالم يعرف بصفاته يقال فيه انه
لايقدر قدره فقوله وماقدروا الله حق قدره يصح فيه جميع الوجوه المذكورة في معناه (اذقالوا
ماانزل الله على بشر من شئ) يعني الذين قالوا ماانزل الله على بشر من شئ ماقدروا الله حق
قدره ولاعرفوه حق معرفته اذلو عرفوه حق معرفته لماقالوا هذه المقالة ثم اختلف العلماء فيمن
نزلت هذه الآية على قولين احدهما انها نزلت في كفار قريش وعلى هذا قول من يقول ان جميع
هذه السورة مكية وهو قول السدي ويروى ذلك عن مجاهد وصححه الطبري قال لان من اول
السورة الى هذا الموضع هو خبر عن المشركين من عبدة الاصنام وكان قوله وماقدروا الله حق
قدره موصولا بذلك غير مفصول عنه فلايكون قوله اذقالوا ماانزل الله على بشر من شئ خبرا
عن غيرهم واورد فخر الدين الرازي على هذا القول اشكالا وهو ان كفار قريش ينكرون نبوة
جميع الانبياء فكيف يمكن الزامهم بنبوة موسى وايضا فبعد هذه الآية لايليق بكفار قريش انما
يليق بحال اليهود واجاب عنه بان كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وقد سمعوا منهم ان موسى
جاءهم بالتوراة وبالمعجزات الباهرات وانما انكر كفار قريش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيمكن
الزامهم بقوله قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى واجاب عن كون سياق الآية لايليق الابحال
اليهود بان كفار قريش واليهود لما كانوا مشتركين في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلايبعد
ان بعض الآية يكون خطابا بالكفار قريش وبعضها خطابا لليهود والقول الثاني في سبب نزول
هذه الآية وهو قول جمهور المفسرين انها نزلت في اليهود وهذا على قول من يقول ان هذه الآية
نزلت بالمدينة وانها من الآيات المدنيات التي في السور المكية قال ابن عباس نزلت سورة الانعام
بمكة الا ست آيات منها قوله وما قدروا الله حق قدره فانها نزلت بالمدينة ثم اختلف القائلون
بهذا القول في اسم من نزلت هذه الآية فيه فقال سعيد ابن جبير جاء رجل من اليهود يقال له
مالك بن الصيف يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انشدك الله الذي
انزل التوراة على موسى اما تجد في التوراة ان الله يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا فغضب
وقال والله ماانزل الله على بشر من شئ فقال اصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى فقال والله
ماانزل الله على بشر من شئ فانزل الله وما قدروا الله حق قدره اذقالوا ماانزل الله على بشر من
شئ قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس الآية قال البغوي وفي القصة
ان مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا اليس الله انزل التوراة على
موسى فلم قلت ماانزل الله على بشر من شئ فقال مالك بن الصيف اغضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه
عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقال السدي نزلت هذه الآية في فنحاص بن عازوراء

بقية فانها شرك خفي (اولئك لهم الامن) الحقيقي الذي لاخوف معه (وهم مهتدون) بالحقيقة الى الحق (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) اي حجة التوحيد التي احتج بها ابراهيم على قومه (نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيي وعيسى والياس كل من الصالحين) الذين يقومون بصلاح العالم وضبط نظامه وتدبيره لاستقامتهم بالوجود الموهوب الحقاني بعد فناء الوجود البشري (وكلا فضلنا على العالمين) عالمي زمانهم (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو اشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا اسئلكم عليه اجرا

ان هو الا ذكرى للعالمين وما قدروا الله حق قدره اذقالوا ماانزل الله على بشر من شئ) اى ماعرفوه حق معرفته اذبالقواف تنزيهه حتى جعلوه بعيدا من عباده بحيث لايمكن ان يظهر من علمه وكلامه عليهم شئ ولو عرفوه حق معرفته لعلموا ان لاوجود لعباده ولالشئ آخر الابه والكل موجود بوجوده لاوجود الاله جميع عالم الشهادة ظاهره وعالم الغيب باطنه ولكل باطن ظاهر فأى حرج من ظهور بعض صفاته على مظهر بشرى بل لامظهر لكمال علمه الباطن وحكمته الاالانسان الكامل فالنبى من حيث الصورة ظاهره ومن حيث المعنى باطنه ينزل علمه على قلبه ويظهر على لسانه ويدعو به عباده الى ذاته ولا اثنينية الاباعتبار تفاصيل صفاته واماباعتبار الجمع فلا احد موجود الاهو لاالنبى ولاغيره فاذا اعتبر تفاصيل صفاته واسمائه يظهر النبى تبعية الخاص فى ذاته تعالى بعض صفاته فيصير اسمائه واذاكان كاملا فى نبوته يكون الاعظم الذى لاتنفتح ابواب خزائن غيبه ووجوده وحكمته الابه كما سمعت

اليهودى وهو القائل هذه المقالة وقال ابن عباس قالت اليهود يامحمد انزل الله عليك كتابا قال نعم فقالوا والله ماانزل الله من السماء كتابا فانزل الله وماقدروا الله حق قدره اذقالوا ماانزل الله على بشر من شئ قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى الآية وقال محمد بن كعب القرظى جاء ناس من يهود الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو محتب فقالوا ياابا القاسم الاتأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى الواحا يحملها من عند الله فانزل الله يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء الآية التى فى سورة النساء فلما احدثهم باعمالهم الخبيثة جثا رجل منهم وقال ماانزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على احد شيأ فانزل الله وماقدروا الله حق قدره اذقالوا ماانزل الله على بشر من شئ واورد الرازى على هذا القول اشكالا ايضا وهو انه قال ان اليهود مقرون بانزال التوراة على موسى فكيف يقولون ماانزل الله على بشر من شئ مع اعترافهم بانزال التوراة ولم يجب عن هذا الاشكال بشئ واجيب عنه بان مراد اليهود انكار انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فقط ولهذا الزموا بمالابدلهم من الاقرار به من انزال التوراة على موسى فقال تعالى (قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى) اى قل يامحمد لهؤلاء اليهود الذى انكروا انزال القرآن عليك بقولهم ماانزل الله على بشر من شئ من انزل التوراة على موسى وفى هذا الالزام توبيخ لليهود بسوء جهلهم واقدامهم على انكار الحق الذى لاينكر (نورا وهدى للناس) يعنى التوراة ضياء من ظلمة الضلالة وبيانا يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل ان تبدل وتغير (يجعلونه قراطيس) يكتبونه فى قراطيس مقطعة (تبدونها) يعنى القراطيس المكتوبة (وتخفون كثيرا) يعنى وتخفون كثيرا مما كتبوه فى القراطيس وهو ماعندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى التوراة ومما اخفوه ايضا آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة (وعلمتم مالم تعلموا انتم ولاآباؤكم) اكثر المفسرين على ان هذا خطاب لليهود ومعناه انكم علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مالم تعلموا انتم ولاآباؤكم من قبل قال الحسن جعل لهم علم ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم فضيعوه ولم ينتفعوا به وقال مجاهد هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل الله) هذا راجع الى قوله قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى فان اجابوك يامحمد والافقل انت الله الذى انزله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) يعنى دعهم يامحمد فيما هم فيه يخوضون من باطلهم وكفرهم بالله ومعنى يلعبون يستهزؤن ويسخرون وقيل معناه يامحمد انك اذا اقمت الحجة عليهم وبلغت فى الاعذار والانذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من امرهم شئ فذرهم فيما هم فيه من الخوض واللعب وفيه وعيد وتهديد للمشركين وقال بعضهم هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد لانه مذكور لاجل التهديد والوعيد ❊قوله تعالى(وهذا كتاب انزلناه مبارك) يعنى وهذا القرآن كتاب انزلناه من عندنا عليك يامحمد كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية واصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير (مصدق الذى بين يديه) يعنى من الكتب الالهية المنزلة من السماء على الانبياء يعنى انه موافق لما فى التوراة والانجيل وسائر الكتب لانها اشتملت جميعها على التوحيد والتنزيه لله من كل عيب ونقيصة وتدل على البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقا لجميع الكتب المنزلة (ولتنذر) قرئ بالتاء يعنى ولتنذر

(يامحمد)

يامحمد وبالياء ومعناه ولينذر الكتاب (ام القرى) يعنى مكة وفيه حذف تقديره ولتنذر اهل ام القرى وسميت مكة ام القرى لان الارض دحيت من تحتها قاله ابن عباس وقيل لانها اقدم القرى واعظمها بركة وقيل لانها قبلة اهل الارض (ومن حولها) يعنى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) يعنى والذين يصدقون بقيام الساعة وبالمعاد والبعث بعد الموت يصدقون بهذا الكتاب وانه منزل من عند الله عز وجل وقيل يصدقون ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك ان الذى يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ومن كان كذلك فانه يرغب فى تحصيل الثواب ودرء العقاب عنه وذلك لا يحصل الا بالنظر التام فاذا نظر وتفكر علم بالضرورة ان دين محمد اشرف الاديان وشريعته اعظم الشرائع (وهم على صلاتهم يحافظون) يعنى يداومون عليها فى اوقاتها والمعنى ان الايمان بالآخرة يحمل على الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة وفائدة تخصيص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات التنبيه على انها اشرف العبادات بعد الايمان بالله تعالى فاذا حافظ العبد عليها يكون محافظا على جميع العبادات والطاعات ❋ قوله عز وجل (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى ومن اعظم خطأ واجهل فعلا ممن اختلق على الله كذبا فزعم ان الله بعثه نبيا وهو فى زعمه كذاب مبطل (اوقال اوحى الى ولم يوح اليه شئ) قال قتادة نزلت هذه الآية فى مسيلمة الكذاب ابن ثمامة وقيل مسيلمة بن حبيب من بنى حنيفة وكان صاحب نيرجات وكهانة وسجع ادعى النبوّة باليمن وزعم ان الله اوحى اليه وكان قد ارسل الى النبى صلى الله عليه وسلم رسولين فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اتشهدان ان مسيلمة نبى قالا نعم فقال لهما النبى صلى الله عليه وسلم لولا ان الرسل لاتقتل لضربت اعناقكما (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا انا نائم اذا اوتيت خزائن الارض فوضع فى يدى سواران من ذهب فكبرا على واهمانى فأوحى الى ان انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين الذين انا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة وفى لفظ الترمذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت فى المنام كان فى يدى سوارين فأوّلتهما كذابين يخرجان من بعدى يقال لاحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسى صاحب صنعاء قوله فأوحى الى ان انفخهما يروى بالحاء المهملة ومعناه الرمى والدفع من نفحت الدابة برجلها اذا دفعت ورمحت ويروى بالخاء المعجمة من النفخ يريد انه نفخهما فطارا عنه وهو قريب من الاول فاما مسيلمة الكذاب فانه ادعى النبوّة باليمامة من اليمن وتبعه قومه من بنى حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغتر قومه بذلك وقتل مسيلمة الكذاب فى زمن خلافة ابى بكر الصديق قتله وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب وكان وحشى يقول قتلت خير الناس يعنى حمزة وقتلت شر الناس يعنى مسيلمة واما الاسود العنسى بالنون فهو عبهلة بن كعب وكان يقال له ذوا لحمار ادعى النبوّة باليمن فى آخر عهد النبى صلى الله عليه وسلم وقتل والنبى صلى الله عليه وسلم حى لم يمت وذلك قبل موته بيومين واخبر اصحابه بقتله وقتله فيروز الديلى فقال النبى صلى الله عليه وسلم فاز فيروز يعنى بقتله الاسود العنسى فمن قال ان هذه الآية يعنى قوله تعالى ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا اوقال اوحى الى ولم يوح اليه شئ انزلت فى مسيلمة الكذاب والاسود العنسى يقول ان هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة وهو قول لبعض علماء التفسير

فلا تنكر ان عجبت وحرمت من فهمه وبهت فعسى ان يفتح الله عين بصيرتك فترى مالا عين رات اوسمع قلبك فتسمع مالا اذن سمعت اوينور قلبك فتدرك مالا خطر على قلب بشر (قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا انتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدّق الذى بين يديه ولتنذر امّ القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) بادّعاء الكمال والوصول الى التوحيد والخلاص من كثرة صفات النفس وازدحامها مع بقائها فيه فيكون فى اقواله وافعاله بالنفس وهو يدعى انه بالله (اوقال اوحى الىّ ولم يوح اليه شئ) اى حسب مفتريات وهمه وخياله ومخترعات عقله وفكره وحيا من عند الله وفيضا من الروح القدسىّ فتنبا (ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله) اى تقرعن بوجود انائيته وتوهم التوحيد العلىّ عينيا فادّعى الالهية (ولو ترى اذ

تقدم ذكره في اول السورة ومن قال ان هذه الآية مكية وقال انها نزلت في شأنهما يقول انها
خبر عن غيب قد ظهر ذلك فيما بعد والله اعلم * وقوله تعالى (ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله)
اليك قال السدي نزلت في عبدالله بن ابي سرح القرشي وكان قد اسلم وكان يكتب للنبي صلى الله
عليه وسلم فكان اذا املى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما واذا املى عليه عليما حكيما كتب غفورا
رحيما فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين املاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب
عبدالله من تفصيل خلق الانسان فقال تبارك الله احسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اكتبها فهكذا نزلت فشك عبدالله بن ابي سرح وقال لئن كان محمد صادقا فقد اوحي الى مثل ما اوحي اليه
فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبدالله بعد ذلك الى الاسلام فاسلم قبل فتح مكة
والنبي صلى الله عليه وسلم نازل بمر الظهران وقال ابن عباس نزل قوله ومن قال سأنزل مثل
ما انزل الله في المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل في حكم
هذه الآية كل من افترى على الله كذبا في ذلك الزمان وبعده لانه لا يمنع خصوص السبب من عموم
الحكم (ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت) يعني ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الظالمين اذا
نزل بهم الموت لرأيت امرا عظيما وغمراته شدائده وسكراته وغمرة كل شئ معظمه واصلها الشئ
الذي يغمر الاشياء فيغطيها ثم وضعت في موضع الشدائد والمكاره (والملائكة باسطوا ايديهم)
يعني بالعذاب يضربون وجوههم وادبارهم وقيل باسطوا ايديهم لقبض ارواحهم (اخرجوا
انفسكم) يعني يقولون لهم اخرجوا انفسكم فان قلت انه لا قدرة لاحد على اخراج روحه
من بدنه فما فائدة هذا الكلام قلت معناه يقولون لهم اخرجوا انفسكم كرها لان المؤمن يحب
لقاء الله بخلاف الكافر وقيل معناه يقولون لهم خلصوا انفسكم من هذا العذاب ان قدرتم على
ذلك فيكون هذا القول توبيخا لهم لانهم لا يقدرون على خلاص انفسهم من العذاب في ذلك
الوقت (اليوم تجزون عذاب الهون) يعني الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) يعني
ذلك العذاب الذي تجزونه بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق (وكنتم عن آياته تستكبرون)
يعني وبسبب ما كنتم تتعظمون عن الايمان بالقرآن ولا تصدقونه * قوله تعالى (ولقد جئتمونا
فرادى) يعني وحدانا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم وهذا خبر من الله عز وجل
عن حال الكافرين يوم القيامة وكيف يحشرون اليه وما ذا يقول لهم في ذلك اليوم وفي قوله
للكافرين ولقد جئتمونا فرادى تقريع وتوبيخ لهم لانهم صرفوا هممهم في الدنيا الى تحصيل المال
والولد والجاه وافنوا اعمارهم في عبادة الاصنام فلم يغن عنهم كل ذلك شيئا في يوم القيامة فبقوا
فرادى عن كل ما حصلوه في الدنيا (كما خلقناكم اول مرة) يعني جئتمونا حفاة عراة غرلا
يعني قلفا كما ولدتهم امهاتهم في اول مرة في الدنيا لا شئ عليهم ولا معهم (ق) عن ابن عباس قال
قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة
غرلا كما بدأنا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول تحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء
جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الامر اشد من ان يهمهم ذلك روى الطبري بسنده عن عائشة
انها قرأت قول الله عز وجل ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة فقالت يارسول الله

(واسوأتاه)

الظالمون) اي هؤلاء الظلمة
من المدعين للكمال
المحجوبين الذين يزعمون
كون افعالهم الهية وهي
نفسانية والمتنبئين والمتفر
عنين (في غمرات الموت)
اي شدائده وسكراته
لانقيادهم في هواهم وغلطهم
في حسبانهم انهم قدفوا
من انفسهم وتجردوا
عن ملابس ابدانهم مع شدة
تعلقهم بها وقوة محبة الدنيا
ورسوخ الهوى فيهم لانهم ما
ماتوا بالموت الارادي
والتجرد عن الشهوات
واللذات البدنية ومافنوا
عن صفات نفوسهم ودواعيها
حتى يسهل عليهم الموت الطبيعي
(والملائكة) اي قوى
العالم التي كانت تمد قواهم
النفسانية من النفوس
الكوكبية والفلكية
وتأثيراتها التي كانت تستولي
عليهم في حياتهم مع ظنهم انهم
تخلصوا منها بالتجرد كما اشرنا
اليه (باسطوا ايديهم) قوية
التأثير فيهم بالغة فيه كنه قواها
وقدرها (اخرجوا انفسكم)
اي تعنفهم وتقهرهم لشدة
تعلقهم وكثرة تحسرهم
وصعوبة مفارقة الابدان
عليهم (اليوم تجزون عذاب
الهون) والصغار بوجود
صفات نفوسكم وهيئاتها
المظلمة المؤذية وحجب انانيتكم
وتفرعنكم كما قال سيجزيهم

واسوأتاه ان الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم الى سواة بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه لا ينظر الرجال الى النساء ولا النساء الى الرجال شغل بعضهم عن بعض * وقوله تعالى (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) يعنى وتركتم الذى اعطيناكم وملكناكم من الاموال والاولاد والخدم والخول وكل ما اعطى الله العبد خوله فيه من المال والعبيد وراء ظهوركم يعنى فى الدنيا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء) يعنى ان المشركين زعموا انهم انما عبدوا هذه الاصنام لانها تشفع لهم عند الله يوم القيامة لانها شركاء الله تعالى الله عن ذلك فاذا كان يوم القيامة وبخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية ثم قال تعالى (لقد تقطع بينكم) قرئ بنصب النون من بينكم ومعناه لقد تقطع ما بينكم من الوصل او يكون معناه لقد تقطع الامر بينكم وقرئ بينكم برفع النون ومعناه لقد تقطع وصلكم والبين من الاضداد يكون وصلا ويكون هجرا (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) يعنى وذهب وبطل ما كنتم تكذبون فى الدنيا * قوله عز وجل (ان الله فالق الحب والنوى) لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة اردفه بذكر الدلائل الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيها بذلك على ان المقصود الاعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وافعاله وانه مبدع الاشياء وخالقها ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التى كانوا يعبدونها وتعريفا منه خطأ ما كانوا عليه من الاشراك الذى كانوا عليه والمعنى ان الذى يستحق العبادة دون غيره هو الله الذى فلق الحب عن النبات والنواة عن النخلة وفى معنى فلق قولان احدهما انه بمعنى خلق ومعنى الآية على هذا القول ان الله خالق الحب والنوى وهو قول ابن عباس فى رواية العوفى عنه وبه قال الضحاك ومقاتل قال الواحدى ذهبوا بفالق مذهب فاطر وانكر الطبرى هذا القول وقال لا يعرف فى كلام العرب فلق الله الشئ بمعنى خلق ونقل الازهرى عن الزجاج جوازه فقال وقيل الفلق الخلق واذا تأملت الخلق تبين لك ان اكثره من انفلاق ومعنى هذا الكلام ان جميع الاشياء كانت قبل الوجود فى العدم فلما اوجدها الله تعالى واخرجها من العدم الى الوجود فكأنه فلقها واظهرها والقول الثانى وهو قول الاكثرين ان الفلق هو الشق ثم اختلفوا فى معناه على قولين احدهما وهو مروى عن ابن عباس قال فلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة وهو قول الحسن والسدى وابن زيد قال الزجاج يشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منها ورقا اخضر والقول الثانى وهو قول مجاهد انه الشقان اللذان فى الحب والنوى والحب هو الذى ليس له نوى كالحنطة والشعير والارز وما اشبه ذلك والنوى جمع نواة وهى ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما اشبه ذلك ومعنى قوله فالق الحب والنوى انه اذا وقعت الحبة او النواة فى الارض الرطبة ثم مر على ذلك قدر من الزمان اظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقا اخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب ويظهر من النواة شجرة صاعدة فى الهواء وعروقا ضاربة فى الارض فسبحان من اوجد جميع الاشياء بقدرته وابداعه وخلقه * وقوله تعالى (يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) قال ابن عباس فى رواية عنه يخرج من النطفة بشرا حيا ويخرج النطفة الميتة من الحى وهذا قول الكلبى

وصفهم (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) اى بسبب افترائكم على الله اعمالكم واقوالكم الصادرة من صفات نفوسكم واهوائها (وكنتم عن آياته تستكبرون) وبسبب احتجابكم بانانيتكم وتفرعنكم محتجبين بصفاتكم غير مذعنين بمحوها لصفاتنا محجوبين عنها بوجودها مستكبرين بها عنها (ولقد جئتمونا فرادى) مجردين عن الصفات والعلائق والاهل والاقارب والوجود بالاستغراق فى عين جمع الذات (كما خلقناكم اول مرة) بانشاء ذرات هوياتكم فى الازل عند اخذ الميثاق (وتركتم ما خولناكم) من الوسائل والعلوم والفضائل (وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم) وسائلكم واسبابكم وما آثرتموه بهواكم وتعلقتم بها من محبوباتكم ومعبوداتكم (الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم) بمحبتكم اياها وتعبدكم لها ونسبتكم التأثير اليها واعتباركم واعتدادكم بها فقد وقع التفرق بينكم بتغير الاحوال وتبدل الصور والاشكال (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) شيأ موجودا بشهودكم فناء الكل فى الله (ان الله فالق الحب والنوى) حبة القلب

ومقاتل قال الكلبي يخرج النسمة الحية من النطفة الميتة ويخرج الفرخة من البيضة ويخرج النطفة الميتة والبيضة الميتة من الحى وقال ابن عباس فى رواية أخرى يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن فجعل الايمان بمنزلة الحياة والكفر بمنزلة الموت وهذا قول الحسن وقيل معناه يخرج الطائع من العاصى والعاصى من الطائع وقال السدى يخرج النبات من الحب والحب من النبات وهذا اختيار الطبرى لانه قال عقب قوله ان الله فالق الحب والنوى فان قلت كيف قال ومخرج الميت من الحى بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحى من الميت وما السبب فى عطف الاسم على الفعل قلت قوله ومخرج الميت من الحى عطف على قوله فالق الحب والنوى وقوله يخرج الحى من الميت كالبيان او التفسير لقوله فالق الحب والنوى لان فلق الحب والنوى اليابس واخراج النبات والشجر منه من جنس اخراج الحى من الميت لان النامى من النبات فى حكم الحيوان وقوله (ذلكم الله) يعنى ذلكم الله المدبر الخالق الصانع لهذه الاشياء الحي المميت لها (فأنى تؤفكون) يعنى فأنى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذى هو خالق الاشياء كلها وفيه دليل ايضا على صحة البعث بعد الموت لان القادر على اخراج البدن من النطفة قادر على اخراجه من التراب للحساب *قوله تعالى (فالق الاصباح) اى شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده والاصباح مصدر سمى به الصبح وقال الزجاج الاصباح والصبح واحد وهما اول النهار فان قلت ظاهر الآية يدل على انه تعالى فلق الصبح والظلمة هى التى تنفلق بالصبح فما معنى ذلك قلت ذكر العلماء فيه وجوها الاول ان يكون المراد فالق ظلمة الصباح وذلك لان الصبح صبحان فالصبح الاول هو البياض المستطيل الصاعد فى الافق كذنب السرحان وهو الذئب ثم تعقبه ظلمة بعد ذلك ويسمى هذا الصبح الفجر الكاذب لانه يبدو فى الافق الشرق ثم يضمحل ويذهب ثم يطلع بعده الصبح الثانى وهو الضوء المستطير فى جميع الافق الشرق ويسمى الفجر الصادق لانه ليس بعده ظلمة والحاصل من هذا ان يكون المعنى فالق ظلمة الصبح الاول بنور الصبح الثانى الوجه الثانى انه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار فيكون معنى قوله فالق الاصباح اى فالق الصباح بنور النهار الوجه الثالث ان يراد فالق ظلمة الاصباح وهى الغبش فى آخر الليل الذى يلى الصبح الوجه الرابع ان يكون المعنى فالق الاصباح الذى هو عمود الفجر اذا انصدع وانفلق وسمى الفجر فلقا بمعنى مفلوق الوجه الخامس الفلق بمعنى الخلق يعنى خالق الاصباح وعلى هذا القول يزول الاشكال والصبح هو الضوء الذى يبدو اول النهار والمعنى انه تعالى مبدى ضوء الصبح وخالقه ومنوره * وقوله تعالى (وجاعل الليل سكنا) السكن ما سكنت اليه واسترحت به يريد ان الناس يسكنون فى الليل سكون راحة لان الله جعل الليل لهم كذلك قال ابن عباس ان كل ذى روح يسكن فيه لان الانسان قد اتعب نفسه فى النهار فاحتاج الى زمان يستريح فيه ويسكن من الحركة وذلك هو الليل (والشمس والقمر حسبانا) يعنى انه تعالى قدر حركة الشمس والقمر فى الفلك بحسبان معين قال ابن عباس يجريان الى اجل جعل لهما يعنى عدد الايام والشهور والسنين وقال الكلبي منازلهما بحسبان لايجاوز انه حتى ينتهيا الى اقصى منازلهما (ذلك) اشارة الى

بنور الروح من العلوم والمعارف ونوى النفس بنور القلب من الاخلاق والمكارم (يخرج الحى من الميت) حى القلب من ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها (ومخرج الميت من الحى) ميت النفس من حى القلب اخرى باقباله عليها واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه (ذلكم الله) القادر على تقليب احوالكم وتغليبكم فى اطواركم (فانى تؤفكون) تصرفون منه الى غيره (فالق الاصباح) اى فالق ظلمة صفات النفس عن القلب باصباح نور شمس الروح واشراقه عليها (وجعل) ظلمة النفس الليل سكنا (والشمس والقمر حسبانا) سكن القلب يسكن اليها للارتفاق والاسترواح احيانا اوسكنا تسكن فيه القوى البدنية وتستقر عن الاضطراب وشمس الروح وقمر القلب محسوبين فى عداد الموجودات الباقية الشريفة معتدا بهما او على حساب الاحوال والاوقات تعتبر بهما (ذلك تقدير العزيز) القوى على ذلك (العليم) باحوال البروز

ماتقدم ذكره في هذه الآية من الاشياء التي خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله (تقدير العزيز العليم) فالعزيز اشارة الى كمال قدرته والعليم اشارة الى كمال علمه * قوله عز وجل (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) جعل هنا بمعنى خلق يعني والله الذي خلق لكم هذه النجوم ادلة لتهتدوا بها اذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه فامتن الله على عباده بأن جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في المسالك والطرق في البر والبحر الى حيث يريدون ويستدلون بالنجوم ايضا على القبلة فيستدلون على ما يريدون في النهار بحركة الشمس وفي الليل بحركة الكواكب ومن منافعها ايضا انه تعالى خلقها زينة للسماء ورجوما للشياطين كما قال ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين (قد فصلنا الآيات) يعني قد بينا الآيات الدالة على توحيدنا وكمال قدرتنا (لقوم يعلمون) ان ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال علمه وقدرته * قوله تعالى (وهو الذي انشأكم من نفس واحدة) يعني والله الذي ابتدا خلقكم ايها الناس من آدم عليه السلام فهو ابو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى ايضا لان ابتداء خلقه من مريم وهي من بنات آدم فثبت ان جميع الخلق من آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) قرئ فمستقر بكسر القاف وفتحها يقال قر في مكانه واستقر فمن كسر القاف قال المستقر بمعنى القار والمعنى منكم مستقر يعني في الارحام ومن فتح القاف جعله مكانا فالمستقر نفس القر فيكون المعنى لكم مقر واما المستودع فهو مثل اودع فيجوز ان يكون اسما للانسان الذي استودع ذلك المكان ويجوز ان يكون المكان نفسه فمن قرا فمستقر بفتح القاف جعل المستودع مكانا والمعنى فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن كسر القاف جعل المعنى منكم مستقر ومنكم مستودع يعني منكم من استقر ومنكم من استودع والفرق بين المستقر والمستودع ان المستقر اقرب الى الثبات من المستودع لان المستقر من القرار والمستودع معرض لان يرد ولهذا اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذين اللفظين فروى عن ابن عباس انه قال المستقر في ارحام الامهات والمستودع في اصلاب الآباء ثم قرا ونقر في الارحام مانشاء ويؤيد هذا القول أن النطفة لاتبقى في صلب الاب زمانا طويلا والجنين يبقى في بطن الام زمانا طويلا ولما كان المكث في بطن الام اكثر من صلب الاب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب وروى عنه انه قال بالعكس يعني ان المستقر صلب الاب والمستودع رحم الام ووجه هذا القول ان النطفة حصلت في صلب الاب قبل رحم الام فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم وقال ابن مسعود المستقر في الرحم الى ان يولد والمستودع في القبر الى ان يبعث وقال مجاهد المستقر على ظهر الارض في الدنيا لقوله ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين والمستودع عند الله في الآخرة وقال الحسن المستقر في القبر والمستودع في الدنيا وكان يقول يا ابن آدم انت مستودع في اهلك الى ان تلحق بصاحبك يعني القبر وقيل المستودع في القبر والمستقر اما في الجنة او النار لان المقام فيهما يقتضي الخلود والتابيد (قد فصلنا الآيات) قد بينا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة (لقوم يفقهون) يعني لقوم يفهمون عن الله آياته ودلائله الدالة على توحيده لان الفقه هو الفهم * قوله عز وجل (وهو الذي انزل من السماء ماء) يعني المطر وقيل ان الله ينزل المطر من السماء الى السحاب ومن

والانكشاف والتستر والاحتجاب بهما بعز تارة باحتجابه بهما وعنهما في ستور جلاله وتارة بتجليه وقهرهما وافنائهما بعلم ما يفعل بحكمته (وهو الذي جعل لكم النجوم) نجوم الحواس (لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) بر الاجساد الى مصالح المعاش وبحر القلوب باكتساب العلوم بها (قد فصلنا الآيات) اى الروح والقلب والحواس (لقوم يعلمون) ذلك (وهو الذي انشاكم من نفس واحدة) هي النفس الكلية (فمستقر) في ارض البدن حال الظهور (ومستودع) في عين جمع الذات حال الفناء (قد فصلنا الآيات) آيات ظهور النفس واستقرارها واستيداعها (لقوم يفقهون) بتنور قلوبهم وصفاء فهومهم (وهو الذي انزل من السماء ماء) من سماء الروح ماء العلم (فاخرجنا به نبات كل شيء) كل صنف من الاخلاق والفضائل (فاخرجنا منه خضرا) من النبات هيئة خضرة النفس وزينة حسنة جميلة

السحاب الى الارض (فاخرجنا به) يعني بالماء الذى انزلناه من السماء (نبات كل شئ) يعنى كل شئ ينبت وينمو من جميع اصناف النبات وقيل معناه اخرجناه بالماء الذى انزلناه من السماء غذاء كل شئ من الانعام والبهائم والطير والوحش وارزاق بنى آدم واقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون (فاخرجنا منه خضرا) يريد اخضر مثل عور واعور والاخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة (نخرج منه حبا متراكبا) يعني نخرج من ذلك الاخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل سنبل القمح والشعير والارز والذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخل دليل على الافضلية ولان حاجة الناس اليه اكثر لانه القوت المألوف (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) يعنى من ثمرها يقال اطلعت النخلة اذا اخرجت طلعها وطلعها كفراها قبل ان ينشق عن الاغريض والاغريض يسمى طلعا ايضا وهو ما يكون فى قلب الطلع والطلع اول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فاذا شق عنه كيزانه سمى عذقا وهو القنو وجمعه قنوان مثل صنو وصنوان دانية اى قريبة التناول ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد متدلية وقال الضحاك قصار ملتصقة بالارض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ومنها ماهى بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولانها اسهل تنا ولا من البعيدة لان البعيدة تحتاج الى كلفة (وجنات من اعناب) يعنى واخرجنا من ذلك بساتين من اعناب (والزيتون والرمان) يعني واخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان (مشتبها) قال قتادة مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان (وغير متشابه) يعنى ومنها غير متشابه فى الورق والطعم واعلم ان الله تعالى ذكر فى هذه الآية اربعة انواع من الشجر بعد ذكر الزرع وانما قدم الزرع على سائر الاشجار لان الزرع غذاء وثمار الاشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وانما قدم النخلة على غيرها لان ثمرتها تجرى مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ماليس فى غيرها من الاشجار وانما ذكر العنب عقب النخلة لانها من اشرف انواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة فى الاكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه الرمان لما فيه من المنافع ايضا لانه فاكهة ودواء ثم قال تعالى (انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه) يعنى ونضجه وادراكه والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف اخرج الله تعالى هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة ※ وهو قوله (ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) يعنى يصدقون ان الذى اخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على ان يحيي الموتى ويبعثهم وانما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال الى حال وهو ما يعلمونه قطعا ويشاهدونه من احياء الارض بعد موتها واخراج سائر انواع النبات والثمار منها وانه لا يقدر على ذلك احد الا الله تعالى ليبين انه تعالى كذلك قادر على ان يحييهم بعد موتهم ويبعثهم يوم القيامة فاحتج عليهم بهذه الاشياء لانهم كانوا ينكرون البعث ※ قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) قال الحسن معناه اطاعوا الجن فى عبادة الاوثان وهو اختيار الزجاج قال معناه انهم اطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله وقال الكلبي نزلت فى الزنادقة اثبتوا الشرك لاثنين فى الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والانعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ونقل هذا القول ابن الجوزى عن ابن السائب ونقله الرازى عن ابن عباس قال الامام فخر

وبهجة بالعلم والخلق (نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية) من تلك الهيئة والنفس الطرية الغضة اعمالا مترتبة شريفة مرضية ونيات صادقة تتقوى بها القلب ومن نخل العقل من ظهور تعلقها معارف وحقائق قريبة التناول لظهورها بنور الروح كانها بديهية (وجنات من اعناب) الاحوال والاذواق وخصوصا انواع المحبة القلبية المسكر عصيرها وسلافها وزيتون التفكر ورمان التوهمات الصادقة التى هى الهمم الشريفة والعزائم النفيسة (والزيتون والرمان مشتبها) بعضها ببعض كالتعقلات والتفكرات والمعارف والحقائق والاعمال والنيات وكمحبة الذات ومحبة الصفات (وغير متشابه) كانواع المحبة مع الاعمال مثلا اومشتبها فى رتبتها وقوتها وضعفها وجلائها وخفائها وغير متشابه فيه (انظروا الى ثمره اذا اثمر) وراعوه بالمراقبة عند السلوك وبدأ الحال وليكن نظركم من الذات الى هذه الثمرات

الدين الرازى وهذامذهب المجوس وانماقال ابن عباس هذاقول الزنادقة لان المجوس يلتبسون بالزندقة لان الكتاب الذى زعم زردشت انه نزل من السماء سماه بالزند والمنسوب اليه زندى ثم عرب فقيل زنديق فاذاجمع قيل زنادقة ثم ان المجوس قالوا كل مايكون فى هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعنى النور وجميع مافى العالم من الشر فهو من الظلمة يعنى ابليس ثم اختلف المجوس فالاكثرون منهم على ان ابليس محدث ولهم فى كيفية حدوثه اقوال عجيبة والاقلون منهم قالوا انه قديم وعلى كلا القولين فقداتفقوا على انه شريك الله فى تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن ابليس تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا فان قلت فعلى هذا القول انما اثبتوا الله شريكا واحدا وهو ابليس فكيف حكى الله انهم جعلوا له شركاء قلت ان ابليس له اعوان من جنسه وحزبه وهم شياطين الجن يعملون اعماله فصح ماحكاه الله عنهم من انهم جعلوا له شركاء الجن ومعنى الآية وجعلوا الجن شركاء الله واختلفوا فى معنى هذه الشركة فمن قال ان الآية فى كفار العرب قال انهم لما اطاعوا الجن فيما امروهم به من عبادة الاصنام فقدجعلوهم شركاء الله ومن قال انها فى المجوس قال انهم اثبتوا الهين اثنين النور والظلمة وقيل ان كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه فعلى هذا القول فقدجعلوا الملائكة من الجن وذلك لانهم مستورون عن الاعين وقوله (وخلقهم) فى معنى الكناية قولان احدهما انهاتعود الى الجن فيكون المعنى والله خلق الجن فكيف يكون شريك الله من هو محدث مخلوق والقول الثانى ان الكناية تعود الى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا لله الذى خلقهم شركاء لايخلقون شيأ وهذا كالدليل القاطع بان المخلوق لايكون شريكا لله وكل مافى الكون محدث مخلوق والله تعالى هو الخالق لجميع مافى الكون فامتنع ان يكون لله شريك فى ملكه (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) اى اختلقوا وكذبوا يقال اختلق واخترق على فلان اذا كذب عليه وذلك ان النصارى وطائفة من اليهود ادعوا ان الله ابنا وكفار العرب ادعوا ان الملائكة بنات الله وكذبوا على الله جميعا فيما ادعوه وقوله بغير علم كالتنبيه على ماهو الدليل القاطع على فساد هذا القول لان الولد جزء من الاب والله سبحانه وتعالى لايتجزأ فثبت بهذا فساد قول من يدعى ان لله ولدا ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد وعن هذه الاقاويل الفاسدة فقال تعالى (سبحانه وتعالى عمايصفون) فقوله سبحانه فيه تنزيه الله عن كل مالايليق بجلاله وقوله تعالى يعنى هو المتعالى عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد اويكون المعنى المتعالى عن اتخاذ الولد والشريك وقوله عمايصفون يعنى عمايصفونه به من الكذب ✲ قوله عزوجل (بديع السموات والارض) الابداع عبارة عن تكوين الشئ على غير مثال سبق والله تعالى خلق السموات والارض على غير مثال سبق (انى يكون له ولد) يعنى من اين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) لان الولد لايكون الامن صاحبة انثى ولاينبغى ان تكون لله صاحبة لانه ليس كمثله شئ (وخلق كل شئ) يعنى ان الصاحبة والولد فى جملة من خلق لانه خالق كل شئ وليس كمثله شئ فكيف يكون الولد لمن لامثل له واذا نسب الولد والصاحبة اليه فقد جعل له مثل والله تعالى منزه عن المثلية وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى (وهو بكل شئ عليم) يعنى انه تعالى عالم بجميع خلقه لايعزب عن علمه شئ وعلمه محيط بكل شئ ✲ قوله تعالى (ذلكم الله ربكم) يعنى ذلكم الله الذى من صفته انه خلق السموات والارض وابدعها على

(وبعه) وكماله عند الوصول بالحضور (ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) بالايمان العلمى ويوقنون هذه الآيات والاحوال التى عددناها (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم) اى لجعلوا جن الوهم والخيال شركاء الله فى طاعتهم لها وانقيادهم وقد علموا ان الله خلقهم فكيف يعبدون غيره (وخرقوا له) اختلقوا بالافتراء المحض (بنين) من العقول (وبنات) من النفوس يعتقدون انها مؤثرات ومجردات مثله تولدت منه (بغير علم) منهم انها اسماؤه وصفاته لاتؤثر الابه (سبحانه وتعالى) تنزه عن ان يكون وجودا مجردا مخصوصا بتعين خاص واحدا من الموجودات المتعينة يصدر عنه وجودات العقول المجردة والنفوس وتعاظم (عمايصفون) به علوا كبيرا (بديع السموات والارض) اى عديم النظير والمثل فى سموات عالم الارواح وارض عالم الاجساد (انى يكون له ولد) اى كيف يماثله شئ (ولم تكن له صاحبة) لان الصاحبة لاتكون الا

غير مثال سبق وانه بكل شئ عليم هو ربكم الذى يستحق العبادة لا من تدعون من دونه من الاصنام لانها
جادات لاتخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم والله تعالى هو الخالق الضار النافع (لا اله الا هو خالق كل شئ
فاعبدوه) يعنى انه انى هو الذى يستحق العبادة فاعبدوه واطيعوه (وهو على كل شئ وكيل) يعنى انه
هو تعالى على كل شئ خلق رقيب حفيظ يقوم بأرزاق جميع خلقه * قوله عز وجل (لا تدركه
الابصار وهو يدرك الابصار) قال جمهور المفسرين معنى الادراك الاحاطة بكنه الشئ وحقيقته
فالابصار ترى البارى جل جلاله ولا تحيط به كما ان القلوب تعرفه ولا تحيط به وقال
سعيد بن المسيب فى تفسير قوله لاتدركه الابصار لاتحيط به الابصار وقال ابن عباس كلت
أبصار المخلوقين عن الاحاطة به * (فصل) * تمسك بظاهر الآية قوم من اهل البدع وهم الخوارج
والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا ان الله تبارك وتعالى لا يراه احد من خلقه وان رؤيته
مستحيلة عقلا لان الله اخبر ان الابصار لاتدركه وادراك البصر عبارة عن الرؤية اذ لافرق
بين قوله ادركته ببصرى ورأيته ببصرى فثبت بذلك ان قوله لاتدركه الابصار بمعنى لاتراه الابصار
وهذا يفيد العموم ومذهب اهل السنة ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفى الجنة وان رؤيته
غير مستحيلة عقلا واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر ادلة الكتاب والسنة واجماع الصحابة
ومن بعدهم من سلف الامة على اثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين فى الآخرة
قال الله تبارك وتعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ففى هذه الآية دليل على ان
المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون قال
الشافعى رحمه الله حجب قوما بالمعصية وهى الكفر فثبت ان قوما يرونه بالطاعة وهى
الايمان وقال مالك لولم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكفار بالحجاب وقال تعالى
للذين احسنوا الحسنى وزيادة وفسروا هذه الزيادة بالنظر الى وجه الله تبارك وتعالى
يوم القيامة واما دلائل السنة فما روى عن جرير بن عبدالله البجلى قال كنا عند رسول الله صلى
الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر وقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون
فى رؤيته فان استطعتم ان لاتغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرا وسبح
بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب اخرجه البخارى ومسلم عن ابى هريرة ان ناسا قالوا
يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون فى القمر ليلة
البدر قالوا لايارسول الله قال هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لايارسول الله قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ترونه كذلك اخرجه ابوداود واخرجه الترمذى وليس عنده
فى اوله ان ناسا سألوا ولا فى آخره ليس دونها سحاب عن ابى رزين العقيلى قال قلت يارسول الله اكلنا يرى
ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك من خلقه قال ياابارزين اليس كلكم يرى القمر ليلة البدر
مخليا به قلت بلى قال فالله اعظم انما هو خلق من خلق الله يعنى القمر فالله أجل واعظم اخرجه ابوداود
واما الدلائل العقلية فقد احتج اهل السنة ايضا بهذه الآية على جواز رؤية المؤمنين ربهم
يوم القيامة وتقريره انه تعالى يمدح بقوله لاتدركه الابصار فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل
هذا التمدح لان المعدوم لايصح التمدح به فثبت ان قوله لاتدركه الابصار يفيد المدح وهذا يدل
على انه تعالى جائز الرؤية وتحقيق هذا ان الشئ اذا كان فى نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لايلزم

لمجانسة وهو لايجانس شيأ
واذا لم يجانس شيأ لم يماثله
فلم يكن له مثل يتولد منه
(وخلق كل شئ) بتخصيصه
بتعيين فى ذاته وايجاده
بوجوده لا بأنه موجود
مثله (وهو بكل شئ عليم)
يحيط علمه بالعقول والنفوس
وغيرها كما يحيط وجوده بها
وهى محاطة لاتحيط بعلمه
ولا تعلم الا بعلمه ولا توجد
الا بوجوده فلا تماثله لانها
بأنفسها معدومة وانى يماثل
المعدوم الموجود المطلق
(ذلكم) البديع العديم
المثل الموصوف بجميع
هذه الصفات (الله ربكم
لا اله) فى الوجود (الا هو)
اى لا موجود الا هو باعتبار
الجمع (خالق كل شئ
فاعبدوه) باعتبار تفاصيل
صفاته فخصوا العبادة به
اى بالوجود الموصوف
بجميع الصفات الذى
هو الله دون من سواه
(وهو على كل شئ وكيل)
اى لايستحق العبادة
الا المبدئ لكل شئ وهو مع
ذلك وكيل على الكل يحفظها
ويدبرها ويوصل اليها
الارزاق وما تحتاج اليه
حتى تبلغ الكمال اللاحق
بها (لاتدركه الابصار)
اى لاتحيط به لانه اللطيف

(من عدم)

من عدم رؤيته مدح وتعظيم اما اذا كان في نفسه جائز الرؤية ثم انه قدر على حجب الابصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت ان هذه الآية دالة على انه تعالى جائز الرؤية واذا ثبت هذا وجب القطع بان المؤمنين يرونه يوم القيامة لان موسى صلى الله عليه وسلم سأل الرؤية بقوله ارني انظر اليك وذلك يدل على جواز الرؤية اذ لا يسأل نبي مثل موسى مالا يجوز ويمتنع وقد علق الله الرؤية على استقرار الجبل بقوله فان استقر مكانه فسوف تراني واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز واما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية في نفي الرؤية فاعلم ان الادراك غير الرؤية لان الادراك هو الاحاطة بكنه الشئ وحقيقته والرؤية المعاينة للشئ من غير احاطة وقد تكون الرؤية بغير ادراك كما قال تعالى في قصة موسى قال اصحاب موسى انا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لكن قاربوا ادراكهم اياهم فنفى موسى الادراك مع اثبات الرؤية بقوله كلا والله تعالى يجوز ان يرى في الآخرة من غير ادراك ولا احاطة لان الادراك هو الاحاطة بالمرئى وهو ما كان محدودا وله جهات والله تعالى منزه عن الحد والجهة لانه القديم الذي لانهاية لوجوده فعلى هذا انه تعالى يرى ولا يدرك وقال قوم ان الآية مخصوصة بالدنيا قال ابن عباس في معنى الآية لاتدركه الابصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة وعلى هذا القول فلا فرق بين الادراك والرؤية قالوا ويدل على هذا التخصيص قوله وجوه يومئذ ناضرة فقوله يومئذ ناضرة مقيد بيوم القيامة وعلى هذا يمكن الجمع بين الآيتين وقال السدي البصر بصران بصر معاينة وبصر علم فمعنى قوله لاتدركه الابصار لايدركه علم العلماء ونظيره ولا يحيطون به علما وهذا وجه حسن ايضا والله اعلم وقوله تعالى وهو يدرك الابصار يعني انه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لايخفى عليه شئ منها ويعلم حقيقتها ومطلع على ماهيتها فهو تعالى لاتدركه أبصار المبصرين وهو يدركها (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس اللطيف بأوليائه الخبير بهم وقال الزهري معنى اللطيف الرفيق بعباده وقيل هو الموصل الشئ اليك برفق ولين وقيل هو الذي ينسى عباده ذنوبهم لئلا يخجلوا واصل اللطف دقة النظر في الاشياء وقال ابو سليمان الخطابي اللطيف هو اللين بعباده يلطف بهم من حيث لايعلمون ويوصل اليهم مصالحهم من حيث لايحتسبون وقال الازهري اللطيف في اسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده وقيل هو اللطيف حيث لم يأمر عباده بفوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم وقيل هو اللطيف بعباده حيث يثني عليهم عند الطاعة ولم يقطع عنهم بره واحسانه عند المعصية وقيل هو الذي لطف عن ان تدركه الابصار وهو يدركها ❊ قوله تعالى (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر جمع البصيرة وهي الدلالة التي توجب البصر بالشئ والعلم به والمعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل وقيل ان الآيات والبراهين ليست في انفسها بصائر الا انها بقوتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين اسبابا لحصول البصائر سميت بصائر (فمن ابصر) يعني فمن عرف الآيات واهتدى بها الى الحق (فلنفسه) يعني فلنفسه ابصر ولها عمل لانه يعود نفع ذلك عليه (ومن عمي) يعني ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها الى الطريق (فعليها) يعني فعلى نفسه عمي ولها ضر وكان وبال ذلك العمى عليه لان الله تعالى غني عن خلقه (وما انا عليكم

الجليل عن ادراكها وكيف تدركه وهي لاتدرك انفسها التي هي نور منه (وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) لاحاطته بكل شئ ولطف ادراكه (قد جاءكم بصائر من ربكم) اي آيات بينات هي صور تجليات صفاته التي هي أنوار بصائر القلوب والبصيرة نور يبصر به القلب كما ان البصر نور تبصر به العين (فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها) اي صار بصيرا بها فانما فائدة ابصاره وهدايته لنفسه ومن حجب عنها فانما مضرة احتجابه بالاتتعدى الى غيره بل اليه (وما انا عليكم بحفيظ) رقيب يرقبكم ويحفظكم عن الضلال بل الله حفيظ يحفظكم ويحفظ اعمالكم (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون اتبع ما اوحي

اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين ولو شاء الله ما اشركوا) اى كل مايقع فانما يقع بمشيئة الله ولاشك ان استعداداتهم التى وقعوا بها فى الشرك واسباب ذلك من تعليم الآباء والعادات وغيرها ايضا واقعة بارادة من الله والا لم تقع فان آمنوا بذلك فبهداية الله والا فهون على نفسك (وماجعلناك عليهم حفيظا) تحفظهم عن الضلال (وماانت عليهم بوكيل ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل امة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) بموكل عليهم بايمان ولا ينافى هذا ماقال فى تعبيرهم فيما بعد بقوله سيقول الذين اشركوا لوشاء الله مااشركنا لانهم قالوا ذلك عنادا ودفعا للايمان بذلك

بحفيظ) يعنى وما انا عليكم برقيب احصى عليكم اعمالكم وافعالكم انما انا رسول من ربكم اليكم ابلغكم ماارسلت به اليكم والله هو الحفيظ عليكم لايخفى عليه شئ من اعمالكم واحوالكم وقيل معناه لااقدر ان ادفع عنكم مايريده الله بكم وقيل معناه لست آخذكم بالايمان اخذ الحفيظ الوكيل وهذا كان قبل الامر بقتال المشركين فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآيات السيف وعلى القول الاول ليست منسوخة والله اعلم ❊ قوله عز وجل (وكذلك نصرف الآيات) يعنى وكذلك نبين الآيات ونفصلها فى كل وجه كما صرفناها وبيناها من قبل (وليقولوا درست) يعنى وكذلك نصرف الآيات لتلزمهم الحجة وليقولوا درست وقيل معناه لئلا يقولوا درست وقيل اللام فيه لام العاقبة ومعناه عاقبة امرهم ان يقولوا درست يعنى قرأت على غيرك يقال درس الكتاب يدرسه دراسة اذا اكثر قراءته وذلله للحفظ قال ابن عباس وليقولوا يعنى اهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درست يعنى تعلمت من يسار وخير وكانا عبدين من سبي الروم ثم قرأت علينا تزعم انه من عند الله وقال الفراء معناه تعلمت من اليهود وقرئ دارست بالالف بمعنى قارات اهل الكتاب عن المدارسة التى هى بين اثنين يعنى يقولون قرأت على اهل الكتاب وقرؤا عليك وقرئ درست بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء ومعناه ان هذه الاخبار التى تتلوها علينا قديمة فدرست وانمحت من قولهم درس الاثر اذا محى وذهب اثره (ولنبينه لقوم يعلمون) يعنى القرآن وقيل معناه نصرف الآيات لقوم يعلمون قال ابن عباس يريد اولياءه الذين هداهم الى سبيل الرشاد وقيل معنى الآية وكذلك نصرف الآيات ليسعد بها قوم ويشقى بها آخرون فمن اعرض عنها وقال للنبى صلى الله عليه وسلم درست اودرست فهو شقى ومن تبين له الحق وفهم معناها وعمل بها فهو سعيد وقال ابواسحق ان السبب الذى اداهم الى ان قالوا درست هو تلاوة الآيات عليهم وهذه اللام تسميها اهل اللغة لام الصيرورة يعنى صار عاقبة امرهم ان قالوا دارست فصار ذلك سببا لشقاوتهم وفى هذا دليل على ان الله تعالى جعل تصريف الآيات سببا لضلالة قوم وهدايتهم ❊ قوله تعالى (اتبع مااوحى اليك من ربك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى اتبع يامحمد ما امرك به ربك فى وحيه الذى اوحاه اليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه الى عبادى ولاتلتفت الى قول من يقول دارست اودرست وفى قوله اتبع مااوحى اليك من ربك تعزية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن الذى حصل له بسبب قولهم درست ونبه بقوله تعالى (لااله الا هو) انه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لاشريك له واذا كان فانه تجب طاعته ولايجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين وقوله تعالى (واعرض عن المشركين) قيل المراد منه فى الحال لا الدوام واذا كان كذلك لم يكن النسخ وقيل المراد ترك مقاتلتهم فعلى هذا يكون الامر بالاعراض منسوخا بآية القتال ❊ قوله عز وجل (ولوشاء الله مااشركوا) قال الزجاج معناه لوشاء الله لجعلهم مؤمنين وهذا نص صريح فى ان شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافا للمعتزلة فى قولهم لم يرد من احد الكفر والشرك فالآية رد عليهم (وماجعلناك عليهم حفيظا) يامحمد على هؤلاء المشركين رقيبا ولا حافظا تحفظ عليهم اعمالهم وقال ابن عباس فى رواية عطاء وماجعلناك عليهم حفيظا تمنعهم منا ومعناه انك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب وانما بعثت مبلغا فلاتهتم بشركهم فان ذلك بمشيئة الله تعالى

(وما)

(وما انت عليهم بوكيل) يعنى وما انت عليهم بقيم تقوم بارزاقهم وما انت عليهم بمسيطر فعلى التفسير الاول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى قول ابن عباس لاتكون منسوخة ❊ قوله عز وجل (ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) الآية قال ابن عباس لما نزلت انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم قال المشركون يامحمد لتنتهين عن سب آلهتنا اولنهجون ربك فنهاهم الله ان يسبوا اوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم وقال قتادة كان المؤمنون يسبون اوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله لانهم قوم جهلة لاعلم لهم بالله عز وجل وقال السدى لما حضرت اباطالب الوفاة قالت قريش انطلقوا بنا لندخل على هذا الرجل فلنأمره ان ينهى عنا ابن اخيه فانا نستحى ان نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلمامات قتلوه فانطلق ابوسفيان وابوجهل والنضر بن الحرث وامية وابى ابنا خلف وعقبة بن ابى معيط وعمرو بن العاص والاسود بن ابى البخترى الى ابى طالب فقالوا يااباطالب انت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب ان تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه والهه فدعاه فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال له ابو طالب ان هؤلاء قومك بنو عمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يريدون قالوا نريد ان تدعنا وآلهتنا وندعك والهك فقال له ابوطالب قد انصفك قومك فاقبل منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم ارأيتم ان اعطيتكم هذا فهل انتم معطى كلمة ان تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وادات لكم الخراج فقال ابو جهل نعم وابيك لنعطينكها وعشرة امثالها فما هى فقال قولوا لااله الاالله فابوا ونفروا فقال ابوطالب قل غيرها ياابن اخى فقال ياعم مااناً بالذى اقول غيرها ولواتونى بالشمس فوضعوها فى يدى ماقلت غيرها ارادة ان يؤيسهم فقالوا لتكفن عن شتمك آلهتنا اولنشتمنك اولنشتمن من يأمرك فأنزلت ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله يعنى ولاتسبوا ايها المؤمنون الاصنام التى يعبدها المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم يعنى فيسبوا الله ظلما بغير علم لانهم جهلة بالله عز وجل قال الزجاج نهوا فى ذلك الوقت قبل القتال ان يلعنوا الاصنام التى كانت تعبدها المشركون وقال ابن الانبارى هذه الآية منسوخة انزلها الله عز وجل والنبى صلى الله عليه وسلم بمكة فلما قواه بأصحابه نسخ هذه الآية ونظائرها بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقيل انما نهوا عن سب الاصنام وان كان فى سبها طاعة وهو مباح لما يترتب على ذلك من المفاسد التى هى اعظم من ذلك وهو سب الله عز وجل وسب رسوله وذلك من اعظم المفاسد فلذلك نهوا عن سب الاصنام وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم لاتسبوا آلهتهم فيسبوا ربكم فامسك المسلمون عن سب آلهتهم فظاهر الآية وان كان نهيا عن سب الاصنام فحقيقة النهى عن سب الله تعالى لانه سبب لذلك ❊ وقوله تعالى (كذلك زينا لكل امة عملهم) يعنى كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الاصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل امة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية وفى هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لايحسن من الله خلق الكفر وتزيينه ❊ وقوله تعالى (ثم الى ربهم مرجعهم) يعنى المؤمن والكافر والطائع والعاصى (فينبئهم بماكانوا يعملون) يعنى فى الدنيا ويجازيهم على ذلك ❊ قوله عز وجل (واقسموا بالله جهد ايمانهم) قال محمد بن كعب القرظى والكلبى قالت قريش يامحمد

التعلل لااعتقادا فقولهم ذلك وان كان صدقا فى نفس الامر لكنهم كانوا به كاذبين مكذبين للرسول اذلو صدقوا لعلموا ان توحيد المؤمنين ايضا بارادة الله وكذا كل دين فلم يعادوا احدا ولو علموا ان كل شئ لايقع الابارادة الله لمابقوا مشركين بل كانوا موحدين لكنهم قالوه لغرض التكذيب والعناد واثبات انه لايمكنهم الانتهاء عن شركهم فلذلك غيرهم به لالانه ليس كذلك فى نفس الامر فانهم لم يطلعوا على مشيئة الله وانه كما أراد شركهم فى الزمان السابق لم يرد ايمانهم الآن اذليس كل منهم مطبوع القلب بدليل ايمان من آمن منهم فلا يجوز ان يكون بعضهم كانوا مستعدين للايمان والتوحيد واحتجبوا بالعادة وما وجدوا من آبائهم

انك تخبرنا ان موسى كانت له عصا يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا وتخبرنا ان عيسى كان يحيي الموتى فأتنا بآية حتى نصدقك ونؤمن بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اى شئ تحبون قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك احق ماتقول ام باطل وارنا الملائكة يشهدون لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فعلت بعض ماتقولون اتصدقونني قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك اجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يدعو الله عز وجل ان يجعل الصفا ذهبا فجاء جبريل فقال ماشئت ان شئت اصبح ذهبا ولكن ان لم يصدقوك لنعذبنهم وان شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فانزل الله عز وجل واقسموا بالله جهد ايمانهم يعني وحلفوا بالله جهد ايمانهم يعني اوكد ماقدروا عليه من الايمان واشدها قال الكلبي ومقاتل اذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه (لئن جاءتهم آية) يعني كما جاءت من قبلهم من الامم (ليؤمنن بها) يعني ليصدقن بها (قل) يعني قل يامحمد (انما الآيات عند الله) يعني ان الله تعالى قادر على انزالها (ومايشعركم) يعني ومايدريكم ثم اختلف العلماء في المخاطبين بقوله ومايشعركم فقيل هو خطاب للمشركين الذين اقسموا بالله وقيل هو خطاب للمؤمنين واختلفوا في قوله (انها اذا جاءت لايؤمنون) فقرأ ابن كثير واهل البصرة وابو بكر عن عاصم انها بكسر الالف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله ومايشعركم على معنى ومايدريكم مايكون منهم ثم ابتدأ فقال انها اذا جاءت لايؤمنون فمن جعل الخطاب للمشركين قال معناه ومايشعركم ايها المشركون انها يعني الآيات اذا جاءت آمنتم ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه ومايشعركم ايها المؤمنون انها اذا جاءت آمنوا لان المؤمنين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدعو الله ان يريهم مااقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم الله بقوله ومايشعركم ثم ابتدأ فقال تعالى انها جاءت لايؤمنون وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عز وجل عليهم بانهم لايؤمنون وذلك لسابق علمه فيهم وقرأ الباقون انها بفتح الالف وجعلوا الخطاب في ذلك للمؤمنين لان المؤمنين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الآيات حتى يؤمن المشركون بها اذ رأوها لان المشركين كانوا حلفوا انهم اذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الآيات لذلك فقال الله تعالى ومايشعركم ايها المؤمنون ان الآيات اذا جاءت هؤلاء المشركين لايؤمنون فعلى هذا اختلفوا في لفظة لا من قوله لايؤمنون فقيل هي صلة والمعنى وما يشعركم انها اذا جاءت يؤمنون وقيل هي على بابها وفيه حذف والمعنى وما يشعركم انها اذا جاءتهم يؤمنون اولا يؤمنون وقيل ان بمعنى لعل في قوله انها اذا جاءت وكذلك هو في قراءة ابيّ بن كعب لعلها اذا جاءت وهذا سائغ في كلام العرب تقول العرب ائت السوق انك تشتري لنا شيأً بمعنى لعلك ومنه قول عدي بن زيد

أعاذل مايدريك ان منيتي * الى ساعة في اليوم اوفي ضحى الغد

يعني لعل منيتي * قوله تعالى (ونقلب افئدتهم وابصارهم) قال ابن عباس يعني ونحول بينهم وبين الايمان فلو جئناهم بالآيات سألوها لما آمنوا بها والتقليب هو تحويل الشئ وتحريكه عن وجهه الى وجه

فاشركوا ثم اذا سمعوا الانذار وشاهدوا ايات التوحيد اشتاقوا الى الحق وارتفع حجابهم فوحدوا فلذلك وبخهم على قولهم وطلب منهم الحجة على ان الله أرادهم بذلك دائما وانذرهم بوعيد من كان قبلهم لعل من كان فيه أدنى استعداد اذا انقطع عن جنته وسمع وعيد من قبله من المنكرين ارتفع حجابه ولان قلبه فآمن ويكون ذلك توفيقا له ولطفا في شأنه فان عالم الحكمة يبتني على الاسباب واما من كان من الاشقياء المردودين المختوم على قلوبهم فلا يرفع لذلك رأسا ولا يلقي اليه سمعا (واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) طلبوا خوارق العادات واعرضوا عن الحجج البينات لانهم كانوا محجوبين بالحس والمحسوس فلم تنجع فيهم الدعوة

آخر لاك الله تعالى اذاصرف القلوب والابصار من الايمان بقيت على الكفر (كما لم يؤمنوا به اول مرة) يعنى كمالم يؤمنوا بماقبل ذلك من الآيات التى جاء بهارسول صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات وقيل اول مرة يعنى الآيات التى جاء بهاموسى وغيره من الانبياء وقال ابن عباس المرة الاولى دارالدنيا يعنى لورد وامن الآخرة الى الدنيانقلب افئدتهم وابصارهم عن الايمان فلايؤمنون كمالم يؤمنوا به اول مرة قبل مماتهم وفى الآية دليل على ان الله تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وان القلوب والابصار بيده وفى تصريفه فيقيم ماشاء منهاويزيغ ماأراد منها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك فمعنى قوله نقلب افئدتهم نزيغهاعن الايمان ونقلب ابصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وان جاءتهم الآية التى سألوها فلايؤمنون بها كمالم يؤمنوا بالله ورسوله وبماجاء من عندالله فعلى هذاتكون الكناية فى به عائدة على الايمان بالقرآن وبماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل سؤالهم الآيات التى اقترحوها * وقوله تعالى (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) يعنى ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق فى علم الله انهم لايؤمنون فى تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لايهتدون الى الحق * قوله عزوجل (ولواننانزلنااليهم الملائكة) قال ابن جريج نزلت فى المستهزئين اتوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من قريش فقالوا يامحمدابعث لنابعض موتاناحتى نسألهم عنك احق ماتقول ام باطل وارنا الملائكة يشهدون لك انك رسول الله اوائتنابالله والملائكة قبيلافنزلت هذه الآية جوابا لهم والمعنى ولواننانزلنا اليهم الملائكة حتى يشهدوالك بالرسالة (وكلمهم الموتى) يعنى كما سألوا (وحشرنا عليهم كل شئ قبلا) يعنى وجمعنا عليهم كل شئ قبلاقبيلاقيل القبيل الكفيل بصحة ماتقول ماآمنوا وهوقوله (ما كانواليؤمنواالاان يشاءالله) يعنى الاان يشاء الله الايمان منهم وفيه دليل على ان جميع الاشياء بمشيئة الله تعالى حتى الايمان والكفر وموضع المعجزة ان الاشياء المحشورة منهاناطق ومنهاصامت فاذا أنطق الله الكل حتى يشهدوا له بصحة مايقول كان ذلك فى غاية الاعجاز وقيل قبلا من المقابلة والمواجهة والمعنى وحشرناعليهم كل شئ مواجهة ومعاينة ما كانواليؤمنوا الاان يشاءالله اخبرالله ان الايمان بمشيئة الله لاكماظنوا انهم متى شاؤا آمنوا ومتى شاؤالم يؤمنوا وقال ابن عباس ما كانواليؤمنواهم اهل الشقاء الاان يشاءالله هم اهل السعادة الذين سبق لهم فى علمه انهم يدخلون فى الايمان وصحح الطبرى قول ابن عباس قال لان الله عم بقوله ماكانواليؤمنوا الذين تقدم ذكرهم فى قوله واقسموابالله جهدايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بهاثم استثنى منهم اهل السعادة وهم الذين شاءلهم الايمان * قوله تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) يعنى يجهلون ان ذلك كذلك ويحسبون ان الايمان اليهم متى شاؤا آمنوا ومتى شاؤا كفروا وليس الامر كذلك بل الايمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاءله الايمان آمن ومن شاءله الكفر كفر وفى هذا دليل لمذهب اهل السنة ان الاشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة فى قولهم ان الله اراد الايمان من جميع الكفار * قوله تعالى (وكذلك جعلنالكل نبى عدوا) قيل هو منسوق على قوله تعالى وكذلك زينالكل امة عملهم اى كما فعلنا ذلك جعلنا لكل نبى عدوا وقيل معناه كما جعلنالمن قبلك من الانبياء اعداء كذلك جعلنالك اعداء وفيه تعزية للنبى صلى الله عليه وسلم وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنالكل نبى قبلك عدوا ليعظم

بالحكمة والاثبات بالحجة كما تنجع فى العقلاء المستعدين (قل انما الآيات عندالله) اى خوارق العادات التى اقترحوها انما هى من عالم القدرة ليست الاعنده (ومايشعركم انها اذاجاءت لايؤمنون ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ولواننانزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا) انهم لايؤمنون عندمجيئها اى انااعلم بهم منكم انهم لايؤمنون بها او ومايشعركم انهم يؤمنون عند مجيئها العلهااذاجاءت لايؤمنون بهـا ومن لم يردالله منه الايمان يقلب قلبه وبصره عندمجئ الآية التى اقترحها وزعم انه يؤمن عندنزولها فيقول هذا سحر ولايؤمن به كمالايؤمن قبل مجئ الاية ويذره فى ظهور نفسه

ثوابه على مايكابده من اذى اعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعنى جعلنا لكل نبي اعداء (شياطين الانس والجن) اختلف العلماء فى معنى شياطين الانس والجن على قولين احدهما ان المراد شياطين من الانس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والانس وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء وهو قول مجاهد وقتادة قالوا وشياطين الانس اشد تمردا من شياطين الجن لان شيطان الجن اذا عجز عن اغواء المؤمن الصالح واعياه ذلك استعان على اغوائه بشيطان الانس ليفتنه ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ابى ذر قال قال لى رسول الله عليه وسلم هل تعوذت بالله من شيطان الجن والانس قلت يارسول الله وهل للانس من شيطان قال نعم شر من شياطين الجن ذكره البغوى بغير سند واسنده الطبرى وقال مالك بن دينار ان شيطان الانس اشد على من شيطان الجن وذلك انى اذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الانس يجيئنى فيجرنى الى المعاصى القول الثانى ان الجميع من ولد ابليس واضيف الشياطين الانس على معنى انهم وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبي والسدى ورواية عن ابن عباس قالوا والمراد بشياطين الانس التى مع الانس وبشياطين الجن التى مع الجن وذلك ابليس قسم جنده قسمين فبعث فريقا منهم الى الجن وفريقا منهم الى الانس فالفريقان شياطين الجن والانس بمعنى انهم يغوونهم ويضلونهم وكلا الفريقين اعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولاوليائه من المؤمنين والصالحين ومن ذهب الى هذا القول قال يدل على صحته ان لفظ الآية يقتضى اضافة الشياطين الى الانس والجن والاضافة تقتضى المغايرة فعلى هذا يكون فى الشياطين نوع مغاير للانس والجن وهم اولاد ابليس ❊ وقوله تعالى (يوحى بعضهم الى بعض) يعنى يلقى ويسر بعضهم الى بعض ويناجى بعضهم بعضا وهو الوسوسة التى يلقيها الى من يريد اغواءه فعلى القول الاول ان شياطين الانس والجن يسر بعضهم الى بعض مايفتنون به المؤمنين والصالحين وعلى القول الثانى ان اولاد ابليس يلقى بعضهم بعضا فى كل حين فيقول شيطان الانس لشيطان الجن اضللت صاحبي بكذا وكذا فأضل انت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الانس كذلك فذلك وحى بعضهم الى بعض ❊ (زخرف القول) يعنى باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذى قد زين ووشى بالكذب وكل شئ حسن مموه فهو زخرف (غرورا) يعنى ان الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غرورا وذلك ان الشياطين يزينون الاعمال القبيحة لبنى آدم ويغرونهم بها غرورا (ولو شاء ربك مافعلوه) يعنى مافعلوا الوسوسة التى يلقيها الشياطين فى قلوب بنى آدم المعنى ان تعالى لو شاء لمنع الشياطين من القاء الوسوسة الى الانس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم انه الاجزل له فى الثواب اذا صبر على المحنة (فذرهم ومايفترون) يعنى فخلهم يامحمد ومازين لهم ابليس وغرهم به من الكفر والمعاصى فانى من ورائهم ❊ قوله تعالى (ولتصغى اليه افئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) قال ابن عباس ولتميل اليه واصل الصغو فى اللغة الميل يقال اصغى الى كذا مال اليه ويقال صغوت اصغو وصغيت اصغى لغتان قال ابن الانبارى اللام فى ولتصغى متعلقة بفعل مضمر معناه وفعلنا بهم ذلك لكى تصغى الى الباطل افئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وقال غيره اللام متعلقة بيوحى تقديره يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروا بذلك ولتصغى اليه افئدة الذين لايؤمنون بالآخرة والضمير فى اليه يرجع الى زخرف القول والمعنى ان قلوب الكفار تميل الى زخرف القول

يصفاتها حتجابه بها ولهذا قال فى آخر الاية الثانية (ماكانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله) يعنى من من استعد للايمان فهم المعقول وادرك الحجة وانفتحت عين بصيرته بادنى نور من هداية الله وآمن بأدنى سبب ومن لم يستعد لذلك ولم يخلق له نورا أى كل آية من خوارق العادات وغيرها ماأثر فيه (ولكن اكثرهم يجهلون) ان الايمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات وفى الحقيقة لااعتبار بالايمان المرتب على مشاهدة خوارق العادات فانه ربما كان مجرد اذعان لامر محسوس واقرار باللسان وليس فى القلب من معناه شئ كايمان اصحاب السامرى والايمان لايكون الا بالجنان كما قال تعالى قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن

المزخرف الباطل (وليقترفوا ماهم مقترفون) يعني وليكتسبوا من الاعمال الخبيثة ماهم مكتسبون
*قوله عزوجل (افغير الله ابتغى حكما) اى قل يامحمد لهؤلاء المشركين افغير الله اطلب حكما
قاضيا يقضي بيني وبينكم وذلك انهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل بينناوبينك حكما
فامره الله تعالى ان يجيبهم بهذا الجواب والحكم والحاكم واحد عند اهل اللغة غير ان بعض اهل
المعاني قال الحكم اكمل من الحاكم لان الحاكم من شانه ان يحكم والحكم اهل ان يتحاكم اليه وهو
الذي لايحكم الا بالحق فالله تعالى حكم لايحكم الا بالحق فلما انزل الله على محمد القرآن فقد حكم له
بالنبوة وهو قوله تعالى (وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلا) يعني مبينا فيه امره ونهيه ووعيده
وفيه الحكم بيني وبينكم (والذين آتيناهم الكتاب) يعني علماء اليهود والنصارى (يعلمون
انه منزل من ربك بالحق) يعني يشهدون ان هذا القرآن منزل من عند الله وذلك لما ثبت عندهم
بالدلائل الدالة على ذلك وقيل المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم مثل ابي بكر وعمر وعثمان وعلي
ونظرائهم تعلمون ان هذا القرآن منزل من ربك بالحق فآمنوا به وصدقوه (فلا تكونن من
الممترين) يعني فلا تكونن يامحمد من الشاكين ان علماء اهل الكتاب يعلمون ان هذا القرآن حق
وانه منزل من عند الله وقيل معناه فلا تكونن في شك مما قصصنا عليك انه حق وصدق فهو من باب
التهييج لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط وقيل الخطاب وان كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم
الا ان المراد به غيره والمعنى فلا تكونن ايها الانسان السامع لهذا القرآن في شك انه منزل من عند الله
لما فيه من الاعجاز الذي لايقدر على مثله الا الله تبارك وتعالى *قوله تعالى (وتمت كلمت ربك) وقرئ
كلمات ربك على الجمع فمن قرأ على التوحيد قال الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة اذا كانت
مضبوطة بضابط واحد كقولهم قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته وكذلك القرآن كلمة واحدة
لانه شئ واحد في اعجاز النظم وكونه حقا وصدقا ومعجزا ومن قرأ بالجمع قال لان الله قال في سياق
الآية لامبدل لكلماته فوجب الجمع في اللفظ الاول اتباعا للثاني (صدقا وعدلا) يعني صدقا فيما
وعد وعدلا فيما حكم وقيل ان القرآن مشتمل على الاخبار والاحكام فهو صادق فيما اخبر عن القرون
الماضية والامم الخالية وعما هو كائن الى قيام الساعة وفيما اخبر عن ثواب المطيع في الجنة وعقاب
العاصي في النار وهو عدل فيما حكم من الامر والنهي والحلال والحرام وسائر الاحكام (لامبدل
لكلماته) يعني لامغير لقضائه ولاراد لحكمه ولاخلف لمواعيده وقيل لما وصف كلماته بالتمام في قوله
وتمت كلمت ربك والتمام في كلام الله لايقبل النقص والتغيير والتبديل قال الله تعالى لامبدل لكلماته
لانها مصونة عن التحريف والتغيير والتبديل باقية الى يوم القيامة وفي قوله لامبدل لكلماته دليل
على ان السعيد لاينقلب شقيا ولا الشقي ينقلب سعيدا فالسعيد من سعد في الازل والشقي من شقي
في الازل واورد على هذا ان الكافر يكون شقيا بكفره فيسلم فينقلب سعيدا باسلامه واجيب عنه
بان الاعتبار بالخاتمة فمن ختم له بالسعادة كان قد كتب سعيدا في الازل ومن ختم له بالشقاوة كان
شقيا في الازل والله اعلم * وقوله تعالى (وهو السميع) يعني لما يقوله العباد (العليم) يعني باحوالهم
* قوله عزوجل (وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) قال المفسرون ان المشركين
جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في اكل الميتة وذلك انهم قالوا للمسلمين كيف
تأكلون ماقتلتم ولاتأكلون ماقتل ربكم فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وان تطع

قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولوشاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون) يلزم من ترتب مراتب الارواح ان مقابلة اصفى الاستعدادات وانورها بأكدرها واظلمها وابعدها ولزم منه وجود عدو ولكل نبي للتضاد الحقيقي بينهما وفائدة وجود العدو في مقابلته له ان الكمال الذي قدر له بحسب استعداده لايظهر عليه الابقوة المحبة للاستمداد واما القهر فلانكسار نفسه به وباهانته واستحقاقه له وتثبته عند مقابلته في مقام القلب وتجلده معرضا عن النفس ولذاتها لاشتغاله بالعدو ذاهلا عنها لفرط الحمية والحرص على الفضيلة

اكثر من فى الارض فى اكل الميتة وكان الكفار يومئذ اكثر اهل الارض يضلوك عن سبيل الله يعنى يضلوك عن دين الله الذى شرعه لك وبعثك به وقيل معناه لاتطعهم فى معتقداتهم الباطلة فانك ان تطعهم يضلوك عن سبيل الله يعنى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم اخبر عن حال الكفار وماهم عليه فقال تعالى (ان يتبعون الا الظن) يعنى ان هؤلاء الكفار الذين يجادلونك مايتبعون فى دينهم الذى هم عليه الا الظن وليسوا على بصيرة وحق فى دينهم وليسوا بقاطعين انهم على حق لانهم اتبعوا اهواءهم وتركوا التماس الصواب والحق واقتصروا على اتباع الظن والجهل (وان هم الا يخرصون) يعنى يكذبون واصل الخرص الحزر والتخمين ومنه خرص النخلة اذا حزر كمية ثمرها على الظن من غير يقين ويسمى الكذب خرصا لما يدخله من الظنون الكاذبة وقيل ان كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص لان قائله لم يقله عن علم ويقين (ان ربك هو اعلم من يضل عن سبيله) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يامحمد ان ربك هو اعلم منك ومن جميع خلقه اى الناس يضل عن سبيله (وهو اعلم بالمهتدين) يعنى وهو اعلم ايضا بمن كان على هدى واستقامة وسداد لايخفى عليه شئ من احوال خلقه فاخبر تعالى انه اعلم بالفريقين الضال والمهتدى وانه يجازى كلا بما يستحق * قوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين اتأكلون مما قتلتم ولاتأكلون مما قتل ربكم فقال الله تعالى للمسلمين فكلوا انتم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح (ان كنتم بآياته مؤمنين) وقيل كانوا يحرمون اصنافا من النعم ويحلون الميتة فقيل احلوا مااحل الله وحرموا ماحرم الله فعلى هذا القول تكون الآية خطابا للمشركين وعلى القول الاول تكون الآية خطابا للمسلمين وهو الاصح لقوله فى آخر الآية ان كنتم بآياته مؤمنين (ومالكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يعنى واى شئ لكم فى ان تأكلوا ومايمنعكم من ان تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهذا تأكيد فى اباحة ماذبح على اسم الله دون غيره (وقد فصل لكم ماحرم عليكم) يعنى وقد بين لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون وقال جمهور المفسرين المراد بقوله وقد فصل لكم ماحرم عليكم المحرمات المذكورة فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به واورد الامام فخر الدين الرازى ههنا اشكالا فقال فى سورة الانعام مكية وسورة المائدة من آخر ما انزل الله تعالى بالمدينة وقوله وقد فصل يجب ان يكون ذلك المفصل متقدما على هذا المحل والمدنى متأخر عن المكى فيمتنع كونه متقدما ثم قال بل الاولى ان يقال قوله تعالى بعد هذه الآية قل لا اجد فيما اوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة او دما مسفوحا اولحم خنزير وهذه الآية وان كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل الا ان هذا القدر من التأخر لايمنع ان يكون هو المراد قال كاتبه ولماذكره المفسرون وجه وهو ان الله لما علم ان سورة المائدة متقدمة على سورة الانعام فى الترتيب لا فى النزول حسن عود الضمير فى قوله وقد فصل لكم ماحرم عليكم الى ماهو متقدم فى الترتيب وهو قوله حرمت عليكم الميتة الآية والله اعلم بمراده * وقوله تعالى (الا ما اضطررتم اليه) يعنى الا ان تدعوكم الضرورة الى اكله بسبب شدة المجاعة فيباح لكم ذلك عند الاضطرار (وان كثيرا ليضلون باهوائهم بغير علم) يعنى ان كثيرا من الذين يجادلونكم فى اكل الميتة يحتجون عليكم فى ذلك بقولهم اتأكلون ماتذبحون ولاتأكلون مايذبحه الله وانما قالوا هذه المقالة جهلا منهم بغير علم منهم بصحة مايقولون بل يتبعون اهواءهم ليضلوا انفسهم واتباعهم بذلك وقيل المراد به عمرو بن لحى فمن دونه من المشركين

التى يقهر بها العدو والاحتراز عن الملابس الحيوانية والشيطانيه ليبعد بها عن مقامه ومناسبته ولئلا يتطرق له سبيل الى طعنه وتحقيره وازدرائه بها ولهذا قال ما اوذى نبى قط مثل ما أوذيت اذ لا كمال لاحد مثل كماله فيجب ان يكون سبب اخراجه الى الفعل اقوى لغاية بعده عن صفات النفس وعاداتها (ولتصغى اليه افئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) ولتميل اليه المحجوبون لمناسبتهم (وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون افغير الله ابتغى حكما وهو الذى انزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) لمحبتهم اياه فتقوى غواياتهم ويتظاهرون ويخرج مافيهم من الشرور

لانه اول من بحر البحائر وسيب السوائب واباح الميتة وغير دين ابراهيم عليه السلام (ان ربك هو اعلم بالمعتدين) يعني ان ربك يا محمد هو اعلم بمن تعدى حدوده فاحل ما حرم الله وحرم ما احل الله فهو يجازيهم على سوء صنيعهم * قوله عز وجل (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) يعني وذروا ايها الناس ما يوجب الاثم وهي الذنوب والمعاصي كلها سرها وعلانيتها قليلها وكثيرها قال الربيع ابن انس نهى الله عن ظاهر الاثم وباطنه ان يعمل به سرا وعلانية وقال سعيد بن جبير في هذه الآية الظاهر منه قوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ونكاح المحارم من الامهات والبنات والاخوات والباطن الزنا وقال السدي اما الظاهر فالزواني في الحوانيت وهن اصحاب الرايات واما الباطن فالمرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سرا وقال الضحاك كان اهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون ان ذلك حلال اما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية وقال ابن زيد ظاهر الاثم التجرد عن الثياب والتعري في الطواف والباطن الزنا وقال الكلبي ظاهر الاثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة وكان اهل الجاهلية يفعلون ذلك الى ان جاء الاسلام فنهى الله عن ذلك كله وقيل ان هذا النهي عام في جميع المحرمات التي نهى الله عنها وهو الاصح لان تخصيص العام بصورة معينة من غير دليل لا يجوز فعلى هذا القول يكون معنى الآية وذروا ما اعلنتم به وما اسررتم من الذنوب كلها قال ابن الانباري وذروا الاثم من جميع جهاته وقيل المراد بظاهر الاثم الاقدام على الذنوب من غير مبالاة وباطنه ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا لخوف الناس وقيل المراد بظاهر الاثم افعال الجوارح وباطنه افعال القلوب فيدخل في ذلك الحسد والكبر والعجب وارادة السوء للمسلمين ونحو ذلك * وقوله تعالى (ان الذين يكسبون الاثم) يعني ان الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويرتكبون ما حرم عليهم من المعاصي وغيرها (سيجزون) يعني في الآخرة (بما كانوا يقترفون) يعني بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب انه مخصوص بمن لم يتب لان المسلمين اجمعوا على انه اذا تاب العبد من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وزاد اهل السنة في ذلك فقالوا المذنب اذا لم يتب فهو في خطر المشيئة ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه بفضله وكرمه * قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ابن عباس الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها وقال عطاء الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الاصنام انتهى

* (فصل) * اختلف العلماء في ذبيحة المسلم اذا لم يذكر اسم الله عليها فذهب قوم الى تحريمها سواء تركها عامدا او ناسيا وهو قول ابن سيرين والشعبي ونقله الامام فخر الدين الرازي عن مالك ونقل عن عطاء انه قال كل ما لم يذكر اسم الله عليه من طعام او شراب فهو حرام احتجوا في ذلك بظاهر هذه الآية وقال الثوري وابو حنيفة ان ترك التسمية عامدا لا تحل وان تركها ناسيا تحل وقال الشافعي تحل الذبيحة سواء ترك التسمية عامدا او ناسيا ونقله البغوي عن ابن عباس ومالك ونقل ابن الجوزي عن احمد روايتين فيما اذا ترك التسمية عامدا وان تركها ناسيا حلت فمن اباح اكل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم الاصنام بدليل انه قال تعالى في سياق الآية (وانه لفسق) واجمع العلماء على ان آكل ذبيحة المسلم التي ترك التسمية عليها لا يفسق واحتجوا ايضا في اباحتها بما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قلت يا رسول الله ان هنا اقواما حديثا عهدهم بشرك يأتونا بلحمان فما ندري يذكرون اسم الله عليها ام لا قال اذكروا انتم

الى الفعل ويزداد واطغيانا وتعديا على النبي فتزداد قوة كماله وتهيج ايضا بسببه دواعي المؤمنين والذين في استعدادهم مناسبة للنبي فتنبعث حبتهم وتزداد محبتهم للنبي ونصرهم اياه فتظهر عليهم كمالاتهم وتقوى بهم النبي كما قيل ان شهرة مريديهم لا تكون الا بواسطة المنكرين اياهم (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) اي تم قضاؤه في الازل بما قضى وقدر من اسلام من اسلم وكفر من كفر ومحبة من احب احدا وعداوة من عادى قضاء مبرما وحكما صادقا مطابقا لما يقع عادلا بمناسبة كل قول وكل كمال وحال لاستعداد من يصدر عنه واقتضائه له (لا مبدل لكلماته) لاحكامه الازلية (وهو السميع) لما يظهرون من الاقوال والافعال المقدرة (العليم) بما يخفون (وان تطع

اسم الله وكلوا قالوا لو كانت التسمية شرطا للاباحة لكان الشك في وجودها مانعا من اكلها كالشك
في اصل الذبح وقول الشافعي في اول الآية وان كان عاما بحسب الصيغة الا ان آخرها لما حصلت
فيه هذه القيود الثلاثة وهي قوله وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وان
اطعتموهم انكم لمشركون علمنا ان المراد من هذا العموم هو الخصوص والفسق ذكر اسم غير الله
في الذبح كما قال في آخر السورة قل لا اجد فيما اوحي الى محرما على طاعم يطعمه الى قوله او فسقا اهل
لغير الله به فصار هذا الفسق الذي اهل لغير الله به مفسرا لقوله وانه لفسق واذا كان كذلك كان
قوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق مخصوصا بما اهل لغير الله به والله اعلم * وقوله
تعالى (وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم) يعني ان الشياطين يوسوسون الى اوليائهم
من المشركين ليجادلوكم ويخاصموا محمدا صلى الله عليه وسلم وذلك ان المشركين قالوا يا محمد اخبرنا
عن الشاة اذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها قالوا افتزعم ان ما قتلت انت واصحابك حلال وما قتله الكلب
والصقر حلال وما قتله الله حرام فانزل الله عز وجل هذه الآية وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية
في تحريم الميتة كتبت فارس وهم المجوس الى مشركي قريش ان خاصموا محمدا وقولوا له ان ما ذبحت
فهو حلال وما ذبحه الله فهو حرام فانزل الله وان الشياطين يعني مردة الانس وهم المجوس ليوحون
الى اوليائهم يعني مشركي قريش وكان بين فارس والعرب موالاة ومكاتبة على الروم فعلى هذا
يكون المراد بالوحي المكاتبة في خفية (وان اطعتموهم) يعني في اكل الميتة وما حرم الله عليكم
(انكم لمشركون) يعني انكم اذا مثلهم في الشرك قال الزجاج فيه دليل على ان كل من احل شيأ
مما حرم الله او حرم شيأ مما احل الله فهو مشرك وانما سمي مشركا لانه اثبت حاكما غير الله عز وجل
ومن كان كذلك فهو مشرك * قوله عز وجل (اومن كان ميتا فاحييناه) يعني او من كان ميتا
بالكفر فاحييناه بالايمان وانما جعل الكفر موتا لانه جعل الايمان حياة لان الحي صاحب بصر يهتدي
به الى رشده ولما كان الايمان يهدي الى الفوز العظيم والحياة الابدية شبهه بالحياة (وجعلنا له نورا
يمشي به في الناس) يعني وجعلنا له نورا يستضيء به في الناس ويهتدي به الى قصد السبيل قيل النور
هو الاسلام لانه يخلص من ظلمات الكفر لقوله يخرجهم من الظلمات الى النور وقال قتادة هو
كتاب الله القرآن لانه بينة من الله مع المؤمن بما يعمله (كمن مثله في الظلمات) يعني كمن هو في ظلمة
الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة (ليس بخارج منها) يعني من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه
الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين ان المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا فاحييناه واعطاه نورا
يهتدي به في مصالحه وان الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيرا على
الدوام ثم اختلف المفسرون في هذين المثالين هل هما مخصوصان بانسانين معينين او هما عامان في
كل مؤمن وكافر فذكروا في ذلك قولين احدهما ان الآية في رجلين معينين ثم اختلفوا فيهما فقال
ابن عباس في قوله وجعلنا له نورا يمشي به في الناس يريد حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه
وسلم كمن مثله في الظلمات يريد بذلك ابا جهل بن هشام وذلك ان ابا جهل رمى النبي صلى الله عليه وسلم
بفرث فاخبر حمزة بما فعل ابو جهل وكان حمزة قد رجع من صيده وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد
فاقبل حمزة غضبان حتى علا ابا جهل وجعل يضربه بالقوس وجعل ابو جهل يتضرع الى حمزة
ويقول يا ابا يعلى اما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن اسفه منكم

اكثر من في الارض) اي
من في الجهة السفلية بالركون
الى الدنيا وعالم النفس والطبيعة
(يضلوك عن سبيل الله)
بتزيينهم زخارفهم عليك
ودعوتهم اياك الى ما هم فيه
(ان يتبعون الا الظن)
لكونهم محجوبين في مقام
النفس بالاوهام والخيالات
عن اليقين (وان هم الا
يخرصون) يخمنون المعاني
بالصور والآخرة بالدنيا
ويقدرون احوال المعاد
وذات الحق وصفاته كا
حوال المعاش وذواتهم وصفا
تهم فيشركون ويحللون
بعض المحرمات (ان ربك
هو اعلم من يضل عن سبيله
وهو اعلم بالمهتدين فكلوا)
مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم
بآياته مؤمنين ومالكم الا
تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه
وقد فصل لكم ما حرم عليكم
الا ما اضطررتم اليه وان
كثيرا ليضلون باهوائهم بغير

(عقولا)

فقولا تعبدون الحجارة من دون الله اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فأسلم حمزة يومئذ
فانزل الله هذه الآية وقال الضحاك نزلت في عمر بن الخطاب وابوجهل وقال عكرمة والكلبي نزلت
في عمار بن ياسر وابي جهل وقال مقاتل نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وابي جهل وذلك ان اباجهل
قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا نحن وهم كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى اليه
والله لا نؤمن حتى يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية والقول الثاني وهو قول الحسن في آخرين
ان هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر وهذا هو الصحيح لان المعنى اذا كان حاصلا في الكل
دخل فيه كل احد * وقوله تعالى (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) قال اهل السنة المزين
هو الله تعالى ويدل عليه قوله زينا لهم اعمالهم ولان حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعي
وحصوله لا يكون الا بخلق الله تعالى فدل ذلك على ان المزين هو الله تعالى وقالت المعتزلة المزين
هو الشيطان ويرده ما تقدم * وقوله تعالى (وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها) يعني وكما
جعلنا في مكة اكابر وعظماء جعلنا في كل قرية اكابر وعظماء وقيل وهو معطوف على ما قبله ومعناه
كما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية اكابر جمع الاكبر ولا يجوز ان يكون
مضافا لانه لا يتم المعنى بل في الآية تقديم وتأخير تقديره وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها
اكابر وانما جعل المجرمين اكابر لانهم اقدر على المكر والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم
وانما حصل ذلك لاجل رياستهم وذلك سنة الله انه جعل في كل قرية اتباع الرسل ضعفاءهم
وجعل فساقهم اكابرهم (ليمكروا فيها) قال ابوعبيدة المكر الخديعة والحيلة والغدر والفجور
زاد بعضهم والغيبة والنميمة والايمان الكاذبة وترويج الباطل قال ابن عباس معناه ليقولوا فيها
الكذب وقال مجاهد جلس على كل طريق من طرق مكة اربعة نفر ليصرفوا الناس عن الايمان
بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقولوا هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم (وما يمكرون
الا بانفسهم) يعني ما يحيق هذا المكر الا بهم لان وبال مكرهم يعود عليهم (وما يشعرون)
يعني ان وبال ذلك المكر يعود عليهم ويضرهم * قوله عزوجل (واذا جاءتهم آية قالوا لن
نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله) يعني النبوة وذلك ان الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم
لو كانت النبوة حقا لكنت انا اولى بها منك لاني اكبر منك سنا واكثر منك مالا فانزل الله هذه الآية
وقال مقاتل نزلت في ابي جهل وذلك انه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا كفرسي
رهان قالوا منا نبي يوحى اليه والله لا نؤمن به ولا نتبعه ابدا الا ان يأتينا وحي كما يأتيه فانزل الله هذه
الآية واذا جاءتهم آية يعني حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم قالوا
يعني الوليد بن المغيرة واباجهل بن هشام اوكل واحد من رؤساء الكفر ويدل عليه الآية التي
قبلها وهي قوله وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها فكان من مكر كفار قريش
ان قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله يعني النبوة وانما قالوا هذه المقالة الخبيثة حسدا
منهم للنبي صلى الله عليه وسلم وفي قولهم لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله قولان احدهما
وهو المشهور ان القوم ارادوا ان تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم
وان يكونوا متبوعين لا تابعين القول الثاني وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس ان المعنى
واذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لن نؤمن لك يعني لن
نصدقك حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله يعني حتى يوحى الينا ويأتينا جبريل بصدقك بانك

علم ان ربك هو اعلم بالمعتدين
(وذروا) معلوم مما مر في المائدة
ومسبب للنهي عن طاعة
المضلين واتباعهم (ظاهر الاثم)
سيئات الاعمال والاقوال
الظاهرة على الجوارح
(وباطنه ان الذين يكسبون
الاثم سيجزون بما كانوا
يقترفون ولا تأكلوا مما لم
يذكر اسم الله عليه وانه
لفسق وان الشياطين
ليوحون الى اوليائهم ليجا
دلوكم وان اطعتموهم انكم
لمشركون) العقائد الفاسدة
والعزائم الباطلة (او من كان
ميتا) بالجهل وهو النفس
وباحتجابه بصفاتها (فأحييناه)
بالعلم ومحبة الحق او بكشف
حجب صفاته بتجليات صفاتنا
(وجعلنا له نورا يمشي به
في الناس كمن مثله في الظلمات
ليس بخارج منها) من هدايتنا
وعلما اونورا من صفاتنا
اونورا منا بقيوميتنا له بذاتنا
على حسب مراتبه كمن

رسول الله فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوّة وانما طلبوا ان تخبرهم الملائكة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وانه رسول من الله تعالى وعلى القول الاول انهم طلبوا ان يكونوا انبياء ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى ﴿ الله اعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ يعنى انه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها ويعلم من لا يستحقها ومن ليس باهل لها وانتم لستم لها باهل وان النبوّة لا تحصل لمن يطلبها خصوصا لمن عنده حسد ومكر وغدر وقال اهل المعانى الابلغ فى تصديق الرسل ان لا يكونوا قبل البعثة مطاعين فى قومهم لان الطعن كان يتوجه عليهم فيقال انما كانوا رؤساء مطاعين فاتبعهم قومهم لاجل ذلك فكان الله تعالى اعلم بمن يستحق الرسالة فجعلها اليتيم ابى طالب دون ابى جهل والوليد وغيرهما من اكابر قريش ورؤسائها * وقوله تعالى ﴿ سيصيب الذين اجرموا صغار ﴾ اى ذلة وهوان وقيل الصغار وهو الذل الذى تصغر الى المرء نفسه فيه ﴿عند الله﴾ يعنى هذا من عند الله وقيل ان هذا الصغار ثابت لهم عند الله فعلى هذا القول انما يحصل لهم الصغار فى الآخرة وقيل معناه سيصيبهم صغار بحكم الله حكم به عليهم فى الدنيا ﴿وعذاب شديد﴾ يعنى فى الآخرة ﴿بما كانوا يمكرون﴾ يعنى انما حصل لهم هذه الصغار والعذاب بسبب مكرهم وحسدهم وطلبهم ما لا يستحقون * قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ اى الايمان يقال شرح الله صدره فانشرح اى وسعه لقبول الايمان والخير فتوسع وذلك ان الانسان اذا اعتقد فى عمل من الاعمال ان نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر مال بطبعه اليه وقويت رغبته فيه فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر وقيل الشرح الفتح والبيان يقال شرح فلان امره اذا اوضحه واظهره وشرح المسئلة اذا كانت مشكلة فاوضحها وبينها فقد ثبت ان للشرح معنيين احدهما الفتح ومنه يقال شرح الكافر بالكفر صدرا اى فتحه لقبوله ومنه قوله تعالى ولكن من شرح بالكفر صدرا وقوله افمن شرح الله صدره للاسلام يعنى فتحه ووسعه لقبوله والثانى ان الشرح نور يقذفه الله فى قلب العبد فيعرف بذلك النور الحق فيقبله وينشرح صدره له ومعنى الآية فمن يرد الله ان يهديه للايمان بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده يوفقه له وينشرح صدره لقبوله ويهوّنه عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به واحسانه اليه فعند ذلك يستنير الاسلام فى قلبه فيضئ به ويتسع له صدره ولما نزلت هذه الآية سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفسح قيل فهل لذلك امارة قال نعم الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت واسنده الطبرى عن ابن مسعود قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه هذه الآية فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام قال اذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا فهل لذلك من آية يعرف بها قال الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت * وقوله تعالى ﴿ومن يرد﴾ اى الله ﴿ ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ يعنى يجعل صدره ضيقا حتى لا يدخله الايمان وقال الكلبى ليس للخير فيه منفذ وقال ابن عباس اذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه واذا سمع ذكر الاصنام ارتاح الى ذلك وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وعنده اعرابى من كنانة فقال له ما الحرجة فيكم قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الاشجار التى لا تصل اليها راعية ولا وحشية

صفته هذا اى هذا القول وهوانه فى ظلمات من نفسه وصفاتها وافعالها ليس بخارج منها ﴿كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ للمحجوبين عملهم فاحتجبوا به ﴿وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ للحكمة المذكورة فى اعلاء الانبياء وكذا فى قرية وجود الانسان التى هى البدن جعلنا اكابر مجرميها من قوى النفس الامارة ليمكروا فيها باضلال القلب وفتنته واغوائه ﴿ وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون﴾ لان عاقبة مكرهم راجعة اليهم باحتراقهم بنيران فقدان الآلات والاسباب فى جحيم الهوى والحرمان عن اللذات والشهوات وحصول الآلات الجسمانية عند خراب البدن وعند المعاد والبعث فى أقبح الصور على

ولاشيء فقال عمر كذلك قلب المنافق لايصل اليه شيء من الخير واصل الحرج الضيق وهو مأخوذ من الحرجة وهي الاشجار الملتف بعضها على بعض حتى لايصل اليها شيء وقرأ ابن عباس هذه الآية فقال هل هنا احد من بني بكر قال رجل نعم قال ما الحرجة فيكم قال الوادي الكثير الشجر المستمسك الذي لاطريق فيه فقال ابن عباس كذلك قلب الكافر قال اهل المعاني لما كان القلب محلا للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالانشراح والانفساح ونوره فقبل ما اودعه من الايمان بالله ورسوله ووصف قلب من يريد ضلالته بالضيق الذي هو خلاف الشرح والانفساح فدل ذلك على ان الله تعالى صير قلب الكافر بحيث لايعي علما ولا استدلالا على توحيد الله تعالى والايمان به وفي الآية دليل على ان جميع الاشياء بمشيئة الله وارادته حتى ايمان المؤمن وكفر الكافر ❋ وقوله تعالى (كأنما يصعد في السماء) يعني ان الكافر اذا دعى الى الاسلام كأنه قد كلف ان يصعد الى السماء ولايقدر على ذلك وقيل يجوز ان يكون المعنى كان قلب الكافر يصعد الى السماء نبوا عن الاسلام وتكبرا وقيل ضاق عليه المذهب فلم يجد الا ان يصعد الى السماء وليس يقدر على ذلك وقيل هو من المشقة وصعوبة الامر فيكون المعنى ان الكافر اذا دعى الى الاسلام فانه يتكلف مشقة وصعوبة في ذلك كمن يتكلف الصعود الى السماء وليس يقدر على ذلك (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون) الكاف في كذلك تفيد التشبيه وفيه وجهان الاول معناه ان جعله الرجس عليهم كجعله صدورهم ضيقة حرجة والمعنى كما جعلنا صدورهم ضيقة حرجة كذلك يجعل الرجس عليهم الوجه الثاني قال الزجاج اي مثل ماقصصنا عليك كذلك يجعل الله الرجس قال ابن عباس الرجس الشيطان اي فيسلطه الله عليهم وقال مجاهد الرجس مالا خير فيه وفي رواية عن ابن عباس ان الرجس العذاب وقال الزجاج الرجس في الدنيا اللعنة وفي الآخرة العذاب ❋ قوله عز وجل (وهذا صراط ربك مستقيما) يعني وهذا الذي بينا لك يامحمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعني دينه الذي شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه قال ابن عباس في قوله وهذا صراط ربك مستقيما يعني الاسلام وقال ابن مسعود يعني القرآن لانه يؤدي من تبعه وعمل به الى طريق الاستقامة والسداد (قد فصلنا الآيات) يعني قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والامر والنهي وغير ذلك من احكام القرآن (لقوم يذكرون) يعني لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر قال عطاء يعني اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان (لهم دار السلام عند ربهم) يعني الجنة في قول جميع المفسرين قال الحسن والسدي السلام هو الله تعالى وداره الجنة ومعنى السلام في اسماء الله تعالى ذو السلام وهو جمع سلامة لانه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقص فعلى هذا القول اضيفت الدار الى السلام الذي هو اسم الله تعالى اضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبي صلى الله عليه وسلم عبد الله في قوله وانه لما قام عبد الله يدعوه واحتج لصحة هذا بان اضافة الدار الى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الاضافة مبالغة في تعظيم امرها وقيل ان السلام صفة للدار لانها دار السلامة الدائمة التي لاتنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كأنه قال لهم دار السلامة التي لايلقون فيها شيأ يكرهونه وقيل سميت بذلك لان جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى في وصفها

أسوأ الاحوال (واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) من صفة قلبية واشراق نوري من هيئة ملكية خلقية أو علم وحكمة وفيض من روح ينكرونها بالاعراض عنها ويتمنون من قبل الوهم والخيال ادراكات مثل ادراكات العقل والفكر وتركيبات تخيلية ومغالطات وهمية يعارضون بها البراهين الحقة حتى يؤمنوا بها ويذعنوا لها (الله أعلم حيث يجعل رسالته) لايضعها الا مواضعها من القوى الروحانية المجردة من المواد الهيولانية (سيصيب الذين أجرموا) باحتجابهم ومكرهم في اضلال من استعد للهدى أو اهتدى من القلوب الصافية (صغار عند الله) بزوال قدرتهم وتمكنهم بخراب البدن

ادخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تحيتهم فيها سلام وقال سلام قولا من رب رحيم لايسمعون فيها لغوا الاسلاما وقوله عندربهم يعني ان الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم اليها (وهو وليهم بما كانوا يعملون) يعني انه تعالى يتولى امرهم وإيصال المنافع اليهم ويدفع المضار عنهم وقيل معناه انه يتولاهم فى الدنيا بالتوفيق والهداية وفى الآخرة بالجزاء والجنة وقيل الولى هو الناصر والقريب يعني انه تعالى ينصرهم فى الدنيا ويقربهم فى الآخرة بسبب اعمالهم الصالحة التى كانوا يتقربون بها اليه فى الدنيا * قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا) اى اذكر يا محمد يوم نحشر المعادلين بالله الاصنام مع اوليائهم من الشياطين يعني نحشر المشركين والشياطين جميعا يوم القيامة (يامعشر الجن) فيه حذف تقديره يقول لهم يامعشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين (قد استكثرتم من الانس) يعني من اضلالهم واغوائهم وقال ابن عباس معناه اضللتم كثيرا من الانس وهذا التفسير لابدله من تأويل آخر لان الجن لايقدرون على اضلال الانس واغوائهم بانفسهم لانه لايقدر على الاجبار احد الاالله لانه هو المتصرف فى خلقه بما شاء فوجب ان يكون المعنى قد استكثرتم من الدعاء الى الاضلال مع مصادفة القبول من الانس (وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) يعني استمتع الجن بالانس والانس بالجن فاما استمتاع الانس بالجن فقال الكلبي كان الرجل فى الجاهلية اذاسافر فنزل بأرض قفراء وخاف على نفسه من الجن قال اعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه فيبيت فى جوارهم واما استمتاع الجن بالانس فهوانهم قالوا اسدنا الانس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفا فى قومهم وعظما فى انفسهم وقيل استمتاع الانس بالجن وهو ماكانوا يلقون اليهم من الاراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الامور التى كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم واستمتاع الجن بالانس طاعة الانس للجن فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصى وقيل استمتاع الانس بالجن فيما كانوا يدلونهم على انواع الشهوات واصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالانس هى طاعة الانس للجن فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم فصاروا كالرؤسا للانس والانس كالاتباع وقيل ان قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض هو من كلام الانس خاصة لان استمتاع الجن بالانس وبالعكس امر نادر لايكاد يظهر اما استمتاع الانس بعضهم ببعض فهو ظاهر فوجب حمل الكلام عليه (وبلغنا اجلنا الذى اجلت لنا) يعني ان ذلك الاستمتاع كان الى اجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة قال الحسن والسدى الاجل الموت وقيل هو وقت البعث للحساب فى يوم القيامة (قال) يعني قال الله لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والانس (النار مثواكم) يعني ان النار مقامكم ومقركم فيها ومصيركم اليها (خالدين فيها) يعني مقيمين فى نار جهنم ابدا (الاماشاء الله) اختلفوا فى معنى هذا الاستثناء فقيل معناه خالدين فيها الاقدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب الى حين دخولهم الى النار فان هذا الوقت ليسوا خالدين فيه فى النار وقيل المراد من هذا الاستثناء هو اوقات نقلتهم من عذاب الى عذاب آخر وذلك انهم يستغيثون من النار فينقلون الى الزمهرير ثم يستغيثون منه فينقلون الى النار فكانت مدة نقلتهم هى المراد من هذا الاستثناء ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس انه قال ان هذا الاستثناء يرجع الى قوم سبق فيهم علم الله انهم يسلمون ويصدقون النبي صلى الله عليه وسلم

(وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) بحرمانهم عما يلائمهم ووصول ماينافيهم فى المعاد الجسمانى بسبب مكرهم (فمن يرد الله ان يهديه) من هذه القوى للانقياد للعقل (يشرح صدره للاسلام) اى يسهل عليه ويجعل وجهه الذى يلى القلب ذا نتوء وسعة لقبول نوره وتمكنا من استسلامه له (ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا) يعسر عليه ويعجزه عن ذلك (حرجا) ذا ظلمة وقصور استعداد عن قبول النور كأنما يزاول امرا ممتنعا فى الاستنارة بنور القلب وطلب الفيض منه على هذا التأويل الذى ذكرناه وعلى المعنى الظاهر المراد من الاية السابقة فمن يرد الله ان يهديه للتوحيد يشرح صدره بقبول نور الحق واسلام الوجود الى الله بكشف

فيخرجون من النار قالوا فعلى هذا التأويل تكون ما فى قوله الاماشاء الله بمعنى من يعنى الامن شاءالله ونقل الطبرى عن ابن عباس انه كان يتأول هذا الاستثناء بان الله عز وجل جعل امر هؤلاء القوم فى مبلغ عذابهم الى مشيئته قال فى هذا الآية انه لاينبغى لاحد ان يحكم على الله فى خلقه ان لاينزلهم جنة ولانارا قال الزجاج والقول الاول اولى لان معنى الاستثناء انما هو من يوم القيامة لان قوله ويوم نحشرهم جميعا هو يوم القيامة ثم قال خالدين فيها منذ يبعثون الاماشاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدة محاسبتهم (ان ربك حكيم) يعنى فى تدبير خلقه وتصريفه اياهم فى مشيئته من حال الى حال وغير ذلك من افعاله وقيل حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصى وفى سائر وجوه المجازاة (عليم) يعنى بعواقب امور خلقه وماهم اليه صائرون كانه قال انما حكمت لهؤلاء الكفار بالخلود فى النار لعلى بأنهم يستحقون ذلك ❊ قوله عز وجل (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) الكاف فى وكذلك كاف التشبيه تقتضى شيأ تقدم ذكره فالتقدير كما انزلت العذاب بالجن والانس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولى بعض الظالمين بعضا اى نسلط بعضهم على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء فى الاثر من اعان ظالما سلطه الله عليه وقال قتادة نجعل بعضهم اولياء بعض فالمؤمن ولى المؤمن حيث كان واين كان والكافر ولى الكافر حيث كان واين كان وفى رواية اخرى عن قتادة قال يتبع بعضهم بعضا فى النار من الموالاة وقيل معناه نولى ظلمة الانس ظلمة الجن وظلمة الجن ظلمة الانس يعنى نكل بعضهم الى بعض وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية هو ان الله تعالى اذا اراد بقوم خيرا ولى عليهم خيارهم واذا اراد بقوم شرا ولى عليهم شرارهم فعلى هذا القول ان الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالما مثلهم فمن اراد ان يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم ❊ وقوله تعالى (بما كانوا يكسبون) يعنى يسلط عليهم من يظلمهم بسبب اعمالهم الخبيثة التى اكتسبوها ❊ قوله (يامعشر الجن والانس) المعشر كل جماعة امرهم واحد والجمع معاشر (الم يأتكم رسل منكم) اختلف العلماء فى معنى هذه الآية وهل كان من الجن رسل ام لا فذهب اكثر العلماء الى انه لم يكن من الجن رسول وانما كانت الرسل من الانس واجابوا عن قوله رسل منكم يعنى من احدكم وهم الانس لحذف المضاف فهو كقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من احدهما وهو الملح دون العذب وانما جاز ذلك لان ذكرهما قد جمع فى قوله مرج البحرين وهو جائز فى كل ما اتفق فى اصله فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الانس جاز مخاطبتهما بما ينصرف الى احد الفريقين وهم الانس وهذا قول الفراء والزجاج ومذهب جمهور اهل العلم قال الواحدى وعليه دل كلام ابن عباس لانه قال ريد انبياء من جنسهم ولم يكن من جنس الجن انبياء وذهب قوم الى انه ارسل الى الجن رسلا منهم كما ارسل الى الانس رسلا منهم قال الضحاك من الجن رسل كما من الانس رسل وظاهر الآية يدل على ذلك لانه قال تعالى الم يأتكم رسل منكم فخاطب الفريقين جميعا واجيب عن ذلك بان الله تعالى قال يامعشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم وهذا يقتضى كون الرسل بعضا من ابعاض هذا المجموع واذا كان الرسل من الانس كان الرسل بعضا من ابعاض هذا المجموع وكان هذا القول اولى من حمل لفظ الآية على ظاهرها فثبت بذلك كون الرسل من الانس لا من الجن ويحتمل ايضا ان يقال ان كافة

حجب صفات نفسه عن وجه قلبه الذى يلى النفس فيفسح لقبول نور الحق ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا باستيلائها عليه ضغطها له (كانما يصعد فى السماء) فى سماء روحه مع تلك الهيات البدنية وذلك أمر محال (كذلك يجعل الله الرجس) رجس التلوث بلوث التعلقات المادية أو رجس التعذب بالهيات البدنية (على الذين لايؤمنون وهذا) اى طريق التوحيد واسلام الوجه الى الله (صراط ربك مستقيما) لااعوجاج فيه بوجه من الوجوه يميل الى جانب الصورة الى جانب المعنى او الى النظر الى الغير والشرك به (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) المعارف والحقائق التى هى مركوزة فى استعدادهم فيتدوا بها (لهم دار السلام)

الرسل كانوا من الانس لكن الله تعالى يلقى الداعية فى قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل من الانس ثم يأتوا قومهم من الجن فيخبروهم بما سمعوا من الرسل وينذروهم به كما قال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين فكان اولئك النفر من الجن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومهم وهذا مذهب مجاهد فانه قال الرسل من الانس والنذر من الجن ونحو ذلك قال ابن جريج وابو عبيدة وقيل كانت الرسل يبعثون الى الجن ولكن بواسطة رسل الانس والله اعلم بمراده واسرار كتابه ❊ وقوله تعالى (يقصون عليكم آياتى) يعنى يخبرونكم بما اوحى اليهم من آياتى الدالة على توحيدى وتصديق رسلى (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) يعنى ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء عذابى فى يومكم هذا وهو يوم القيامة ولذلك ان الله تعالى يقول يوم القيامة لكفار الجن والانس على سبيل التقريع والتوبيخ ما اخبر فى كتابه وهو قوله تعالى يامعشر الجن والانس الآية فيجيبون بما اخبر عنهم فى قوله تعالى (قالوا) يعنى كفار الجن والانس (شهدنا على انفسنا) اعترفوا بأن الرسل قد اتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وانذروهم لقاء يومهم هذا وانهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى انما كان ذلك بسبب انهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا اليها (وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين) فى الدنيا فان قلت كيف اقروا على انفسهم بالكفر فى هذه الاية وجحدوا الشرك والكفر فى قوله والله ربنا ما كنا مشركين قلت يوم القيامة يوم طويل والاحوال فيه مختلفة فاذا رأوا ما حصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة انكروا الشرك لعل ذلك الانكار ينفعهم وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فحينئذ يختم على افواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر فذلك قوله تعالى وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين فان قلت لم كرر شهادتهم على انفسهم قلت شهادتهم الاولى اعتراف منهم بما كانوا عليه فى الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفى قوله وشهدوا على انفسهم ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لانفسهم وانهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة امرهم ان اضطروا الى الشهادة على انفسهم بالكفر والمقصود من شرح حالهم تحذير السامعين وزجر لهم عن الكفر والمعاصى ❊ قوله عز وجل (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره من بعثة الرسل اليهم وانذارهم سوء العاقبة وقال الزجاج معناه ذلك الذى قصصنا عليك من امر الرسل وامر عذاب من كذبهم (ان لم يكن ربك) يعنى لانه لم يكن ربك (مهلك القرى بظلم) قال الكلبى معناه لم يكن يهلكهم بذنوبهم من قبل ان تأتيهم الرسل فتنهاهم فان رجعوا والا اتاهم العذاب وهذا قول جمهور المفسرين قال الفراء يجوز ان يكون المعنى لم يكن ليهلكهم بظلم منه (واهلها غافلون) اى وهم غافلون فعلى قول الجمهور يكون الظلم فعلا للكفار وهو شركهم وذنوبهم التى عملوها وعلى قول الفراء انه لو اهلكهم قبل بعثة الرسل لكان ظالما والله عز وجل يتعالى عن الظلم والقول الاول اصح لانه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد عليه فى شئ من افعاله غير انه اخبر انه لا يعذب قبل بعثة الرسول ولو فعل ذلك لم يكن ظلما منه ❊ قوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) يعنى ولكل عامل بطاعة الله او بمعصيته درجات يعنى منازل يبلغها بعمله ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وانما سميت درجات لتفاضلها فى الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج وهذا انما يكون فى الثواب والعقاب على قدر اعمالهم

السلامة من كل نقص وآفة وخوف ظهور صفة ووجود بقية (عند ربهم) فى حضرة صفاته او حضرة ذاته (وهو وليهم بما كانوا يعملون) يعطيهم محبته وكماله ويدخلهم فى ظل صفاته ويجعلهم فى امانه بالبقاء السرمدى بعد فناء حدثانهم بسبب اعمالهم القلبية والقالبية فى سلوكهم (ويوم نحشرهم) فى يوم عين الجمع المطلق (جميعا) قلنا (يامعشر الجن) جن القوى النفسانية (قد استكثرتم من الانس) اى من الحواس والاعضاء الظاهرة او من الصور الانسانية بان جعلتموهم اتباعكم واهل طاعتكم اياهم وتسويلكم وتزيينكم الحطام الدنيوية واللذات الجسمانية عليهم ووسوستكم اياهم بالمعاصى (وقال اولياؤهم من الانس) الذين تولوهم (ربنا استمتع

فى الدنيا فمنهم من هو اعظم ثوابا ومنهم من هو اشد عقابا وهو قول جمهور المفسرين وقيل ان قوله تعالى ولكل درجات مما عملوا مختص باهل الطاعة لان لفظ الدرجة لايليق الابهم * وقوله تعالى (وماربك بغافل عما يعملون) مختص باهل الكفر والمعاصى ففيه وعيد وتهديد لهم والقول الاوّل اصح لان علمه تعالى شامل لكل المعلومات فيدخل فيه المؤمن والكافر والطائع والعاصى وانه عالم باعمالهم على التفصيل التام فيجزى كل عامل على قدر عمله ومايليق به من ثواب اوعقاب * قوله عز وجل (وربك الغنى) يعنى عن خلقه وذلك انه تعالى لمابين ان لكل عامل بطاعة اومعصية درجة على قدر عمله بين ان تخصيص المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب ليس لانه محتاج الى طاعة المطيع اومنتقص بمعصية العاصى بل هو الغنى على الاطلاق وان جميع الخلق فقراء اليه (ذو الرحمة) قال ابن عباس بأوليائه واهل طاعته وقال الكلبى بخلقه ذو التجاوز عنهم فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون (ان يشأ يذهبكم) يعنى يهلككم الخطاب لاهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف) يعنى وينشئ ويخلق (من بعدكم) يعنى من بعد اهلاككم (مايشاء) يعنى خلقا غيركم امثل واطوع منكم (كما انشأكم من ذرية قوم آخرين) اختلفت عبارات المفسرين فى هذه اللفظة فقال البغوى يعنى آباءهم الماضين قرنا بعد قرن ونحوه قال الواحدى وصاحب الكشاف يعنى من اولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم اهل سفينة نوح عليه السلام وقال الامام فخر الدين الرازى فى قوله تعالى ويستخلف من بعدكم يعنى من بعد اذهابكم لان الاستخلاف لايكون الا على طريق البدل من فائت واما قوله مايشاء فالمراد منه خلق ثالث اورابع واختلوا فيه فقال بعضهم خلقا آخر من امثال الجن والانس قال القاضى وهو الوجه الاقرب لان القوم يعلمون بالعادة انه تعالى قادر على انشاء امثال هذا الخلق فمتى كل خلق ثالث ورابع يكون اقوى فى دلالة القدرة فكانه تعالى نبه على ان قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التى هى الثواب فبين بهذا الطريق انه تعالى لرحمته لهؤلاء الاقوام الحاضرين ابقاهم وامهلهم ولوشاء لاماتهم وافناهم وابدل منهم سواهم ثم بين الله تعالى قوّة قدرته على ذلك فقال كما انشأكم من ذرية قوم آخرين لان المرء اذا تفكر علم انه تعالى خلق الانسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب ان يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة واذا كان كذلك فكما قدر على تصوير هذه الاجسام بهذه الخاصة فكذلك يقدر على تصويرهم خلقا آخر مخالفا لهذا آخر كلامه وقال الطبرى فى قوله كما انشأكم من ذرية قوم آخرين يقول كما احدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم ومعنى من فى هذا الموضع التعقيب كما يقال فى الكلام اعطيتك من دينارك ثوبا يعنى مكان الدينار ثوبا لا ان الثوب من الدينار بعض كذلك الذين خوطبوا بقوله كما انشأكم لم يرد باخبارهم هذا الخبر انهم انشؤا من اصلاب قوم آخرين ولكن معنى ذلك ماذكرنا انهم انشؤا مكان قوم آخرين قد اهلكوا قبلهم * قوله تعالى (ان ماتوعدون) به من مجئ الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة (لآت) يعنى انه كائن قريب (وماانتم بمعجزين) يعنى بفائتين حيثما كنتم يدرككم الموت (قل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم اى قل يامحمد (ياقوم) اى قل لقومك من كفار قريش (اعملوا على مكانتكم) وقرئ مكاناتكم على الجمع والمكانة تكون مصدرا يقال مكن مكانة

بعضنا ببعض) بانتفاع كل منافى صورة الجمعية بالآخر (و) قد (بلغنا اجلنا الذى اجلت لنا) بالموت اوبالمعاد الجسمانى على اقبح الصور واسوا العيش (قال النار) نار الحرمان عن اللذات ووجد ان الآلام (مثواكم خالدين فيها الا) وقت (ماشاء الله) ان تخفف اوينجى منكم من لايكون سبب تعذبه شركا راسخا فى اعتقاده (ان ربك حكيم) لايعذبكم الابهيآت نفوسكم التى كسبتم على ماتقتضيه الحكمة (عليم) بمن يتعذب باعتقاده فيدوم عذابه اوبهيآت سيآت اعماله فيعذب على حسبها ثم ينجو منه (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) اى مثل ذلك الجعل العظيم الهائل نجعل بعضهم ولى بعض بتوافق مكاسبهم وتناسبها فيتوالون ويحشرون معا فى العذاب كالجن والانس الذين ذكرناهم اونجعل بعضهم والى بعض بتعذيبه بمكسوباته فى النار (يامعشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم اياتى

اذا تمكن ابلغ التمكن و بمعنى المكان يقال مكان ومكانة كما يقال مقام ومقامة فقوله اعملوا على مكانتكم يحتمل ان يكون معناه اعملوا على تمكنكم من امركم واقصى استطاعتكم وامكانكم ويحتمل ان يكون معناه اعملوا على حالتكم التى انتم عليها كما يقال للرجل اذا امر ان يثبت على حاله مكانتك يا فلان اى اثبت على ما انت عليه لاتتغير عنه وقال ابن عباس معناه اعملوا على ناحيتكم (انى عامل) يعنى انى عامل على مكانتى التى انا عليها وما امرنى به ربى والمعنى اثبتوا على ما انتم عليه من الكفر والعداوة فانى ثابت على الاسلام والمصابرة * فان قلت ظاهر الآية يدل على امر الكفار بالاقامة على ما هم عليه من الكفر وذلك لايجوز * قلت معنى هذا الامر الوعيد والتهديد والمبالغة فى الزجر عما هم عليه من الكفر فكأنه قال اقيموا على ما انتم عليه من الكفران رضيتم لانفسكم بالعذاب الدائم فهو كقوله تعالى اعملوا ما شئتم ففيه تفويض امر العمل اليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه اطلاق لهم فى عمل ما ارادوه من الكفر والمعاصى * وقوله تعالى (فسوف تعلمون) يعنى لمن تكون العاقبة المحمودة لنا اولكم وقيل معناه فسوف تعلمون عند نزول العذاب بكم اينا كان على الحق فى عمله نحن ام انتم (من تكون له عاقبة الدار) يعنى فسوف تعلمون غدا فى القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهى الجنة (انه لايفلح الظالمون) قال ابن عباس معناه انه لايسعد من كفر بى واشرك * ثم فى هذه الآية قولان احدهما انها محكمة وهذا على قول من يقول ان المراد بقوله اعملوا على مكانتكم الوعيد والتهديد والقول الثانى انها منسوخة بآية السيف وهذا على قول من يقول ان المراد بها ترك القتال * قوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) الآية لما بين الله عز وجل قبح طريقة الكفار وما كانوا عليه من انكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر انواع من جهالاتهم واحكامهم الفاسدة تنبيها على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه فى الجاهلية فقال تعالى وجعلوا لله مما ذرأ يعنى مما خلق من الحرث يعنى الزرع والثمر والانعام يعنى ومن الانعام وهى الابل والبقر والغنم نصيبا يعنى قسما وجزأ قال المفسرون كان المشركون فى الجاهلية يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وانعامهم وسائر اموالهم نصيبا وللاصنام نصيبا فما جعلوه من ذلك لله صرفوه الى الضيفان والمساكين وما جعلوه للاصنام انفقوه عليها وعلى خدمتها فان سقط شئ مما جعلوه لله فى نصيب الاوثان تركوه وقالوا ان الله غنى عن هذا وان سقط شئ من نصيب الاوثان فيما جعلوه لله ردوه الى الاوثان وقالوا انها محتاجة اليه وكانوا اذا هلك شئ مما جعلوه لله لم يبالوا به واذا انتقص شئ مما جعلوه للاوثان جبروه مما جعلوه لله فذلك قوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا وفيه اختصار تقديره وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا وللاصنام نصيبا (فقالوا هذا لله بزعمهم) يعنى قولهم الذى هو بغير حقيقة لان معنى زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب ولذلك لايجئ الا فى موضع ذم لقائليه وانما نسبوا الى الكذب فى قولهم هذا لله بزعمهم وان كانت الاشياء كلها لله لاضافتهم نصيب الاصنام مع نصيب الله وهو قولهم (وهذا لشركائنا) يعنى الاصنام وانما سموا الاصنام شركاء لانهم جعلوا لها نصيبا من اموالهم ينفقونه عليها (فما كان لشركائهم) يعنى ما جعلوه لها من الحرث والانعام (فلا يصل الى الله) يعنى فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) والمعنى انهم كانوا يقرون ما جعلوه للاصنام مما جعلوه لله ولا يقرون مما جعلوه لله ما جعلوه للاصنام وقال قتادة كانوا اذا اصابتهم سنة اى قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله واكلوا منه ووفروا ما جعلوه لشركائهم

ويندرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحيوة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين) من البشر الذين هم جنسكم وعلى التأويل المذكورة من عقولكم التى هى قوى من جنسكم وهذه الاسئلة والاجوبة والشهادات كلها بلسان الحال واظهار الاوصاف كما قيل قال الجدار للوتد لم تشقنى قال الوتد سل من يدقنى وكشهادة الايدى والارجل بصورها التى تناسب هيآت افعالها وتعذيبها (ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون) اشارة الى ارسال الرسل وتبيين الآيات والزام الحجة بالانذار والتهديد اى الامر ذلك لان ربك لم يكن مهلك القرى على غفلتهم ظالما لانه ينافى الحكمة (ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما تعملون وربك الغنى ذو الرحمة) فى القرب والبعد من اعمالهم التى عملوها (ان يشأ يذهبكم) بفناء عينكم (ويستخلف من بعدكم) من اهل طاعته

(ولم)

ولم يأكلوا منه شيأ وقال الحسن والسدى كانوا اذا هلك ماجعلوه لشركائهم اخذوا بدله مما جعلوه لله ولايفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم فلذلك ذمهم الله تعالى فقال (ساء مايحكمون) يعنى بئس مايحكمون ويقضون وذلك انهم رجحوا جانب الاصنام على جانب الله تعالى فى الرعاية والحفظ وهذا سفه منهم وقيل ان الاشياء كلها لله عز وجل وهو خلقها فلما جعلوا للاصنام جزأ من المال وهى لاتملك ولاتخلق ولاتضر ولاتنفع نسبوا الى الاساءة فى الحكم والمقصود من ذلك بيان ماكانوا عليه فى الجاهلية من هذه الاحكام الفاسدة التى لم يرد بها شرع ولانص ولايحسنها عقل

* قوله عز وجل (وكذلك) عطف على قوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا يعنى كما فعلوا ذلك جهلا منهم كذلك زين لكثير منهم قتل اولادهم شركاؤهم والمعنى ان جعلهم لله نصيبا من اموالهم ولشركائهم نصيبا فى غاية الجهل بمعرفة الخالق المنعم لانهم جعلوا الاصنام مثله فى استحقاق النصيب وكذلك اقدامهم على قتل اولادهم فى نهاية الجهالة ايضا فكأنه قال ومثل ذلك الذى فعلوه فى القسم جهلا وخطأ وضلالا كذلك (زين) يعنى حسن (لكثير من المشركين قتل اولادهم) يعنى به وأد البنات احياء مخافة الفقر والعيلة (شركاؤهم) يعنى شياطينهم امروهم ان يقتلوا اولادهم خشية الفقر وسميت الشياطين شركاء لانهم اطاعوهم فيما امروهم به من معصية الله وقتل الاولاد فاشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم واضيف الشركاء الى المشركين لانهم اطاعوهم واتخذوهم اربابا وقال الكلبى شركاؤهم سدنة آلهتهم يعنى خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الاولاد وكان الرجل فى الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول الشركاء هم السدنة وخدام الاصنام سموا شركاء لانهم اشركوهم فى الطاعة (ليردوهم) يعنى ليهلكوهم بذلك الفعل الذى امروهم به والارداء فى اللغة الاهلاك قال ابن عباس ليردوهم فى النار (وليلبسوا عليهم دينهم) يعنى وليخلطوا عليهم دينهم قال ابن عباس ليدخلوا عليهم الشك فى دينهم وكانوا على دين اسمعيل عليه السلام فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين وانما فعلوا ذلك ليزيلوهم عن الدين الحق الذى كان عليه اسمعيل وابراهيم عليهما الصلاة والسلام فوضعوا لهم هذه الاوضاع الفاسدة وزينوها لهم (ولو شاء الله مافعلوه) يعنى ولو شاء الله لعصمهم من ذلك الفعل القبيح الذى زين لهم من تحريم الحرث والانعام وقتل الاولاد اخبر الله عز وجل ان جميع الاشياء بمشيئته وارادته اذ لو لم يشا مافعلوا ذلك (فذرهم) يعنى فاتركهم يامحمد (ومايفترون) يعنى ومايختلقون من الكذب على الله فان الله لهم بالمرصاد * قوله تعالى (وقالوا) يعنى المشركين (هذه انعام وحرث حجر) اى حرام واصله المنع لانه منع من الانتفاع منه بتحريمه وقيل هو من التضييق والحبس لانهم كانوا يحبسون اشياء من انعامهم وحروثهم لآلهتهم قال مجاهد يعنى بالانعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى (لايطعمها الا من نشاء بزعمهم) يعنى يأكلها خدام الاصنام والرجال دون النساء (وانعام حرمت ظهورها) يعنى الحوامى وهى الانعام التى حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لايركبونها (وانعام لايذكرون اسم الله عليها) يعنى لايذكرون اسم الله عليها عند الذبح وانما كانوا يذكرون عليها اسماء الاصنام وقيل معناه لايحجون عليها ولايركبونها لفعل الخير لانه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير (افتراء عليه) يعنى انهم كانوا يفعلون هذه الافعال ويزعمون ان الله امرهم بها وذلك اختلاق وكذب على الله عز وجل (سيجزيهم بما

برحمته (مايشاء كما انشأكم من ذرية قوم آخرين ان ماتوعدون لآت وماانتم بمعجزين قل ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار انه لايفلح الظالمون وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلايصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء مايحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله مافعلوه فذرهم ومايفترون وقالوا هذه انعام وحرث حجر لايطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله

كانوا يفترون) فيه وعيد وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب * قوله عز وجل (وقالوا ما
في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا) يعني نسائنا قال ابن عباس وقتادة
والشعبي اراد اجنة البحائر والسوائب فما ولد منها حيا فهو خالص للرجال دون النساء وما ولد منها
ميتا اكله الرجال والنساء جميعا وهو قوله تعالى (وان يكن ميتة فهم فيه شركاء) ودخلت الهاء
في خالصة للتأكيد والمبالغة كقولهم رجل علامة ونسابة وقال الفراء دخلت الهاء لتأنيث الانعام
لان ما في بطونها مثلها فانث بتأنيثها وقال الكسائي خالص وخالصة واحد مثل وعظ وموعظة
وقيل اذا كان اللفظ عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى وتذكيره على اللفظ كما في هذه الآية
فانه انث خالصة على المعنى وذكر ومحرم على اللفظ (سيجزيهم وصفهم) يعني سيكافئهم بسبب وصفهم
على الله الكذب (انه حكيم عليم) فيه وعيد وتهديد يعني انه تعالى حكيم فيما يفعله عليم بقدر استحقاقهم
* قوله تعالى (قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم) قال عكرمة نزلت فيمن يئد البنات
من ربيعة ومضر وكان الرجل يقاضي الرجل على ان يستحيي جارية ويئد اخرى فاذا كانت
الجارية التي توأد غدا الرجل اوراح من عند امرأته وقال لها انت علي كظهر امي ان رجعت اليك
ولم تئديها فتخذ لها في الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها بينهن حتى اذا
ابصرته راجعا دستها في حفرتها ثم سوت عليها التراب وقال قتادة هذا من صنيع اهل الجاهلية
كان احدهم يقتل ابنته مخافة السبي والفاقة ويغذو كلبه اما سبب الخسران المذكور في قوله قد خسر
الذين قتلوا اولادهم ان الولد نعمة عظيمة انعم الله بها على الوالد فاذا تسبب الرجل في ازالة هذه
النعمة عنه وابطالها فقد استوجب الذم وخسر في الدنيا والآخرة اما خسارته في الدنيا فقد سعى
في نقص عدده وازالة ما انعم الله به عليه واما خسارته في الآخرة فقد استحق بذلك العذاب العظيم
وقوله سفها بغير علم يعني فعلوا ذلك للسفاهة وهي الخفة والجهالة المذمومة وسبب حصول هذه
السفاهة هو قلة العلم بل عدمه لان الجهل كان هو الغالب عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولهذا سموا بالجاهلية * وقوله تعالى (وحرموا ما رزقهم الله) يعني البحائر والسوائب
والحامي وبعض الحروث وبعض ما في بطون الانعام وهذا ايضا من اعظم الجهالة (افتراء على الله)
يعني انهم فعلوا هذه الافعال المذمومة وزعموا ان الله امرهم بذلك وهذا افتراء على الله وكذب
وهذا ايضا من اعظم الجهالة لان الجراءة على الله والكذب عليه من اعظم الذنوب واكبر الكبائر
ولهذا قال تعالى (قد ضلوا) يعني في فعلهم عن طريق الحق والرشاد (وما كانوا مهتدين) يعني
الى طريق الحق والصواب في فعلهم (خ) عن ابن عباس قال اذا سرك ان تعلم جهل العرب فاقرأ ما
فوق الثلاثين والمائة من سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم الى قوله قد ضلوا
وما كانوا مهتدين * قوله عز وجل (وهو الذي انشأ جنات معروشات) يعني والله الذي ابتدع
وخلق جنات يعني بساتين معروشات (وغير معروشات) يعني مسموكات مرتفعات وغير مرتفعات
واصل العرش في اللغة شئ مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم اعرشه
عرشا وعرشته تعريشا اذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش اذا علاه وركبه واختلفوا
في معنى قوله معروشات وغير معروشات فقال ابن عباس المعروشات ما انبسط على الارض وانتشر مما
يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك وغير معروشات ما قام على ساق ونسق كالنخل والزرع

قد ضلوا وما كانوا مهتدين
وهو الذي انشأ جنات
معروشات وغير معروشات
والنخل والزرع مختلفا
اكله والزيتون والرمان
متشابها وغير متشابه كلوا
من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه
يوم حصاده ولا تسرفوا
انه لا يحب المسرفين ومن
الانعام حمولة وفرشا كلوا
مما رزقكم الله ولا تتبعوا
خطوات الشيطان انه لكم
عدو مبين ثمانية ازواج
من الضأن اثنين ومن
المعز اثنين قل آلذكرين
حرم ام الانثيين اما
اشتملت عليه ارحام الانثيين
نبؤني بعلم ان كنتم صادقين
ومن الابل اثنين ومن
البقر اثنين قل آلذكرين
حرم ام الانثيين اما اشتملت
عليه ارحام الانثيين ام
كنتم شهداء اذ وصاكم الله
بهذا فمن اظلم ممن افترى
على الله كذبا ليضل الناس
بغير علم ان الله لا يهدي
القوم الظالمين قل لا اجد فيما
اوحي الي محرما على طاعم
يطعمه الا ان يكون ميتة
اودما مسفوحا اولحم
خنزير فانه رجس اوفسقا
اهل لغير الله به فمن اضطر

وسائر الشجر وقال الضحاك كلاهما في الكرم خاصة لان منه مايعرش ومنه مالم يعرش بل يبقى على
وجه الارض منبسطا وقيل المعروشات ماغرسه الناس في البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره
وغير معروشات هو ما انبته الله في البرارى والجبال من كرم اوشجر (والنخل والزرع) يعنى وانشأ
النخل والزرع وهو جميع الحبوب التي تقتات وتدخر (مختلفا اكله) يعنى به اختلاف الطعوم
في الثمار كالحلو والحامض والجيد والردئ ونحو ذلك (والزيتون والرمان متشابها) يعنى
في المنظر (وغير متشابه) يعنى في المطعم كالرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف وقيل ان ورق
الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرتهما مختلفة في الجنس والطعم (كلوا من ثمره اذا اثمر) لما ذكر ما
انعم الله به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على انواع من الثمار ذكر ماهو المقصود الاصلى وهو
الانتفاع بها فقال تعالى كلوا من ثمره اذا اثمر وهذا امر اباحة وتمسك بهذا بعضهم فقال الامر قد يرد الى غير
الوجوب لان هذه الصيغة مفيدة لدفع الحرج وقال بعضهم المقصود منه اباحة الاكل قبل اخراج الحق
لانه تعالى لما اوجب الزكاة في الحبوب والثمار كان يحتمل ان يحرم على المالك ان يأكل منها شيأ قبل
اخراج الواجب فيها لمكان شركة الفقراء والمساكين معه فاباح الله ان يأكل قبل اخراجه لان رعاية حق
النفس مقدمة على رعاية حق الغير وقيل انما قال تعالى كلوا من ثمره اذا اثمر بصيغة الامر ليعلم ان المقصود
من خلق هذه الاشياء التي انعم الله بها على عباده هو الاكل (وآتوا حقه يوم حصاده) يعنى يوم جذاذه
وقطعه واختلفوا في هذا الحق المأمور باخراجه فقال ابن عباس وانس بن مالك هو الزكاة المفروضة وهذا
قول طاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب ومحمد بن الحنفية وقتادة قال قتادة في قوله وآتوا
حقه يوم حصاده اى من الصدقة المفروضة ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم سن فيما سقت السماء
والعين السائحة اوسقاه النيل والندى اوكان بعلا العشر كاملا وان سقى بنضح اوسانية فنصف
العشر وهذا فيما يكال من الثمرة اوالزرع وبلغ خمسة اوسق وذلك ثلثمائة صاع فقد وجب فيها حق
الزكاة وفي رواية عن ابن عباس في قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده قال هو العشر ونصف العشر * فان
قلت على هذا التفسير اشكال وهو ان فرض الزكاة كان بالمدينة وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل قوله
وآتوا حقه يوم حصاده على الزكاة المفروضة * قلت ذكر ابن الجوزى في تفسيره عن ابن عباس وقتادة
ان هذه الآية نزلت بالمدينة فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت في حكم الزكاة وان قلنا ان هذه
الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة لانه قد روى عن ابن عباس انه قال نسخت آية الزكاة كل
صدقة في القرآن وقيل في قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده انه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد
وهو اطعام من حضر وترك ماسقط من الزرع والثمر وهذا قول على بن الحسن وعطاء ومجاهد وحماد
قال ابراهيم هو الضغث وقال الربيع هو لقاط السنبل وقال مجاهد كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام
فيأكل منه من مر وقال زيد بن الاصم كان اهل المدينة اذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيعلقونه
في جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه اكله فعلى هذا القول هل هذا الامر
امر وجوب اواستحباب وندب فيه قولان احدهما انه امر وجوب فيكون منسوخا بآية الزكاة
وبقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الاعرابي هل على غيرها قال الا ان تطوع والقول الثاني انه امر
ندب واستحباب فتكون الآية محكمة وقال سعيد بن جبير كان هذا حقا يؤمر باخراجه في ابتداء
الاسلام ثم صار منسوخا بايجاب العشر ولقول ابن عباس نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن

غير باغ ولا عاد فان ربك
غفور رحيم وعلى الذين
هادوا حرمنا كل ذى ظفر
ومن البقر والغنم حرمنا
عليهم شحومهما الا ما حملت
ظهورهما اوالحوايا اوما
اختلط بعظم ذلك) اى
تحريم الطيبات عليهم جزاء
(جزيناهم ببغيهم) بظلمهم
(وانا لصادقون) في ايعادهم
بجزاء الظلم (فان كذبوك)
بان الله واسع المغفرة فلا
يعذبنا بظلمنا (فقل) بلى
(ربكم ذو رحمة واسعة
ولا يرد بأسه) ولكنه
ذو قهر شديد فلا ترد رحمته
بأسه (عن القوم المجرمين)
بل ربما اودع قهره في صورة
لطفه ولطفه في صورة
قهره (سيقول الذين اشركوا
لو شاء الله مااشركنا
ولا آباؤنا ولا حرمنا
من شئ كذلك كذب
الذين من قبلهم) اى كذب
المكرون الرسل من قبلهم
بتعليق كفرهم بمشيئة الله
عنادا وعتوا افعذبوا بكفرهم
(قل هل عندكم من علم
فتخرجوه لنا ان تتبعون الا
الظن وان انتم الا تخرصون)
اى ان كان لكم علم بذلك
وجهة فبينوا وانما قال ذلك

واختار هذا القول الطبري وصححه واختار الواحدي والرازي القول الاول وصححاه * فان قلت فعلى القول الاول كيف تؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب في السنبل وانما يجب الاخراج بعد التصفية والجفاف * قلت معناه قدروا اداء اخراج الواجب منه يوم الحصاد فانه قريب من زمان التنقية والجفاف ولان النخل يجب اخراج الحق منه يوم حصاده وهو الصرام والزرع محمول عليه الا انه لا يمكن اخراج الحق منه الا بعد التصفية وقيل معناه وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التصفية وقيل ان فائدة ذكر الحصاد ان الحق لا يجب بنفس الزرع وبلوغه انما يجب يوم حصاده وحصوله في يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله في يد مالكه * وقوله تعالى (ولا تسرفوا) الاسراف تجاوز الحد فيما يفعله الانسان وان كان في الانفاق اشهر وقيل السرف تجاوز ما حد لك وسرف المال انفاقه في غير منفعة ولهذا قال سفيان ما انفقت في غير طاعة الله فهو سرف وان كان قليلا قال ابن عباس في رواية عنه عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة فقسمها في يوم واحد ولم يترك لاهله شيا فانزل الله هذه الآية ولا تسرفوا وقال السدي معناه لا تعطوا اموالكم وتقعدوا فقراء قال الزجاج فعلى هذا لو اعطى الانسان كل ماله ولم يوصل الى عياله شيأ فقد اسرف لانه قد صح في الحديث ابدأ بمن تعول وقال سعيد بن المسيب معناه لا تمنعوا الصدقة فتأويل الآية على هذا القول لا تجاوزوا الحد في البخل والامساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وهذان القولان يشتركان في ان المراد من الاسراف مجاوزة الحد الا ان الاول في البذل والاعطاء والثاني في الامساك والبخل وقال مقاتل معناه لا تشركوا الاصنام في الحرث والانعام وهذا القول ايضا يرجع الى مجاوزة الحد لان من شرك الاصنام في الحرث والانعام فقد جاوز ما حد له وقال الزهري معناه لا تنفقوا في معصية الله عز وجل وقال مجاهد الاسراف ما قصرت به في حق الله تعالى ولو كان ابو قبيس ذهبا فانفقته في طاعة الله لم تكن مسرفا ولو انفقت درهما او مدا في معصية الله كنت مسرفا وقال ابن زيد انما خوطب بهذا السلطان نهى ان يأخذ من رب المال فوق الذي الزم الله ماله يقول الله عز وجل للسلاطين لا تسرفوا اي لا تأخذوا بغير حق فكانت الآية بين السلطان وبين الناس * وقوله تعالى (انه لا يحب المسرفين) فيه وعيد وزجر عن الاسراف في كل شيء لان من لا يحبه الله فهو من اهل النار * قوله تعالى (ومن الانعام) يعني وانشأ من الانعام (حمولة) وهي كل ما يحمل عليها من الابل (وفرشا) يعني صغار الابل التي لا تحمل قال ابن عباس الحمولة هي الكبار من الابل والفرش هي الصغار من الابل وقال في رواية اخرى عنه ذكرها الطبري اما الحمولة فالابل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه واما الفرش فالغنم وقال الربيع بن انس الحمولة الابل والبقر والفرش المعز والضأن فالحمولة كل ما يحمل عليها من الانعام والفرش ما لا يصلح للحمل سمي فرشا لانه يفرش للذبح ولانه قريب من الارض لصغره (كلوا مما رزقكم الله) يعني كلوا مما احله الله لكم من هذه الانعام والحرث (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) يعني لا تسلكوا طريقه وآثاره في تحريم الحرث والانعام كما فعله اهل الجاهلية (انه) يعني الشيطان (لكم عدو مبين) يعني انه مبين العداوة لكم ثم بين الحمولة والفرش فقال عز وجل (ثمانية ازواج) يعني وانشأ من الانعام ثمانية ازواج يعني ثمانية اصناف والزوج في اللغة الفرد اذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللانثى زوج (من الضأن اثنين) يعني الذكر والانثى والضأن

اشارة الى قولهم لو شاء الله ما اشركنا لانهم لو قالوا ذلك من علم لعلموا ان ايمان الموحدين وكل شيء لا يقع الا بارادة الله فلم يعادوهم ولم ينكروهم بل والوهم ولم يبق بينهم وبين المؤمنين خلاف ولعمري انهم لو قالوا ذلك عن علم لما كانوا مشركين بل كانوا موحدين ولكنهم اتبعوا الظن في ذلك وبنوا على التقدير والتخمين لغرض التكذيب والعناد وعلى ما سمعوا من الرسل الزاما لهم واثباتا لعدم امتناعهم عن الرسل لانهم محجوبون في مقام النفس واني لهم اليقين ومن اين لهم الاطلاع على مشيئة الله (قل فلله الحجة البالغة) اي ان كان ظنكم صدقا في تعليق شرككم بمشيئة الله فليس لكم حجة على المؤمنين وعلى غيركم من اهل دين لكون كل دين حينئذ بمشيئة الله فيجب ان توافقوهم وتصدقوهم بل لله الحجة عليكم في وجوب تصديقهم واقراركم بانكم اشركتم بمن لا يقع امر الا بارادته ما لا ارادة له اصلا فانتم اشقياء في الازل

ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والانثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز اثنين) يعنى الذكر والانثى والمعز ذوات الشعر من الغنم والواحد ماعز والجمع معزى (قل آلذكرين حرم ام الانثيين) استفهام انكار اى قل يا محمد لهؤلاء الجهلة آلذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم ام الانثيين منهما فان كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام وان كان حرم الانثيين منهما فكل اناثهما حرام (اما اشتملت عليه ارحام الانثيين) يعنى ام حرم ما اشتملت عليه ارحام الانثيين من الضأن والمعز فانها لا تشتمل الا على ذكر او انثى (نبئونى) اى اخبرونى وفسروا لى ما حرمتم (بعلم ان كنتم صادقين) يعنى ان الله حرم ذلك عليكم (ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين) وهذه اربعة ازواج اخر بقية الثمانية (قل آلذكرين حرم ام الانثيين اما اشتملت عليه ارحام الانثيين) وتفسير هذه الآية نحو ما تقدم وفى هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله تعالى لاهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله وذلك انهم كانوا يقولون هذه انعام وحرث حجر وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال كما اخبر الله عنهم فى كتابه فلما جاء الاسلام وثبتت الاحكام جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمى فقال يا محمد بلغنا انك تحرم اشياء مما كان آباؤنا يفعلونه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمتم اصنافا من النعم على غير اصل وانما خلق الله هذه الازواج الثمانية للاكل والانتفاع بها فمن اين جاء هذا التحريم من قبل الذكر ام من قبل الانثى فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لمالك يا مالك ألا تتكلم فقال بل انت تكلم واسمع منك قال المفسرون فلو قال جاء التحريم من قبل الذكر بسبب الذكورة وجب ان يحرم جميع الذكور ولو قال بسبب الانوثة وجب ان يحرم جميع الاناث وان كان باشتمال الرحم عليه فينبغى ان يحرم الكل لان الرحم لا يشتمل الا على ذكر او انثى واما تخصيص التحريم بالولد الخامس او السابع او بالبعض دون البعض فمن اين ذلك التحريم فاحتج الله على بطلان دعواهم بهاتين الآيتين واعلم نبيه صلى الله عليه وسلم ان كل ما قالوه من ذلك واضافوه الى الله فهو كذب على الله وانه لم يحرم شيأ من ذلك وانهم اتبعوا فى ذلك اهواءهم وخالفوا امر ربهم * وذكر الامام فخر الدين فى معنى الآية وجهين آخرين ونسبهما الى نفسه فقال ان هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الانكار يعنى انكم لا تقرون بنبوة نبى ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بان هذا يحل وهذا يحرم والوجه الثانى انكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى مخصوصا بالابل فالله تعالى بين ان النعم عبارة عن هذه الانواع الاربعة وهى الضأن والمعز والبقر والابل فلما لم تحكموا بهذه الاحكام فى هذه الانواع الثلاثة وهى الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الابل بهذا الحكم دون هذه الانواع الثلاثة * قوله تعالى (ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا) يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين يزعمون ان الله حرم عليهم ما حرموا على انفسهم من الانعام والحرث هل شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به فانكم لا تقرون بنبوة احد من الانبياء فكيف تثبتون هذه الاحكام وتنسبونها الى الله عز وجل ولما احتج الله عليهم بهذه الحجة وبين انه لا مستند لهم فى ذلك قال تعالى (فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم)

مستحقون للبعد والعقاب (فلو شاء لهداكم اجمعين) اى بلى صدقتم ولكن كما شاء كفركم لو شاء لهداكم كلكم فبأى شئ علمتم انه لم يشأ هدايتكم حتى اصررتم وهذا تهييج لمن عسى ان يكون له استعداد منهم فيقمع ويهتدى فيرجع عن الشرك ويؤمن (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم) لما ثبت ان المشركين فى التحريم والتحليل يتبعون اهواءهم اذ الشرك فى نفسه ليس الا عبادة الهوى والشيطان فلما احتجبوا بصفات النفس عن صفات الحق وامروا عليهم الهوى وعبدوه اطاعوا اوامره

يعني فمن اشد ظلما وابعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم مالم يحرمه الله الى الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله جهلا منه اذليس هو على بصيرة وعلم في ذلك الذي ابتدعه ونسبه الى الله ويقول ان الله امرنا بهذا قيل اراد به عمرو بن لحي لانه اول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين ابراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته او ابتدع شيأ لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك الى الله تعالى لان اللفظ عام فلا وجه للتخصيص فكل من ادخل في دين الله ماليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد (ان الله لايهدى القوم الظالمين) يعني ان الله لا يرشد ولا يوفق من كذب على الله واضاف اليه مالم يشرعه لعباده * قوله عز وجل (قل لا احد فيما اوحى الىّ محرما على طاعم يطعمه) اعلم انه لما بين الله تعالى فساد طريقة اهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحليل والتحريم من عند انفسهم واتباع اهوائهم فيما احلوه وحرموه من المطعومات اتبعه بالبيان الصحيح في ذلك وبين ان التحريم والتحليل لايكون الا بوحي سماوي وشرع نبوي فقال تعالى قل اي قل يامحمد لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين يحللون ويحرمون من عند انفسهم لا اجد فيما اوحى الىّ وقيل انهم قالوا فما الحرام اذا فنزل قل لا اجد فيما اوحى الىّ محرما يعني شيأ محرما على طاعم يطعمه يعني على آكل يأكله (الا ان يكون ميتة او دما مسفوحا) يعني سائلا مصبوبا (او لحم خنزير فانه رجس) اي نجس (او فسقا اهل لغير الله به) يعني ماذبح على غير اسم الله تعالى فبين الله تعالى في هذه الآية ان التحريم والتحليل لايكون الا بوحي منه وان المحرمات محصورة في الاربعة الاشياء المذكورة في هذه الآية وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وماذبح على غير اسم الله وهذا مبالغة في ان التحريم لايخرج عن هذه الاربعة وذلك انه ثبت انه لا طريق الى معرفة المحرمات الا بالوحي وثبت ان الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الاربعة الاشياء ولهذا اختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب بعضهم الى ظاهرها وانه لايحرم شئ من سائر المطعومات والحيوان الا ماذكر في هذه الآية روى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بان هذه الآية محكمة لانها خبر والخبر لايدخله النسخ واحتجوا بان هذه الآية وان كانت مكية لكن يعضدها آية مدنية وهي قوله تعالى في سورة البقرة انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهلّ به لغير الله وكلمة انما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم وذهب جمهور العلماء الى ان هذا التحريم لايختص بهذه الاشياء المنصوص عليها في هذه الآية فان المحرم بنص الكتاب هو ماذكر في هذه الآية وقد حرمت السنة اشياء فوجب القول بها منها تحريم الحمر الاهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير عن المقدام ابن معديكرب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على اريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وانما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله تعالى اخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ولابي داود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اني اوتيت الكتاب ومثله معه الا يوشك رجل شبعان على اريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه الا لايحل لكم الحمار الاهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد الا ان يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم ان يقروه فان لم يقروه فله ان يعقبهم بمثل قراه

ونواهيه في التحريم والتحليل بين ان التحريم والتحليل المتبع فيهما امر الله تعالى ماهما ولما كان الكلام معهم في تحريم الطيبات عدد المحرمات ليستدل بها على المحللات لحصر جميع انواع الفضائل بالنهي عن اجناس الرذائل وابتدأ بالنهي عن رذيلة القوة النطقية التي هي اشرفها فان رذيلتها اكبر الكبائر مستلزمة لجميع الرذائل بخلاف رذيلة اخويها من القوتين البهيمية والسبعية فقال (الا تشركوا به شيا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم) اذ الشرك من خطئها في النظر وقصورها عن استعمال

عن ابن عباس قال كان اهل الجاهلية يأكلون اشياء ويتركون اشياء تقذرا فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وانزل كتابه واحل حلاله وحرم حرامه فما احل فهو حلال وما حرم فهو حرام وماسكت عنه فهو معفو وتلا قل لا اجد فيما اوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة الآية اخرجه ابوداود (م) عن ابن عباس قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (م) عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن اكل لحوم الحمر الاهلية (ق) عن جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية واذن في الخيل وفي رواية اكلنا من خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن اكل الهر واكل ثمنه وقد استثنى الشارع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال واباح اكل ذلك وقد تقدم دليله والاصل في ذلك عند الشافعي ان كل مالم يرد فيه نص بتحريم اوتحليل فما كان امر الشرع بقتله كما ورد في الصحيح خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وهي الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور وروى عن سعد بن ابي وقاص ان النبي صلى الله عليه وسلم امر بقتل الوزغ اخرجه البخاري ومسلم وسماه فويسقا وعن ابن عباس قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل اربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد اخرجه ابوداود فهذا كله حرام لايحل اكله وماسوى ذلك فالمرجع فيه الى الاغلب من عادة العرب فما يستطيبه الاغلب منهم فهو حلال ومايستخبثه الاغلب منهم ولايأكلونه فهو حرام لان الله خاطبهم بقوله احل لكم الطيبات فما استطابوه فهو حلال فهذا تقرير مايحل ويحرم من المطعومات * واما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه احدها ان يكون المعنى لا اجد محرما مما كان اهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها الا ما اوحي الي في هذه الآية الوجه الثاني ان يكون المراد وقت نزول هذه الآية لم يكن محرما غير ماذكر ونص عليه في هذه الآية ثم حرم بعد نزولها اشياء اخر الوجه الثالث يحتمل ان هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر وهو ماورد في السنة الوجه الرابع ان ماذكر في هذه الآية محرم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ماورد في السنة من المحرمات والله اعلم * (بقي في الآية احكام) * في قوله تعالى اودما مسفوحا وهو ماسال من الحيوان في حال الحياة اوعند الذبح فان ذلك الدم حرام نجس وماسوى ذلك كالكبد والطحال فانهما حلال لانهما دمان جامدان وقد ورد الحديث باباحتهما وكذا مااختلط باللحم من الدم لانه غير سائل قال عمران بن جدير سألت ابامجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال لا بأس بذلك انما نهى عن الدم المسفوح وقال ابراهيم النخعي لا بأس بالدم في عرق اومخ الا المسفوح وقال عكرمة لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ماتتبع اليهود * وقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولاعاد) لما بين الله المحرمات في هذه الآية اباح اكلها عند الاضطرار من غير بغي ولاعدوان * وفي قوله (فان ربك غفور رحيم) دليل على الرخصة والاباحة عند الاضطرار * قوله تعالى (وعلى الذين هادوا) يعني اليهود (حرمنا كل ذي ظفر) قال ابن عباس هو البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب وقيل كل مالم يكن مشقوق الاصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والاوز والبط قال القتيبي هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وسمى الحافر ظفرا على الاستعارة (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) يعني شحم الجوف وهي الثروب

العقل ودرك البرهان وعقبه باحسان الوالدين اذ معرفة حقوقهما تتلو معرفة الله في الايجاد والربوبية لانهما سببان قريبان في الوجود والتربية وواسطتان جعلهما الله تعالى مظهرين لصفتي ايجاده وربوبيته ولهذا قال من اطاع الله ورسوله فعقوقهما على الشرك ولايقع الجهل بحقوقهما الا عن الجهل بحقوق الله تعالى ومعرفة صفاته ثم بالنهي عن قتل الاولاد خشية الفقر فان ارتكاب ذلك لايكون الا عن الجهل والعمى عن تسبيبه تعالى الرزق لكل مخلوق وان ارزاق العباد بيده يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر والاحتجاب عن سر القدر فلا يعلم ان الارزاق مقدرة بازاء الاعمال كتقدير الآجال فاولاها لاتقع الامن خطئها في معرفة ذات الله تعالى والثانية من خطئها في معرفة صفاته والثالثة من معرفة افعاله ولا يرتكب هذه الرذائل الثلاث الا منكوس محجوب عن ذات الله تعالى وصفاته وافعاله وهذا الحجب ام

وشحم الكليتين (الا ماحملت ظهورهما) يعني الا ماعلق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم فانه غير محرم عليهم وقال السدى وابو صالح الالية مما حملت ظهورهما وهذا القول مختص بالغنم لان البقر ليس لها الية (او الحوايا) وهى المباعر فى قول ابن عباس وجمهور المفسرين واحدتها حاوية وحوية وقيل الحوايا المباعر والمصارين وهى الدوائر التى تكون فى بعض الشاة والمعنى ان الشحم الملتصق بالمباعر والمصارين غير محرم على اليهود (او مااختلط بعظم) يعني من شحم الالية لانه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التى تكون فى الجنب والراس والعين فكل هذا حلال على اليهود فحاصل هذا ان الذى حرم عليهم شحم الثرب وشحم الكلية وماعدا ذلك فهو حلال عليهم (ق) عن جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة ان الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يارسول الله ارايت شحوم الميتة فانها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لاهو حرام ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ان الله لما حرم عليهم شحومهما جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه قوله جملوه يعني اذابوه يقال اجملت الشحم وجملته اذا اذبته وجملته اكثر وافصح * وقوله تعالى (ذلك جزيناهم) اى ذلك التحريم جزيناهم عقوبة (ببغيهم) يعني بسبب بغيهم وظلمهم وهو قتل الانبياء واخذ الربا واستحلالهم اموال الناس بالباطل (وانا لصادقون) يعني فى الاخبار عن بغيهم وفى الاخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم (فان كذبوك) يعني فان كذبك اليهود يامحمد فيما اخبرناك انا حرمنا عليهم واحللنا لهم مما بيناه فى هذه الآية المتقدمة (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) يعني بتأخير العقوبة عنكم فان رحمته تسع المسئ والمحسن فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به او عصاه (ولا يرد بأسه) يعني ولا يرد عذابه ونقمته اذا جاء وقتهما (عن القوم المجرمين) يعني الذين كذبوا الانبياء وهم الكفار واليهود * وقوله عزوجل (سيقول الذين اشركوا) لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ماكانوا عليه من الشرك بالله وتحريم مالم يحرمه الله اخبر الله تعالى عنهم بما سيقولونه فقال تعالى سيقول الذين اشركوا يعني مشركى قريش والعرب (لوشاء الله مااشركنا ولا آباؤنا) يعني من قبل قال المفسرون جعلوا قولهم لوشاء الله مااشركنا حجة على اقامتهم على الكفر والشرك وقالوا ان الله قادر على ان يحول بيننا وبين مانحن عليه حتى لانفعله فلولا انه رضى مانحن عليه واراده منا وامرنا به لحال بيننا وبين ذلك (ولا حرمنا من شئ) يعني ماحرموه من البحائر والسوائب وغير ذلك فقال الله عزوجل رداً وتكذيبا لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعني من كفار الامم الخالية الذين كانوا قبل قومك كذبوا انبياءهم وقالوا مثل قول هؤلاء (حتى ذاقوا بأسنا) يعني عذابنا * (فصل) * استدل القدرية والمعتزلة بهذه الآية فقالوا ان القوم لما قالوا لوشاء الله مااشركنا كذبهم الله ورد عليهم بقوله كذلك كذب الذين من قبلهم وايضا فان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لوشاء الله منا ان لانشرك لم نشرك ولمنعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت انه مريد له واذا اراده منا امتنع تركه منا واجيب عن هذا بان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار انهم قالوا لوشاء الله مااشركنا ثم ذكر عقيبه كذلك كذب الذين من قبلهم وهذا التكذيب ليس هو فى قولهم لوشاء الله مااشركنا بل ذلك القول حق وصدق ولكن الكذب فى قولهم ان الله امرنا به ورضى مانحن عليه كما اخبر عنهم فى سورة الاعراف واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها فرد الله

الرذائل واساسها ثم بين رذيلة القوة البهيمية لان رذيلتها اظهر واقدم فقال (ولاتقربوا الفواحش) من الاعمال القبيحة الشنيعة عند العقل (ماظهر منها) كالزنا فى الحانات وشرب الخمر واكل الربا (ومابطن) كقصد هذه الفواحش المذكورة ونيتها والهم بها واخفائها كالسرقة وارتكاب المحظورات فى الخفية ثم اشار الى رذيلة القوة السبعية بقوله (ولاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) اى بالقصاص والكفر وختم الكلام بقوله (ذلكم) اى الاجتناب عن اجناس رذائل النفوس الثلاث (وصاكم به لعلكم تعقلون) اى لاتجتنبها الا العقلاء اومن ارتكبها فلا عقل له ثم اراد ان يبين ان الرذائل الثلاث مستلزمة باجتماعها رذيلة الجور التى هى اعظمها وجامعها كما ان فضائلها تستلزم العدالة التى هى كمالها والشاملة لها فقال (ولاتقربوا مال اليتيم) بوجه من الوجوه (الا بالتى هى احسن) الا بالخصلة التى هى احسن

تعالى عليهم بقوله قل ان الله لا يأمر بالفحشاء والدليل ان التكذيب فى قولهم ان الله امرنا بهذا ورضيه منا لا فى قولهم لو شاء الله ما اشركنا قوله كذلك كذب الذين من قبلهم بالتشديد ولو كان خبرا من الله عن كذبهم فى قولهم لو شاء الله ما اشركنا لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم الى الكذب لا الى التكذيب وقال الحسن بن الفضل لو قالوا هذه المقالة تعظيما لله واجلالا له ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيبا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون وقيل فى معنى الآية انهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة وهو قوله لو شاء الله ما اشركنا الا انهم كانوا يعدونه عذرا لانفسهم ويجعلونه حجة لهم فى ترك الايمان والرد عليهم فى ذلك ان امر الله بمعزل عن مشيئته وارادته فان الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد فعلى العبد ان يتبع امره وليس له ان يتعلق بمشيئته فان مشيئته لا تكون عذرا لاحد عليه فى فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ومع هذا فيبعث الرسل الى العبد ويأمره بالايمان وورود الامر على خلاف الارادة غير ممتنع فالحاصل انه تعالى حكى عن الكفار انهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى فى شركهم وكفرهم فاخبر الله تعالى ان هذا التمسك فاسد باطل فانه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى فى كل الامور دفع دعوة الانبياء عليهم السلام والله اعلم ※ وقوله تعالى (قل هل عندكم من علم) اى قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لو شاء الله ما اشركنا ولكنه رضى ما نحن عليه من الشرك هل عندكم يعنى بدعواكم ما تدعون من علم يعنى من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم (فتخرجوه لنا) يعنى فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه كما بينا لكم خطأ قولكم وفعلكم وتناقض ذلك واستحالته فى العقول (ان تتبعون الا الظن) يعنى فيما انتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله عليكم وتحسبون انكم على حق وانما هو باطل (وان انتم الا تخرصون) يعنى وما انتم فى ذلك كله الا تكذبون وتقولون على الله الباطل ※ وقوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن اظهار علم الله او حجة لهم فلله الحجة البالغة يعنى التامة على خلقه بانزال الكتاب وارسال الرسل قال الربيع بن انس لا حجة لاحد عصى الله او اشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده (فلو شاء لهداكم اجمعين) يعنى فلو شاء الله لوفقكم اجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على انه تعالى لم يشأ ايمان الكافر ولو شاء لهداه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون) يعنى هاتوا وادعوا شهداءكم وهلم كلمة دعوة الى الشئ يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والذكر والانثى وفيه لغة اخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا وللانثى هلمى واللغة الاولى افصح (ان الله حرم هذا) وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ما حرموه على انفسهم وقالوا ان الله امرنا به ليظهر ان لا شاهد لهم على ذلك وانما اختلقوه من عند انفسهم (فان شهدوا فلا تشهد معهم) وهذا تنبيه ايضا على كونهم كاذبين فى شهادتهم فلا تشهد انت يا محمد معهم لانهم فى شهادتهم كاذبون (ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا) يعنى ان وقع منهم شهادة فانما هى باتباع الهوى فلا تتبع انت يا محمد اهواءهم ولكن اتبع ما اوحى اليك من كتابى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (والذين لا يؤمنون بالآخرة) اى ولا تتبع اهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة (وهم بربهم يعدلون) يعنى يشركون ※ قوله عز وجل (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم) عليكم لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا ان الله امرهم بتحريم ما حرموه على

من حفظه وتثميره (حتى يبلغ اشده) فينتفع به لا بالاكل والانفاق فى مآربكم والاتلاف فانه افحش ولما بين تحريم اجناس الرذائل الاربع باسرها على التفصيل امر بايجاب الفضائل الاربع بالاجمال اذ تفصيل الرذائل يغنى عن تفصيل مقابلاتها وذلك انها مندرجة باسرها فى العدالة فامر بها فى جميع الوجوه فعلا وقولا وقال (واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها) اى حافظوا على العدل فيما بينكم وبين الخلق مطلقا (واذا قلتم فاعدلوا) اى لا تقولوا الا الحق (ولو كان) المقول فيه (ذا قربى) فلا تميلوا فى القول له او عليه الى زيادة او نقصان وبعهد الله اوفوا) اى بالتوحيد والطاعة وكل ما بينكم وبين الله من لوازم العهد السابق بالعقد اللاحق ولما كان سلوك طريقة الفضيلة التى هى طريقة الوحدة والتوجه الى الحق صعبا

انفسهم فكانهم سألوا وقالوا اىّ شئ حرم الله فامر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم تعالوا * تعال من الخاص الذى صار عاما واصله ان يقوله من كان فى مكان عال لمن هو اسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم وقيل اصله ان تدعو الانسان الى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكانه دعاه الى مافيه رفعة وشرف ثم كثر فى الاستعمال والمعنى تعالوا وهلموا ايها القوم اتل عليكم يعنى اقرا ما حرم ربكم عليكم يعنى الذى حرم ربكم عليكم حقا يقينا لاشك فيه ولا ظنا ولا كذبا كما تزعمون انتم بل هو وحى اوحاه الله الىّ (ان لا تشركوا به شيأ) * فان قلت ترك الاشراك واجب فما معنى قوله ان لا تشركوا به شيأ لانه كالتفصيل لما اجمله فى قوله حرم ربكم عليكم وذلك لا يجوز * قلت الجواب عنه من وجوه الوجه الاول ان يكون موضع ان رفع معناه هو ان لا تشركوا الوجه الثانى ان يكون محله النصب واختلفوا فى وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم ان تشركوا وتكون لا صلة وقيل ان حرف لا على اصلها ويكون المعنى اتل عليكم تحريم الشرك اى لا تشركوا ويكون المعنى اوصيكم ان لا تشركوا لان قوله وبالوالدين احسانا محمول على اوصيكم بالوالدين احسانا الوجه الثالث ان يكون الكلام قد تم عند قوله حرم ربكم ثم قال عليكم ان لا تشركوا على الاغراء او بمعنى فرض عليكم ان لا تشركوا به شيأ ومعنى هذا الاشراك الذى حرمه الله ونهى عنه هو ان يجعل لله شريكا من خلقه او يطيع مخلوقا فى معصية الخالق او يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله ولا يشرك بعبادة ربه احدا * وقوله عز وجل (وبالوالدين احسانا) اى وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين احسانا وانما ثنى بالوصية بالاحسان الى الوالدين لان اعظم النعم على الانسان نعمة الله لانه هو الذى اخرجه من العدم الى الوجود وخلقه واوجده بعد ان لم يكن شيأ ثم بعد نعمة الله نعمة الوالدين لانهما السبب فى وجود الانسان ولما لهما عليه من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك فى حال صغره (ولا تقتلوا اولادكم من املاق) يعنى من خوف الفقر والاملاق الاقتار والمراد بالقتل وأد البنات وهن احياء فكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم (نحن نرزقكم واياهم) يعنى لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فانى رازقكم واياهم لان الله تعالى اذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال فى امر الرزق على الله عز وجل (ولا تقربوا الفواحش) يعنى الزنا (ماظهر منها وما بطن) يعنى علانيته وسره وكان اهل الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولا يرون به بأسا فى السر فحرم الله تعالى الزنا فى السر والعلانية وقيل ان الاولى حمل لفظ الفواحش على العموم فى جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لان المعنى الموجب لهذا النهى هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على العموم اولى من تخصيصه بنوع من الفواحش وايضا فان السبب اذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم * وفى قوله ماظهر منها وما بطن دقيقة وهى ان الانسان اذا احترز عن المعاصى فى الظاهر ولم يحترز منها فى الباطن دل ذلك على ان احترازه عنها ليس لاجل عبودية الله وطاعته فيما امر به اونهى عنه ولكن لاجل الخوف من رؤية الناس وذمهم ومن كان كذلك استحق العقاب ومن ترك المعصية ظاهرا وباطنا لاجل خوف الله وتعظيما لامره استوجب رضوان الله وثوابه (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) حرم الله تعالى قتل النفس الا بالحق وقتلها من جملة الفواحش المقدم

(ذكرها)

كما قيل ادق من الشعرة واحد من السيف وخصوص فى الافعال اذ مراعاة الوسط فيها بلا ميل ما الى طرف الافراط والفريط فى غاية الصعوبة قال بعد قوله واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها فبين انه جمع فى هذا المقام بين النهى عن جميع الرذائل والامر بجميع الفضائل كلها بحيث لا يخرج منها جزئى ما من جزئياتها ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنه ان هذه آيات محكمات لم ينسخهن شئ من جميع الكتب واتفق على قوله اهل الكتابين وجميع الملل والنحل وقال كعب الاحبار والذى نفس كعب بيده انها لاوّل شئ فى التوراة (ذلكم) اى ماذكر من وجوب الانتهاء عن جميع الرذائل والاتصاف بجميع الفضائل (وصاكم به) فى جميع الكتب على السنة

ذكرها فى قوله تعالى ولاتقربوا الفواحش وانما افرد قتل النفس بالذكر تعظيما لامر القتل وانه من اعظم الفواحش والكبائر وقيل انما افرده بالذكر لانه تعالى اراد ان يستثنى منه ولا يمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش الا بالافراد فلذلك قال ولاتقتلوا النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق وهى التى ابيح قتلها من ردة او قصاص او زنا بعد احصان وهو الذى يوجب الرجم (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ❊ وقوله تعالى (ذلكم) يعنى ماذكر من الاوامر والنواهى المحرمات (وصاكم به) يعنى امركم به واوجبه عليكم (لعلكم تعقلون) يعنى لكى تفهموا مافى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها ❊ قوله تعالى (ولاتقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن) يعنى ولاتقربوا مال اليتيم الا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له قال مجاهد هو التجارة فيه وقال الضحاك هو ان يسعى له فيه ولا يأخذ من ربحه شيأ هذا اذا كان القيم بالمال غنيا غير محتاج فلو كان الوصى فقيرا فله ان يأكل بالمعروف (حتى يبلغ اشده) يعنى احفظوا مال اليتيم الى ان يبلغ اشده فاذا بلغ اشده فادفعوا اليه ماله فاما الاشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى فى الشباب الى حد الرجال قال الشعبى ومالك الاشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيآت وقال ابو العالية حتى يعقل وتجتمع قوته وقال الكلبى الاشد هو ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وقيل الى اربعين وقيل الى ستين سنة وقال الضحاك الاشد عشرون سنة وقال السدى الاشد ثلاثون سنة وقال مجاهد الاشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الاقوال التى نقلت عن المفسرين فى هذه الآية انما هى نهاية الاشد لا ابتداؤه والمراد بالاشد فى هذه الآية هو ابتداء بلوغ الحلم مع ايناس الرشد وهذا هو المختار فى تفسير هذه الآية ❊ وقوله تعالى (واوفوا الكيل والميزان بالقسط) يعنى بالعدل من غير زيادة ولانقصان (لانكلف نفسا الا وسعها) يعنى طاقتها ومايسعها فى ايفاء الكيل والميزان واتمامه لم يكلف المعطى ان يعطى اكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا باقل من حقه حتى لاتضيق نفسه عنه بل امر كل واحد بما يسعه مما لاحرج عليه فيه (واذا قلتم فاعدلوا) يعنى فى الحكم والشهادة (ولو كان ذاقربى) يعنى المحكوم عليه وكذا المشهود عليه وقيل ان الامر بالعدل فى القول هو اعم من الحكم والشهادة بل يدخل فيه كل قول حتى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير زيادة فيه ولانقصان واداء الامانة وغير ذلك من جميع الاقوال التى يعتمد فيها العدل والصدق (وبعهد الله اوفوا) يعنى ما عهد الى عباده ووصاهم به واوجبه عليهم او ما اوجبه الانسان على نفسه كنذر ونحوه فيجب الوفاء به (ذلكم) يعنى الذى ذكر فى هذه الآيات (وصاكم به) يعنى بالعمل به (لعلكم تذكرون) يعنى لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما امرتكم به ❊ قوله عز وجل (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) يعنى وان هذا الذى وصيتكم به وامرتكم به فى هاتين الآيتين هو صراطى يعنى طريقى ودينى الذى ارتضيته لعبادى مستقيما يعنى قويما لا اعوجاج فيه فاتبعوه يعنى فاعملوا به وقيل ان الله تعالى لما بين فى الآيتين المتقدمتين ما وصى به مفصلا اجمله فى هذه الآية اجمالا يقتضى دخول جميع ما تقدم ذكره فيه ويدخل فيه ايضا جميع احكام الشريعة وكل ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من دين الاسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين

جميع الرسل (لعلكم تذكرون) عند سماعها ما وهب الله لكم من الكمال واودع استعدادكم فى الازل (وان هذا) اى طريق الفضائل لان منبع الفضيلة هى الوحدة الاترى انها اواسط واعتدالات بين طرفى افراط وتفريط لا يمكن سلوكها على التعيين بالحقيقة الا لمن استقام فى دين الله اليه وايده الله بالتوفيق لسلوك طريق الحق حتى وصل الى الفناء عن صفاته ثم عن ذاته ثم اتصف فى حال البقاء بعد الفناء بصفاته تعالى حتى قام بالله فاستقام فيه وبه فحينئذ يكون صراطه صراط الحق وسيره سير الله (صراطى مستقيما) اى طريق لا يسلكها الا من قام بى مستويا غير مائل الى اليمين والشمال لغرض (فاتبعوه ولاتتبعوا السبل) من المذاهب المتفرقة والاديان المختلفة فانها اوضاع وضعها اهل الاحتجاب بالعادات والاهواء اى وضع لهم لئلا يزدادوا ظلـ

وامرهم باتباع جلته وتفصيله (ولا تتبعوا السبل) يعني الطرق المختلفة والاهواء المضلة والبدع الرديئة وقيل السبل المختلفة مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل والاديان المخالفة لدين الاسلام (فتفرق بكم عن سبيله) يعني فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده روى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه وقرأ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية (ذلكم وصاكم به) يعني باتباع دينه وصراطه الذي لا اعوجاج فيه (لعلكم تتقون) يعني الطرق المختلفة والسبل المضلة قال ابن عباس هذه الآيات محكمات في جميع الكتب لم ينسخهن شيء وهن محرمات على بني آدم كلهم وهن ام الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن ابن مسعود قال من سره ان ينظر الى الصحيفة التي عليها خاتم محمد صلى الله عليه وسلم فليقرأ هؤلاء الآيات قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الآيات الى قوله لعلكم تتقون اخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ❊ قوله تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة فان قلت اتيان موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن وحرف ثم للتعقيب فما معنى ذلك قلت دخلت ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول والمعنى قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم وهو كذا وكذا الى قوله تعالى لعلكم تتقون ثم اخبركم انا آتينا موسى الكتاب وقيل ان المحرمات المذكورة في قوله تعالى قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم محرمات على جميع الامم وجميع الشرائع فتقدير الكلام ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديما وحديثا ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب يعني بعد ايجاب هذه المحرمات وقيل معناه قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ثم قل بعد ذلك يا محمد انا آتينا موسى الكتاب فحذف لفظة قل لدلالة الكلام عليها ❊ وقوله تعالى (تماما على الذي احسن) اختلف اهل التفسير فيه فقيل معناه تماما على المحسنين من قومه فيكون الذي بمعنى من اي تماما على من احسن من قومه لانه كان منهم محسن ومسيء وعلى قراءة ابن مسعود تماما على الذين احسنوا وقيل معناه تماما على كل من احسن اي اتممنا فضيلة موسى على المحسنين وهم الانبياء والمؤمنون اي اتممنا فضله عليهم بالكتاب وقيل الذي احسن هو موسى فيكون الذي بمعنى ما اي على ما احسن وتقديره وآتينا موسى الكتاب اتماما للنعمة عليه لاحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة واداء الامر وقيل الاحسان بمعنى العلم وتقديره آتينا موسى الكتاب تماما على الذي احسن موسى من العلم والحكمة زيادة له على ذلك وقيل معناه تماما مني على احساني الى موسى (وتفصيلا لكل شيء) يعني وفيه بيان لكل شيء يحتاج اليه من شرائع الدين واحكامه (وهدى) يعني وفيه هدى من الضلالة (ورحمة) يعني انزاله عليهم رحمة مني عليهم (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) قال ابن عباس لكي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب ❊ قوله عز وجل (وهذا كتاب انزلناه مبارك) يعني القرآن لانه كثير الخير والنفع والبركة ولا يتطرق اليه نسخ (فاتبعوه) يعني فاعملوا بما فيه من الاوامر والنواهي والاحكام (واتقوا) يعني مخالفته (لعلكم ترحمون) يعني ليكن الغرض بالتقوى رحمة الله وقيل معناه لكي ترحموا على جزاء التقوى (ان تقولوا) يعني لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية ان تقولوا يعني انزلنا اليكم الكتاب كراهية ان تقولوا (انما انزل الكتاب) وقيل يجوز ان تكون ان متعلقة بما قبلها فيكون المعنى واتقوا ان تقولوا وهذا خطاب لاهل مكة والمعنى واتقوا يا اهل مكة ان تقولوا انما انزل

وعتوا او حيرة وروى ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه خط خطا فقال هذا سبيل الرشاد ثم خط عن يمينه وشماله خطوطا فقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا هذه الآية (فتفرق بكم عن سبيله ذلكم) اي سلوك طريق الوحدة والفضيلة (وصاكم به لعلكم تتقون) السبل المتفرقة بالاجتناب عن مقتضيات الاهواء ودواعي النفوس وتجعلون الله وقاية لكم في ملازمة الفضائل ومجانبة الرذائل (ثم آتينا موسى الكتاب) اي بعد ما وصاكم بسلوك طريق الفضيلة في قديم الدهر آتينا موسى الكتاب (تماما على الذي احسن) او تتميما الكرامة الولاية ونعمة النبوة مزيدا على الذي احسنه موسى من سلوك طريق الكمال وبلوغه الى ما بلغ من مقام المكالمة والقرب بالوجود الموهوب بعد الفناء في الوحدة كما قال تعالى فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول

الكتاب والكتاب اسم جنس لان المراد به التوراة والانجيل (على طائفتين من قبلنا) يعني اليهود والنصارى (وان كنا) اى وقد كنا وقيل وانه كنا (عن دراستهم) يعني قراءتهم (لغافلين) يعني لا علم لنا بما فيها لانها ليست بلغتنا والمراد بهذه الآية اثبات الحجة على اهل مكة وقطع عذرهم بانزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بلغتهم والمعنى وانزلنا القرآن بلغتهم لئلا يقولوا يوم القيامة ان التوراة والانجيل انزلا على طائفتين من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف مافيهما فقطع الله عذرهم بانزال القرآن عليهم بلغتهم (او تقولوا لو انا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم) وذلك ان جماعة من الكفار قالوا لو انزل علينا ما انزل على اليهود والنصارى لكنا خيرا منهم واهدى وانما قالوا ذلك لاعتقادهم على صحة عقولهم وجودة فطنتهم وذهنهم * قال الله عز وجل (فقد جاءكم بينة من ربكم) يعني هذا القرآن فيه بيان وحجة واضحة تعرفونها (وهدى) يعني من الضلالة (ورحمة) يعني وهو رحمة ونعمة انعم الله بها عليكم (فمن اظلم) اى لا احد اظلم واكفر (ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) يعني واعرض عنها (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) يعني اسوأ العذاب واشده (بما كانوا يصدفون) اى ذلك العذاب جزاؤهم بسبب اعراضهم وتكذيبهم بآيات الله * قوله تعالى (هل ينظرون) يعني هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وانكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله وهو استفهام معناه النفي وتقدير الآية انهم لا يؤمنون بك الا اذا جاءتهم احدى هذه الامور الثلاث فاذا جاءتهم احداها آمنوا وذلك حين لا ينفعهم ايمانهم (الا ان تأتيهم الملائكة) يعني لقبض ارواحهم وقيل ان تأتيهم بالعذاب (او يأتي ربك) يعني للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة عند قوله هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام بما فيه كفاية وان المجيء والذهاب على الله محال فيجب امرارها بلا تكييف (او يأتي بعض آيات ربك) قال جمهور المفسرين هو طلوع الشمس من مغربها ويدل على ذلك ماروى عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض اخرجه مسلم عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله او يأتي بعض آيات ربك قال طلوع الشمس من مغربها اخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه عن صفوان بن عسال المرادي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم باب من قبل المغرب مسيرة عرضه اوقال يسير الراكب في عرضه اربعين او سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والارض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه اخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (ق) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها وفي رواية فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا اجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت في ايمانها خيرا (م) عن حذيفة بن اسد الغفاري قال اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ماتذكرون قلنا الساعة فقال انها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس الى محشرهم (م) عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال

المؤمنين بالتكميل ودعوة الخلق الى الحق (وتفصيلا لكل شيء) يحتاج اليه الخلق في المعاد (وهدى) لهم الى ربهم في سلوك سبيله (ورحمة) عليهم بافاضة كمالاته عليهم بواسطة موسى وكتابه (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) الايمان العلمي او العياني (وهذا كتاب انزلناه مبارك) بزيادة الهداية الى محض التوحيد والارشاد الى سواء السبيل يهدي باقرب الطرق الى ارفع الدرجات من الكمال (فاتبعوه واتقوا) كل ماسوى الله حتى ذواتكم وصفاتكم (لعلكم ترحمون) رحمة الاستقامة بالله وفي الله بالوجود الموهوب (او تقولوا لو انا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم) لقوة استعداداتنا وصفاء اذهاننا ان صدقتم (فقد جاءتكم بينة من ربكم) بيان لكيفية سلوككم (وهدى) الى مقصدكم (ورحمة) بتسهيل طريقكم وتيسيرها الى اشرف الكمالات (فمن اظلم ممن كذب بآيات الله وصدف

قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة احدكم وامر العامة (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم انسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وايهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على اثرها قريبا وروى الطبرى بسنده عن عبدالله بن مسعود فى تفسير هذه الآية قال تصبحون والشمس والقمر من ههنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين زاد فى رواية عنه فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت فى ايمانها خيرا وبسنده عن ابى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اتدرون اين تذهب هذه الشمس قالوا الله ورسوله اعلم قال انها تذهب الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعى من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجرى حتى تنتهى الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعى فارجعى من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لا تنكر الناس منها شيأ حتى تنتهى فتخر ساجدة فى مستقرها تحت العرش فيقال لها اطلعى من مغربك فتصبح طالعة من مغربها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتدرون اى يوم ذلك قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت فى ايمانها خير وبسنده عن ابى ذر قال كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم على حمار فنظر الى الشمس حين غربت فقال انها تغرب فى عين حمئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها فاذا اراد ان يطلعها من مغربها حبسها فتقول يارب ان مسيرى بعيد فيقول لها اطلعى من حيث غربت فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل وروى بسنده عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية من العشيات فقال لهم عباد الله توبوا الى الله قبل ان يأتيكم بعذاب فانكم توشكون ان تروا الشمس من قبل المغرب فاذا فعلت حبست التوبة وطوى العمل فقال الناس هل لذلك من آية يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آية تلك الليلة ان تطول كقدر ثلاث ليال فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقص ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى اذا استيقظوا والليل مكانه فاذا رأوا ذلك خافوا ان يكون ذلك بين يدى امر عظيم فاذا اصبحوا فطال عليهم رات اعينهم طلوع الشمس فبينماهم ينظرونها اذ طلعت عليهم من قبل المغرب فاذا فعلت ذلك لم ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل قال ابن عباس لا ينفع مشركا ايمانه عند الآيات وينفع اهل الايمان عند الآيات ان كانوا اكتسبوا خيرا قبل ذلك وقال ابن الجوزى قيل ان الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها ان الملحدة والمنجمين زعموا ان ذلك لا يكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما طلعها من المشرق فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاث الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها لما روى عن ابن مسعود انه قال التوبة معروضة على ابن آدم ان قبلها مالم تخرج احدى ثلاث الدابة او طلوع الشمس من مغربها او يأجوج ومأجوج وروى عن عائشة قالت اذا خرج اول الآيات طرحت التوبه وحبست الحفظة وشهدت الاجساد على الاعمال وروى عن ابى هريرة فى قوله تعالى او يأتى بعض آيات ربك قال هى مجموع الآيات الثلاث طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض ورواه مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت

فنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة) لتوفى روحهم (او يأتى ربك) بتجليه فى جميع الصفات كما مرت الاشارة اليه من تحول الصورة فى القيامة فلا يعرفه الا الموحدون الكاملون واما اهل المذاهب والملل المختلفة فلا يعرفونه الا فى صورة معتقدهم (او يأتى بعض آيات ربك) تجليه فى بعض الصفات التى لم يعرفوها (يوم يأتى بعض آيات ربك) بعض تجلياته التى لم يأنسوا بها ولم يعرفوها (لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل) فان الناس اما محجوبون مطلقا اوليسوا كذلك وهم اما مؤمنون لعرفانهم بعض الصفات او بكلها والمؤمنون به العارفون اياه بكلها اما محبون للذات واما محبون للصفات فاذا تجلى الحق

فى ايمانها خيرا لطلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض واصح الاقوال فى ذلك ماتظاهرت عليه الاحاديث الصحيحة وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل) يعنى لاينفع من كان مشركا ايمانه ولاتقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التى تضطرهم الى الايمان والتوبة (اوكسبت فى ايمانها خيرا) يعنى اوعملت قبل ظهور هذه الآية خيرا من عمل صالح وتصديق قال الضحاك من ادركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع ايمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فامامن آمن من شرك اوتاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لانها حالة اضطرار كما لوارسل الله عذابا على امة فآمنوا وصدقوا فانهم لاينفعهم ايمانهم ذلك لمعاينتهم الاهوال والشدائد التى تضطرهم الى الايمان والتوبة وقوله (قل انتظروا) يعنى ماوعدتم به من مجئ الآية ففيه وعيدوتهديد (انا منتظرون) يعنى ماوعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة اوقبله فى الدنيا قال بعض المفسرين وهذا انما ينتظره من تأخر فى الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم الى ذلك الوقت والمراد بهذا ان المشركين انما يمهلون قدر مدة الدنيا فاذا ماتوا اوظهرت الآيات لم ينفعهم الايمان وحلت بهم العقوبة اللازمة ابدا وقيل ان قوله قل انتظروا انا منتظرون المراد به الكف عن قتال الكفار فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الاول تكون الآية محكمة ❊ قوله عزوجل (ان الذين فرقوا) وقرئ فارقوا (دينهم وكانوا شيعا) يعنى احزابا متفرقة فى الضلالة ومعنى فرقوا دينهم انهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه فمن قرأ فرقوا دينهم يعنى جعلوا دينهم وهو دين ابراهيم الحنيفية السهلة اديانا مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الاصنام ونحو ذلك من الاديان المختلفة ومن قرا فارقوا دينهم قال معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشئ وقيل ان معنى القراءتين يرجع الى شئ واحد فى الحقيقة وهو ان من فرق دينه فاقر ببعض وانكر بعضا فقد فارق دينه فى الحقيقة ثم اختلفوا فى المعنى بهذه الآية فقال الحسن هم جميع المشركين لان بعضهم عبدوا الاصنام وقالوا هذه شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا انهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم وقال مجاهد هم اليهود وقال ابن عباس وقتادة والسدى والضحاك هم اليهود والنصارى لانهم تفرقوا فكانوا فرقا مختلفة وقال ابو هريرة فى هذه الآية هم اهل الضلالة من هذه الامة وروى ذلك مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ وليسوا منك هم اهل البدع واهل الشبهات واهل الضلالة من هذه الامة اسنده الطبرى فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على ان تكون كلمة المسلمين واحدة وان لايتفرقوا فى الدين ولايبتدعوا البدع المضلة وروى عن عمر بن الخطاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم اصحاب البدع والاهواء من هذه الامة ذكره البغوى بغير سند عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم اقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل يارسول الله كأن هذه موعظة مودع فما تعهد الينا فقال اوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد حبشى فانه من يعيش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم

بعض الصفات لاينفع ايمان المحجوبين مطلقا وايمان المؤمنين الذين لم يعرفوه بهذه الصفة من قبل هذا التجلى اذالايمان انما ينفع اذا صار عقيدة ثابتة راسخة يتمثل بها القلب وتتنور بها النفس وتشاهدها الروح لاالذى يقع عند الاضطرار دفعة (اوكسبت فى ايمانها خيرا قل انتظروا انا منتظرون) كايمان العارفين المحبين للصفات فانهم وان آمنوا به وعرفوا بتجليه بكل الصفات فلم يكتسبوا المحبة الذاتية والكمال المطلق واحبوه ببعض الصفات كالمنعم مثلا اواللطيف اوالرحيم فلذا تجلى بصفة المنتقم اوالقهار اوالمبلى لم ينفعهم الايمان به اذلم يطيعوه من قبل هذا الوصف ولم يتمرنوا بتجليه ولم يحبوا الذات فيلتذوا بشهوده فى اى صفة كانت (ان الذين فرقوا دينهم) اى جعلوا دينهم اهواء متفرقة كالذين غلبت عليهم صفات النفس يجذبهم هذه الى الشئ وهذه الى شئ فحدثت فيهم اهواء مختلفة

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة اخرجه ابوداود والترمذى * عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الا ان من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة زاد فى رواية وانه سيخرج فى امتى اقوام تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله اخرجه ابوداود * عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بنى اسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق امتى على ثلاث وسبعين ملة كلها فى النار الا ملة واحدة قالوا من هى يارسول الله قال من كان على ما انا عليه واصحابى اخرجه الترمذى قال الخطابى فى هذا الحديث دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين اذ جعلهم من امته وقوله تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه التجارى تفاعل من الجرى وهو الوقوع فى الاهواء الفاسدة والبدع المضلة تشبيها بجرى الفرس والكلب قال ابن مسعود ان احسن الحديث كتاب الله واحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الامور محدثاتها ورواه جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا * وقوله تعالى (لست منهم فى شئ) يعنى فى قتال الكفار فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال وهذا على قول من يقول ان المراد من الآية اليهود والنصارى والكفار ومن قال المراد من الآية اهل الاهواء والبدع من هذه الامة قال معناه لست منهم فى شئ اى انت منهم برئ وهم منك برآء تقول العرب ان فعلت كذا فلست منك ولست منى اى كل واحد منا برئ من صاحبه (انما امرهم الى الله) يعنى فى الجزاء والمكافأة (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) يعنى اذا وردوا القيامة * قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها) يعنى عشر حسنات امثالها (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) يعنى مثلها فى مقابلتها * واختلفوا فى هذه الحسنة والسيئة على قولين احدهما ان الحسنة قول لا اله الا الله والسيئة هى الشرك بالله واورد على هذا القول ان كلمة التوحيد لا مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر امثالها واجيب عنه بأن جزاء الحسنة قدر معلوم عند الله فهو يجازى على قدر ايمان المؤمن بما شاء من الجزاء وانما قال عشر امثالها للترغيب فى الايمان لا للتحديد وكذلك جزاء السيئة بمثلها من جنسها والقول الثانى ان اللفظ عام فى كل حسنة يعملها العبد او سيئة وهذا اولى لان حمل اللفظ على العموم اولى قال بعضهم التقدير بالعشرة ليس للتحديد لان الله يضاعف لمن يشاء فى حسناته الى سبعمائة ويعطى من يشاء بغير حساب واعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله تعالى هذا مذهب اهل السنة وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه وتعالى وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) يعنى لا ينقص من ثواب الطائع ولا يزاد على عذاب العاصى (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا احسن احدكم اسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى (م) عن ابى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وازيد ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها او اغفر ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى اتيته هرولة ومن لقينى بقراب الارض

فبقوا حيارى لا جهة لهم ولا مقصد (وكانوا شيعا) فرقا مختلفة بحسب غلبة تلك الاهواء يغلب على بعضهم الغضب وعلى بعضهم الشهوة وان دانوا بدين جعلوا دينهم بحسب غلبة هواهم مادة التعصب ومدد استيلاء تلك القوة الغالبة على القلب ولم يتعبدوا الا بعادات وبدع ولم ينقادوا الا لاهواء وخدع يعبد كل منهم الها مجعولا لا فى وهمه مخيلا فى خياله ويجعله سبب الاستطالة والتفرق على الآخر كما نشاهد من اهل المذاهب الظاهرة (لست منهم فى شئ) اى لست من هدايتهم ودعوتهم الى التوحيد فى شئ اذهم اهل التفرقة والاحتجاب بالكثرة لا يجتمع همهم ولا يتحد قصدهم (انما امرهم الى الله) فى جزاء تفرقهم لا اليك (ثم ينبئهم) عند

خطيئة بعد ان لا يشرك بي شيأ لقيته بمثلها مغفرة (ق) عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى واذا اراد عبدي ان يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه
حتى يعملها فان عملها فاكتبوها بمثلها وان تركها من اجلي فاكتبوها له حسنة واذا اراد ان يعمل
حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له بعشر امثالها الى سبعمائة لفظ البخاري
وفي لفظ مسلم عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى اذا تحدث عبدي
بان يعمل حسنة فانا اكتبها له حسنة ما لم يعملها فاذا عملها فانا اكتبها له بعشر امثالها واذا تحدث
عبدي بان يعمل سيئة فانا اغفرها له ما لم يعملها فاذا عملها فانا اكتبها له بمثلها وقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد ان يعمل سيئة وهو ابصر به فقال ارقبوه فان عملها
فاكتبوها له بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة فانما تركها من جراي زاد الترمذي من جاء بالحسنة
فله عشر امثالها * قوله عز وجل (قل) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك (انني هداني
ربي الى صراط مستقيم) يعني قل لهم انني ارشدني ربي الى الطريق القويم وهو دين الاسلام الذي
الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين (دينا قيما) يعني هداني صراطا مستقيما دينا قيما وقيل يحتمل ان يكون
محمولا على المعنى تقديره وعرفني دينا قيما يعني دينا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ وقيل قيما ثابتا
مقوما لامور معاشي ومعادي وقيل هو من قام وهو ابلغ من القائم (ملة ابراهيم) والملة بالكسر
الدين والشريعة يعني هداني وعرفني دين ابراهيم وشريعته (حنيفا) الاصل في الحنيف الميل
وهو ميل عن الضلالة الى الاستقامة والعرب تسمي كل من اختتن او حج حنيفا تنبيها على انه على
دين ابراهيم عليه السلام (وما كان من المشركين) يعني ابراهيم صلى الله عليه وسلم وفيه رد على
كفار قريش لانهم يزعمون انهم على دين ابراهيم فاخبر الله تعالى ان ابراهيم لم يكن من المشركين
وممن يعبد الاصنام (قل ان صلاتي) اي قل يا محمد ان صلاتي (ونسكي) قال مجاهد وسعيد بن
جبير والضحاك والسدي اراد بالنسك في هذا الموضع الذبيحة في الحج والعمرة وقيل النسك العبادة
والناسك العابد وقيل المناسك اعمال الحج وقيل النسك كل ما يتقرب به الى الله تعالى من صلاة وحج
وذبح وعبادة ونقل الواحدي عن ابن الاعرابي قال النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة
وقيل للمتعبد ناسك لانه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث وفي قوله
ان صلاتي ونسكي دليل على ان جميع العبادات يؤديها العبد على الاخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله
رب العالمين لا شريك له وفيه دليل على ان جميع العبادات لا تؤدى الا على وجه التمام والكمال
لان ما كان لله لا ينبغي ان يكون الا كاملا تاما مع اخلاص العبادة له فما كان بهذه الصفة من العبادات
كان مقبولا (ومحياي ومماتي) اي حياتي وموتي بخلق الله وقضائه وقدره اي هو يحييني ويميتني
وقيل معناه ان محياي بالعمل الصالح ومماتي اذا مت على الايمان لله وقيل معناه ان طاعتي في حياتي لله
وجزائي بعد مماتي من الله وحاصل هذا الكلام ان الله امر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبين ان
صلاته ونسكه وسائر عباداته وحياته وموته كلها واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وهو المراد بقوله
(لله رب العالمين لا شريك له) يعني في العبادة والخلق والقضاء والقدر وسائر افعاله لا يشاركه
فيها احد من خلقه (وبذلك امرت) يعني قل يا محمد وبهذا التوحيد امرت (وانا اول المسلمين)
قال قتادة يعني من هذه الامة وقيل معناه وانا اول المستسلمين لقضائه وقدره * قوله عز وجل

ظهور هيآت نفوسهم
المختلفة والاهواء المتفرقة
عليهم بمفارقة الابدان (بما
كانوا يفعلون) من السيئات
(من جاء بالحسنة فله عشر
امثالها) هذا اقل درجات
الثواب وذلك ان الحسنة
تصدر بظهور القلب والسيئة
بظهور النفس فاقل
درجات ثوابها انه يصل الى
مقام القلب الذي يتلو مقام
النفس في الارتقاء تلو مرتبة
العشرات للآحاد في الاعداد
(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى
الا مثلها وهم لا يظلمون)
لانه لا مقام ادون من مقام
النفس فينحط اليه بالضرورة
فيرى جزاءه في مقام النفس
بالمثل ومن هذا يعلم ان
الثواب من باب الفضل فانه
يزيد به صاحبه ويتنور
استعداده ويزداد قبوله
لفيض الحق فيتقوى على
اضعاف ما فعل ويكتسب
به اجورا متضاعفة الى

(قل اغير الله ابغي ربا) اى قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك اغير الله اطلب سيدا اوالها (وهو رب كل شئ) يعني وهو سيد كل شئ ومالكه لايشاركه فيه احد وذلك ان الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ارجع الى ديننا قال ابن عباس كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلي احمل عنكم اوزاركم فقال الله عزوجل ردا عليه (ولاتكسب كل نفس الاعليها) يعني ان اثم الجاني عليه لاعلى غيره (ولاتزر وازرة وزراخرى) يعني لاتؤاخذ نفس آثمة باثم اخرى ولاتحمل نفس حاملة حمل اخرى ولايؤاخذ احد بذنب آخر (ثم الى ربكم مرجعكم) يعني يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعني في الدنيا من الاديان والملل ❊ قوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) يعني والله الذى جعلكم ياامة محمد خلائف في الارض فان الله اهلك من كان قبلكم من الامم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الارض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم وذلك لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وهوآخرهم وامته آخر الامم (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) يعني انه تعالى خالف بين احوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل فجعل منهم الحسن والقبيح والغني والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوى والضعيف وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لاجل العجز اوالجهل اوالبخل فان الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص وانما هو لاجل الابتلاء والامتحان ❊ وهوقوله تعالى (ليبلوكم فيما آتاكم) يعني يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهواعلم بأحوال عباده والمعنى يبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع اصناف خلقه ليظهر منكم مايكون عليه الثواب والعقاب لان العبد اما ان يكون مقصرا فيما كلف به واما ان يكون موفيا ماامر به فان كان مقصرا كان نصيبه التخويف والترغيب ❊ وهوقوله تعالى (ان ربك سريع العقاب) يعني لاعدائه باهلاكهم في الدنيا وانما وصف العقاب بالسرعة لان كل ماهو آت فهو قريب وان كان العبد موفيا حقوق الله تعالى فيما امر به اونهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم ❊ وهوقوله تعالى (وانه لغفور) يعني لذنوب اوليائه واهل طاعته (رحيم) يعني بجميع خلقه والله اعلم بمراده واسرار كتابه

❊ (تفسير سورة الاعراف) ❊

نزلت بمكة روى ذلك عن ابن عباس وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة وروى عن ابن عباس ايضا انها مكية الاخمس آيات اولها واسألهم عن القرية التى كانت بحر قال قتادة وقال مقاتل ثمان آيات في سورة الاعراف مدنية اولها واسألهم عن القرية الى قوله واذ اخذ ربك من بني آدم وهى ماثتان وست آيات وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة واربعة عشر الف حرف وعشرة احرف

❊ (بسم الله الرحمن الرحيم) ❊

❊ قوله عزوجل (المص) قال ابن عباس معناه انا الله افصل وعنه انا الله اعلم وافصل وعنه ان المص قسم اقسم الله به وهواسم من اسماء الله تعالى وقال قتادة المص اسم من اسماء القرآن وقال الحسن هو اسم للسورة وقال السدى هو بعض اسمه تعالى المصوّر وقال ابو العالية الالف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور وقيل هى

غير نهاية بازدياد القبول عند فعل كل حسنة وزيادة القدرة والشغف على الحسنة عند زيادة الفيض الى مالا نعلمه الاالله كما قال بعد ذكر اضعافها الى سبعمائة والله يضاعف لمن يشاء وان العقاب من باب العدل اذالعدل يقتضي المساواة ومن فعل بالنفس اذالم يعف عنه يجازى بالنفس سواء وتذكر ماقيل في قوله تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت فانّ الفضيلة للانسان ذاتية موجبة لترقيه البتة والرذيلة عارضة ظلمتها للفطرة فمهما لم تكن بقصد ونية من صاحبها اوكانت ولم يصر عليها عفى عنها ولم تحجب صاحبها وان كانت واصر عليها جوزى في مقام النفس بالمثل والحسنة والسيئة المذكورتان ههنا من قبيل الاعمال والاقرب سيئة من شخص تعادل حسنة من

حروف مقطعة استأثر الله تعالى بعلمها او هي سره في كتابه العزيز وقيل هي حروف اسمه الاعظم وقيل هي حروف تحتوى معاني دل الله بها خلقه على مراده وقد تقدم بسط الكلام على معاني الحروف المقطعة اوائل السور في اول سورة البقرة * قوله تعالى (كتاب انزل اليك) يعني هذا كتاب انزل الله اليك يا محمد وهو القرآن (فلا يكن في صدرك حرج منه) يعني فلا يضق صدرك بالابلاغ وتأدية ما ارسلت به الى الناس (لتنذر به) يعني انزلت اليك الكتاب يا محمد لتنذر به من امرتك بانذاره (وذكرى للمؤمنين) يعني ولتذكر وتعظ به المؤمنين وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم تقديره كتاب انزلناه اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه قال ابن عباس فلا تكن في شك منه لان الشك لا يكن الامن ضيق الصدر وقلة الاتساع لتوجيه ما حصل له * قوله تعالى (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم) اي قل يا محمد لقومك اتبعوا ايها الناس ما انزل اليكم من ربكم يعني من القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان قال الحسن يا ابن آدم امرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم والله ما نزلت آية الا ويحب ان تعلم فيم انزلت وما معناها وبنحو هذا قال الزجاج اي اتبعوا القرآن وما اتى به النبي صلى الله عليه وسلم فانه مما انزل لقوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ومعنى الآية ان الله تعالى لما امر رسوله صلى الله عليه وسلم بالانذار في قوله لتنذر به كان معنى الكلام انذر القوم وقل لهم اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم واتركوا ما انتم عليه من الكفر والشرك وقيل معناه لتنذر به وتذكر به المؤمنين فتقول لهم اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم وقيل هو خطاب للكفار اي اتبعوا ايها المشركون ما انزل اليكم من ربكم واتركوا ما انتم عليه من الكفر والشرك ويدل عليه قوله تعالى (ولا تتبعوا من دونه اولياء) يعني ولا تتخذوا الذين يدعونكم الى الكفر والشرك اولياء فتتبعوهم والمعنى ولا تتولوا من دونه شياطين الانس والجن فيامروكم بعبادة الاصنام واتباع البدع والاهواء الفاسدة (قليلا ما تذكرون) يعني ما تتعظون الا قليلا * قوله تعالى (وكم من قرية اهلكناها) لما امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالانذار والابلاغ وامر امته باتباع ما انزله اليهم حذرهم نقمته وبأسه ان لم يتبعوا ما امروا به فذكر في هذه الآية ما في ترك المتابعة والاعراض عن امره من الوعيد فقال تعالى وكم من قرية اهلكناها قيل فيه حذف تقديره وكم من اهل قرية لان المقصود بالاهلاك اهل القرية لا القرية وقيل ليس فيه حذف لان اهلاك القرية اهلاك لاهلها (فجاءها بأسنا) يعني عذابنا فان قلت مجيء البأس وهو العذاب انما يكون قبل الاهلاك فكيف قال اهلكناها فجاءها بأسنا قلت معناه وكم من قرية حكمنا باهلاكها فجاءها بأسنا وقال الفراء الهلاك والبأس قد يقعان معا كما قال اعطيتني فاحسنت الي فلم يكن الاحسان قبل الاعطاء ولا بعده وانما وقعا معا وقال غيره لا فرق بين قولك اعطيتني فاحسنت الي او احسنت الي فاعطيتني فيكون احدهما بدلا من الآخر (بياتا) يعني فجاءها عذابنا ليلا قبل ان يصبحوا (او هم قائلون) من القيلولة وهي نوم نصف النهار او استراحة نصف النهار وان لم يكن معها نوم والمعنى فجاءها بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلا وهم نائمون او نهارا وهم قائلون وقت الظهيرة وكل ذلك وقت الغفلة ومقصود الآية انه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم امارة تدلهم على وقت نزول العذاب وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لا تغتروا باسباب الامن والراحة فان عذاب الله اذا نزل نزل دفعة واحدة (فما كان دعواهم) يعني فما كان دعاء اهل القرية التي جاءها

غيره كما قال عليه السلام حسنات الابرار سيئات المقربين بوجود القلب عند الشهود وسيئات الابرار بظهور النفس عند السلوك وحسناتهم بظهور القلب ورب سيئة توجب حجاب الابد كاعتقاد الشرك مثلا (قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم) الى طريق التوحيد الذاتي (دينا قيما) ثابتا ابدا لا تغيره الملل والنحل ولا تنسخه الشرائع والكتب (ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) التي اعرض بها من كل ما سواه بالترقي عن جميع المراتب مائلا عن كل دين وطريق باطل فيه شرك ما ولو بصفة من صفات الله تعالى (قل ان صلاتي) اي حضوري بالقلب وشهودي بالروح (ونسكي) اي تقربي او كل ما اتقرب به بالقلب (ومحياي) بالحق (ومماتي) بالنفس كلها

بأسنا والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء قال سيبويه تقول العرب اللهم اشركنا في صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم (اذ جاءهم بأسنا) يعني عذابنا (الا ان قالوا انا كنا ظالمين) يعني انهم لم يقدروا على رد العذاب عنهم وكان حاصل امرهم الاعتراف بالجناية وذلك حين لا ينفع الاعتراف (فلنسئلن الذين ارسل اليهم) يعني نسأل الامم الذين ارسلت اليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل (ولنسئلن المرسلين) يعني ولنسألن الرسل الذين ارسلناهم الى الامم هل بلغتم رسالاتنا واديتم الى الامم ما امرتم بتأديته اليهم ام قصرتم في ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية يسأل الله تعالى الناس عما اجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا وعنه انه قال يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وقال السدي يسال الامم ما عملوا فيما جاءت به الرسل ويسال الرسل هل بلغوا ما ارسلوا به * فان قلت قد اخبر عنهم في الآية الاولى بانهم اعترفوا على انفسهم بالظلم في قوله انا كنا ظالمين فما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على انفسهم بذلك * قلت لما اعترفوا بانهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار * فان قلت فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بانهم قد بلغوا رسالات ربهم الى من ارسلوا اليهم من الامم * قلت اذا كان يوم القيامة انكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولا نذير وكان مسئلة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من ارسلوا اليهم من الامم انهم قد بلغوا رسالات ربهم الى من ارسلوا اليه من الامم فتكون هذه المسئلة كالتقريع والتوبيخ للكفار ايضا لانهم انكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم * وقوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم) يعني فلنخبرن الرسل ومن ارسلوا اليهم بعلم ويقين بما عملوا في الدنيا (وما كنا غائبين) يعني عنهم وعن افعالهم وعن الرسل فيما بلغوا وعن الامم فيما اجابوا * فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى فلنسئلن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين وبين قوله فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين واذا كان عالما فما فائدة هذا السؤال قلت فائدة سؤال الامم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات التقريع والتوبيخ للكفار لانهم اذا اقروا على انفسهم كان ابلغ في المقصود فاما سؤال الاسترشاد والاستثبات فهو منفي عن الله عز وجل لانه عالم بجميع الاشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها فهو العالم بالكليات والجزئيات وعلمه بظاهر الاشياء كعلمه بباطنها * قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) يعني والوزن يوم سؤال الامم والرسل وهو يوم القيامة العدل وقال مجاهد المراد بالوزن هنا القضاء ومعنى الحق العدل وذهب جمهور المفسرين الى ان المراد بالوزن وزن الاعمال بالميزان وذلك ان الله عز وجل ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة قدر ما بين المشرق والمغرب قال ابن الجوزي جاء في الحديث ان داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه ان يريه الميزان فاراه اياه فقال الهي من يقدر ان يملأ كفتيه حسنات فقال يا داود اذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة وقال حذيفة جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل زن بينهم ورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة فان لم يكن له حسنة اخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل * فان قلت اليس الله عز وجل يعلم مقادير اعمال

(لله) لا نصيب لي ولا لاحد غيري فيها الا اني تمت به له بالفناء فلا وجود لي ولا لغيري حتى يكون لي حظ ونصيب (رب العالمين) اي له باعتبار الجمع في صورة تفاصيل الربوبية (لا شريك له) في ذلك جمعا وتفصيلا (وبذلك امرت) اي امرت ان لا ارى غيره في عين الجمع ولا في صورة التفاصيل حتى احمل له كما وصفني تعالى بقوله مازاغ البصر وما طغى فهو الآمر والمأمور والرائي والمرئي (وانا اول المسلمين) المنقادين للفناء فيه باسلام وجهي له باعتبار الرتبة في تفاصيل الذات والافلا اول ولا آخر ولا مسلم ولا كافر (قل اغير الله) الذي هذا شأنه (ابغي ربا) فاطلب مستحيلا او غير الذات الشامل لجميع الصفات الذي هو الكل من حيث هو كل ابغي متعينا فيكون

العباد فالحكمة فى وزنها قلت فيه حكم منها اظهار العدل وان الله عز وجل لايظلم عباده ومنها امتحان الخلق بالايمان بذلك فى الدنيا واقامة الحجة عليهم فى العقبى ومنها تعريف العباد مالهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها اظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره انه تعالى اثبت اعمال العباد فى اللوح المحفوظ ثم فى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى *ثم اختلف العلماء فى كيفية الوزن فقال بعضهم توزن صحائف الاعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل سيخلص رجلا من امتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له اتنكر من هذا شيأ اظلمك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول افلك عذر فيقول لا يارب فيقول الله تبارك وتعالى بلى ان لك عندنا حسنة فانه لاظلم عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فانه لاظلم عليك اليوم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ اخرجه الترمذى واحمد بن حنبل وقال ابن عباس يؤتى بالاعمال الحسنة على صورة حسنة وبالاعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان فعلى قول ابن عباس ان الاعمال تصور صورا او توضع تلك الصور فى الميزان ويخلق الله تعالى فى تلك الصور ثقلا وخفة ونقل البغوى عن بعضهم انها توزن الاشخاص واستدل لذلك بما روى عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة اخرجاه فى الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ماذكر من وزن الاشخاص فى الميزان لان المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لاوزن جسده ولحمه والصحيح قول من قال ان صحائف الاعمال توزن اونفس الاعمال تجسد وتوزن والله اعلم بحقيقة ذلك * وقوله تعالى (فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان واورد على هذا انه ميزان واحد فاوجه الجمع واجيب عنه بان العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل انه ينصب لكل عبد ميزان وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن الا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعنى من رجحت اعماله بالحسنة الموزونة التى لها وزن وقدر (فاولئك هم المفلحون) يعنى هم الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه (ومن خفت موازينه) يعنى موازين اعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى (فأولئك الذين خسروا انفسهم) يعنى غبنوا انفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله تعالى وكرامته (بما كانوا بآياتنا يظلمون) يعنى بسبب ذلك الخسران انهم كانوا بحجج الله وادلة توحيده يجحدون ولا يقرون بها روى عن ابى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه انه حين حضره الموت قال فى وصيته لعمر بن الخطاب انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا ان يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا ان يكون خفيفا *قوله عز وجل (ولقد مكناكم فى الارض) يعنى ولقد مكناكم ايها الناس فى الارض والمراد من التمكين التمليك وقيل معناه جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا واقدرناكم على

مربوبا لا ربا (وهو رب كل شئ) وماسواه باعتبار تفاصيل صفاته مربوب (ولا تكسب كل نفس شيأ) (الا) هو وبال (عليها) اذ كسب النفس شرك فى افعاله تعالى وكل من شرك فوباله عليه باحتجابه (ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) لرسوخ هيئة وزرها فيها ولزومه اياها تحتجب هى به فكيف يتعدى الى غيرها (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) فى ارضه باظهار كمالاته فى مظاهركم ليمكنكم انفاذ امره (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فى مظهرية كمالاته على تفاوت درجات الاستعدادات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) من كمالاته

التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة يعني به جميع وجوه المنافع التي تحصل بها الارزاق وتعيشون بها ايام حياتكم وهي على قسمين احدهما ما انعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وانواع المأكل والمشارب والثاني ما يحصل من المكاسب والارباح في انواع التجارات والصنائع وكلا القسمين في الحقيقة انما يحصل بفضل الله وانعامه واقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك ان جميع معايش العالم انعام من الله تعالى على عباده وكثرة الانعام توجب الطاعة لآمر بها والشكر له عليها ثم بين تعالى انه مع هذا الافضال على عباده وانعامه عليهم لا يقومون بشكره كما ينبغي فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) يعني على ما صنعت اليكم وانعمت به عليكم وفيه دليل على انهم قد يشكرون لان الانسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو في بعض الاوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر تصور النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها* قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) يعني ولقد خلقناكم ايها الناس المخاطبون بهذا الخطاب وقت نزوله في ظهر ابيكم آدم ثم صورناكم في ارحام النساء صورا مخلوقة فان قلت على هذا التفسير يكون قوله ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم يقتضي ان الامر بالسجود لآدم كان وقع بعد خلق المخاطبين بهذا الخطاب وتصويرهم لان كلمة ثم للتراخي ومعلوم ان الامر ليس كذلك بل كان السجود لآدم عليه الصلاة والسلام قبل خلق ذريته *قلت يحتمل ان يكون المعنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم ايها المخاطبون ثم اخبرناكم انا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فتكون كلمة ثم تفيد ترتيب خبر على خبر ولا تفيد ترتيب المخبر به على الخبر وقيل في معنى الآية ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني ذريته وهذا قول ابن عباس وقال مجاهد ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني في ظهره وعلى هذين القولين انما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم اولانه ابو البشر فكان في خلقه خلق من خرج من صلبه وقيل ان الخلق والتصوير يرجع الى آدم عليه السلام وحده والمعنى ولقد خلقناكم يعني آدم حكمنا بخلقه ثم صورناكم يعني آدم صورة من طين (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) يعني بعد اكمال خلقه وقد تقدم في سورة البقرة الكلام في معنى هذا السجود وانه كان على سبيل التحية والتعظيم لآدم لا حقيقة السجود وقيل بل كان حقيقة السجود وان المسجود له هو الله تعالى وانما كان آدم كالقبلة للساجدين وقيل بل كان المسجود له وكان ذلك بامر الله تعالى وهل كان هذا الامر بالسجود لجميع الملائكة او لبعضهم فيه خلاف تقدم ذكره في سورة البقرة وقوله تعالى (فسجدوا) يعني الملائكة (الا ابليس) يعني فسجد الملائكة لآدم الا ابليس (لم يكن من الساجدين) يعني له وظاهر الآية يدل على ان ابليس كان من الملائكة لان الله تعالى استثناه منهم وكان الحسن يقول ان ابليس لم يكن من الملائكة لانه خلق من نار والملائكة من نور وانما استثناه من الملائكة لانه كان مأمورا بالسجود لآدم مع الملائكة فلما لم يسجد اخبر الله تعالى عنه انه لم يكن من الساجدين لآدم فلهذا استثناه منهم* قوله تعالى (قال ما منعك ان لا تسجد اذ امرتك) يعني قال الله عز وجل لابليس اي شئ منعك من السجود لآدم اذ امرتك به فعلى هذا التأويل تكون كلمة لا في قوله ان لا تسجد صلة زائدة وانما دخلت للتوكيد والتقدير ما منعك ان تسجد فهو كقوله لا اقسم اي اقسم وقوله وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون اي يرجعون وقوله لئلا يعلم اهل الكتاب اي ليعلم اهل الكتاب وهذا قول الكسائي والفراء والزجاج والاكثرين وقيل ان كلمة لا هنا على اصلها

بحسب الاستعدادات من يقوم بحقوق ما ظهر منها عليه ومن لا يقوم ومن يقوم بحق في سلوك طريقها حتى يظهرها الله باخفاء صفات نفسه فيكون مؤديا لامانات الله ومن لا يقوم فيكون خائنا وتظهر عليكم اعمالكم بحسبها فيترتب عليها الجزاء معاقبا ومثوبة الاحتجاب حالة التقصير فيكون ربك سريع العقاب اما مثوبة البروز والانكشاف فيكون غفورا بستر افعالكم وصفات نفوسكم الساترة الحاجبة لتلك لصفات الآلهية والكمالات الربانية رحيما يرحمكم باظهارها عليكم والله اعلم بحقائق الامور

مفيدة وليست بزائدة لانه لا يجوز ان يقال ان كلمة من كتاب الله زائدة او لا معنى لها وعلى هذا
القول حكى الواحدى عن احمد بن يحيى ان لا فى هذه الآية ليست زائدة ولا توكيدا لان معنى قوله
مامنعك ان لا تسجد من قال لك لا تسجد فحمل نظم الكلام على معناه وهذا القول حكاه
ابو بكر عن الفراء وقال الطبرى الصواب فى ذلك ان يقال ان فى الكلام محذوفا تقديره
مامنعك من السجود فاحوجك ان لا تسجد فترك ذكر احوجك استغناء عنه بمعرفة السامعين به
ونقل الامام فخر الدين الرازى عن القاضى قال ذكر الله تعالى المنع واراد الداعى فكأنه قال ما دعاك
الى ان لا تسجد لان مخالفة الله تعالى عظيمة يتعجب منها ويسئل عن الداعى اليها * فان قلت لم سأله
عن المانع له من السجود وهو اعلم به * قلت انما سأله للتوبيخ والتقريع له ولاظهار معاندته وكفره
وافتخاره باصله وحسده لآدم عليه الصلاة والسلام ولذلك لم يتب الله عليه (قال) يعنى قال
ابليس مجيبا لله تعالى عما سأله عنه (انا خير منه) فان قلت قوله انا خير منه ليس بجواب عما سأله
عنه فى قوله تعالى مامنعك ان لا تسجد فلم يجب بما منعه من السجود فانه كان ينبغى له ان يقول
منعنى كذا وكذا ولكنه قال انا خير منه قلت استأنف قصة اخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم
وفيها دليل على موضع الجواب وهو قوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار خير
من الطين وانور وانما قال انا خير منه لما راى انه اشد منه قوة وافضل منه اصلا وذلك لفضل
الجنس الذى خلق منه وهو النار على الطين الذى خلق منه آدم عليه الصلاة والسلام فجهل
عدو الله ابليس وجه الحق واخطأ طريق الصواب لان من المعلوم ان من جوهر النار الخفة
والطيش والارتفاع والاضطراب وهذا الذى حمل الخبيث ابليس مع الشقاء الذى سبق له
من الله تعالى فى الكتاب السابق على الاستكبار على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام
والاستخفاف بامر ربه فاورده ذلك العطب والهلاك ومن المعلوم ان فى جوهر الطين الرزانة
والاناة والصبر والحلم والحياء والتثبت وهذا كان الداعى لآدم عليه الصلاة والسلام مع السعادة
السابقة التى سبقت له من الله تعالى فى الكتاب السابق الى التوبة من خطيئته ومسئلته ربه
العفو عنه والمغفرة ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان اول من قاس ابليس فاخطأ وقال
ابن سيرين ايضا ما عبدت الشمس والقمر الا بالمقاييس واصل هذا القياس الذى قاسه ابليس لعنه
الله تعالى لما راى ان النار افضل من الطين واقوى فقال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين
ولم يدر ان الفضل لمن جعله الله فاضلا وان الافضلية والخيرية لا تحصل بسبب فضيلة الاصل
والجوهر وايضا الفضيلة انما تحصل بسبب الطاعة وقبول الامر فالمؤمن الحبشى خير من الكافر
القرشى فالله تعالى خص صفيه آدم عليه الصلاة والسلام باشياء لم يخص بها غيره وهو انه خلقه
بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته وعلمه اسماء كل شئ واورثه الاجتباء والتوبة
والهداية الى غير ذلك مما خص الله تعالى به آدم عليه الصلاة والسلام للعناية التى سبقت له
فى القدم واورث ابليس كبره اللعنة والطرد للشقاوة التى سبقت له فى القدم * وقوله تعالى (قال فاهبط
منها) يعنى قال الله تعالى لابليس لعنه الله اهبط من الجنة وقيل من السماء الى الارض * والهبوط
الانزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف (فما يكون لك ان تتكبر فيها)
يعنى فليس لك ان تستكبر فى الجنة عن امرى وطاعتى لانه لا ينبغى ان يسكن فى الجنة او فى السماء

* (سورة الاعراف) *
* بسم الله الرحمن الرحيم *
(المص كتاب انزل اليك)
الى قوله ذكرى للمؤمنين
(ا) اشارة الى الذات الاحدية
و(ل) الى الذات مع صفة
العلم كامر و(م) الى التميمة
الجامعة التى هى معنى محمد
اى نفسه وحقيقته و(ص)
الى الصورة المحمدية التى
هى جسده وظاهره وعن
ابن عباس انه قال ص جبل
بمكة كان عليه عرش
الرحمن حين لا ليل ولا نهار
اشار بالجبل الى جسد محمد
وبعرش الرحمن الى قلبه
كما ورد فى الحديث قلب
المؤمن عرش الله وجاء
لا يسعنى ارضى ولا سمائى
ويسعنى قلب عبدى المؤمن
وقوله حين لا ليل ولا نهار
اشارة منه الى الوحدة لان
القلب اذا وقع فى ظل ارض
النفس واحتجب بظلمة
صفاتها كان فى الليل واذا
طلع عليه نور شمس الروح
واستضاء بضوئه كان
فى النهار واذا وصل الى
الوحدة الحقيقية بالمعرفة
والشهود الذاتى واستوى
عنده النور والظلمة كان
وقته لا ليلا ولا نهارا
ولا يكون عرش الرحمن

متكبر مخالف لامر الله عزوجل فماغير الجنة والسماء فقد يسكنها المستكبر عن طاعة الله تعالى وهم الكفار الساكنون فى الارض (فاخرج انك من الصاغرين) يعنى انك من الاذلاء المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدوّ الله ابليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الارض فاخرجه الله تعالى منها الى جزائر البحر الاخضر وعرشه عليه فلا يدخل الارض الا خائفا كهيئة السارق مثل شيخ عليه اطمار رثة يروع فيها حتى يخرج منها (قال) يعنى قال ابليس عند ذلك (انظرنى) يعنى اخرنى وامهلنى فلا تمتنى (الى يوم يبعثون) يعنى من قبورهم وهى النفخة الآخرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة الخبيث ابليس لعنه الله لانه سال ربه الامهال وقد علم انه لاسبيل لاحد من خلق الله تعالى الى البقاء فى الدنيا ولكنه كره ان يكون ذائقا للموت فطلب البقاء والخلود فلم يجب الى ماسال بل (قال) الله تعالى له (انك من المنظرين) يعنى من المؤخرين الممهلين وقد بين الله تعالى مدة النظرة والمهلة فى سورة الحجر فقال تعالى انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى حين يموت الخلق كلهم * فان قلت فما وجه قوله انك من المنظرين وليس احد ينظر سواه * قلت معناه ان الذين تقوم عليهم الساعة منظرون الى ذلك الوقت بآجالهم فهو منهم (قال) يعنى ابليس (فبما اغويتنى) يعنى فبأى شئ اضللتنى فعلى هذا تكون ما استفهامية وتم الكلام عند قوله غويتنى ثم ابتدا فقال (لاقعدن لهم صراطك المستقيم) وقيل هى باء القسم تقديره فباغوائك اياى وقيل معناه فبما اوقعت فى قلبى الغى الذى كان سبب هبوطى الى الارض من السماء واضللتنى عن الهدى لاقعدن لهم صراطك المستقيم يعنى لاجلسن على طريقك القويم وهو طريق الاسلام وقيل المراد بالصراط المستقيم الطريق الذى يسلكونه الى الجنة وذلك بان وسوس اليهم وازين لهم الباطل ومايكسبهم المآثم وقيل المراد بالصراط المستقيم هنا طريق مكة يثنيهم عن الهجرة وقيل المراد به الحج والقول الاول اولى لانه يعم الجميع ومعنى الآية لاردن بنى آدم عن عبادتك وطاعتك ولاغوينهم ولاضلنهم كما اضللتنى عن سبرة بن ابى الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قعد لابن آدم باطرقة فقعد له فى طريق الاسلام فقال تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك فعصاه واسلم وقعد له بطريق الهجرة فقال تهاجر وتذر ارضك وسماءك وانما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول فعصاه فهاجر وقعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المراة ويقسم المال فعصاه فجاهد قال فمن فعل ذلك كان حقا على الله ان يدخله الجنة وان غرق كان حقا على الله ان يدخله الجنة او وقصته دابته كان حقا على الله ان يدخله الجنة اخرجه النسائى وقوله تعالى اخبارا عن ابليس (ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم) قال ابن عباس من بين ايديهم يعنى من قبل الآخرة فاشككهم فيها ومن خلفهم يعنى من قبل الدنيا فارغبهم فيها وعن ايمانهم يشبه عليهم امر دينهم وعن شمائلهم اشهى لهم المعاصى وانما جعل الآخرة من بين ايديهم فى هذا القول لانهم مقبلون اليها وصائرون اليها فعلى هذا الاعتبار فالدنيا خلفهم لانهم يخلفونها وراء ظهورهم وقال ابن عباس فى رواية عنه من بين ايديهم من قبل دنياهم يعنى ازينها فى قلوبهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فاقول لابعث ولانشور ولاجنة ولانار وعن ايمانهم من قبل

الا فى هذا الوقت فعنى الآية انّ وجود الكلّ من اوّله الى آخره كتاب انزل اليك اى انزل اليك عله (فلا يكن فى صدرك حرج منه) اى ضيق من حمله فلا يسعه لعظمته فيتلاشى بالفناء فى الوحدة والاستغراق فى عين الجمع والذهول عن التفصيل اذ كان عليه السلام فى مقام الفناء محجوبا بالحق عن الخلق كما ردّ عليه الوجود وحجب عنه الشهود الذاتى وظهر عليه بالتفصيل ضاق به وعاؤه وارتكب عليه وزر وثقل ولهذا خوطب بقوله الم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك بالوجود الموهوب الحقانى والاستقامة فى البقاء بعد الفناء بالتمكين ليسع صدرك الجمع والتفصيل والحق والخلق فلم يبق عليك وزر فى عين الجمع ولا حجاب باحدهما عن الآخر (لتنذر به وذكرى) وتذكيرا (للمؤمنين) بالايمان الغيبى اى لا يضيق صدرك منه ليمكنك الانذار والتذكير اذ لو ضاق لبقى فى حال الفناء لا يرى الا الحق فى الوجود وينظر الى الخلق بنظر العدم المحض فكيف

(حسناتهم)

حسناتهم وعن شمائلهم من قبل سيآتهم وانما جعل الدنيا من بين ايديهم في هذا القول لان الانسان يسعى فيها ويشاهدها فهي حاضرة بين يديه والآخرة غائبة عنه فهي خلفه وقال الحكم بن عتبة من بين ايديهم يعنى من قبل الدنيا فازينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فاثبطهم عنها وعن ايمانهم يعنى من قبل الحق فاصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فازينه لهم وقال قتادة اتاهم من بين ايديهم فاخبرهم انه لابعث ولاجنة ولانار ومن خلفهم من امر الدنيا فزينها لهم ودعاهم اليها وعن ايمانهم من قبل حسناتهم فبطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم اليها اتاك يا ابن آدم من كل وجه غير انه لم يأتك من فوقك فلم يستطع ان يحول بينك وبين رحمة الله تعالى وقال مجاهد يأتيهم من بين ايديهم وعن ايمانهم حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لايبصرون ومعنى هذا من حيث يخطئون ويعلمون انهم يخطئون ومن حيث لايبصرون انهم يخطئون ولايعلمون انهم يخطئون وقيل من بين ايديهم يعنى فيما بقى من اعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة ومن خلفهم يعنى مامضى من اعمارهم فلايتوبون عما اسلفوا فيه من معصية وعن ايمانهم يعنى من قبل الغنى فلاينفقون ولايشكرون ومن خلفهم يعنى من قبل الفقر فلايمتنعون فيه من محظور نالوه وقال شقيق البلخى مامن صباح الاويأتيني الشيطان من الجهات الاربع من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى امامن بين يدى فيقول لاتخف فان الله غفور رحيم فاقرا وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى واما من خلفى فيخوفنى من وقوع اولادى فى الفقر فاقرا ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها واما من قبل يمينى فيأتينى من الثناء فاقرا والعاقبة للمتقين واما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرا وحيل بينهم وبين مايشتهون وقيل ان ذكر هذه الجهات الاربع انما اريد بها التأكيد والمبالغة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم وانه لايقصر فى ذلك ومعنى الآية على هذا القول ثم لآتينهم من جميع الوجوه الممكنة لجميع الاعتبارات وقوله (ولاتجد اكثرهم شاكرين) يعنى ولاتجد يارب اكثر بنى آدم شاكرين لك على نعمك التى انعمت بها عليهم وقال ابن عباس معناه ولاتجد اكثرهم موحدين * فان قلت كيف علم الخبيث ابليس ذلك حتى قال ولاتجد اكثرهم شاكرين * قلت قاله ظنا فاصاب ومنه قوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه وقيل انه كان عازما على المبالغة فى تزيين الشهوات وتحسين القبائح وعلم ميل بنى آدم الى ذلك فقال هذه المقالة وقيل انه رآه مكتوبا فى اللوح المحفوظ فقال هذه المقالة على سبيل اليقين والقطع والله اعلم بمراده * قوله عز وجل (قال اخرج منها) اى قال الله تعالى لابليس حين طرده عن بابه وابعده عن جنابه وذلك بسبب مخالفته وعصيانه اخرج منها يعنى من الجنة فانه لاينبغى ان يسكن فيها العصاة (مذؤما) يعنى معيبا والذام اشد العيب (مدحورا) يعنى مطرودا مبعودا وقال ابن عباس صغيرا ممقوتا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال الكلبي ملوما مقصيا من الجنة ومن كل خير (لمن تبعك منهم) يعنى من بنى آدم (لاملأن جهنم منكم اجمعين) اللام لام القسم اقسم الله تعالى ان من تبع ابليس من بنى آدم واطاعه منهم ان يملأ جهنم منه وممن كفر من بنى آدم وابليس وذريته ومن تبعه منهم * قوله تعالى (ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة) اى وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وذلك بعد ان اهبط منها ابليس واخرجه وطرده من الجنة (فكلا من حيث شئتما)

ينذر ويذكر ويأمر وينهى وعلى تقدير القسم فمعناه بالكل من اوله الى آخره اوباسم الله الاعظم اذ ص حامل العرش والعرش يسع الذات والصفات والمجموع هو الاسم الاعظم لهو كتاب انزل اليك علم اولهذا القرآن كتاب انزل اليك (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه اولياء قليلا ماتذكرون وكم من قرية اهلكناها فجاءها بأسنا بياتا اوهم قائلون فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين والوزن يومئذ الحق) الوزن هو الاعتبار اى اعتبار الاعمال حين قامت القيامة الصغرى هو الحق اى العدل او الثابت او الوزن العدل يومئذ (فمن ثقلت موازينه) اى رجحت موزوناته بان كانت باقيات صالحات (فاولئك هم المفلحون) الفائزون بصفات الفطرة ونعيم جنة الصفات فى مقام القلب (ومن خفت موازينه)

يعنى فكلا من ثمار الجنة من اى مكان شئتما *فان قلت قال فى سورة البقرة وكلا بالواو وقال
هنا فكلا بالفاء فما الفرق* قلت قال الامام فخر الدين الرازى ان الواو تفيد الجمع المطلق
والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة
بين النوع والجنس ففى سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع (ولا تقربا هذه الشجرة
فتكونا من الظالمين) تقدم فى سورة البقرة الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى * قوله تعالى
(فوسوس لهما الشيطان) يعنى فوسوس اليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان فى قلب
الانسان يقال وسوس اذا تكلم كلاما خفيا مكررا واصله من صوت الحلى ومعنى وسوس
لهما فعل الوسوسة والقاها اليهما * فان قلت كيف وسوس اليهما وآدم وحواء فى الجنة وابليس
قد اخرج منها *قلت ذكر الامام فخر الدين الرازى فى الجواب عن هذا السؤال عن الحسن
انه قال كان يوسوس فى الارض الى السماء الى الجنة بالقوة القوية التى جعلها الله تعالى له وقال
ابو مسلم الاصبهانى بل كان آدم وابليس فى الجنة لان هذه الجنة كانت بعض جنات الارض والذى
يقوله بعض الناس من ان ابليس دخل فى جوف الحية فدخلت به الحية الى الجنة فقصة
مشهورة ركيكة وقال آخرون ان آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة وكان ابليس واقفا من خارج
الجنة على بابها فقرب احدهما من الآخر فحصلت الوسوسة هناك *فان قلت ان آدم عليه الصلاة والسلام
قد عرف ما بينه وبين ابليس من العداوة فكيف قبل قوله * قلت يحتمل ان يقال ان ابليس لقى
آدم مرارا كثيرة ورغبه فى اكل هذه الشجرة بطرق كثيرة منها رجاء نيل الخلد ومنها قوله وقاسمهما انى
لكما لمن الناصحين فلاجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه اثر كلام ابليس فى آدم حتى
اكل من الشجرة (ليبدى لهما ماووري عنهما من سوآتهما) يعنى ليظهر لهما ما غطى وستر من
عوراتهما وقوله ماووري ماخوذ من المواراة وهى الستر يقال واريته بمعنى سترته والسوأة فرج
الرجل والمرأة سمى بذلك لان ظهوره يسوء الانسان وفى الآية دليل على ان كشف العورة
من المنكرات المحرمات واللام فى قوله ليبدى لهما لام العاقبة وذلك لان ابليس لم يقصد بالوسوسة
ظهور عوراتهما وانما كان حملهما على المعصية فقط فكان عاقبة امرهما ان بدت عوراتهما (وقال)
يعنى وقال ابليس لآدم وحواء (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة) يعنى عن الاكل من هذه الشجرة
(الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين) يعنى انما نهاكما عن هذه الشجرة لكيلا تكونا ملكين
من الملائكة تعلمان الخير والشر او تكونا من الباقين الذين لا يموتون وانما طمع ابليس آدم بهذه
الآية لانه علم ان الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش فاستشرف لذلك آدم واحب ان يعيش
مع الملائكة لطول اعمارهم او يكون مع الخالدين الذين لا يموتون ابدا* فان قلت ظاهر الآية يدل
على ان الملك افضل من الانبياء لان آدم عليه السلام طلب ان يكون من الملائكة وهذا يدل على فضلهم
عليه * قلت ليس فى ظاهر الآية ما يدل على ذلك لان آدم عليه الصلاة والسلام لما طلب ان يكون
من الملائكة كان ذلك الطلب قبل ان يتشرف بالنبوة وكانت هذه الواقعة قبل نبوة آدم عليه الصلاة
والسلام فطلب ان يكون من الملائكة او من الخالدين وعلى تقدير ان تكون هذه الواقعة فى زمان النبوة
بعد ان شرف بها آدم انما طلب ان يكون من الملائكة لطول اعمارهم لا لانهم افضل منه حتى يلتحق
بهم فى الفضل لانه طلب اما ان يكون من الملائكة لطول اعمارهم او من الخالدين الذين لا يموتون

موزوناته بان كانت
من المحسوسات الفانية
(فاولئك الذين خسروا
انفسهم) ببيعها باللذات
العاجلة السريعة الزوال
وافنائها فى دار الفناء مع
كونها بضاعة البقاء
واعلم ان لسان ميزان الحق
هو صفة العدل واحدى
كفتيه هو عالم الحس والكفة
الآخرى هو عالم العقل
فمن كانت مكاسبه من
المعقولات الباقية والاخلاق
الفاضلة والاعمال الخيرية
المقرونة بالنيات الصادقة
ثقلت اى كانت ذات قدر
ووزن اذ لا قدر ارجح
من البقاء الدائم ومن كانت
مقتنياته من المحسوسات
الفانية واللذات الزائلة
والشهوات الفاسدة
والاخلاق الرديئة والشرور
المردية خفت اى لا قدر لها
ولا اعتداد بها ولا خفة
اخف من الفناء فخسرانهم
هو انهم اضاعوا استعدادهم
الاصلى فى طلب الحطام
الدنيوى وتحصيل المآرب
النفسانية بسبب ظهورهم
بصفات انفسهم وظلمهم
بصفات الله تعالى بالتكذيب
بها اى باخفائها بصفات
انفسهم (بما كانوا بآياتنا

ابدا * وقوله تعالى (وقاسمهما) اى واقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التى تختص بالواحد (انى لكما لمن الناصحين) قال قتادة حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال انى خلقت قبلكما وانا اعلم منكما فاتبعانى ارشدكما وقال بعض العلماء من خادعنا بالله خدعنا له (فدلاهما بغرور) يعنى فخدعهما بغرور يقال مازال فلان يدلى فلانا بغرور يعنى مازال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل قال الازهرى واصله ان الرجل العطشان يتدلى فى البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه والغرور اظهار النصح مع ابطان الغش وهوان ابليس حطهما من منزلة الطاعة الى حالة المعصية لان التدلى لا يكون الا من علو الى اسفل ومعنى الآية ان ابليس لعنه الله تعالى غرّ آدم باليمين الكاذبة وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن ان احدا لا يحلف بالله كاذبا وابليس اوّل من حلف بالله كاذبا فلما حلف ابليس ظن آدم انه صادق فاغترّ به (فلما ذاقا الشجرة) يعنى طعما من ثمرة الشجرة وفيه دليل على انهما تناولا اليسير من ذلك قصدا الى معرفة طعمه لان الذوق يدل على الاكل اليسير (بدت لهما سوآتهما) يعنى ظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس رضى الله عنهما قبل ان ازدردا اخذتهما العقوبة والعقوبة ان ظهرت وبدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما لباسهما حتى ابصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك وقال وهب كان لباسهما من النور لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما اصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما وقال قتادة كان لباس آدم فى الجنة ظفرا كله فلما وقع فى الذنب فشط عنه وبدت سوأته (وطفقا) يعنى واقبلا وجعلا (يخصفان عليهما من ورق الجنة) يعنى انهما لما بدت لهما سوآتهما جعلا يرقعان ويلزقان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب وقال الزجاج جعلا ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما وفى الآية دليل على ان كشف العورة من ابن آدم قبيح الا ترى انهما بادرا الى ستر العورة لما تقرر فى عقلهما من قبح كشفها روى ابى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان آدم صلى الله عليه وسلم رجلا طويلا كانه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فى الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها فانطلق فارا فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها ارسلينى قالت لست بمرسلتك فناداه ربه يا آدم امنى تفرّ قال لا يارب ولكنى استحييتك ذكره البغوى بغير سند واسنده الطبرى من طريقين موقوفا ومرفوعا * قوله تعالى (وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة) يعنى ان الله تعالى نادى آدم وحواء وخاطبهما فقال الم انهكما عن اكل ثمرة هذه الشجرة (واقل لكما ان الشيطان لكما عدوّ مبين) يعنى الم اعلمكما ان الشيطان قد بانت عداوته لكما بترك السجود حسدا وبغيا قال ابن عباس رضى الله عنهما لما اكل آدم من الشجرة قيل له لم اكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء امرتنى قال فانى اعقبتها ان لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها قال فرنت حواء عند ذلك رنة فقيل لها الرنة عليك وعلى بناتك وقال محمد بن قيس ناداه ربه يا آدم لم اكلت منها وقد نهيتك قال اطعمتنى حواء فقال لحواء لم اطعمتيه قالت امرتنى الحية فقال للحية لم امرتها قالت امرنى ابليس قال الله تعالى اما انت يا حواء فكما ادميت الشجرة تدمين كل شهر واما انت يا حية فاقطع رجليك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك واما انت يا ابليس فملعون مطرود مدحور يعنى عن الرحمة وقيل ناداه ربه يا آدم اما خلقتك بيدى اما نفخت فيك من روحى اما اسجدت لك ملائكتى اما اسكنتك جنتى فى جوارى * قوله

يظلمون ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك الا تسجد اذ امرتك قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) خلقت القوّة الوهمية من الطف اجزاء الروح الحيوانية التى تحدث فى القلب من بخارية الاخلاط ولطافتها وترتقى الى الدماغ وتلك الروح هى احرّ ما فى البدن فلذلك سماها نارا والحرارة توجب الصعود والترفع وقدمّ انّ كل قوّة ملكوتية تطلع على خواص ما تحتها دون ما فوقها وعلى الكمالات البدنية وخواصها وكمالات الروح الحيوانية وخواصها واحتجابها عن الكمالات الانسانية الروحانية والقلبية هو صورة انكارها وعلة ابائها واستكبارها وتعديها عن طورها بالحكم فى المعانى المعقولة والمجرّدات والامتناع عن قبول حكم

عزوجل (قالا ربنا ظلمنا انفسنا) وهذا خبر من الله عزوجل عن آدم عليه الصلاة والسلام وحواء عليها السلام واعترافهما على انفسهما بالذنب والندم على ذلك والمعنى قالا يا ربنا انا فعلنا بانفسنا من الاساءة اليها بمخالفة امرك وطاعة عدونا وعدوك ما لم يكن لنا ان نطيعه فيه من اكل الشجرة التى نهيتنا عن اكلها (وان لم تغفر لنا) يعنى وانت يا ربنا ان لم تستر علينا ذنبنا (وترحمنا) يعنى وتتفضل علينا برحمتك (لنكونن من الخاسرين) يعنى من الهالكين قال قتادة قال آدم يا رب ارأيت ان تبت اليك واستغفرتك قال اذا ادخلك الجنة واما ابليس فلم يسأله التوبة وسأله ان ينظره فاعطى كل واحد منهما ما سأل وقال الضحاك فى قوله ربنا ظلمنا انفسنا قال هى الكلمات التى تلقاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه عزوجل * (فصل) * وقد استدل من يرى صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية واجيب عنه بان درجة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله عزوجل مما حملهم على الخوف منه والاشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخذ به غيرهم وانهم ربما عوتبوا بامور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهى ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم وسيآت بالنسبة الى كمال طاعتهم لا انها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصى غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحى السماوى والذكر القدسى وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله عزوجل ذنوبا وهى حسنات بالنسبة الى غيرهم كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين يعنى انهم يرونها بالنسبة الى احوالهم كالسيآت وهى حسنات لغيرهم وقد تقدم فى سورة البقرة ان اكل آدم من الشجرة هل كان قبل النبوة او بعدها والخلاف فيه فاغنى عن الاعادة والله اعلم * قوله تعالى (قال اهبطوا) قال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله ان الذى تقدم ذكره هو آدم وحواء وابليس فقوله اهبطوا يجب ان يتناول هؤلاء الثلاثة وقال الطبرى قال الله تعالى لآدم وحواء وابليس والحية اهبطوا يعنى من السماء الى الارض قال السدى رحمه الله قوله تعالى اهبطوا يعنى الى الارض آدم وحواء وابليس والحية (بعضكم لبعض عدو) يعنى ان العداوة ثابتة بين آدم وابليس والحية وذرية كل واحد من آدم وابليس (ولكم فى الارض مستقر) يعنى موضع قرار تستقرون فيه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى ولكم فى الارض مستقر يعنى القبور (ومتاع الى حين) يعنى ولكم فيها متاع تستمتعون به الى انقطاع الدنيا او الى انقضاء آجالكم ومعنى الآية ان الله عزوجل اخبر آدم وحواء وابليس والحية انه اذا اهبطهم الى الارض فان بعضهم لبعض عدو وان لهم فى الارض موضع قرار يستقرون فيه الى انقضاء آجالهم ثم يستقرون فى قبورهم الى انقطاع الدنيا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى ومتاع الى حين يعنى الى يوم القيامة والى انقطاع الدنيا (قال فيها تحيون) يعنى قال الله عزوجل لآدم وذريته وابليس واولاده فيها تحيون يعنى فى الارض تعيشون ايام حياتكم (وفيها تموتون) يعنى وفى الارض تكون وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) يعنى ومن الارض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة * قوله عزوجل (يا بنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم) اعلم ان الله عزوجل لما امر آدم وحواء بالهبوط الى الارض وجعلها مستقرا لهم انزل عليهم كل ما يحتاجون اليه من مصالح الدين والدنيا فكان مما انزل عليهم اللباس الذى يحتاج اليه فى الدين والدنيا فاما منفعته فى الدين فانه يستر العورة وسترها شرط فى صحة الصلاة

العقل هو صورة ابائه من السجود (قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها) اذ التكبر وهو التظاهر بما ليس فيه من الفضيلة من صفات النفس لا يليق بالحضرة الروحانية التى تزعم انك من اهلها بالترفع على العقل فاخرج فلست من اهلها الذين هم الاعزة (فاخرج انك من الصاغرين) من القوى النفسانية الملازمة للجهة السفلية الدائمة الهوان بملازمة الابدان (قال فانظرنى الى يوم يبعثون) من قبور الابدان واجداث صفات النفس بعد الموت الارادى فى القيامة الوسطى بحياة القلب وخلاص الفطرة من حجب النشأة او يبعثون بعد الفناء فى الوحدة فى القيامة الكبرى بالوجود الموهوب الحقانى والحياة الحقيقية والمبعوث الاول هو المخلص بكسر اللام والثانى هو المخلص بالفتح ولا سبيل لابليس الى اغوائهما (قال انك من المنظرين قال فبما اغويتنى) اقسام وابليس محجوب عن الذات الاحدية

واما منفعته فى الدنيا فانه يمنع الحر والبرد فامتن الله على عباده بان انزل عليهم لباسا يوارى سوآتهم فقال تعالى يا بنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم يعنى لباسا تسترون به عوراتكم * فان قلت ما معنى قوله قد انزلنا عليكم لباسا *قلت ذكر العلماء فيه وجوها احدها انه بمعنى خلق اى خلقنا لكم لباسا او بمعنى رزقناكم لباسا الوجه الثانى ان الله تعالى انزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكأنه انزله عليهم الوجه الثالث ان جميع بركات الارض تنسب الى السماء والى الانزال كما قال تعالى وانزلنا الحديد (وريشا) الريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان فاستعير للانسان لانه لباسه وزينته والمعنى وانزلنا عليكم لباسين لباسا يوارى سوآتكم ولباسا لزينتكم لان التزيين غرض صحيح كما قال تعالى لتركبوها وزينة وقال ولكم فيها جمال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال واختلفوا فى معنى الريش المذكور فى الآية فقال ابن عباس رضى الله عنهما وريشا يعنى مالا وهو قول مجاهد والضحاك والسدى لان المال مما يتزين به ويقال تريش الرجل اذا تمول وقال ابن زيد الريش الجمال وهو يرجع الى الزينة ايضا وقيل ان الرياش فى كلام العرب الاثاث وما ظهر من الثياب والمتاع مما يلبس او يفرش والريش ايضا المتاع والاموال عندهم وربما استعملوه فى الثياب والكسوة دون بقية المال يقال انه لحسن الريش اى لحسن الثياب وقيل الريش والرياش يستعمل فى الصاق الخصب ورفاهية العيش (ولباس التقوى) اختلف العلماء فى معناه فمنهم من حمله على نفس الملبوس وحقيقته ومنهم من حمله على المجاز فاما من حمله على نفس الملبوس فاختلفوا ايضا فى معناه فقال ابن الانبارى لباس التقوى هو اللباس الاول وانما اعاده اخبارا ان ستر العورة من التقوى وذلك خير وقيل انما اعاده لاجل ان يخبر عنه بانه خير لان العرب فى الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعرى وخلع الثياب فى الطواف بالبيت فاخبر ان ستر العورة فى الطواف هو لباس التقوى وذلك خير وقال زيد بن على رحمه الله تعالى لباس التقوى آلات الحرب التى يتقى بها فى الحروب كالدروع والمغفر ونحو ذلك وقيل لباس التقوى هو الصوف والخشن من الثياب التى يلبسها اهل الزهد والورع وقيل هو ستر العورة فى الصلاة* واما من حمل لباس التقوى على المجاز فاختلفوا فى معناه فقال قتادة والسدى لباس التقوى هو الايمان لان صاحبه يتقى به من النار وقال ابن عباس رضى الله عنهما لباس التقوى هو العمل الصالح وقال الحسن رضى الله عنه هو الحياء لانه يحث على التقوى وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لباس التقوى هو السمت الحسن وقال عروة بن الزبير رضى الله عنه لباس التقوى خشية الله وقال الكلبى هو العفاف فعلى هذه الاقوال ان لباس التقوى خير لصاحبه اذا اخذ به مما خلق الله له من لباس التجمل والزينة الذى يتزين به قوله تعالى (ذلك خير) يعنى ان لباس التقوى خير من لباس الجمال والزينة وانشدوا فى المعنى

اذا انت لم تلبس ثيابا من التقى * عريت وان وارى القميص قميص

*وقوله تعالى (ذلك من آيات الله) يعنى انزال اللباس عليكم يا بنى آدم من آيات الله الدالة على معرفته وتوحيده (لعلهم يذكرون) يعنى لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكرونها * قوله تعالى (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة) قيل هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم فى الطواف وانما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة ابليس له ليحذر بذلك اولاد آدم فقال تعالى يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج

دون الصفات والافعال فشهوده للافعال وتعظيمه لها اقسام بها كما اقسم بعزته فى قوله فبعزتك لاغوينهم اجمعين (لاقعدن لهم صراطك المستقيم) اى اعترضن لهم فى طريق التوحيد الذاتى وامنعنهم عن سلوكها بان اشغلهم بما سواك ولآتينهم من الجهات الاربع التى يأتى منها العدو فى الشاهد لان اتيانه من اسفل اى من جهة الاحكام الحسية والتدابير الجزئية من باب المصالح الدنيوية غير موجب الضلالة بل قد ينتفع به فى العلوم الطبيعية والرياضية وبه يستعين العقل فيها كما مرّ تأويل قوله لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم واتيانه من فوق غير ممكن له اذ الجهة العلوية هى التى تلى الروح ويرد منها الالهامات الحقة والالقاآت الملكية وتفيض المعارف والحقائق الروحية فبقيت الجهات الاربع مواقع وساوسه اما من بين يديه فبان يؤمنه من مكر الله ويغره بان الله غفور رحيم فلا يخاف فيثبطه عن الطاعات

ابويكم من الجنة يعني آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام والمعنى ان من قدر على اخراج ابويكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته فبأن يقدر على فتنتكم بطريق الاولى لحذر الله عز وجل بني آدم وامرهم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه القبائح وتحسينه الافعال الرديئة في قلوب بني آدم فهذه فتنته التي نهى الله تعالى عباده عنها وحذرهم منها * وقوله تعالى (ينزع عنهما لباسهما) انما اضاف نزع اللباس الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لان نزع لباسهما كان بسبب وسوسة الشيطان وغروره فاسند اليه واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما فقال ابن عباس رضي الله عنهما كان لباسهما الظفر فلما اصابا الخطيئة نزع عنهما وبقيت الاظفار تذكرة وزينة ومنافع وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى كان لباس آدم وحواء نورا وقال مجاهد كان لباسهما التقى وفي رواية عنه التقوى وقيل ان لباسهما من ثياب الجنة وهذا القول اقرب لان اطلاق اللباس ينصرف اليه ولان النزع لا يكون الا بعد اللبس (ليريهما سوآتهما) يعني ليرى آدم عورة حواء ويرى حواء عورة آدم وكان قبل ذلك لا يرى بعضهم سوأة بعض (انه يراكم هو وقبيله) يعني ان ابليس يراكم يابني آدم هو وقبيله انما اعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف * والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضا وقال الليث كل جيل من جن او انس قبيل ومعنى يراكم هو وقبيله اي من هو من نسله وحكى ابو عبيد عن ابي زيد القبيل ثلاثة فصاعدا من قوم شتى والجمع قبل والقبيلة بنو اب واحد وقال الطبري قبيله يعني صنفه وجيله الذي هو منهم وهو واحد يجمع على قبل وهم الجن وقال مجاهد الجن والشياطين وقال ابن زيد قبيله نسله وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو وولده *وقوله (من حيث لا ترونهم) يعني انتم يابني آدم قال العلماء رحمهم الله ان الله تعالى خلق في عيون الجن ادراكا يرون بذلك الادراك الانس ولم يخلق في عيون الانس هذا الادراك فلم يروا الجن وقالت المعتزلة الوجه في ان الانس لا يرون الجن رقة اجسام الجن ولطافتها والوجه في رؤية الجن للانس كثافة اجسام الانس والوجه في رؤية الجن بعضهم بعضا ان الله تعالى قوى شعاع ابصار الجن وزاد فيها حتى يرى بعضهم بعضا ولو جعل في ابصارنا هذا القوة لرايناهم ولكن لم يجعلها لنا وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم الا من عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذي يوسوس في صدور الناس فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم وقال مجاهد قال ابليس جعل لنا اربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصمه الله تعالى (انا جعلنا الشياطين اولياء) يعني اعوانا وقرناء (للذين لا يؤمنون) قال الزجاج يعني سلطناهم عليهم يزيدون في غيهم * قوله عز وجل (واذا فعلوا فاحشة) قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد هي طوافهم بالبيت عراة الرجال والنساء وقال عطاء هي الشرك والفاحشة اسم لكل فعل قبيح فيدخل فيه جميع المعاصي والكبائر فيمكن حملها على الاطلاق وان كان السبب مخصوصا بما ورد من طوافهم عراة ولما كانت هذه الافعال التي كان اهل الجاهلية يفعلونها ويعتقدون انها طاعات وهي في نفسها فواحش ذمهم الله تعالى عليها ونهاهم عنها فاحتجوا عن هذه الافعال بما اخبر الله عنهم وهو * قوله تعالى (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها) فذكروا لانفسهم عذرين احدهما محض التقليد وهو قولهم وجدنا على هذا الفعل آباءنا وهذا التقليد باطل لانه لا اصل له والعذر الثاني قولهم

وامامن خلفه فبان يخوفه من الفقر وضيعة الاولاد من خلفه فيحرضه على الجمع والادخار لهم ولنفسه في المستقبل عند تأميله طول العمر واما من جهة اليمين فبأن يزين عليه فضائله ويعجبه بفضله وعلمه وطاعته ويحجبه عن الله رؤية تفضيله واما عن شماله فبأن يحمله على المعاصي والمقابح ويدعوه الى الشهوات واللذات (ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين) مستعملين لقواهم وجوارحهم وما انعم الله به عليهم في طريق الطاعة والتقرب الى الله (قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم) الطبيعة التي هي اسفل مراتب الوجود (منكم اجمعين) محجوبين عن لذة النعيم الابدي وذوق البقاء السرمدي والكمالات الروحانية والكمالات الحقانية معذبين بنيران الحرمان عن المراد في انقلابات عالم التضاد وتقلبات الكون

والله امرنا بها وهذا العذر ايضا باطل وقد اجاب الله تعالى عنه بقوله (قل ان الله لا يأمر بالفحشاء) والمعنى ان هذه الافعال التي كان اهل الجاهلية يفعلونها هي في انفسها قبيحة منكرة فكيف يأمر الله تعالى بها والله لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بما فيه مصالح العباد ثم قال تعالى رداعليهم (اتقولون على الله مالا تعلمون) يعني انكم ماسمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة ولا اخذتموه عن الانبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ اوامره ونواهيه واحكامه لانكم تنكرون نبوة الانبياء فكيف تقولون على الله مالا تعلمون * قوله تعالى (قل امر ربي بالقسط) اي قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون على الله مالا يعلمون امر ربي بالقسط يعني بالعدل وهذا قول مجاهد والسدي وقال ابن عباس رضي الله عنهما بلا اله الا الله فالامر بالقسط في هذه الآية يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وافعاله وانه واحد لا شريك له (واقيموا وجوهكم عند كل مسجد) فان قلت قل امر ربي بالقسط خبر وقوله واقيموا وجوهكم عند كل مسجد امر وعطف الامر على الخبر لا يجوز فما معناه * قلت فيه اضمار وحذف تقديره قل امر ربي بالقسط وقال واقيموا وجوهكم عند كل مسجد فحذف قال لدلالة الكلام عليه ومعنى الآية في قول مجاهد والسدي وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة الى الكعبة وقال الضحاك معناه اذا حضرت الصلاة وانتم عند المسجد فصلوا فيه ولا يقولن احدكم اصلي في مسجدي او في مسجد قومي وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصا (وادعوه مخلصين له الدين) اي واعبدوه مخلصين العبادة والطاعة والدعاء لله عز وجل لا لغيره (كما بدأكم تعودون) قال ابن عباس رضي الله عنهما ان الله عز وجل بدا خلق بني آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدا خلقهم مؤمنا وكافرا وحجة هذا القول قوله في سياق الآية فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة فانه كالتفسير له ويدل على صحة ذلك ماروي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث كل عبد على مامات عليه اخرجه مسلم زاد البغوي في روايته المؤمن على ايمانه والكافر على كفره وقال محمد بن كعب من ابتدا الله خلقه على الشقاوة صار الى ما ابتدى عليه خلقه وان عمل باعمال اهل السعادة كما ان ابليس كان يعمل بعمل اهل السعادة ثم صار الى الشقاوة ومن ابتدئ خلقه على السعادة صار اليها وان عمل باعمال اهل الشقاوة كما ان السحرة كانوا يعملون بعمل اهل الشقاوة ثم صاروا الى السعادة ويصحح هذا القول ماروي عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل اهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل اهل النار وان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل اهل النار ثم يختم له عمله بعمل اهل الجنة اخرجه مسلم وقال الحسن ومجاهد في معنى الآية كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيأ فاحيا كم ثم يميتكم كذلك تعودون احياء يوم القيامة ويشهد لصحة هذا القول ماروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون الى الله عز وجل حفاة عراة غزلا كما بدانا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين اخرجه البخاري ومسلم * وقوله تعالى (فريقا هدى) يعني هداهم الله الى الايمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته (وفريقا حق عليهم الضلالة) يعني وخذل فريقا حتى وجبت عليهم الضلالة السابقة التي سبقت لهم في الازل بأنهم اشقياء وفيه دليل على ان الهدى والضلالة من الله

والساد (ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ماووري عنهما من سوآتهما) اي ليظهر عليهما بالميل الى الطبيعة ماحجب عنهما عند التجرد من الامور الطبيعية واللذات البدنية والرذائل الخلقية والافعال الحيوانية والصفات السبعية والبهيمية التي يستحيي الانسان من اظهارها ويستحيي من افشائها وتحمله المروة على اخفائها لكونها عورات عند العقل يأنف منها ويستقبحها (وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين) اي اوهمهما ان في الاتصال بالطبيعة الجسمانية والمادة الهيولانية لذات ملكية وادراكات وافعالا وخلودا فيها او ملكا ورياسة على القوى وسائر الحيوانات دائما بغير زوال ان قرئ ملكين بكسر اللام كما قال هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وزين لها

عز وجل ولما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن اصابه من ذلك النور اهتدى ومن اخطأه ضل اخرجه الترمذى * وقوله تعالى (انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله) يعنى ان الفريق الذين حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء واعوانا اطاعوهم فيما امروهم به من الكفر والمعاصى والمعنى ان الداعى الذى دعاهم الى الكفر والمعاصى هو انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله لان الشياطين لايقدرون على اضلال احد وقوله (ويحسبون انهم مهتدون) يعنى انهم مع ضلالتهم يظنون ويحسبون انهم على هداية وحق وفيه دليل على ان الكافر الذى يظن انه فى دينه على الحق والجاحد والمعاند فى الكفر سواء * قوله عز وجل (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة فتقول من

يعيرنى تطوافا تجعله على فرجها وهى تقول اليوم يبدو بعضه او كله * وما بدا منه فلا احله

فنزلت هذه الآية خذوا زينتكم عند كل مسجد اخرجه مسلم وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل وذكر الحديث زاد فى رواية اخرى عنه فأمرهم الله تعالى ان يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا وقال مجاهد كان حى من اهل اليمن كان احدهم اذا قدم حاجا او معتمرا يقول لا ينبغى لى ان اطوف فى ثوب قد عصيت فيه فيقول من يعيرنى مئزرا فان قدر عليه والا طاف عريانا فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون خذوا زينتكم عند كل مسجد وقال الزهرى ان العرب كانت تطوف بالبيت عراة الا الحمس وهم قريش واحلافهم فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه وطاف فى ثوب احمسى ويرى انه لا يحل له ان يلبس ثيابه فان لم يجد من يعيره من الحمس فانه يلقى ثيابه ويطوف عريانا وان طاف فى ثياب نفسه القاها اذا قضى طوافه وحرمها اى جعلها حراما عليه فلذلك قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد والمراد من الزينة لبس الثياب التى تستر العورة قال مجاهد ما يوارى عوراتكم ولو عباءة وقال الكلبى الزينة ما يوارى العورة عند كل مسجد كطواف وصلاة وقوله تعالى خذوا زينتكم امر وظاهره الوجوب وفيه دليل على ان ستر العورة واجب فى الصلاة والطواف وفى كل حال * وقوله تعالى (وكلوا واشربوا) قال الكلبى كانت بنو عامر لا يأكلون فى ايام حجهم الا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن احق ان نفعل ذلك يارسول الله فأنزل الله عز وجل وكلوا واشربوا يعنى الدسم واللحم (ولا تسرفوا) يعنى بتحريم مالم يحرمه الله من اكل اللحم والدسم قال ابن عباس رضى الله عنهما كل ماشئت واشرب ماشئت والبس ماشئت ما اخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال على بن الحسين بن واقد قد جمع الله الطب كله فى نصف آية فقال وكلوا واشربوا ولا تسرفوا وفى الآية دليل على ان جميع المطعومات والمشروبات حلال الا ما خصه الشرع بدليل فى التحريم لان الاصل فى جميع الاشياء الاباحة الا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل منفصل (انه لا يحب المسرفين) يعنى ان الله تعالى لا يحب من اسرف فى المأكول والمشروب والملبوس وفى هذه الآية وعيد وتهديد لمن اسرف فى هذه الاشياء لان محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وايصال الثواب اليه واذا لم يحبه علم انه تعالى ليس هو راض عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد فى الاسراف * قوله تعالى (قل من حرم زينة الله

من المصالح الجزئية والزخارف الحسية التى لاتنال الا بالالات البدنية فى صورة الناصح الامين (او تكونا من الخالدين وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما) اى فنزلهما الى التعلق بها والسكون اليها بما غرهما من التزيى بزى الناصحين وافادة توهم دوام اللذات البدنية والرياسة الانسية وسوّلهما من المنافع البدنية والشهوات النفسية (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) اى يكتمان الغواشى الطبيعية بالآداب الحسنة والعادات الجميلة التى هى من تفاريع الآراء العقلية ومستنبطات القوة العاقلة العملية ويخفيانها بالحيل العلية (وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما) صورة النهى هو ما ركز فى العقول من الميل الى التجرد وادراك المعقولات والتجافى عن المواد والمحسوسات وقوله لهما (ان الشيطان لكما عدو مبين) ما الهم العقل

اخرج لعباده) يعنى قل يامحمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم عليكم زينة الله التى خلقها لعباده ان تتزينوا بها وتلبسوها فى الطواف وغيره * ثم فى تفسير الزينة قولان * احدهما وهو قول جمهور المفسرين ان المراد من الزينة هنا اللباس الذى يستر العورة * والقول الثانى ذكره الامام فخر الدين الرازى انه يتناول جميع انواع الزينة فيدخل تحته جميع انواع الملبوس والحلى ولولا ان النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلوا فى هذا العموم ولكن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال دون النساء (والطيبات من الرزق) يعنى ومن حرم الطيبات من الرزق التى اخرجها الله لعباده وخلقها لهم ثم ذكروا فى معنى الطيبات فى هذه الآية اقوالا احدها ان المراد بالطيبات اللحم والدسم الذى كانوا يحرمونه على انفسهم ايام الحج يعظمون بذلك حجهم فرده الله تعالى عليهم بقوله قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق والقول الثانى وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقتادة ان المراد بذلك ما كان اهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب قال ابن عباس رضى الله عنهما ان اهل الجاهلية كانوا يحرمون اشياء احلها الله تعالى من الزرع وغيرها وهو قول الله تعالى قل ارايتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وهو هذا وانزل الله قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق والقول الثالث ان الآية على العموم فيدخل تحته كل مايستلذ ويشتهى من سائر المطعومات الا مانهى عنه وورد نص بتحريمه (قل هى للذين آمنوا) يعنى قل يامحمد ان الطيبات التى اخرج الله من رزقه للذين آمنوا (فى الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لانه يشركهم فيها المشركون (خالصة) لهم (يوم القيامة) يعنى لايشركهم فيها احد لانه لاحظ للمشركين يوم القيامة فى الطيبات من الرزق وقيل معناه خالصة لهم يوم القيامة من التكدير والتنغيص والاثم لانه قديقع لهم فى الحياة الدنيا فى تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص فأعلمهم انها خالصة لهم فى الآخرة من ذلك كله (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى كذلك نبين الحلال مما احللت والحرام مما حرمت لقوم علموا انى انا الله وحدى لاشريك لى فأحلوا حلالى وحرموا حرامى * قوله عز وجل (قل انما حرم ربى الفواحش) جمع فاحشة وهى ماقبح وفحش من قول اوفعل والمعنى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب ويطوفون بالبيت عراة ويحرمون اكل الطيبات مما احل الله لهم ان الله لم يحرم ماتحرمونه انتم بل احله الله لعباده وطيبه لهم وانما حرم ربى الفواحش من الافعال والاقوال (ماظهر منها وما بطن) يعنى علانيته وسره (ق) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا احد اغير من الله من اجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا احد احب اليه المدح من الله من اجل ذلك مدح نفسه اصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة فيما يختص به الانسان ومنه غيرة احد الزوجين على الآخر لاختصاص كل واحد منهما بصاحبه ولا يرضى ان يشاركه احد فيه فلذلك يذب عنه ويمنعه من غيره واما الغيرة فى وصف الله تعالى فهو منعه من ذلك وتحريمه له ويدل على ذلك قوله ومن غيرته حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن وقد يحتمل ان تكون غيرته تغيير حال فاعل ذلك بعقاب والله اعلم * وقوله تعالى (والاثم) يعنى وحرم الاثم واختلفوا فى الفرق بين الفاحشة

من منا فاذا حكام الوهم ومضادة مدركاته والوقوف على مخالفاته ومكابراته اياه ونداؤه اياهما بذلك هو التنبيه على ذلك المعنى على سبيل الخاطر والتذكير له بعد التعلق والانغمار فى اللذات الطبيعية عند البلوغ وظهور انوار العقل والفهم عليهما وقولهما (قالا ربنا ظلمنا انفسنا) هو تنبه النفس الناطقة على نقصانها من جهة الطبيعة وانطفاء نورها وانكسار قوتها وحصول الداعى فيها على طلب الكمال بالتجرد (وان لم تغفر لنا) بالباسنا الانوار الروحانية وافاضتها مشرقة علينا (وترحمنا) بافاضة المعارف الحقيقية (لنكونن من الخاسرين) الذين اتلفوا الاستعداد الاصلى الذى هو مادة السعادة والبقاء بصرفها فى دار الفناء وحرموا عن الكمال التجردى بملازمة النقص الطبيعى (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين قال فيها

والاثم فقيل الفواحش الكبائر لانه قد تفاحش قبحها وتزايد والاثم عبارة عن الصغائر من الذنوب فعلى هذا يكون معنى الآية قل انما حرم ربى الكبائر والصغائر وقيل الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والاثم اسم لما لا يجب فيه الحد وهذا القول قريب من الاول واعترض على هذين القولين بان الاثم فى اصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر وقيل ان الفاحشة اسم للكبيرة والاثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيرا او صغيرا والفائدة فيه ان يقال لما حرم الله الكبيرة بقوله قل انما حرم ربى الفواحش اردفه بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم متوهم ان التحريم مقصور على الكبائر فقط وقيل ان الفاحشة وان كانت بحسب اللغة اسما لكل ما تفاحش من قول او فعل لكنه قد صار فى العرف مخصوصا بالزنا لانه اذا اطلق لفظ الفاحشة لم يفهم منه الا ذاك فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا واما الاثم فقد قيل انه اسم من اسماء الخمر وهو قول الحسن وعطاء قال الجوهرى وقد تسمى الخمر اثما واستدل عليه بقول الشاعر

شربت الاثم حتى ضل عقلى * كذاك الاثم يذهب بالعقول

وقال ابن سيده صاحب المحكم وعندى ان تسمية الخمر بالاثم صحيح لان شربها اثم وبهذا المعنى يظهر الفرق بين اللفظين وانكر ابو بكر بن الانبارى تسمية الخمر بالاثم قال لان العرب ما سمته اثما قط فى جاهلية ولا فى اسلام ولكن قد يكون الخمر داخلا تحت الاثم لقوله قل فيهما اثم كبير * وقوله تعالى (والبغى) اى وحرم البغى (بغير الحق) والبغى هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس ومجاوزة الحد فى ذلك كله ومعنى البغى بغير الحق هو ان يطلب ما ليس له بحق فاذا طلب ماله بحق فقد خرج من ان يكون بغيا (وان تشركوا) اى وحرم ان تشركوا (بالله ما لم ينزل به سلطانا) هذا فيه تهكم بالمشركين والكفار لانه لا يجوز ان ينزل حجة وبرهانا بان يشرك به غيره لان الاقرار بشئ ليس على ثبوته حجة ولا برهان ممتنع فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك وجب ان يكون باطلا على الاطلاق * فان قلت البغى والاشراك داخلان تحت الفاحشة والاثم لان الشرك من اعظم الفواحش واعظم الاثم وكذا البغى ايضا من الفواحش والاثم * قلت انما افردهما بالذكر للتنبيه على عظم قبحهما كأنه قال من الفواحش المحرمة البغى والشرك فكأنه بين جملته ثم تفصيله وقوله (وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) تقدم تفسيره * قوله تعالى (ولكل أمة أجل) الاجل الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة ثم فى هذا الاجل المذكور فى الآية قولان احدهما انه اجل العذاب والمعنى ان لكل امة كذبت رسلها وقتا معينا واجلا مسمى امهلهم الله الى ذلك الوقت (فاذا جاء اجلهم) يعنى فاذا حل وقت عذابهم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا اقل من ساعة وانما ذكرت الساعة لانها اقل اسماء الاوقات فى العرف وهذا حين سألوا نزول العذاب فاخبرهم الله تعالى ان لهم وقتا اذا جاء ذلك الوقت وهو وقت اهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون والقول الثانى ان المراد بهذا الاجل هو اجل الحياة والعمر فاذا انقضى ذلك الاجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة وعلى هذا القول يلزم ان يكون لكل واحد اجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير وانما قال تعالى لكل امة لتقارب اعمار اهل كل عصر فكأنهم كالواحد فى مقدار العمر وعلى هذا القول ايضا يكون المقتول ميتا بأجله خلافا لمن يقول القاتل قطع عليه اجله * قوله عز وجل (يا بنى آدم اما يأتينكم

تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يابنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم) اى شريعة تستر قبائح أوصافكم وفواحش افعالكم (وريشا) اى جمالا يبعدكم عن شبه الانعام المهملة ويزينكم بالاخلاق الحسنة والاعمال الجميلة (ولباس التقوى) اى صفة الورع والحذر من صفة النفس (ذلك خير) من جملة اركان الشرائع لانه أصل الدين وأساسه كالحمية فى العلاج (ذلك من آيات الله) أى من أنوار صفاته اذ الاجتناب عن صفات النفس لا يحصل ولا يتيسر الا بظهور تجليات صفات الحق والى هذا أشار القوم بقولهم ان الله لا يتصرف فى شئ من العبد الا ويعوضه احسن منه من جنسه (لعلهم يذكرون) عند ظهور تجليات لباسكم النورى الاصلى جوار الحق الذى كنتم تسكنون فيه بهداية انوار الصفات (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان) عن دخول الجنة وملازمتها بنزع لباس الشريعة

رسل منكم) هي ان الشرطية ضمت اليها ما مؤكدة لمعنى الشرط وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء وهو قوله فمن اتقى واصلح يعنى منكم وانما قال رسل بلفظ الجمع وان كان المراد به واحدا وهو النبي صلى الله عليه وسلم لانه خاتم الانبياء وهو مرسل الى كافة الخلق فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم فعلى هذا يكون الخطاب فى قوله يابنى آدم لاهل مكة ومن يلحق بهم وقيل اراد جميع الرسل وعلى هذا فالخطاب فى قوله يابنى آدم عام فى كل بنى آدم وانما قال منكم يعنى من جنسكم ومثلكم من بنى آدم لان الرسول اذا كان من جنسهم كان اقطع لعذرهم واثبت للحجة عليهم لانهم يعرفونه ويعرفون احواله فاذا اتاهم بما لا يليق بقدرته اوبقدرة امثاله علم ان ذلك الذى اتى به معجزة له وحجة على من خالفه (يقصون عليكم آياتى) يعنى يقرؤن عليكم كتابى وادلة احكامى وشرائعى التى شرعت لعبادى (فمن اتقى) يعنى فمن اتقى الشرك ومخالفة رسلى (واصلح) يعنى العمل الذى امرته به رسلى فعمل بطاعتى وتجنب معصيتى ومانهيته عنه (فلا خوف عليهم) يعنى حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب (ولا هم يحزنون) يعنى على مافاتهم من دنياهم التى تركوها (والذين كذبوا بآياتنا) يعنى ومن جحدوا آياتنا وكذبوا رسلنا (واستكبروا عنها) يعنى واستكبروا عن الايمان بها وما جاءت به رسلنا (اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى لا يخرجون منها ابدا ❊ قوله تعالى (فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى فمن اعظم ظلما ممن يقول على الله مالم يقله او يجعل له شريكا من خلقه وهو منزه عن الشريك والولد (او كذب بآياته) يعنى او كذب بالقرآن الذى انزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يعنى ينالهم حظهم مما قدر لهم وكتب فى اللوح المحفوظ واختلفوا فى ذلك النصيب على قولين احدهما ان المراد به هو العذاب المعين لهم فى الكتاب ثم اختلفوا فيه فقال الحسن والسدى ما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون وقال ابن عباس فى رواية عنه كتب لمن يفترى على الله كذبا ان وجهه اسود وقال الزجاج هو المذكور فى قوله فأنذرتكم نارا تلظى وفى قوله اذ الاغلال فى اعناقهم فهذه الاشياء هى نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم فى كفرهم والقول الثانى ان المراد بالنصيب المذكور فى الكتاب هو شئ سوى العذاب ثم اختلفوا فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية اخرى عنه وعن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية فى قوله ينالهم نصيبهم من الكتاب قالوا هو السعادة والشقاوة وقال ابن عباس ما كتب عليهم من الاعمال وقال فى رواية اخرى عنه من عمل خيرا جوزى به ومن عمل شرا جوزى به وقال قتادة جزاء اعمالهم التى عملوها وقيل معنى ذلك ينالهم نصيبهم مما وعدوا فى الكتاب من خير او شر قاله مجاهد والضحاك وهو رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما ايضا وقال الربيع بن انس ينالهم ما كتب لهم فى الكتاب من الرزق وقال محمد بن كعب القرظى عمله ورزقه وعمره وقال ابن زيد ينالهم نصيبهم من الكتاب من الاعمال والارزاق والاعمار فاذا فرغ هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم وصحح الطبرى هذا القول الآخر وقال لان الله تعالى اتبع ذلك بقوله حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم فابان ان الذى ينالهم هو ما قدر لهم فى الدنيا فاذا فرغ توفتهم رسل ربهم قال الامام فخر الدين رحمه الله تعالى وانما حصل الاختلاف لان لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه وقال بعض المحققين حمله على العمر والرزق اولى لانه تعالى بين انهم وان بلغوا فى الكفر ذلك المبلغ العظيم فانه ليس بمانع ان ينالهم ما كتب لهم من رزق

والقوى عنكم (كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربى بالقسط) منها بنزع اللباس الفطرى النورى (قل امر ربى بالقسط) اى العدالة والاستقامة (واقيموا وجوهكم) ذواتكم الموجودة بمنعها عن الميل والزيغ الى طرفى الافراط والتفريط فى العدالة وعن التلونات فى الاستقامة (عند كل مسجد) اى كل مقام سجود اووقت سجود والسجود اربعة اقسام سجود الانقياد والطاعة واقامة الوجود فيه بالاخلاص والاجتناب عن الرياء والنفاق فى العمل لله والالتفات الى الغير فيه ومراعاة موافقة الامر مع

وعمر تفضلا من الله سبحانه وتعالى لكي يصلحوا ويتوبوا * قوله تعالى (حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم)
يعني حتى اذا جاءت هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب رسلنا يعني ملك الموت واعوانه لقبض
ارواحهم عند استكمال اعمارهم وارزاقهم لان لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى (قالوا) يعني قال الرسل
وهم الملائكة للكفار (اينما كنتم تدعون من دون الله) وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت
لا سؤال استعلام والمعنى اين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم
وقيل ان هذا يكون في الآخرة والمعنى حتى اذا جاءتهم رسلنا يعني ملائكة العذاب يتوفونهم يعني
يستوفون عددهم عند حشرهم الى النار قالوا اينما كنتم تدعون يعني شركاء واولياء تعبدونهم
من دون الله فادعوهم ليدفعوا عنكم ما جاءكم من امر الله (قالوا) يعني الكفار مجيبين للرسل
(ضلوا عنا) يعني بطلوا وذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا اليهم فلم ينفعونا (وشهدوا على انفسهم انهم كانوا
كافرين) يقول الله تعالى وشهد هؤلاء الكفار عند معاينة العذاب انهم كانوا جاحدين وحدانية الله
واعترفوا على انفسهم بذلك * قوله عز وجل (قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن
والانس) يقول الله عز وجل يوم القيامة لمن افترى عليه كذب وجعل له شريكا من خلقه ادخلوا
في امم يعني في جملة امة قد خلت يعني قد مضت وسلفت وانما قال قد خلت ولم يقل قد خلوا لانه اطلق
الضمير على الجماعة يعني في جملة جماعة قد خلت من قبلكم من الجن والانس (في النار) اي
ادخلوا جميعا في النار التي هي مستقركم ومأواكم وانما عني بالامم الجماعات والاحزاب واهل الملل
الكافرة من الجن والانس (كلما دخلت امة) يعني كلما دخلت جماعة النار (لعنت اختها) يعني
كلما دخلت امة النار لعنت اختها من اهل ملتها في الدين لا في النسب قال السدي كلما دخلت اهل ملة
النار لعنوا اصحابهم على ذلك الدين فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى
والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الاولى (حتى اذا اداركوا) يعني تداركوا
وتلاحقوا (فيها جميعا) يعني تلاحقوا واجتمعوا في النار جميعا وادرك بعضهم بعضا واستقروا
في النار (قالت اخراهم لاولاهم) قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني قال آخر كل امة لاولها وقال
السدي قالت اخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لاولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين وقال مقاتل
يعني قال آخرهم دخولا النار وهم الاتباع لاولهم دخولا وهم القادة لان القادة يدخلون النار
اولا (ربنا هؤلاء اضلونا) يعني تقول الاتباع ربنا هؤلاء القادة والرؤساء اضلونا عن الهدى
وزينوا لنا طاعة الشيطان وقيل انما قال المتأخرون ذلك لانهم كانوا يعتقدون تعظيم المتقدمين من
اسلافهم فسلكوا سبيلهم في الضلالة واتبعوا طريقهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلالة فلما
كان يوم القيامة وتبين لهم فساد ما كانوا عليه قالوا ربنا هؤلاء اضلونا لانا اتبعنا سبيلهم (فآتهم عذابا
ضعفا من النار) اي اضعف عليهم العذاب قال ابو عبيدة الضعف هو مثل الشيء مرة واحدة قال
الازهري والذي قاله ابو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاز كلامهم واما كتاب الله فهو عربي
مبين فيرد تفسيره الى موضوع كلام العرب والضعف في كلامهم ما زاد وليس بمقصور على مثلين
وجائز في كلام العرب هذا ضعفه اي مثلاه وثلاثة امثاله لان الضعف في الاصل زيادة غير
محصورة واولى الاشياء به بجعل عشرة امثاله فاقل الضعف محصور وهو المثل واكثره غير محصور
وقال الزجاج في تفسير هذه الآية فآتهم عذابا ضعفا اي مضاعفا لان الضعف في كلام العرب على

صدق النية والامتناع
عن المخالفة في جميع الامور
وهي العدالة ووجود الفناء
في الافعال واقامة الوجه
فيه بالقيامة بحقه بحيث
لا يرى مؤثرا غير الله ولا
يرى مؤثرا من نفسه ولا من
غيره ووجود الفناء في الصفات
واقامة الوجه عنده بالمحافظة
على شرائطه بحيث لا يرى
زينة ذاته بها ولا يريد ولا
يكره شيأ من غيران يميل
الى الافراط بترك الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر
ولا الى التفريط بالسخط
على المخالف ووجود الفناء
في الذات واقامة الوجه
عنده بالتبية عن البقية
والانطماس بالكلية والامتناع
عن اثبات الانية والاثنينية
فلا يطغى بحجاب الانانية
ولا يتزندق بالاباحة وترك
الطاعة (وادعوه مخلصين
له الدين) في المقام الاول
بتخصيص العمل لله به
وفي الثاني والثالث برؤية
الدين والطاعة من الله
وفي الرابع برؤية بالله فيكون
الله هو المتدين بدينه ليس

ضربين * احدهما المثل والآخر ان يكون في معنى تضعيف الشيء اي زيادته (قال) يعني قال الله تعالى (لكل ضعف) يعني لاولا كم ضعف ولاخرا كم ضعف وقيل معناه للتابع ضعف وللتبوع ضعف لانهم قد دخلوا في الكفر جميعا (ولكن لاتعلمون) يعني ما اعدالله لكل فريق من العذاب وقرئ بالياء ومعناه ولكن لايعلم كل فريق ما اعدالله تعالى من العذاب للفريق الآخر (وقالت اولاهم) يعني في الكفر وهم القادة (لاخراهم) يعني الاتباع (فما كان لكم علينا من فضل) يعني قد ضللتم كما ضللنا وكفرتم كما كفرنا وقيل في معنى الآية وقالت كل امة سلفت في الدنيا لاخراها الذين جاؤا من بعدهم فسلكوا سبيل من مضى قبلهم فما كان لكم علينا من فضل وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله بسبب كفرنا ومعصيتنا اياه وجاءتكم بذلك الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم (فذوقوا العذاب) وهذا يحتمل ان يكون من قول القادة للاتباع والامة الاولى للاخرى التي بعدها ويحتمل ان يكون من قول الله تعالى يعني يقول الله للجميع فذوقوا العذاب (بما كنتم تكسبون) يعني بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والاعمال الخبيثة * قوله عز وجل (ان الذين كذبوا بآياتنا) يعني كذبوا بدلائل التوحيد فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا (واستكبروا عنها) اي وتكبروا عن الايمان بها والتصديق لها وانفوا عن اتباعها والانقياد لها والعمل بمقتضاها تكبرا (لا تفتح لهم ابواب السماء) يعني لاتفتح لارواحهم اذا خرجت من اجسادهم ولا يصعد لهم الى الله عز وجل في وقت حياتهم قول ولا عمل لان ارواحهم واقوالهم واعمالهم كلها خبيثة وانما يصعد الى الله تعالى الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تفتح ابواب السماء لارواح الكفار وتفتح لارواح المؤمنين وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما ايضا قال لا يصعد لهم قول ولا عمل وقال ابن جريج لاتفتح ابواب السماء لاعمالهم ولا لارواحهم وروى الطبري بسنده عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر وانه يصعد بها الى السماء قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة قال فيقولون فلان باقبح اسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا حتى ينتهوا بها الى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وقيل في معنى الآية لاتنزل عليهم البركة والخير لان ذلك لا ينزل الا من السماء فاذا لم تفتح لهم ابواب السماء فلا ينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شيء * وقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الولوج الدخول والجمل معروف وهو الذكر من الابل وسم الخياط ثقب الابرة قال الفراء الخياط والمخيط ما يخاط به والمراد به الابرة في هذه الآية وانما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لانه اكبر من سائر الحيوانات جسما عند العرب قال الشاعر * جسم الجمال واحلام العصافير * وصف من هجاه بهذا بعظم الجسم مع صغر العقل فجسم الجمل من اعظم الاجسام وثقب الابرة من اضيق المنافذ فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الابرة الضيق محالا فكذلك دخول الكفار الجنة محال ولما وصف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان وقوع هذا الشرط محالا ثبت ان الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار ان دخول الكفار الجنة مأيوس منه قطعا وقال بعض اهل المعاني لما علق الله تعالى دخولهم الجنة بولوج الجمل في سم الخياط وهو خرق الابرة كان ذلك نفيا لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك

لغيره فيه نصيب (كما بدأكم) باظهاركم واختفائه (تعودون) بفنائكم فيه واختفائكم لظهوره (فريقا هدى) اليهم بهذا الطريق (وفريقا حق عليهم) كلمة (الضلالة انهم اتخذوا الشياطين) بسبب اتخاذهم شياطين القوى النفسانية الوهمية والتخيلية (اولياء من دون الله) لمناسبة ذواتهم في الظلمة والكدورة والبعد عن معدن النور اياهم والجنسية التي بينهم في الركون الى الجهة السفلية والميل الى الزخارف الطبيعية (ويحسبون انهم مهتدون) لان سلطان الوهم بالحسبان (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) اي لازموها وتمسكوا بها فزينة المقام الاول من السجود هي الاخلاص في العمل لله وزينة المقام الثاني هي التوكل ومراعاة قدرته وزينة المقام الثالث هي القيام بحق الرضا وزينة المقام الرابع هي التمكين في الصدق

لان العرب اذا علقت مايجوز كونه بمالايجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض القار ومنه قول الشاعر

اذا شاب الغراب اتيت اهلى * وصار القار كاللبن الحليب

* قوله تعالى (وكذلك نجزى المجرمين) اى ومثل الذى وصفنا نجزى المجرمين يعنى الكافرين لانه تقدم من صفتهم انهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على انهم الكفار ولما بين الله عزوجل ان الكفار لايدخلون الجنة ابدا بين انهم من اهل النار ووصف ما اعدّ لهم فيها فقال تعالى (لهم من جهنم مهاد) يعنى لهم من نار جهنم فراش واصل المهاد الممهد الذى يقعد عليه ويضطجع عليه كالفراش والبساط (ومن فوقهم غواش) جمع غاشية وهى الغطاء كاللحاف ونحوه ومعنى الآية ان النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم قال محمد بن كعب القرظى والضحاك والسدى المهاد الفراش والغواشى اللحف (وكذلك نجزى الظالمين) يعنى وكذلك نكافى ونجازى المشركين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها * قوله عزوجل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا الاوسعها) لما ذكر الله تعالى وعيد الكافرين وما اعدّ لهم فى الآخرة اتبعه بذكر وعد المؤمنين وما اعدّ لهم فى الآخرة فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات يعنى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله اليه وتنزيله عليه من شرائع دينه وعملوا بما امرهم به واطاعوه فى ذلك وتجنبوا مانهاهم عنه لانكلف نفسا الاوسعها يعنى لانكلف نفسا الامايسعها من الاعمال ومايسهل عليها ويدخل فى طوقها وقدرتها وما لاحرج فيه عليها ولاضيق قال الزجاج الوسع مايقدر عليه وقال مجاهد معناه الا ماافترض عليها يعنى الذى افترض عليها من وسعها الذى تقدر عليه ولاتعجز عنه وقد غلط من قال ان الوسع بذل المجهود قال اكثر اصحاب المعانى ان قوله تعالى لانكلف نفسا الا وسعها اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا عملوا الصالحات (اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون) لانكلف نفسا الاوسعها وانما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر لانه من جنس هذا الكلام لانه تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكر ان ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على ان الجنة مع عظم قدرها ومحلها يتوصل اليها بالعمل الصالح السهل من غير تحمل كلفة ولامشقة صعبة وقال قوم من اصحاب المعانى هو من تمام الخبر وموضعه رفع والعائد محذوف كأنه قال لانكلف نفسا منهم الاوسعها فحذف العائد للعلم به * قوله تعالى (ونزعنا مافى صدورهم من غلّ) يعنى وقلعنا واخرجنا مافى صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم فى الدنيا ومعنى الآية ازلنا تلك الاحقاد التى كانت لبعضهم على بعض فى الدنيا فجعلناهم اخوانا على سرر متقابلين لايحسد بعضهم بعضا على شئ خص الله به بعضهم دون بعض ومعنى نزع الغلّ تصفية الطباع واسقاط الوساوس ودفعها عن ان ترد على القلب روى عن على رضى الله عنه قال فينا والله اهل بدر نزلت ونزعنا مافى صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين وروى عنه ايضا انه قال انى لارجو ان اكون انا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ونزعنا مافى صدورهم من غلّ وقيل ان الحسد والغلّ يزول بدخولهم الجنة (خ) عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالحقيقة الحقة ومراعاة حقوق الاستقامة وشرائطها (وكلوا واشربوا ولاتسرفوا انه لايحب المسرفين) بالمحافظة على قانون العدالة فيها (قل من حرّم زينة الله التى اخرج لعباده) اى من منعهم من جنس هذه الزينة المذكورة المطلقة وقال انه لايمكنهم التزين بها واستحال ذلك منهم تمسكا بان الله مانعهم (والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحيوة الدنيا) من رزق علوم الاخلاص وعلوم مقام التوكل والرضا والتمكين (خالصة يوم القيمة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) عن شوب التلوينات وظهور شئ من بقايا الافعال والصفات والذات (قل انما حرّم ربى الفواحش وماظهر منها ومابطن) اى رذائل القوّة البهيمية (والاثم والبغى) اى رذائل القوّة السبعية (بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا وان تقولوا على الله مالاتعلمون) اى رذائل القوّة

يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا اذن الله لهم في دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لاحدهم اهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا وقال السدى في هذه الآية ان اهل الجنة اذا سبقوا الى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة في اصل ساقها عينان فشربوا من احداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الاخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولكن يشحنوا بعدها ابدا وقيل ان درجات اهل الجنة متفاوتة في العلو والكمال فبعض اهل الجنة اعلى من بعض واخرج الله عز وجل الغل والحسد من صدورهم وازاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب العالية واورد على هذا القول كيف يعقل ان الانسان يرى الدرجات العالية والنعم العظيمة وهو محبوس عنها لا يصل اليها ولا يميل بطمعه اليها ولا يغتم بسبب حرمانه منها وان كان في لذة ونعيم واجيب عن هذا بان الله تعالى قد وعد بازالة الحقد والحسد من قلوب اهل الجنة حتى تكمل لهم اللذة والسرور حتى ان احدهم لا يرى نفسه الا في كمال وزيادة في النعيم الذى هو فيه فيرضى بما هو فيه ولا يحسد احدا ابدا وبهذا تم نعيمه ولذته وكمل سروره وبهجته ✱ وقوله تعالى ﴿ تجرى من تحتهم الانهار ﴾ لما اخبر الله تعالى بما انعم به على اهل الجنة من ازالة الغل والحسد والحقد من صدورهم اخبر بما انعم به عليهم من اللذات والخيرات والمسرات ﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ﴾ يعنى ان المؤمنين اذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى وفقنا وارشدنا للعمل الذى هذا ثوابه وتفضل علينا به رحمة منه واحسانا وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك ﴿ وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ﴾ يعنى وما كنا لنرشد لذلك العمل الذى هذا ثوابه لولا انه ارشدنا الله اليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه وفى الآية دليل على ان المهتدى من هداه الله ومن لم يهده الله فليس بمهتد ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ يعنى ان اهل النعيم اذا دخلوها ورأوا ما اعد الله لهم فيها من النعيم قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق يعنى انهم رأوا ما وعدهم به الرسل عيانا ﴿ ونودوا ان تلكم الجنة ﴾ يعنى ونادى مناد يا اهل الجنة ان هذه الجنة التى كانت الرسل وعدتكم بها فى الدنيا واختلفوا فى المنادى فقيل هو الله عز وجل وقيل الملائكة ينادون بامر الله عز وجل وقيل هذا النداء يكون فى الجنة (م) عن ابى سعيد الخدرى وابى هريرة رضى الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد ان لكم ان تحيوا فلا تموتوا ابدا وان لكم ان تصحوا فلا تسقموا ابدا وان لكم ان تشبوا فلا تهرموا ابدا وان لكم ان تنعموا فلا تيأسوا ابدا فذلك قوله عز وجل ونودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعلمون وقوله تعالى ﴿ اورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ روى ابو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما من احد الا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار فاما الكافر فانه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة زاد فى رواية فذلك قوله تعالى اورثتموها بما كنتم تعملون قال بعضهم لما سمى الله الكافر ميتا بقوله اموات غير احياء وسمى المؤمن حيا بقوله لينذر من كان حيا وفى الشرع ان الاحياء يرثون الاموات فقال اورثتموها يعنى ان المؤمن حى وهو يرث الكافر منزله من الجنة لانه فى حكم الميت وقيل معناه ان امرهم يؤل الى الجنة كما ان الميراث يؤل الى الوارث وقيل اورثتموها عن الاعمال الصالحة التى عملتموها لان الجنة جعلت لهم جزاء وثوابا على الاعمال ولا يعارض هذا

النطقيه الملكية لانها صفات بسمانية مانعة عن الزينة المذكورة التى هى الكمالات الانسانية مضادة لها ﴿ ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى واصلح ﴾ اى اتقى البقية فى الفناء واصلح بالاستقامة عند البقاء ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ لكونهم فى مقام الولاية ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ اى اخفوا صفاتنا بصفات انفسهم ﴿ واستكبروا عنها ﴾ بالشيطنة ﴿ اولئك اصحاب النار ﴾ نار الحرمان ﴿ هم فيها خالدون فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بآياته اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا اينما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين قال ادخلوا فى امم قد خلت

من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا في النار قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون وقالت اولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم ابواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا الاوسعها اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا مافي صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهار وقالوا الحمدلله الذى هدانا لهذا وما كنالنهتدى لولا ان هدانا الله لقد جاءت

القول ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لن يدخل الجنة احد بعمله وانما يدخلها برحمة الله فان دخول الجنة برحمة الله وانقسام المنازل والدرجات بالاعمال وقيل ان العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه الا برحمة الله تعالى وتوفيقه واذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة في الحقيقة برحمة الله تعالى وجعلها الله ثوابا وجزاء لهم على تلك الاعمال الصالحة التي عملوها في دار الدنيا والله اعلم ❊ قوله تعالى (ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار) يعني ونادى اهل الجنة اهل النار وهذا النداء انما يكون بعد استقرار اهل الجنة في الجنة واهل النار في النار تقول اهل الجنة يا اهل النار (ان قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا) يعني ماوعدنا في الدنيا على السنة رسله من الثواب على الايمان به وبرسله وطاعته حقا (فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا) يعني العذاب على من الكفر (قالوا نعم) يعني قال اهل النار مجيبين لاهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقا ❊ فان قلت هذا النداء من كل اهل الجنة لكل اهل النار او من البعض للبعض ❊ قلت ظاهر قوله ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار يفيد العموم والجمع اذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من اهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا فان قلت اذا كانت الجنة في السماء والنار في الارض فكيف يمكن ان يبلغ هذا النداء او كيف يصح ان يقع ❊ قلت ان الله تعالى قادر على ان يقوى الاصوات والاسماع فيصير البعيد كالقريب ❊ وقوله تعالى (فأذن مؤذن بينهم) يعني نادى مناد واعلم لان اصل الاذان في اللغة الاعلام والمعنى نادى مناد اسمع الفريقين وهذا المنادى من الملائكة وقيل انه اسرافيل صاحب الصور ذكره الواحدى (ان لعنة الله على الظالمين) يعني يقول المؤذن ان لعنة الله على الظالمين ثم فسر الظالمين من هم فقال تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) يعني الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الاسلام (ويبغونها عوجا) يعني ويحاولون ان يغيروا دين الله وطريقته التي شرع لعباده ويبدلونها وقيل معناه انهم يصلون لغير الله ويعظمون مالم يعظمه الله وذلك انهم طلبوا سبيل الله بالصلاة لغير الله وتعظيم مالم يعظمه الله فاخطؤا الطريق وضلوا عن السبيل (وهم بالآخرة كافرون) يعني وهم بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها ❊ قوله عزوجل (وبينهما حجاب) يعني بين الجنة والنار وقيل بين اهل الجنة واهل النار حجاب وهو المذكور في قوله تعالى فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب قال مجاهد الاعراف حجاب بين الجنة والنار وقال السدى وبينهما حجاب هو السور وهو الاعراف وقوله (وعلى الاعراف رجال) الاعراف جمع عرف وهو كل مرتفع من الارض ومنه قيل عرف الديك لارتفاعه على ماسواه من الجسد سمى بذلك لانه بسبب ارتفاعه صار اعرف وابين من المنخفض وقال السدى انما سمى الاعراف لان اصحابه يعرفون الناس وقال ابن عباس رضى الله عنهما الاعراف الشئ المشرف وعنه قال الاعراف سور كعرف الديك وعنه ان الاعراف جبل بين الجنة والنار يحبس عليه ناس من اهل الذنوب بين الجنة والنار واختلف العلماء في صفة الرجال الذين اخبر الله عنهم انهم على الاعراف وما السبب الذى من اجله صاروا هنالك فروى عن حذيفة انه سئل عن اصحاب الاعراف فقال هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فقصرت بهم سيآتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله تعالى فيهم قال بعضهم انما جعلوا على الاعراف لانها درجة متوسطة بين الجنة والنار فهم لامن اهل الجنة ولا من اهل النار لكن الله تعالى يدخلهم الجنة بفضله ورحمته لانه ليس في الآخرة

رسل ربنا بالحق ونودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار ان قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخر كافرون وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها (وبينهما حجاب) اى بين اصحاب الجنة وبين اصحاب النار حجاب بحكل منهم محجوب عن صاحبه والمراد بأصحاب الجنة ههنا اهل ثواب اعمال من الابرار والزهاد والعباد الذين جنتهم جنة النفوس والافاهل جنة القلوب والارواح لايحجبون عن اصحاب النار (وعلى الاعراف)

دار الا الجنة او النار وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته اكثر بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيآته اكثر بواحدة دخل النار وان الميزان يخف ويثقل بمثقال حبة من خردل ومن استوت حسناته وسيآته كان من اصحاب الاعراف فوقفوا على الاعراف فاذا نظروا الى اهل الجنة نادوا سلام عليكم واذا نظروا الى اهل النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين فهنالك يقول الله تعالى لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه اذا عمل العبد حسنة كتب له بها عشر واذا عمل سيئة لم تكتب له الا واحدة ثم قال هلك من غلب آحاده عشراته وقال ابن عباس رضى الله عنهما الاعراف سور بين الجنة والنار واصحاب الاعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فهم بذلك المكان حتى اذا اراد الله تعالى ان يعافيهم انطلق بهم الى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فالقوا فيه حتى تصلح الوانهم وتبدو فى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى اذا صلحت الوانهم اتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ماشئتم فيتمنون حتى اذا انقطعت امنيتهم قال لهم لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفا فيدخلون الجنة ذكره ابن جرير فى تفسيره وقال شرحبيل بن سعد اصحاب الاعراف قوم خرجوا فى الغزو من غير اذن آبائهم ورواه الطبرى بسنده الى يحيى بن عيل مولى لبنى هاشم عن محمد بن عبد الرحمن عن ابيه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اصحاب الاعراف فقال هم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فنعهم قتلهم فى سبيل الله عن النار ومنعتهم معصية آبائهم ان يدخلوا الجنة زاد فى رواية فهم آخر من يدخل الجنة وذكر ابن الجوزى انهم قوم رضى آباؤهم دون امهاتهم وامهاتهم دون آبائهم ورواه عن ابراهيم وذكر عن ابى صالح مولى التوامة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انهم اولاد الزنا وقيل انهم الذين ماتوا فى الفترة وفيه بعد لان آخر امر اصحاب الاعراف الى الجنة وهؤلاء الذين ماتوا فى الفترة الله اعلم بحالهم وهو يتولى امرهم وقيل انهم اولاد المشركين الذين ماتوا اطفالا وهذا القول يرجع معناه الى القول الذى قبله لانه داخل فى حكمه فهذه الاقوال تدل على ان اصحاب الاعراف دون اهل الجنة فى الدرجات وان كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى وقال مجاهد اصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول انما يكون لبثهم على الاعراف على سبيل النزهة اوليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وقيل انهم انبياء حكاه ابن الانبارى وانما اجلسهم الله على ذلك المكان العالى تمييزا لهم على سائر اهل القيامة واظهار الفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على اهل الجنة والنار ومطلعين على احوالهم ومقادير ثواب اهل الجنة وعقاب اهل النار وقال ابو مجلز اصحاب الاعراف ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم يعنى يعرفون اهل الجنة واهل النار فقيل لابى مجلز ان الله تعالى يقول وعلى الاعراف رجال وانت تقول انهم ملائكة فقال ان الملائكة ذكور ليسوا باناث وضعف الطبرى قول ابى مجلز قال لان لفظ الرجال فى لسان العرب لايطلق الا على الذكور من بنى آدم دون اناثهم ودون سائر الخلق وحاصل هذه الاقوال ان اصحاب الاعراف افضل من اهل الجنة لانهم اعلى منهم منزلة وافضل وقيل انما اجلسهم الله فى ذلك المكان العالى ليميزوا بين اهل الجنة وبين اهل النار والله اعلم بمراده واسرار كتابه * قوله عز وجل (يعرفون كلا بسيماهم) يعنى ان اصحاب الاعراف يعرفون اهل الجنة بسيماهم وذلك ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم ويعرفون اهل النار بسيماهم وذلك بسواد وجوههم وزرقة

عيونهم والسيما العلامة الدالة على الشئ واصله من السمة قال ابن عباس رضى الله عنهما اصحاب الاعراف اذا رأوا اصحاب الجنة عرفوهم ببياض الوجوه واذا رأوا اصحاب النار عرفوهم بسواد الوجوه فان قلنا ان اصحاب الاعراف من استوت حسناتهم وسيآتهم وهم دون اهل الجنة فى الدرجة كان وقوفهم على الاعراف ليكونوا درجة متوسطة بين الجنة والنار فاذا رأوا هل الجنة وعرفوهم ببياض وجوههم نادوهم ان سلام عليكم وهو قوله تعالى (ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم) يعنى نادى اصحاب الاعراف اصحاب الجنة ان سلام عليكم يعنى سلمتم من الآفات وحصل لكم الامن والسلامة واذا رأوا اهل النار يعرفونهم بسواد وجوههم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين وان قلنا ان اصحاب الاعراف هم الاشراف والافاضل من اهل الجنة كان جلوسهم على الاعراف ليطلعوا على اهل الجنة واهل النار ثم ينقلهم الله عزوجل الى الدرجات العلية فى الجنة * وقوله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) يعنى فى دخول الجنة قال الحسن ما جعل الله ذلك الطمع فى قلوبهم الا لكرامة يريدها بهم * قوله تعالى (واذا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب النار) يعنى واذا صرفت ابصار اصحاب الاعراف تلقاء اصحاب النار يعنى وجاههم وحيالهم فنظروا اليهم والى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) يعنى الذين ظلموا انفسهم بالشرك وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان اصحاب الاعراف اذا نظروا لاهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين والمعنى ان اصحاب الاعراف اذا نظروا الى اهل النار وما فيه من العذاب تضرعوا الى الله تعالى وسألوه ان لا يجعلهم منهم * قوله تعالى (ونادى اصحاب الاعراف رجالا) يعنى ونادى اصحاب الاعراف رجالا كانوا عظماء فى الدنيا وهم من اهل النار (يعرفونهم بسيماهم) يعنى بسيما اهل النار (قالوا) يعنى اصحاب الاعراف لهؤلاء الذين عرفوهم فى النار (ما اغنى عنكم جمعكم) يعنى ما كنتم تجمعون من الاموال والعدد فى الدنيا (وما كنتم تستكبرون) يعنى وما اغنى عنكم تكبركم عن الايمان شيأ قال الكلبى ينادونهم وهم على السور يا وليد بن المغيرة يا اباجهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون الى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزؤن بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال واشباههم فيقول اصحاب الاعراف لاولئك الكفار (اهؤلاء) لفظ استفهام يعنى اهؤلاء الضعفاء (الذين اقسمتم) بالله (لا ينالهم الله برحمة) يعنى انكم حلفتم انهم لا يدخلون الجنة وقد دخلوا الجنة ثم يقول الله تعالى لاصحاب الاعراف (ادخلوا الجنة) بفضلى ورحمتى (لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون) وقيل ان اصحاب الاعراف اذا قالوا لاصحاب النار ما اخبر الله عنهم قال لهم اهل النار ان اولئك دخلوا الجنة وانتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون انهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة لاهل النار اهؤلاء يعنى اصحاب الاعراف الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمة ثم تقول الملائكة لاصحاب الاعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون * قوله عزوجل (ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما صار اصحاب الاعراف الى الجنة طمع اهل النار فى الفرج فقالوا يا ربنا ان لنا قرابات من اهل الجنة فاذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم فينظرون الى قراباتهم فى الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر اهل الجنة

اى على اعالى ذلك الحجاب الذى هو حجاب القلب المفارق بين الفريقين هؤلاء عن يمينه وهؤلاء عن شماله (رجال) هم العرفاء اهل الله وخاصته (يعرفون كلا) من الفريقين (بسيماهم) يسلمون على اهل الجنة بامداد اسباب التزكية والتحلية والانوار القلبية وافاضة والبركات عليهم (لم يدخلوا الجنة) لتجردهم عن ملابس صفات النفوس وطيباتها وترقيهم عن طورهم فلا يشغلهم عن الشهود الذاتى ومطالعة التجلى الصفاتى نعيم (وهم) اى اصحاب الجنة (يطمعون) فى دخولهم ليقتبسوا من نورهم ويستضيؤا باشعة وجوههم ويستأنسوا بحضورهم (واذا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب النار) اى لا ينظر اليهم طوعا ورأفة ورحمة ورضا بل كراهة واعتبارا كأن صارفا صرف ابصارهم اليهم (قالوا ربنا لا تجعلنا

الى قراباتهم من اهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم فينادون اى اصحاب النار اصحاب الجنة باسمائهم فينادى الرجل اباه واخاه فيقول قد احترقت افض علىّ من الماء فيقال لهم اجيبوهم فيقولون ان الله حرمهما على الكافرين ومعنى الآية ان اهل النار يستغيثون باهل الجنة اذا استقروا فيها وذلك عند نزول البلاء باهل النار ومايلقون من شدة العطش والجوع عقوبة لهم من الله على ماسلف منهم فى الدنيا من الكفر والمعاصى يقول اهل النار لاهل الجنة يااهل الجنة افيضوا علينا من الماء يعنى صبوا علينا من الماء اوبما رزقكم الله يعنى واطعمونا بما رزقكم الله ووسعوا علينا من طعام الجنة فيجيبهم اهل الجنة بقولهم (ان الله حرمهما على الكافرين) وهذا الجواب يفيد الحرمان قال بعضهم لما كانت شهواتهم فى الدنيا فى لذة الاكل والشرب عذبهم الله فى الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه فى الدنيا من طلب الاكل والشرب فأجيبوا بان الله حرمهما على الكافرين يعنى طعام الجنة وشرابها ثم وصف الكافرين فقال تعالى (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) يعنى انهم تلاعبوا بدينهم الذى شرع لهم ولهوا عنه واصل اللهو مايشغل الانسان عما يعنيه ويهمه يقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا اى اشتغلت عنه قال ابن عباس رضى الله عنهما هم المستهزؤن وذلك انهم كانوا اذا دعوا الى الايمان سخروا ممن دعاهم اليه وهزؤا به استهزاء بالله عزوجل وقيل هو مازين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التى كانوا يعملونها فى الجاهلية وقيل معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهوا ولعبا لايذكرون الله فيه (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى وخدعهم عاجل ماهم فيه من خصب العيش ولذته وشغلهم ماهم فيه من ذلك عن الايمان بالله ورسله وعن الاخذ بنصيبهم من الآخرة حتى اتتهم المنية وهم على ذلك والغرة غفلة فى اليقظة وهو طمع الانسان فى طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فاذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لانه غريق فى الدنيا بلذاته وماهو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال (فاليوم) يعنى يوم القيامة (ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) يعنى فاليوم نتركهم فى العذاب المهين جياعا عطاشا كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدى قال ابن عباس رضى الله عنهما نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر وقيل معناه نعاملهم معاملة من نسى فتتركهم فى النار كما تركوا العمل واعرضوا عن الايمان اعراض الناسى سمى الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لان الله تعالى لاينسى شيأ فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فيكون المراد من هذا النسيان ان الله تعالى لايجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وذلتهم بل يتركهم فى النار كما تركوا الايمان والعمل (وما كانوا بآياتنا يجحدون) يعنى ونتركهم فى النار كما كانوا بدلائل وحدانيتنا يكذبون ※ قوله تعالى (ولقد جئناهم بكتاب) يعنى ولقد جئنا هؤلاء الكفار بالقرآن الذى انزلناه عليك يامحمد (فصلناه على علم) اى بيناه على علم منا بما نفصله ونبينه (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) اى جعلنا القرآن هاديا وذا رحمة لقوم يؤمنون (هل ينظرون) يعنى هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها (الا تأويله) يعنى هل ينظرون ويتوقعون الاماوعد وابه على السنة الرسل من العذاب وان مصيرهم الى النار والتأويل ماتؤول اليه الشئ (يوم يأتى تأويله) يعنى يوم القيامة لانه يوم

مع القوم الظالمين) اى لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا كما قال اميرالمؤمنين علىّ عليه السلام اعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى وقال النبى عليه الصلاة والسلام اللهم ثبت قلبى على دينك فقيل له اما غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر قال او مايؤمنني ان مثل القلب كمثل ريشة فى فلاة تقلبها الرياح كيف شاءت (ونادى اصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا مااغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون اهؤلاء الذين اقسمتم لاينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولاانتم تحزنون ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحيوة

الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا او نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) اى البدن الانسانى المفصل الى اعضاء وجوارح وآلات وحواس تصلح للاستكمال على ما تقتضيه العلم الآلهى وتأويله مايؤل اليه امره فى العاقبة من الانقلاب الى مالا يصلح لذلك عند البعث من هيئات وصور واشكال تناسب صفاتهم وعقائدهم على مقتضى قوله سيجزيهم وصفهم كما قال ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما (ان ربكم الله الذى خلق السموات

الجزاء ومايؤل اليه امورهم ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ يعنى يقول الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به يوم القيامة عند معاينة العذاب ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ اقروا على انفسهم واعترفوا حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف والاقرار والمعنى ان الكفار اقروا بأن الذى جاءت به الرسل من الايمان والتصديق والحشر والنشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب حق وصدق وانما اقروا بهذه الاشياء لانهم شاهدوها معاينة وذلك حين لا ينفعهم ولما راوا انفسهم فى العذاب قالوا ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا او نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ﴾ يعنى انه ليس لنا طريق الى الخلاص مما نحن فيه من العذاب الا ان يشفع لنا شفيع عند ربنا فيقبل شفاعته فينا فيخلصنا من هذا العذاب او نرد الى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالتوحيد والايمان والمعاصى بالطاعة والانابة ﴿ قد خسروا انفسهم ﴾ يعنى ان الذى طلبوه لا يحصل لهم فتبين خسرانهم واهلاكهم انفسهم لانهم كانوا فى الدنيا اول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا الى الدنيا لعادوا الى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله تعالى فيهم ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ يعنى وبطل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون فى الدنيا من ان الاصنام تشفع لهم فلما افضوا الى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعلموا انهم كانوا فى دعوهم كاذبين ❋ قوله عز وجل ﴿ ان ربكم الله ﴾ يعنى ان سيدكم ومالككم ومصلح اموركم وموصل الخيرات اليكم والذى يدفع عنكم المكاره هو الله ﴿ الذى خلق السموات والارض ﴾ اصل الخلق فى اللغة التقدير ويستعمل فى ابداع الشئ من غير اصل سبق ولا ابتداء تقدم فقوله خلق السموات والارض يعنى ابدعهما وانشأ خلقهما على غير مثال سبق وقدر احوالهما ﴿ فى ستة ايام ﴾ فان قلت اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار هو من طلوع الشمس الى غروبها فكيف قال فى ستة ايام ولم يكن شمس ولا سماء قلت معناه فى مقدار ستة ايام فهو كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا يعنى على مقادير البكر والعشى فى الدنيا لان الجنة لا ليل فيها ولا نهار واختلف العلماء فى اليوم الذى ابتدا الله عز وجل بخلق الاشياء فيه فقيل فى يوم السبت وهو قول محمد بن اسحق وغيره ويدل على صحة هذا القول ماروى مسلم فى افراده من حديث ابى هريرة رضى الله عنه قال اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل وهذا الحديث وان كان فى صحيح مسلم ففيه مقال وقد انكره بعض العلماء لما فيه من المخالفة للآية الكريمة لان الله تعالى يقول خلق السموات والارض فى ستة ايام وقال فى آية اخرى ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام فدل بهذين النصين على ان جميع الخلق تم وكمل فى ستة ايام والذى فى الحديث ان بعض الخلق وقع فى سبعة ايام وذلك مجموع ايام الاسبوع فلهذا السبب انكره من انكره من العلماء وقد ذكر الازهرى فى كتابه تهذيب اللغة مايقوّى الحديث فقال وقال ابن الانبارى السبت القطع وسمى يوم السبت لان الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والارض وقيل ان ابتداء الخلق كان يوم الاحد وهو قول عبدالله بن سلام وكعب الاحبار والضحاك

(ومجاهد)

ومجاهد واختاره ابن جرير الطبرى قال الطبرى خلق الله السموات والارض فى ستة ايام وذلك يوم الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وروى بسنده عن مجاهد قال بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الارض من الماء وبدأ الخلق يوم الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وجمع الخلق فى يوم الجمعة وتهوّدت اليهود فى يوم السبت ويوم من الستة الايام كالف سنة مما تعدون ويعضد هذا القول ماحكاه صاحب المحكم ابن سيده قال وسمى سابع الاسبوع سبتا لان ابتداء الخلق كان من يوم الاحد الى يوم الجمعة ولم يكن فى السبت خلق قال اصحاب الاخبار والسير والتواريخ ان الله تعالى خلق التربة التى هى الارض بلا دحو ولا بسط فى يوم الاحد والاثنين ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات فى يومين وهما الثلاثاء والاربعاء ثم دحا الارض وبسطها وطحاها واخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع مافيها فى يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم فى يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة وقيل خلق الله عز وجل التربة يوم الاحد ثم استوى السماء فخلقها وجميع مافيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الارض ودحاها يوم الاربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة واسكنه الجنة هو وزوجته حوّاء ثم اهبطهما الى الارض فى آخر ساعة من يوم الجمعة وقيل اوّل ماخلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وماسيكون وماخلق وماهو خالق الى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات ومافيهامن نجوم وشمس وقمر ثم مد الارض وبسطها من التربة التى خلقها اوّلا ثم خلق جميع مافيهامن جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه اهبط الى الارض فتكامل جميع الخلق فى ستة ايام كل يوم مقداره الف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل فى ستة ايام من ايام الدنيا * فان قلت ان الله عز وجل قادر على ان يخلق جميع الخلق فى لحظة واحدة ومنه قوله تعالى وماامرنا الا واحدة كلمح بالبصر فما الفائدة فى خلق السموات والارض فى ستة ايام وما الحكمة فى ذلك * قلت ان الله سبحانه وتعالى وان كان قادرا على خلق جميع الاشياء فى لحظة واحدة الا انه تعالى جعل لكل شئ حدا محدودا ووقتا معلوما فلا يدخل فى الوجود الا فى ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأنى فى الامور وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والارض فى لمحة ولحظة فخلقهن فى ستة ايام تعليما لخلقه التثبت والتأنى فى الامور كما فى الحديث التأنى من الله والعجلة من الشيطان وقيل ان الشئ اذا احدث دفعة واحدة فلعله ان يخطر ببال بعضهم ان ذلك الشئ انما وقع على سبيل الاتفاق فاذا احدث شيأ بعد شئ على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك ابلغ فى القدرة واقوى فى الدلالة وقيل ان الله تعالى اراد ان يوقع فى كل يوم امرا من امره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده وقيل ان التعجيل فى الخلق ابلغ فى القدرة واقوى فى الدلالة والتثبت ابلغ فى الحكمة فاراد الله تعالى اظهار حكمته فى خلق الاشياء بالتثبت كما اظهر قدرته فى خلق الاشياء بكن فيكون * وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) العرش فى اللغة السرير وقيل هو ماعلا فأظل وسمى مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز يقال فلان ثل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه قال الراغب فى كتابه مفردات القرآن وعرش الله عز وجل مما لايعلمه

والارض فى ستة ايام) اى اختفى فى صور سماء الارواح وارض الاجساد فى ستة آلاف سنة لقوله تعالى وانّ يوما عند ربك كالف سنة مما تعدّون اى من لدن خلق آدم الى زمان محمد عليهما الصلاة والسلام لانّ الخلق هو اختفاء الحق فى المظاهر الخلقية وهذه المدّة من ابتداء دور الخفاء الى ابتداء الظهور الذى هو زمان ختم النبوّة وظهور الولاية كما قال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله فيه السموات والارض لانّ ابتداء الخفاء بالخلق هو انتهاء الظهور فاذا انتهى الخفاء الى الظهور عاد الى اوّل الخلق كما مرّ ويتم الظهور بخروج المهدى عليه السلام فى تتمة سبعة ايام ولهذا قالوا مدّة الدنيا سبعة آلاف سنة (ثم استوى على العرش) اى عرش القلب المحمدى بالتجلى التام فيه بجميع صفاته كما ذكر فى من ص (يغشى الليل النهار) ليل البدن وظلمة الطبيعة نهار نور

البشر الابالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب اليه اوهام العامة فانه لوكان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم انه الفلك الاعلى والكرسي فلك الكواكب واما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتابه الاسماء والصفات بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها وقال اما الاستواء فالمتقدمون من اصحابنا كانوا لايفسرونه ولايتكلمون فيه كنحو مذهبهم في امثال ذلك وروى بسنده عن عبدالله بن وهب انه قال كنا عند مالك بن انس فدخل رجل فقال ياابا عبدالله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه قال فاطرق مالك واخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما وصف الله نفسه ولايقال له كيف وكيف عنه مرفوع وانت رجل سوء صاحب بدعة اخرجوه فاخرج وفي رواية يحيي بن يحيي قال كنا عند مالك بن انس فجاء فقال رجل ياابا عبدالله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه فاطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما اراك الامبتدعا فامر به ان يخرج وروى البيهقي بسنده عن ابن عيينة قال كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه قال البيهقي والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه واليه ذهب احمد بن حنبل والحسن بن الفضل البجلي ومن المتأخرين ابوسليمان الخطابي قال البغوي اهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف يجب على الرجل الايمان به ويكل العلم به الى الله عز وجل وذكر حديث مالك بن انس مع الرجل الذي سأله عن الاستواء وقد تقدم وروى عن سفيان الثوري والاوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة اقرؤها كما جاءت بلا كيف وقال الامام فخر الدين الرازي رحمه الله ذكره الدلائل العقلية والسمعية انه لايمكن حمل قوله تعالى ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان الاول القطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة ولانخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها الى الله تعالى وهو الذي قررنا في تفسير قوله ومايعلم تأويله الاالله والراسخون في العلم يقولون آمنابه وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه والمذهب الثاني انا نخوض في تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصا الاول ماذكره القفال فقال العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملك ثم جعل ثل العرش كناية عن نقض الملك يقال ثل عرشه اى انتقض ملكه واذا استقام له ملكه واطرد امره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه هذا ماقاله القفال والذي قال القفال حق وصواب ثم قاله والله تعالى دل على ذاته وصفته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي الفوه من ملوكهم واستقر في قلوبهم تنبيها على عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه والمراد منه نفاذ القدرة جريان المشيئة قال ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس ثم استوى على العرش يدبر الامر فقوله يدبر الامر جرى مجرى التفسير لقوله ثم استوى على العرش واورد على هذا القول ان الله تعالى لم يكن مستويا على الملك قبل خلق السموات والارض والله تعالى منزه عن ذلك واجيب عنه بان الله تعالى كان قبل خلق السموات والارض مالكها لكن لايصح ان يقال شبع زيد الابعد اكله الطعام فاذ فسر العرش بالملك صح ان يقال انه تعالى انما

الروح (بملائه) بتهيئته واستعداده لقوله باعتدال مزاجه سريعا وشمس الروح وقمر القلب ونجوم الحواس (حينا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) الذي هو الشأن المذكور في قوله كل يوم هو في شأن (الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) الايجاد بالقدرة والتصريف بالحكمة اولاله التكوين والابداع وازحل السموات والارض على الظاهر فالايام الستة هي الجهات الست اذيعبر عن الحوادث بالايام كقوله وذكرهم بايام الله اى خلق عالم الاجسام في الجهات الست ثم استعلى متمكنا على العرش بالتأثير فيه باثبات صور الكائنات عليه وللعرش ظاهر وباطن فظاهره هو السماء التاسعة التي تنقش فيها صور الكائنات باسرها وتمحو وجودها وعدمها المحو والاثبات فيها على ماسيأتي في تأويل قوله يمحو الله مايشاء ويثبت ان شاء الله وباطنه هو العقل الاول المرتسم

استوى على ملكه بعد خلق السموات والارض والقول الثانى ان يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقول الشاعر

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا القول انما خص العرش بالاخبار عنه بالاستيلاء عليه لانه اعظم المخلوقات ورد هذا القول بأن العرب لاتعرف استوى بمعنى استولى وانما يقال استولى فلان على كذا اذا لم يكن فى ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكا للاشياء كلها ومستوليا عليها فاى تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات ونقل البيهقى عن ابى الحسن الاشعرى ان الله تعالى فعل فى العرش فعلا سماه استواء كما فعل فى غيره فعلا سماه رزقا ونعمة وغيرهما من افعاله ثم لم يكيف الاستواء الا انه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى ثم استوى على العرش وثم للتراخى والتراخى انما يكون فى الافعال وافعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه اياها ولا حركة وحكى الاستاذ ابو بكر بن فورك عن بعض اصحابنا انه قال استوى بمعنى علا من العلو قال ولا يريد بذلك علوا بالمسافة والتحيز والكون فى المكان متمكنا فيه ولكن يريد معنى نفى التحيز عنه وانه ليس مما يحويه طبق او يحيط به قطر ووصف الله تعالى بذلك طريقه الخبر ولا يتعدى ما ورد به الخبر قال البيهقى رحمه الله تعالى وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلمة ثم تعلقت بالمستوى عليه لا بالاستواء قال وقد اشار ابو الحسن الاشعرى الى هذه الطريقة حكاية فقال قال بعض اصحابنا انه صفة ذات قال وجوابى هو الاول وهو ان الله تعالى مستوعلى عرشه وانه فوق الاشياء بائن منها بمعنى انه لاتحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يماسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علوا كبيرا وقد قال بعض اصحابنا ان الاستواء صفة لله تعالى تنفى الاعوجاج عنه وروى ان ابن الاعرابى جاءه رجل فقال يا اباعبد الرحمن مامعنى قوله تعالى الرحمن على العرش استوى قال انه مستو على عرشه كما اخبر فقال الرجل انما معنى قوله استوى اى استولى فقال له ابن الاعرابى مايدريك ان العرب لاتقول استولى فلان على الشئ حتى يكون له فيه مضاد فايهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لامضاد له فهو على عرشه كما اخبر لا كما تظنه البشر والله اعلم * وقوله تعالى (يغشى الليل والنهار) يعنى انه تعالى يأتى بالليل على النهار فيغطيه ويلبسه حتى يذهب بنوره وفيه حذف تقديره ويغشى النهار الليل وانما لم يذكر النهار لدلالة الكلام عليه (يطلبه حثيثا) يعنى سريعا وذلك انه اذا كان يعقب احدهما الآخر ويخلفه فكانه يطلبه حكى الامام فخر الدين الرازى عن القفال انه قال ان الله تعالى لما اخبر عباده باستوائه على العرش اخبر عن استمرار امور المخلوقات على وفق مشيئته واراهم ذلك فيما يشاهدونه منها لينضم العيان الى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات قال الامام واعلم انه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لان تعاقب الليل والنهار انما يحصل بحركة الفلك الاعظم وتلك الحركة اشد الحركات سرعة فان الانسان اذا كان فى اشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك الاعظم ثلاثة آلاف ميل وهى الف فرسخ فلهذا قال تعالى يطلبه حثيثا لسرعة حركته (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) معنى التسخير التذليل وقال الزجاج وخلق هذه اشياء جارية فى مجاريها بأمره وقال المفسرون يعنى بتسخيرهن تذليلهن لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع اذ ليس قادرات بانفسهن وانما هن يتصرفن فى متصرفاتهن على ارادة المدبر لهن

بصور الاشياء على وجه كلى المعبر عنه ببطنان العرش كما جاء نادى منادمن بطنان العرش وهو جل القضاء السابق فالاستواء عليه قصد الاستعلاء عليه بالتأثير فى ايجاد الاشياء باثبات صورها عليه قصدا مستويا من غير ان يلوى الى شئ غيره (ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لايحب المعتدين ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمت الله قريب من المحسنين وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لايخرج الانكدا كذلك نصرف

الحكيم فى تدبيرهن وتصريفهن على ما اراد منهن والمراد بالامر فى قوله بامره نفاذ ارادته
لان الغرض من هذه الآية تبيين عظمة قدرته ومنهم من جعل الامر الذى هو الكلام وقال انه
تعالى امر هذه الاجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة الى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم فان
قلت ان الشمس والقمر من النجوم فلم افردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم قلت انما
افردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الاشراق والنور وسيرهما فى
المنازل لتعرف الاوقات فهو كقوله من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فعطف
جبريل وميكال على ذكر الملائكة وان كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما
من الملائكة * وقوله تعالى (الا له الخلق والامر) يعنى له الخلق لانه خلقهم وله ان يأمر فيهم
بما اراد وله ان يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الامر هنا الذى هو نقيض النهى واستخرج سفيان
بن عيينة من هذا المعنى ان كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال ان الله تعالى فرق بين الخلق
والامر الذى فمن جمع بينهما فقد كفر يعنى ان من جعل الامر الذى هو كلامه تعالى من جملة
ما خلقه فقد كفر لان المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله وقيل معناه ان جميع ما فى العالم عز وجل
والخالق له لانه خلقهم وجميع الامور تجرى بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشئها فلا يبقى بعد
هذا لاحد شئ وقيل المراد بالامر هنا الارادة لان الغرض من الآية تعظيم القدرة وفى الآية
دليل على انه لا خالق الا الله عز وجل نفيه رد على من يقول ان للشمس والقمر والكواكب
تأثيرات فى هذا العالم فاخبر الله انه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب
وله الامر المطلق وليس لاحد امر غيره فهو الآمر والناهى الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد
لا اعتراض لاحد من خلقه عليه (تبارك الله) يعنى تمجد وتعظم وارتفع وقال الزجاج تبارك
تفاعل من البركة ومعنى البركة الكثرة من كل خير وقيل معناه تعالى وتعظم الله (رب العالمين)
يعنى انه هو الذى يستحق التعظيم وذلك ان الله تعالى لما افتتح هذه الآية بقوله ان ربكم الذى
خلق السموات والارض وذكر اشياء من عظيم خلقه وان له الخلق والامر والنهى والقدرة عليهم
ختم الآية بالثناء عليه لانه هو المستحق للمدح المطلق والثناء والتعظيم وقال ابن عباس رضى الله
عنهما معناه جاء بكل بركة وقيل تبارك معناه تقدس والتقديس الطهارة وقيل معناه باسمه يتبرك
فى كل شئ وقال المحققون معنى هذه الصفة ثبت ودام كما لم يزل ولا يزال واصل البركة الثبوت
ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لانه لم يرد به التوقيف * قوله عز وجل (ادعوا
ربكم) قيل معناه اعبدوا ربكم لان معنى الدعاء طلب الخير من الله تعالى وهذه صفة العبادة ولانه
تعالى عطف عليه قوله وادعوه خوفا وطمعا والمعطوف يجب ان يكون مغايرا للمعطوف عليه
وقيل المراد به حقيقة الدعاء وهو الصحيح لان الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من انواع العبادة
لان الداعى لا يقدم على الدعاء الا اذا عرف من نفسه الحاجة الى ذلك المطلوب وهو عاجز عن
تحصيله وعرف ان ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على ايصالها الى الداعى
فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله
تعالى (تضرعا) يعنى ادعوا ربكم تذللا واستكانة وهو اظهار الذل الذى فى النفس والخشوع
يقال ضرع فلان لفلان اذا ذل له وخشع وقال الزجاج تضرعا يعنى تملقا وحقيقته ان تدعوه

الآيات لقوم يشكرون
لقد ارسلنا نوحا الى قومه
فقال ياقوم اعبدوا الله
مالكم من اله غيره انى اخاف
عليكم عذاب يوم عظيم
قال الملأ من قومه انا لنراك
فى ضلال مبين قال ياقوم
ليس بى ضلالة ولكنى
رسول من رب العالمين
ابلغكم رسالات ربى وانصح
لكم واعلم من الله ما لا تعلمون
اوعجبتم ان جاءكم ذكر
من ربكم على رجل منكم
لينذركم ولتتقوا ولعلكم
ترحمون فكذبوه فانجيناه
والذين معه فى الفلك
واغرقنا الذين كذبوا
بآياتنا انهم كانوا قوما عمين
والى عاد اخاهم هودا قال
ياقوم اعبدوا الله مالكم
من اله غيره افلا تتقون
قال الملأ الذين كفروا
من قومه انا لنراك فى سفاهة
وانا لنظنك من الكاذبين

(خاضعين)

خاضعين خاشعين متعبدين بالدعاء له تعالى (وخفية) يعنى سرا فى انفسكم وهو ضد العلانية والادب فى الدعاء ان يكون خفيا لهذه الآية قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ولا يسمع لهم صوت ان كان الا همسا بينهم وبين ربهم وذلك انه تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية وان الله تعالى ذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال تعالى اذ نادى ربه نداء خفيا (ق) وعن ابى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايها الناس اربعوا على انفسكم انكم لا تدعون اصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم والذى تدعونه اقرب الى احدكم من عنق راحلته قال ابو موسى رضى الله عنه وانا خلفه اقول لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فى نفسى فقال يا عبدالله بن قيس الا ادلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى يارسول الله قال لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم قوله صلى الله عليه وسلم اربعوا على انفسكم يعنى ارفقوا بها واقصروا عن الصياح فى الدعاء * وقوله تعالى (انه لا يحب المعتدين) يعنى فى الدعاء وقال ابو مجلز هم الذين يسألون منازل الانبياء عن عبدالله بن مغفل انه سمع ابنه يقول اللهم انى اسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها قال اى بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون فى هذه الامة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء اخرجه ابو داود وقال ابن جريج الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء وقيل الاعتداء مجاوزة الحد فى كل شئ فكل من خالف امر الله ونهيه فقد اعتدى ودخل تحت قوله تعالى انه لا يحب المعتدين وفرع بعض ارباب الطريقة على قوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية هل الافضل اظهار العبادات ام لا فذهب بعضهم الى ان اخفاء الطاعات والعبادات افضل من اظهارها لهذه الآية ولكونها ابعد عن الرياء وذهب بعضهم الى ان اظهارها افضل ليقتدى به الغير فيعمل مثل عمله وتوسط الشيخ محمد بن على الحكيم الترمذى فقال ان كان خائفا على نفسه من الرياء فالاولى اخفاء العبادات صونا لعمله عن البطلان وان كان قد بلغ فى الصفاء وقوة اليقين الى التمكين بحيث صار مباينا شائبة الرياء كان الاولى فى حقه الاظهار لتحصل فائدة الاقتداء به وذهب بعضهم الى اظهار العبادات المفروضات افضل من اخفائها فالصلاة المكتوبة فى المسجد افضل من صلاته فى بيته وصلاة النفل فى البيت افضل من صلاته فى المسجد وكذا اظهار الزكاة افضل من اخفائها واخفاء صدقة التطوع افضل من اظهارها ويقاس على هذا سائر العبادات * قوله تعالى (ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها) يعنى ولا تفسدوا ايها الناس فى الارض بالمعاصى والكفر والدعاء الى غير طاعة الله بعد اصلاح الله اياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع والدعاء الى طاعة الله تعالى وهذا معنى قول الحسن والسدى والضحاك والكلبى وقال ابن عطية لا تعصوا فى الارض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بسبب معاصيكم فعلى هذا يكون معنى قوله بعد اصلاحها بعد اصلاح الله اياها بالمطر والخصب وقيل معنى الآية ولا تفسدوا فى الارض شيأ بعد ان اصلحه الله تعالى فيدخل فيه المنع من اتلاف النفس بالقتل او افسادها بقطع بعض الاعضاء وافساد الاموال بالغصب والسرقة واخذه من الغير بوجوه الحيل وافساد الاديان بالكفر واعتقاد البدع والاهواء المضلة وافساد الانساب بالاقدام على الزنا وافساد العقول بسبب

قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ابلغكم رسالات ربى وانا لكم ناصح امين اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون قالوا اجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب اتجادلوننى فى اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين فانجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا

شرب المسكر وذلك لان المصالح المعتبرة فى الدنيا هى هذه الخمسة فمنع الله من ادخال الفساد فى ماهيتها ❋ وقوله تعالى (وادعوه خوفا وطمعا) اصل الخوف انزعاج فى الباطن لما لايؤمن من المضار وقيل هو توقع مكروه فيحصل فيما بعد والطمع توقع محبوب يحصل له والمعنى وادعوه خوفا منه ومن عقابه وطمعا فيما عنده جزيل ثوابه وقال ابن جريج معناه خوف العدل وطمع الفضل وقيل معناه ادعوه خوفا من الرياء فى الذكر والدعاء وطمعا فى الاجابة فان قلت قال فى اول الآية ادعوا ربكم تضرعا وخفية وقال هنا وادعوه وهذا هو عطف الشئ على نفسه فما فائدة ذلك قلت الفائدة فيه ان المراد بقوله تعالى ادعوا ربكم اى ليكن الدعاء مقرونا بالتضرع والاخبات وقوله وادعوه خوفا وطمعا ان فائدة الدعاء احد هذين الامرين فكانت الآية الاولى فى بيان شرط صحة الدعاء والآية الثانية فى بيان فائدة الدعاء وقيل معناه كونوا جامعين فى انفسكم بين الخوف والرجاء فى اعمالكم كلها ولا تطمعوا انكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء وان اجتهدتم فيهما (ان رحمت الله اصل الرحمة رقة تقتضى الاحسان الى المرحوم وتستعمل تارة فى الرقة المجردة عن الاحسان وتارة فى الاحسان المجرد عن الرقة واذا وصف بها البارى جل وعز فليس يراد بها الا الاحسان المجرد دون الرقة فرحمة الله عز وجل عبارة عن الافضال والانعام على عباده وايصال الخير اليهم وقيل هى ارادة ايصال الخير والنعمة الى عباده فعلى القول الاول تكون الرحمة من صفات الافعال وعلى القول الثانى تكون من صفات الذات (قريب من المحسنين) قال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت الى المعنى دون اللفظ وقيل ان تأنيث الرحمة ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند اهل اللغة وكون الرحمة قريبة من المحسنين لان الانسان فى كل ساعة من الساعات فى ادبار عن الدنيا واقبال على الآخرة واذا كان كذلك الموت اقرب اليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التى هى الثواب فى الآخرة الا الموت وهو قريب من الانسان ❋ قوله عز وجل (وهو الذى يرسل الرياح) هذا عطف على ما قبله والمعنى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وهو الذى يرسل الرياح (بشرا) قرئ نشرا بالنون اراد جمع نشور وهى الريح الطيبة الهبوب التى تهب من كل ناحية وقيل هو جمع ناشر يقال انشر الله الريح بمعنى احياها وقال الفراء النشر الريح الطيبة اللينة التى تنشئ السحاب وقال ابن الانبارى النشر المنتشرة الواسعة الهبوب وقيل النشر خلاف الطى فيحتمل انها كانت بانقطاعها كالمطوية فانتشرت بمعنى ارسلت وقرئ بشرا بالباء جمع بشيرة وهى التى تبشر بالمطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة والرياح اربعة الصبا وهى الشرقية والدبور وهى الغربية والشمال وهى التى تهب من القطب الشمال والجنوب وهى القبلية وعن ابن عمر رضى الله عنهما ان الرياح ثمان اربع منها عذاب وهى القاصف والعاصف والصرصر والعقيم واربع منها رحمة وهى الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات (بين يدى رحمته) يعنى امام المطر الذى هو رحمته وانما سماه رحمة لانه سبب لحياة الارض الميتة قال ابو بكر بن الانبارى رحمه الله تعالى اليدان تستعملهما العرب فى المجاز على معنى التقدمة تقول هذه تكون فى الفتن بين يدى الساعة يريدون قبل ان تقوم الساعة تشبيها وتمثيلا بما اذا كانت يد الانسان تتقدمه كذلك الرياح تتقدم المطر وتؤذن به ❋ عن ابى هريرة رضى الله عنه قال اخذت الناس ريح

بآيتنا وما كانوا مؤمنين والى ثمود اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى ارض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم) الناقة لصالح عليه السلام كالعصا لموسى عليه السلام والحمار لعيسى والبراق لمحمد عليهما السلام فان لكل احد من الانبياء وغيرهم مركبا هو نفسه الحيوانية الحاملة الحقيقية التى هى النفس الانسانية وتنتسب

بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله مابلغكم فى الريح فلم يرجعوا اليه شيأ وبلغنى الذى سأل عمر عنه من امر الريح فاستحثثت راحلتى حتى ادركت عمر وكنت فى مؤخر الناس فقلت ياأمير المؤمنين اخبرت انك سألت عن الريح فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الريح من روح الله تعالى تاتى بالرحمة وتاتى بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه الشافعى رضى الله عنه بطوله واخرجه ابوداود فى المسند منه وقال كعب الاحبار لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة ايام لانتن اكثر اهل الارض * وقوله تعالى (حتى اذا اقلت سحابا ثقالا) يقال اقل فلان الشئ اذا حمله واشتقاق الاقلال من القلة فان من يرفع شيأ يراه قليلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء اولم يكن فيه ماء سمى سحابا لانسحابه فى الهواء والمعنى حتى اذا حملت هذه الرياح سحابا ثقالا بما فيه من الماء قال السدى ان الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتأتى بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والارض حيث يلتقيان فتخرجه من ثم ثم تنشره فتبسطه فى السماء كيف يشاء ثم تفتح له ابواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك وقيل ان الله تعالى دبر بحكمته ان الرياح تتحرك تحريكا شديدا فتثير السحاب ثم ينضم بعضه الى بعض فيتراكم وينعقد ويحمل الماء ثم تسوقه الى حيث يشاء الله عزوجل وهو قوله تعالى (سقناه لبلد ميت) يعنى الى بلد فتكون اللام بمعنى الى وقيل معناه لاجل حياة بلد ميت وانما قال سقناه لان لفظ السحاب مذكر وان كان جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزا نظرا الى اللفظ قال الازهرى رحمه الله تعالى قال الليث البلد كل موضع من الارض عامرا وغير عامر خال اومسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد زاد غيره والمفازة تسمى بلدة لكونها مسكن الوحش والجن قال الاعشى

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة * للجن بالليل فى حافاتها زجل

ومعنى الآية انا سقنا السحاب الى بلد ميت محتاج لانزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم تنبت فيه خضرة (فانزلنا به الماء) اختلفوا فى الضمير فى قوله تعالى به الى ماذا يعود فقال الزجاج رحمه الله وابن الانبارى جائز ان يكون المعنى فانزلنا بالبلد الميت الماء وجائز ان يكون المعنى وانزلنا بالسحاب الماء لان السحاب آلة لنزول الماء (فاخرجنا به) يعنى بذلك الماء لان انزال الماء كان سببا لاخراج الثمرات وقيل يحتمل ان يكون المعنى فاخرجنا بذلك الميت (من كل الثمرات) يعنى واخرجنا بذلك البلد بعد موته وجدبه من اصناف الثمار والزروع (كذلك نخرج الموتى) يعنى كما احيينا البلد الميت كذلك نخرج الموتى احياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم واختلفوا فى وجه التشبيه فقيل ان الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة انزال المطر كذلك يحيى الموتى بواسطة انزال المطر ايضا قال ابو هريرة وابن عباس رضى الله عنهما ان الناس اذا ماتوا فى النفخة الاولى امطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحيوان اربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع من الماء وفى رواية اربعين يوما فينبتون فى قبورهم نبات الزرع حتى اذا استكملت اجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون فى قبورهم فاذا نفخ فى الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم وهم يجدون طعم النوم فى رؤسهم واعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون ياويلنا من بعثنا من مرقدنا فيناديهم المنادى هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون قال مجاهد اذا

بالصفة الغالبة الى ما يتصف بتلك الصفة من الحيوانات فيطلق عليه اسمه فمن كانت نفسه مطواعة منقادة من غاية اللين جولة قوية متذللة فركبه ناقة ونسبتها الى الله لكونها مأمورة بامره مختصة به فى طاعته وقربه وماقيل ان الماء قسم بينها وبينهم لها شرب يوم ولهم شرب يوم اشارة الى ان مشربهم من القوة العاقلة العملية ومشربها من العاقلة النظرية وماروى انها يوم شربها كانت تتفحج

اراد الله تعالى ان يخرج الموتى امطر السماء حتى تنشق الارض ثم يرسل الارواح فتعود كل روح الى جسدها فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كاحيائه الارض به و قيل انما وقع التشبيه باصل الاحياء والمعنى انه تعالى كما احيا هذا البلد الميت بعد جرابه وموته فانبت فيه الزرع والشجر وجعل فيه الثمر كذلك يحيى الله الموتى ويخرجهم من قبورهم احياء بعدان كانوا امواتا وربما باليةلان من قدر على اخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على ان يحييهم ويخرجهم من قبورهم ونشرهم (لعلكم تذكرون) الخطاب لمنكرى البعث يقول انكم شاهدتم الاشجار وهى مزهرة موقة مثمرة فى ايام الربيع والصيف ثم انكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الازهار والاوراق اثمارثم ان الله تعالى احيا ها مرة اخرى فالقادر على احيائها قادر على احياء الاجساد بعد موتها والمعنى انما وصف ماوصفت من التشبيه والتمثيل لكى تعتبر واوتذكر واوتعلموا ان من فعل ذلك كان هوالذى يعيد ويحيي * قوله تعالى (والبلد الطيب) يعنى والارض الطيبة التربة السهلة السمحة (يخرج نباته باذن ربه) يعنى اذا اصابه المطر اخرج نباته باذن الله عزوجل (والذى خبث لايخرج) يعنى والبلد الذى خبث ارضه فهى سبخة لايخرج يعنى لايخرج نباته (الانكدا) يعنى عسرا بمشقة وكلفة قال الشاعر فى المعنى يذم انسانا

لاتنجز الوعدان وعدت وان * اعطيت اعطيت تافها نكدا

يعنى بالتافه القليل وبالنكد العسير ومعناه انك ان اعطيت القليل بشر ومشقة قال المفسرون هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالارض الحرة الطيبة وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الارض الطيبة فاذا نزل المطر عليها اخرجت انواع الازهار الثمار وكذلك المؤمن اذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهرت منه الطاعات والعبادات وانواع الاخلاق الحميدة وشبه الكافر بالارض الرديئة الغليظة السبخة التى لاينتفع بها المطر فكذلك الكافر اذا سمع القرآن لاينتفع به ولايصدقه ولايزيده الاعتواوكفرا وان عمل الكافر حسنة فى الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولاينتفع بها فى الاخرة قال ابن عباس رضى الله عنهما هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول هوطيب وعمله طيب كما ان البلد الطيب ثمره طيب ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التى خرجت منها البركة فالكافر خبيث وعمله خبيث وقال مجاهد هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن ابى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل مابعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلاء والعشب الكثير وكانت منها اجادب امسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا واصاب طائفة منها اخرى انما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلاء فذلك مثل من فقه فى دين الله عزوجل ونفعه مابعثنى الله تعالى به فعلم وعلم من لم يرفع بذلك راسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذى ارسلت به اخرجاه فى الصحيحين * قوله تعالى (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) يعنى كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والايمان آية بعد آية وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله تعالى على انعامه عليهم بالهداية وحيث جنبهم سبيل الضلالة وانما خص الشاكرين بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن * قوله عزوجل (لقد ارسلنا

فحلب منها اللبن حتى ملؤا اوانيهم اشارة الى ان نفسه تستخرج بالفكر من علومه الكلية الفطرية العلوم النافعة للناقصين من علوم الاخلاق والشرائع والآداب وخروجها من الجبل ظهورها من بدن صالح عليه السلام هذا هوالتأويل مع ان الاقرار بظاهرها واجب فان ظهور المعجزات وخوارق العادات حق لاننكر شيأ منها ومايؤيد التأويل تسوية النبى عليه الصلاة والسلام عاقرها بقاتل على عليه السلام حيث قال يا على اتدرى من اشقى الاولين قال الله ورسوله اعلم قال عاقر ناقة صالح ثم قال اتدرى من اشقى الآخرين قال الله

(نوحا)

نوحا الى قومه) اعلم ان الله تبارك وتعالى لما ذكر فى الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعته الدالة على توحيده وربوبيته واقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وماجرى لهم مع اممهم وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن اعراض قومه فقط عن قبول الحق بل قد اعرض عنه سائر الامم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على ان عاقبة اولئك الذين كذبوا الرسل كانت الى الخسار والهلاك فى الدنيا وفى الآخرة الى العذاب العظيم فمن كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل اولئك الذين خلوا من قبله من الامم المكذبة وفى ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان اميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق احدا من علماء زمانه فلما اتى بمثل هذه القصص والاخبار عن القرون الماضية والامم الخالية مما لم ينكره عليه احد علم بذلك انه انما اتى به من عند الله عز وجل وانه اوحى اليه ذلك فكان ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى لقد ارسلنا نوحا الى قومه لقد ارسلنا نوحا جواب قسم محذوف تقديره والله لقد ارسلنا نوحا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس عليه الصلاة والسلام ومعنى ارسلنا بعثنا وهو اول نبى بعثه الله تعالى بعد ادريس وكان نوح عليه الصلاة والسلام نجارا وقيل معنى الارسال ان الله تعالى حمله رسالة ليؤديها الى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة تكون متضمنة للبعث ايضا ويكون البعث كالتابع لانه اصل قال ابن عباس رضى الله عنهما بعثه الله وهو ابن اربعين سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقيل وهو ابن مائة سنة وقال ابن عباس رضى الله عنهما سمى نوحا لكثرة ماناح على نفسه واختلفوا فى سبب نوحه فقيل لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه فى شأن ابنه كنعان وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى اليه اعبتنى ام عبت الكلب (فقال) يعنى نوحا لقومه (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعنى اعبدوا الله تعالى فانه هو الذى يستحق العبادة لا غيره فانه ليس لكم اله معبود سواه فانه هو الذى يستوجب ان يعبد (انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم) يعنى ان لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع امره وطاعته واليوم الذى خافه عليهم هو اما يوم الطوفان واهلاكهم فيه او يوم القيامة انما قال اخاف على الشك وان كان على يقين من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم ايعاجلهم ام يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة (قال الملأ) وهم الجماعة الاشراف (من قومه انا لنراك) يعنى يانوح (فى ضلال مبين) يعنى فى خطار وزوال عن الحق بين (قال) يعنى نوحا (ياقوم ليس بى ضلالة) ما بى ماتظنون من الضلال (ولكنى رسول من رب العالمين) يعنى هو ارسلنى اليكم لانذركم واخوفكم ان لم تؤمنوا به وهو قوله (ابلغكم رسالات ربى) يعنى بتحذيرى اياكم عقابه على كفركم ان لم تؤمنوا به (وانصح لكم) يقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له والنصح ارادة الخير لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح تحرى قول او فعل فيه صلاح للغير وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه والمعنى انه قال ابلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وارشدكم الى الاوجه الاصلح والاصوب لكم وادعوكم الى مادعانى اليه واحب لكم مااحب لنفسى قال بعضهم والفرق بين ابلاغ الرسالة وبين النصيحة هو ان تبليغ الرسالة ان يعرفهم جميع اوامر الله تعالى ونواهيه وجميع انواع

ورسوله اعلم قال قاتلك وروى انه قال من خضب هذا بهذا واشار بيده الى لحيته ورأسه (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن امر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال ياقوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن

التكاليف التي اوجبها الله تعالى عليهم واما النصيحة فهو ان يرغبهم في قبول الاوامر والنواهي والعبادات ويحذرهم عقابه ان عصوه (واعلم من الله مالا تعلمون) يعني واعلم انكم ان عصيتم امره عاقبكم بالطوفان والغرق في الدنيا ونعذبكم في الآخرة عذابا عظيما وقيل اعلم ان مغفرة الله تعالى لمن تاب وعقوبته لمن اصر على الكفر وقيل لعل الله تعالى اطلعه على سر من اسراره فقال واعلم من الله مالا تعلمون (اوعجبتم) الالف الف استفهام والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وهذا الاستفهام استفهام انكار معناه اكذبتم وعجبتم (ان جاءكم ذكر من ربكم) يعني وحيا من ربكم (على رجل منكم) تعرفونه وتعرفون نسبه وذلك لان كونه منهم يزيل التعجب وقيل المراد بالذكر الكتاب الذي انزله الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام سماه ذكرا كما سمى القرآن ذكرا وقيل المراد المعجزة التي جاء بها نوح عليه السلام فعلى هذا تكون على بمعنى مع اي مع رجل منكم قال الفراء على هنا بمعنى مع (لينذركم) يعني جاءكم لاجل ان ينذركم (ولتتقوا) اي ولاجل ان تتقوا (ولعلكم ترحمون) لان المقصود من ارسال الرسل الانذار والمقصود من الانذار التقوى عن كل مالا ينبغي والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة (فكذبوه) يعني فكذبوا نوحا (فأنجيناه) يعني من الطوفان والغرق (والذين معه) يعني من آمن من قومه معه (في الفلك) يعني في السفينة (واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) قال ابن عباس رضي الله عنهما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى وقال الزجاج عموا عن الحق والايمان يقال رجل عم في البصيرة واعمى في البصر وانشدوا قول زهير

واعلم مافي اليوم والامس قبله * ولكنني عن علم مافي غد عم

قال مقاتل عموا عن نزول العذاب بهم والغرق * قوله تعالى (والى عاد اخاهم هودا) اي وارسلنا الى عاد وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهي عاد الاولى اخاهم هودا يعني اخاهم في النسب لا في الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وقال ابن اسحق هو هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح واتفقوا على ان هودا عليه الصلاة والسلام لم يكن اخاهم في الدين ثم اختلفوا في سبب الاخوة من اين حصلت فقيل انه كان واحدا من القبيلة فيتوجه قوله اخاهم لانه واحد منهم وقيل انه لم يكن من القبيلة ثم ذكروا في تفسير هذه الاخوة وجهين الاول قال الزجاج انه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفي هذا القدر في تسمية الاخوة والمعنى انا ارسلنا الى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون الفهم والانس بكلامه اتم واكمل ولم نبعث اليهم من غير جنسهم مثل الملك اوالجن والثاني انه اخاهم يعني صاحبهم العرب تسمي صاحب القوم اخاهم وكانت منازل عاد بالاحقاف باليمن والاحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) اي اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه الها آخر فانه ليس لكم اله غيره والفرق بين قوله في قصة نوح فقال وهنا قال ان نوحا كان مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها لان الفاء تدل على التعقيب واما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من غيره (افلا تتقون) يعني افلا تخافون عذابه بعبادتكم غيره ولما كانت هذه القصة منسوقة على قصة قوم نوح وقد علموا ما حل بهم من الغرق حسن قوله هنا افلا تتقون يعني افلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ولما لم يكن قبل واقعة

لاتحبون الناصحين ولوطا اذ قال لقومه اتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من احد من العالمين انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم مسرفون وما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون فانجيناه واهله الا امرأته كانت من الغابرين وامطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل

نوح شئ حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك انى اخاف عليم عذاب يوم عظيم (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهه) يعنى انا لنراك ياهود فى حمق وجهالة وضلالة عن الحق والصواب اخبر الله تعالى عن قوم نوح انهم قالوا له انا لنراك فى ضلال مبين واخبر عن قوم هود انهم قالوا له انا لنراك فى سفاهة والفرق بينهما ان نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق فى عمل السفينة قال له قومه عند ذلك انا لنراك فى ضلال مبين حيث تتعب فى اصلاح سفينة فى ارض ليس فيها من الماء شئ واما هود عليه السلام فانه لما زيف عبادة الاصنام ونسب من عبدها الى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا انا لنراك فى سفاهة (وانا لنظنك من الكاذبين) يعنى فى ادعائك انك رسول من عند الله (قال) يعنى قال هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه الى السفه (ياقوم ليس بى سفاهة) يعنى ليس الامر كما تدعون ان بى سفاهة (ولكنى رسول من رب العالمين) يعنى اليكم (ابلغكم رسالات ربى) يعنى اودى اليكم ما ارسلنى به من اوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه (وانا لكم ناصح) يعنى فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل وترك عبادة ماسواه (امين) يعنى على تبليغ الرسالة واداء النصح والامين الثقة على ما ائتمن عليه حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام انه قال وانصح لكم وحكى عن هود عليه الصلاة والسلام انه قال وانا لكم ناصح فالاول بصيغة الفعل والثانى بصيغة اسم الفاعل والفرق بينهما ان صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة فكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما اخبر الله عنه بقوله قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وانصح لكم ناصح واما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وانا لكم ناصح امين والمدح للنفس باعظم صفات المدح غير لايق بالعقلاء وانما فعل هود ذلك وقال هذا القول لانه كان يجب عليه اعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم فى قولهم وانا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالامانة وانه امين فى تبليغ ما ارسل به من عند الله ففيه تقرير للرسالة والنبوة وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه فى موضع الضرورة الى مدحها (اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) يعنى اعجبتم ان انزل الله وحيه على رجل تعرفونه لينذركم بأس ربكم ويخوفكم عقابه (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) يعنى واذكروا نعمة الله عليكم اذ اهلك قوم نوح وجعلكم تخلفونهم فى الارض (وزادكم فى الخلق بسطة) يعنى طولا وقوة قال الكلبى والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا وقيل سبعين ذراعا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ثمانين ذراعا وقال مقاتل اثنى عشر ذراعا وقال وهب كان رأس احدهم مثل القبة العظيمة (فاذكروا آلاء الله) يعنى نعم الله وفيه اضمار تقديره فاذكروا نعمة الله عليكم واعملوا عملا يليق بذلك الانعام وهو ان تؤمنوا به وتتركوا ما انتم عليه من عبادة الاصنام (لعلكم تفلحون) يعنى لكى تفوزوا بالفلاح وهو البقاء فى الآخرة (قالوا) يعنى قال قوم هود مجيبين له (اجئتنا) ياهود (لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) يعنى من الاصنام (فأتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (ان كنت من الصادقين) يعنى فى قولك انك رسول الله (قال) يعنى قال هود مجيبا لهم (قد وقع) يعنى نزل ووجب (عليكم من ربكم رجس وغضب) اى عذاب وسخط (اتجادلوننى) يعنى اتخاصموننى (فى اسماء سميتموها

صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى ارسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا اولتعودن فى ملتنا قال اولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ومايكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علما على الله توكلنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين الذين

انتم وآباؤكم) يعنى وضعتم لها اسماء من عندانفسكم والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار عليهم لانهم سموا الاصنام بالآلهة وذلك معدوم فيها (مانزل الله بها من سلطان) يعنى من حجة وبرهان على هذه التسمية وانما سميتموها انتم من عند انفسكم بغير دليل (فانتظروا) يعنى العذاب (انى معكم من المنتظرين) يعنى نزول العذاب بكم (فأنجيناه) يعنى فانجينا هودا عند نزول العذاب بقومه (والذين معه برحمة منا) يعنى وانجينا اتباعه الذين آمنوا به وصدقوه لانهم كانوا مستحقين للرحمة (وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا)يعنى واهلكنا الذين كذبوا هودا من قومه واراد بالآيات معجزات هود عليه الصلاة والسلام الدالة على صدقه وهذا هلاك استئصال فهلكوا جميعا ولم يبق منهم واحد (وما كانوا مؤمنين) يعنى لانهم لم يكونوا مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه الصلاة والسلام

* (ذكر قصة عاد على ماذكره محمد بن اسحق واصحاب السير والاخبار) *

قالوا جميعا كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هودا عليه الصلاة والسلام الاحقاف والاحقاف الرمل فيما بين عمان وحضرموت من ارض اليمن وكانوا قد فسقوا فى الارض كلها وقهروا اهلها بفضل قوتهم التى جعلها الله فيهم وكانوا اصحاب اوثان يعبدونها من دون الله عزوجل صنم يقال له صداء وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله عزوجل فيهم هودا عليه الصلاة والسلام وهو من اوسطهم نسبا وافضلهم موضعا فأمرهم ان يوحدوا الله ولا يجعلوا معه الها غيره وان يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك فيما ذكر فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من اشد منا قوة واتبعه منهم ناس فآمنوا به وهم يسير يكتمون ايمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له مرثد بن سعيد بن عفير وكان يكتم ايمانه فلما عتوا على الله وكذبوا نبيهم واكثروا فى الارض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما فعلوا ذلك امسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس فى ذلك الزمان اذا نزل بهم بلاء وجهد يطلبون الفرج من الله عزوجل ذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم ومشركهم وكان يجتمع بمكة ناس كثير مختلفة اديانهم وكل معظم مكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عزوجل وكان البيت معروفا مكانه من الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وانما سموا العماليق لان اباهم كان عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيد العماليق يومئذ رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت ام معاوية كلهدة بنت الخيبرى وهو رجل من عاد وكانت عاد اخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقل عنهم المطر قالوا جهزوا منكم وفدا الى مكة ليستسقوا لكم فانكم قد هلكتم فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هذيل وعقيل بن صندين بن عاد الاكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما يكتم اسلامه وجلهمة بن الخيبرى خال معاوية بن بكر سيد العماليق ولقمان بن عاد فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم واكرمهم وكانوا اخواله واصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذى اصابهم شق ذلك عليه وقال هلك اخوالى واصهارى وهؤلاء

(مقيمون)

كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال ياقوم لقد ابلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين وماارسلنا فى قرية من نبى الا اخذنا اهلها بالبأساء *والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون ولوان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون افأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاوهم نائمون اوامن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا

مقيمون عندي وهم ضيفي نازلون علي والله ماادري كيف اصنع فاني استحي ان آمرهم بالخروج لما بعثوا اليه فيظنوا انه ضيق مني بمكانهم عندي وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا قال وشكا ذلك من امرهم الى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك ان يحركهم فقال معاوية

الا يا قيل ويحك قم فهينم * لعل الله يسقينا غماما * فيسقي ارض عاد ان عادا
قد امسوا لايبينون الكلاما * من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير * فقد امست نساؤهم ايامى * وان الوحش تأتيهم جهارا
ولا تخشى لعادي سهاما * وانتم ههنا فيما اشتهيتم * نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ما غنتا به قال بعضهم لبعض ياقوم انما بعثكم قومكم ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد ابطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد بن عفير انكم والله لاتسقون بدعائكم ولكن ان اطعتم نبيكم وتبتم الى ربكم سقيتم واظهر اسلامه عند ذلك وقال في ذلك

عصت عاد رسولهم فامسوا * عطاشا ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود * يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد * فابصرنا الهدى وجلى العماء
وان اله هود هو الهي * على الله التوكل والرجاء
لقد حكم الاله وليس جورا * وحكم الله ان غلب الهواء
على عاد وعاد شر قوم * فقد هلكوا وليس لهم بقاء
واني لن افارق دين هود * طوال الدهر او يأتي الفناء

فقال جلهمة بن الخيبري مجيبا لمرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف انه اتبع دين هود وآمن به

الا ياسعد انك من قبيل * ذوي كرم وامك من ثمود
فانا لا نطيعك مابقينا * ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين وفد * ورمل والصداء مع الصمود
ونترك دين آباء كرام * ذوي رأي ونتبع دين هود

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وابيه بكر احبسا عنا مرثدا فلا يقدمن معنا مكة فانه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا الى مكة يستسقون بها العاد فلما ولوا الى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى ادركهم بمكة قبل ان يدعوا الله بشيء مما خرجوا اليه فلما انتهى اليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعونه فقال مرثد اللهم اعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني فيما يدعوك به وفد عاد وقام قيل بن عنز رأس وفد عاد يدعو فقال اللهم اعط قيلا ماسألك وقال الوفد معه واجعل سؤلنا مع سؤله وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى اذا فرغوا من دعواتهم قام لقمان فقال اللهم اني جئتك وحدي في حاجتي فاعطني سؤلي وسأل طول العمر فعمر عمر سبعة انسر وقال قيل بن عنز حين دعا ياالهنا ان كان هود صادقا فاسقنا فانا قد هلكنا فانشأ الله تعالى سحائب ثلاثا بيضا وحمرا وسودا ثم ناداه مناد من السماء ياقيل اختر لقومك ولنفسك

ضحى وهم يلعبون افأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون اولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون تلك القرى نقص عليك من انبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لاكثرهم من عهد وان وجدنا اكثرهم لفاسقين ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين وقال موسى

من هذه السحائب فقال قيل قد اخترت السحابة السوداء فانها اكثر السحاب ماء فناداه مناد
اخترت رمادا رمددا لا يبقى من آل عاد احدا وساق الله تعالى السحابة السوداء التى اختار هاقيل
بما فيها من النقمة الى عاد حتى خرجت عليهم من وادلهم يقال له المغيث فلما راوها استبشروا بها
وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عزوجل بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم تدمر كل
شئ مرت به بامر ربها وكان اول من ابصر مافيها وعرف انها ريح مهلكة امراة من عاد يقال
لها مهدد فلما عرفت مافيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما ان افاقت قالوا لها ماذا رايت
قالت رايت الريح فيها كشهب النار امامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية
ايام حسوما فلم تدع من آل عاد احدا الا اهلكته واعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرة
مايصيبه ومن معه من الريح الا ماتلين عليه الجلود وتلذ به الانفس وانها فى قوتها لتمر بالظعن
من عاد فتحملهم بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية
ابن بكر فنزلوا عليه فبينماهم عنده اذ اقبل اليه رجل على ناقة فى ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة
من مصاب عاد فأخبرهم الخبر فقالوا له اين فارقت هودا واصحابه فقال فارقتهم بساحل البحر
وكأنهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر صدق ورب الكعبة وقال السدى بعث الله
عزوجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا الى الابل والرجال تطير بهم الريح بين السماء
والارض فلما راوها تبادروا الى البيوت فدخلوها واغلقوا الابواب فجاءت الريح فقلعت
ابوابهم ودخلت عليهم فاهلكتهم فيها ثم اخرجتهم من البيوت فلما اهلكتهم ارسل الله عليهم
طيرا اسود فنقلهم الى البحر فالقاهم فيه وقيل ان الله تعالى امر الريح فأمالت عليهم الرمال
فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية ايام يسمع لهم انين تحت الرمل ثم امر الله الريح فكشفت عنهم الرمل
ثم احتملتهم فرمت بهم فى البحر ولم تخرج ريح قط الا بمكيال الا يومئذ فانها عتت على الخزنة
فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفى الحديث انما خرجت على مثل خرق الخاتم وقيل ان مرثد بن
سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم قد اعطيتم مناكم فاختاروا لانفسكم
غير انه لاسبيل الى الخلود ولا بد من الموت فقال مرثد اللهم اعطنى برا وصدقا فاعطى ذلك قال لقمان
اللهم اعطنى عمرا فقيل له اختر فاختار عمر سبعة انسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة
وكان يأخذ الذكر لقوته فيربيه حتى يموت فاذا مات اخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى اتى على
السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان السابع من النسور اسمه لبد فلما مات لبد مات
لقمان معه واما قيل فانه اختار لنفسه مايصيب قومه فقيل له انه الهلاك فقال لا ابالى لا حاجة لى
فى البقاء بعد قومى فاصابه الذى اصاب عادا فهلك ومن معه من الوفد الذين خرجوا يستسقون
لعاد فاتت الريح لما خرجوا من الحرم فاهلكتهم جميعا فلما اهلك الله عادا ارتحل هود ومن معه
من المؤمنين من ارضهم بعد هلاك قومه الى موضع يقال له الشحر من ارض اليمن فنزل هناك
ثم ادركه الموت فدفن بارض حضرموت يروى عن على بن ابى طالب كرم الله وجهه ان قبر هود
عليه الصلاة والسلام بحضرموت فى كثيب احمر وقال عبد الرحمن بن شبا بين الركن والمقام
وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل عليهم الصلاة والسلام
فى تلك البقعة ويروى ان كل نبى من الانبياء اذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه

يافرعون انى رسول من
رب العالمين حقيق على
ان لا اقول على الله الا الحق
قد جئتكم ببينة من ربكم
فارسل معى بنى اسرائيل
قال ان كنت جئت بآية
فأت بها ان كنت من
الصادقين فالقى عصاه فاذا
هى ثعبان مبين ونزع يده
فاذا هى بيضاء للناظرين
قال الملأ من قوم فرعون
ان هذا لساحر عليم يريد
ان يخرجكم من ارضكم
فماذا تأمرون قالوا ارجه
واخاه وارسل فى المدائن
حاشرين يأتوك بكل ساحر
عليم وجاء السحرة فرعون
قالوا ان لنا لاجرا ان كنا
نحن الغالبين قال نعم وانكم
لمن المقربين قالوا ياموسى

الى مكة يعبدون الله تعالى حتى توفوا بها * قوله عز وجل (والى ثمود اخاهم صالحا) يعنى وارسلنا الى ثمود وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح وهو اخو جديس بن عابر وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى وما حوله ومعنى الكلام والى بنى ثمود اخاهم صالحا لان ثمود قبيلة قال ابو عمرو بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وقيل سموا ثمود باسم ابيهم الذى ينسبون اليه اخاهم صالحا يعنى فى النسب لا فى الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعنى قال لهم صالح حين ارسله الله تعالى اليهم ياقوم وحدوا الله ولا تشركوا به شيأ فما لكم من اله يستحق ان يعبد سواه (قد جاءتكم بينة من ربكم) يعنى جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما اقول وادعوا اليه من عبادة الله تعالى وان لا تشركوا به شيأ وعلى تصديق بانى رسول الله اليكم ثم فسر تلك البينة فقال (هذه ناقة الله لكم آية) يعنى علامة على صدقى قال العلماء رحمهم الله تعالى ووجه كون هذه الناقة آية على صدق صالح ومعجزة له خارقة للعادة انها خرجت من صخرة فى الجبل وكونها لا من ذكر ولا من انثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج لانها خلقت فى ساعة وخرجت من الصخرة وقيل لانه كان لها شرب يوم ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم وهذا من المعجزة ايضا لان ناقة تشرب ما تشرب به قبيلة معجزة وكانوا يحلبونها فى يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء وهذا ايضا معجزة وقيل ان سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء فى يوم شرب الناقة وتشرب الحيوانات الماء فى غير يوم الناقة وهذا ايضا معجزة وانما اضافها الى الله تعالى فى قوله هذه ناقة الله على سبيل التفضيل والتشريف كما يقال بيت الله وقيل لان الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وانثى وقيل لانه لم يملكها احد الا الله تعالى وقيل لانها كانت حجة الله على قوم صالح (فذروها تأكل فى ارض الله) يعنى فذروا الناقة تأكل العشب من ارض الله فان الارض لله والناقة ايضا لله وليس لكم فى ارض الله شئ لانه هو الذى انبت العشب فيها (ولا تمسوها بسوء) يعنى ولا تطردوها ولا تقربوها بشئ من انواع الاذى ولا تعقروها (فيأخذكم عذاب اليم) يعنى بسبب عقرها واذاها (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) يعنى ان الله اهلك عادا وجعلكم تخلفونهم فى الارض وتعمرونها (وبوأكم) يعنى واسكنكم وانزلكم (فى الارض تتخذون من سهولها قصورا) يعنى تبنون القصور من سهولة الارض لان القصور انما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين (وتنحتون الجبال بيوتا) يعنى وتشقون بيوتا من الجبال وقيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف والجبال فى الشتاء وهذا يدل على انهم كانوا متنعمين مترفهين (فاذكروا آلاء الله) اى فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروا عليها (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) قال قتادة معناه ولا تسيروا فى الارض مفسدين فيها والعثو اشد الفساد وقيل اراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهى عن جميع انواع الفساد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعنى قال الاشرف الذين تعظموا عن الايمان بصالح (للذين استضعفوا) يعنى المساكين (لمن آمن منهم) يعنى قال الاشرف المتعظمون فى انفسهم لاتباعهم الذين آمنوا بصالح وهم الضعفاء من قومه (أتعلمون ان صالحا مرسل من ربه) يعنى ان الله ارسله الينا واليكم (قالوا انا بما ارسل به مؤمنون) يعنى قال الضعفاء انا بما ارسل الله به صالحا من الدين والهدى والحق مصدقون (قال الذين استكبروا) يعنى عن امر الله والايمان به وبرسوله صالح (انا

اما ان نكون نحن الملقين قال القوا فلما القوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم واوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) ظاهره اعجاز موسى كما هو مروى والتأويل هو ان العصا اشارة الى نفسه التى يتوكأ عليها اى يعتمد عليها فى الحركات والافعال الحيوانية ويهش بها على غنم القوى البهيمة السليمة ورق الآداب الجميلة والملكات الفاضلة والعادات الحميدة من شجرة الفكر وكانت نفسه من

بالذى آمنتم به كافرون) اى جاحدون منكرون (فعقروا الناقة) يعنى فعقرت ثمود الناقة والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا لان ناحر البعير يعقره ثم ينحره (وعتوا عن امر ربهم) اى تكبروا عن امر ربهم وعصوه والعتو الغلو فى الباطل والتكبر عن الحق والمعنى انهم عصوا وتركوا امره فى الناقة وكذبوا نبيهم صالحا عليه الصلاة والسلام (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (ان كنت من المرسلين) يعنى ان كنت كما تزعم انك رسول الله فان الله تعالى ينصر رسله على اعدائه وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مكذبين فى كل ما اخبرهم به من العذاب فعجل الله لهم ذلك فقال تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج الرجفة الزلزلة الشديدة العظيمة وقال مجاهد والسدى هى الصيحة فيحتمل انهم اخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا وهو قوله تعالى (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) يعنى فأصبحوا فى ارضهم وبلدهم جاثمين ولذلك وحد الدار كما يقال دار الحرب اى بلد الحرب ودار بنى فلان بمعنى موضعهم ومحلهم وجمع فى آية اخرى فقال فى ديارهم لانه اراد مالكل واحد منهم من الديار والمساكن وقوله جاثمين يعنى باركين على الركب والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئا بالارض فى حال نومه وسكرته بالليل والمعنى انهم اصبحوا جاثمين على وجوههم موتى لا يتحركون (فتولى عنهم) يعنى فأعرض عنهم صالح وفى وقت هذا التولى قولان احدهما انه تولى عنهم بعد ان ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم والفاء للتعقيب فدل على انه جعل هذا التولى بعد جثومهم وهو موتهم والقول الثانى انه تولى عنهم وهم احياء قبل موتهم وهلاكهم ويدل عليه انه خاطبهم (وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وهذا الخطاب لا يليق الا بالاحياء فعلى هذا القول يحتمل ان يكون فى الآية تقديم وتأخير تقديره فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين واجاب اصحاب القول الاول عن هذا انه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخا وتقريعا كما خاطب النبى صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين القوا فى القليب فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث فى الصحيح وفيه فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم اقواما قد جيفوا فقال ما انتم باسمع لما اقول منهم ولكن لا يجيبون وقيل انما خاطبهم صالح بذلك ليكون عبرة لمن يأتى من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التى كانوا عليها * (ذكر قصة ثمود على ما ذكره محمد بن اسحق ووهب بن منبه وغيرهما من اصحاب السير والاخبار) * قالوا جميعا ان عادا لما هلكت وانقضى امرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا فى الارض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى ان احدهم ليبنى المسكن من المدر فينهدم والرجل حى فلما راوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا فى سعة من العيش والرخاء فعتوا وافسدوا فى الارض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى اليهم صالحا نبيا وكانوا قوما عربا وكان صالح من اوسطهم نسبا وافضلهم بيتا وحسبا فبعثه الله تعالى اليهم وهو غلام فلم يزل يدعوهم الى الله تعالى والى عبادته حتى شمط وكبر فلم يتبعه منهم الا قليل مستضعفون فلما الح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ واكثر لهم التحذير والتخويف سألوه ان يريهم آية تكون مصداقا على ما يقول فقال صالح اى آية تريدون فقالوا تخرج معنا الى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه اصنامهم وذلك فى يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا

سياسته اياها ورياضته لها منقادة لتصرفاته مطواعة لاوامره مرتدعة عن افعالها الحيوانية الا باذنه كالعصا واذا ارسلها عند الاحتجاج فى مقابلة الخصوم صارت كالثعبان يتلقف ما يأفكون من اكاذيبهم الباطلة وزوروا من حبال شبهاتهم التى بها تحكم دعاويهم وعصى مغالطاتهم ومن خرقاتهم التى تمسكوا بها عند الخصام فى اثبات مقاصدهم فتغلبهم وتقهرهم (ونزع يده) اى اظهر قدرته الباهرة التى تبهرهم وتظهر نور حقية دعواه والظاهر انه كان الغالب على زمانه هو السحر فخرج بالسحر الآلهى كان الغالب

(وقال)

فقال لهم صالح ثم اخرجوا باصنامهم الى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا اوثانهم وسألوها ان لا يستجاب لصالح فى شئ مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود يا صالح اخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ماشاكلت البخت من الابل فان فعلت آمنابك وصدقناك فاخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقنى ولتؤمنن بى قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير انه لا يعلم ما بين جنبيها الا الله عز وجل عظما وهم ينظرون اليها ثم نتجت سقبا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط معه من قومه واراد بقية اشراف ثمود ان يؤمنوا به ويصدقوه فنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب وكانا صاحبى اوثانهم ورباب بن صمير وكان كاهنهم وكانوا من اشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها فى ارض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غبا فاذا كان يوم ورودها وضعت راسها فى بئر فى الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع راسها حتى تشرب كل ما فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع راسها فتتفحج لهم فيحلبون ما شاؤا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملؤا اوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذى وردت منه ولا تقدر ان تصدر من حيث وردت حتى اذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربون ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤا اليوم الناقة فهم على ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة تصيف اذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منها مواشيهم الابل والبقر والغنم فتهبط الى بطن الوادى فتكون فى حره وجدبه واذا كان الشتاء فتشتوا الناقة فى بطن الوادى فتهرب المواشى الى ظهره فتكون فى البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للامر الذى يريده الله بهم للبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن امر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لاحداهما عنيزة بنت غانم بن مجلد وتكنى بام غنم وكانت عجوزا مسنة وهى امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من ابل وبقر وغنم والمرأة الاخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من اشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما اضرت بمواشيهما فتحيلتا فى عقر الناقة فدعت صدقة رجلا من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها ان هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا وجعلت له نفسها على ان يعقر الناقة وكانت من احسن الناس وجها واكثرهم مالا فأجابها الى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلا احمر ازرق قصيرا ويزعمون انه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه فقالت عنيزة اقدار اى بناتى شئت اعطيتك على ان تعقر الناقة وكان قدار عزيزا منيعا فى قومه (ق) عن عبد الله بن زمعة رضى الله تعالى عنه انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذى عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انبعث اشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى رهطه مثل ابى زمعة قوله انبعث اى قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع الممتنع ممن اراده قال اصحاب الاخبار فانطلق قدار بن سالف ومصدع

بن مهرج فاستفروا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط انطلق قدار ومصدع واصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار فى اصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع فى اصل صخرة اخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم فى عضلة ساقها فخرجت ام غنم عنيزة وامرت ابنتها فسفرت عن وجهها وكانت من احسن الناس وجها لبرا هاقدار ثم حثته على عقرها واغرته به فشد قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فتحدر سقبها من الجبل ثم طعن قدار فى لبتها فنحره فخرج اهل البلد فاقتسموا لحمها فلما راى سقبها ذلك انطلق هار باحتى اتى جبلا منيعا يقال له صور وقيل قارة واتى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له ادرك الناقة فقد عقرت فأقبل نحوها وخرج اهل البلد يتلقونه ويعتذرون اليه ويقولون يانبى الله انما عقرها فلان ولاذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فان ادركتموه فعسى ان يرفع عنكم العذاب فخرجوا فى طلبه فراوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالى الى الجبل ان تطاول فتطاول حتى ماتناله الطير وجاء صالح عليه الصلاة والسلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة اجل يوم تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن اسحق تبع السقب اربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهرج واخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فاصاب قلبه ثم جذبه فأنزله والقوا لحمه مع لحم صالح عليه الصلاة والسلام انتهكتم حرمة الله فابشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزؤن به ومتى ذلك ياصالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الايام فى ذلك الوقت الاحد اول والاثنين اهون والثلاثاء دبار والاربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شيار وكانوا عقروا الناقة يوم الاربعاء فقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام حين قالوا ذلك تصبحون غدا يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شيار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم اول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة هلموا فلنقتل صالحا فان كان صادقا عجلناه قبلنا وان كان كاذبا كنا قد الحقناه بناقته فأتوه ليلا ليقتلوه فى اهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما ابطؤا على اصحابهم اتوا منزل صالح عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح انت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لاتقتلوه ابدا فانه قد وعدكم العذاب انه نازل بكم بعد ثلاث فان كان صادقا فلم تزيدوا ربكم الاغضبا عليكم وان كان كاذبا فأنتم وراء ماتريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كانما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وانثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا ان صالحا قد صدقهم فيما قال فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحى من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبى هدب وهو مشرك فغيب صالحا فلم يقدروا عليه وكانوا عمدوا الى اصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من اصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يانبى الله انهم يعذبوننا لندلهم عليك افندلهم عليك قال نعم فدلوهم عليه فأتوا اباهدب فكلموه فى امر صالح فقال هو عندى وليس لكم اليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم مانزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون فى وجوههم فلما امسوا صاحوا بأجمعهم الاقد مضى يوم من الاجل فلما

اصبحوا فى اليوم الثانى اذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وايقنوا
انه العذاب فلما امسوا صاحوا بأجمعهم الا قد مضى يومان من الاجل وحضركم العذاب فلما
اصبحوا فى اليوم الثالث اذا وجوههم مسودة كانما طليت بالقار فصاحوا جميعا الا قد حضركم
العذاب فلما كانت ليلة الاحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن اسلم معه من بين اظهرهم
الى الشام فنزل رملة فلسطين فلما اصبحوا فى اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا والقوا بأنفسهم
الى الارض يقلبون ابصارهم الى السماء مرة والى الارض مرة لايدرون من اين يأتيهم
العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الاحد اتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل صاعقة
وصوت كل شئ له صوت فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وهلكوا جميعا الاجارية
مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام
فاطلق الله تعالى رجليها بعدما عاينت العذاب وما اصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى اتت
وادى القرى فاخبرتهم بما عاينت من العذاب الذى بثمود ثم استقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت
فى الحال وذكر السدى فى عقر الناقة فقال اوحى الله عزوجل الى صالح عليه الصلاة والسلام
ان قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ماكنا لنفعل فقال صالح انه سيولد فى شهركم
هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لايولد لنا فى هذا الشهر ولد الاقتلناه قال فولد
لتسعة منهم فى ذلك الشهر اولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فأبى ان يذبحه لانه كان لم يولد له
قبل ذلك ولد وكان الولد الذى ولد له احمر ازرق فنبت نباتا سريعا فكان اذا مر بالتسعة
فراوه قالوا لوكان ابناؤنا احياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لانه كان سبب
قتل ابنائهم فتقاسموا بالله يعنى فتحالفوا بالله لنبيتنه واهله وقالوا نخرج فنرى الناس انا قد خرجنا
الى سفر فنأتى الغار فنكون فيه حتى اذا كان الليل وخرج صالح الى مسجده اتيناه فقتلناه ثم
نرجع الى الغار فنكون فيه حتى ننصرف الى رحلنا فنقول ماشهدنا مهلك اهله وانا لصادقون
فيصدقوننا فيظنون انا قد خرجنا الى سفر وكان صالح لاينام معهم فى القرية بل كان يبيت فى مسجد له
خارج القرية فاذا اصبح اتاهم فيعظهم ويذكرهم فاذا امسى خرج الى مسجده فيتعبد فيه
قال فانطلق التسعة الى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلوا فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على
امرهم لينظروا مافعل اولئك النفر فراوهم وهم رضخ فرجعوا الى القرية يصيحون مارضى صالح
بقتل اولادهم حتى قتلهم فاجتمع اهل القرية على عقر الناقة وقال ابن اسحق كان التسعة قد تقاسموا على
تبييت صالح بعد عقر الناقة وقال السدى وغيره لما ولد للعاشر ولد سماه بقدار فكان يشب سريعا
فلما كبر جلس مع اناس يشربون الخمر فأرادوا ماء يمزجوا به شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب
الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا مانصنع نحن باللبن هذه الناقة ولو كنا
نأخذ هذا الماء الذى تشربه الناقة فنسقيه لانعامنا وزروعنا كان خيرا لنا وقال ابن العاشر هل
لكم ان اعقرها لكم قالوا نعم فعقرها (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال لما مر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالحجر قال لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم ان يصيبكم مااصابهم الا ان تكونوا
باكين ثم قنع راسه واسرع السير حتى جاوز الوادى وفى رواية لمسلم لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين
ثم ذكر مثله ولهما عنه ان الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر ارض ثمود

على زمان محمد عليه الصلاة
والسلام كان هو الفصاحة
فكان معجزه القرآن وعلى
زمان عيسى عليه السلام
الطب فجاء بالطب الالهى
على ماروى لان معجزة كل
نبى يجب ان تكون من جنس
ماغلب على زمانه ليكون
ادعى الى اجابة دعواه (والقى
السحرة ساجدين قالوا آمنا
برب العالمين رب موسى
وهرون قال فرعون آمنتم به
قبل ان اذن لكم ان هذا
لمكر مكرتموه فى المدينة
لتخرجوا منها اهلها فسوف
تعلمون لاقطعن ايديكم
وارجلكم من خلاف
ثم لاصلبنكم اجمعين قالوا
انا الى ربنا منقلبون وماتنقم
منا الا ان آمنا بآيات ربنا

لماجاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك قال سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم وانا فوقهم قاهرون قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا اوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم

فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فامرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الابل العجين وامرهم ان يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة وله عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك امرهم ان لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فامرهم النبي صلى الله عليه وسلم ان يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء وفي بعض الاحاديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية فبعث الله لهم الناقة وكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن امر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فاخذتهم صيحة اهمد الله من تحت اديم السماء منهم في مشارق الارض ومغاربها الارجلا واحدا كان في حرم الله فمنعه حرم الله تعالى من عذاب الله فلما خرج اصابه ما اصاب قومه قيل من هو يا رسول الله قال ابو رغال فدفن معه غصن من ذهب واراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر ابي رغال فنزل القوم فابتدروه باسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح اربعة آلاف خرج بهم صالح الى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسميت حضرموت وبنى الاربعة آلاف مدينة وسموها حاصوراء وقال قوم من اهل العلم توفي صالح عليه السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة واقام في قومه عشرين سنة قوله تعالى (ولوطا) يعني وارسلنا لوطا وقيل معناه واذكر يا محمد لوطا وهو لوط بن هاران بن تارخ وهو ابن اخي ابراهيم وابراهيم عمه (اذ قال لقومه) يعني اهل سدوم واليهم كان مبعوثا وذلك ان لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الى الشام نزل ابراهيم ارض فلسطين ونزل لوط الاردن ارسله الله تعالى الى اهل سدوم يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى (أتأتون الفاحشة) يعني الفعلة الخبيثة المتمادية في القبح وكانت فاحشتهم اتيان الذكران في ادبارهم (ما سبقكم بها من احد من العالمين) من الاولى زائدة لتوكيد النفي وافادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والمعنى ما سبقكم الى فعل هذه الفعلة الفاحشة احد من العالمين قبلكم وفي هذا الكلام توبيخ لهم وتقريع على فعل تلك الفاحشة قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا الا كان من قوم لوط (انكم لتأتون الرجال) يعني في ادبارهم (شهوة من دون النساء) يعني ان ادبار الرجال اشهى عندكم من فروج النساء (بل انتم) يعني ايها القوم (قوم مسرفون) اي مجاوزون الحلال الى الحرام وانما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لان الله تبارك وتعالى خلق الانسان وركب فيه شهوة لبقاء النسل وعمران الدنيا وجعل النساء محلا للشهوة وموضع النسل فاذا تركهن الانسان وعدل عنهن الى غيرهن من الرجال فكأنما قد اسرف وجاوز واعتدى لانه وضع الشيء في غير محله وموضعه الذي خلق له لان ادبار الرجال ليست محلا للولادة التي هي مقصودة بالشهوة المركبة في الانسان وكانت قصة قوم لوط على ما ذكره محمد بن اسحاق وغيره من اصحاب الاخبار والسير انه كانت قرى قوم لوط مخصبة ذات زروع وثمار لم يكن في الارض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم وضيقوا عليهم فعرض لهم ابليس في صورة شيخ فقال لهم ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فابوا فلما الح الناس عليهم قصدوهم فاصابوا غلمانا حسانا صباحا فاخبثوا واستحكم ذلك فيهم

قال ا... لا يكون ... الاعراب وقيل استحكم ذلك الفعل فيهم حتى نكح بعضهم بعضا وقال
الكلبي ... من عمل به ... ابليس وذلك لان بلادهم اخصبت فقصدها اهل البلدان
فتمثل لهم ... في صورة ... امرد ودعا الى نفسه فكان اول من نكح في دبره فامر الله تعالى
السماء ... والارض ... تخسف بهم * قوله عزوجل (وما كان جواب قومه)
يعني ... جواب قوم ... اذ وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ماحرم الله تعالى عليهم
من العمل ... (الا ان ...) يعني قال بعضهم لبعض (اخرجوهم من قريتكم) يعني
اخرجوا ... واتباعه ... من بلدكم (انهم اناس يتطهرون) يعني انهم اناس يتنزهون
عن فعل ... ادبار ... وضع النجاسة ومن تركها فقد تطهر وقيل ان البعد عن المعاصي
والآثام ... طهارة ... فقد تطهر فلهذا قال انهم اناس يتطهرون اي من فعل المعاصي
والآثام ... (فانجيناه واهله) يعني فانجينا لوطا ومن آمن به واتبعه على دينه وقيل المراد باهله
المتصلون ... وقيل المراد باهله ابنتاه (الا امرأته) يعني زوجته (كانت من
الغابرين) ... كانت ... في العذاب لانها كانت كافرة وقيل معناه كانت من الباقين
المعمرين ... عليها ... هلكت مع من هلك من قوم لوط وانما قال من الغابرين
ولم يقل ... ات لانها ... مع الرجال فغلب ذكر الرجال فقال من الغابرين (وامطرنا
عليهم ...) ... حجارة ... بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وامطرت وقال ابو عبيدة
يقال في ... الامطار ... رحمة مطرت (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) يعني انظر
يا محمد ... ن عاقبة ... الذين كذبوا بالله ورسوله وعملوا الفواحش كيف اهلكناهم قال
مجاهد ... جبريل عليه ... حل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء
ثم قلبها ... اعلاها ... امطروا بالحجارة وقوله فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وان كان
هذا ... النبي صلى ... سلم لكن المراد به غيره من امته ليعتبروا بما جرى على اولئك
فينزجروا ... عن الاعتبار ... الافعال القبيحة والفواحش الخبيثة * قوله عزوجل (والى مدين
اخاهم ...) يعني و ... مدين ... اكثر المفسرين على ان مدين اسم رجل وهو مدين بن
ابراهيم عليه الصلاة ... فعلى هذا يكون المعنى وارسلنا الى ولد مدين ومدين اسم
للقبيلة ... بنو تميم ... وبنو اسد وقيل مدين اسم للماء الذي كانوا عليه وقيل هو
اسم للمدينة ... يكون المعنى وارسلنا الى اهل مدين والصحيح هو الاول لقوله
اخاهم ... يعني في النسب ... ادريس وشعيب هو ابن ثويب بن مدين بن ابراهيم عليه الصلاة
والسلام ... عطاء وقال ... اسحق هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم
عليه السلام ... ام ميكيل ... لوط عليه السلام وقيل هو شعيب بن يثرون بن ثويب بن مدين بن ابراهيم
عليه السلام ... كان شعيب اعمى وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه
اهل ... في المكيال والميزان (قال) يعني شعيب (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله
غيره قد ... بينة من ربكم) يعني قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقيقة ماأقول وصدق
ماادعي من النبوة والرسالة الكبرى لانه لابد لكل نبي من معجزة تدل على صدق ما جاء به من
عند الله ... تلك المعجزة التي ... شعيب لم تذكر في القرآن وليست كل آيات الانبياء مذكورة
في القرآن وقيل اراد بالبينة مجيء شعيب بالرسالة اليهم وقيل اراد بالبينة الموعظة وهي قوله

سيئة يطيروا بموسى ومن
معه الا انما طائرهم عند الله
ولكن اكثرهم لايعلمون
وقالوا مهما تأتنا به من آية
لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين
فارسلنا عليهم الطوفان
والجراد والقمل والضفادع
والدم آيات مفصلات
فاستكبروا وكانوا قوما
مجرمين ولما وقع عليهم
الرجز قالوا ياموسى ادع لنا
ربك بما عهد عندك لئن
كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك
ولنرسلن معك بني اسرائيل
فلما كشفنا عنهم الرجز الى
اجل هم بالغوه اذا هم
ينكثون فانتقمنا منهم
فاغرقناهم في اليم بانهم
كذبوا بآياتنا وكانوا عنها
غافلين واورثنا القوم الذين
كانوا يستضعفون مشارق

(فاوفوا الكيل والميزان) يعني فاتموا الكيل والميزان واعطوا الناس حقوقهم * وهو قوله (ولاتبخسوا الناس اشياءهم) يعني لاتظلموا الناس حقوقهم ولاتنقصوهم اياها فتطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان في الكيل والوزن اذا نقصه وطففه (ولاتفسدوا في الارض بعد اصلاحها) يعني بعد ان اصلحها الله تعالى ببعثة الرسل واقامة العدل وكل نبي يبعث الى قوم فهو صلاحهم (ذلكم) يعني الذي ذكرت لكم وامرتكم به من الايمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس (خير لكم) يعني مما انتم عليه من الكفر وظلم الناس (ان كنتم مؤمنين) يعني ان كنتم مصدّقين بما اقول (ولاتقعدوا بكل صراط توعدون) يعني ان شعيبا قال لقومه الكفار ولاتقعدوا على كل طريق من الدين والحق تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك وذلك انهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوّفون من يريد الايمان بالله وبرسوله شعيب وهو قوله تعالى (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) يعني وتمنعون من يريد الايمان بالله وتقولون ان شعيبا كذاب وتخوّفونه بالقتل قال ابن عباس كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من اتى عليهم ان شعيبا الذي تريدونه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم (وتبغونها عوجا) يعني وتريدون اعوجاج الطريق عن الحق وعدولها عن القصد وقيل معناه وتلتمسون لها الزيغ والضلال ولاتستقيمون على طريق الهدى والرشاد (واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم) يعني ان شعيبا عليه الصلاة والسلام ذكرهم نعمة الله عليهم قال الزجاج يحتمل ذلك ثلاثة اوجه كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقوّة بعد الضعف ووجه ذلك انهم اذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل والمعنى انه كثركم بعد القلة واعزكم بعد الذلة فاشكروا نعمة الله تعالى عليكم وآمنوا به (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) يعني وانظروا نظر اعتبار مانزل بمن كان قبلكم من الامم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك واقرب الامم اليكم قوم لوط فانظروا كيف ارسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسله (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى ارسلت به وطائفة لم يؤمنوا) يعني وان اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين فرقة آمنت بي وصدقت برسالتي وفرقة كذبت وجحدت رسالتي (فاصبروا) فيه وعيد وتهديد (حتى يحكم الله بيننا) يعني حتى يقضي الله ويفصل بيننا فيعز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم (وهو خير الحاكمين) يعني انه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف في حكمه وانما قال خير الحاكمين لانه قد يسمى بعض الاشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم في الحقيقة فلهذا قال وهو خير الحاكمين (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعني قال الجماعة من اشراف قومه الذين تكبروا عن الايمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع شعيب (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا اولتعودن في ملتنا) يعني ان قوم شعيب اجابوه بان قالوا لابد من احد امرين اما اخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا اولترجعن الى ديننا وملتنا ومانحن عليه وهذا فيه اشكال وهو ان شعيبا عليه الصلاة والسلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع الى ماكان عليه فما معنى قوله اولتعودن في ملتنا واجيب عن هذا الاشكال بان اتباع شعيب كانوا قبل الايمان به على ملة اولئك الكفار فخاطبوا شعيبا واتباعه جميعا فدخل هو في الخطاب

الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال اغير الله ابغيكم الها وهو فضلكم على العالمين واذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها

وان لم يكن على ملتهم قط وقيل معناه لتصيرن الى ملتنا فوقع العود على معنى الابتداء كما تقول قد عاد على من فلان مكروه بمعنى قد لحقني منه ذلك وان لم يكن قد سبق منه مكروه فهو كما قال الشاعر

فان تكن الايام احسن مدة * الى فقد عادت لهن ذنوب

اراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد ان ذنوبا كانت لهن قبل الاحسان * وقوله تعالى (قال اولو كنا كارهين) اى لانعود فى ملتكم وان اكرهتمونا واجبرتمونا على الدخول فيها فلا نقبل ولاندخل (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) يعنى ان شعيبا اجاب قومه اذ دعوه ومن آمن به الى العود الى ملتهم والدخول فيها فقال قد افترينا يعنى قد اختلقنا على الله كذبا وتخرصنا عليه من القول باطلا ان نحن رجعنا الى ملتكم وقد علمنا فساد ما انتم عليه من الملة والدين وقد انقذنا الله وخلصنا منها وبصرنا خطأها وهذا ايضا فيه من الاشكال مثل ما فى الاول وهو ان شعيبا عليه الصلاة والسلام ما كان فى ملتهم قط حتى يقول ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها والجواب عنه مثل ما اجيب عن الاشكال الاول وهو ان نقول ان الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة الا ان شعيبا نظم نفسه فى جملتهم وان كان بريأ مما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب وقيل معنى نجانا الله منها علمنا قبح ملتكم وفسادها فكأنه خلصنا منها * وقوله تعالى اخبارا عنه (وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا) يعنى وما يكون لنا ان نرجع الى ملتكم ونترك الحق الذى نحن عليه الا ان يشاء الله ربنا يعنى الا ان يكون قد سبق لنا فى علم الله ان نعود فيها فحينئذ يمضى قضاء الله وقدره فينا وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدى معنى العود هنا الابتداء والذى عليه اهل العلم والسنة فى هذه الآية ان شعيبا واصحابه قالوا ما كنا لنرجع الى ملتكم بعد ان وقفنا على انها ضلالة تكسب دخول النار الا ان يريد الله اهلاكنا فامورنا راجعة الى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء بالطاعة ويشقى من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله ولم تزل الانبياء والاكابر يخافون العاقبة وانقلاب الامر الا ترى الى قول الخليل عليه الصلاة والسلام واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قال الزجاج رحمه الله تعالى المعنى وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يكون قد سبق فى علم الله ومشيئته ان نعود فيها وتصديق ذلك قوله (وسع ربنا كل شئ علما) يعنى انه تعالى يعلم ما يكون قبل ان يكون وما سيكون وانه تعالى كان عالما فى الازل بجميع الاشياء فالسعيد من سعد فى علم الله تعالى والشقى من شقى فى علم الله تعالى (على الله توكلنا) اى على الله نعتمد واليه نستند فى امورنا كلها فانه الكافى لمن توكل عليه والمعنى على الله توكلنا لا على غيره فكأنه ترك الاسباب ونظر الى مسبب الاسباب (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) لما ايس شعيب من ايمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح اى اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعنى بالعدل الذى لاجور فيه ولاظلم ولاحيف (وانت خير الفاتحين) يعنى خير الحاكمين قال الفراء ان اهل عمان يسمون القاضى الفاتح والفتاح وقال غيره من اهل اللغة هى لغة مراد وانشد لبعضهم فى ذلك

بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة وقال موسى لاخيه هرون اخلفنى فى قومى واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) قيل امره بصوم ثلاثين فلما اتم انكر خلوف فمه فتسوك فعاتبه الله على ذلك وأمره بزيادة عشر وقيل امره بان يتقرب اليه بما تقرب به فى الثلاثين وانزل اليه التوراة فى العشر الاخير تتمة الاربعين فالاول اشارة الى انه خلص عن حجاب الافعال والصفات

الا ابلغ بنى عصم رسولا * فانى عن فتى حكم غنى

اراد انه غنى عن حاكمهم وقاضيهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما ماكنت ادرى مامعنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول تعالى افاتحك يعنى اقاضيك وهذا قول قتادة والسدى وابن جريج وجمهور المفسرين ان الفاتح هو القاضى والحاكم سمى بذلك لانه يفتح اغلاق الاشكال بين الخصوم ويفصلها وقال الزجاج وجائز ان يكون معناه ربنا اظهر امرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف والمراد منه ان ينزل عليهم عذابا يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتمييز (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا) يعنى وقال جماعة من اشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وملتكم وما انتم عليه (انكم اذا لخاسرون) يعنى انكم لمغبونون فى فعلكم (فأخذتهم الرجفة) يعنى الزلزلة الشديدة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) قال ابن عباس وغيره فتح الله عليهم بابا من جهنم فأرسل عليهم حرا شديدا من جهنم فاخذ بانفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا فى الاسراب ليبردوا فيها فوجدوها اشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فاظلتهم وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم الهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الارض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد فى القلى وصاروا رمادا وروى ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة ايام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا بها وقال قتادة بعث الله شعيبا الى اصحاب الايكة والى اهل مدين فاما اصحاب الايكة فاهلكوا بالظلة واما اهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة هلكوا جميعا قال ابو عبد الله البجلى كان ابو جاد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب يوم الظلة اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا تبكيه وترثيه به كلمن هدم ركنى * هلكه وسط المحله

سيد القوم اتاه * هلك نار تحت ظله * جعلت نارا عليهم * دارهم كالمضمحله

* وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها) يعنى كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان اى اقمت به والمغانى المنازل التى بها اهلها واحدها مغنى قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الاوتاد

ارادوا اقاموا فيها وقيل فى معنى الآية كان لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال غنى الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) يعنى خسروا انفسهم بهلاكهم (فتولى عنهم) يعنى فاعرض عنهم شعيب شاخصا من بين اظهرهم حين اتاهم العذاب (وقال ياقوم لقد ابلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) يعنى انه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب او بعده على قولين سبقا فى قصة صالح عليه الصلاة والسلام * وقوله (فكيف آسى) يعنى احزن (على قوم كافرين) والاسى اشد الحزن وانما اشتد حزنه على قومه لانهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الاجابة والايمان فلما نزل بهم مانزل من العذاب عزى نفسه فقال كيف احزن على قوم كافرين لانهم هم الذين اهلكوا

(انفسهم)

والذات فى الثلاثين لكن بقى منه بقية ماخلص عن وجودها واستعمال السواك اشارة الى ظهور تلك البقية عند قوله (قال رب ارنى انظر اليك) والثانى اشارة الى انه بلغ الشهود الذاتى التام فى الثلاثين بالسلوك الى الله ولم يبق منه بقية بل فنى بالكلية وتم فى العشر الاخير سلوكه فى الله حتى رزق البقاء بالله بعد الفناء بالافاقة وعلى هذا ينبغى ان يكون قوله رب ارنى انظر اليك كان قد صدر عنه فى الثلاثين والافاقة بعدها فى تتمة الاربعين وكلمه ربه التكليم فى مقام تجلى الصفات وقوله رب ارنى انظر اليك بدر عن افراط شوق منه الى شهود الذات فى مقام فناء الصفات مع

انفسهم باصرارهم على الكفر وقيل فى معنى الآية ان شعيبا قال لقد اعذرت اليكم فى الابلاغ والنصيحة والتحذير فلم تسمعوا قولى ولم تقبلوا نصحى فكيف احزن عليكم يعنى انكم لستم مستحقين لان يحزن عليكم فعلى القول الاول انه حصل لشعيب حزن على قومه وعلى الثانى لم يحزن عليهم والله اعلم * وقوله تعالى (وما ارسلنا فى قرية من نبى) فيه اضمار وحذف تقديره فكذبوه (الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء) قال ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وهو معنى قول الزجاج فانه قال البأساء كل ما نالهم من الشدة فى اموالهم والضراء كل ما نالهم من الامراض وقيل البأساء الشدة وضيق العيش والضراء الضر وسوء الحال (لعلهم يضرعون) يعنى انما فعلنا بهم ذلك لكى يتضرعوا ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد لامر الله عز وجل والمراد من هذه الآية ان الله عز وجل لما عرّف نبيه صلى الله عليه وسلم احوال الانبياء مع اممهم المكذبة وقص عليه من اخبارهم وعرّفه سنته فى الامم الذين خلوا من قبله وما صاروا اليه من الهلاك والعذاب عرّفه فى هذه الآية انه قد ارسل رسلا الى امم اخر فكذبوا رسلهم فأخذهم بالبأساء والضراء كما فعل بمن كذب رسله وفيه تخويف وتحذير لكفار قريش وغيرهم من الكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى انه لا يجرى تدبيره فى اهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة انما يدبرهم بما يكونون الى الايمان اقرب وهو قوله تعالى (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) لان ورود النعمة على البدن والمال بعد الشدة والضيق يستدعى الانقياد للطاعة والاشتغال بالشكر قال اهل اللغة السيئة كل ما يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فالسيئة والحسنة هنا الشدة والرخاء والمعنى انه تعالى بدل مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة فى الابدان فأخبر الله تعالى فى هذه الآية انه يأخذ اهل المعاصى والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله (حتى عفوا) يعنى انه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت اموالهم يقال عفا الشعر اذا كثر وطال قال مجاهد حتى كثرت اموالهم واولادهم (وقالوا) يعنى من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا الى الرخاء والسعة (قد مس آباءنا الضراء والسراء) يعنى انهم قالوا هكذا عادة الدهر قديما وحديثا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما انتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فانهم لم يتركوا دينهم لما اصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى (فأخذناهم بغتة) يعنى اخذناهم فجاءة آمن ما كانوا ليكون ذلك اعظم لحسرتهم (وهم لا يشعرون) يعنى بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب * قوله عز وجل (ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا) لما بين الله تعالى فى هذه الآية الاولى ان الذين عصوا وتمردوا اخذهم بعذابه بين فى هذه الآية انهم لو آمنوا يعنى بالله وبرسله واطاعوه فيما امرهم به واتقوا يعنى ما نهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم (لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) فبركات السماء المطر وبركات الارض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والانعام والارزاق والامن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى واحسانه على عباده واصل البركة ثبوت الخير الالهى فى الشئ وسمى المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة فى نبات الارض لانه نشأ عن بركات السماء وهى المطر وقال البغوى اصل البركة المواظبة على الشئ اى تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الارض ورفعنا عنهم القحط والجدب (ولكن كذبوا)

وجود البقية (وقال لن ترانى) اشارة الى استحالة الاثنينية وبقاء الانية فى مقام المشاهدة كقوله * اذا تغيبت بدا * وان بدا غيبنى * وقوله رايت ربى بعين ربى (ولكن انظر الى الجبل) اى جبل وجودك (فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل) امكنت رؤيتك اياى وذلك من باب التعلق بالمحال (جعله دكا) اى متلاشيا لا وجود له اصلا (وخر موسى) عن درجة الوجود فانيا (فلما افاق) بالوجود الموهوب الحقانى عند البقاء بعد الفناء (قال سبحانك) ان تكون مرئيا لغيرك مدركا لابصار الحدثان (تبت اليك) عن

يعنى الرسل (فأخذناهم) يعنى بانواع العذاب (بما كانوا يكسبون) يعنى اخذناهم بكسبهم الاعمال الخبيثة ❊ قوله تعالى (افأمن اهل القرى) هواستفهام بمعنى الانكار بسبب وفيه وعيد وتهديدوزجر والمراد بالقرى مكة وماحولها وقيل هوعام فى كل اهل القرى الذين كفروا وكذبوا (ان يأتيهم بأسنا) يعنى عذابنا (بياتا) يعنى ليلا (وهم نائمون اوامن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى) يعنى نهارا لان الضحى صدر النهار (وهم يلعبون) يعنى وهم ساهون لاهون غافلون عما راد بهم والمقصود من الآية ان الله خوفهم بنزول العذاب وهم فى غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار لانه الوقت الذى يغلب على الانسان التشاغل فيه بامور الدنيا وامور الدنيا كلها لعب ويحتمل ان يكون المراد خوضهم فى كفرهم وذلك لعب ايضا لانه يضر ولا ينفع (افأمنوا مكر الله) يعنى استدراجه اياهم بما انعم عليهم من الدنيا وقيل المراد به ان يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون وعلى هذا الوجه فيكون بمعنى التحذير وسمى هذا العذاب مكرا لنزوله وهم فى غفلة عنه لا يشعرون به (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) يعنى انه لا يأمن ان يكون ما اعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجا الا من خسر فى اخراه وهلك مع الهالكين (اولم يهد) يعنى اولم يبين (للذين يرثون الارض من بعد) هلاك (اهلها) الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها (ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم) يعنى لو نشاء اخذناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم (ونطبع) اى ونختم (على قلوبهم فهم لا يسمعون) يعنى لا يسمعون موعظة ولا يقبلون الايمان وقطع منقطع عما قبله والمعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز ان يكون معطوفا على الماضى ولفظه لفظ المستقبل والمعنى ولو شئنا طبعنا على قلوبهم (تلك القرى) يعنى هذه القرى التى ذكرنا لك يا محمد امرها وامر اهلها وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (نقص عليك من انبائها) يعنى نخبرك عنها وعن اخبار اهلها وما كان من امرهم وامر رسلهم الذين ارسلوا اليهم لتعلم يا محمد انا لننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على اعدائنا واعدائهم من اهل الكفر والعناد وكيف اهلكناهم بكفرهم وبمخالفتهم رسلهم ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش ان يصيبهم مثل ما اصابهم (ولقد جاءتهم) يعنى لاهل تلك القرى (رسلهم بالبينات) يعنى جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) اختلف اهل التفسير فى معنى ذلك فقيل معناه فما كان هؤلاء المشركون الذين اهلكناهم من اهل القرى ليؤمنوا عند ارسالنا اليهم رسلهم بما كذبوا من قبل ذلك وهو يوم اخذ ميثاقهم حين اخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فاقروا باللسان واضمروا التكذيب وهذا معنى قول ابن عباس والسدى قال السدى آمنوا كرها يوم اخذ الميثاق وقال مجاهد فما كانوا لو احييناهم بعد اهلاكهم ومعاينتهم العذاب ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم وقيل معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجيئ الرسل بما سبق لهم فى علم الله انهم يكذبون به حين اخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال ابى بن كعب كان سبق لهم فى علمه يوم اقروا له بالميثاق انهم لا يؤمنون به وقال الربيع بن انس يحق على العباد ان يأخذوا من العلم ما ابدى لهم ربهم وان لا يتأولوا علم ما اخفى الله تعالى عنهم فان علمه نافذ فيما كان وفيما يكون وفى ذلك قال تعالى ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين قال نفذ علمه فيهم

ذنب البقية (وانا اول المؤمنين) بحسب الرتبة لا بحسب الزمان اى انا فى الصف الاول من صفوف مراتب الارواح الذى هو مقام اهل الوحدة وذلك مقام الاصطفاء المحض وقوله (قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) هو اول درجة الاستنباء بعد الولاية (فخذ ما آتيتك) بالتمكين (وكن من الشاكرين) بالاستقامة فى القيام بحق العبودية كما قال النبى عليه السلام اولا اكون عبدا شكورا (وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ) اى الالواح تفاصيل وجود موسى من روحه وقلبه وعقله وفكره وخياله والقوها عند الغضب هو الذهول

ايهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال الطبري واولى الاقوال بالصواب قول ابيّ بن كعب والربيع بن انس وذلك ان من سبق في علم الله انه لايؤمن به فلايؤمن ابدا وقدكان سبق في علم الله لمن هلك من الامم الذين قص خبرهم في هذه السورة انهم لايؤمنون ابدا فاخبر عنهم انهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به في سابق علمه قبل مجئ الرسل عند مجيئهم اليهم (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) يعني كما طبع الله على قلوب كفار الامم الخالية واهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم انهم لايؤمنون من قومك (وماوجدنا لاكثرهم من عهد) يعني وماوجدنا لاكثر الامم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يامحمد من الوفاء بالعهد الذي عهدناه اليهم واوصيناهم به يوم اخذ الميثاق قال ابن عباس انما اهلك الله اهل القرى لانهم لم يكونوا حفظوا ماوصاهم به (وان وجدنا اكثرهم لفاسقين) اي وماوجدنا اكثرهم الافاسقين خارجين عن طاعتنا وامرنا ❊ قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعني ثم بعثنا بعد الانبياء الذين تقدم ذكرهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام (موسى بآياتنا) يعني بحججنا وادلتنا الدالة على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك من الآيات التي جاءبها موسى عليه الصلاة والسلام (الى فرعون وملئه) قيل ان كل من ملك مصر كان يسمى فرعون في ذلك الزمان مثل ماكان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي ارسل اليه موسى عليه الصلاة والسلام الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط والملأ اشراف قومه وانما خصوا بالذكر لانه اذا آمن الاشراف آمن الاتباع (فظلموا بها) يعني بجحدوا بها لان الظلم وضع الشئ في غير موضعه وكانت هذه الآيات معجزات ظاهرة قاهرة فكفروا بها ووضعوا الكفر موضع الايمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) اي انظر يامحمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف اهلكناهم (وقال موسى يافرعون اني رسول من رب العالمين) يعني ان موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على فرعون دعاه الى الله تعالى والى الايمان به وقال له اني رسول اي مرسل اليك والى قومك من رب العالمين يعني ان الله الذي خلق السموات والارض وخلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم هو الذي ارسلني اليك (حقيق) اي واجب (على ان لااقول على الله الا الحق) يعني اني رسول والرسول لايقول على الله الا الحق في وصفه وتنزيهه وتوحيده وانه لااله غيره (قدجئتكم ببينة من ربكم) يعني ببرهان على صدقي فيما ادعى من الرسالة والمراد ببينته معجزته وهي العصا واليد البيضاء ثم ان موسى عليه الصلاة والسلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم فقال موسى (فارسل معي بني اسرائيل) يعني خل عنهم واطلقهم من اسرك وكان فرعون قداستعبد بني اسرائيل واستعملهم في الاعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك من الاعمال الشاقة (قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين) يعني ان فرعون قال لموسى عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ الرسالة ان كنت جئت من عند من ارسلك ببينة تدل على صدقك فأتني بها واحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك فيما قلت (فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين) اي بين والثعبان الذكر من الحيات وصفه هنا بانه ثعبان والثعبان من الحيات العظيم الضخم ووصفه

عنها والتجافي عن حكم مافيها كما يحكم احدنا بحسن الحلم والتحمل للاذى ثم ينسى عند سورة الغضب ولايتذكر شيا مما في عقله من علمه عند ظهور نفسه (فخذها بقوة) اي بعزيمة لتكون من اولى العزم (وأمر قومك يأخذوا باحسنها) اي بالعزائم دون الرخص (ساريكم دار الفاسقين) اي عاقبة الذين لايأخذون بها (ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق) لان التكبر من صفات النفس فهم في مقام النفس محجوبون عن آيات الصفات التي تكون في مقام القلب دون المتكبرين بالحق الذين اتصفوا بصفة الكبرياء في مقام المحو والفناء فقام

فى آية اخرى بانه جان والجان الحية الصغيرة والجمع بين هذين الوصفين انها كانت فى عظم الجثة كالثعبان العظيم وفى خفة الحركة كالحية الصغيرة وهى الجان قال ابن عباس والسدى ان موسى لما القى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت من الارض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الاسفل فى الارض ولحيها الاعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا واحدث وقيل انه احدث فى ذلك اليوم اربعمائة مرة وقيل انها اخذت قبة فرعون بين انيابها وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا وقتل بعضهم بعضا فمات منهم فى ذلك اليوم خمسة وعشرون الفا ودخل فرعون البيت وصاح ياموسى انشدك بالذى ارسلك ان تأخذها وانا اومن بك وارسل معك بنى اسرائيل فعادت فى يده عصا كما كانت * وفى كون الثعبان مبينا وجوه * الاول انه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس وبذلك تميز معجزات الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن تمويه السحرة وتخييلهم * الوجه الثانى انهم شاهدوا العصا قد انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم فلذلك قال ثعبان مبين اى بين * الوجه الثالث ان ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام كان من اعظم الآيات التى ابانت صدق قول موسى عليه الصلاة والسلام فى انه رسول من رب العالمين * وقوله تعالى (ونزع يده) النزع فى اللغة عبارة عن اخراج الشئ عن مكانه والمعنى انه اخرج يده من جيبه او من تحت جناحه (فاذا هى بيضاء للناظرين) قال ابن عباس وغيره اخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص وقيل ان موسى عليه الصلاة والسلام ادخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه وقيل اخرج يده من تحت ابطه فاذا هى بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى عليه الصلاة والسلام آدم اللون ثم ردها الى جيبه فاخرجها فاذا هى كما كانت ولما كان البياض المفرط عيبا فى الجسد وهو البرص قال الله تعالى فى آية اخرى بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص والمعنى فاذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة يتعجب منه

* (فصل فى بيان المعجزة وكونها دليلا على صدق الرسل) * اعلم ان الله تبارك وتعالى كان قادرا على خلق المعرفة والايمان فى قلوب عباده ابتداء من غير واسطة ولكن ارسل اليهم رسلا تعرفهم معالم دينه وجميع تكليفاته وذلك الرسول واسطة بين الله عز وجل وبين عباده يبلغهم كلامه ويعرفهم احكامه وجائز ان تكون تلك الواسطة من غير البشر كالملائكة مع الانبياء وجائز ان تكون الواسطة من جنس البشر كالانبياء مع اممهم ولا مانع لهذا من جهة العقل واذا جاز هذا فى دليل العقل وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دلت على صدقهم فوجب تصديقهم فى جميع ما اتوا به لان المعجزة مع التحدى من النبى قائم مقام قول الله عز وجل صدق عبدى فاطيعوه واتبعوه ولان معجزة النبى شاهد على صدقه فيما يقوله وسميت المعجزة معجزة لان الخلق عجزوا عن الاتيان بمثلها وهى على ضربين فضرب منها هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فعجزهم عنه دل على انه من فعل الله ودل على صدق النبى صلى الله وسلم كتمنى الموت فى قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم انه من عند الله ودل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم الضرب الثانى ماهو خارج عن قدرة البشر كاحياء الموتى

كبرياؤه تعالى مقام تكبرهم كما قال جعفر الصادق عليه السلام فى جواب من قال له فيك كل فضيلة الا انك متكبر فقال لست بمتكبر ولكن كبرياء الله تعالى قام منى مقام التكبر (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) اى ستروا بصفاتهم صفاتنا وبافعالهم افعالنا فوقفوا مع الآثار وعموا عن لقاء الآخرة وجنة النفوس والافعال (حبطت اعمالهم) ولو كان التكذيب بالصفات مجردا عن التكذيب بلقاء الآخرة

وقلب العصا حية واخراج ناقة من صخرة وكلام الشجر والجماد والحيوان ونبع الماء من بين الاصابع وغير ذلك من المعجزات التى يعجز البشر عن مثلها فاذا اتى النبي بشئ من تلك المعجزات الخارقة للعادات علم ان ذلك من عند الله وان الله عز وجل هو الذى اظهر ذلك المعجز على يد نبيه ليكون حجة له على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع ان الله تعالى قادر على خلق الاشياء وابداعها من غير اصل سبق لها واخراجها من العدم الى الوجود وانه قادر على قلب الاعيان وخوارق العادات والله تعالى اعلم * قوله عز وجل (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا) يعني موسى (لساحر عليم) يعني انه ليأخذ باعين الناس حتى يخيل لهم ان العصا صارت حية ويرى الشئ بخلاف ماهو عليه كما اراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وانما قالوا ذلك لان السحر كان هو الغالب فى ذلك الزمان فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا ان هذا لساحر عليم * فان قلت قد اخبر الله تعالى فى هذه السورة ان هذا الكلام من قول الملا لفرعون وقال فى سورة الشعراء وقال فرعون للملا حوله ان هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما قلت لا يمتنع ان يكون قاله فرعون اولا ثم انهم قالوه بعده فاخبر الله تعالى عنهم هنا واخبر عن فرعون فى سورة الشعراء وقيل يحتمل ان فرعون قال هذا القول ثم ان الملا من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم انهم بلغوه الى العامة فاخبر الله عز وجل هنا عن الملا واخبر هناك عن فرعون * وقوله (يريد ان يخرجكم من ارضكم) يعني يريد موسى ان يخرجكم ايها القبط من ارض مصر (فماذا تأمرون) يعني فاى شئ تشيرون ان نفعل به وقيل ان قوله فماذا تأمرون من قول الملا لان كلام فرعون تم عند قوله يريد ان يخرجكم من ارضكم فقال الملاء مجيبين لفرعون فماذا تأمرون وانما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك فى التعظيم والتفخيم والمعنى فاترون ان نفعل به والقول الاول اصح لسياق الآية التى بعدها وهو قوله تعالى (قالوا ارجه واخاه) يعني اخر امرهما ولا تعجل فيه فتصير عجلتك عليك لا لك والارجاء التأخير فى اللغة وقيل معنى ارجئه احبسه واخاه وهذا القول ضعيف لان الارجاء فى اللغة هو التأخير لا الحبس ولان فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد ان راى من امر العصا ماراى (وارسل فى المدائن) جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان اى اقام به يعني مدائن صعيد مصر (حاشرين) يعني رجالا يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد والمعنى انهم قالوا لفرعون ارسل الى هذه المدائن رجالا من اعوانك وهم الشرط يحشرون اليك من فيها من السحرة وكان رؤساء السحرة باقصى مدائن الصعيد فان غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وان غلبوه علمنا انه ساحر فذلك قوله (ياتوك) يعني الشرط (بكل ساحر) وقرئ سحار والفرق بين الساحر والسحار ان الساحر هو المبتدى فى صناعة السحر فيتعلم ولا يعلم والسحار هو الماهر الذى يتعلم منه السحر وقيل الساحر من يكون سحره وقتا دون وقت والسحار الذى يدوم سحره ويعمل فى كل وقت (عليم) يعني ماهر بصناعة السحر وقال ابن عباس رضى الله عنهما وابن اسحق والسدى ان فرعون لما راى من سلطان الله وقدرته فى العصا قال انا لانقاتل موسى الا بمن هو اشد منه سحرا فاتخذ غلمانا من بنى اسرائيل وبعث بهم الى مدينة يقال لها الفرماء يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كثيرا وواعد فرعون

لما حبطت اعمالهم وان عذبوا حينا بنوع من العذاب (هل يجزون الا ما كانوا يعملون واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار الم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط فى ايديهم وراوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ولما رجع موسى الى قومه غضبان اسفا قال بئس ما خلفتمونى من بعدى اعجلتم امر ربكم والقى الالواح واخذ برأس اخيه يجره اليه قال ابن ام

موسى موعدا ثم بعث الى السحرة فجاؤا ومعهم معلمهم فقال فرعون للمعلم ماذا صنعت قال قد علمتهم سحرا لا يطيقه سحر اهل الارض الا ان يكون امرا من السماء فانه لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك ساحرا الا اتى به واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بني اسرائيل وقال الكلبي كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من اهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الاحبار كانوا اثني عشر الفا وقال محمد بن اسحق كانوا خمسة عشر الفا وقال عكرمة كانوا سبعين الفا وقال محمد بن المنكدر كانوا ثمانين الفا وقال السدى كانوا بضعا وثمانين الفا ويقال رئيس القوم شمعون وقيل يوحنا ❊ قوله عز وجل (وجاء السحرة فرعون) يعني لما اجتمعوا وجاؤا الى فرعون (قالوا ان لنا لاجرا) يعني جعلا وعطاء تكرمنا به (ان كنا نحن الغالبين) يعني لموسى قال الامام فخر الدين الرازى ولقائل ان يقول كان حق الكلام ان يقول وجاء السحرة فرعون فقالوا بالفاء وجوابه هو على تقدير سائل سأل ماقالوا اذ جاؤا فاجيب بقوله قالوا ان لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين يعني لموسى (قال نعم) يعني قال لهم فرعون لكم الاجر والعطاء (وانكم لمن المقربين) يعني ولكم المنزلة الرفيعة عندى مع الاجر والمعنى ان فرعون قال للسحرة انى لا اقتصر معكم على الاجر بل ازيدكم عليه وتلك الزيادة انى اجعلكم من المقربين عندى قال الكلبي تكونون اول من يدخل علي وآخر من يخرج من عندى (قالوا) يعني السحرة (يا موسى اما ان تلقى) يعني عصاك (واما ان نكون نحن الملقين) يعني عصينا وحبالنا في هذه الآية دقيقة لطيفة وهي ان السحرة راعوا مع موسى عليه الصلاة والسلام حسن الادب حيث قدموه على انفسهم في الالقاء لاجرم ان الله عز وجل عوضهم حيث تادبوا مع نبيه موسى صلى الله عليه وسلم ان منّ عليهم بالايمان والهداية ولما راعوا الادب اولا واظهروا ما يدل على رغبتهم في ذلك (قال) يعني قال لهم موسى (القوا) يعني انتم فقدمهم على نفسه في الالقاء * فان قلت كيف جاز لموسى ان يأمر بالالقاء وقد علم انه سحر وفعل السحر غير جائز * قلت ذكر العلماء رحمهم الله تعالى فيه اجوبة احدها ان معناه ان كنتم محقين في فعلكم فالقوا والا فلا تلقوا الجواب الثاني انما امرهم بالالقاء لتظهر معجزته لانهم اذا لم يلقوا حبالهم وعصيهم لم تظهر معجزة موسى في عصاه الجواب الثالث ان موسى علم انهم لابد ان يلقوا تلك الحبال والعصى وانما وقع التخيير في التقديم والتأخير فأذن لهم في التقديم لتظهر معجزته ايضا بغلبهم لانه لو التى اولا لم يكن له غلب وظهور عليهم فلهذا المعنى امرهم بالالقاء اولا (فلما القوا) يعني حبالهم وعصيهم (سحروا اعين الناس) يعني صرفوا اعين الناس عن ادراك حقيقة مافعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو السحر وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام التي هي فعل الله وذلك لان السحر قلب الاعين وصرفها عن ادراك ذلك الشيء والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية تسعى (واسترهبوهم) يعني ارهبوهم وافزعوهم بما فعلوه من السحر وهذا قوله تعالى (وجاؤا) يعني السحرة (بسحر عظيم) وذلك انهم القوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هي حيات كامثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا ويقال انهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقا ايضا

ابن ام ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين قال رب اغفر لي ولاخي وادخلنا في رحمتك وانت ارحم الراحمين ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحيوة الدنيا وكذلك نجزى المفترين والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون واختار موسى قومه سبعين رجلا

والقوها على الارض فلما اثرحر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس انها حيات ويقال ان الارض كانت سعتها ميلا فى ميل فصارت كلها حيات وافاعى ففزع الناس من ذلك واوجس فى نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه الصلاة والسلام لاجل سحرهم لانه عليه الصلاة والسلام كان على يقين وثقة من الله تعالى انهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالما بان كل ما اتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى من ذلك بل كان خوفه عليه الصلاة والسلام لاجل فزع الناس واضطرابهم مما راوا من امر تلك الحيات فخاف موسى عليه الصلاة والسلام ان يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك اوجس فى نفسه خيفة موسى * قوله تعالى (واوحينا الى موسى ان الق عصاك) يعنى فالقاها (فاذاهى تلقف) يعنى تبتلع (ما يأفكون) يعنى ما يكذب فيه السحرة لان اصل الافك قلب الشئ عن غير وجهه ومنه قيل للكذاب افاك لانه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح الى الباطل قال المفسرون اوحى الله عز وجل الى موسى عليه الصلاة والسلام ان لا تخف والق عصاك فالقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الافق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فاذاهى تلقف يعنى تبتلع كل شئ اتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك الجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات من ذلك الزمان خمسة وعشرون الفا ثم اخذها موسى عليه الصلاة والسلام فصارت فى يده عصا كما كانت اول مرة فلما راى السحرة ذلك عرفوا انه من امر السماء وليس بسحر وعرفوا ان ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى (فوقع الحق) يعنى فظهر الحق الذى جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) يعنى من السحر وذلك ان السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما نفدت وتلاشت فى عصا موسى علموا ان ذلك من امر الله وقدرته (فغلبوا هنالك) يعنى فعند ذلك غلب فرعون وسحرته وجموعه (وانقلبوا صاغرين) يعنى ورجعوا ذليلين مقهورين (والقى السحرة ساجدين) يعنى ان السحرة لما عاينوا من عظيم قدرة الله تعالى ما ليس فى قدرتهم مقابلته وعلموا انه ليس بسحر خروا لله ساجدين وذلك ان الله عز وجل الهمهم معرفته والايمان به (قالوا آمنا برب العالمين) فقال فرعون اياى تعنون فقالوا لا (رب موسى وهرون) قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة تؤمن بى ان غلبتك فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتنى لاومنن بك وقيل ان الحبال والعصى التى كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصى موسى كلها قال بعضهم لبعض هذا امر خارج عن حد السحر وما هو الا من امر السماء فآمنوا به وصدقوه * فان قلت كان يجب ان ياتوا بالايمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الايمان * قلت لما قذف الله عز وجل فى قلوبهم الايمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على هدايتهم اليه وعلى ما الهمهم من الايمان بالله وتصديق رسوله ثم اظهروا بعد ذلك ايمانهم وقيل لما راوا اعظيم قدرة الله تعالى وسلطانه فى امر العصا وانه ليس يقدر على ذلك احد من البشر وزالت كل شبهة كانت فى قلوبهم بادروا الى السجود لله تعظيما لشأنه لما راوا من عظيم قدرته ثم انهم اظهروا الايمان باللسان قال

(ابن عباس)

لميقاتنا) من اشرافهم ونجبائهم اهل الاستعداد وصفاء النفس والارادة والطلب والسلوك وهم المصعوقون فى قوله فاخذتهم الصاعقة (فلما اخذتهم الرجفة) اى رجفة جبل البدن التى هى من مبادى صعقة الفناء عند طيران بوارق الانوار وظهور طوالع تجليات الصفات من اقشعرار الجسد وتأثره وارتعاده بها ولهذا قال موسى عندها (قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى) اذ لا قوة لموسى عند الصعقة ولا لهم لفنائهم عندها وقوله رب لو شئت كلمة ضجر وفقدان صبر من

ابن عباس رضى الله عنهما لما رأت السحرة ما رأت عرفت ان ذلك من امر السماء وليس بسحر فخروا سجدا وقالوا آمنا رب العالمين رب موسى وهرون * قوله عز وجل (قال فرعون آمنتم به قبل ان آذن لكم) يعنى قال فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه قبل ان آمركم به وآذن لكم فيه (ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة) يعنى ان هذا الصنع الذى صنعتموه انتم وموسى فى مدينة مصر قبل خروجكم الى هذا الموضع وذلك ان فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون ان موسى وكبير السحرة قد تواطآ عليه وعلى اهل مصر وهو قوله (لتخرجوا منها اهلها) وتستولوا عليها انتم (فسوف تعلمون) فيه وعيد وتهديد يعنى فسوف تعلمون ما افعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد فقال (لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف) وهو ان تقطع احدى اليدين واحدى الرجلين فيخالف بينهما فى القطع (ثم لاصلبنكم اجمعين) يعنى على شاطئ نيل مصر قال ابن عباس رضى الله عنهما اوّل من صلب واوّل من قطع الايدى والارجل فرعون (قالوا) يعنى مجيبين لفرعون حين وعدهم بالقتل (انا الى ربنا منقلبون) يعنى انا الى ربنا راجعون واليه صائرون فى الآخرة (وما تنقم منا) وما تكره منا وما تطعن علينا وقال عطاء معناه ومالنا عندك من ذنب تعذبنا عليه (الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) ثم فزعوا الى الله تعالى وسألوه الصبر على تعذيب فرعون اياهم فقالوا (ربنا افرغ علينا صبرا) اى اصبب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا اتى بلفظ التنكير يعنى صبرا واى صبر عظيم (وتوفنا مسلمين) يعنى واقبضنا على دين الاسلام وهو دين خليلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى اوّل النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء قال الكلبى ان فرعون قطع ايديهم وارجلهم وصلبهم وقال غيره انه لم يقدر عليهم لقوله تعالى لا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون * قوله تعالى (وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى) يعنى وقال جماعة من اشراف قوم فرعون لفرعون اتدع موسى (وقومه) من بنى اسرائيل (ليفسدوا فى الارض) يعنى ارض مصر واراد بالافساد فيها انهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قوله (ويذرك وآلهتك) يعنى وتذره ليذرك ويذر آلهتك فلا يعبدك ولا يعبدها قال ابن عباس رضى الله عنهما كانت لفرعون بقرة كان يعبدها وكان اذا رأى بقرة حسنة امرهم بعبادتها ولذلك اخرج لهم السامرى عجلا وقال السدى كان فرعون قد اتخذ لقومه اصناما وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم انا ربكم ورب هذه الاصنام وذلك قوله انا ربكم الاعلى والاولى ان يقال ان فرعون كان دهريا منكرا لوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلى هى الكواكب فاتخذ اصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول فى نفسه انه هو المطاع والمخدوم فى الارض فلهذا قال انا ربكم الاعلى وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه وابن عباس والشعبى والضحاك ويذرك والهتك بكسر الالف ومعناه ويذرك وعبادتك فلا يعبدك لان فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل اراد بالآلهة الشمس والكواكب لانه كان يعبدها قال الشاعر   تروحنا من اللعباء قصرا واعجلنا الالاهة ان تؤبا

اراد بالالاهة الشمس (قال) يعنى فرعون مجيبا لقومه حين قالوا له اتذر موسى وقومه (سنقتل ابناءهم ونستحيى نساءهم) يعنى نتركهن احياء وذلك ان قوم فرعون لما ارادوا اغراء فرعون على قتل موسى وقومه اوجس موسى انزال العذاب بقومه ولم يقدر فرعون ان يفعل بموسى

غلبة الشوق عند الم الفراق كما قال محمد عليه السلام فى مثل هذه الحالة ليت امى لم تلدنى وكذا ليت رب محمد لم يخلق محمدا وهمّ بالقاء نفسه عن الجبل ولو هذه للتمنى (اتهلكنا) بطول الحجاب وعذاب الحرمان والم الفراق (بما فعل السفهاء منا) من عبادة عجل هوى النفس والاحتجاب بصفاتها او بما صدر منا حالة السفه قبل التيقظ والاستبصار وارادة السلوك وظهور نور البصيرة والاعتبار من الوقوف مع النفس وصفاتها (ان هى الا فتنتك) اى ما هذا الابتلاء

عليه الصلاة والسلام شيأ مما ارادوا به لقوة موسى عليه السلام بما معه من المعجزة فعدل الى قومه فقال سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان قد ترك القتل في بني اسرائيل بعد ماولد موسى فلما جاءهم موسى بالرسالة وكان من امره ما كان قال فرعون اعيدوا عليهم القتل فاعادوا القتل على بني اسرائيل والمعنى ان فرعون قال انما يتقوى موسى بقومه فنحن نسعى في تقليل عدد قومه بالقتل لتقل شوكته ثم بين فرعون انه قادر على ذلك بقوله (وانا فوقهم قاهرون) يعني بالغلبة والقدرة عليهم ولما نزل ببني اسرائيل ما نزل شكوا الى موسى ما نزل بهم (قال موسى لقومه) يعني لما شكوا اليه (استعينوا بالله واصبروا) يعني استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فان الله هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في انفسكم وابنائكم (ان الارض لله) يعني ارض مصر وان كانت الارض كلها لله تعالى (يورثها من يشاء من عباده) وهذا اطماع من موسى عليه الصلاة والسلام لبني اسرائيل ان يهلك فرعون وقومه ويملك بنو اسرائيل ارضهم وبلادهم بعد هلاكهم وهو قوله تعالى (والعاقبة للمتقين) يعني ان النصر والظفر للمتقين على عدوهم وقيل اراد الجنة يعني ان عاقبة المتقين الصابرين الجنة (قالوا اوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ما جئتنا) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما آمنت السحرة تبع موسى ستمائة الف من بني اسرائيل والمعنى ان بني اسرائيل لما سمعوا ما قاله فرعون ووعدهم به من القتل مرة ثانية قالوا لموسى قد اوذينا من قبل ان تأتينا يعني بالرسالة وذلك ان بني اسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه وكان يستعملهم في الاعمال الشاقة الى نصف النهار فلما جاء موسى بالرسالة وجرى ما جرى شدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار واعاد القتل عليهم فقالوا اوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ما جئتنا يعني بالرسالة وظاهر هذا الكلام يوهم ان بني اسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر والجواب عن هذا الايهام ان موسى عليه الصلاة والسلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا ان ذلك يكون على الفور فلما رأوا انه قد زادت الشدة عليهم قالوا اوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ما جئتنا فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه (قال) موسى مجيبا لهم (عسى ربكم ان يهلك عدوكم) يعني فرعون وقومه (ويستخلفكم في الارض)يعني ويجعلكم تخلفونهم في ارضهم بعد هلاكهم (فينظر كيف تعملون) يعني فيرى ربكم كيف تعملون من بعدهم قال الزجاج فيرى وقوع ذلك منهم لان الله تعالى لا يجازيهم بما يعلمه منهم وانما يجازيهم على ما يقع منهم ❊ قوله عز وجل (ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين) يعني بالقحط والجدب تقول العرب مستهم السنة بمعنى اخذهم الجدب في السنة ويقال اسنتوا كما يقال اجدبوا قال الشاعر ❊ ورجال مكة مسنتون عجاف ❊ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ومعنى الآية ولقد اخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة (ونقص من الثمرات) يعني واتلاف الغلات بالآفات قال قتادة اما السنون فلاهل البوادي واما نقص الثمرات فلاهل الامصار (لعلهم يذكرون) يعني لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي وذلك لان الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير ثم بين الله تعالى انهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا الا تمردا وكفرا فقال تعالى

بصفات النفس وعبادة الهوى الا ابتلاؤك لا مدخل فيها لغيرك (تضل بها من تشاء) من اهل الحجب والشقاوة والجهل والعمى (وتهدي من تشاء) من اهل السعادة والعناية والعلم والهدى قال هاتف مقام تجلي الافعال (انت ولينا)متولي امورنا القائم بها(فاغفر لنا) ذنوب صفاتنا وذواتنا كما غفرت لنا ذنوب افعالنا (وارحمنا) بافاضة انوار شهودك ورفع حجاب الاينية بوجودك (وانت خير الغافرين) بالمغفرة التامة (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة) العدالة والاستقامة

(فاذاجاءتهم الحسنة) يعني الغيث والخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات (قالوا لنا هذه) اى نحن مستحقون لها ونحن اهلها على العادة التى جرت لنا فى سعة الارزاق وصحة الابدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على انعامه (وان تصبهم سيئة) يعني القحط والجدب والمرض والبلاء ورأوا ما يكرهون فى انفسهم (يطيروا) يعني يتشاءموا واصله يتطيروا والتطير التشاؤم فى قول جميع المفسرين (بموسى ومن معه) يعني انهم قالوا ما اصابنا بلاء الاحين رأيناهم وماذلك الا بشؤم موسى وقومه قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر كان ملك فرعون اربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لم ير مكروها قط ولو كان حصل له فى تلك المدة جوع يوم او حمى ليلة او وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط (الا انما طائرهم عند الله) يعني ان نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس رضي الله عنهما طائرهم ما قضى لهم وقدر عليهم من عند الله وفى رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه انه انما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار (ولكن اكثرهم لا يعلمون) يعني ان ما اصابهم من الله تعالى وانما قال اكثرهم لا يعلمون لان اكثر الخلق يضيفون الحوادث الى الاسباب ولا يضيفونها الى القضاء والقدر * قوله تعالى (وقالوا) يعني قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به من آية) يعني من عند ربك فهى عندنا سحر وهو قولهم (لتسحرنا بها) يعني لتصرفنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) يعني بمصدقين وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلا حديدا مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله عز وجل دعاءه فقال تعالى (فارسلنا عليهم الطوفان) قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن اسحق دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا ابى هو وقومه الا الاقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فاخذهم اولا بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات واراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال يارب ان عبدك فرعون علا فى الارض وبغى وعتا وان قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فارسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بنى اسرائيل وبيوت القبط مختلطة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت بنى اسرائيل شئ وركد الماء على ارضهم فلم يقدروا على التحرك ولم يعملوا شيأ ودام ذلك الماء عليهم سبعة ايام من السبت الى السبت وقال مجاهد وعطاء الطوفان الموت وقال وهب الطوفان الطاعون بلغة اهل اليمن وقال ابو قلابة الطوفان الجدرى وهم اول من عذبوا به ثم بقى فى الارض وقال مقاتل الطوفان الماء طفا فوق حروثهم وفى رواية ابن عباس رضي الله عنهما ان الطوفان امر من الله عز وجل طاف بهم فعند ذلك قالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا المطر فنحن نؤمن بك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فرفع عنهم الطوفان وانبت الله لهم تلك السنة شيأ لم ينبته قبل ذلك من الكلا والزرع والثمر واخصبت بلادهم فقالوا ما كان هذا الماء الا نعمة علينا فلم يؤمنوا واقاموا شهرا فى عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجر واكل الابواب وسقوف البيوت والخشب والثياب

بالبقاء بعد الفناء (وفى الاخرة حسنة) المشاهدة والزيادة (انا هدنا) رجعنا (اليك) عن ذنوب وجودنا (قال عذابى) اى عذاب الشوق المخصوص بى الحاصل من جهتى وان كان اليما لشدة الم الفراق لكنه امر عزيز خطير (اصيب به من اشاء) من اهل العناية من عبادى الخاصة بى (ورحمتى وسعت كل شئ) لا تختص باحد دون احد غيره وشئ دون شئ ففى هذا العذاب رحمة لا يبلغ كنهها ولا يقدر

والامتعة واكل مسامير الحديد التى فى الابواب وغيرها وابتلى الجراد بالجوع فكان لايشبع وامتلائت دور القبط منه ولم يصب بنى اسرائيل من ذلك شئ فعجبوا وضجوا وقالوا ياموسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك واعطوه عهد الله وميثاقه بذلك فدعا موسى ربه عز وجل فكشف الله عنهم الجراد بعد ما اقام عليهم سبعة ايام من السبت الى السبت وفى الخبر مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الاعظم ويقال ان موسى عليه السلام خرج الى الفضاء فاشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد من حيث جاء وكان قد بقى من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا قد بقى لنا ماهو كافينا فما نحن بتاركى ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا الى اعمالهم الخبيثة فاقاموا شهرا فى عافية ثم بعث الله عز وجل عليهم القمل واختلفوا فيه فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما ان القمل هو السوس الذى يخرج من الحنطة وقال مجاهد وقتادة والسدى والكلبى القمل الدبى وهو الصغار الجراد الذى لااجنحة له وقال ابو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من الجراد وقال عطاء الخراسانى هو القمل نفسه وكان الحسن يقرأ بفتح القاف وسكون الميم قال اصحاب الاخبار امر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام ان يمشى الى كثيب رمل اعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين الشمس فمشى الى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانثال عليهم القمل فتتبع مابقى من حروثهم وزروعهم وثمارهم فاكلها كلها ولحس الارض وكان يدخل بين ثوب احدهم وجلده فيعضه فاذا اكل احدهم طعاما امتلأ قملا قال سعيد بن المسيب القمل السوس الذى يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة اجربة الى الرحى فلا يرد منها ثلاثة اقفز فلم يصابوا ببلاء كان اشد عليهم من القمل واخذت اشعارهم وابصارهم وحواجبهم واشفار عيونهم ولزم جلودهم كانه الجدرى عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا بموسى انا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم القمل بعد ما اقام عليهم سبعة ايام من السبت الى السبت فنكثوا بعد ذلك ورجعوا الى اخبث ما كانوا عليه من الاعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط احق ان نستيقن انه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دواب فدعا موسى عليهم بعد ما قاموا شهرا فى عافية فارسل الله عليهم الضفادع فامتلائت منها بيوتهم وافنيتهم واطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف احد اناء ولا طعاما الا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس فى الضفادع فتبلغ الى حلقه فاذا اراد ان يتكلم يثب الضفدع فيدخل فى فيه وكانت تثب فى قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفئ نيرانهم وكان احدهم اذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاما فلا يستطيع ان ينقلب الى شقه الآخر واذا اراد ان يأكل سبقه الضفدع الى فيه ولا يعجن احدهم عجينا الا امتلأ ضفادع ولا يفتح قدرا الا امتلائت ضفادع فلقوا من ذلك بلاء شديدا وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت الضفادع برية فلما ارسلها الله عز وجل على آل فرعون سمعت واطاعت وجعلت تقذف بانفسها فى القدور وهى تغلى على النار وفى التنانير وهى تفور فاثابها الله عز وجل بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا الى موسى عليه الصلاة والسلام مايلقونه من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود فاخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله عز وجل فكشف عنهم الضفادع بعد ما اقامت عليهم سبعا من السبت الى السبت فاقاموا شهرا فى عافية ثم نقضوا العهد وعادوا الى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فارسل الله

قدرها من رحمة لذة الوصول التى قال فيها فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين مع كونه لذيذا لايقاس بلذته لذة كما قال احدهم وكل لذيذة قد نلت منه * سوى ملذوذ وجدى بالعذاب * ولعمرى ان هذا العذاب اعز من الكبريت الاحمر واما الرحمة فلا يخلو من حظ منها احد (فسا كتبها) تامة كاملة رحيمية كتبة خاصة (للذين يتقون ويؤتون الزكوة) الحب كلها ويفيضون مما رزقوا من الاموال والاخلاق والعلوم والاحوال على مستحقيها (والذين هم بآياتنا يؤمنون) بجميع صفاتنا يتصفون وهم (الذين يتبعون الرسول

عز وجل عليهم الدم فسال النيل عليهم دما عبيطا وصارت مياههم كلها دما وكل مايستقون من الآبار
والانهار يجدونه دما عبيطا فشكوا ذلك الى فرعون وقالوا ليس لنا شراب الا الدم فقال سحركم فقالوا من
اين سحرنا ونحن لانجد في اوعيتنا شيأ من الماء الادما عبيطا فكان فرعون يجمع بين القبطي والاسرائيلي
على اناء واحد فيكون ما يلي الاسرائيلي ماء وما يلي القبطي دما ويغرفان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطي دما
وللاسرائيلي ماء حتى ان المرأة من آل فرعون تأتي الى المرأة من بني اسرائيل حين جهدهم العطش
فتقول لها اسقيني من مائك فتصب لها في قربتها فيصير في الاناء دما حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم
مجيه في فيّ فتفعل ذلك فيصير دما ثم ان فرعون اعتراه العطش حتى انه ليضطر الى مضغ الاشجار الرطبة
فاذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك سبعة ايام لايشربون الا الدم وقال زيد بن اسلم ان
الدم الذي سلط الله عز وجل عليهم كان الرعاف فاتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا اليه مايلقون
وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بني اسرائيل فدعا موسى
عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى فارسلنا عليهم الطوفان (والجراد
والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) يعني يتبع بعضها بعضا وتفصيلها ان كل عذاب كان يقوم
عليهم اسبوعا وبين كل عذابين مدة شهر (فاستكبروا) يعني عن الايمان فلم يؤمنوا (وكانوا قوما
مجرمين) يعني آل فرعون * قوله تعالى (ولما وقع عليهم الرجز) يعني ولما نزل بهم
العذاب الذي ذكره في الآية المتقدمة من الطوفان ومابعده وقال سعيد بن جبير الرجز
الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى
مات منهم في يوم واحد سبعون الفا فامسوا وهم لايتدافنون (ق) عن اسامة بن زيد قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعون رجز ارسل على طائفة من بني اسرائيل
او على من كان قبلكم فاذا سمعتم به بارض فلا تقدموا عليه واذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه
* وقوله تعالى (قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) يعني بما اوصاك وقيل بما نبأك وقيل
بما عهد عندك من اجابة دعوتك (لئن كشفت عنا الرجز) يعني العذاب الذي وقع بنا (لنؤمنن لك
ولنرسلن معك بني اسرائيل) يعني لنصدقن بما جئت به ولنخلين بني اسرائيل حتى يذهبوا حيث
شاؤا (فلما كشفنا عنهم الرجز) يعني بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام (الى اجل هم بالغوه)
يعني الى الوقت الذي اجل لهم وهو وقت اهلاكهم بالغرق في اليم (اذاهم ينكثون) يعني
اذاهم ينقضون العهد الذي التزموه فلم يفوا به واعلم ان ماذكره الله تعالى في هذه الآيات هي
معجزات في الحقيقة دالة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام ووجه ذلك ان العذاب كان
مختصا بآل فرعون دون بني اسرائيل فاختصاصه بالقبطي دون الاسرائيلي معجز وكون بني اسرائيل
في امان منه وعافية وقوم فرعون في شدة وعذاب وبلاء مع اتحاد المساكن معجز ايضا فان اعترض
معترض وقال ان الله تعالى علم من حال آل فرعون انهم لايؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة في
توالها عليهم واظهار الكثير منها فالجواب على مذهب اهل السنة ان الله تعالى يفعل مايشاء
ويحكم مايريد لايسئل عما يفعل واما على قول المعتزلة في رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون
ان بعضهم كان يؤمن بتوالي تلك المعجزات وظهورها فلهذا السبب والاها عليهم والله اعلم بمراده
* قوله عز وجل (فانتقمنا منهم) يعني كافأناهم عقوبة لهم على سوء صنيعهم واصل الانتقام في اللغة سلب

النبي الامي الذي يجدونه
مكتوبا عندهم في التوراة
والانجيل يأمرهم بالمعروف
وينهاهم عن المنكر ويحل لهم
الطيبات ويحرم عليهم
الخبائث ويضع عنهم اصرهم
والاغلال التي كانت عليهم
فالذين آمنوا به وعزروه
ونصروه واتبعوا النور
الذي انزل معه اولئك
هم المفلحون قل ياايها الناس
اني رسول الله اليكم جميعا
الذي له ملك السموات
والارض لااله الا هو يحيي
ويميت فآمنوا بالله ورسوله
النبي الامي الذي يؤمن
بالله وكلماته واتبعوه لعلكم
تهتدون) في آخر الزمان اي
المهديون الذين اتبعوا
في القوى وصفه بقوله
تعالى له ومارميت اذ رميت

النقمة بالعذاب (فاغرقناهم في اليم) والمعنى انه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا
ولم يرجعوا عن كفرهم فلما بلغوا الاجل الذى اجل لهم انتقم منهم بان اهلكهم بالغرق فذلك قوله
فاغرقناهم في اليم يعنى في البحر واليم الذى لا يدرك قعره وقيل هو لجة البحر ومعظم مائه قال الازهرى اليم
معروف لفظة سريانية عربتها العرب ويقع اسم اليم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى
فاقذفيه في اليم والمراد به نيل مصر وهو عذب (بانهم كذبوا بآياتنا) يعنى اهلكناهم واغرقناهم
بسبب انهم كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا (وكانوا عنها) يعنى عن آياتنا (غافلين)
يعنى معرضين وقيل كانوا عن حلول النقمة بهم غافلين ولما كان الاعراض عن الآيات وعدم الالتفات
اليها كالغفلة عنها سموا غافلين تجوزا لان الغفلة ليست من فعل الانسان * قوله عز وجل (واورثنا
القوم الذين كانوا يستضعفون) يعنى ومكنا القوم الذين كانوا يقهرون ويغلبون على انفسهم وهو
ان فرعون وقومه كانوا قد تسلطوا على بنى اسرائيل فقتلوا ابناءهم واستخدموهم دهرا وهم
مستضعفين تحت ايديهم (مشارق الارض ومغاربها) يعنى ارض الشام ومصر واراد بمشارقها
ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها وقيل اراد بمشارق الارض ومغاربها الارض المقدسة وهو
بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب وقيل اراد جميع جهات الارض وهو اختيار الزجاج قال
لان داود سليمان صلوات الله وسلامه عليهما كانا من بنى اسرائيل وقد ملكا الارض * وقوله
عز وجل (التى باركنا فيها) يدل على انها الارض المقدسة يعنى باركنا فيها بالثمر والاشجار والزروع
والخصب والسعة (وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى اسرائيل) يعنى وتمت كلمة الله وهى وعدهم
بالنصر على عدوهم والتمكين فى الارض من بعدهم وقيل كلمة الله هى قوله ونريد ان نمن على
الذين استضعفوا فى الارض الآية والحسنى صفة للكلمة وهى تأنيث الاحسن وتمامها انجاز ما
وعدهم به من تمليكهم فى الارض واهلاك عدوهم (بما صبروا) يعنى انما حصل لهم ذلك
التمام وهو ما انعم الله تعالى به عليهم من انجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دينه واذى فرعون لهم
(ودمرنا) يعنى واهلكنا والدمار الهلاك باستئصال (ما كان يصنع فرعون وقومه) فى ارض
مصر من العمارات والبنيان (وما كانوا يعرشون) يعنى يسقفون من ذلك البنيان وقال مجاهد
ما كانوا يبنون من البيوت والقصور وقال الحسن وما كانوا يعرشون من الثمار والاعناب * قوله
عز وجل (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) يعنى وقطعنا ببنى اسرائيل البحر بعد اهلاك فرعون
وقومه واغراقهم فيه يقال جاز الوادى وجاوزه اذا قطعه وخلفه وراء ظهره وقال الكلبى عبر
موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرا لله تعالى (فأتوا على قوم
يعكفون على اصنام لهم) يعنى فمر بنو اسرائيل بعد مجاوزة البحر على قوم يعكفون اى يقيمون
ويواظبون على اصنام لهم يعنى تماثيل لهم كانوا يعبدونها من دون الله قال ابن جريج كانت تلك
الاصنام تماثيل بقر وذلك اول شأن العجل وقال قتادة كان اولئك القوم من لخم وكانوا نزولا بالرقة
ساحل البحر وقيل كان اولئك الاقوام من الكنعانيين الذين امر موسى عليه الصلاة والسلام
بقتالهم (قالوا) يعنى قال بنو اسرائيل لموسى لما رأوا ذلك التماثيل (يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة)
يعنى كما لهم اصنام يعبدونها ويعظمونها فاجعل لنا انت الها نعبده ونعظمه قال البغوى رحمه الله ولم يكن
ذلك شكا من بنى اسرائيل فى وحدانية الله تعالى وانما معناه اجعل لنا شيأ نعظمه ونتقرب بتعظيمه

ولكن الله رمى وبقوله
وما ينطق عن الهوى وقوله
ما زاغ البصر وما طغى
وفى ايتاء الزكاة قوله تعالى
واما السائل فلا تنهر واما
بنعمة ربك فحدث وفى
الايمان بالآيات قوله اوتيت
جوامع الكلم وبعثت لاتمم
مكارم الاخلاق (ومن
قوم موسى امة) اى اولئك
المتبعون هم المفلحون بالرحمة
التامة وامة من قوم موسى
موحدون (يهدون)
الناس (بالحق) لا بانفسهم
(وبه يعدلون) بين الناس
فى حال الاستقامة والتمكين
(وقطعناهم اثنتى عشرة
اسباطا امما واوحينا الى
موسى اذ استسقاه قومه
ان اضرب بعصاك الحجر
فانبجست منه اثنتى عشرة
عينا قد علم كل اناس مشربهم
وظللنا عليهم الغمام وانزلنا

الى الله تعالى وظنوا ان ذلك لا يضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم وقال غيره هذا يدل على غاية جهل بنى اسرائيل وذلك انهم توهموا انه يجوز عبادة غير الله تعالى بعدما راوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكال قدرته وهى الآيات التى توالت على قوم فرعون حتى اغرقهم الله تعالى فى البحر بكفرهم وعبادتهم غير الله تعالى فحملهم جهلهم على ان قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا الها كما لهم آلهة فرد عليهم موسى عليه الصلاة والسلام بقوله (قال انكم قوم تجهلون) يعنى تجهلون عظمة الله تعالى وانه لا يستحق ان يعبد سواه لانه هو الذى انجاكم من فرعون وقومه فاغرقهم فى البحر وانجاكم منه عن ابى واقد الليثى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج الى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها اسلحتهم يقال لها ذات انواط فقالوا يارسول الله اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم اخرجه الترمذى * وقوله تعالى (ان هؤلاء متبر ماهم فيه) اى مهلك والتتبير الاهلاك (وباطل ما كانوا يعملون) البطلان عبارة عن عدم الشئ اما بعدم ذاته او بعدم فائدته ونفعه والمراد من بطلان عملهم انه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا يدفع عنهم ضر لانه عمل لغير الله تعالى فكان باطلا لا نفع فيه (قال اغير الله ابغيكم الها) لما قال بنو اسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا الها كما لهم آلهة حكم عليهم بالجهالة وقال مجيبا لهم على سبيل التعجب والانكار عليهم اغير الله ابغيكم الها يعنى اطلب لكم وابغى لكم الها (وهو فضلكم على العالمين) والمعنى ان الاله ليس هو شيأ يطلب ويلتمس ويتخير بل الاله هو الذى فضلكم على العالمين لانه القادر على الانعام والافضال فهذا هو الذى يستحق ان يعبد ويطاع لا عبادة غيره ومعنى قوله فضلكم على العالمين يعنى على عالمى زمانكم وقيل فضلهم بما خصهم به من الآيات الباهرة التى لم تحصل لغيرهم وان كان غيرهم افضل منهم * قوله عزوجل (واذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) هذه الآية تقدم تفسيرها فى سورة البقرة والفائدة فى ذكرها فى هذا الموضع انه تعالى هو الذى انعم عليكم بهذه النعم العظيمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة * قوله عزوجل (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) يعنى وواعدنا موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاتنا ثلاثين ليلة وهى ذو القعدة (واتممناها بعشر) يعنى عشر ذى الحجة وهذا قول ابن عباس ومجاهد قال المفسرون ان موسى عليه الصلاة والسلام وعد بنى اسرائيل اذا اهلك الله تعالى عدوهم فرعون ان يأتيهم بكتاب من عند الله عزوجل فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما اهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه عزوجل ان ينزل عليه الكتاب الذى وعد به بنى اسرائيل فأمره ان يصوم ثلاثين يوما فصامها فلما تمت انكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقيل بل اكل من ورق الشجر فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله ان يصوم عشر ذى الحجة وقال له اما علمت ان خلوف فم الصائم اطيب عندى من ريح المسك فكانت فتنة بنى اسرائيل فى تلك العشر التى زادها الله عزوجل لموسى عليه الصلاة والسلام وقيل ان الله امر موسى عليه الصلاة والسلام ان يصوم ثلاثين يوما ويعمل فيهما ما يتقرب به الى الله ثم

(كله)

عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فارسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون واسالهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون واذ قالت امة منهم لم تعظون

كلمه واعطاه الالواح فى العشر التى زادها فلهذا قال واتممناها بعشر وهذا التفصيل الذى ذكره هنا هو تفصيل ما اجمله فى سورة البقرة وهو قوله تعالى واذ واعدنا موسى اربعين ليلة فذكره هناك على الاجمال وذكره هنا على التفصيل ❊ وقوله تعالى (فتم ميقات ربه اربعين ليلة) يعنى فتم الوقت الذى قدره الله لصوم موسى عليه الصلاة والسلام وعبادته اربعين ليلة لان الميقات هو الوقت الذى قدر ان يعمل فيه عمل من الاعمال ولهذا قيل مواقيت الحج (وقال موسى لاخيه هرون اخلفنى فى قومى) يعنى كن انت خليفتى فيهم من بعدى حتى ارجع اليك (واصلح) يعنى واصلح امور بنى اسرائيل واحملهم على عبادة الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الرفق بهم والاحسان اليهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) يعنى ولا تسلك طريق المفسدين فى الارض ولا تطعهم والمقصود من هذا الامر التأكيد لان هرون عليه الصلاة والسلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين فهو كقوله ولكن ليطمئن قلبى وكقولك للقاعد اقعد بمعنى دم على ما انت عليه من القعود ❊ قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا) يعنى للوقت الذى وقتناه ان يأتى فيه لمناجاتنا وهو قوله (وكلمه ربه) وفى هذه الآية دليل على ان الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام واختلف الناس فى كلام الله تعالى فقال الزمخشرى كلمه ربه عز وجل من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه ان يخلق الكلام منطوقا به فى بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا فى الالواح هذا كلامه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك فى بطلانه وفساده لان الشجرة او ذلك الجرم لا يقول اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهبت الحنابلة ومن وافقهم الى ان كلام الله تعالى حروف واصوات منقطعة وانه قديم وذهب جمهور المتكلمين الى ان كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والاصوات وتلك الصفة قديمة ازلية والقائلون بهذا القول قالوا ان موسى عليه الصلاة والسلام سمع تلك الصفة الازلية الحقيقية وقالوا كما انه لا يبعد رؤية ذاته وليست جسما ولا عرضا كذلك لا يبعد سماع كلامه مع ان كلامه ليس بصوت ولا حرف ومذهب اهل السنة وجمهور العلماء من السلف والخلف ان الله متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض فى تأويله وحقيقته قال اهل التفسير والاخبار لما جاء موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام ثم اتى طور سيناء وفى القصة ان الله تعالى انزل ظلة تغشت الجبل على اربع فراسخ من كل ناحية وطرد عنه الشيطان وهوام الارض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياما فى الهواء ورأى العرش بارزا وادناه ربه حتى سمع صريف الاقلام على الالواح وكلمه الله تبارك وتعالى وناجاه واسمعه كلامه وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلم الله تعالى به موسى فاستحلى كلام ربه عز وجل واشتاق الى رؤيته (قال رب ارنى انظر اليك) قال الزجاج فيه اختصار تقديره ارنى نفسك انظر اليك وقال ابن عباس معناه اعطنى انظر اليك وانما سأل موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية مع علمه بان الله تعالى لا يرى فى الدنيا لما هاج به من الشوق وفاض عليه من انواع الجلال حتى استغرق فى بحر المحبة فعند ذلك سأل الرؤية وقيل انما سأل الرؤية ظنا منه بانه تعالى يرى فى الدنيا فتعالى الله عن ذلك (قال لن ترانى) يعنى ليس لبشر ان يرانى فى الدنيا ولا يطيق النظر الى فى الدنيا ومن نظر الى فى الدنيا مات فقال موسى عليه الصلاة والسلام الهى سمعت كلامك فاشتقت الى النظر اليك ولان انظر اليك ثم اموت احب الى من ان اعيش ولا اراك وقال السدى لما كلم الله تعالى

قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم وقطعناهم فى الارض امما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب

موسى عليه الصلاة والسلام غاص عدو الله ابليس الخبيث فى الارض حتى خرج من بين قدمى موسى فوسوس اليه ان مكلمك شيطان فعند ذلك سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه الرؤية فقال رب ارنى انظر اليك قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام لن ترانى

* (فصل) * وقد تمسك من نفى الرؤية من اهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى لن ترانى قالوا لن تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم فى ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم فى ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه فى ان لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على اهل اللغة اذ ليس يشهد لما قالوه نص عن اهل اللغة والعربية ولم يقل به احد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى فى صفة اليهود ولن يتمنوه ابدا مع انهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى ونادوا يامالك ليقض علينا ربك وقوله ياليتها كانت القاضية فان قالوا ان لن معناها تأكيد النفى كلا التى تنفى فى المستقبل قلنا ان صح هذا التأويل فيكون معنى لن ترانى محمولا على الدنيا اى لن ترانى فى الدنيا جمعا بين دلائل الكتاب والسنة فانه قد ثبت فى الحديث الصحيح ان المؤمنين يرون ربهم عز وجل يوم القيامة فى الدار الآخرة وايضا فان موسى عليه الصلاة والسلام كان عارفا بالله تعالى وبما يجب ويجوز ويمتنع على الله عز وجل وفى الآية دليل على انه سأل الرؤية فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها موسى عليه الصلاة والسلام فحيث سألها علمنا ان الرؤية جائزة على الله تعالى وايضا فان الله عز وجل علق رؤيته على امر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم من ذلك كون الرؤية فى نفسها جائزة وانما قلنا ذلك لانه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل وهو قوله تعالى (ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) وهو امر جائز الوجود فى نفسه واذا كان كذلك ثبت ان رؤيته جائزة الوجود لان استقرار الجبل غير مستحيل عند التجلى اذا جعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالا والله اعلم بمراده قال وهب ومحمد بن اسحق لما سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل الرؤية ارسل الله الضباب والرياح والصواعق والرعد والبرق والظلمة حتى احاطت بالجبل الذى عليه موسى عليه الصلاة والسلام اربع فراسخ من كل جانب وامر الله تعالى اهل السموات ان يعترضوا على موسى عليه الصلاة والسلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع افواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد فقال موسى رب انى كنت عن هذا غنيا ثم امر الله تعالى ملائكة السماء الثانية ان اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه مثال الاسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف موسى بن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة فى رأسه وبدنه ثم قال لقد ندمت على مسئلتى فهل ينجينى مما انا فيه شئ فقال له خير الملائكة ورئيسهم ياموسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم امر الله ملائكة السماء الثالثة ان اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه امثال النسور لهم قصف ورجب ولجب شديد وافواههم تنبع بالتسبيح والتقديس لهم جلب كجلب الجيش العظيم الوانهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وايس من الحياة فقال له خير الملائكة ورئيسهم مكانك يا ابن عمران حتى ترى مالا صبر لك عليه ثم امر الله ملائكة السماء الرابعة اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لا يشبههم شئ من الذين مروا قبلهم الوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الابيض اصواتهم عالية

(بالتسبيح)

يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون والذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلوة انا لا نضيع اجر المصلحين واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين او تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية

بالتسبيح والتقديس لايقاربهم شئ من اصوات الذين مروابه قبلهم فاصطكت ركبتاه وارعد
قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم ياابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت
ثم امر الله تعالى ملائكة السماء الخامسة ان اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لهم
سبعة الوان فلم يستطع موسى ان يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل اصواتهم فامتلأ جوفه
خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم ياابن عمران مكانك حتى ترى
مالا تصبر عليه ثم امر الله ملائكة السماء السادسة ان اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا
عليه وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة العظيمة الطويلة نار اشد ضوأ من الشمس ولباسهم كلهب
النار اذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من الملائكة كلهم يقولون بشدة اصواتهم سبوح
قدوس رب العزة ابدا لايموت فى رأس كل ملك منهم اربعة اوجه فلما رآهم موسى عليه الصلاة
والسلام رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول رب اذكرني ولا تنس عبدك فلا ادرى
انفلت مما انا فيه ام لا ان خرجت احترقت وان اقمت مت فقال له كبير الملائكة ورئيسهم قد
او شكت ياابن عمران ان يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذى سألت ثم امر الله تعالى أن
يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة الرب سبحانه
وتعالى ورفعت الملائكة اصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة ابدا لايموت
فارتج الجبل لشدة اصواتهم واندك واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى
صعقا على وجهه ليس معه روحه فأرسل الله تعالى برحمته الروح فتغشته وقلب عليه الحجر
الذى كان جلس عليه موسى فصار عليه كهيئة القبة لئلا يحترق موسى عليه الصلاة والسلام
واقامت الروح عليه مثل اللامة فلما افاق موسى قام يسبح ويقول آمنت بك وصدقت انه لايراك
احد فيحيا ومن نظر الى ملائكتك انخلع قلبه فما اعظمك واعظم ملائكتك انت رب الارباب
ومالك الملوك والاله العظيم لايعدلك شئ ولايقوم لك شئ رب تبت اليك الحمد لك لاشريك لك
ما اعظمك وما اجلك يارب العالمين فذلك قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال
ابن عباس ظهر نور ربه للجبل فصار ترابا واسم الجبل زبير وقال الضحاك اظهر الله عزوجل من
نور الحجب مثل منخر الثور وقال عبدالله بن سلام وكعب الاحبار ماتجلى للجبل من عظمة الله
تعالى الا مثل سم الخياط حتى صار دكا وقال السدى ماتجلى الا قدر الخنصر يدل عليه ماروى ثابت
عن انس رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال هكذا ووضع الابهام
على المفصل الاعلى من الخنصر فساخ الجبل ذكره البغوى هكذا بغير سند واخرجه الترمذى
ايضا عن انس ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا قال
حماد هكذا وامسك بطرف ابهامه على انملة اصبعه اليمنى فساخ الجبل وخرّ موسى
عليه السلام صعقا وقال الترمذى حديث حسن صحيح غريب لانعرفه الا من حديث حماد بن سلمة
وروى عن سهل بن سعد الساعدى ان الله تعالى اظهر من سبعين الف حجاب نورا قدر الدرهم
فجعل الجبل دكا يعنى مستويا بالارض وقال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل حتى
وقع فى البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفى صار رملا هائلا وقال الكلبي جعله دكا يعنى
كسرا جبالا صغارا وقيل انه صار لعظمة الله تعالى ستة اجبل فوقع ثلاثة بالمدينة وهى احد

من بعدهم افتهلكنا بما فعل
المبطلون وكذلك نفصل
الآيات ولعلهم يرجعون
واتل عليهم نبأ الذى آتيناه
آياتنا فانسلخ منها فاتبعه
الشيطان فكان من الغاوين
ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه
اخلد الى الارض واتبع هواه
فمثله كمثل الكلب ان تحمل
عليه يلهث او تتركه يلهث
ذلك مثل القوم الذين كذبوا
بآياتنا فاقصص القصص
لعلهم يتفكرون ساء مثلا
القوم الذين كذبوا بآياتنا
وانفسهم كانوا يظلمون
من يهد الله فهو المهتدى
ومن يضلل فاولئك
هم الخاسرون) ماكان
الا كحال الاسلاميين من
اهل زماننا فى اجتماع انواع
الحظوظ النفسانية من المطاعم
والمشارب والملاهى والمناكح
ظاهرة فى الاسواق والمواسم

وورقان ورضوى ووقع ثلاثة بمكة وهى ثور وثبير وحراء * وقال تعالى (وخر موسى صعقا) قال ابن عباس والحسن يعنى مغشيا عليه وقال قتادة يعنى ميتا والاول اصح لقوله (فلما افاق) والميت لا افاقة له انما يقال افاق من غشيته قال الكلبى صعق موسى عليه الصلاة والسلام يوم الخميس وهو يوم عرفة واعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر وقال الواقدى لما خر موسى صعقا قالت ملائكة السموات ما لابن عمران وسؤال الرؤية وفى بعض الكتب ان ملائكة السموات اتوا موسى وهو فى غشيته فجعلوا يركلونه ويقولون يا ابن النساء الحيض اطمعت فى رؤية رب العزة فلما افاق يعنى من غشيته ورجع عقله اليه وعرف انه سأل امرا عظيما لا ينبغى له (قال سبحانك) يعنى تنزيها لك من النقائص كلها (تبت اليك) يعنى من مسئلتى الرؤية فى الدنيا وقيل لما كانت الرؤية فى الدنيا وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنها قال سبحانك تبت اليك يعنى من سؤالى ما ليس لى وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت اليك يعنى من هذا السؤال وحسنات الابرار سيآت المقربين (وانا اول المؤمنين) يعنى بانك لا ترى فى الدنيا وقيل وانا اول المؤمنين يعنى من بنى اسرائيل بقى فى الآية سؤالات الاول ان الرؤية عين النظر فكيف قال ارنى انظر اليك وعلى هذا يكون التقدير ارنى حتى اراك والجواب عنه ان معنى قوله ارنى اجعلنى متمكنا من رؤيتك حتى انظر اليك واراك السؤال الثانى كيف قال لن ترانى ولم يقل لن تنظر الى حتى يكون مطابقا لقوله انظر اليك والجواب ان النظر لما كان مقدمة الرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذى لا رؤية معه السؤال الثالث كيف استدرك وكيف اتصل الاستدراك من قوله ولكن انظر الى الجبل بما قبله والجواب ان المقصود منه تعظيم امر الرؤية وان احدا لا يقوى على رؤيته تعالى الا من قواه الله تعالى بمعونته وتأييده الا ترى انه لما ظهر اثر التجلى للجبل اندك وتقطع فهذا هو المراد من هذا الاستدراك لانه يدل على تعظيم امر الرؤية والله اعلم بمراده * قوله عزوجل (قال ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) يعنى قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ياموسى انى اخترتك واتخذتك صفوة والاصطفاء الاستخلاص من الصفوة والاجتباء والمعنى انى فضلتك واجتبيتك على الناس وفى هذا تسلية لموسى عليه الصلاة والسلام عن منع الرؤية حين طلبها لان الله تعالى عدد عليه نعمه التى انعم بها عليه وامره ان يشتغل بشكرها كأنه قال له ان كنت منعت من الرؤية التى طلبت فقد اعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر الى سائر انواع النعم التى خصصتك بها وهى الاصطفاء على الناس برسالاتى وبكلامى يعنى من غير واسطة لان غيره من الرسل منع كلام الله تعالى الا بواسطة الملك فان قلت كيف قال اصطفيتك على الناس برسالاتى مع ان كثيرا من الانبياء قد ساواه فى الرسالة قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال جوابين احدهما ذكره البغوى فقال لما لم تكن الرسالة على العموم فى حق الناس كافة استقام قوله اصطفيتك على الناس وان شاركه فيها غيره كما يقول الرجل للرجل خصصتك بمشورتى وان كان قد شاور غيره اذا لم تكن المشورة على العموم فيكون مستقيما وفى هذا الجواب نظر لان من جملة من اصطفاه الله برسالته محمدا صلى الله عليه وسلم وهو افضل من موسى عليه الصلاة والسلام فلا يستقيم هذا الجواب الجواب الثانى ذكره الامام فخر الدين الرازى فقال

(ان الله)

والشوارع والمحافل يوم الجمعات دون سائر الايام وما ذلك الا ابتلاء من الله بسبب الفسق (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام) لفقدان ادراك الحقائق والمعارف التى تقرّبهم من الله بالقلوب وعدم الاعتبار بالاعين والاذكار والفهم بالاسماع (بل هم اضل اولئك هم الغافلون ولله الاسماء الحسنى) قدمرّ ان كل اسم هو الذات مع صفة والله يدبر كل امر باسم من اسمائه (فادعوه بها) عند الافتقار الى ذلك الاسم به اتم بلسان الحال كما ان الجاهل اذا طلب العلم يدعوه باسمه العليم

ان الله تعالى بين انه خصه بمجموع امرين وهما الرسالة مع الكلام بغير واسطة وهذا المجموع ماحصل لغيره فثبت انه انما حصل التخصيص ههنا لانه سمع ذلك الكلام بغير واسطة وانما كان الكلام بغير واسطة سببا لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر لان من سمع كلام الملك العظيم من فيه كان اعلى واشرف ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب وهذا الجواب فيه نظر ايضا لان محمدا صلى الله عليه وسلم اصطفاه برسالته وكلمه ليلة المعراج بغير واسطة وفرض عليه وعلى امته الصلوات وخاطبه يا محمد يدل عليه قوله فاوحى الى عبده ما اوحى ورفعه الى حيث سمع صريف الاقلام وهذا كله يدل على مزيد الفضل والشرف على موسى عليه الصلاة والسلام وغيره من الانبياء فلا يستقيم هذا الجواب ايضا والذى يعتمد فى الجواب عن هذا السؤال ان الله اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام برسالته وبكلامه على الناس الذين كانوا فى زمانه وذلك انه لم يكن فى ذلك الوقت اعلى منصبا ولا اشرف ولا افضل منه وهو صاحب الشريعة الظاهرة وعليه نزلت التوراة فدل ذلك على انه اصطفاه على ناس زمانه كما اصطفى قومه على عالمى زمانهم وهو قوله تعالى يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين قال المفسرون يعنى على عالمى زمانهم * وقوله تعالى (فخذ ما آتيتك) يعنى ما فضلتك واكرمتك به (وكن من الشاكرين) يعنى على انعامى عليك وفى القصة ان موسى عليه الصلاة والسلام كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع احد ان ينظر اليه لما غشى وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته انا لم ارك مذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فاخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله ان يجعلنى زوجتك فى الجنة قال ذلك لك ان لم تتزوجى بعدى فان المرأة لآخر ازواجها * قوله تعالى (وكتبنا له فى الالواح) قال ابن عباس يريد الواح التوراة والمعنى وكتبنا لموسى فى الواح التوراة قال البغوى وفى الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعا وجاء فى الحديث خلق الله تعالى ادم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وقال الحسن كانت الالواح من خشب وقال الكلبى من زبرجدة خضراء وقال سعيد بن جبير من ياقوتة حمراء وقال ابن جريج من زمرد امر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال الربيع بن انس كانت الالواح من زبرجد وقال وهب امره الله بقطع الواح من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده ثم شقها باصبعه وسمع موسى عليه الصلاة والسلام صريف الاقلام بالكلمات العشرة وكان ذلك فى اول يوم من ذى الحجة وكان طول الالواح عشرة اذرع على طول موسى وقيل ان موسى خر صعقا يوم عرفة فاعطاه الله التوراة يوم النحر وهذا اقرب الى الصحيح واختلفوا فى عدد الالواح فروى عن ابن عباس انها كانت سبعة الواح وروى عنه انها لوحان واختاره الفراء قال وانما جمعت على عادة العرب فى اطلاق الجمع على الاثنين وقال وهب كانت عشرة الواح وقال مقاتل كانت تسعة وقال الربيع بن انس نزلت التوراة وهى وقر سبعين بعيرا يقرأ الجزء منها فى سنة ولم يقرأها الا اربعة نفر موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم الصلاة والسلام والمراد بقوله لم يقرأها يعنى لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلبه الا هؤلاء الاربعة وقال الحسن هذه الآية فى التوراة بالف آية يعنى قوله وكتبنا له فى الالواح (من كل شئ) يعنى يحتاج اليه من امر ونهى (موعظة) يعنى نهيا عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته (وتفصيلا لكل شئ) يعنى وتبيينا لكل شئ من الامر والنهى والحلال والحرام والحدود

والمريض اذا طلب الشفاء يدعوه باسمه الشافى والفقير اذا طلب الغنى يدعوه باسمه المغنى كل بتحصيل الاستعداد الذى استلزم قبوله لتأثير ذلك الاسم واثر تلك الصفة واما بلسان القال كما اذا قال الاول يارب يريد به يا عليم لاختصاص ربوبيته بذلك

والاحكام مما يحتاج اليه فى امور الدين وروى الطبرى بسنده عن وهب بن منبه قال كتب له يعنى فى التوراة لاتشرك بى شيأ من اهل السماء ولا من اهل الارض فان كل ذلك خلقى ولا تحلف باسمى كاذبا فان من حلف باسمى كاذبا فلا ازكيه ووقر والديك وروى البغوى باسناد الثعلبى عن كعب الاحبار ان موسى عليه الصلاة والسلام نظر فى التوراة فقال انى اجد امة خير الامم اخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والكتاب الآخر ويقاتلون اهل الضلالة حتى يقاتلون الاعور الدجال رب اجعلهم امتى قال هى امة محمد يا موسى فقال رب انى لأجد امة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون اذا ارادوا امرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم امتى قال هى امة محمد قال رب انى اجد فى التوراة امة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الاولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم امتى قال هى امة محمد قال يارب انى اجد امة اذا اشرف احدهم على شرف كبر الله واذا هبط واديا حمد الله الصعيد لهم طهور والارض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لايجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم امتى قال هى امة محمد قال يارب انى اجد امة اذا هم احدهم بحسنة ولم يعملها كتبت لها حسنة بمثلها وان عملها كتبت بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف فاجعلهم امتى قال هى امة محمد قال يارب انى اجد امة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا اجد احدا منهم الا مرحوما فاجعلهم امتى قال هى امة محمد قال رب انى اجد امة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون الوان ثياب اهل الجنة يصفون فى صلاتهم صفوف الملائكة اصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار احد منهم ابدا الا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء الشجر فاجعلهم امتى قال هى امة محمد فلما عجب موسى من الخير الذى اعطاه الله عزوجل محمدا صلى الله عليه وسلم وامته قال ياليتنى من اصحاب محمد فاوحى الله اليه ثلاث آيات يرضيهن ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى الى قوله ساريكم دار الفاسقين ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون قال فرضى موسى كل الرضا ❊ وقوله تعالى (فخذها بقوة) يعنى وقلنا لموسى عليه الصلاة والسلام اذ كتبنا له فى الالواح من كل شئ خذها بجد واجتهاد وقيل معناه فخذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة لان من اخذ شيأ بضعف نية اداه الى الفتور (وامر قومك ياخذوا باحسنها) قال ابن عباس يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا امثالها ويعملوا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى عليه الصلاة والسلام اشد عبادة من قومه فامر بما لم يؤمروا به وقيل ظاهر قوله وامر قومك ياخذوا باحسنها يدل على ان بين التكليفين فرقا ليكون فى هذا الفصل فائدة وهى ان التكليف كان على موسى اشد لانه تعالى لم يرخص له مارخص لغيره من قومه فان قلت ظاهر قوله تعالى ياخذوا باحسنها يدل على ان فيها ماليس بحسن وذلك لم يقل به احد فما معنى قوله يأخذوا باحسنها قلت ان التكليف كله حسن وبعضه احسن كالقصاص حسن ولكن العفو احسن وكالانتصار حسن والصبر احسن منه فامروا ان يأخذوا بالاشد على انفسهم ليكون ذلك اعظم فى الثواب فهو كقوله اتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم وكقوله

الاسم والثانى يريد يارب باشافى والثالث ياغنى واما بلسان الفعل كما يدعوه الطالب السالك باتصافه بتلك الصفة فاذافنى عن علمه بعلمه دعاه باسمه العليم واذا وجد شفاء دائه منه وطلب منه ان يشفى غيره باتصافه بصفة الشفاء دعاه باسمه الشافى واذا استغنى عن فقره به دعاه باسمه الغنى وهذه هى الدعوة المأمور بها الموحدون من المؤمنين

الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه وقيل ان الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والاحسن الاخذ بالاشد والاشق على النفس وقيل معناه باحسنها بحسنها وكلها حسن * وقوله تعالى (ساريكم دار الفاسقين) قال مجاهد يعني مصيركم في الآخرة وقال الحسن وعطاء يريد جهنم يحذركم ان تكونوا مثلهم وقال قتادة فادخلكم الشام فاريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا الله تعالى لتعتبروا بها وقال عطية العوفي يعني دار فرعون وقومه وهي مصر وقال السدي يعني منازل الكفار وقال الكلبي هي منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا فكانوا يمرون عليها اذا سافروا * قوله عزوجل (ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق) قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون اوليائي ساصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها حتى لايؤمنوا بي عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم الحق وقال سفيان بن عيينة منعهم فهم القرآن وقيل معناه ساصرفهم عن التفكر في خلق السموات والارض ومافيهما من الآيات والعبر وقيل حكم الآيات لاهل مصر خاصة واراد بالآيات الآيات التسع التي اعطاها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام والاكثرون على ان الآية عامة وفيه دليل لمذهب اهل السنة على ان الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويصرف عن آياته وقبول الحق من يشاء ويوفق بالتفكر في آياته وقبول الحق من يشاء لانه القادر على مايشاء لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ومعنى الذين يتكبرون الذين يرون انهم افضل الخلق وان لهم من الحق ماليس لغيرهم والتكبر على هذه الصفة لايكون الالله عزوجل لانه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لاحد سواه فالتكبر في حق الله عزوجل صفة مدح وفي حق المخلوقين صفة ذم لانه تكبر بما ليس له ولايستحقه وقيل التكبر اظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق جميع العباد وقوله يتكبرون من الكبر لامن التكبر اي يفتعلون التكبر ويرون انهم افضل من غيرهم فلذلك قال يتكبرون في الارض بغير الحق بل بالباطل (وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد) يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب (لايتخذوه سبيلا) يعني لايختاروه لانفسهم طريقا يسلكونه الى الهداية (وان يروا سبيل الغي) يعني طريق الضلال (يتخذوه سبيلا ذلك بانهم كذبوا بآياتنا) يعني ذلك الذي اختاروه لانفسهم من ترك الرشد واتباع الغي بسبب انهم كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده (وكانوا عنها غافلين) يعني عن التفكر فيها والاتعاظ بها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) يعني ولقاء الدار الآخرة التي فيها الثواب والعقاب (حبطت اعمالهم) يعني بطلت فصارت كان لم تكن والمعنى انه قد يكون في الذين يكذبون بآيات الله من يعمل البر والاحسان والخير فبين الله تعالى بهذه الآية ان ذلك ليس ينفعهم مع كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وانكارهم الدار الآخرة والبعث (هل يجزون الاماكانوا يعملون) يعني هل يجزون في العقبى الاجزاء العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا * قوله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده) يعني من بعد انطلاق موسى الى الجبل لمناجاة ربه عزوجل (من حليهم) يعني التي استعاروها من قوم فرعون وذلك ان بني اسرائيل كان لهم عيد فاستعاروا من القبط الحلي ليتزينوا به في عيدهم فبقي عندهم الى ان اهلك الله فرعون وقومه فبقي الحلي لبني اسرائيل ملكالهم فلذلك قال الله تعالى من حليهم فلما ابطا موسى عليهم جمع السامري ذلك الحلي وكان رجلا مطاعا في بني اسرائيل

فليمتثلوا (وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون واملي لهم ان كيدي متين اولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة ان هو الانذير مبين اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وماخلق الله من

فلذلك قال تعالى واتخذ قوم موسى والمتخذ هوواحد فنسب الفعل الى الكل لانه كان برضاهم
فكأنهم اجمعوا عليه وكان السامرى رجلا صائغا فصاغ لهم (عجلا جسدا) يعنى من ذلك الحلى
وهو الذهب والفضة والقى فى ذلك العجل من تراب اثر فرس جبريل عليه السلام فتحوّل عجلا
جسدا لحما ودما (له خوار) هو صوت البقر وهذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور
اهل التفسير وقيل كان جسدا لاروح فيه وكان يسمع منه صوت وقيل ان ذلك الصوت كان خفيق
الريح وذلك انه جعله مجوّفا ووضع فى جوفه انابيب على وضع مخصوص فاذا هبت الريح
دخلت فى تلك الانابيب فيسمع لها صوت كصوت البقر والقول الاوّل اصح لانه كان يخور
وقيل انه خار مرة واحدة وقيل انه كان يخور كثيرا وكلما خار سجدوا له واذا سكت رفعوا
رؤسهم قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك وقال السدى كان يخور ويمشى (الم يروا)
يعنى الذين عبدوا العجل وقيل ان بنى اسرائيل كلهم عبدوا العجل وقيل ان بنى اسرائيل كلهم عبدوا
العجل الا هرون عليه الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى واتخذ قوم موسى من بعده وهذا يفيد
العموم وقيل ان بعضهم عبد العجل وهو الصحيح واجيب عن قوله واتخذ قوم موسى انه خرج
على الاغلب وكذا قوله الم يروا (انه) يعنى العجل الذى عبدوه (لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا)
يعنى ان هذا العجل لا يمكنه ان يتكلم بصواب ولا يهدى الى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان
كذلك كان جمادا او حيوانا ناقصا عاجزا وعلى كلا التقديرين لا يصلح لان يعبد (اتخذوه وكانوا
ظالمين) يعنى لانفسهم حيث اعرضوا عن عبادة الله تعالى الذى يضر وينفع واشتغلوا بعبادة
العجل الذى لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم ولا يهديهم الى رشد وصواب * قوله عزوجل (ولما سقط
فى ايديهم) يعنى ولما ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على امر سقط فى يده وذلك
لان من شان من اشتد ندمه على امر ان يعض يده ثم يضرب على فخذه فتصير يده ساقطة لان
السقوط عبارة عن النزول من اعلى الى اسفل (ورأوا انهم قد ضلوا) يعنى وتيقنوا انهم على
الضلالة فى عبادتهم العجل (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) يعنى يتب علينا ويتجاوز عنا
(لنكونن من الخاسرين) يعنى الذين خسروا انفسهم بوضعهم العبادة فى غير موضعها وهذا
كلام من اعترف بعظيم ما اقدم عليه من الذنب وندم على ما صدر منه ورغب الى الله تعالى فى اقالة
عثرته واعترافهم على انفسهم بالخسر ان ان لم يغفر لهم ربهم ويرحمهم كلام التائب النادم على
مافرط منه وانما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم وهو قوله تعالى (ولما رجع
موسى الى قومه غضبان اسفا) يعنى ولما رجع موسى عليه الصلاة والسلام من مناجاة ربه الى
قومه بنى اسرائيل رجع غضبان اسفا لان الله تعالى كان قد اخبره انه قد فتن قومه وان السامرى
قد اضلهم فكان موسى فى حال رجوعه غضبان اسفا قال ابو الدرداء الاسف اشد الغضب وقال
ابن عباس والسدى الاسف الحزن والاسيف الحزين قال الواحدى والقولان متقاربان لان
الغضب من الحزن والحزن من الغضب فاذا جاءك ماتكره ممن هو دونك غضبت واذا جاءك
ماتكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى احدى هاتين الحالتين حزنا والاخرى غضبا فعلى هذا
كان موسى عليه الصلاة والسلام غضبان على قومه لاجل عبادتهم العجل اسفا حزينا لان الله
تعالى فتنهم وان الله تعالى قد اعلمه بذلك فحزن لاجل ذلك (قال) يعنى موسى عليه الصلاة والسلام

شيء وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم فبأيّ حديث بعده يؤمنون من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون يسئلونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو) يطلبون هذه الصفات من غيره ويضيفونها اليه فيشركون به * المراد بالساعة وقت ظهور القيامة

لقومه (بئسما خلفتمونى من بعدى) اى بئس الفعل فعلتم بعد فراقى اياكم وهذا الخطاب يحتمل ان يكون لعبدة العجل من السامرى واتباعه اولهرون والمؤمنين من بنى اسرائيل فعلى الاحتمال الاوّل فانه خطاب لعبدة العجل يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله وعلى الاحتمال الثانى وهو ان يكون الخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى وقد رايتم منى الامر بتوحيد الله تعالى واخلاص العبادة له ونفى الشركاء عنه وحمل بنى اسرائيل على ذلك ومن حق الخلفاء ان يسيروا بسيرة مستخلفهم ❊ وقوله (اعجلتم امر ربكم) معنى العجلة التقدم بالشئ قبل وقته ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لان معناها عمل الشئ فى اوّل وقته ولقائل ان يقول لو كانت العجلة مذمومة لم يقل موسى عليه الصلاة والسلام وعجلت اليك رب لترضى ومعنى الآية اعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له وقال الحسن اعجلتم وعد ربكم الذى وعدكم من الاربعين وذلك انهم قدروا انه ان لم يأت على رأس الثلاثين فقد مات وقيل معناه اعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل وقال الكلبى معناه اعجلتم بعبادة العجل قبل ان يأتيكم امر ربكم ❊ ولما ذكر الله تعالى ان موسى عليه الصلاة والسلام رجع الى قومه غضبان اسفا ذكر بعده ما اوجبه الغضب فقال تعالى (والقى الالواح) يعنى التى فيها التوراة وكان حاملا لها فالقاها من شدة الغضب قالت الرواة واصحاب الاخبار كانت التوراة سبعة اسباع فلما القى موسى الالواح تكسرت فرفع منها ستة اسباع وبقى سبع واحد فرفع منها ما كان من اخبار الغيب وبقى ما فيه المواعظ والاحكام والحلال والحرام وروى ان الله تعالى اخبر موسى عليه الصلاة والسلام بفتنة قومه وعرف موسى عليه الصلاة والسلام ان ما اخبره الله سبحانه وتعالى به حق وصدق ومع ذلك لم يلق التوراة من يده فلما رجع الى قومه وعاين ذلك وشاهده القى التوراة وهذا كما قيل ليس الخبر كالمعاينة (واخذ برأس اخيه يجره اليه) قيل انه اخذ بشعر رأسه ولحيته من شدة غضبه وقال ابن الانبارى لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام ووجد قومه مقيمين على المعصية اكبر ذلك واستعظمه فاقبل على اخيه هرون يلومه ومد يده الى رأسه لشدة موجدته عليه اذ لم يلحق به فيعرفه خبر بنى اسرائيل فيرجع ويتلافاهم فاعلمه هرون عليه السلام انه انما اقام بين اظهرهم خوفا على نفسه من القتل وهو قوله تعالى (قال) يعنى هرون (ابن ام) انما قال هرون لموسى ابن ام وان كان لاب وام ليرفقه ويستعطفه عليه (ان القوم) يعنى الذين عبدوا العجل (استضعفونى) اى استذلونى وقهرونى (وكادوا يقتلوننى) اى وقاربوا اوهموا ان يقتلونى (فلا تشمت بى الاعداء) اصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان اذا سر بمكروه نزل به والمعنى لا تسر الاعداء بما تنال منى من مكروه (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) يعنى الذين عبدوا العجل (قال رب اغفر لى) يعنى ان موسى عليه الصلاة والسلام لما تبين له عذر اخيه هرون قال رب اغفر لى ما صنعت الى اخى هرون يريد ما ظهر من الموجدة عليه فى وقت الغضب (ولاخى) يعنى واغفر لاخى هرون ان كان وقع منه تقصير فى الانكار على عبدة العجل (وادخلنا) يعنى جميعا (فى رحمتك) يعنى فى سعة رحمتك (وانت ارحم الراحمين) وهذا فيه دليل على الترغيب فى الدعاء لان من هو ارحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعى فى نجاح طلبته (ان الذين

الكبرى اى الواحدة الذاتية بوجود المهدى ولا يعلم وقتها الا الله كما قال النبى عليه الصلاة والسلام فى وقت خروج المهدى كذب الوقاتون ولعمرى ما يعلمها عند وقوعها ايضا الا الله كما هى قبل وقوعها (ثقلت فى السموات والارض) اذ لا يسع اهلها علمها (لا تأتيكم الا بغتة يسئلونك كأنك حفى عنها قل انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون قل لا املك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب

اتخذوا العجل) يعني الها عبدوه من دون الله (سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا)
يعني سينالهم عقوبة من ربهم وهوان بسبب كفرهم وعبادتهم العجل وذلك في عاجل الحياة
الدنيا ثم للمفسرين في هذه الآية قولان احدهما ان المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا
عبادته وعلى هذا القول ففي الآية سؤال وهو ان اولئك الاقوام الذين اتخذوا
العجل تابوا الى الله تعالى بقتلهم انفسهم كما امرهم الله فتاب عليهم فكيف
ينالهم الغضب والذلة مع التوبة والجواب ان ذلك الغضب انما حصل
لهم في الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضبا عليهم والمراد
بالذلة هو استسلامهم انفسهم للقتل واعترافهم على انفسهم بالضلال والخطأ فان قلت السين في قوله
سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضي قلت هذا الكلام انما هو خبر عما اخبر الله به موسى عليه
الصلاة والسلام حين اخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم اخبره الله في ذلك الوقت انه سينالهم
غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقا لوقوعه وهو القتل الذي امرهم الله به بعد ذلك
وقال ابن جريج في هذه الآية ان هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل
وهذا الذي قاله ابن جريج وان كان له وجه لكن جميع المفسرين على خلافه القول الثاني ان المراد بالذين
اتخذوا العجل اليهودي الذي كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس هم الذين ادركوا
النبي صلى الله عليه وسلم وآباؤهم هم الذين عبدوا العجل واراد بالغضب عذاب الآخرة وبالذلة
في الدنيا الجزية وقال عطية العوفي سينال اولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم واراد بالغضب والذلة ما اصاب بني النضير وبني قريظة من القتل والجلاء وعلى
هذا القول ففي تقرير الآية وجهان الاول ان العرب تعير الابناء بقبائح افعال الآباء كما تفعل ذلك
في المناقب فتقول للابناء فعلتم كذا وفعلتم كذا وانما فعل ذلك من مضى من آبائهم فكذلك ههنا وصف
اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بانهم اتخذوا العجل وان كان آباؤهم فعلوا
ذلك ثم حكم على اليهود الذين كانوا في زمنه بانهم سينالهم غضب من ربهم في الآخرة وذلة في الحياة
الدنيا الوجه الثاني ان تكون الآية من باب حذف المضاف والمعنى ان الذين اتخذوا العجل وباشروا
عبادته سينال اولادهم الخ ثم حذف المضاف لدلالة الكلام عليه ❊ وقوله تعالى (وكذلك نجزي
المفترين) يعني وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل الها نجزي كل من افترى على الله كذبا او عبد
غيره وقال ابو قلابة هي والله جزاء كل مفتر الى يوم القيامة ان يذله الله وقال سفيان بن عيينة هذا
في كل مبتدع الى يوم القيامة وقال مالك بن انس ما من مبتدع الا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ
هذه الآية قال والمبتدع مفتر في دين الله (والذين عملوا السيآت) يعني عملوا الاعمال السيئة ويدخل
في ذلك كل ذنب صغير وكبير حتى الكفر فما دونه (ثم تابوا من بعدها) يعني ثم رجعوا الى الله
من بعد اعمالهم السيئة (وآمنوا) يعني وصدقوا بالله تعالى وانه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب
(ان ربك) يا محمد او يا ايها الانسان التائب (من بعدها) يعني من بعد توبتهم (لغفور رحيم)
يعني انه تعالى يغفر الذنوب ويرحم التائبين وفي الآية دليل على ان السيآت باسرها صغيرها وكبيرها
مشتركة في التوبة وان الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته وتقدير الآية ان من اتى بجميع
السيآت ثم تاب الى الله واخلص التوبة فان الله يغفرها له ويقبل توبته وهذا من اعظم البشائر للمذنبين

لا استكثرت من الخير
وما مسني السوء ان انا الا نذير
وبشير لقوم يؤمنون هو
الذي خلقكم من نفس
واحدة وجعل منها زوجها
ليسكن اليها فلما تغشاها
حملت حملا خفيفا فمرت به
فلما اثقلت دعوا الله ربهما
لئن آتيتنا صالحا لنكونن
من الشاكرين فلما آتاهما
صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما
فتعالى الله عما يشركون
ايشركون ما لا يخلق
شيأ وهم يخلقون
ولا يستطيعون لهم نصرا
ولا انفسهم ينصرون
وان تدعوهم الى الهدى

التائبين (قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب) يعني سكن لان السكوت اصله الامساك عن الشئ ولما كان السكوت بمعنى السكون استعير في سكون الغضب لان الغضب لا يتكلم لكنه لما كان بفورته دالا على ما في نفس المغضب كان بمنزلة الناطق فاذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السكوت عما كان متكلما به وقيل معناه ولما سكت موسى عن الغضب فهو من المقلوب كما تقول ادخلت القلنسوة في رأسي والمعنى ادخلت رأسي في القلنسوة والقول الاول اصح لانه قول اهل اللغة والتفسير (اخذ الالواح) يعني التي القاها قال الامام فخر الدين وظاهر هذا يدل على ان الالواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شئ (وفي نسختها) النسخ عبارة عن النقل والتحويل فاذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نقلت ما في الاصل الى الفرع فعلى هذا قيل اراد بها الالواح لانها نسخت من اللوح المحفوظ وقيل اراد بها النسخة المكتتبة من الالواح التي اخذها موسى بعد ما تكسرت وقال ابن عباس وعمرو بن دينار لما القى موسى الالواح فتكسرت صام اربعين يوما فردت عليه في لوحين وفيهما ما في الاولى بعينها فيكون نسخا نقلها وعلى قول من قال ان الالواح لم تتكسر واخذها موسى بعينها بعدما القاها يكون معنى وفي نسختها المكتوب فيها (هدى ورحمة) قال ابن عباس يعني هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) يعني للخائفين من ربهم * قوله عز وجل (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) الاختيار افتعال من لفظ الخيار يقال اختار الشئ اذا اخذ خيره وخياره والمعنى واختار موسى من قومه فحذف كلمة من وذلك سائغ في العربية لدلالة الكلام عليه قال اصحاب الاخبار ان موسى عليه الصلاة والسلام اختار من سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد منكم مثل اجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وقيل انه لم يجد الاستين شيخا فاوحى الله اليه ان يختار من الشباب عشرة فاختارهم فاصبحوا شيوخا فامرهم ان يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم ذهب بهم الى ميقات ربه واختلف اهل التفسير في ذلك الميقات فقيل انه الميقات الذي كلمه فيه ربه وسأل فيه الرؤية وذلك انه لما خرج الى طور سيناء اخذ معه هؤلاء السبعين فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى احاط بالجبل كله ودخل موسى فيه وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجدا وسمعوا الله تعالى وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل كذا لا تفعل كذا فلما انكشف الغمام اقبلوا على موسى وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة المذكورة في هذه الآية وقال السدي ان الله امر موسى ان يأتيه في ناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار موسى من قومه سبعين رجلا ثم ذهب بهم الى ميقات ربه ليعتذروا فلما اتوا ذلك المكان قالوا لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة فانك قد كلمته فارناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول رب ماذا اقول لبني اسرائيل اذا اتيتهم وقد اهلكت خيارهم رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياي وقال محمد بن اسحق اختار موسى من بني اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ثم خرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه الا باذن منه وعلم فقال السبعون فيما ذكر لي حين فعلوا ما امرهم به وخرجوا مع موسى لميقات ربه اطلب لنا نسمع

لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون ان الذين تدعون من دون الله) كائنين من كانوا ناسا كانوا او غيرهم (عباد امثالكم) في العجز وعدم التأثير (فادعوهم) الى امر لا ييسره الله لكم (فليستجيبوا لكم) الى تيسيره (ان كنتم صادقين) في نسبة التأثير الى الغير كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس يا غلام

كلام ربنا فقال افعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى غشي الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى اذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لايستطيع احد من بني آدم ان ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجدا فسمعوا الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولاتفعل فلما فرغ من امره انكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا له ان نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتهم الصاعقة وهي الرجفة فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه يقول رب لوشئت اهلكتهم من قبل واياي وقال ابن عباس كان الله امر موسى ان يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم فكان فيما دعوا الله ان قالوا اللهم اعطنا مالم تعطه احدا قبلنا ولاتعطه احدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فاخذتهم الرجفة قال رب لوشئت اهلكتهم من قبل واياي وقيل انما اخذتهم الرجفة من اجل انهم ادعوا على موسى انه قتل هرون قال علي بن ابي طالب انطلق موسى وهرون الى سفح جبل فنام هرون على سرير فتوفاه الله فلما رجع موسى الى بني اسرائيل قالوا له انت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه وكان هرون حسن الخلق محببا في بني اسرائيل فقال لهم موسى اختاروا من شئتم فاختاروا سبعين رجلا فلما انتهوا اليه قالوا ياهرون من قتلك قال ماقتلني احد ولكن الله توفاني فاخذتهم الرجفة فجعل موسى يرجع يمينا وشمالا ويقول رب لوشئت اهلكتهم من قبل واياي الآية قال فاحياهم الله عز وجل وقيل انما اخذتهم الرجفة لتركهم فراق عبدة العجل لالانهم كانوا من عبدته قال ابن عباس انما تناولتهم الرجفة لانهم لم يزايلوا القوم حين نصبوا العجل وماكرهوا ان يجامعوهم عليه قال ابن جريج فلما اخرجوا ودعوا الله اماتهم ثم احياهم وقال مجاهد واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا الميقات الموعد فلما اخذتهم الرجفة بعد ان خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله ويسألون ان يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم علم موسى انهم قد اصابوا من المعصية مااصاب قومهم وقال محمد بن كعب القرظي لم يستجب لهم من اجل انهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف فاخذتهم لرجفة فماتوا ثم احياهم الله ❊ وقوله تعالى ﴿ فلما اخذتهم الرجفة ﴾ اصل الرجف الاضطراب الشديد الذي يحصل معه التغيير والهلاك ولهذا اختلفوا في تلك الرجفة التي حصلت لهؤلاء هل كان معها موت ام لا فمعظم الروايات التي تقدمت انهم ماتوا بسبب تلك الرجفة وقال وهب بن منبه لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة اخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت ان تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين له مطيعين فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام الله فذلك قوله تعالى فلما اخذتهم الرجفة ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ رب ﴾ اي يارب ﴿ لوشئت اهلكتهم من قبل ﴾ يعني من قبل عبادتهم العجل ﴿ واياي ﴾ وذلك انه خاف ان يتهمه بنو اسرائيل على السبعين اذا رجع اليهم وماهم معه ولم يصدقوه بانهم ماتوا فقال رب لوشئت اهلكتهم من قبل يعني قبل خروجهم الى الميقات واياي معهم فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولايتهمونني ﴿ اتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ قال الفراء ظن موسى انهم اهلكوا باتخاذ اصحاب العجل العجل فقال اتهلكنا بما فعل السفهاء منا يعني عبدة العجل وانما اهلكوا بسبب مسئلتهم الرؤية وهي

احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك واذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على ان يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف (اللهم ارجل

(قولهم)

قولهم ارنا الله جهرة وهذا قول الكلبي وجماعة من اهل العلم لا يجوز ان يظن موسى ان الله تعالى يهلك قوما بذنوب غيرهم ولكن قوله اتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام بمعنى الجحد اى لست تفعل ذلك وهذا قول ابن الانبارى وقال المبرد هذا استفهام استعطاف اى لا تهلكنا (ان هى الا فتنتك) قال الواحدى الكناية فى هى تعود الى الفتنة كما تقول ان هو الا زيد والمعنى ان تلك الفتنة التى وقع فيها السفهاء لم تكن الا فتنتك اى اختيارك وابتلاءك وهذا تأكيد لقوله اتهلكنا بما فعل السفهاء منا لان معناه لا تهلكنا بفعلهم فان تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء اضللت بها قوما فافتتنوا وهديت قوما فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك وهو المراد من قوله (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) قال الواحدى وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التى لا يبقى لهم معها عذر (انت ولينا) يعنى انت يا ربنا ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر اى لا ولى لنا ولا ناصر ولا حافظ الا انت (فاغفر لنا) سأل موسى عليه الصلاة والسلام لنفسه ولقومه الغفران اما لنفسه فلقوله ان هى الا فتنتك وهذا فيه اقدام على الحضرة المقدسة واما لقومه فلقولهم ارنا الله جهرة وفى هذا اقدام على الحضرة المقدسة فلهذا السبب سأل موسى عليه الصلاه والسلام الغفران له ولقومه (وارحمنا) اى واشملنا برحمتك التى وسعت كل شئ (وانت خير الغافرين) يعنى ان كل من سواك انما يغفر الذنب طلبا للثناء الجميل او لدفع ضرر واما انت يارب فتغفر ذنوب عبادك الا لطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم فانت خير الغافرين * قوله تعالى (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) يعنى قال موسى فى دعائه واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة اى واجعلنا ممن كتبت له حسنة وهى ثواب الاعمال الصالحة وفى الآخرة اى واكتب لنا فى الآخرة مغفرة لذنوبنا (انا هدنا اليك) قال ابن عباس معناه انا تبنا اليك وهذا قول جميع المفسرين واصل الهود الرجوع برفق قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم فلما نسخ شريعتهم صار اسم ذم وهو لازم لهم (قال) يعنى قال الله عزوجل لموسى عليه الصلاة والسلام (عذابى اصيب به من اشاء) يعنى من خلقى وليس لاحد على اعتراض لان الكل ملكى وعبيدى ومن تصرف فى خاص حقه فليس لاحد عليه اعتراض (ورحمتى وسعت كل شئ) يعنى ان رحمته سبحانه وتعالى عمت خلقه كلهم وقال بعضهم هذا من العام اريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر فى الدنيا وهى للمؤمنين خاصة فى الآخرة وقيل هى للمؤمنين خاصة فى الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله له فاذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة قال جماعة من المفسرين لما نزلت ورحمتى وسعت كل شئ تطاول ابليس اليها وقال انا من ذلك الشئ فنزعها الله تعالى من ابليس فقال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون)فأيس ابليس منها وقالت اليهود نحن نتقى ونؤتى الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله من اليهود واثبتها لهذه الامة فقال تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الامى الآية وقال نوف البكالى لما اختار موسى من قومه سبعين رجلا قال الله تعالى لموسى اجعل لك الارض مسجدا وطهورا تصلون حيث ادركتكم الصلاة الا عند مرحاض او حمام او قبر واجعل السكينة فى قلوبكم واجعلكم تقرؤن التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لا نريد ان نصلى الا فى الكنائس ولا نستطيع حمل

يمشون بها ام لهم ايد يبطشون بها ام لهم اعين يبصرون بها ام لهم آذان يسمعون بها) استفهام على سبيل الانكار اى الهم ارجل ولكن لا يمشون بها بل الله اذ هو الذى يمشيهم بها وكذا سائر الجوارح (قل ادعوا شركاءكم) من الجن والانس (ثم كيدون فلا تنظرون) ان استطعتم فان متولى امرى وحافظى ومدبرى

السكينة في قلوبنا ولا نستطيع ان نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ولا نريد ان نقرأها الا نظرا قال الله تعالى فسأكتبها للذين يتقون الى قوله المفلحون فجعلها الله تعالى لهذه الامة فقال موسى رب اجعلني نبيهم منهم قال اجعلني منهم قال انك لن تدركهم قال موسى يارب اتيتك بوفد بني اسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فانزل الله تعالى ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون فرضي موسى اما التفسير فقوله الذين يتقون يعني الشرك وسائر مانهوا عنه لان جميع التكاليف محصورة في نوعين الاول التروك وهي الاشياء التي يجب على الانسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها واليه الاشارة بقوله تعالى للذين يتقون والثاني الافعال المأمور بها وتلك الاعمال بدنية وقلبية اما البدنية فاليها الاشارة بقوله ويؤتون الزكاة وهذه الآية وان كانت في حق المال لكن يختص البدن باخراجها والاعمال القلبية كالايمان والمعرفة واليها الاشارة بقوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون ※ وقوله عز وجل ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ﴾ ذكر الامام فخر الدين الرازي في معنى هذه التبعية وجهين احدهما ان المراد بذلك ان يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة اذ لا يجوز ان يتبعوه في شرائعه قبل ان يبعث الى الخلق وفي قوله والانجيل ان المراد وسيجدونه مكتوبا في الانجيل لان من المحال ان يجدوه فيه قبل ما انزل الله الانجيل الوجه الثاني ان المراد من لحق من بني اسرائيل زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فبين تعالى ان هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة الا اذا اتبعوه قال وهذا القول اقرب لان اتباعه قبل ان يبعث لا يمكن فبين بهذه الآية ان هذه الرحمة لا يفوزبها من بني اسرائيل الا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات الله في زمن موسى عليه الصلاة والسلام ومن كانت هذه صفته في ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مع ذلك متبعا للنبي صلى الله عليه وسلم في شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول من بني اسرائيل خاصة وجمهور المفسرين على خلاف ذلك فانهم قالوا المراد بهم جميع امته الذين آمنوا به واتبعوه سواء كانوا من بني اسرائيل اوغيرهم واجمع المفسرون على ان المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بكونه رسولا لانه الواسطة بين الله وبين خلقه المبلغ رسالته واوامره ونواهيه وشرائعه اليهم ثم وصفه بكونه نبيا وهذا ايضا من اعلى المراتب واشرفها وذلك يدل على انه رفيع الدرجات عند الله المخبر عنه ثم وصفه بالامي قال ابن عباس هو نبيكم صلى الله عليه وسلم كان اميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الزجاج في معنى الامي هو الذي على صفة امة العرب اكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب فالنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك فلهذا وصفه الله تعالى بكونه اميا وصح في الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال نحن امة امية لا نكتب ولا نحسب قال اهل التحقيق وكونه صلى الله عليه وسلم كان اميا من اكبر معجزاته واعظمها وبيانه انه صلى الله عليه وسلم اتى بهذا الكتاب العظيم الذي اعجزت الخلائق فصاحته وبلاغته وكان يقرؤه عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولا تغيير فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى سنقرئك فلا تنسى وقيل انه لو كان يحسن الكتابة ثم انه اتى بهذا القرآن العظيم لكان متهما فيه لاحتمال انه كتبه ونقله عن غيره فلما كان اميا واتى بهذا القرآن العظيم الذي فيه علم الاولين والآخرين

هو (وليي الله الذي نزل الكتاب) يعلني بتنزيل الكتاب (وهو يتولى الصالحين) كل صالح اى كل من قام به في حال الاستقامة وكلا ورد الصالح في وصف نبي من الانبياء اريد به الباقي بالحق بالاستقامة والتمكن بعد الفناء في عين

الجم القائم باصلاح النوع باذن الحق والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولاانفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون) اى ان تدع المطبوع على قلوبهم من المشركين وغيرهم الى الهدى لايسمعوا ولا يطيعوا وتراهم مع صحة البصر والنظر لايبصرون

والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وايضا فان الكتابة تعين الانسان على الاشتغال بالعلوم وتحصيلها ثم انه اتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقايق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على احد فدل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل فى معنى الامى الذى هو منسوب الى امه كانه لم يخرج بعد عما ولدته عليه وقيل سمى اميا لانه منسوب الى ام القرى وهى مكة وقوله تعالى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يعنى يجدون صفته ونعته ونبوته مكتوبة عندهم يعرفها علماؤهم واحبارهم ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسدا منهم له وخوفا على زوال رياستهم وقد حصل لهم ماكانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا فى الذل والهوان (خ) عن عطاء بن يسار قال لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت اخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال اجل انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن يا ايها النبى انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به اعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا

(شرح غريب الفاظ الحديث)

الفظ السيئ الخلق والغليظ الجافى القاسى وقوله سخاب بالسين والصاد وهو كثير الصياح فى الاسواق والاعوجاج ضد الاستقامة واراد بالملة العوجاء الكفر والقلب الاغلف الذى لا يصل اليه شئ ينفعه شبهه بالاغلف كانه فى غلاف وروى البغوى بسنده عن كعب الاحبار قال انى اجد فى التوراة مكتوبا محمد رسول الله لافظ ولا غليظ ولا سخاب فى الاسواق ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح امته الحامدون ويحمدون الله فى كل منزلة ويكبرونه على كل نجد يأتزرون على انصافهم ويوضئون اطرافهم صفهم فى الصلاة وصفهم فى القتال سواء مناديهم ينادى فى جو السماء لهم فى جوف الليل دوى كدوى النحل مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ❊ وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) يعنى بالايمان وتوحيد الله (وينهاهم عن المنكر) يعنى عن الشرك بالله وقيل المعروف ماعرف فى الشريعة والسنة والمنكر مالا يعرف فى شريعة ولاسنة وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الانداد ومكارم الاخلاق وصلة الارحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الاوثان وقطع الارحام (ويحل لهم الطيبات) يعنى بذلك ما كان محرما عليهم فى التوراة من الطيبات وهو لحوم الابل وشحم الغنم والمعز والبقر وقيل هو ماكانوا يحرمونه على انفسهم فى الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامى وقيل هى المستلذات التى تستطيبها الانفس (ويحرم عليهم الخبائث) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل هو كل مايستخبثه الطبع وتستقذره النفس فان الاصل فى المضار الحرمة الا ماله دليل متصل بالحل (ويضع عنهم اصرهم) يعنى ثقلهم واصل الاصر الثقل الذى يأصر صاحبه اى يحبسه عن الحركة لثقله والمراد بالاصر هنا العهد والميثاق الذى اخذ على بنى اسرائيل ان يعملوا بما فى التوراة من الاحكام فكانت تلك الشدائد (والاغلال التى كانت عليهم) يعنى يضع الاثقال والشدائد التى كانت عليهم فى الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس فى التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة

وقرض النجاسة من الدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص فى القتل وتحريم اخذ الدية وترك العمل فى السبت وان صلاتهم لاتجوز الا فى الكنائس وتتبع العروق فى اللحم وغير ذلك من الشدائد التى كانت على بنى اسرائيل شبهت بالاغلال مجازا لان التحريم يمنع من الفعل كما ان الغل يمنع من الفعل وقيل شبهت بالاغلال التى تجمع اليد الى العنق كما ان اليد لاتمتد مع وجود الغل فكذلك لاتمتد الى الحرام الذى نهيت عنه وكانت هذه الاثقال فى شريعة موسى عليه الصلاة السلام فلما جاء محمد عليه الصلاة والسلام نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السهلة السمحة ﴿ فالذين آمنوا به ﴾ يعنى بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ وعزروه ﴾ يعنى وقروه وعظموه واصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبى صلى الله عليه وسلم تعظيمه واجلاله ودفع الاعداء عنه وهو قوله ﴿ ونصروه ﴾ يعنى على اعدائه ﴿ واتبعوا النور الذى انزل معه ﴾ يعنى القرآن سمى القرآن نورا لان به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة الى ضياء اليقين والعلم ﴿ اولئك هم المفلحون ﴾ يعنى هم الناجون الفائزون بالهداية ❊ قوله تعالى ﴿ قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم اى قل يا محمد للناس انى رسول الله اليكم جميعا الى بعضكم دون بعض ففى الآية دليل على عموم رسالته الى كافة الخلق لان قوله يا ايها الناس خطاب عام يدخل فيه جميع الناس ثم امره الله عز وجل بان يقول انى رسول الله اليكم جميعا وهذا يقتضى كونه مبعوثا الى جميع الناس (ق) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلى كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل احمر واسود واحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وجعلت لى الارض طيبة وطهورا ومسجدا فايما رجل ادركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب على العدو بين يدى مسيرة شهر واعطيت الشفاعة وفى رواية اعطيت خمسا لم يعطهن احد من الانبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا فايما رجل من امتى ادركته الصلاة فليصل واحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد من قبلى واعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقوله فى الرواية الاولى وبعثت الى كل احمر واسود قيل اراد بالاحمر العجم وبالاسود العرب وقيل اراد بالاحمر الانس وبالاسود الجن فعلى هذا تكون رسالته صلى الله عليه وسلم عامة الى كافة الخلق من الانس والجن (م) عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فضلت على الانبياء بستة اعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب واحلت لى الغنائم وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا وارسلت الى الخلق كافة وختم بى النبيون ❊ وقوله تعالى ﴿ الذى له ملك السموات والارض ﴾ لما امر الله عز وجل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقول يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا اردفه بما يدل على صحة دعواه يعنى ان الذى له ملك السموات والارض وهو مدبرهما ومالك امرهما هو الذى ارسلنى اليكم وامرنى بان اقول لكم انى رسول الله اليكم جميعا ﴿ لا اله الا هو يحيى ويميت ﴾ وصف الله نفسه بالالهية وانه لاشريك له فيها وانه القادر على احياء خلقه واماتتهم ومن كان كذلك فهو القادر على ارسال الرسل الى خلقه ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ لما امر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقول للناس انى رسول الله اليكم جميعا امر الله جميع خلقه بالايمان به وبرسوله وذلك لان الايمان بالله هو الاصل والايمان برسوله

الحق ولا حقيقتك لانهم عمى القلوب فى الحقيقة ﴿ خذ العفو ﴾ اى السهل الذى يتيسر لهم ولا تكلفهم مالا يتيسر لهم ﴿ وامر بالعرف ﴾ اى بالوجه الجميل ﴿ واعرض عن الجاهلين ﴾ بعدم مكافاة جهلهم ومن الامام جعفر الصادق رضى الله عنه امر الله نبيه بمكارم الاخلاق وليس فى القرآن آية اجمع لمكارم الاخلاق منها قال ذلك لقوة دلالتها على التوحيد

فرع عنه فلهذا بدا بالايمان بالله ثم ثنى بالايمان رسوله فقال فآمنوا بالله ورسوله ثم وصفه فقال تعالى (النبي الامي) تقدم معناهما (الذى يؤمن بالله وكلماته) قال قتادة يعنى آياته وهو القرآن وقال مجاهد والسدى اراد بكلماته عيسى بن مريم لانه خلق بقوله كن فكان وقيل هو على العموم يعنى يؤمن بجميع كلمات الله تعالى (واتبعوه) يعنى واقتدوا به ايها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه وقيل المتابعة على قسمين متابعة فى الاقوال ومتابعة فى الافعال اما المتابعة فى الاقوال فبأن يمتثل التابع جميع ما امره المتبوع على طريق والنهى والترهيب واما المتابعة فى الافعال فبأن يقتدى به فى جميع افعاله وآدابه الا ما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت بالدليل انه من خصائصه فلا متابعة فيه ✽ وقوله تعالى (لعلكم تهتدون) يعنى لكى تهتدوا وترشدوا وتصيبوا الحق والصواب فى متابعتكم اياه ✽ قوله عز وجل (ومن قوم موسى) يعنى من بنى اسرائيل (امة) اى جماعة (يهدون بالحق) يعنى يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون اليه (وبه يعدلون) يعنى وبالحق يحكمون وبالعدل ياخذون ويعطون ويتصفون واختلفوا فى هؤلاء من هم فقيل الذين اسلموا من بنى اسرائيل مثل عبد الله بن سلام واصحابه فانهم آمنوا بموسى والتوارة وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن واعترض على هذا بانهم كانوا قليلين ولفظ الامة يقتضى الكثرة واجيب عنه بانهم لما كانوا مخلصين فى الدين جاز اطلاق لفظ الامة عليهم كما فى قوله ان ابراهيم كان امة وقيل هم قوم بقوا على الدين الحق الذى جاء به موسى عليه الصلاة والسلام قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس اليه وقال السدى وابن جريج وجماعة من المفسرين ان بنى اسرائيل لما قتلوا انبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطا تبرا سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله ان يفرق بينهم وان يبعدهم عنهم ففتح الله لهم نفقا فى الارض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس سار وافى السرب سنة ونصفا رواه الطبرى وحكى البغوى عن الكلبى والضحاك والربيع قالوا هم قوم خلف الصين باقصى الشرق على نهر يسمى نهر الاردن ليس لاحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون ولا يصل اليهم احد منا وهم على الحق وذكر لنا ان جبريل ذهب بالنبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء به فكلمهم الله فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون قالوا لا فقال هذا النبى الامى فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى اوصانا ان من ادرك منكم احمد فليقرأ منى عليه السلام فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم موسى واقرأهم عشر سور من القرآن نزلت عليه بمكة وامرهم بالصلاة والزكاة وامرهم ان يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فامرهم ان يجمعوا ويتركوا السبت وهذه الحكاية ضعيفة من وجوه الاول قولهم ان احدا منا لا يصل اليهم واذا كان كذلك فمن ذا الذى اوصل خبرهم الينا الوجه الثانى قولهم ان جبريل ذهب بالنبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء به وهذا لم يرد به نقل صحيح ولا رواه احد من ائمة الحديث ولا يلتفت الى قول الاخباريين والقصاص فى ذلك الوجه الثالث قولهم انهم بلغوا النبى صلى الله عليه وسلم سلام موسى وقد صح فى حديث المعراج انه سلم عليه فى السماء السادسة وايضا قولهم واقرأهم عشر سور وقد نزل عليه بمكة اكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يامرهم بها قبل فرضيتها

فان من شاهد مالك النواصى وتصرفه فى عباده وكونهم فيما يأتون ويذرون به لا بانفسهم لايشاقهم ولا يداقهم فى تكاليفهم ولا يغضب فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا تشدد عليهم ويحلم عنهم (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) اى نخس وداعية قوية تحملك على مناقشتهم برؤية الفعل منهم ونسبة الذنب اليهم (فاستعذ بالله) بالشهود والحضور لفاعليته (انه سميع) يسمع

فاذاثبت بماذكره بطلان هذه الرؤية فالمختار فى تفسير هذه الآية انها اما ان تكون نزلت فى قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك واما ان تكون قد نزلت فيمن اسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام واصحابه والله اعلم بمراده ❊ قوله تعالى (وقطعناهم) يعنى وفرقنا بنى اسرائيل (اثنتى عشرة اسباطا) يعنى من اولاد يعقوب لان يعقوب هو اسرائيل واولاده الاسباط وكانوا اثنى عشر ولدا (امما) يعنى جماعة وقبائل (واوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) يعنى فى التيه (اضرب بعصاك الحجر فانبجست) يعنى فانفجرت وقيل عرقت وهو الانبجاس (منه) اى من الحجر (اثنتا عشرة عينا) يعنى لكل سبط عين (قد علم كل اناس مشربهم) يعنى لا يدخل سبط على سبط فى مشربهم (وظللنا عليهم الغمام) يعنى فى التيه يقيهم حر الشمس (وانزلنا عليهم المن) هو الترنجبين (والسلوى) جنس من الطير جعل الله ذلك طعاما لهم فى التيه (كلوا من طيبات مارزقناكم) اى وقلنا كلوا (وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون) فى الكلام حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات مارزقناكم فاجمعوا ذلك وسئموه وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه غيره لان المكلف اذا امر بشئ فتركه وعدل عنه الى غيره يكون عاصيا بفعله ذلك فلهذا قال وما ظلمونا يعنى وما ادخلوا علينا فى ملكنا وسلطاننا نقصا بمعصيتهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون يعنى بمخالفتهم ما امروا به وقد تقدم بسط الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة ❊ وقوله تعالى (واذ قيل لهم) يعنى واذكر يا محمد لقومك اذ قيل لهم يعنى لبنى اسرائيل (اسكنوا هذه القرية) يعنى بيت المقدس وقال فى سورة البقرة ادخلوا هذه القرية ولا منافاة بينهما لان كل ساكن فى موضع لابد له من الدخول اليه (وكلوا منها حيث شئتم) يعنى وكلوا من ثمار القرية وزروعها وحبوبها وبقولها حيث شئتم وان شئتم وقال فى البقرة فكلوا بالفاء وهنا بالواو والفرق بينهما ان الدخول حالة مقتضية للاكل عقبه فحسن دخول الفاء التى هى للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الاكل حاصلا متى شاؤا وانما قال فى سورة البقرة رغدا ولم يقله هنا لان الاكل عقب الدخول الذ واكمل فاما الاكل مع السكنى والاستمرار فليس كذلك فحسن دخول لفظة رغدا هناك بخلافه هنا (وقولوا حطة) اى حط عنا ذنوبنا (وادخلوا الباب سجدا) وقال فى البقرة عكس هذا اللفظ ولا منافاة فى ذلك لان المقصود من ذلك تعظيم امر الله واظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بسبب التقديم والتأخير (نغفر لكم خطيئاتكم) يعنى نغفر لكم ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها وانما قال هنا خطيئاتكم وفى البقرة خطاياكم لان المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة او كثيرة اذا اتوا بالدعاء والتضرع (سنزيد المحسنين) وقال فى سورة وسنزيد بالواو ومعناه انه قد وعد المسيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب واسقاط الواو لا يخل بهذا المعنى لانه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد المحسنين (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) يعنى فغير الذين ظلموا انفسهم بمخالفة امرنا من بنى اسرائيل فقالوا قولا غير الذى قيل لهم وامروا به وذلك انهم امروا ان يقولوا حطة فقالوا حنطة فى شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم (فأرسلنا عليهم رجزا من السماء) يعنى بعثنا عليهم عذابا من السماء اهلكهم ولا منافاة بين قوله تعالى هنا ارسلنا وبين قوله فى سورة البقرة انزلنا لانهما لا يكونان الا من اعلى الى اسفل وقيل بينهما فرق وهو ان الانزال

احاديث النفس ووساوس الشيطان فى الصدر (عليم) بالنيات والاسرار (ان الذين اتقوا) الشرك (اذا مسهم طائف) لمة (من الشيطان) بنسبة الفعل الى الغير (تذكروا) مقام التوحيد ومشاهدة الافعال من الله (فاذاهم مبصرون) ضالية الله فلا يبقى شيطان ولا فاعل غير الله فى نظره (واخوانهم) واخوان الشياطين من المحجوبين

لايشعر بالكثرة والارسال يشعر بذلك فكأنه تعالى بدأ بانزال العذاب قليلا ثم ارسله عليهم كثيرا (بما كانوا يظلمون) يعني ان ارسال العذاب عليهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم امر الله وقال في البقرة بما كانوا يفسقون والجمع بينهما انهم لما ظلموا انفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى وقد تقدمت هذه القصة ايضا في تفسير سورة البقرة * قوله عز وجل (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك عن حال اهل القرية وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام لانه عليه الصلاة والسلام كان قد علم حال اهل هذه القرية بوحي الله عز وجل اليه واخباره اياهم بحالهم وانما المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على اقدامهم على الكفر والمعاصي قديما وان اصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وانكار نبوته ومعجزاته ليس شيأ قد حدث منهم في زمانه بل اصرارهم على الكفر كان حاصلا لاسلافهم في قديم الزمان وفي الاخبار بهذه القصة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان اميا لا يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف اخبار الاولين ثم اخبرهم بما جرى لاسلافهم في قديم الزمان وانهم بسبب مخالفتهم امر الله عز وجل مسخوا قردة وخنازير واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب وقيل بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهري هي طبرية الشام وفي رواية عن ابن عباس قال هي مدين وقال وهب هي ما بين مدين وعيوني يعني القرية التي كانت على ساحل البحر وقريبة منه (اذ يعدون في السبت) يعني يتجاوزون حد الله فيه وما امرهم به من تعظيمه فخالفوا امر الله وصادوا فيه السمك (اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) يعني ظاهرة على الماء كثيرة وقال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضهم بعضا وقيل كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش البيض السمان (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) يعني الحيتان (كذلك نبلوهم) يعني مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ونحن اعلم بحالهم (بما كانوا يفسقون) يعني ان ذلك الابتلاء والاختبار بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله وما امروا به قال اهل التفسير ان اليهود امروا بيوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به وهو ان الله امرهم بتعظيمه ونهاهم عن العمل فيه وحرم عليهم فيه الصيد فلما اراد الله ان يبتليهم كانت الحيتان تظهر لهم في يوم السبت ينظرون اليها في البحر فاذا انقضى السبت ذهبت فلم تر الى السبت المقبل فلما ابتلوا به وسوس اليهم الشيطان وقال ان الله لم ينهكم عن الاصطياد وانما نهاكم عن الاكل فاصطادوا وقيل انه وسوس اليكم انكم انما نهيتم عن الاخذ فاتخذوا حياضا على ساحل البحر وسوقوا اليها الحيتان يوم السبت فاذا كان يوم الاحد خذوها ففعلوا ذلك زمانا ثم انهم تجرؤا على السبت وقالوا ما نرى السبت الا قد حل لنا فاصطادوا فيه واكلوا وباعوا وصار اهل القرية احزابا ثلاثة وكانوا نحوا من سبعين الفا فثلث نهوا عن الاصطياد وثلث سكتوا ولم ينهوا وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم وثلث هم اصحاب الخطيئة الذين خالفوا امر الله واصطادوا واكلوا وباعوا فلما لم ينتهوا عما هم فيه من المعصية قال الناهون لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار للناهين باب يدخلون ويخرجون منه وللعاصين باب ولعنهم داود عليه الصلاة والسلام وكانوا في زمنه فاصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين احد فقالوا ان لهم لشأنا لعل الخمر قد غلبتهم فعلوا على الجدار الذي

(يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) في نسبة الفعل الى غيره فلا يقصرون من العناد والمراء والجهل (لولا اجتبيتها) اي هلا اجتمعتها من تلقاء نفسك (قل انما اتبع ما يوحى الي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) اي لا افتعل بنفسي بل ابلغ عن الله ولا اقول الا يوحى الي منه به لاني قائم به لا بنفسي

بذنهم فاذاهم قد مسخوا قردة ففتحوا عليهم الباب ودخلوا اليهم فصار القردة يعرفون انسابهم من الناس ولم يعرف الناس انسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي انسابها من الناس فتشم ثيابها فيقول لهم اهلوهم الم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم فنجا الناهون وهلك سائرهم فذلك قوله تعالى (واذ قالت امة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم) واختلفوا في القائلين هذه المقالة فقال بعض المفسرين ان اهل القرية افترقوا ثلاث فرق فرقة اعتدت واصابت الخطيئة وفرقة نهتهم عن ذلك الفعل وفرقة امسكت عن الصيد وسكتت عن موعظة المعتدين وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا يعني انهم لاموهم على موعظة قوم يعلمون انهم غير متعظين ولا منزجرين فقالت الفرقة الناهية للذين لاموهم معذرة الى ربكم يعني ان موعظتنا اياهم معذرة الى ربكم لان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علينا فوعظتنا لهؤلاء عذر لنا عند الله (ولعلهم يتقون) اي وجائز عندنا ان ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ماهم فيه من الصيد وقال بعضهم ان اهل القرية كانوا فرقتين فرقة نهت وزجرت عن السوء وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك ان الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية انتهوا قبل ان ينزل بكم عذاب شديد ان لم تنتهوا عما انتم فيه فقالت لهم الفرقة المعتدية لم تعظون قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا والمعنى لم تعظونا وقد علمتم ان الله مهلكنا او منزل بنا عذابه والقول الاول اصح لانهم لو كانوا فرقتين لكان قولهم معذرة الى ربكم خطابا من الناهية للمعتدية * وقوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به) اي فلما تركوا ما وعظوا به (انجينا الذين ينهون عن السوء) وهم الفرقة الناهية (واخذنا الذين ظلموا) يعني الفرقة المعتدية العاصية (بعذاب بئيس) اي شديد وجيع من البأس وهو الشدة (بما كانوا يفسقون) يعني اخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا روى عكرمة عن ابن عباس قال اسمع الله يقول انجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا ادري ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي قال عكرمة فقلت له جعلني الله فداءك الا تراهم قد انكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وان لم يقل الله انجيتهم لم يقل اهلكتهم قال فاعجبه قولي ورضي به وامرلي ببردين فكسانيهما وقال نجت الساكتة وقال يمان بن رباب نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة واهلك الله الذين اخذوا الحيتان وهذا قول الحسن وقال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية اشد آية في ترك النهي عن المنكر * وقوله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه) قال ابن عباس ابوا ان يرجعوا عن المعصية والعتوّ عبارة عن الاباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعني عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك في يوم السبت واكله (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) يعني صاغرين مبعدين من كل خير قال قتادة لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالا ونساء وقال ابن عباس جعل الله منهم القردة والخنازير فزعم ان شبان القوم صاروا قردة وان المشيخة صاروا خنازير قيل انهم بقوا ثلاثة ايام ينظر الناس اليهم ثم هلكوا جميعا * قوله تعالى (واذ تأذن ربك) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم

(واذا قرئ القرآن فاستمعوا له) اي الى الله ولا تستمعوا الا منه (وانصتوا) عن حديث النفس وغيره فان المتكلم به هو الله (لعلكم ترحمون) برحمة تجلي المتكلم في كلامه بصفاته وافعاله (واذكر ربك) حاضرا (في نفسك) كقوله لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة (تضرعا) في مقام التفصيل للجمع (وخيفة) في السر من

ومعنى تأذن اذن والاذان الاعلام يعنى اعلم ربك وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك وقيل آلى ربك بمعنى اقسم ربك (ليبعثن عليهم) اللام فى قوله ليبعثن جواب القسم لان قوله واذ تأذن ربك جار مجرى القسم لكونه جزما وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا فى الضمير فى عليهم الى من يرجع فقيل يقتضى ان يكون راجعا الى قوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قدعلم ان الذين مسخوا لم يبق منهم احد فيحتمل ان يكون المراد الذين بقوا منهم فألحق الذل بهم وقيل بان المراد سائر اليهود من بعدهم لان الذين بقوا من اهل القرية كانوا صالحين والذى بعثه الله على اليهود وهو بختنصر وسنجاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب وقيل المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى بعثه الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وامته فالزم من لم يسلم منهم الصغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود الى يوم القيامة واورد على هذا بان فى آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج الدجال لان اليهود اتباعه واشياعه واجيب عنه بان ذلك العز الذى يحصل لهم هو فى نفسه غاية الذلة لانهم يدعون الهية الدجال فيزدادون كفرا على كفرهم فاذا هلك الدجال اهلكهم المسلمون وقتلوهم جميعا فذلك هو الذلة والصغار المشار اليه بقوله تعالى ليبعثن عليهم (الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) وهذا نص فى ان العذاب انما يحصل لهم فى الدنيا مستمرا عليهم الى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالاهانة والذلة واخذ الجزية منهم فاذا افضوا الى الآخرة كان عذابهم اشد واعظم وهو قوله تعالى (ان ربك لسريع العقاب) يعنى لمن اقام على الكفر ففيه دليل على انه يجمع لهم مع ذلة الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم فى الدنيا والآخرة ثم ختم الآية بقوله تعالى (وانه لغفور رحيم) يعنى لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل فى دين الاسلام ❊ قوله تعالى (وقطعناهم فى الارض امما) يعنى وفرقنا بنى اسرائيل فى الارض جماعات متفرقة فلا تجد بلدا الا وفيه من اليهود طائفة وجماعة قال ابن عباس كل ارض يدخلها قوم من اليهود (منهم الصالحون) يعنى من هؤلاء الذين وصفهم الله من بنى اسرائيل صالحون وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه قبل مبعث عيسى عليه الصلاة والسلام وانما وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ذكره الطبرى ولم يذكر غيره وروى البغوى وغيره من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد ان المراد بالصالحين الذين ادركوا النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود وآمنوا به والصحيح ما ذكره الطبرى يدل عليه قوله بعد فخلف من بعدهم خلف والخلف انما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بنى اسرائيل ❊ وقوله تعالى (ومنهم دون ذلك) يعنى الذين كفروا من بنى اسرائيل وبدلوا وغيروا (وبلوناهم) يعنى جميعا الصالح وغيره وهى بلوى اختبار وامتحان (بالحسنات) يعنى الخصب والعافية (والسيئات) يعنى الجدب والشدة (لعلهم يرجعون) يعنى لكى يرجعوا الى طاعة ربهم ويتوبوا اليه قال اهل المعانى كل واحدة من الحسنات والسيآت اذا فسرت بالنعم والشدة تدعو الى طاعة الله تعالى اما النعمة فيزداد عليها شكرا فيرغب فى الطاعة واما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيرهب منها ❊ قوله تعالى (فخلف من بعدهم) يعنى من بعد هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) يعنى خلف سوء يعنى حدث من بعدهم وتبدل منهم بدل سوء يقال منه هو خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها فاكثر ما يقال فى المدح بفتح اللام وفى الذم بسكونها وقد تحرك

النفس اوخيفة ان يكون للنفس فيه نصيب (ودون الجهر من القول بالغدو والآصال) اى دون ان يظهر لك التضرع والذكر منك بل تكون ذاكرا به له فى غدو ظهور نور الروح واشراقه وغلبته وآصال غلبات صفات النفس وقواها (ولا تكن) فى حال من الاحوال وخصوصا حال غلبات النفس وصفاتها (من الغافلين) عن شهود الوحدة الذاتية (ان الذين عند ربك) بالتوحيد والفناء فيه باقين به ذوى الاستقامة (لا يستكبرون عن عبادته) بسبب احتجابهم بالانانية بل يشاهدون التفصيل

فى الذم وتسكن فى المدح قال حسان بن ثابت فى المدح

لنا القدم الاولى اليك وخلفنا * لاولنا فى طاعة الله تابع

فسكن اللام فى قوله وخلفنا وهو يريد المدح وقال لبيد فى الذم

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

بفتح اللام وهو يريد الذم واصله من الفساد يقال خلف اللبن اذا فسد وتغير فى السقاء ويقال للردئ من القول خلف وخلف الشئ تغير ومنه خلوف فم الصائم والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذى يجئ بعد قرن كان قبله (ورثوا الكتاب) يعنى انتقل اليهم الكتاب عن آبائهم والمراد بالكتاب التوراة (يأخذون عرض هذا الادنى) العرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والمعنى انهم كانوا يأخذون الرشا فى الاحكام على تبديل الكلام وتغييره وذلك الذى يأخذونه من حطام الدنيا هو الشئ التافه الخسيس الحقير لان الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها احقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه واخذوا الرشا فى الاحكام ويعلمون انها حرام ثم انهم مع اقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه (ويقولون سيغفر لنا) يعنى ذنوبنا فيتمنون على الله الامانى الباطلة الكاذبة عن شداد بن اوس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى اخرجه الترمذى وقال فى قوله عليه الصلاة والسلام دان نفسه يعنى حاسبها فى الدنيا قبل ان يحاسب يوم القيامة وموضع الاستشهاد من الحديث على الآية قوله وتمنى على الله الامانى لان اليهود كانوا يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمنى بعينه * وقوله تعالى (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) وهذا اخبار عن حرصهم على الدنيا واصرارهم على الذنوب والمعنى انهم اذا اتاهم شئ من الدنيا اخذوه حلالا كان اوحراما ويتمنون على الله المغفرة وان وجدوا من الغد مثله اخذوه قال السدى كانت بنو اسرائيل لايستقضون قاضيا الا ارتشى فى الحكم فيقال له مابالك ترتشى فيقول سيغفر لى فطعن عليه الآخرون فاذا مات اونزع من الحكم وجعل مكانه آخر فمن كان يطعن عليه ارتشى ايضا يقول الله عزوجل وان يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه (الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) يعنى الم يؤخذ على هؤلاء المرتشين فى احكامهم العهود والمواثيق فى الكتاب وهو التوراة (ان لايقولوا على الله الا الحق) يعنى انا اخذنا عليهم الميثاق على ان يقولوا الحق فقالوا الباطل وخالفوا امر الله وهو قولهم سيغفر لنا والمراد من هذا التوبيخ والتقريع لليهود فى ادعائهم على الله الباطل قال ابن عباس هو مايوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لايزالون يعودون فيها ولايتوبون منها (ودرسوا ما فيه) يعنى ما فى الكتاب والمعنى انهم ذاكرون لما اخذ عليهم من العهود والمواثيق فى الكتاب لانهم دارسون له لم يتركوه ولكن درسوه وضيعوا العمل به (والدار الآخرة) يعنى وما فى الدار الآخرة مما اعد الله لاوليائه واهل طاعته العاملين بما امرهم الله به من كتابه ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا فى الاحكام (خير للذين يتقون) يعنى يتقون الله ويخافون عقابه (افلا يعقلون) يعنى افلا يعقل

فى معنى الجمع فيذعنون له (ويسبحونه) ينزهونه عن الشرك بنفى الانانية (وله يسجدون) بالفناء التام وطمس البقية وآثار الانية والله الباقى بعد فناء الخلق

* (سورة الانفال) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسألونك عن الانفال) احتجبوا بافعالهم فاعترضوا على فعل الله ورسوله اى فعل الله فى مظهر الرسول فامر بتقوى الانفعال اى الاجتناب عنها برؤية فعل الله واصلاح ذات البين

هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا انما فى الآخرة خير وابقى لانها دار المتقين (والذين يمسكون بالكتاب) يقال مسكت بالشئ وتمسكت به وامسكت به والمراد بالتمسك بالكتاب العمل بما فيه من احلال حلاله وتحريم حرامه واقامة حدوده والتمسك باحكامه نزلت هذه الآية فى الذين اسلموا من اهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام واصحابه لانهم تمسكوا بالكتاب الاول ولم يحرفوه ولم يغيروه فأداهم ذلك التمسك الى الايمان بالكتاب الثانى وهو القرآن (واقاموا الصلاة) يعنى وداوموا على اقامتها فى مواقيتها وانما افردها بالذكر وان كانت الصلاة داخلة فى التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وانها من اعظم العبادات بعد الايمان بالله ورسوله (انا لانضيع اجر المصلحين)* قوله عزوجل (واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة) يعنى واذكر يامحمد اذ قلعنا الجبل فرفعناه فوق بنى اسرائيل كانه ظلة يعنى جعلناه فوقهم كالظلة والظلة كل ماعلا الانسان كالسقف ونحوه (وظنوا) اى وعلموا او ايقنوا (انه واقع بهم) يعنى الجبل (خذوا) يعنى وقلنا لهم خذوا واضمار القول كثير فى القرآن وكلام العرب (ما آتيناكم) يعنى التوراة (بقوة) يعنى بجد واجتهاد (واذكروا ما فيه) يعنى واعملوا بما فيه من الاحكام (لعلكم تتقون) قال اصحاب الاخبار ان بنى اسرائيل لما ابوا ان يقبلوا احكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة امر الله عزوجل جبريل فرفع جبلا عظيما حتى صار على رؤسهم كالظلة فلما نظروا الى الجبل فوق رؤسهم خروا ساجدين فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الايسر وجعل ينظر بعينه اليمنى الى الجبل خوفا ان يسقط عليه ولذلك لاتسجد اليهود الا على شق وجوههم الايسر * قوله تعالى (واذا خذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى) الآية عن مسلم بن يسار الجهنى ان عمر بن الخطاب سئل عن قوله سبحانه وتعالى واذاخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم الآية قال سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة فيدخله الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار حتى يموت على عمل من اعمال اهل النار فيدخله النار اخرجه مالك فى الموطا وابوداود والترمذى وقال حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم فى هذا الاسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلا قلت ذكر الطبرى فى بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عينى كل انسان وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال اى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فاعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يارب من هذا قال داود قال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يارب زده من عمرى اربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر آدم الا اربعين جاءه ملك الموت فقال آدم

بمحو صفات النفوس التى هى مصادر افعالهم الموجبة للتنازع والتخالف حتى يرجعوا الى الالفة والمحبة القلبية بظهور انواع الصفات (قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله) بفناء صفاتها ليتيسر لكم قبول الامر بالارادة القلبية (ان كنتم مؤمنين) الايمان الحقيقى (انما المؤمنون) بالايمان الحقيقى (الذين اذا ذكر الله) ذكر الصفات الذى للقلب

اولم يبق من عمري اربعون سنة قال اولم تعطها ابنك داود فجحد آدم فجحد ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته اخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح واما تفسير الآية فقوله سبحانه وتعالى واذاخذ ربك يعني واذكريامحمد اذا خذربك من بني آدم من ظهورهم يعني من ظهور بني آدم وانما لم يذكر ظهر آدم وان كان الله سبحانه وتعالى اخرج جميع الذرية من ظهره لان الله تعالى اخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ماتوالد الابناء من الآباء فلذلك قال سبحانه وتعالى من بني آدم من ظهورهم فاستغنى عن ذكر ظهر آدم عليه السلام لما علم انهم كلهم بنو آدم واخرجوا من ظهره فترك ذكر ظهر آدم استغناء ثم للعلماء في تفسير هذه الآية مذهبان احدهما وهو مذهب اهل التفسير والاثر وظاهر ماجاءت به الروايات عن السلف فيماروى عن ابن عباس من طرق كثيرة وروايات مختلفة رواها عنه الطبري باسانيد فمنها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا وقال الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان يقولوا يوم القيامة اناكنا عن هذا غافلين وعن ابن عباس في هذه الآية قال مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة بنعمان هذا الذي وراء عرفة واخذ ميثاقهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا وعن ابن عباس ايضا قال ان اول مااهبط الله آدم الى الارض اهبطه بدهناء ارض الهند فمسح ظهره فاخرج منه كل نسمة هو بارئها الى يوم القيامة ثم اخذ عليهم الميثاق واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان يقولوا يوم القيامة اناكنا عن هذا غافلين زاد في رواية عنه فجف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة وفي رواية عنه قال لما خلق الله آدم اخذ ميثاقه انه ربه وكتب رزقه واجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب ارزاقهم وآجالهم ومصائبهم وفي رواية عنه قال ان الله عزوجل مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق ان يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وتكفل لهم بالارزاق ثم اعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من اعطى الميثاق يومئذ فمن ادرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الاول ومن ادرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الاول ومن مات صغيرا ولم يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الاول على الفطرة وروى الطبري بسنده عن عبدالله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الراس فقال لهم الست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين وقال ابن عباس اخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وانطقهم فقال الست بربكم قالوا بلى ثم اعادها في صلبه فليس احد من الخلق الاوقد تكلم فقال ربي الله وان القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ اشهد على نفسه وقال السدي اخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم انه مسح صفحة ظهره اليمنى فاخرج منه كهيئة الذر بيضاء فقال ادخلوا الجنة برحمتي ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سوداء فقال ادخلوا النار ولا ابالي فذلك حين يقول اصحاب اليمين واصحاب الشمال ثم اخذ منهم الميثاق فقال الست بربكم قالوا بلى فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التبعية زاد في رواية وذلك حيث يقول وله اسلم من في السموات والارض طوعا وكرها

لاذكر الافعال الذي لانفس (وجلت قلوبهم) تأثرت بتصور العظمة والبهاء والقهر والكبرياء واشراق انوار تجليات تلك الصفات عليها (واذاتليت عليهم آياته) اى جليت عليهم صفاته في المظاهر الكلامية (زادتهم ايمانا) حقيقيا بالترقي عن مقام العلم الى العين (وعلى ربهم يتوكلون) اى يصححون مقام التوكل بفناء الافعال ويتممونه في مقام فناء الصفات فان

وقال محمد بن كعب القرظي اقرله بالايمان والمعرفة الارواح قبل خلق اجسادها وقال مقاتل مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فاخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فاخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر يتحركون فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم الست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم اصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا ابالي وهم اصحاب الشمال ثم اعادهم جميعا في صلب آدم فاهل القبور محبوسون حتى يخرج اهل الميثاق جميعا وروى ان الله سبحانه وتعالى قال لهم جميعا اعلموا انه لا اله لكم غيري وانا ربكم لا رب لكم غيري فلا تشركوا بي شيأ فاني سأنتقم ممن اشرك بي ولم يؤمن بي واني مرسل اليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي ومنزل عليكم كتبا فتكلموا جميعا وقالوا اشهدنا انك ربنا لا رب لنا غيرك فأخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وارزاقهم ومصائبهم فنظر اليهم آدم عليه السلام فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب هلا سويت بينهم فقال اني احب ان اشكر فلما قررهم بتوحيده واشهد بعضهم على بعض اعادهم الى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من اخذ منه الميثاق وقال الزجاج وجائز ان يكون الله سبحانه وتعالى جعل لامثال الذر عقلا وفهما تعقل به كما قال تبارك وتعالى في النملة قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم وكما قال وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وقال ابن الانباري مذهب اصحاب الحديث وكبراء اهل العلم في هذه الآية ان الله تعالى اخرج ذرية آدم من صلبه واصلاب اولاده وهم صور كالذر واخذ عليهم الميثاق انه خالقهم وانهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد ان ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولا حتى خوطبوا بقوله يا جبال اوبي معه وكما جعل للبعير عقلا حتى سجد للنبي صلى الله عليه وسلم وكذلك الشجرة حتى سمعت لامره وانقادت ومعنى قوله الست بربكم على هذا التفسير قال الله سبحانه وتعالى للذرية الست بربكم فهو ايجاب للربوبية عليهم قالوا بلى يعني قالت الذرية بلى انت ربنا فهو جواب منهم له واقرار منهم له بالربوبية واعتراف على انفسهم بالعبودية (شهدنا) فيه قولان احدهما انهم لما اقروا له بالربوبية قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا قالوا اشهدنا على اقرارهم فعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله سبحانه وتعالى بلى لان كلام الذرية تم وانقطع وقوله شهدنا كلام مستأنف والقول الثاني ان قوله سبحانه وتعالى شهدنا من كلام الذرية والمعنى شهدنا على انفسنا بهذا الاقرار وعلى هذا لا يحسن الوقف على بلى لتعلقه بما بعده ❊ وقوله سبحانه وتعالى (ان يقولوا) وقرئ بالتاء على خطاب الذرية ومعناه لئلا تقولوا ايها الذرية (يوم القيامة انا كنا عن هذا) يعني الميثاق (غافلين) وقرئ ان يقولوا بالياء على الغيبة ومعناه لئلا يقولوا اي الذرية انا كنا عن هذا غافلين والمذهب الثاني في معنى هذه الآية وهو مذهب اهل الكلام والنظر انه سبحانه وتعالى اخرج الذرية وانشأهم بعد ان كانوا نطفا في اصلاب الآباء وهم اولاد بني آدم فاخرج الذرية الى الدنيا على ترتيبهم في الوجود واشهدهم على انفسهم بما ركب فيهم من العقول واراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه ودلائل وحدانيته فبهذا الاشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى واشهدهم على انفسهم انه ربهم وذلك بما اظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التي تضطرهم الى ان يعلموا انه خالقهم وبارئهم وربهم ونافذ الحكم فيهم فلما عرفوا ذلك دعاهم ذلك الى التصديق بوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على انفسنا انك انت ربنا وخالقنا فعلى هذا القول يكون قولهم بلى شهدنا على انفسنا على

تصحيح كل مقام انما يتم بالترقي عنه والنظر اليه من مقام فوقه (الذين يقيمون الصلاة) صلاة الحضور القلبي بمشاهدة الصفات والترقي فيها بتجلياتها (ومما رزقناهم) من علوم التوكل في مقام فناء الافعال اوعلوم تجليات الصفات في السير فيها (ينفقون) بالعمل بها والافاضة على مستحقيها (اولئك هم المؤمنون حقا) الايمان الحقيقي (لهم درجات عند ربهم) من

المجاز لا على الحقيقة وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور فى كلام العرب فكل من بلغ وعقل فقد اخذ عليه الميثاق بما جعل فيه من السبب الذى يؤخذ به الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية واذ أخذ ربك من بنى آدم ويشهدهم على انفسهم بما ركب فيهم من العقل الذى يكون به الفهم والتكليف الذى به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة فان قلت فالمختار من هذين المذهبين فى تفسير هذه الآية قلت المذهب الاول هو المختار لانه مذهب جمهور المفسرين من السلف وورد الحديث بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم فان قلت اذا كان المختار فى تفسير هذه الآية هو مذهب السلف فى ذلك وان الله تعالى اخرج الذرية من ظهر آدم لاخذ الميثاق عليهم كما ورد فى الحديث ايضا فكيف يحمل تفسير الفاظ هذه الآية على هذا القول قلت قد صح الحديث بان الله مسح ظهر آدم فاخرج ذريته واخذ عليهم الميثاق ولا منافاة بين الآية والحديث كما تقدم فى تفسير الفاظ الآية من ان الله اخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض كما فى الخارج وكلهم باجمعهم من ظهر آدم الذى هو اصلهم فبهذا الطريق امكن الجمع بين الآية والحديث اذ ليس فى معنى الفاظ الآية ما يدل على بطلان ذلك ونفيه وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير اليه والاخذ به جمعا بين الآية والحديث وحكى الواحدى عن صاحب النظم انه قال ليس بين قوله عليه الصلاة والسلام ان الله مسح ظهر آدم فاخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لانه تعالى اذا اخرجهم من ظهر آدم فقد اخرجهم من ظهور ذريته لان ذرية آدم ذرية كذرية بعضهم من بعض قال وتحصل الفائدة بهذا الفصل بانه تعالى اثبت الحجة على كل منفوس ممن بلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذى اخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها بالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ وقال غيره فائدة اخذ الميثاق عليهم فى القدم ان من مات منهم صغيرا ادخل الجنة باقراره بالميثاق الاول وهذا على قول من يقول ان اطفال المشركين يدخلون الجنة اذا ماتوا صغارا فاما من لا يحكم لهم بالجنة فانه يقول من كان من اهل الشقاوة من الذرية السوداء وانما اقروا بالمعرفة كرها فلم يغن عنهم ذلك شيأ ومن بلغ وعقل لم يغن عنه اقراره بالميثاق الاول شيأ حتى يؤمن ويصدق عند بلوغه وعقله بان الله ربه وخالقه ويصدق رسله فيما جاؤا به من عنده وانما فعل ذلك لئلا يقول الكفار انا كنا عن هذا الميثاق او الايمان بان الله ربنا غافلين او لئلا تقول اخلافهم انما اشرك آباؤنا ونحن نسير على آثارهم ظنا منهم ان الحق ما كانوا عليه فان قلت ان ذلك الميثاق لا يذكره احد اليوم فكيف يكون حجة عليهم اليوم اوفكيف يذكرونه يوم القيامة حتى يحتج عليهم به قلت لما اخرج الذرية من صلب آدم ركب فيهم العقول واخذ عليهم الميثاق فلما اعيدوا الى صلب آدم بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق لاقتضاء الحكمة الالهية نسيانهم له ثم ابتداهم بالخطاب على السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام واصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر اذ الدار دار تكليف وامتحان ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والابتلاء والتكليف فقامت الحجة عليهم لامدادهم بالرسل واعلامهم بجريان اخذ الميثاق عليهم وبذلك قامت الحجة عليهم ايضا يوم القيامة لاخبار الرسل اياهم بذلك الميثاق فى الدنيا فمن انكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولم تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد اخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات

مراتب الصفات وروضات جنات القلب (ومغفرة) من ذنوب الافعال (ومغفرة ورزق كريم) من باب تجليات الصفات وعلومها (كما اخرجك ربك) اى هذه الحال يعنى حالهم فى الاعتراض عليك فى باب التنفيل كحالهم فى الاعتراض عليك عند اخراج ربك اياك لانهم لما احتجبوا عن فعل الله بافعالهم راوا الفعلين منك فكرهوا خروجك كما كرهوا تنفيلك ومافطنوا لاخراج ربك اياك (من بيتك بالحق) اى ملتبسا بالحق خارجا به لا بنفسك فيكون بالحق حالا مفعول اخرجك اوخروجا ملتبسا بالذى هو الصواب والحكمة

*وقوله تعالى (او يقولوا) يعني الذرية (انما اشرك آباؤنا من قبل) يعني انما اخذ الميثاق عليهم لئلا يقول المشركون انما اشرك آباؤنا من قبل (وكنا ذرية من بعدهم) يعني وكنا اتباعا لهم فاقتدينا بهم في الشرك (افتهلكنا) يعني افتعذبنا (بما فعل المبطلون) قال المفسرون هذا اقطع لعذر الكفار فلا يستطيع احد من الذرية ان يقول يوم القيامة انما اشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد والميثاق وكنا نحن الذرية من بعدهم فقلدناهم واقتدينا بهم وكنا في غفلة عن هذه الميثاق فلا ذنب لنا فلا يمكنهم ان يحتجوا بمثل ذلك وقد اخذ عليهم جميعا الميثاق وجاءتهم الرسل وذكروهم به وثبتت الحجة عليهم بذلك يوم القيامة واما الذين حملوا معنى الآية على ان المراد منه مجرد نصب الدلائل وهو مذهب اهل النظر قالوا معناه ان الله نصب هذه الدلائل واظهرها للعقول لئلا يقولوا انما اشركنا على سبيل التقليد لآبائنا لان نصب ادلة التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم في الاعراض عنه والاقبال على تقليد الآباء في الشرك *وقوله تعالى (وكذلك نفصل الآيات) يعني ليتدبرها العباد فيرجعوا الى الحق والايمان ويعرضوا عن الباطل والكفر وهو المراد من قوله (ولعلهم يرجعون) يعني عن الشرك الى التوحيد وقيل معناه ولعلهم يرجعون الى الميثاق الاول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه * قوله عز وجل (واتل عليهم) يعني واقرأ على قومك يا محمد (نبأ) يعني خبر (الذي آتيناه آياتنا) اختلفوا فيه فقال ابن عباس هو بلعم بن باعوراء وقال مجاهد بلعام بن باعر وقال ابن مسعود هو بلعم بن ابر وقال عطية قال ابن عباس انه كان من بني اسرائيل وفي رواية اخرى عنه انه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل هو من مدينة البلقاء وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس ومحمد بن اسحق والسدي وغيرهم من اصحاب الاخبار والسير قالوا ان موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل ارض كنعان من ارض الشام اتى قوم بلعام اليه وكان عنده اسم الله الاعظم فقالوا ان موسى رجل حديد وان معه جنودا كثيرة وانه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني اسرائيل وانت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله ان يردهم عنا فقال ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف ادعو عليهم وانا اعلم من الله ما اعلم واني ان فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي فراجعوه والحوا عليه فقال حتى اؤامر ربي وكان لا يدعو حتى يؤامر ربه في المنام فاتى في المنام فقيل له لا تدع عليهم فقال لقومه اني قد آمرت ربي فنهاني ان ادعو عليهم فاهدوا له هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى اؤامر ربي فآمر فلم يوح اليه شيء فقال قد آمرت ربي فلم يوح الي شيء فقالوا له لو كره ربك ان تدعو عليهم لنهاك كما نهاك اول مرة فلم يزالوا يتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب اتانا له متوجها الى جبل يطلعه على عسكر بني اسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسان فلما سار على اتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى اذلقها فاذن الله عز وجل لها في الكلام وانطقها له فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعام اتدري اين تذهب اما ترى الملائكة امامي يردوني عن وجهي هذا ويحك اتذهب الى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزع فخلى الله سبيل الاتان فانطلقت به حتى اذا اشرفت به على جبل حسان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشيء الا صرف الله به لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف الله به لسانه الى بني اسرائيل فقال له قومه يا بلعام اتدري ما تصنع انما تدعو لهم

(وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق) لاحتجابهم بافعالهم وصفاتهم (بعدما تبين كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم) عليك حاله بالتجلي او تبين عليهم آثاره بالمعجزات من قبل او باعلامك اياهم بان النصرة لهم (ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) اي يثبته بملائكته السماوية التي امدهم بها (اذ تستغيثون ربكم) بالبراءة عن حولكم وقوتكم

وتدعو علينا فقال هذا مالااملكه هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لقومه قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق لي الا المكر والحيلة فسامكر لكم واحتال ثم قال جلوا النساء وزينوهن واعطوهن السلع ثم ارسلوهن الى عسكر بني اسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن ان لاتمنع امرأة نفسها من رجل ارادها فانه ان زنى رجل منهم بواحدة منهن كفيتموهم ففعلوا ذلك فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستي بنت صور على رجل من عظماء بني اسرائيل يقال له زمري بن شلوم وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام الى المرأة واخذ بيدها حين اعجبه جمالها ثم اقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام وقال اني لاظنك انك تقول هذه حرام عليك فقال اجل هي حرام عليك لاتقربها قال والله اني لااطيعك في هذا ثم قام ودخل بها الى قبته فوقع عليها فارسل الله عزوجل الطاعون على بني اسرائيل في ذلك الوقت وكان فنحاص بن العيزار بن هرون وكان صاحب امر موسى وكان رجلا فظا قد اعطى بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ماصنع فجاء والطاعون يجوس في بني اسرائيل فاخبر الخبر فاخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فطعنهما بحربته فانتظمهما ثم خرج بهما وهو رافعهما الى السماء وقد اخذ الحربة بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته واسند الحربة الى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بني اسرائيل فحسب من مات منهم في ذلك الطاعون فيما بين ان اصاب ذلك الرجل المرأة الى ان قتله فنحاص فوجدوه قد هلك سبعون الفا في ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطي بنو اسرائيل اولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها القشة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته واخذه اياها بذراعه واسناده اياها الى لحيته ويعطوهم البكر من كل اموالهم لانه كان بكر العيزار وفي بلعام انزل الله عزوجل واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا الآية وقال مقاتل ان ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى فقال بلعام انه من اهل ديني ولا ادعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فلما رأى ذلك خرج على اتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الاتان فضربها فقالت لم تضربني وانا مأمورة وهذه نار امامي قد منعتني ان امشي فرجع الى الملك فاخبره بذلك فقال لتدعون عليه اولاصلبنك فدعا على موسى بالاسم الاعظم ان لايدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بني اسرائيل في التيه بدعاء بلعام عليه فقال موسى يارب اي ذنب وقعت في التيه قال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه فدعا موسى عليه السلام ان ينزع عنه الاسم الاعظم والايمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله سبحانه وتعالى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فان قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها ان موسى عليه السلام دعا على بلعام بأن ينزع عنه الاسم الاعظم وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه في النبوة ان يدعو على انسان بالكفر بعد الايمان اورضي له بذلك قلت الجواب عنه من وجوه احدها منع صحة هذه القصة لانها من الاسرائيليات ولايلتفت الى مايسطره اهل اهل الاخبار اذا خالف الاصول الوجه الثاني ان سبب وقوع بني اسرائيل في التيه هو عبادتهم العجل اوقولهم لموسى عليه السلام اجعل لنا الها فكان ذلك هو سبب وقوعهم في التيه لادعاء

اليه والانسلاخ عن حجب افعالكم بتيقن ان التأثير والقوة منه لامنكم ولامن عدوكم (فاستجاب لكم) دعوتكم عند ذلك التجرد من ملابس الافعال وصفات النفس (باني ممدكم) من عالم الملكوت لجنسية قلوبكم اياها حينئذ (بالف من الملائكة) بعالم من ملكوت القهر اي من القوى السماوية وروحانياتها التي تناسب قلوبكم في تلك الحالة كما مرت الاشارة اليه في آل عمران واختلاف العدد في الموضعين اما لان المراد الكثرة لاالعدد المخصوص واما لان قوله (مردفين)

بلعام عليهم الوجه الثالث على تقدير صحة هذه القصة وان موسى عليه السلام دعا على بلعام ان موسى عليه السلام لم يدع عليه الا بعد ان ثبت عنده ان بلعام كفر وارتد عن الايمان بدعائه على موسى وايثاره الحياة الدنيا فدعا عليه مقابلة لدعائه عليه والله سبحانه وتعالى اعلم بحقيقة ذلك كله والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله اصحاب الاخبار فى كتبهم من غير نظر فيه ولا بحث عن معناه وقال عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن اسلم نزلت هذه الآية فى امية بن ابى الصلت الثقفى وكانت قصته انه كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم ان الله سبحانه وتعالى مرسل رسولا فرجا ان يكون هو ذلك الرسول فلما ارسل محمد صلى الله عليه وسلم وشرفه الله بالنبوة حسده وكذبه وكان امية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة فقصد بعض الملوك فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل منهم فقيل له قتلهم محمد فقال لو كان نبيا ماقتل اقرباءه فلما مات امية اتت اخته فازعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وفاة اخيها فقالت بينا هو راقد اتاه اثنان فكشفا سقف البيت ونزلا فقعد احدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه اوعى قال وعى قال اذكى قال ابى قالت فسألته عن ذلك فقال خير اريد بى فصرف عنى ثم غشى عليه فلما افاق من غشيته قال شعرا

كل عيش وان تطاول دهرا * صائر مره الى ان يزولا
ليتنى كنت قبل ماقد بدالى * فى قلال الجبال ارعى الوعولا
ان يوم الحساب يوم عظيم * شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم انشدينى من شعر اخيك فأنشدته بعض قصائده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن شعره وكفر قلبه فانزل الله عز وجل واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية وفى رواية عن ابن عباس انها نزلت فى البسوس وهو رجل من بنى اسرائيل وكان قد اعطى ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة له منها اولاد فقالت له اجعل لى منها دعوة فقال لك منها واحدة كما تريدين قالت ادع الله ان يجعلنى اجمل امرأة فى بنى اسرائيل فدعا لها فصارت اجمل النساء فلما علمت انه ليس فى نساء بنى اسرائيل مثلها رغبت عنه فغضبت فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها الى ابيهم وقالوا ليس لنا على هذا الامر قرار قد صارت امنا كلبة نباحة والناس تعيرنا بذلك فادع الله ان يردها الى حالها الاول فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات جميعا والقولان الاولان اشهر وقال الحسن وابن كيسان نزلت فى منافقى اهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته كما يعرفون ابناءهم ثم انكروه وقال قتادة هذا مثل ضرب الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله وقوله تعالى آتيناه اياتنا وقال ابن عباس كان يعلم اسم الله الاكبر وقال ابن زيد كان بعلم لا يسأل الله شيأ الا اعطاه وقال السدى كان يعلم اسم الله الاعظم وفى رواية اخرى عن ابن عباس انه اوتى كتابا وقيل ان الله آتاه حجة وادلة وهى الآيات التى اوتيها (فانسلخ منها) يعنى فخرج من الآيات التى كان الله آتاه اياها كما تنسلخ الحية من جلدها وقال ابن عباس نزع منه العلم (فاتبعه الشيطان) يعنى لحقه وادركه وصيره الشيطان تابعا لنفسه فى معصية الله يخالف امر ربه ويطيع الشيطان وهواه ※ قوله تعالى (فكان من الغاوين) يعنى من الهالكين

هنا يدل على اتباعهم بطائفة اخرى منهم وامدادهم اما بان يتجسدوا ويتمثلوا لهم بصورة المقاتلة كما تتمثل الصور فى المنام مثلا فيتهيبوا منهم واما بان يصل اثرهم وقهرهم اليهم فيهلكوا وينهزموا (وما جعله الله) الامداد (الا بشرى) بشارة (لكم ولتطمئن به قلوبكم وما النصر) بالنصر وطمأنينة لقلوبكم بالاتصال بها عند التجرد عن ملابس النفس واحوالها الا ان النصر منها فان النصر ليس (الا من

الضالين بما خالف ربه واطاع هواه وشيطانه * وقوله سبحانه وتعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) يعني رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التي اوتيها وقال ابن عباس لرفعناه بعمله بها وقال مجاهد وعطاء معناه ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات (ولكنه اخلد الى الارض) يعني ولكنه سكن الدنيا ومال اليها ورضي بها واصله من الخلود وهو الدوام والمقام والارض هنا عبارة عن الدنيا لان الارض عبارة عن المفاز والقفار وفيها المدن والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج مايعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الارض (واتبع هواه) يعني انه اعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتبع الهوى فخسر دنياه وآخرته ووقع في هاوية الردى والهلاك وهذه الآية من اشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى وذلك لان الله عز وجل خص هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه الاعظم وجعل دعاءه مستجابا ثم انه لما اتبع هواه وركن الى الدنيا ورضي بها عوضا من الآخرة نزع منه ما كان اعطيه وانسلخ من الدين فخسر الدنيا والآخرة ومن الذي يسلم من الميل الى الدنيا واتباع الهوى الا من عصمه الله بالورع ونبهه بالعلم وبصره بعيوب نفسه عن كعب بن مالك الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذئبان جائعان ارسلا في غنم بافسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه اخرجه الترمذي * ثم ضرب الله عز وجل مثلا لهذا الرجل الذي آتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال تعالى (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث اذا ادلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الاعياء والتعب وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن آتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب في اخس احواله وهو اللهث لان الكلب في حال لهثه لايقدر على نفع نفسه ولا ضرها كذلك العالم الذي يتبع هواه لايقدر على نفع نفسه ولا ضرها في الآخرة لان التمثيل به على انه يلهث على كل حال ان حملت عليه او تركته كان لاهثا وذلك عادة منه وطبيعة وهي مواظبة على اللهث دائما فكذلك من آتاه الله العلم والدين واغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة ثم انه مال اليها وطلبها كانت حالته كحال الكلب اللاهث وقيل ان العالم اذا توصل بعلمه الى طلب الدنيا فانه يظهر علومه عند اهلها ويدلع لسانه في تقرير تلك العلوم وبيانها وذلك لاجل مايحصل عنده من حرارة الحرص والشديد وشدة العطش الى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذي ادلع لسانه من اللهث في غير حاجة ولا ضرورة ومعنى ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث اي ان شددت عليه واهجته لهث وان تركته على حاله لهث لان اللهث طبيعة اصلية فيه فكذلك حال الحريص على الدنيا ان وعظته فهو حريص لايقبل الوعظ ولا ينجع فيه وان تركته ولم تعظه فهو حريص ايضا لان الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما ان اللهث طبيعة لازمة للكلب (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعني ان المثل الذي ضربناه للذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث انهم اذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا وان تركوا لم يهتدوا ايضا بل هم ضلال في كل حال ثم قال سبحانه وتعالى (فاقصص القصص) وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم

عند الله) لكن حكمته تقتضي تعليق الاشياء باسبابها (ان الله عزيز) قوي على النصر غالب (حكيم) يفعله على مقتضى الحكمة (اذ يغشيكم النعاس) نعاس هدو القوى البدنية والصفات النفسانية بنزول السكينة امنا من عند الله وطمأنينة (وينزل عليكم من السماء) سماء الروح (ماء) علم اليقين (ليطهركم به) من خبث احاديث النفس وهواجس الوهم (ويذهب عنكم رجز) وسوسة (الشيطان) وتخويفه (وليربط على قلوبكم) اي ليقوي قلوبكم بقوة اليقين ويسكن جاشكم

يعنى فاقصص القصص يامحمد على قومك اى اخبار من كفر باياآت الله (لعلهم يتفكرون) يعنى فيتعظون وقيل هذا المثل لكفار مكة وذلك انهم كانوا يتمنون هاديا يهديهم ويدعوهم الى طاعة الله عز وجل فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى الله والى طاعته وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم يقبلوا منه ثم قال سبحانه وتعالى (ساء مثلا القوم الذين كذبوا باياآتنا) يعنى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا باياآتنا (وانفسهم كانوا يظلمون) يعنى بتكذيبهم بآياتنا * قوله عزوجل (من يهدالله فهو المهتدى) يعنى من يرشده الله الى دينه فهو المهتدى وقيل معناه من يتول الله هدايته وارشاده فهو المهتدى (ومن يضلل) يعنى ومن يتول الضلالة (فاولئك هم الخاسرون) يعنى فى الآخرة فى الآية دليل على ان الله سبحانه وتعالى هو الهادى المضل * وقوله سبحانه وتعالى (ولقد ذرأنا) يعنى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والانس) اخبر الله سبحانه وتعالى انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة ومن خلقه الله للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها واستدل البغوى على صحة هذا التأويل بما رواه عن عائشة قالت دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبى من الانصار فقلت يارسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال اوغير ذلك ياعائشة ان الله خلق للجنة اهلا خلقهم لها وهم فى اصلاب آبائهم وخلق للنار اهلا خلقهم لها وهم فى اصلاب آبائهم اخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين النووى فى شرح مسلم اجمع من يعتقد به من علماء المسلمين ان من مات من اطفال المسلمين فهو من اهل الجنة لانه ليس مكلفا وتوقف فيهم بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا واجاب العلماء عنه بانه لعله صلى الله عليه وسلم نهاها عن المسارعة الى القطع من غير ان يكون عندها دليل قاطع كما انكر على سعد بن ابى وقاص لفظة انى لاراه مؤمنا فقال اومسلما الحديث ويحتمل انه صلى الله عليه وسلم قال هذا قبل ان يعلم ان اطفال المسلمين فى الجنة فلما علم ذلك قال به واما اطفال المشركين ففيهم ثلاث مذاهب قال الاكثرون هم فى النار تبعا لآبائهم وتوقف طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذى ذهب اليه المحققون انهم من اهل الجنة ويستدل له باشياء منها خبر ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حين رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وحوله اولاد الناس فقالوا يارسول الله واولاد المشركين قال واولاد المشركين رواه البخارى فى صحيحه ومنها قوله سبحانه وتعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه والله اعلم وفى الآية دليل وحجة واضحة لمذهب اهل السنة فى ان الله خالق اعمال العباد جميعها خيرها وشرها لان الله سبحانه وتعالى بين بصريح اللفظ انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار ولا نزيد على بيان الله عز وجل لان العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب دخول النار به علم ان له من يضطره الى ذلك العمل الموجب الى دخول النار وهو الله عز وجل وقيل اللام فى جهنم للعاقبة اى عاقبتهم جهنم ثم وصفهم فقال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) يعنى لا يفهمون بها ولا يعقلون بها واصل الفقه فى اللغة الفهم والعلم بالشئ ثم صار علما على اسم العلم فى الدين لشرفه على غيره من العلوم يقال فقه الرجل يفقه فهو فقيه اذا فهم ومعنى الآية لهم قلوب لا يتفكرون بها فى آيات الله ولا يتدبرونها ولا يعلمون بها الخير والهدى عن الحق وتركهم

(ويثبت به الاقدام) اذ الشجاعة وثبات القدم فى المخاوف والمهالك لا تكون الا بقوة اليقين (اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم) اى يمد الملكوت بالجبروت فيعلموا من عالم الجبروت ان الله ناصرهم (فثبتوا الذين آمنوا) بالتأييد الاتصالى (ساألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) لانقطاعهم عن الامداد السماوى والتأييد الالهى واستيلاء الشك وقوة الوهم عليهم (فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ذلكم فذوقوه

(ولهم اعين لا يبصرون بها) يعني لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون بها في آيات الله وادلة توحيده (ولهم آذان لا يسمعون بها) يعني لا يسمعون آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها قال اهل المعاني ان الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم اعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا يشك فيه ولما وصفهم الله عزوجل بانهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم بذلك ان المراد بذلك يرجع الى مصالح الدين ومافيه نفعهم في الآخرة وحاصل هذا الكلام انهم مع وجود هذه الحواس لا ينتفعون بها فيما ينفعهم في امور الدين والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر

وعوراء الكلام صممت عنها * وانى ان اشاء بها سميع

فانه اثبت له صمامع وجود السمع قال مجاهد لهم قلوب لا يفقهون بها شيأ من امر الآخرة ولهم اعين لا يبصرون بها الهدى ولهم آذان لا يسمعون بها الحق * ثم ضرب لهم مثلا فقال سبحانه وتعالى (اولئك كالانعام) يعني ان الذين ذراهم لجهنم وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية كالانعام وهي البهائم التي لا تفهم ولا تعقل وذلك لان الانسان وسائر الحيوانات مشتركون في هذه الحواس الثلاثة التي هي القلب والبصر والسمع وانما فضل الانسان على سائر الحيوانات بالعقل والادراك والفهم المؤدى الى معرفة الحق من الباطل والخير والشر فاذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه فلا فرق بينه وبين الانعام التي لا تدرك شيأ * ثم قال تعالى (بل هم اضل) يعني بل ان الكفار اضل من الانعام لان الانعام تعرف مايضرها وما ينفعها والكافر لا يعرف ذلك فصار اضل من الانعام ولان الانعام لم تعط القوة العقلية والانسان قداعطيها فاذا لم يستعمل العقل فيما ينفعه صار اخس حالا من الانعام وقيل ان الانعام مطيعة لله عزوجل والكافر غير مطيع لله عزوجل فصارت الانعام افضل منه * ثم قال الله تعالى (اولئك هم الغافلون) يعني عن ضرب هذه الامثال لهم * قوله سبحانه وتعالى (ولله الاسماء الحسنى) قال مقاتل ان رجلا دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركى مكة قال ابن الجوزى هو ابوجهل ان محمدا واصحابه يزعمون انهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين فانزل الله هذه الآية ولله الاسماء الحسنى والحسنى تأنيث الاحسن ومعنى الآية ان اسماء الله سبحانه وتعالى المقدسة كلها حسنى وليس المراد ان فيها ماليس بحسن والمعنى ان الاسماء الحسنى ليست الا لله لان هذا اللفظ يفيد الحصر وقيل ان الاسماء الفاظ دالة على معان فهى انما تحسن بمعانيها ولا معنى للحسن في حق الله تبارك وتعالى الا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال وهى محصورة في نوعين احدهما عدم افتقاره الى غيره الثانى افتقار غيره اليه وانه هو المسمى بالاسماء الحسنى (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر وفي رواية من احصاها وفي رواية اخرى لله تسعة وتسعون اسما مائة الا واحدا لا يحفظها احد الا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر قال البخارى احصاها حفظها وفي رواية الترمذى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما من احصاها دخل الجنة هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم

وان للكافرين عذاب النار ياايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الامتحرفا لقتال اومتحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) اى ثبتوهم بتلقين هذا المعنى وشجعوهم بالقاء هذا القول عليهم اوباراءتهم هذا الفعل منكم كما هو المروى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت) ادبهم وهداهم الى فناء الافعال بسلب الافعال عنهم واثباتها لله تعالى ولما كان النبى عليه الصلاة والسلام في مقام البقاء بالحق نسب الفعل اليه بقوله (اذ رميت) مع سلبه عنه بمارميت واثباته لله بقوله (ولكن الله رمى)

القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيي المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الاحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الروف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور قال الترمذى حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه الا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند اهل الحديث قال وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الاسماء التى فى هذا الحديث قال ابن الاثير وفى رواية ذكرها رزين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون فقال ان الله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسما الحديث قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى اتفق العلماء على ان هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه سبحانه وتعالى وليس معناه انه ليس له اسماء غير هذه التسعة والتسعين وانما المقصود من الحديث ان هذه التسعة والتسعين اسما من احصاها دخل الجنة فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ولهذا جاء فى الحديث الآخر اسألك بكل اسم سميت به نفسك او استأثرت به فى علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ ابو بكر بن العربى المالكى عن بعضهم ان لله الف اسم قال ابن العربى وهذا قليل وقوله صلى الله عليه وسلم من احصاها دخل الجنة تقدم فيه قول البخارى ان معناه حفظها وهو قول اكثر المحققين ويعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة وقيل المراد من الاحصاء العدد اى عدها فى الدعاء بها وقيل معناه من اطاقها واحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة وقيل معنى احصاها احضر باله عند ذكرها معناها وتفكر فى مدلولها معتبرا متدبرا ذاكرا راغبا راهبا معظما لها ولمسماها ومقدسا لذات الله سبحانه وتعالى وان يخطر باله عند ذكر كل اسم الوصف الدال عليه وقوله والله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه فى وصف الله تعالى انه الواحد الذى لا شريك له ولا نظير وفيه تفضيل الوتر فى الاعمال لان اكثر الطاعات وتر وفيه دليل على ان اشهر اسمائه سبحانه وتعالى الله لاضافة الاسماء اليه فيقال الرؤف والكريم واللطيف من اسماء الله ولا يقال من اسماء الرؤف والكريم واللطيف الله وقد قيل ان لفظة الله هو الاسم الاعظم قال ابو القاسم القشيرى فيه دليل على ان الاسم هو المسمى اذ لو كان غيره لكانت الاسماء لغيره وقد قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الامام فخر الدين الرازى دلت الاية على ان الاسم غير المسمى لانها تدل على ان اسماء الله كثيرة لان لفظ الاسماء لفظ الجمع وهو يفيد الثلاثة فما فوقها فثبت ان اسماء الله كثيرة ولا شك ان الله واحد فلزم القطع بان الاسم غير المسمى وايضا قوله سبحانه وتعالى ولله الاسماء الحسنى يقتضى اضافة الاسماء الى الله واضافة الشئ الى نفسه محال وقال غيره الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشئ المسمى به فهو غيره وقال اهل اللغة انما جعل الاسم تنويها على المعنى لان المعنى تحت الاسم والتسمية غير الاسم لان التسمية عبارة عن وضع اللفظ المعين لتعريف

ليفيد معنى التفصيل فى عين الجمع فيكون الرامى محمدا بالله تعالى لا بنفسه ومانسب اليهم من الفعل شيأ اذ لو فعلوا لفعلوا بانفسهم (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) اى عطاء جميلا هو توحيد الافعال فعل ذلك (ان الله سميع) باحاديث نفوسكم انا قتلناهم (عليم) بانه هو القاتل وان اظهر الفعل على مظاهركم (ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيأ ولو كثرت وان الله مع المؤمنين يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله

ذات الشئ والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر قال العلماء وكما يجب تنزيه الله عن جميع النقائص فكذلك يجب تنزيه اسمائه ايضا ❋ وقوله سبحانه وتعالى (فادعوه بها) يعنى ادعوا الله باسمائه التى سمى بها نفسه او سماه بها رسوله ففيه دليل على ان اسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده انه يجوز ان يقال ياجواد ولا يجوز ان يقال ياسخى ويجوز ان يقال ياعالم ولا يجوز ان يقال ياعاقل ويجوز ان يقال ياحكيم ولا يجوز ان يقال ياطبيب وللدعا شرائط منها ان يعرف الداعى معانى الاسماء التى يدعو بها ويستحضر فى قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ويخلص النية فى دعائه مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله ويعزم المسئلة مع رجاء الاجابة ويعترف لله سبحانه وتعالى بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية فاذا فعل العبد ذلك عظم موقع الدعاء وكان له تاثير عظيم (وذروا الذين يلحدون فى اسمائه) معنى الالحاد فى اللغة الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة وقال ابن السكيت الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ماليس منه يقال الحد فى الدين الحد اذا عدل عنه ومال الى غيره قال المحققون الالحاد يقع فى اسماء الله تعالى على وجوه احدها اطلاق اسماء الله عز وجل على غيره وذلك ان المشركين سموا اصنامهم بالآلهة واشتقوا لها اسماء من اسماء الله تعالى فسموا اللات والعزى ومناة واشتقاق اللات من الاله والعزى من العزيز ومناة من المنان وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد الوجه الثانى وهو قول اهل المعانى ان الالحاد فى اسماء الله هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان اسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية كما تقدم فلا يجوز فيها غير ما ورد فى الشرع بل ندعو الله باسمائه التى وردت فى الكتاب والسنة على وجه التعظيم الوجه الثالث مراعاة حسن الادب فى الدعاء فلا يجوز ان يقال ياضار يا نافع ياخالق القردة على الانفراد بل يقال ياضار يانافع يامعطى ياخالق الخلق الوجه الرابع ان لا يسمى الله العبد باسم لا تعرف معناه فانه ربما سماه باسم لا يليق اطلاقه على جلال الله سبحانه وتعالى ولا يجوز ان يسمى به لما فيه من الغرابة ❋ وقوله سبحانه وتعالى (سيجزون ما كانوا يعملون) يعنى فى الآخرة ففيه وعيد وتهديد لمن الحد فى اسماء الله عز وجل ❋ قوله عز وجل (وممن خلقنا امة) يعنى جماعة وعصابة (يهدون بالحق وبه يعدلون) قال ابن عباس يريد امة محمد صلى الله عليه وسلم وهم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان قال قتاده بلغنا ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية قال هذه لكم وقد اعطى القوم بين ايديكم مثلها ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون (ق) عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال من امتى امة قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى ياتى امر الله وهم على ذلك وفى الآية دليل على انه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدى اليه (والذين كذبوا بآياتنا) يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم اهل مكة والاول اولى لان صيغة العموم تتناول الكل الا ما دل الدليل على خروجه منه (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) قال الازهرى سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك ان الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون اليه ثم ياخذهم على غرتهم اغفل ما يكونون وقيل معناه سنقربهم الى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لانهم كانوا اذا اتوا بجرم او اقدموا على ذنب فتح الله عليهم من ابواب الخير والنعمة فى الدنيا

ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون) اى لا تعرضوا عنه مع السماع لان اثر السماع الفهم والتصديق واثر الفهم الارادة واثر الارادة الطاعة فلا يصح دعوى السماع مع الاعراض اذ هما لا يجتمعان فلازموا الطاعة بالارادة ان كنتم صادقين فى دعوى السماع (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) يدعون السماع وليسوا منه فى شئ لكونهم محجوبين عن الفهم والقبول كالدواب بل هم شر الدواب عند الله لما مر (ولو علم الله فيهم خيرا

فيزدادون بذلك تماديا فى الغى والضلال ويتدرجون فى الذنوب والمعاصى فيأخذهم الله اخذة واحدة اغفل مايكونون عليه وقال الضحاك معناه كلما جددوا معصية جددنا نعمة وقال الكلبي نزين اعمالهم ثم نهلكهم بها وقال سفيان الثورى نسبغ عليهم ثم نسلبهم الشكر روى ان عمر بن الخطاب لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم انى اعوذ بك ان اكون مستدرجا فانى سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لايعلمون قال اهل المعانى الاستدراج يندرج الشئ الى الشئ فى خفية قليلا قليلا ومنه درج الصبى اذا قارب بين خطاه فى المشى ومنه درج الكتاب اذا طواه شيأ بعد شئ (واملى لهم) يعنى وامهلهم واطيل مدة اعمارهم والاملاء فى اللغة الامهال واطالة المدة والمعنى انى اطيل مدة اعمارهم ليتمادوا فى الكفر والمعاصى ولا اعاجلهم بالعقوبة ولا افتح لهم باب التوبة (ان كيدى متين) يعنى ان اخذى شديد والمتين من كل شئ هو القوى الشديد وقال ابن عباس معناه ان مكرى شديد قال المفسرون نزلت هذه الآية فى المستهزئين من قريش وذلك ان الله سبحانه وتعالى امهلهم ثم قتلهم فى ليلة واحدة وفى هذه الآية دليل على مسئلة القضاء والقدر وان الله سبحانه وتعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ※ قوله سبحانه وتعالى (اولم يتفكروا مابصاحبهم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (من جنة) يعنى من جنون قال قتادة ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يابنى فلان يابنى فلان انى لكم نذير مبين وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم ان صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت الى الصباح فانزل الله عزوجل اولم يتفكروا والتفكر التأمل واعمال الخاطر فى عاقبة الامر والمعنى اولم يتفكروا فيعلموا مابصاحبهم يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم من جنة والجنة حالة من الجنون وادخال لفظة من فى قوله من جنة يوجب ان لايكون به نوع من انواع الجنون وانما نسبوه الى الجنون وهو برئ منه لانهم راوا انه صلى الله عليه وسلم خالفهم فى الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء الى الله عزوجل وانذارهم باسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله سبحانه وتعالى من الجنون فقال تعالى (ان هو) يعنى ماهو (الا نذير مبين) ثم حثهم على النظر المؤدى الى العلم بالوحدانية فقال سبحانه وتعالى (اولم ينظروا) يعنى نظر اعتبار واستدلال (فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ) والمقصود التنبيه على ان الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والارض بل كل شئ خلقه الله سبحانه وتعالى ورآه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر

وفى كل شئ له آية * تدل على انه واحد

(وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم) والمعنى ولعل اجلهم يكون قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل ان يؤمنوا فيصيروا الى النار واذا كان الامر كذلك وجب على العاقل المبادرة الى التفكر والاعتبار والنظر المؤدى الى الفوز بالنعيم المقيم (فبأى حديث بعده) يعنى بعد القرآن (يؤمنون) يعنى يصدقون والمعنى فبأى كتاب بعد الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يصدقون وليس بعد محمد نبى ولا بعد كتابه كتاب لانه خاتم الانبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ※ ثم ذكر علة اعراضهم عن الايمان فقال سبحانه وتعالى (من يضلل الله

لاسمعهم) وصلاحا اى استعدادا القبول كال سمعهم حتى فهموا وقبلوا واطاعوا (ولو اسمعهم لتولوا) مع عدم الخير فيهم حتى فهموا لما كان لفهمهم اثر من الارادة والطاعة بل تولوا سريعا لكون ذلك الفهم فيهم امراعا رضيا سريع الزوال لاذاتيا (وهم معرضون) بالذات فلايلبث فيهم الفهم والارادة كما قال امير المؤمنين رضى الله عنه خذ الحكمة ولو من اهل النفاق فان الحكمة لتتلجلج فى صدر المنافق حتى تسكن الى صواحبها فى صدر المؤمن اى لاتثبت فى صدره لكونها عارضية هناك لاتناسب ذاته (يا أيها الذين آمنوا) بالغيب (استجيبوا لله وللرسول)

فلا هادي له) يعني ان اعراض هؤلاء عن الايمان لاضلال الله اياهم فلو هداهم لآمنوا (ويذرهم في طغيانهم يعمهون) يعني ويتركهم في ضلالتهم وتماديهم في الكفر يترددون متحيرين لايهتدون سبيلا * قوله عز وجل (يسئلونك عن الساعة ايان مرساها) قال قتادة قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فاسر الينا متى الساعة فانزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس قال جبل بن ابي قشير وشموال بن زيد وهما من اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد اخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى الساعة فانزل الله عز وجل يسئلونك عن الساعة يعني عن خبر القيامة سميت ساعة لانها تقوم في ساعة غفلة وبغتة اولان حساب الخلائق ينقضي فيها في ساعة واحدة ايان سؤال استفهام عن الوقت الذي تقوم فيه الساعة ومعناه متى مرساها قال ابن عباس يعني منتهاها اي متى وقوعها قال والساعة الوقت الذي تموت فيه الخلائق والاصل الارساء الثبات يقال رسا يرسو اذا ثبت (قل) اي قل لهم يا محمد (انما علمها عند ربي) اي لا يعلم الوقت الذي تقوم فيه الا الله استأثر الله بعلمها فلم يطلع عليه احد ومن حديث الايمان والاسلام والاحسان وسؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم قال فاخبرني عن الساعة قال ما المسؤل عنها بأعلم من السائل قال المحققون وسبب اخفاء علم الساعة ووقت قيامها عن العباد ليكونوا على خوف وحذر منها لانهم اذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف واشفاق منها فيكون ذلك ادعى لهم الطاعة والتوبة وازجر لهم عن المعصية (لا يجليها لوقتها الا هو) قال مجاهد لا يأتي بها الا هو وقال السدي لا يرسلها لوقتها الا هو والتجلية اظهار الشئ بعد خفائه والمعنى لا يظهرها لوقتها المعين الا الله ولا يقدر على ذلك غيره (ثقلت في السموات والارض) يعني ثقل امرها وخفي علمها على اهل السموات والارض فكل شئ خفي فهو ثقيل شديد وقال الحسن اذا جاءت ثقلت وعظمت على اهل السموات والارض وانما ثقلت عليهم لان فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب (لا تأتيكم الا بغتة) يعني فجأة على حين غفلة من الخلق (ق) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع اكلته الى فيه فلا يطعمها * اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد بالنتاج قوله يليط حوضه ويرى يلوط حوضه يعني يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه يليطه او يلوطه اذا طينه واصله من اللصوق والاكلة بضم الهمزة اللقمة * وقوله سبحانه وتعالى (يسئلونك كانك حفي عنها) يعني يسألك قومك عن الساعة كانك حفي بهم يعني بار بهم شفيق عليهم فعلى هذا القول فيه تقديم وتاخير تقديره يسئلونك عنها كانك حفي بهم قال ابن عباس يقول كان بينك وبينهم مودة وكانك صديق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس محمدا صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كانهم يرون ان محمدا صلى الله عليه وسلم حفي بهم فاوحى الله عز وجل اليه انما علمها عنده استأثر بعلمها فلم يطلع عليها ملكا ولا رسولا وقيل معناه يسئلونك عنها كانك حفي بها اي عالم بها من قولهم احفيت في المسئلة اذا بالغت في السؤال عنها حتى علمتها (قل) يعني قل يا محمد (انما علمها عند الله) يعني استأثر الله بعلمها فلا يعلم متى الساعة الا الله عز وجل فان قلت قوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الساعة ايان مرساها

بالتزكية والتصفية (اذا دعاكم لما يحييكم) يحيي قلوبكم من العلم الحقيقي اوآمنوا الايمان التحقيقي استجيبوا بالسلوك الى الله وفيه اذا دعاكم اليه لاحيائكم به هذا اذا كانت استجابة الله والرسول استجابة واحدة اما اذا كانت متغايرة فمعناه استجيبوا لله بالباطن والاعمال القلبية وللرسول بالظاهر والاعمال النفسية او استجيبوا الله بالفناء في الجمع وللرسول بمراعاة حقوق التفصيل اذا دعاكم الى الاستقامة لما يحييكم من البقاء بالله فيها كل ذلك قبل زوال الاستعداد فان الله يحول بين المرء وقلبه بزوال الاستعداد وحصول الحجاب بارتكاب الرين فانتهزوا الفرصة ولاتؤخروا الاستجابة

وقوله سبحانه وتعالى ثانيا يسئلونك كأنك حفى عنها فيه تكرار قلت ليس فيه تكرار لان السؤال الاوّل سؤال عن وقت قيام الساعة والسؤال الثانى سؤال عن احوالها من ثقلها وشدائدها فلم يلزم التكرار فان قلت عبر عن الجواب فى السؤال الاوّل بقوله تعالى علمها عند ربى وعن الجواب فى السؤال الثانى بقوله تعالى علمها عند الله فهل من فرق بين الصورتين فى الجوابين قلت فيه فرق لطيف وهو انه لما كان السؤال الاوّل واقعا عن وقت قيام الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربى ولما كان السؤال الثانى واقعا عن احوالها وشدائدها وثقلها عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله لانه اعظم الاسماء (ولكن اكثر الناس لايعلمون) يعنى لايعلمون ان علمها عند الله وانه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه وقيل ولكن اكثر الناس لايعلمون السبب الذى من اجله اخفى علم وقت قيامها المغيب عن الخلق * قوله سبحانه وتعالى (قل لااملك لنفسى نفعا ولاضرا) قال ابن عباس ان اهل مكة قالوا يامحمد الايخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل ان يغلو فتشترى به فتربح فيه عند الغلاء وبالارض التى يريد ان تجدب فترحل عنها الى ماقد اخصبت فانزل الله عزوجل قل لااملك اى قل يامحمد لااملك ولااقدر لنفسى نفعا اى اجتلاب نفع بأن اربح فيما اشتريه ولاضرا يعنى ولااقدر ان ادفع عن نفسى ضرا نزل بها بأن ارتحل الى الارض الخصبة واترك الجدبة (الاماشاء الله) يعنى ان املكه واقدر عليه (ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير) يعنى ولو كنت اعلم وقت الخصب والجدب لاستكثرت من المال (ومامسنى السوء) يعنى الضر والفقر والجوع وقال ابن جريج معناه لااملك لنفسى نفعا ولاضرا من الهدى والضلالة ولو كنت اعلم الغيب يريد وقت الموت لاستكثرت من الخير يعنى من العمل الصالح وقيل ان اهل مكة لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة انزل الله تعالى الآية الاولى وهذه الآية ومعناه انا لاادعى علم الغيب حتى اخبركم عن وقت قيام الساعة وذلك لما طالبوه بالاخبار عن الغيوب فذكر ان قدرته قاصرة عن علم الغيب فان قلت قد اخبر صلى الله عليه وسلم عن المغيبات وقد جاءت احاديث فى الصحيح بذلك وهو من اعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم فكيف الجمع بينه وبين قوله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير قلت يحتمل ان يكون قاله صلى الله عليه وسلم على سبيل التواضع والادب والمعنى لااعلم الغيب الاان يطلعنى الله عليه ويقدّره لى ويحتمل ان يكون قال ذلك قبل ان يطلعه الله عزوجل على الغيب فلما اطلعه الله عزوجل اخبر به كما قال تعالى فلايظهر على غيبه احدا الامن ارتضى من رسول اويكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك اظهره الله سبحانه وتعالى على اشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوّته صلى الله عليه وسلم وقوله ومامسنى السوء يعنى الجنون وذلك انهم نسبوه الى الجنون وقيل معناه ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير واحترزت عن الشر حتى اصير بحيث لايمسنى السوء قيل معناه ولو كنت اعلم الغيب لاعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا ومامسنى السوء يعنى قولكم لو كنت نبيا لعلمت متى تقوم الساعة (ان انا الانذير) ماانا الارسول ارسلنى الله اليكم انذركم واخوّفكم عقابه ان لم تؤمنوا (وبشير) يعنى وابشر بثوابه (لقوم يؤمنون) يعنى يصدقون * قوله عزوجل (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) يعنى آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) يعنى وخلق منها زوجها حوّاء وقد تقدم كيفية خلق حوّاء من ضلع آدم فى اوّل

(واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون) فيجازيكم من صفاته وذاته على حسب محوكم وفنائكم (واتقوا فتنة) شركا وحجابا (لاتصيبنّ) تلك الفتنة (الذين ظلموا منكم) بازالة الاستعداد اونقصه لاستعماله فى غير موضعه وصرفه فيما دون الحق (خاصة) لانفرادهم بالظلم ومعنى لاتصيبن النهى اى ان يصب تصبهم خاصة كقوله ولاتزر وازرة وزر اخرى ويجوز ان يكون المعنى لاتصيبنهم خاصة بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم وتعدى

سورة النساء (ليسكن اليها) يعني ليأنس بها ويأوى (فلما تغشاها) يعني واقعها وجامعها كنى به عن الجماع احسن كناية لان الغشيان اتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها اذا علاها وتجللها (حملت حملا خفيفا) يعني النطفة والمعنى لان اول ما تحمل النطفة وهى خفيفة عليها (فمرت به) يعني انها استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها (فلما اثقلت) اى صارت الى حال الثقل وكبر ذلك الحمل ودنت مدة ولادتها (دعوا الله ربهما) يعني ان آدم وحواء دعوا الله ربهما (لئن آتيتنا صالحا) يعني لئن اعطيتنا بشرا سويا مثلنا (لنكونن من الشاكرين) يعني لك على انعامك علينا قال المفسرون لما اهبط آدم وحواء الى الارض القيت الشهوة فى نفس آدم فأصاب حواء فحملت من ساعتها فلما ثقل الحمل وكبر الولد اتاها ابليس فقال لها ما الذى فى بطنك قالت انى ما ادرى قال انى اخاف ان يكون بهيمة او كلبا او خنزيرا اترين فى الارض الا بهيمة او نحوها قالت انى اخاف بعض ذلك قال وما يدريك من اين يخرج امن دبرك اومن فيك او يشق بطنك فيقتلك فخافت حواء من ذلك وذكرته لآدم فلم يزالا فى غم من ذلك ثم عاد اليها ابليس فقال لها انى من الله بمنزلة فان دعوت الله ان يجعله خلقا سويا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسم ابليس فى الملائكة الحرث فذكرت ذلك حواء لآدم عليه السلام فقال لعله صاحبنا الذى قد علمت فعاودها ابليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ولدت سماه عبد الحرث وقال ابن عباس كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فاتاهما ابليس فقال ان سركما ان يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فولدت فسمياه عبد الحرث فعاش عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حملت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فسمته فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وامره اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث عمر بن ابراهيم عن قتادة وقال قد رواه بعضهم ولم يرفعه وقوله وذلك من وحى الشيطان يعني من وسوسته وحديثه كما جاء انه خدعهما مرتين مرة فى الجنة ومرة فى الارض قال ابن عباس لما ولدله اول ولد اتاه ابليس فقال انى سأنصح لك فى شأن ولدك هذا تسميه عبد الحرث وكان اسمه فى السماء الحرث فقال آدم اعوذ بالله من طاعتك انى اطعتك فى اكل الشجرة فاخرجتنى من الجنة فلن اطيعك فمات ولده ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر فقال اطعنى والامات الاول فعصاه فمات ولده فقال لا ازال اقتلهم حتى تسميه عبد الحرث فلم يزل به حتى سماه عبد الحرث فذلك قوله تعالى (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال ابن عباس اشركاه فى طاعته فى غير عبادة ولم يشركا بالله ولكن اطاعاه وقال قتادة اشركا فى الاسم ولم يشركا فى العبادة وقال عكرمة ما اشرك آدم ولا حواء وكان لا يعيش لهما ولد فاتاهما الشيطان فقال ان سركما ان يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فهو قوله تعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما قرئ شركاء بكسر الشين مع التنوين ومعناه شركة وقال ابو عبيدة معناه حظا ونصيبا وقرئ شركاء بضم الشين مع المد جمع شريك يعني ابليس عبر عن الواحد بلفظ الجمع يعني جعلا له شريكا اذ سميا ولدهما عبد الحرث قال العلماء ولم يكن ذلك شركا فى العبادة ولا ان الحرث ربهما لان آدم عليه الصلاة والسلام كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصدا بتسميتهما الولد بعبد الحرث ان الحرث كان سبب نجاة الولد وسلامته وسلامة امه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به مملوك كما قال الشاعر

وذيلتهم الى من يخطفهم كقوله تعالى ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس (واعلموا ان الله شديد العقاب) بتسليط الهيآت الظلمانية التى اكتسبتها القلوب عليها وحجبها عنه وتعذيبها بها (واذكروا اذ انتم قليل) القدر لجهلكم وانقطاعكم عن نور العلم (مستضعفون فى الارض) ارض النفس (تخافون ان يتخطفكم الناس) اى ناس القوى الحسية لضعف نفوسكم

* وانى لعبد الضيف مادام ثاويا * اخبر عن نفسه انه عبد الضيف ماأقام عنده مع بقاء الجزية عليه
وانما اراد بالعبودية خدمة الضيف والقيام بواجب حقوقه كما يقوم العبد بواجب حقوق
سيده وقد يطلق اسم الرب بغير الالف واللام على غير الله كقول يوسف عليه الصلاة والسلام
لعزيز مصر انه ربى احسن مثواى اراد به التربية ولم يرد به انه ربه ومعبوده فكذلك هنا وانما
اخبر عن آدم عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه وتعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما لان حسنات
الابرار سيآت المقربين ولان منصب النبوة اشرف المناصب واعلاها فعاتبه الله على
ذلك لانه نظر الى السبب ولم ينظر الى المسبب والله اعلم بمراده واسرار كتابه قال العلماء
وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله فيما آتاهما * ثم ابتدأ فى الخبر عن الكفار بقوله تعالى
(فتعالى الله عما يشركون) نزه نفسه سبحانه وتعالى عن اشراك المشركين من اهل مكة وغيرهم
وهذا على العموم ولو اراد آدم وحواء لقال سبحانه وتعالى فتعالى الله عما يشركان على التثنية لا على
الجمع وقال بعض اهل المعانى ولو اراد به ماسبق فى معنى الآية فيستقيم ايضا من حيث انه كان الاولى
بهما ان لا يفعلا ما اتيا به من الاشراك فى التسمية فكان الاولى ان يسمياه عبد الله لا عبد الحرث وفى معنى
الآية قول آخر وهو انه راجع الى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة
ومعناه وجعل اولادهما له شركاء فحذف ذكر الاولاد واقامهما مقامهم كما اضاف فعل الآباء الى
الابناء بقوله ثم اتخذتم العجل واذ قتلتم نفسا فعير به عن اليهود الذين كانوا موجودين فى زمن
النبى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من فعل آبائهم وقال عكرمة خاطب كل واحد من الخلق
بقوله هو الذى خلقكم من نفس واحدة اى خلق كل واحد من ابيه وجعل منها زوجها اى وجعل
من جنسها زوجها آدمية مثله وهذا قول حسن الا ان القول الاول اصح لانه قول السلف مثل
ابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهم من المفسرين وورد الحديث بذلك عن النبى صلى الله
عليه وسلم وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم الله اولادا فهودوهم ونصروهم وقال ابن كيسان هم
الكفار سموا اولادهم بعبد العزى وعبد شمس وعبد الدار ونحو ذلك * وقوله سبحانه وتعالى
(ايشركون) قرئ بالتاء على خطاب الكفار وقرئ بالياء على الغيبة (مالا يخلق شيأ) يعنى
ابليس والاصنام (وهم يخلقون) اى وهم مخلوقون فان قلت كيف وحد يخلق ثم جمع فقال
وهم يخلقون قلت ان لفظة ما تقع على الواحد والاثنين والجمع فهى من صيغ الوحدان بحسب
ظاهر اللفظ ومحتمله للجمع بحسب المعنى فوحد قوله مالا يخلق رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع
قوله وهم يخلقون رعاية لجانب المعنى فان قلت كيف جمع بالواو والنون لمن لا يعقل وهو جمع
من يعقل من الناس قلت لما اعتقد عابدوا الاصنام انها تعقل وتميز ورد هذا الجمع بناء على
مايعتقدونه ويتصورونه * وقوله تعالى (ولا يستطيعون لهم نصرا) يعنى ان الاصنام لا تقدر
على نصر من اطاعها وعبدها ولا تضر من عصاها والنصر المعونة على الاعداء والمعنى ان المعبود الذى
تجب عبادته يكون قادرا على ايصال النفع ودفع الضر وهذه الاصنام ليست كذلك فكيف يليق
بالعاقل ان يعبدها * ثم قال تعالى (ولا انفسهم ينصرون) يعنى ولا يقدرون على ان يدفعوا عن
انفسهم مكروها فان من اراد كسرها قدر عليه وهى لا تقدر على دفعه عنها * ثم خاطب المؤمنين
فقال سبحانه وتعالى (وان تدعوهم الى الهدى) يعنى وان تدعوا ايها المؤمنون المشركين الى

(فآواكم) الى مدينة العلم (وايدكم بنصره) فى مقام توحيد الافعال (ورزقكم من الطيبات) طيبات علوم تجليات الصفات (لعلكم تشكرون) نعمة العلوم والتجليات بالسلوك فيه (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله) بنقص ميثاق التوحيد الفطرى السابق (و) تخونوا (الرسول) بنقص العزيمة

الهدى (لايتبعوكم) لان الله سبحانه وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلايقبلون الهداية (سواء عليكم ادعوتموهم) الى الدين والهداية (ام انتم صامتون) اى ساكتون عن دعائهم فهم فى كلا الحالين لايؤمنون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما بين فى الآية المتقدمة عجز الاصنام بين فى هذه انه لاعلم لها بشئ البتة والمعنى ان هذه الاصنام التى يعبدها المشركون معلوم من حالها انها لاتضر ولاتنفع ولاتسمع لمن دعاها الى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى بقوله سبحانه وتعالى سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون وذلك ان المشركين كانوا اذا وقعوا فى شدة وبلاء تضرعوا لاصنامهم فاذا لم تكن لهم الى الاصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لافرق بين دعائكم للاصنام او سكوتكم عنها فانها عاجزة فى كل حال ※ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم) يعنى ان الاصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون انما هى مملوكة لله امثالهم وقيل انها مسخرة مذللة مثل ما انتم مسخرون مذللون قال مقاتل فى قوله سبحانه وتعالى عباد امثالكم انها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة والقول الاول اصح وفيه سؤال وهو انه وصفها بأنها عباد مع انها جماد والجواب ان المشركين لما ادعوا ان الاصنام تضر وتنفع وجب ان يعتقدوا كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الالفاظ على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا ولذلك قال عز وجل (فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) فى كونها آلهة وجواب آخر وهو ان هذا اللفظ انما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين والمعنى ان قصارى هذه الاصنام التى تعبدونها احياء عاقلة على معتقدكم فهم عباد الله امثالكم ولافضل لهم عليكم فلم عبدتموهم وجعلتموهم آلهة وجعلتم انفسكم لهم عبيدا ※ ثم وصفهم بالعجز فقال تعالى (ألهم ارجل يمشون بها ام لهم ايد يبطشون بها ام لهم اعين يبصرون بها ام لهم آذان يسمعون بها) يعنى ان قدرة الانسان المخلوق انما تكون بهذه الجوارح الاربعة فانها آلات يستعين بها الانسان فى جميع اموره والاصنام ليس لها من هذه الاعضاء والجوارح شئ فهم مفضلون عليها بهذه الاعضاء لان الرجل الماشية افضل من الرجل العاجزة عن المشى وكذلك اليد الباطشة افضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة افضل من العين العاجزة عن الادراك والاذن السامعة افضل من الاذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان ان الانسان افضل من هذه الاصنام العاجزة بكثير بل لافضل لها البتة لانها حجارة وجماد لاتضر ولاتنفع واذا كان الامر كذلك فكيف يليق بالانسان العاقل الافضل ان يشتغل بعبادة الاخس الادون الارذل الذى لافضل له البتة ولايضر ولاينفع فامتنع بهذه الحجة كون الاصنام آلهة ※ ثم قال تعالى (قل ادعوا شركاءكم) اى قل يامحمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم هذه الاصنام التى تعبدونها حتى يتبين عجزها (ثم كيدون) يعنى انتم وشركاؤكم وهذا متصل بما قبله فى استكمال الحجة عليهم لانهم لما قرعوا بعبادة من لايملك ضرا ولانفعا قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم قل ان معبودى يملك الضر والنفع فلوا جتهدتم فى كيدى لم تصلوا الى ضرى لان الله يدفع عنى وقال الحسن كانوا يخوفونه بآلهتهم فقال الله تعالى قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون (فلاتنظرون) اى لاتمهلون واعجلوا فى كيدى انتم وشركاؤكم (ان ولى الله) يعنى ان الذى يتولى حفظى وينصرنى عليكم هو الله (الذى نزل الكتاب) يعنى القرآن والمعنى كما ايدنى بانزال القرآن على كذلك يتولى حفظى وينصرنى (وهو يتولى الصالحين) يعنى

(يتولاهم)

ونبذ العقد اللاحق (وتخونوا اماناتكم) من المعارف والحقائق التى استودع الله فيكم بحسب الاستعداد الاول فى الازل باخفائها بصفات النفس (وانتم تعلمون) انكم حاملوها او تعلمون ان الخيانة من اسوا الرذائل واقبحها (واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة) اى حجاب لكم لاشتغالكم بها عن الله اوشرك لمحبتكم اياها كحب الله (وان الله عنده اجر عظيم) فاطلبوه

يتولاهم بنصره وحفظه فلاتضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن ارادهم بسوء وكادهم بشر قال ابن عباس يريد بالصالحين الذين لايعدلون بالله شيأ ولايعصونه وفى هذا مدح للصالحين لان من تولاه الله يحفظه فلايضره شئ ❊ قوله عزوجل ﴿ والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولاانفسهم ينصرون ﴾ هذه الآية قدتقدم تفسيرها والفائدة فى تكريرها ان الآية الاولى مذكورة على جهة التقريع والتوبيخ وهذه الآية مذكورة على جهة الفرق بين من تجوزله العبادة وهو الله الذى يتولى الصالحين بنصره وحفظه وبين هذه الاصنام وهى ليست كذلك فلاتكون معبودة ❊ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وان تدعوهم الى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون ﴾ قال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه وان تدعوا ايها المؤمنون المشركين الى الهدى لايسمعوا دعاءكم لان آذانهم قدصمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون اليك يامحمد وهم لايبصرون يعنى ببصائر قلوبهم وذهب اكثر المفسرين الى ان هذه الآية ايضا واردة فى صفات الاصنام لانها جماد لاتضر ولاتنفع ولاتسمع ولاتبصر ❊ قوله تعالى ﴿ خذالعفو ﴾ العفوهنا الفضل وما جاء بلاكلفة والمعنى اقبل الميسور من اخلاق الناس ولاتستقص عليهم فيستعصوا عليك فتتولد منه العداوة والبغضاء وقال مجاهد يعنى خذ العفو من اخلاق الناس واعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار منهم وترك البحث عن الاشياء والعفو التساهل فى كل شئ (خ) عن عبدالله بن الزبير قال مانزلت خذ العفو وامر بالعرف الا فى اخلاق الناس وفى رواية قال امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يأخذ العفو من اقوال الناس وكذا فى جامع الاصول وفى الجمع بين الصحيحين للحميدى قال امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يأخذ العفو من اقوال الناس لوكما قال وقال ابن عباس يعنى خذ ما عفالك من اموالهم فما اتوك به من شئ فخذه وكان هذا قبل ان تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت اليه وقال السدى خذالعفو اى الفضل من المال نسختها آية الزكاة وقال الضحاك خذ ماعفا من اموالهم وهذا قبل ان تفرض الصدقة المفروضة ﴿ وامر بالعرف ﴾ يعنى وامر بكل ماامرك الله به وهو كل ماعرفته بالوحى من الله عز وجل وكل مايعرفه الشارع وقال عطاء وامر بقول لااله الاالله ﴿ واعرض عن الجاهلين ﴾ امر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ان يصفح عن الجاهلين وهذا قبل ان يؤمر بقتال الكفار فلما امر بقتالهم صار الامر بالاعراض عنهم منسوخا بآية القتال قال بعضهم اول هذه الآية وآخرها منسوخ ووسطها محكم يريد بنسخ اولها اخذ الفضل من الاموال فنسخ بفرض الزكاة والامر بالمعروف محكم والاعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال روى انه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ماهذا قال لاادرى حتى اسأل ثم رجع فقال ان ربك يأمرك ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ذكره البغوى بغير سند وقال جعفر الصادق امر الله عزوجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الاخلاق وليس فى القرآن آية اجمع لمكارم الاخلاق من هذه عن عائشة قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولاسخابا فى الاسواق ولايجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح اخرجه الترمذى وروى البغوى بسنده عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثنى لتمام مكارم

بالتجرد عنها ومراعاة حق الله فيها (ياأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله) بالاجتناب عن نقض العهد وفسخ العزيمة واخفاء الامانة ومحبة الاموال والاولاد حتى تفنوا فيه (يجعل لكم فرقانا) نورا يفرق به بين الحق والباطل من طور العقل الفرقانى ويكفر عنكم سيئاتكم) اى سيئات نفوسكم (ويغفر لكم) اى ذنوب ذواتكم (والله ذو الفضل العظيم) باعطاء

الوجود الموهوب الحقانى والعقل الفرقانى (واذ يمكر بك الذين كفروا ليسبتوك اويقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر نا علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم

الاخلاق وتمام محاسن الافعال * قوله عز وجل ﴿ واما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ قال ابن زيد لما نزل قوله سبحانه وتعالى خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين قال النبي صلى الله عليه وسلم فكيف بالغضب يارب فانزل الله عزوجل واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ونزغ الشيطان عبارة عن وساسه ونخسه فى القلب وقيل النزغ الانزعاج واكثر مايكون عند الغضب واصله الازعاج بالحركة الى الشر والافساد يقال نزغت بين القوم اذا افسدت بينهم وقال الزجاج النزغ ادنى حركة تكون ومن الشيطان ادنى وسوسة والمعنى واما يصيبنك يامحمد ويعرض لك من الشيطان وسوسة او نخسة ﴿ فاستعذ بالله ﴾ يعنى فاستجر بالله والجأ اليه فى دفعه عنك (انه سميع) يعنى لدعائك (عليم) بحالك وقيل ان الشيطان يجد مجالا فى حمل الانسان على مالا ينبغى فى حالة الغضب والغيظ فامر الله بالالتجاء اليه والتعوذ به فى تلك الحالة فهى تجرى مجرى العلاج لذلك المرض

* ﴿ فصل واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء بهذه الآية ﴾ * فقالوا لو كان النبي معصوما لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ فى قلبه ويحتاج الى الاستعاذة والجواب عنه من وجوه الاول ان معنى الكلام ان حصل فى قلبك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله وانه لم يحصل ذلك له البتة فهو كقوله لئن اشركت وهو برئ من الشرك البتة والوجه الثانى على تقدير انه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله عزوجل عصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن قبولها وثبوتها فى قلبه (م) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يارسول الله قال واياى الا ان الله اعانى عليه فاسلم فلا يأمرنى الا بخير قال الشيخ محيي الدين النووى يروى فأسلم بفتح الميم وضمها فمن رفع قال معناه فاسلم انا من شره وفتنته ومن فتح قال معناه ان القرين اسلم من الاسلام يعنى صار مؤمنا لا يأمرنى الا بخير قال الخطابى الصحيح المختار الرفع ورجح القاضى عياض الفتح قال الشيخ وهو المختار لقوله فلا يأمرنى الا بخير قال القاضى عياض واعلم ان الامة مجمعة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه وفى هذا الحديث اشارة الى التحذير من فتنة القرين ووسوسته واغوائه اعلمنا انه معنا لنحترز عنه بحسب الامكان والله اعلم الوجه الثالث يحتمل ان يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ومعناه واما ينزغنك ايها الانسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله فهو كقوله فاذا قرات القرآن فاستعذ بالله * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف ﴾ وقرئ طيف ﴿ من الشيطان ﴾ وهما لغتان ومعناه الشئ يلم بالانسان وقيل بينهما فرق فالطائف مايطوف حول الانسان والطيف الوسوسة وقيل الطائف ماطاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللمم والمس وقال الازهرى الطيف فى كلام العرب الجنون وقيل للغضب طيف لان الغضبان يشبه المجنون وقيل سمى الجنون والغضب والوسوسة طيفا لانه لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال فذكر فى الآية الاولى النزغ وهو اخف من الطيف المذكور فى هذه الآية لان حالة الشيطان مع الانبياء اضعف من حاله مع غيرهم ﴿ تذكروا ﴾ يعنى عرفوا ماحصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضب فيذكر الله فيكظم غيظه وقال مجاهد هو الرجل يلم بالذنب

﴿ فيذكر ﴾

فيذكر الله فيقوم ويدعه (فاذاهم مبصرون) يعنى انهم يبصرون مواقع الخطا بالتذكر والتفكر وقال السدى اذازلوا تابوا وقال مقاتل هوالرجل اذااصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف انه معصية فابصر ونزع عن مخالفة الله عزوجل (واخوانهم) يعنى واخوان الشياطين من المشركين (يمدونهم) اى يمدهم الشياطين (فى الغى) قال الكلبى لكل كافر اخ من الشياطين يمدونهم اى يطيلون لهم فى الاغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم فى الضلالة (ثم لايقصرون) يعنى لايكفون عن الضلالة ولايتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لان المؤمن اذا اصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر فى ضلالته لايتذكر ولا يرعوى وقال ابن عباس الانس لايقصرون عما يعملون من السيآت ولاالشياطين يمسكون عنه فعلى هذا القول يحمل قوله لايقصرون عن فعل الانس والشياطين جميعا ✲ قوله عزوجل (واذالم تأتهم بآية) يعنى واذالم تأت المشركين يامحمد بآية ومعجزة باهرة (قالوا) يعنى قال المشركون (لولا اجتبيتها) يعنى افتعلتها وانشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبيت الكلام اذا اختلقته وافتعلته وقال الكلبى كان اهل مكة يسألون النبى صلى الله عليه وسلم الآيات تعنتا فاذاتأخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها يعنى هلا احدثتها وانشأتها من عندك (قل) اى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين سالوا الآيات (انما اتبع مايوحى الى من ربى) يعنى القرآن الذى انزل على وليس لى ان اقترح الآيات والمعجزات (هذا بصائر من ربكم) يعنى هذا القرآن حجج وبرهان واصل البصائر من الابصار وهو ظهور الشئ حتى يبصره الانسان ولما كان القرآن سببا لبصائر العقول فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد اطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب (وهدى) يعنى وهو هدى (ورحمة) يعنى وهو رحمة من الله (لقوم يؤمنون) وهنا لطيفة وهى الفرق بين هذه المراتب الثلاث وذلك ان الناس متفاوتون فى درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية فى علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم اصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم اصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وهم اصحاب حق اليقين فالقرآن فى حق الاولين وهم السابقون بصائر وفى حق القسم الثانى وهم المستدلون هدى وفى حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة ✲ قوله تعالى (واذاقرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عظم شأن القرآن بقوله هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون اتبعه بما يجب من تعظيم شأنه عند قراءته فقال سبحانه وتعالى واذاقرئ عليكم ايها المؤمنون القرآن فاستمعوا له يعنى اصغوا اليه باسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وانصتوا يعنى عند قراءته والانصات السكوت للاستماع يقال نصت وانصت وانتصت بمعنى واحد واختلف العلماء فى الحال التى امر الله عزوجل بالاستماع لقارئ القرآن والانصات له اذاقرأ لان قوله فاستمعوا له وانصتوا امر وظاهر الامر للوجوب فمقتضاه ان يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء فى ذلك اقوال القول الاول وهو قول الحسن واهل الظاهر ان تجرى هذه الآيات على العموم ففى اى وقت واى موضع قرئ القرآن يجب على كل احد الاستماع له والسكوت والقول الثانى انها نزلت فى تحريم الكلام فى الصلاة روى عن ابى هريرة انهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فامروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن

وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) لان العذاب صورة الغضب واثره فلا يكون الامن غضب النبى اومن غضب الله المسبب من ذنوب الامة والنبى عليه السلام كان صورة الرحمة لقوله تعالى وماارسلناك الارحمة للعالمين ولهذا اذ كسروا رباعيته قال اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون ولم يغضب كاغضب نوح عليه السلام وقال رب لاتذر على

وقال عبدالله كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان قال فجاء القرآن واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا القول الثالث انها نزلت فى ترك الجهر بالقراءة خلف الامام روى عن ابى هريرة قال نزلت هذه الآية فى رفع الاصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن مسعود انه سمع ناسا يقرؤن مع الامام فلما انصرف قال اما آن لكم ان تفقهوا واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا كما امركم الله وقال الكلبي كانوا يرفعون اصواتهم فى الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار القول الرابع انها نزلت فى السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء قال مجاهد الانصات للامام يوم الجمعة وقال عطاء وجب الصمت فى اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن وعند الامام وهو يخطب وهذا القول قد اختاره جماعة وفيه بعد لان الآية مكية والخطبة انما وجبت بالمدينة واتفقوا على انه يجب الانصات حال الخطبة بدليل السنة وهو ماروى عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قلت لصاحبك انصت والامام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت اخرجاه فى الصحيحين واختلف العلماء فى القراءة خلف الامام فذهب جماعة الى ايجابها سواء جهر الامام بالقراءة او اسر روى ذلك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ وهو قول الاوزاعى واليه ذهب الشافعى وذهب قوم الى انه يقرأ فيما اسر الامام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الامام فيه روى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهرى ومالك وابن المبارك واحمد واسحق وذهب قوم الى انه لا يقرأ سواء اسر الامام او جهر روى ذلك عن جابر واليه ذهب اصحاب الراى حجة من لا يرى القراءة خلف الامام ظاهر هذه الآية وحجة من قال يقرأ فى السرية دون الجهرية قال ان الآية تدل على الامر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الامام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعا بين دلائل الكتاب والسنة وحجة من اوجب القراءة خلف الامام فى صلاة السرية والجهرية قال الآية واردة فى غير الفاتحة لان دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الامام ولم يفرق بين السرية والجهرية قالوا واذا قرأ الفاتحة خلف الامام تتبع سكتاته ولا ينازعه فى القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه ويدل عليه ماروى عن عبادة بن الصامت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فثقلت عليه القرءة فلما انصرف قال اراكم تقرؤن وراء امامكم قال قلنا يا رسول الله اى والله قال لا تفعلوا الا بام القرآن فانه لا صلاة لمن لم يقرأ بها اخرجه الترمذى بطوله واخرجاه فى الصحيحين اقصر منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب (م) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج يقولها ثلاثا غير تمام فقيل لابى هريرة انا نكون وراء الامام قال اقرأ بها فى نفسك وذكر الحديث * وقوله سبحانه وتعالى (لعلكم ترحمون) يعنى لكى يرحمكم ربكم باتباعكم ما امركم به من اوامره ونواهيه * قوله عزوجل (واذكر ربك فى نفسك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من امته لانه عام لسائر المكلفين قال ابن عباس يعنى بالذكر القرآن فى الصلاة يريد اقرأ سرا فى نفسك والفائدة فيه ان انتفاع الانسان بالذكر انما يكمل اذا وقع الذكر بهذه الصفة لان ذكر النفس اقرب الى الاخلاص والبعد عن الرياء

الارض من الكافرين ديارا فوجوده فيهم مانع من نزول العذاب وكذا وجود الاستغفار فان السبب الاولى للعذاب لما كان وجود الذنب والاستغفار مانع من تراكم الذنب وثباته بل يوجب زواله فلا يتسبب لغضب الله فادام الاستغفار فيهم فهم لا يعذبون (ومالهم الا يعذبهم الله) اى ليس عدم نزول

وقيل المراد بالذكر في النفس ان يستحضر في قلبه عظمة المذكور جل جلاله واذا كان الذكر باللسان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لان فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور عز وجل (تضرعا) يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة اذا خضع وذل واستكان لغيره (وخيفة ودون الجهر من القول) يعني وخوفا والمعنى تضرع الي وخف عذابي وقال مجاهد وابن جريج امر ان يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت في الدعاء وههنا لطيفة وهي ان قوله سبحانه وتعالى واذكر ربك في نفسك فيه اشعار بقرب العبد من الله عز وجل وهو مقام الرجاء لان لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والاحسان فاذا تذكر العبد انعام الله عليه واحسانه اليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم اتبعه بقوله تضرعا وخيفة وهذا مقام الخوف فاذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوي ايمانه والمستحب ان يكون الخوف اغلب على العبد في حال صحة وقوته فاذا قارب الموت ودنا آخر اجله فيستحب ان يغلب رجاؤه على خوفه عن انس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك قال ارجو الله يا رسول الله واني اخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا اعطاه الله ما يرجو منه وآمنه مما يخاف اخرجه الترمذي * وقوله سبحانه وتعالى (بالغدو) جمع غدوة (والآصال) جمع اصل وهي ما بين صلاة العصر الى المغرب والمعنى اذكر ربك بالبكر والعشيات وانما خص هذين الوقتين بالذكر لان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو اخو الموت فاستحب له ان يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون اول اعماله ذكر الله عز وجل واما وقت الآصال وهو آخر النهار فان الانسان يريد ان يستقبل النوم الذي هو اخو الموت فيستحب له ان يستقبله بالذكر لانه حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى (ولا تكن من الغافلين) يعني عما يقربك الى الله عز وجل وقيل ان اعمال العبد تصعد اول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى المغرب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر وقيل لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد ان يذكر الله في هذين الوقتين ليكون في جميع اوقاته مشتغلا بما يقربه الى الله عز وجل من صلاة او ذكر * قوله عز وجل (ان الذين عند ربك) يعني الملائكة المقربين لما امر الله عز وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالذكر في حالة التضرع والخوف اخبر ان الملائكة الذين عنده مع علو مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم (لا يستكبرون عن عبادته) وطاعته لانهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه عز وجل (ويسبحونه) يعني وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان ربنا (وله يسجدون) لا لغيره فان قلت التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى لا يستكبرون عن عبادته لانهما من جملة العبادة فكيف افردهما بالذكر قلت اخبر الله عز وجل عن حال الملائكة انهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته ثم اخبر عن صفة عبادتهم انهم يسجدون ولما كانت الاعمال تنقسم الى قسمين اعمال القلوب واعمال الجوارح واعمال القلوب هي تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه

العذاب لعدم استحقاقهم لذلك بحسب انفسهم بل انهم مستحقون بذواتهم لصدورهم وصدهم المستعدين عن مقام القلب وعدم بقاء الخيرية فيهم ولكن يمنعه وجودك ووجود المؤمنين المستغفرين منك فيهم واعلم ان الوجود الامكاني يتبع الخير الغالب لان الوجود الواجبي هو الخير المحض فارجح خيره على شره فهو موجود بوجوده بالمناسبة الخيرية واذا غلب الشر لم تبق المناسبة فلزم استئصاله واعدامه فهم ما داموا على الصورة الاجتماعية كان الخير فيهم غالبا فلم يستحقوا الدمار

بقوله ويسبحونه وعبر عن اعمال الجوارح بقوله وله يسجدون وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيستحب للقارئ والمستمع ان يسجد عند قوله وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم (ق) عن عبدالله بن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن فيقرا سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى مايجد بعضنا موضعا لمكان جبهته في غير وقت صلاة (م) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذاقرا ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول ياويلتا امر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وامرت بالسجود فابيت فلى النار (م) عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لاتسجد لله سجدة الارفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة والله اعلم بمراده واسرار كتابه

* (تفسير سورة الانفال) *

مدنية كلها الاسبع آيات منها نزلت بمكة وهى من قوله سبحانه وتعالى واذيمكر بك الذين كفروا الى آخر سبع آيات والاصح انها نزلت بالمدينة وان كانت الواقعة مكية وهى خمس وسبعون آية والف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

※ قوله سبحانه وتعالى (يسئلونك عن الانفال) (ق) عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن سورة الانفال قال نزلت فى بدر واختلف اهل التفسير فى سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن اتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلا فله كذا فتسارع الشباب وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤا يطلبون ماجعل لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم الاشياخ لاتذهبوا به دوننا ولاتستأثروا به علينا فانا كنا ردا لكم ولو انكشفتم انكشفتم الينا فتنازعوا فانزل الله عزوجل يسئلونك عن الانفال الآية قال اهل التفسير قام ابو اليسر بن عمرو الانصارى اخو بنى سلمة فقال يارسول الله انك وعدت ان من قتل قتيلا فله كذا وكذا وانا قد قتلنا سبعين واسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال والله مامنعنا ان نطلب ماطلب هؤلاء زهادة فى الآخرة ولاجبن عن العدو ولكن كرهنا ان تعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصيبونك فاعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد يارسول الله ان الناس كثير والغنيمة دون ذلك فان تعط هؤلاء الذين ذكرت لايبقى لاصحابك كبير شئ فنزلت هذه الآية يسئلونك عن الانفال وقال محمد بن اسحق امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هولنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل كل امرئ ماصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولانحن مااصبتموه وقال الذين يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كنا نقدر ان نقاتل العدو ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم غرة العدو فقمنا دونه فما انتم باحق منا فنزلت هذه الآية وروى مكحول عن ابى امامة الباهلى قال سألت عبادة بن الصامت عن الانفال فقال فينا معشر اصحاب بدر نزلت حين فى النفل وساءت فيه اخلاقنا فنزعه الله من ايدينا وجعله الى رسول الله صلى الله

بالعذاب واما اذا تفرقوا ابقى شرهم الا خالصا فوجب تدميرهم كما وقع فى وقعة بدر ومن هذا يظهر تحقق المعنى الثانى فى قوله واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة لغلبة الشر على المجموع حينئذ ولهذا قال امير المؤمنين عليه السلام كان فى الارض امانان فرفع احدهما وبقى الآخر فاما الذى رفع فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم واما الذى بقى فالاستغفار وقرأ هذه الآية (وهم يصدون

عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا عن بواء يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ذات البين وعن سعد بن ابي وقاص قال لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يارسول الله ان الله قد شفى صدرى من المشركين او نحو هذا هب لى هذا السيف فقال هذا ليس لى ولا لك فقلت عسى ان يعطى هذا من لا يبلى بلائى فجاءنى الرسول فقال انك سألتنى وليس لى وانه قد صار لى وهو لك فنزلت يسئلونك عن الانفال الآية اخرجه ابو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح واخرجه مسلم فى جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد ولفظ مسلم فيه قال اصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة واذا فيها سيف فاخذته فاتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نفلنى هذا السيف فانا من قد علمت حاله فقال رده من حيث اخذته فانطلقت به حتى اردت ان القيه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت اليه فقلت اعطنيه قال فشد على صوته رده من حيث اخذته فانزل الله عز وجل يسئلونك عن الانفال وقال ابن عباس كانت المغانم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لاحد فيها شئ وما اصاب سرايا المسلمين من سبى اتوه به فمن حبس منه ابرة اوسلكا فهو غلول واما التفسير فقوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الانفال استفتاء يعنى يسألك اصحابك يامحمد عن حكم الانفال وعلمها وهو سؤال استفتاء لاسؤال طلب وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال طلب وقوله عن الانفال اى من الانفال وعن بمعنى من وقيل عن صلة اى يسئلونك الانفال والانفال هى الغنائم فى قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة واصله الزيادة سميت الغنائم انفالا لانها زيادة من الله عز وجل لهذه الامة على الخصوص واكثر المفسرين على انها نزلت فى غنائم بدر وقال عطاء هى ماشذ عن المشركين الى المسلمين بغير قتال من عبد او امرأة او متاع فهو للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع فيه مايشاء (قل الانفال لله والرسول) اى قل لهم يامحمد ان الانفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاآ واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة والسدى هذه الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمس فى قوله واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وقيل كانت الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها كيف شاء ولمن شاء ثم نسخها الله بالخمس وقال بعضهم هذه الآية ناسخة من وجه منسوخة من وجه وذلك ان الغنائم كانت حراما على الامم الذين من قبلنا فى شرائع انبيائهم فاباحها الله لهذه الامة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت آية الخمس وقال عبد الرحمن بن زيد انها محكمة وهى احدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا القول قل الانفال لله والرسول يضعها حيث امره الله وقد بين الله مصارفها فى قوله واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وصح من حديث ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية فغنمنا ابلا فاصاب كل واحد منا اثنى عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا اخرجاه فى الصحيحين فعلى هذا تكون الآية محكمة وللامام ان ينفل من شاء من الجيش ماشاء قبل التخميس (فاتقوا الله) يعنى اتقوا بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة فى الغنائم (واصلحوا ذات بينكم) اى اصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة والمخالفة وبتسليم امر الغنائم الى الله ورسوله (واطيعوا الله ورسوله) فيما يامركم به وينهاكم عنه (ان كنتم مؤمنين) يعنى ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده * قوله سبحانه

عن المسجد الحرام) صورة لصدودهم واعراضهم عن معناه الذى هو القلب بالركون الى النفس وصفاتها وصدهم المستعدين عنه باغرائهم على الامور الفسانية واللذات الطبيعية (وما كانوا اولياءه) لبعدهم عن الصفة وغلبة ظلمة النفس واستيلاء صفاتها عليهم واحتجابهم عنه بالكفر المستفاد من الدين (ان اولياؤه الا المتقون) الذين اتقوا صفات النفس وافعالها (ولكن اكثرهم لايعلمون) ان البيت صورة القلب الذى هو

وتعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) لما امر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله فى الآية المتقدمة ثم قال بعد ذلك ان كنتم مؤمنين لان الايمان يستلزم الطاعة بين فى هذه الآية صفات المؤمنين واحوالهم فقال سبحانه وتعالى انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله انما المؤمنون الصادقون فى ايمانهم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم اى خضعت وخافت ورقت قلوبهم وقيل اذا خوفوا بالله انقادوا خوفا من عقابه وقال اهل الحقائق الخوف على قسمين خوف عقاب وهو خوف العصاة وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص لانهم يعلمون عظمة الله عز وجل فيخافونه اشد خوف واما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته فى ذكر الله فان قلت انه سبحانه وتعالى قال فى هذه الآية وجلت قلوبهم بمعنى خافت وقال فى آية اخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما قلت لامنافاة بين هاتين الحالتين لان الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان انما يكون من ثلج اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمعا فى آية واحدة وهى قوله سبحانه وتعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله والمعنى تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله ورجاء ثوابه وهذا حاصل فى قلب المؤمنين * ثم قال تعالى (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) يعنى واذا قرئت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقا قاله ابن عباس والمعنى انه كلما جاءهم شئ من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك ايمانا وتصديقا لان زيادة الايمان زيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الاول وهو الذى عليه عامة اهل العلم على ماحكاه الواحدى ان كل من كانت الدلائل عنده اكثر واقوى كان ايمانه ازيد لان عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله اقوى فيزداد ايمانه الوجه الثانى هو انهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكليف صدقوا به فيزدادون بذلك الاقرار تصديقا وايمانا ومن المعلوم ان من صدق انسانا فى شيئين كان اكبر ممن يصدقه فى شئ واحد فقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا آية جديدة اتوا باقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة فى ايمانهم واختلف الناس فى ان الايمان هل يقبل الزيادة والنقص ام لا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق القلبى قالوا لايقبل الزيادة لاجماع اهل اللغة على ان الايمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب وذلك لايقبل الزيادة ومن قال ان الايمان عبارة عن مجموع امور ثلاثة وهى التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح والاركان فقد استدل على ذلك بهذه الآية من وجهين احدهما ان قوله زادتهم ايمانا صريح فى ان الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة واذا قبل الزيادة فقد قبل النقص الوجه الثانى انه ذكر فى هذه الآية اوصافا متعددة من احوال المؤمنين ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك اولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على ان تلك الاوصاف داخلة فى مسمى الايمان وروى عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان اخرجاه فى الصحيحين ففى هذا الحديث دليل على ان الايمان فيه اعلى وادنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة

(والنقص)

بيت الله بالحقيقة فلا يستحق ولايته الا اهل التقوى من الموحدين دون المشركين (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم اولئك هم الخاسرون قل

والنقص قال عمرو بن حبيب وكان له صحبة ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته قال اذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ان للايمان فرائض وشرائط وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ❊ وقوله سبحانه وتعالى (وعلى ربهم يتوكلون) معناه يفوضون جميع امورهم اليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه واعلم ان المؤمن اذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهى درجة عالية ومرتبة شريفة لان الانسان يصير بحيث لا يبقى له اعتماد فى شئ من اموره الا على الله عز وجل واعلم ان هذه المراتب الثلاث اعنى الوجل عند ذكر الله وزيادة الايمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من اعمال القلوب ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث اتبعها بصفتين من اعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يعنى يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها واركانها فى اوقاتها وينفقون اموالهم فيما امرهم الله به من الانفاق فيه ويدخل فيه النفقة فى الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق فى انواع البر والقربات ❊ ثم قال تعالى (اولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم المؤمنون حقا) يعنى يقينا لا شك فى ايمانهم قال ابن عباس برؤا من الكفر وقال قتادة استحقوا الايمان واحقه الله لهم وفيه دليل على انه لا يجوز ان يصف احد نفسه بكونه مؤمنا حقا لان الله سبحانه وتعالى انما وصف بذلك اقواما مخصوصين على اوصاف مخصوصة وكل احد لا يتحقق وجود تلك الاوصاف فيه وهذا يتعلق بمسئلة اصولية وهى ان العلماء اتفقوا على انه يجوز للرجل ان يقول انا مؤمن واختلفوا فى انه هل يجوز له ان يقول انا مؤمن حقا ام لا فقال اصحاب الامام ابى حنيفة الاولى ان يقول انا مؤمن حقا ولا يجوز ان يقول انا مؤمن ان شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين ❊ الاول ان المتحرك لا يجوز ان يقول انا متحرك ان شاء الله وكذا القول فى القائم والقاعد فكذلك هذه المسئلة يجب فيها ان يكون المؤمن مؤمنا حقا ولا يجوز ان يقول انا مؤمن ان شاء الله ❊ الوجه الثانى انه سبحانه وتعالى قال اولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا وفى قوله انا مؤمن ان شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لا يجوز وقال اصحاب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الاولى ان يقول الرجل انا مؤمن ان شاء الله واحتجوا لصحة هذا القول بوجوه ❊ الاول ان الايمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والاقرار والعمل وكون الانسان آتيا بالاعمال الصالحة المقبولة امر مشكوك فيه والشك فى احد اجزاء الماهية الماهية يوجب الشك فى الماهية فيجب ان يقول انا مؤمن ان شاء الله وان كان اعتقاده واقراره صحيحا وعند اصحاب ابى حنيفة ان الايمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الايمان فلم يلزم حصول الشك ❊ الوجه الثانى ان قولنا انا مؤمن ان شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن اذا قال الرجل انا مؤمن فقد مدح نفسه باعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال ان شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار روى ان ابا حنيفة قال لقتادة لم استثنيت فى ايمانك فقال قتادة اتباعا لابراهيم عليه السلام فى قوله والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين فقال ابو حنيفة هلا اقتديت به فى قوله اولم تؤمن قال بلى فانقطع قتادة قال

للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنت الاولين وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير وان تولوا فاعلموا ان الله مولكم نعم المولى ونعم النصير واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه) شديد العقاب لا يقبل التأويل بحسب ماورد فيه من الوقعة وان شئت تطبيقه على تفاصيل وجودك امكن ان تقول واعلموا ايها القوى الروحانية انما غنمتم من العلوم النافعة والشرائع المبنى

بعضهم كان قتادة ان يقول ان ابراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبي فطلب مزيد الطمأنينة ❊ الوجه الثالث ان الله سبحانه وتعالى ذكر في اول الآية انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر يعني انما المؤمنون الذين هم كذا وكذا وذكر بعد ذلك اوصافا خمسة وهي الخوف من الله والاخلاص لله والتوكل على الله والاتيان بالصلاة كما امر الله سبحانه وتعالى وايتاء الزكاة كذلك ثم بعد ذلك قال اولئك هم المؤمنون حقا يعني ان من اتى بجميع هذه الاوصاف كان مؤمنا حقا ولا يمكن لاحد ان يقطع بحصول هذه الصفات له فكان الاولى له ان يقول انا مؤمن ان شاء الله وقال ابن ابي نجيح سال رجل الحسن فقال امؤمن انت فقال الحسن ان كنت سألتني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا بها مؤمن وان كنت سألتني عن قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا ادري انا منهم ام لا وقال علقمة كنا في سفر فلقينا قوما فقلنا من القوم فقالوا نحن المؤمنون حقا فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبدالله بن مسعود فاخبرناه بما قالوا قال فما رددتم عليهم قلنا لم نرد عليهم شيأ قال هلا قلتم لهم أمن اهل الجنة انتم ان المؤمنين هم اهل الجنة وقال سفيان الثوري من زعم انه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد انه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف الآخر ❊ الوجه الرابع ان قولنا انا مؤمن ان شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي انه لاحق باهل القبور ❊ الوجه الخامس ان المؤمن لا يكون مؤمنا حقا الا اذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لا يحصل الا عند الموت فلهذا السبب حسن ان يقول انا مؤمن ان شاء الله فالمراد صرف هذا الاستثناء الى الخاتمة واجاب اصحاب هذا القول وهم اصحاب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنهم عن استدلال اصحاب ابي حنيفة رضي الله تعالى عنهم بقولهم ان المتحرك لا يجوز ان يقول انا متحرك ان شاء الله بان الفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا وبين وصفه بكونه متحركا ان الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل يقيني فحصل الفرق بينهما والجواب عن الوجه الثاني وهو قولهم انه سبحانه وتعالى قال اولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقا انه تعالى حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية بكونهم مؤمنين حقا اذا اتوا بتلك الاوصاف الخمسة ولا يقدر احد ان يأتي بتلك الاوصاف على الحقيقة ونحن نقول ايضا ان من اتى بتلك الاوصاف على الحقيقة كان مؤمنا حقا ولكن لا يقدر على ذلك احد والله اعلم بمراده واسرار كتابه ❊ وقوله تعالى (لهم درجات عند ربهم) يعني لهم مراتب بعضها اعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت احوالهم في الاخذ بتلك الاوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم في الجنة لان درجات الجنة على قدر الاعمال قال عطاء درجات الجنة يرتقون فيها باعمالهم وقال الربيع بن انس درجات الجنة سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام اخرجه الترمذي وله عن ابي سعيد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة مائة درجة لو ان العالمين اجتمعوا في احداهن لوسعتهم (ومغفرة) يعني ولهم مغفرة لذنوبهم (ورزق كريم) يعني ما اعد لهم في الجنة وصفه بكونه كريما لان منافعه حاصلة لهم دائمة عليهم مقرونة بالاكرام والتعظيم ❊ قوله سبحانه وتعالى (كما اخرجك ربك من بيتك بالحق)

عليها الاسلام في قوله بني الاسلام على خمس فان لله خمسه وهو شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله باعتبار التوحيد الجمعي ولرسول القلب (وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين) الذي هو السر ويتامى العاقلة النظرية والعملية والقوة الفكرية ومساكين القوى النفسانية (وابن السبيل) الذي هو النفس السالكة الداخلة في الغربة الجائبة منازل السلوك النابية عن مقرها الاصلي باعتبار التوحيد

اختلفوا فى الجالب لهذه الكاف ماهو فقال المبرد تقديره قل الانفال لله والرسول وان كرهوا كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان كرهوا وقيل معناه امض لامر ربك فى الانفال وان كرهوا كما مضيت لامر ربك فى الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون وقيل معناه فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما ان اخراج محمد صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق هو خير لكم وان كرهه فريق منكم وقيل هو راجع الى قوله سبحانه وتعالى لهم درجات عند ربهم تقديره وعدالله المؤمنين بالدرجات حق حتى ينجزه الله تعالى كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وانجز الوعد بالنصر والظفر وقيل هى متعلقة بما بعدها تقديره كما اخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على اى امض على الذى اخرجك ربك من بيتك بالحق فانه حق وقيل الكاف بمعنى القسم تقديره والذى اخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك فى الحق وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر يا محمد اذ اخرجك ربك من بيتك بالحق قيل المراد بهذا الاخراج اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة وقال جمهور المفسرين المراد بهذا الاخراج هو خروجه من المدينة الى بدر ومعناه كما امرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعنى بالوحى لطلب المشركين (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) يعنى للقتال وانما كرهوه لقلة عددهم وقلة سلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم (يجادلونك فى الحق) وذلك ان المؤمنين لما ايقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا انا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وانما خرجنا لطلب العير فذلك جدالهم (بعدما تبين) يعنى تبين لهم انك لاتصنع شيأ الا بأمر ربك وتبين لهم صدقك فى الوعد (كانما يساقون الى الموت) يعنى لشدة كراهتهم القتال (وهم ينظرون) يعنى الى الموت شبه حالهم فى فرط فزعهم بحال من يجر الى القتل ويساق الى الموت وهو ينظر اليه ويعلم انه آتيه ❊ قوله عزوجل (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) يعنى الفرقتين فرقة ابى سفيان مع العير وفرقة ابى جهل مع النفير (انها لكم) يعنى احدى الفرقتين لكم قال ابن عباس وعروة بن الزبير ومحمد بن اسحق والسدى اقبل ابو سفيان بن حرب من الشأم فى عير قريش فى اربعين راكبا من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى ومعهم تجارة كبيرة وهى اللطيمة يريد باللطيمة الجمال التى تحمل العطر والبز غير الميرة حتى اذا كانوا قريبا من بدر بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبرهم فندب اصحابه اليهم واخبرهم بكثرة المال وقلة العدو وقال هذه عير قريش فيها اموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك انهم لم يظنوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا فلما سمع ابو سفيان بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه استأجر ضمضم بن عمر والغفارى فبعثه الى مكة وامره ان يأتى قريشا يستنفرهم ويخبرهم ان محمدا فى اصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة ايام افزعتها فبعثت الى اخيها العباس بن عبد المطلب فقالت يا اخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا افزعتنى وخشيت ان يدخل على قومك منها شر ومصيبة قال لها وما رأيت قالت رأيت راكبا اقبل على بعير له حتى وقف بالابطح ثم صرخ باعلى صوته الا فانفروا يا آل غدر الى مصارعكم فى ثلاث فارى الناس قد اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينماهم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ بمثلها باعلى صوته الا فانفروا يا آل

التفصيلى فى العالم النبوى والاخماس الاربعة الباقية تقسم على الجوارح والاركان والقوى الطبيعية (ان كنتم آمنتم) باسمه الايمان الحقيقى (بالله) جمعا (وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان) وقت التفرقة بعد الجمع تفصيلا (يوم التقى الجمعان) من فريقى القوى الروحانية والنفسانية عند الرجوع الى مشاهدة التفصيل فى الجمع (والله على كل شئ قدير اذ انتم بالعدوة الدنيا) من مدينة العلم ومحل العقل الفرقانى (وهم بالعدوة القصوى) اى الجهة السفلية البعيدة من الحق ومحل العلم وركب

القوى الطبيعية الممتازة للقوى النفسانية (والركب اسفل منكم) اي من الفريقين (ولو تواعدتم) للقتال للمحاربة من طريق العقل والحكمة دون طريق الرياضة والوحدة (لاختلفتم في الميعاد) لكون ذلك صعبا حينئذ موجبا للفشل والجبن (ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا) مقدرا محققا عنده واجبا وقوعه فعل ذلك (ليهلك من هلك عن بينة) هي كونها ملازمة للبدن الواجب الفناء منطبعة فيه (ويحيي من حيّ

غدر الى مصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس ابي قبيس فصرخ مثلها ثم اخذ صخرة وأرسلها فاقبلت تهوى حتى اذا كانت باسفل الجبل ارفضت فما بقي من بيوت مكة ولا دار من دورها الا دخلها منها فلقة فقال العباس والله ان هذه لرؤيا فظيعة فاكتمها ولا تذكرها لاحد ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة وكان صديقا للعباس فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه اياها فذكرها الوليد لابيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش بمكة قال العباس فعمدت الطوف بالبيت وابو جهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة فغدوت الطوف فلما رآني ابو جهل قال يا ابا الفضل اذا فرغت من طوافك فاقبل الينا قال العباس فلما فرغت من طوافي اقبلت اليهم حتى جلست معهم فقال لي ابو جهل يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت وما ذاك قال الرؤيا التي رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بني عبد المطلب اما رضيتم ان تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة في رؤياها انه قال انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فان يك ما قالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا بأنكم اكذب اهل بيت في العرب قال العباس فوالله ما كان مني اليه من كبير شئ الا اني جحدت ذلك وانكرت ان تكون عاتكة رأت شيأ ثم تفرقنا فلما امسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب الا اتتني فقلن اقررتم لهذا الفاسق الخبيث ان يقع في رجالكم حتى تناول النساء وانت تسمع ولم يكن عندك غيرة لشئ مما سمعت قال قلت قد والله فعلت ما كان مني اليه من شئ وايم الله لاتعرضن له فان عاد لاكفيكنه قال فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وانا حديد مغضب ارى اني قد فاتني شئ احب ان ادركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله اني لامشي نحوه اتعرضه ليعود لبعض ما قال فاقع به وكان ابو جهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر اذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال العباس فقلت في نفسي ماله لعنه الله اكل هذا فرقا مني ان اشاتمه قال فاذا هو قد سمع ما لم اسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة هذه اموالكم مع ابي سفيان وقد عرض لها محمد في اصحابه ولا ارى ان تدركوها الغوث الغوث قال فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الامر قال فتجهز الناس سراعا ولم يتخلف من اشراف قريش احد الا ان ابا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب فقالوا نخشى ان يأتونا من خلفنا فكاد ذلك ان يثنيهم فتبدى لهم ابليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من اشراف بني بكر فقال انا جار لكم من ان تأتيكم كنانة من خلفكم بشئ تكرهونه فخرجت قريش سراعا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ واديا يقال له ذافرد فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالروحاء اخذ عينا للقوم فاخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا له من جهينة حليفا للانصار يدعى اريقط فاتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وقال ان الله وعدكم احدى الطائفتين انها لكم اما العير واما قريش وكانت العير احب اليهم فاستشار رسول الله صلى الله

(عليه)

عليه وسلم اصحابه فى طلب العير وحرب النفير فقام ابوبكر فقال واحسن وقام عمر فقال واحسن
ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله امض لما امرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت
بنو اسرائيل لموسى اذهب انت وربك فقاتلا اناههنا قاعدون ولكن نقول اذهب انت وربك
فقاتلا انا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لوسرت بنا الى برك الغماد يعنى مدينة الحبشة
لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له خيرا ودعا له بخير ثم
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشيروا على ايها الناس وانما يريد الانصار وذلك لانهم عدد
الناس وانهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله انا برآء من ذمامك حتى تصل الى دارنا
فاذا وصلت الينا فانت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يتخوف ان لاتكون الانصار ترى عليها نصرته الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وان
ليس عليهم ان يسيروا معه الى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال اجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا
ان ماجئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله
لما اردت فوالذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك مايتخلف منا احد
ومانكره ان تلقى بنا عدونا وعدوك انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله عز وجل ان يريك
منا ماتقربه عينك فسربنا على بركة الله تعالى فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه
ذلك فقال سيروا على بركة الله وابشروا فان الله عز وجل قد وعدنى احدى الطائفتين والله
لكأنى انظر الى مصارع القوم (م) عن انس بن مالك ان عمر بن الخطاب حدثه عن اهل بدر قال
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع اهل بدر بالامس يقول هذا مصرع فلان
غدا ان شاء الله تعالى قال عمر فوالذى بعثه بالحق مااخطؤا الحدود التى حدها رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى
اليهم فقال يا فلان بن فلان ويافلان بن فلان هل وجدتم ماوعدكم الله ورسوله حقا فانى قد
وجدت ماوعدنى الله حقا فقال عمر يارسول الله كيف تكلم اجسادا لا ارواح فيها فقال ماانتم
باسمع لما اقول منهم غير انهم لايستطيعون ان يردوا على شيأ فذلك قوله سبحانه وتعالى
واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم يعنى طائفة ابى سفيان مع العير وطائفة ابى جهل مع
النفير (وتودون) اى وتريدون وتتمنون (ان غير ذات الشوكة تكون لكم) والمعنى وتتمنون
ان العير التى ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة والقوة ويقال السلاح
(ويريد الله ان يحق الحق) اى يظهر الحق ويعليه (بكلماته) يعنى بأمره اياكم بالقتال وقيل
بعداته التى سبقت لكم من اظهار الدين واعزازه (ويقطع دابر الكافرين) اى ويستأصلهم
حتى لايبقى منهم احد (ليحق الحق) يعنى ليثبت الاسلام (ويبطل الباطل) يعنى وينفى الكفر
(ولوكره المجرمون) يعنى المشركون وفى الآية سؤالان * الاول ان قوله ويريد الله ان يحق
الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فامعناه والجواب انه ليس فيه تكرير لان المراد بالاول تثبيت
ماوعد فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالاعداء والمراد بالثانى تقوية القرآن والدين واظهار
منار الشريعة لان الذى وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان

عن بينة) هى كونها مجردة
عنه متصلة بعالم القدس الذى
هو معدن الحياة الحقيقية
الدائم البقاء (وان الله لسميع
عليم اذ يريكهم الله فى منامك
قليلا) ايها القلب فى منام
تعطل الحواس الظاهرة
وهدو القوة البدنية قليل
القدر ضعاف الحال
(ولو اراكهم كثيرا) فى حال
غلبة صفات النفس
(لفشلتم ولتنازعتم فى الامر)
فى امر كسرها وقهرها
لانجذاب كل منكم الى جهة
(ولكن الله سلم انه عليم
بذات الصدور واذ يريكموهم
اذ التقيتم فى اعينكم قليلا
ويقللكم فى اعينهم
ليقضى الله امرا كان مفعولا

سببالاعزاز الدين وقوته ولهذا السبب قرنه بقوله ويبطل الباطل يعني الذي هو الشرك * السؤال الثاني الحق حق لذاته والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وابطال الباطل والجواب ان المراد من تحقيق الحق اظهار كون ذلك الحق حقا والمراد من ابطال ذلك الباطل اظهار كون ذلك الباطل باطلا وذلك بظهار دلائل الحق وتقويته وقمع رؤساء الباطل وقهرهم * قوله عزوجل (اذتستغيثون ربكم) اى واذكر يامحمد اذتستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفي المستغيثين قولان احدهما انه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه قاله الزهرى والقول الثاني انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم الف واصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول اللهم انجز لي ماوعدتني اللهم آتني ماوعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لاتعبد في الارض فمازال يهتف بربه مادايديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه وأتاه ابوبكر فأخذ رداءه فالقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يانبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك فانزل الله عزوجل اذتستغيثون ربكم (فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمده الله بالملائكة قال سماك فحدثني ابن عباس قال بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في اثر رجل من المشركين امامه اذسمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم اذنظر الى المشرك امامه خر مستلقيا فنظر اليه فاذا قد حطم انفه وشق وجهه كضربة السيف فاخضر ذلك اجمع وجاء فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين واسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم يعني فاجاب دعاءكم انى ممدكم اصله بانى ممدكم اى مرسل اليكم مددا وردالكم بألف من الملائكة مردفين يعني يردف بعضهم بعضا بمعنى يتبع بعضهم بعضا روى انه نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة وميكائيل عليه السلام في خمسمائة في صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد ارخوها بين اكتافهم وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما ناشد ربه وقال ابوبكر ان الله ينجز لك ماوعدك خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال ياابابكر اتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ) عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه اداة الحرب يعني آلة الحرب قال ابن عباس كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة يوم سوى يوم بدر من الايام وكانوا يكونون فيما سواه عددا ومددا وروى عن ابي اسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرا انه قال بعدما ذهب بصره لوكنت معكم اليوم ببدر ومعي بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة وقد تقدم الكلام في سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة ام لا والصحيح انهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس في الذى ضربه بالسوط فحطم انفه وشق وجهه وكانوا فيما سوى يوم بدر مددا وعونا وقيل انهم لم يقاتلوا وانما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبتوهم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وماجعله الله الابشرى) يعني وماجعل الله الارداف بالملائكة الابشرى (ولتطمئن به قلوبكم) وهذا يحقق انهم انما نزلوا لذلك لاللقتال والصحيح

والى الله ترجع الامور يا أيها الذين امنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) عن الفشل والتنازع بتأييده وعصمته (ولاتكونوا) ككفرة القوى النفسانية (كالذين خرجوا من ديارهم) ديار مقارهم ومحالهم وحدودهم (بطرا ورئاء الناس) واظهار الجلادة على الحواس من ديارهم

هو الاول وانهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الايام ✽ وقوله تعالى (وما النصر الا من عند الله) يعني ان الله هو ينصركم ايها المؤمنون فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدة بأسكم وفيه تنبيه على ان الواجب على العبد المسلم ان لا يتوكل الا على الله تعالى في جميع احواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده النصر والاعانة (ان الله عزيز) يعني انه تعالى قوي منيع لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شيء ويغلبه (حكيم) يعني في تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده ✽ قوله سبحانه وتعالى (اذ يغشاكم النعاس امنة منه) اي واذكروا اذ يلقى عليكم النعاس وهو النوم الخفيف امنة منه اي امانا من الله لكم من عدوكم ان يغلبكم قال عبد الله بن مسعود النعاس في القتال امنة من الله وفي الصلاة من الشيطان والفائدة في كون النعاس امنة في القتال ان الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الامن وازالة الخوف وقيل انهم لما خافوا على انفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعددهم وعطشوا عطشا شديدا القى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذلك النوم نعمة في حقهم لانه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل في كون هذا النوم كان امنة من الله انه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد امر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل ان ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لانه امر خارق للعادة ✽ قوله سبحانه وتعالى (وينزل عليكم من السماء ماء) يعني المطر (ليطهركم به) وذلك ان المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل اعفر تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم الى ماء بدر فنزلوا عليه واصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب واصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال تزعمون انكم على الحق وفيكم نبي الله وانتم اولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وانتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون ان تظهروا على عدوكم فأنزل الله سبحانه وتعالى مطرا سال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الركاب وملؤا الاسقية واطفأ الغبار ولبد الارض حتى ثبتت عليها الاقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت انفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر فذلك قوله سبحانه وتعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به يعني من الاحداث والجنابة (ويذهب عنكم رجز الشيطان) يعني وسوسته التي القاها في قلوبكم (وليربط على قلوبكم) يعني بالصبر واليقين والربط في اللغة الشد وكل من صبر على امر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدي ويشبه ان تكون لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما اوقع فيها من اليقين وقيل ان لفظة على ليست بصلة لانها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى ان القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها (ويثبت به الاقدام) يعني ان ذلك المطر لبد الارض وقوى الرمل حتى يثبت عليه الاقدام وحوافر الدواب وقيل المراد به تثبيت الاقدام بالصبر وقوة القلب لان من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عند اللقاء ✽ وقوله سبحانه وتعالى (اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم) يعني ان الله سبحانه وتعالى اوحى الى الملائكة الذين امد بهم النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه اني معكم بالنصر والمعونة (فثبتوا الذين آمنوا) اي قووا قلوبهم

بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط واذ زين لهم الشيطان) شيطان (اعمالهم) في التغلب على مملكة القلب وقواه (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس) واوهمهم تحقيق امنيتهم بان بصرهم ان لا غالب عليهم من ناس الحواس فكذا سائر القوى (واني جار لكم) امدكم واقويكم وامنعكم من ناس القوى الروحانية (فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه) لشعوره بحال القوى الروحانية وغلبتها المناسبة اياها بادراك المعاني (وقال اني بريء منكم)

واختلفوا فى كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كان للشيطان قوة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم بالشر فكذلك للملك قوة فى القاء الالهام فى قلب ابن آدم بالخير ويسمى مايلقى الشيطان وسوسة ومايلقى الملائكة والهاما فهذا هوالتثبيت وقيل ان ذلك التثبيت هوحضورهم معهم القتال ومؤنتهم لهم اى ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين وقيل معناه بشروهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشى فى صورة رجل اماالصف ويقول ابشروافان الله ناصركم عليهم (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) يعنى الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث القى الرعب والخوف فى قلوب الكافرين (فاضربوا فوق الاعناق) قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعا عماقبله وقيل هوخطاب مع الملائكة فيكون متصلا بماقبله قال ابن الانبارى ما كانت الملائكة تعرف تقاتل بنى آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق قال عكرمة يعنى الرؤس لانهافوق الاعناق وقال الضحاك معناه فاضربوا الاعناق وفوق صلة وقيل معناه فاضربوا على الاعناق فتكون فوق بمعنى على (واضربوا منهم كل بنان) يعنى كل مفصل وقال ابن عباس يعنى الاطراف وهى جمع بنانة وهى اطراف اصابع اليدين سميت بذلك لان بها اصلاح الاحوال التى يمكن الانسان ان يبين مايريد ان يعمله بيديه وانما خصت بالذكر من دون سائر الاطراف لاجل ان الانسان بهايقاتل وبها يمسك السلاح فى الحرب وقيل انه سبحانه وتعالى امرهم بضرب اعلى الجسد وهو الراس وهو اشرف الاعضاء وبضرب البنان وهواضعف الاعضاء فيدخل فى ذلك كل عضو فى الجسد وقيل امرهم بضرب الراس وفيه هلاك الانسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الانسان عن الحرب لان بالبنان يتمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فاذاقطع بنانه تعطل عن ذلك كله روى عن ابى داود المازنى وكان شهد بدرا قال انى لاتبع رجلا من المشركين لاضربه اذوقع راسه قبل ان يصل اليه سيفى فعرفت انه قدقتله غيرى وعن سهل بن حنيف قال لقد رايتنا يوم بدروان احدنا ليشير بسيفه الى المشرك فيقع راسه عن جسده قبل ان يصل اليه السيف وروى عكرمة عن ابى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الاسلام قددخل علينا اهل البيت فاسلمت ام الفضل واسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم اسلامه وكان ذامال كثير متفرق فى قومه وكان عدوالله ابولهب قدتخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلماجاء الخبر عن مقتل اصحاب بدركبته الله واخزاه ووجدنا فى انفسنا قوة وعزا قال ابورافع وكنت رجلاضعيفا اعمل القداح وانحتها فى حجرة زمزم فوالله انى لجالس انحت القداح وعندى ام الفضل جالسة اذاقبل الفاسق ابولهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهرى فبينماهو جالس اذقال الناس هذا ابوسفيان بن الحرث بن عبدالمطلب قدقدم فقال ابولهب الى ياابن اخى فعندك الخبر اليقين فجلس اليه والناس قيام عليه فقال ابولهب ياابن اخى اخبرنى كيف كانت احوال الناس قال لاشئ والله ان كان الاان لقيناهم فمنحناهم اكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤاوايم الله مالمت الناس لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والارض والله لاتلقاهم شئ قال ابورافع فرفعت طرف الحجرة بيدى وقلت تلك والله الملائكة فرفع ابولهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة فثاورته فاحتملنى

لانى لست من جنسكم انى ارى) من المعانى ووصول المدد اليهم من سماء الروح وملكوت عالم القدس ((مالاترون انى اخاف الله) لشعورى ببعض انواره وقهره (والله شديد العقاب) وفيه اشارة الى قول سيد المرسلين لكل احد شيطان ولكن شيطانى اسلم على يدى وهذاهوالدستوروالانموذج فى امثال ذلك ان ادمريد تطبيق القصص على احواله لكنى قلما اعودالى مثله بعدهذا لقلة الفائدة الا فى تصوير طريق السلوك

فضرب بي الارض ثم برك على صدري وكنت رجلا ضعيفا فقامت اليه ام الفضل بعمود
من عمد الحجرة فضربته به ضربة فلقت راسه شجة منكرة وقالت تستضعفه ان غاب عنه سيده
فقام موليا ذليلا فوالله ماعاش الاسبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتله وروى مقسم عن
ابن عباس قال كان الذي اسر العباس ابو اليسر كعب بن عمرو اخو بني سلمة وكان ابو اليسر رجلا
مجموعا وكان العباس رجلا جسيما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي اليسر كيف اسرت
العباس قال يارسول الله لقد اعانني عليه رجل ما رايته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد اعانك عليه ملك كريم وكانت وقعة بدر في صبيحة يوم الجمعة
السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية * وقوله سبحانه وتعالى (ذلك) يعني
الذي وقع من القتل والاسر يوم بدر (بانهم شاقوا الله ورسوله) يعني بأنهم خالفوا الله ورسوله
والمشاقة المخالفة واصلها المجانبة كانهم صاروا في شق وجانب من شق المؤمنين وجانبهم وهذا
مجاز معناه انهم شاقوا اولياء الله وهم المؤمنون اوشاقوا دين الله * ثم قال سبحانه وتعالى (ومن يشاقق
الله ورسوله فان الله شديد العقاب) يعني ان الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والاسر شئ
قليل فيما اعد الله لهم من العقاب يوم القيامة * ثم قال تعالى (ذلكم) اشارة الى القتل والاسر الذي
نزل بهم (فذوقوه) يعني عاجلا في الدنيا لان ذلك يسير بالاضافة الى المؤجل الذي اعده الله لهم
في الآخرة من العذاب وهو قوله (وان للكافرين عذاب النار) يعني في الآخرة عن ابن عباس
قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر قيل له عليك بالعير ليس من دونها شئ قال فناداه
العباس ومن وثاقه لايصلح لك لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد اعطاك الله ما وعدك قال صدقت
اخرجه الترمذي وقال حديث حسن * قوله عز وجل (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا
زحفا) يعني مجتمعين متزاحفين بعضكم الى بعض والتزاحف التداني في القتال واصل الزحف
مشي مع جر الرجل كانبعاث الصبي قبل ان يمشي وسمي مشي الطائفتين بعضهم الى بعض في القتال
زحفا لانها تمشي كل طائفة الى صاحبتها مشيا رويدا وذلك قبل التداني للقتال وقال ثعلب الزحف
المشي قليلا قليلا الى الشئ (فلا تولوهم الادبار) يعني فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فان
المنهزم يولي ظهره ودبره (ومن يولهم يومئذ دبره) يعني ومن ينهزم ويول دبره يوم الحرب والقتال
(الا متحرفا لقتال) يعني الا منقطعا الى القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة
على العدو والعود اليه وهذا هو احد ابواب الحرب وخداعها ومكايدها * وقوله تعالى (او متحيزا
الى فئة) يعني او منضما وصائرا الى جماعة من المؤمنين يريدون العود الى القتال (فقد باء بغضب
من الله) يعني من انهزم من المسلمين وقت الحرب الا في هاتين الحالتين وهي التحرف للقتال والتحيز الى
فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله (ومأواه جهنم وبئس المصير)

* (فصل في حكم هذه الآية) * اختلف العلماء في ذلك فقال ابو سعيد الخدري هذا في اهل بدر
خاصة لانه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لان النبي صلى الله عليه وسلم كان معهم ولم تكن لهم فئة
يتحيزون اليها دون النبي صلى الله عليه وسلم ولو انحازوا لانحازوا الى المشركين ولانها اول غزوة غزاها
رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم امر الانهزام وحرمه عليهم
يوم بدر فاما بعد ذلك اليوم فان المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزا الى فئة فلايكون فراره كبيرة

وتخييل المبتدئ ماهو
بصدده لتنشطه في الترقي
والعروج والله الهادي
(اذ يقول المنافقون والذين
في قلوبهم مرض غر هؤلاء
دينهم ومن يتوكل على الله
فان الله عزيز حكيم ولو ترى
اذ يتوفى الذين كفروا
الملائكة) مر توفي الملائكة
وانه لايكون الا لمن هو
في مقام النفس فان كان
من العصاة ومن غلب عليه
صفات النفس من الغضب
والحقد والشهوة والحرص
وامثال ذلك من رذائل
الاخلاق توفتهم ملائكة
القهر والعذاب بما يناسب
هيآت نفوسهم (يضربون

وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن ابي حبيب اوجب الله النار لمن فر يوم بدر فلما كان
يوم احد قال الله تعالى انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان حنين بعده
فقال سبحانه وتعالى ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء وقال عبد الله بن عمر كنا
في جيش بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يارسول الله نحن
الفرارون قال لا بل انتم الكرارون انا فئة المسلمين قوله فحاص الناس حيصة يعني جال الناس
جولة يطلبون الفرار من العدو والحيص الهرب وقال محمد بن سيرين لما قتل ابو عبيدة جاء الخبر الى
عمر بن الخطاب فقال لو انحاز الي كنت له فئة انا فئة كل مسلم وقال بعضهم حكم الآية عام في حق
كل من ولى ظهره منهزما بدليل قوله ياايها الذين آمنوا وهذا خطاب عام فيتناول جميع الصور
وان كانت الآية نزلت في غزاة بدر لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء
في الحديث من الكبائر الفرار من الزحف وقال عطاء بن ابي رباح هذه الآية منسوخة
بقوله تعالى الآن خفف الله عنكم فليس لقوم ان يفروا من مثليهم فنسخت بذلك
الا في هذه العدة وعلى هذا اكثر اهل العلم ان المسلمين اذا كانوا على الشطر من عدوهم
لا يجوز لهم ان يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وان كان العدو اكثر من المثلين جاز لهم ان
يفروا منهم قال ابن عباس من فر من ثلاثة لم يفر ومن فر من اثنين فقد فر * قوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن
الله قتلهم) قال مجاهد سبب نزول هذه الآية انهم لما انصرفوا عن قتال اهل بدر كان الرجل يقول انا
قتلت فلانا ويقول الآخر انا قتلت فلانا فنزلت هذه الآية والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله
قتلهم يعني بنصره اياكم وتقويتكم عليهم وقيل معناه ولكن الله قتلهم بامداده اياكم بالملائكة قال
الزمخشري الفاء في قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره وان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم
انتم ولكن الله قتلهم (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) قال اهل التفسير والمغازي لما
ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم روايا قريش
وفيهم اسلم غلام اسود لبني الحجاج وابو يسار غلام لبني العاص بن سعد فأخذوهما واتوا بهما الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اين قريش قالا هم وراء
الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كم
القوم قالا كثير قال ما عددهم قالا لا ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة الى الالف ثم قال لهما من فيهم من
اشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابو البختري بن هشام وحكيم بن حزام
والحرث بن عامر وطعمة ابن عدي والنضر بن الحرث وابو جهل بن هشام وامية بن خلف ونبيه
ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد القت اليكم
افلاذ كبدها فلما اقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو
الكثيب الرمل جاء الى الوادي فقال اللهم هذه قريش قد اقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب
رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني فأتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب
فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب
فرمى به وجوه القوم وقال شاهت الوجوه يعني قبحت الوجوه فلم يبق مشرك الا ودخل في عينه

وجوههم) لاحتجابهم من
عالم الانوار واعراضهم عنها
ولهيآت الكبر والعجب
والنخوة فيها (وادبارهم)
لميلهم وشدة انجذابهم الى
البدن وعالم الطبيعة ولهيآت
الشهوة والحرص والشره
(وذوقوا عذاب الحريق)
اي حريق الحرمان واستيلاء
نيران التعب والطلب مع
الفقدان لاكتسابهم تلك
الهيآت الموجبة لذلك
وان كان من اهل الطاعة
ومن غلبت عليه انوار صفات
القلب من الرأفة والرحمة
والسلامة والقناعة وامثال

وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في ميسرة القوم وبحصاة بين اظهرهم وقال شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله عز وجل وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى اذ ليس في وسع احد من البشر ان يرمي كفا من الحصى في وجوه جيش فلا تبقى عين الا وقد دخل فيها من ذلك شيء فصورة الرمي صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عز وجل فلهذا المعنى صح النفي والاثبات وقيل في معنى الآية وما بلغت اذ رميت ولكن الله بلغ رميك وقيل وما رميت بالرعب في قلوبهم اذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ يعني ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والاجر والثواب فقد اجمع المفسرون على ان البلاء هنا بمعنى النعمة ﴿ ان الله سميع ﴾ يعني لدعائكم ﴿ عليم ﴾ يعني باحوالكم * وقوله تعالى ﴿ ذلكم ﴾ يعني الذي ذكرت من امر القتل والرمي والبلاء الحسن من الظفر بهم والنصر عليهم فعلنا ذلك الذي فعلنا ﴿ وان الله ﴾ يعني واعلموا ان الله مع ذلك ﴿ موهن ﴾ اي مضعف ﴿ كيد الكافرين ﴾ يعني مكرهم وكيدهم * قوله عز وجل ﴿ ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وذلك ان ابا جهل قال يوم بدر لما التقى الجمعان اللهم اينا كان افجر يعني نفسه ومحمدا صلى الله عليه وسلم قاطعا للرحم فأحنه اليوم وقيل انه قال اللهم اينا كان خيرا عندك فانصره وقيل قال اللهم انصر اهدى الفئتين وخير الفريقين وافضل الجمعين اللهم من كان افجر واقطع لرحمه فأحنه اليوم فانزل الله عز وجل ان تستفتحوا ومعنى الآية ان تستحكموا الله على اقطع الفريقين للرحم واظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح يعني جاءكم حكم الله بنصرة المظلوم على الظالم والحق على المبطل والمقطوع على القاطع (ق) عن عبد الرحمن بن عوف قال اني لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فاذا انا بغلامين من الانصار حديثة اسنانهما فتمنيت ان اكون بين اضلع منهما فغمزني احدهما فقال اي عم هل تعرف ابا جهل قلت نعم فما حاجتك اليه يا ابن اخي قال اخبرت انه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الاعجل منا فتعجبت لذلك قال وغمزني الآخر فقال لي مثلها فلم انشب ان نظرت الى ابي جهل يجول في الناس فقلت الا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبراه فقال ايكما قتله فقال كل واحد منهما انا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما فقالا لا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السيفين فقال كلاكما قتله وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ ابن عفراء (ق) عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينظر لنا ماصنع ابو جهل فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال فاخذ بلحيته فقال انت ابو جهل وفي كتاب البخاري انت ابا جهل هكذا قاله انس فقال وهل فوق رجل قتلتموه اوقال قتله قومه وفي رواية فقال ابو جهل فلو غير اكار قتلني عن عبد الله بن مسعود قال مررت فاذا ابو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت يا عدو الله

ذلك من فضائل القوتين السبعية والبهيمية دون فضيلة القوة النطقية فانه حينئذ يكون صاحب قلب ليس في مقام النفس توفتهم ملائكة الرحمة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون لمناسبة هيئات نفوسهم تلك الروحانيات من العالم ﴿ ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فاخذهم الله بذنوبهم ان الله قوي شديد العقاب ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة

يااباجهل قد اخزى الله الاخر قال ولاهابه عند ذلك فقال اعمد من رجل قتله قومه فضربته بسيف غير طائل فلم يغن شيئا حتى سقط سيفه من يده فضربته حتى برد اخرجه ابوداود واخرجه البخارى مختصرا قال انه اتى ابا جهل يوم بدر وبه رمق فقال هل اعمد من رجل قتلتموه وقال عكرمة قال المشركون والله مانعرف ماجاءبه محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فانزل الله عزوجل ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعنى ان تستقضوا فقد جاءكم القضاء وقال السدى والكلبى كان المشركون لماخرجوا الى النبى صلى الله عليه وسلم من مكة اخذوا باستار الكعبة وقالوا اللهم انصر اعلى الجندين واهدى الفئتين واكرم الحزبين وافضل الدينين ففيه نزلت ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعنى ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وهو على ماسألوه فكان النصر لاهدى الفئتين وهم اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن اسحق حدثنى عبدالله بن ابى بكر قال معاذ بن عمرو بن الجموح لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر امر بابى جهل بن هشام ان يلتمس فى القتلى وقال اللهم لايعجزك فلما سمعتها جعلته من شأنى فعمدت نحوه فضربته ضربة طيرت قدمه بنصف ساقه قال وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرح يدى فتعلقت بجلدة واجهضنى القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومى وانى لاسحبها خلفى فلما آذتنى جعلت عليها قدمى ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بابى جهل وهو عقير معاذ بن عفراء فضربه حتى اثبته وتركه وبه رمق فمر به عبدالله بن مسعود وقال عبدالله وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلى على عنقه فقلت هل اخزاك الله ياعدو الله قال وبما ذا اخزانى اعمد من رجل قتلتموه اخبرنى لمن الدولة قلت لله ولرسوله روى عن ابن مسعود انه قال قال لى ابوجهل لقد ارتقيت يارويعى الغنم مرتقى صعبا ثم احتززت رأسه ثم جئت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هذا رأس عدو الله ابى جهل فقال آلله الذى لااله غيره فقلت نعم والذى لااله غيره ثم القيته بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وقال ابى بن كعب هذا خطاب لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عزوجل للمسلمين ان تستفتحوا اى تستنصروا فقد جاءكم الفتح اى النصر (خ) عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا الا تستنصر لنا الا تدعولنا فقال قدكان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بامشاط الحديد مادون لحمه وعظمه مايصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لايخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون قلت استدل البغوى بهذا الحديث على مافسربه ابى بن كعب الآية وفيه نظر لان هذه الواقعة المذكورة فى الحديث كانت بمكة والآية مدنية فلاتعلق للحديث بتفسير الآية والله اعلم ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لما دعا الله ببدر وسأله انجاز ماوعده من احدى الطائفتين والح فى الدعاء والمسئلة حتى سقط رداؤه قال الله سبحانه وتعالى مجيباله ان تستفتحوا يعنى تطلبوا النصر وانجاز ماوعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعنى فقد حصل لكم ماطلبتم فاشكروا الله على ماانعم به عليكم من اجابة دعائكم وانجاز ماوعدكم به وهذا القول اولى لان قوله فقد جاءكم الفتح لايليق الا بالمؤمنين هذا اذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الاعداء اما اذا فسرنا بالقضاء والحكم

انعمها على قوم حتى يغيروا مابانفسهم وان الله سميع عليم) اى كل مايصل الى الانسان هو الذى يقتضيه استعداده ويسأله بدعاء الحال وسؤال الاستحقاق فاذا انعم على احد النعمة الظاهرة اوالباطنة لسلامة الاستعداد وبقاء الخيرية فيه لم يغيرها حتى افسد استعداده وغير قبوله للصلاح بالاحتجاب وانقلاب الخير الذى فيه بالقوة الى الشر لحصول الرين وارتكام الظلمة فيه بحيث لم يبق له مناسبة للخير ولاامكان لصدوره منه

لم يمتنع ان يراد به الكفار اما قوله سبحانه وتعالى (وان تنتهوا فهو خير لكم) فهو خطاب للكفار يعني وان تنتهوا عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم وعن تكذيبه فهو خير لكم في الدين والدنيا اما في الدين بان تؤمنوا به وتكفوا عنه فيحصل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من العقاب واما في الدنيا فهو الخلاص من القتل والاسر (وان تعودوا نعد) يعني وان تعودوا لقتال محمد صلى الله عليه وسلم نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم (ولن تغني عنكم فئتكم) يعني جماعتكم (شيأ) يعني لا تغني عنكم شيأ (ولو كثرت) يعني جماعتكم (وان الله مع المؤمنين) يعني بالنصر لهم عليكم يا معشر الكفار ✽ قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله) يعني في امر الجهاد لان فيه بذل المال والنفس (ولا تولوا عنه) يعني عن الرسول صلى الله عليه وسلم لان التولي لا يصح الا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم لا في حق الله تعالى والمعنى لا تعرضوا عنه وعن معونته ونصرته في الجهاد (وانتم تسمعون) يعني القرآن يتلى عليكم (ولا تكونوا كالذين قالوا) بألسنتهم (سمعنا وهم لا يسمعون) يعني وهم لا يتعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ وهذه صفة المنافقين (ان شر الدواب عند الله) يعني ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عند الله (الصم) عن سماع الحق (البكم) عن النطق به فلا يقولونه (الذين لا يعقلون) يعني يفهمون عن الله امره ونهيه ولا يقبلونه وانما سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم قال ابن عباس هم نفر من بني عبد الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقتلوا جميعا يوم احد وكانوا اصحاب اللواء ولم يسلم منهم الا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم) يعني سماع تفهم وانتفاع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله قال الامام فخر الدين ان كانوا ما كان حاصلا فيجب ان يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خيرا لاسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم (ولو اسمعهم) يعني بعد ان علم انه لا خير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى (لتولوا وهم معرضون) يعني لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل انهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم احي لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه وتعالى ولو احييناهم قصيا وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون ✽ قوله عز وجل (يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) يعني اجيبوهما بالطاعة والانقياد لامرهما (اذا دعاكم) يعني الرسول صلى الله عليه وسلم وانما وحد الضمير في قوله تعالى اذا دعاكم لان استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم استجابة الله تعالى وانما يذكر احدهما مع الآخر للتوكيد واستدل اكثر الفقهاء بهذه الآية على ان ظاهر الامر للوجوب لان كل من امره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بفعل فقد دعاه اليه وهذه الآية تدل على انه لا بد من الاجابة في كل ما دعاه الله ورسوله اليه (خ) عن ابي سعيد بن المعلى قال كنت اصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم اجبه ثم اتيته فقلت يا رسول الله اني كنت اصلي فقال صلى الله عليه وسلم الم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم ذكر الحديث عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على ابي بن كعب وهو يصلي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابي فالتفت ابي ولم يجبه وصلى ابي وخفف ثم انصرف الى رسول الله صلى الله

فيغيرها الى النقمة عدلا منه وجودا وطلبا من ذلك الاستعداد اياها بجاذبة الجنسية والمناسبة لا ظلما وجورا (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فاهلكناهم بذنوبهم واغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ولا يحسبن

عليه وسلم فقال السلام عليك يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام مامنعك ياابى ان تجيبنى اذ دعوتك فقال يارسول الله انى كنت فى الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم افلم تجد فيما اوحى الله الى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا اعود ان شاء الله تعالى وذكر الحديث اخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح قيل هذه الاجابة مختصة بالنبى صلى الله صلى الله عليه وسلم فعلى هذا ليس لاحد ان يقطع صلاته لدعاء احد آخر وقيل لو دعاه احد لامر مهم لا يحتمل التأخير فله ان يقطع صلاته ❊ وقوله تعالى (لما يحييكم) يعنى اذا دعاكم الى ما فيه حياتكم قال السدى هو الايمان لان الكافر ميت فيحيا بالايمان وقال قتادة هو القرآن لانه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة فى الدارين وقال مجاهد هو الحق وقال محمد بن اسحق هو الجهاد لان الله اعزه به بعد الذل وقيل هو الشهادة لان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون (واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه) قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله ويحول بين الكافر وبين الايمان وطاعة الله وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدى يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع ان يؤمن او يكفر الا باذنه وقد دلت البراهين العقلية على هذا القول لان احوال القلوب اعتقادات ودواعى وتلك الاعتقادات والدواعى لابد ان تتقدمها الارادة وتلك الارادة لابد لها من فاعل مختار وهو الله سبحانه وتعالى فثبت بذلك ان المتصرف فى القلب كيف شاء هو الله تعالى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من اصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك عن انس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ان يقول يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك فقلنا يارسول الله قد آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم ان القلوب بين اصبعين من اصابع الرحمن يقلبها كيف شاء اخرجه الترمذى وهذا الحديث من احاديث الصفات فيجب على المرء المسلم ان يمره على ما جاء مع الاعتقاد الجازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحة والجسم وقيل فى معنى الآية ان الله عزوجل يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدرى ما يصنع ولا يعقل شيأ وقيل ان القوم لما دعوا الى القتال والجهاد وكانوا فى غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم قاتلوا فى سبيل الله واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف امنا والجبن جراءة ❊ وقوله تعالى (وانه اليه تحشرون) يعنى فى الآخرة فيجزى كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصى ❊ قوله سبحانه وتعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لما اخبر الله عزوجل انه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء فى الفتن والمعنى واحذروا فتنة ان نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تتعدى اليكم جميعا وتصل الى الصالح والطالح واراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل تقديره واتقوا فتنة ان لم تتقوها اصابتكم جميعا الظالم وغير الظالم قال الحسن نزلت هذه الآية فى على وعمار وطلحة والزبير قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا ومانرى انا من اهلها فاذا نحن المعنيون بها يعنى ما كان منهم فى يوم الجمل وقال السدى ومجاهد والضحاك وقتادة هذا فى قوم مخصوصين من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اصابتهم الفتنة يوم الجمل وقال ابن عباس امر الله عزوجل المؤمنين ان لا يقروا المنكر بين اظهرهم فيعمهم الله

الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذى ايدك بنصره وبالمؤمنين والف بين قلوبهم) لا تفاقها فى الوجهة

بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم روى البغوى بسنده عن عدى بن عدى الكندى قال حدثنى مولى لنا انه سمع جدى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على ان ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة والذى ذكره ابن الاثير فى جامع الاصول عن عدى بن عميرة الكندى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا عملت الخطيئة فى الارض كان من شهدها فانكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها اخرجه ابوداود عن جرير بن عبدالله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على ان يغيروا عليه ولم يغيروا الا اصابهم الله بعقاب قبل ان يموتوا اخرجه ابوداود وقال ابن زيد اراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى خير من الساعى من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ او معاذا فليعذ به فان قلت ظاهر قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسيره فكيف يليق برحمة الله وكرمه ان يوصل الفتنة الى من لم يذنب قلت انه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده وفى ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية او لانه تعالى علم اشتمال ذلك على انواع من نوع المصلحة والله اعلم بمراده * وقوله سبحانه وتعالى (واعلموا ان الله شديد العقاب) فيه تحذير ووعيد لمن واقع الفتنة التى حذره الله منها وقوله عز وجل (واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون فى الارض) لما امر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم نعمته عليهم فقال تعالى واذكروا يامعشر المؤمنين المهاجرين اذ انتم قليل يعنى فى العدد مستضعفون فى الارض يعنى فى ارض مكة فى ابتداء الاسلام (تخافون ان يتخطفكم الناس) يعنى كفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقال وهب بن منبه يعنى فارس والروم (فآواكم) يعنى الى المدينة (وايدكم بنصره) يعنى وقواكم بالانصار وقال الكلبى وقواكم يوم بدر بالملائكة (ورزقكم من الطيبات) يعنى الغنائم احلها لكم ولم يحلها لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) يعنى تشكرون الله على نعمه عليكم * قوله سبحانه وتعالى (ياايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) قال الزهرى والكلبى نزلت هذه الآية فى ابى لبابة هرون ابن عبد المنذر الانصارى من بنى عوف بن مالك وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على ماصالح عليه اخوانهم بنى النضير على ان يسيروا الى اخوانهم الى اذرعات واريحاء من ارض الشام فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعطيهم ذلك الا ان ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فابوا وقالوا ارسل الينا ابالبابة بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لان ماله وولده وعياله كان عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتاهم فقالوا يا ابالبابة ماترى اننزل على حكم سعد بن معاذ فاشار ابولبابة بيده الى حلقه يعنى انه الذبح فلا تفعلوا قال ابولبابة والله مازالت قدماى عن مكانهما حتى عرفت انى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا اذوق طعاما ولا شرابا حتى اموت او يتوب الله على فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم

وخلاصها عن قيود صفات النفس التى تستلزم التخالف والتعاند لركونها الى عالم التضاد واختلافها بالطباع فان القلب مادام واقعا مع النفس ومراداتها واستولت عليه بصفاتها جذبته الى الجهة السفلية وصيرت مطالبه جزئية مما يناسب مصالحها فيطلب مايمنعه منه الآخر وتقع العداوة والبغضاء وتستولى القوة الغضبية الطالبة للجاه والكرامة والقهر والغلبة والرياسة والسلطنة ويقع الاستكبار والاباء والانفة والاستنكاف ويؤدى الى التقاطع والتهاجر والتحارب والتشاجر وكلما بعد عن الجهة السفلية

خبره قال اما لو جاءني لاستغفرت له اما اذا فعل مافعل فاني لااطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة ايام لايذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا ابا لبابة قد تيب عليك فقال والله لااحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي حلني فجاءه فحله بيده ثم قال ابو لبابة ان تمام توبتي ان اهجر دار قومي التي اصبت فيها الذنب وان انخلع من مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث ان تصدق به فنزل فيه يا ايها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وقال السدي كانوا يسمعون السر من النبي صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبد الله ان اباسفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اباسفيان في مكان كذا وكذا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه ان اباسفيان في موضع كذا كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا قال فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عزوجل لاتخونوا الله والرسول (وتخونوا اماناتكم) ومعنى الآية لاتخونوا الله والرسول ولاتخونوا اماناتكم (وانتم تعلمون) يعني انها امانة وقيل معناه وانتم تعلمون ان مافعلتم من الاشارة الى الحلق خيانة واصل الخيانة من الخون وهو النقص لان من خان شيأ فقد نقصه والخيانة ضد الامانة وقيل في معنى الآية لاتخونوا الله والرسول فانكم اذا فعلتم ذلك فقد خنتم اماناتكم وقال ابن عباس معناه لاتخونوا الله بترك فرائضه ولاتخونوا الرسول بترك سنته ولاتخونوا اماناتكم قال ابن عباس هي مايخفى عن اعين الناس من فرائض الله تعالى والاعمال التي ائتمن عليها العباد وقال قتادة اعلموا ان دين امانة فأدوا الى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ومنه الحديث عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اد الامانة الى من ائتمنك ولاتخن من خانك اخرجه ابو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب ❊ وقوله عزوجل (واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنه) قيل هذا نازل في ابي لبابة وذلك لان امواله واولاده كانت في بني قريظة فلذلك قال ماقال خوفا عليهم وقيل انه عام في جميع الناس وذلك انه لما كان الاقدام على الخيانة في الامانة هو حب المال والولد نبه الله سبحانه وتعالى بقوله واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة على انه يجب على العاقل ان يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد لان ذلك يشغل القلب ويصيره محجوبا عن خدمة المولى وهذا من اعظم الفتن وروى البغوي بسنده عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم اتى بصبي فقبله وقال اما انهم مبخلة مجبنة وانهم لمن ريحان الله واخرج الترمذي عن عمر بن عبد العزيز قال زعمت المراة الصالحة خولة بنت حكيم قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن احد ابني ابنته وهو يقول انكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون وانكم لمن ريحان الله قال الترمذي لانعرف لعمر بن عبد العزيز سماعا عن خولة قوله لمن ريحان الله اى لمن رزق الله والريحان في اللغة الرزق ❊ وقوله تعالى (وان الله عنده اجر عظيم) يعني لمن ادى الامانة ولم يخن وفيه تنبيه على ان سعادة الآخرة وهو ثواب الله افضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد ❊ وقوله عزوجل (يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله) يعني بطاعته وترك معاصيه (يجعل لكم فرقانا) يعني يجعل لكم نورا وتوفيقا في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان اصله الفرق بين الشيئين لكنه ابلغ من اصله لانه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة

بالتوجه الى الجهة العلوية والتنور بأنوار الوحدة الصفاتية اوالذاتية ارتفع عن مقام النفس واتصل بالروح وصارت مطالبه كلية لاتتمانع ولاتتنافس فيها لامكان حصولها لهذا بدون حرمان الآخر منه ومال الى من يجانسه في الصفاء بالمحبة الذاتية لشدة المناسبة وكلما كان اقرب الى الوحدة كانت قوة المحبة فيه اقوى لشدة قربه لمن تدين بدينه كالخطوط الآتية من محيط

قال مجاهد يجعل لكم مخرجا في الدنيا والآخرة وقال مقاتل مخرجا في الدين من الشبهات وقال عكرمة نجاة اى يفرق بينكم وبين ما تخافون وقال محمد بن اسحق فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفئ باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم وبين الكفار بان يظهر دينكم ويعليه ويبطل الكفر ويوهنه (ويكفر عنكم سيآتكم) يعني ويمح عنكم ماسلف من ذنوبكم (ويغفر لكم) يعني ويستر عليكم بان لا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة (والله ذو الفضل العظيم) لانه هو الذي يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فانه اذا وعد بشئ وفى به قيل انه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيآت وقيل معناه ان بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره * قوله سبحانه وتعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا) لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا اذ انتم قليل ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لان هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل ان يهاجر المدينة والمعنى واذكر يا محمد اذ يمكر بك الذين كفروا وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من اهل التفسير قالوا جميعا ان قريشا فرقوا لما اسلمت الانصار ان يتفاقم امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهر فاجتمع نفر من كفار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في امر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رؤسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل وابو سفيان وطعيمة بن عدى والنضر بن الحرث وابو البخترى بن هشام وزمعة بن الاسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وامية بن خلف فاعترضهم ابليس في صورة شيخ فلما راوه قالوا له من انت قال انا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فاردت ان احضركم ولن تعدموا مني رايا ونصحا فقالوا ادخل فدخل فقال ابو البخترى اما انا فارى ان تأخذوا محمدا وتحبسوه في بيت مقيدا وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله ابليس وهو الشيخ النجدى وقال بئس الرأى رأيتم لئن حبستموه ليخرجن امره من وراء الباب الذى اغلقتم دونه الى اصحابه فيوشك ان يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من ايديكم فقالوا صدق الشيخ النجدى فقام هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤى فقال اما انا فارى ان تحملوه على بعير وتخرجوه من بين اظهركم فلا يضركم ماصنع وان وقع اذا غاب عنكم واسترحتم منه فقال ابليس اللعين ما هذا لكم برأى تعمدون الى رجل قد افسد احلامكم فتخرجونه الى غيركم فيفسدهم الم تروا الى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه واخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك يذهب ويستميل قلوب قوم آخرين ثم يسير بهم اليكم فيخرجكم من بلادكم فقالوا صدق الشيخ النجدى فقال ابو جهل والله لاشيرن عليكم برأى ما ارى غيره اني ارى ان تأخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسطا فتيا ثم نعطى كل فتى سيفا صارما ثم يضربوه جميعا ضربة رجل واحد فاذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا اظن هذا الحى من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها وانهم اذا ارادوا ذلك قالوا العقل فتؤدى قريش ديته فقال ابليس اللعين صدق هذا الفتى هو اجودكم رأيا والقول ما قال لا ارى غيره فتفرقوا على قول ابي جهل وهم مجتمعون عليه فاتى جبريل صلى الله عليه وسلم الى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره بذلك وامره ان لا يبيت في مضجعه الذى كان يبيت فيه واذن الله عز وجل له عند ذلك بالخروج

الدائرة الى مركزها فبحسب قوة الايمان شدة الالفة بينهم (لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم) لان ما في الجهة السفلية تزيد في عداوتهم وهواتهم لاشتداد حرصهم وتكاليفهم به (ولكن الله الف بينهم) بنور الوحدة التي تورث المحبة الروحانية والالفة القلبية فان المحبة ظل الوحدة والالفة ظل المحبة والعدالة ظل الالفة (انه عزيز) قوى على دفع الكفرة وقهرهم باجتماع المؤمنين واتفاقهم (حكيم) يفعل ذلك بحكمه لايقاع الالفة والمحبة بين هؤلاء والتفرقة واختلاف الكلمة

الى المدينة فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن ابى طالب ان يبيت فى مضجعه وقال له اتشح ببردتى فانه لن يخلص اليك منهم امر تكرهه ثم خرج سول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ قبضة من تراب واخذ الله عز وجل ابصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا الى قوله فهم لا يبصرون ومضى الى الغار من ثور هو وابوبكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وامانته قالوا وبات المشركون يحرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون انه النبى صلى الله عليه وسلم فلما اصبحوا ثاروا اليه ليقتلوه فرأوه عليا فقالوا له ابن صاحبك قال لاادرى فاقتفوا اثره وارسلوا فى طلبه فلما بلغوا الغار راوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه اثر فمكث فى الغار ثلاثا ثم خرج الى المدينة فذلك قوله سبحانه وتعالى واذ يمكر بك الذين كفروا واصل المكر احتيال فى خفية (ليثبتوك) اى ليحبسوك ويوثقوك لان كل من شد شيأ واوثقه فقد اثبته لانه لايقدر على الحركة (اويقتلوك) يعنى كما اشار اليهم ابوجهل (اويخرجوك) يعنى من مكة (ويمكرون) يعنى ويحتالون ويدبرون فى امرك (ويمكر الله) يعنى ويجازيهم الله جراء مكرهم فسمى الجزاء مكرا لانه فى مقابلته وقيل معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم والمكر هو التدبير هو ومن الله تعالى التدبير بالحق والمعنى انهم احتالوا فى ابطال امر محمد صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى اظهره وقوّاه ونصره فضاع فعلهم وتدبيرهم وظهر فعل الله وتدبيره (والله خير الماكرين) فان قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولاخير فى مكرهم قلت يحتمل ان يكون المراد والله اقوى الماكرين فوضع خير موضع اقوى وفيه تنبيه على ان كل مكر يبطل بفعل الله وقيل يحتمل ان يكون المراد ان مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى فى مقابلته والله خير الماكرين وقيل ليس المراد التفضيل بل ان فعل الله خير مطلقا * قوله عز وجل (واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لونشاء لقلنا مثل هذا) نزلت فى النضر بن الحرث بن علقمة من بنى عبد الدار وذلك انه كان يختلف الى ارض فارس والحيرة ويسمع اخبارهم عن رستم واسفنديار واحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤن التوراة والانجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبى صلى الله عليه وسلم قد اوحى اليه وهو يقرأ ويصلى فقال النضر بن الحرث قد سمعنا يعنى مثل هذا الذى جاء به محمد لونشاء لقلنا مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذى لاشبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم لونشاء لقلنا مثل هذا بعد التحدى وابان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ماتخلفوا عنه وهم اهل الفصاحة وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم فى قولهم لونشاء لقلنا مثل هذا (ان هذا الا اساطير الاوّلين) يعنى اخبار الماضين * قوله سبحانه وتعالى (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء اوائتنا بعذاب اليم) نزلت فى النضر بن الحرث ايضا قال ابن عباس لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن القرون الماضية قال النضر بن الحرث لوشئت لقلت مثل هذا فقال له عثمان بن مظعون اتق الله فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول الحق قال وانا اقول الحق قال فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول لا اله الا الله قال وانا اقول لا اله الا الله ولكن هذه بنات الله يعنى الاصنام ثم قال اللهم ان كان هذا هو الحق يعنى

بين أولئك (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لايفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين ما كان لنبىّ ان يكون له اسرى حتى يثخن فى الارض

القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقيل يعنى ان كان الذى يقوله محمد صلى الله عليه وسلم من امر التوحيد وادعاء النبوّة وغير ذلك هو الحق فامطر علينا حجارة من السماء يعنى كما امطرتها على قوم لوط اوائتنا بعذاب اليم يعنى مثل ماعذبت به الامم الماضية وفى النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع قال عطاء لقد نزل فى النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ماسأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدى وعقبة بن ابى معيط والنضر بن الحرث وروى انس بن مالك ان الذى قال ذلك ابوجهل (ق) عن انس قال قال ابوجهل اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم الآية فلما اخرجوه نزلت ومالهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ❊ قوله عز وجل ﴿ وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم ﴾ اختلفوا فى معنى هذه الآية نقل محمد بن اسحق هذه الاية متصلة بما قبلها وهى حكاية عن المشركين وذلك انهم قالوا ان الله لايعذبنا ونحن نستغفر ولايعذب امة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكره جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على انفسهم واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ ثم قال تعالى ردا عليهم ومالهم الا يعذبهم الله وان كنت بين اظهرهم وان كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام وقال آخرون هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل اخبارا عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم واختلفوا فى معناه فقال الضحاك وجماعة تأويلها وما كان الله ليعذبهم وانت يامحمد مقيم فيهم وبين اظهرهم قالوا نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقى بقية من المسلمين يستغفرون فأنزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم لما خرج اولئك المسلمون من بين اظهر الكافرين اذن الله فى فتح مكة فهو العذاب الذى وعدهم وقال ابن عباس لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ويلحق بحيث امر فقال الله وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم مقيم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعنى المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم ومالهم الا يعذبهم الله وقال بعضهم هذا الاستغفار راجع الى المشركين وذلك انهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك وقال زيد بن رومان قالت قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلما امسوا ندموا على ماقالوا فقالوا غفرانك اللهم فقال الله تعالى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وقال قتادة والسدى معناه وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون اى لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو اقروا بالذنب واستغفروا الله لكانوا مؤمنين وقيل هذا دعاء لهم الى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لعبده لااعاقبك وانت تطيعنى اى اطعنى حتى لااعاقبك وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون اى يسلمون يعنى لو اسلموا لماعذبوا وقال ابن عباس وفيهم من سبق له من الله العناية انه يؤمن ويستغفر مثل ابى سفيان بن حرب وصفوان بن امية وعكرمة بن ابى جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم وقال مجاهد وهم يستغفرون اى وفى اصلابهم من يستغفر وقيل فى معنى الآية ان الكفار لما بالغوا وقالوا ان كان محمد محقا فى قوله فأمطر علينا حجارة من السماء اخبر الله سبحانه وتعالى ان محمدا محق فى قوله وانه مع ذلك لا يمطر

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم يا ايها النبى قل لمن فى ايديكم من الاسرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما اخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فامكن منهم والله عليم حكيم ان الذين آمنوا وهاجروا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا وجاهدوا اولئك بعضهم اولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا وان

على اعدائه ومنكرى نبوته جارة من السماء مادام بين اظهرهم وذلك تعظيما له صلى الله عليه وسلم واورد على هذا انه اذا كانت اقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال فى غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فالجواب ان المراد من العذاب الاول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثانى وهو قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بأيديكم هو عذاب القتل والسبى والاسر وذلك دون عذاب الاستئصال قال اهل المعانى دلت هذه الآية على ان الاستغفار امان وسلامة من العذاب عن ابى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله انزل على امانين لامتى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار الى يوم القيامة اخرجه الترمذى * وقوله سبحانه وتعالى (ومالهم الا يعذبهم الله) يعنى اى شئ يمنعهم من ان يعذبهم يعنى بعد خروجك من بين اظهرهم لانه سبحانه وتعالى بين فى الآية الاولى انه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين اظهرهم وبين فى هذه الآية انه معذبهم ثم اختلفوا فى هذا العذاب فقيل هو القتل والاسر يوم بدر وقيل اراد به عذاب الآخرة وقيل اراد بالعذاب الاول عذاب الاستئصال واراد بالعذاب الثانى العذاب بالسيف وقيل اراد بالعذاب الاول عذاب الدنيا وبهذا العذاب عذاب الآخرة قال الحسن الآية الاولى وهى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله ومالهم الا يعذبهم الله وفيه بعد لان الاخبار لا يدخلها النسخ ثم بين مالاجله يعذبهم فقال تعالى (وهم يصدون عن المسجد الحرام) يعنى وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية (وما كانوا اولياءه) قال الحسن كان المشركون يقولون نحن اولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا اولياءه يعنى ليسوا اولياء المسجد الحرام (ان اولياؤه الا المتقون) يعنى المؤمنين الذين يتقون الشرك (ولكن اكثرهم) يعنى المشركين (لا يعلمون) ذلك * قوله عز وجل (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) لما ذكر الله عز وجل ان الكفار ليسوا بأولياء للبيت الحرام ذكر عقبه السبب فى ذلك وهو ان صلاتهم عنده كانت مكاء وتصدية والمكاء فى اللغة الصفير يقال مكا الطير يمكو اذا صفر والمكاء اسم طير ابيض يكون بالحجاز له صفير وقيل هو طائر يألف الريف سمى بذلك لكثرة مكائه يعنى صفيره والتصدية التصفيق وفى اصله واشتقاقه قولان احدهما انه من الصدى وهو الصوت الذى يرجع من الجبل كالمجيب للمتكلم ولا يرجع الى شئ الثانى قال ابو عبيدة اصله تصددة فأبدلت الياء من الدال قال الازهرى والمكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى اخبر انهم جعلوا مكان الصلاة التى امروا بها المكاء والتصدية قال حسان ثابت * صلاتهم التصدى والمكاء * قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف ويستهزؤن به ويدخلون اصابعهم فى افواههم ويصفرون فالمكاء جعل الاصابع فى الشدق والتصدية الصفير وقال جعفر بن ربيعة سألت اباسلمة بن عبد الرحمن عن قوله الا مكاء وتصدية فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفرا وقال مقاتل كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران ورجلان عن يساره يصفقان ليخلطوا على النبى صلى الله عليه وسلم صلاته وهم من بنى عبد الدار فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم وعلى قول غيره كان

استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير بالفحوى) تدل على ان الفقير القائم بالخدمة فى الخانقاه والبقعة ليس عليه خدمة المقيم بل المسافر لقوله والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ اى الذين آمنوا الايمان العلمى وهاجروا المألوفات من الاهل والولد والاموال والاسباب واوطان النفس بقوة العزيمة واختاروا السياحة فى الغربة وجاهدوا بقوة اليقين والتوكل باموالهم بتركها وانفاقها فى مراضى الله وانفسهم باتعابها بالرياضة ومحاربة الشيطان وتحمل ومشاء

نوع اذى للنبي صلى الله عليه وسلم وقول ابن عباس اصح لان الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة فان قلت كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة قلت انهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو ان من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبه فلا عيب له وقال سعيد بن جبير التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهو المنع ❊ وقوله سبحانه وتعالى (فذوقوا العذاب) يعني عذاب القتل والاسر في الدنيا وقيل يقال لهم في الآخرة فذوقوا العذاب (بما كنتم تكفرون) يعني بسبب كفركم في الدنيا ❊ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهي المكاء والتصدية ذكر عقبها عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة وقال الكلبي ومقاتل نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا ابو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وابو البختري بن هشام والنضر بن الحرث وحكيم بن حرام وابى بن خلف وزمعة بن الاسود والحرث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشر جزر واسلم من هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكيم بن حرام وقال الحكم بن عتبة نزلت في ابي سفيان بن حرب حين انفق على المشركين يوم احد اربعين اوقية كل اوقية اثنان واربعون مثقالا وقال ابن ابزى استأجر ابو سفيان يوم احد الفين ليقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وقيل استأجر يوم احد الفين من الاحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لما اصيب من اصيب من قريش يوم بدر ورجع ابو سفيان بعيره الى مكة مشى عبد الله بن ابي ربيعة وعكرمة بن ابي جهل وصفوان بن امية في رجال من قريش قد اصيب آباؤهم وابناؤهم واخوانهم يوم بدر فكلموا ابا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فاعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا بمن اصيب منا ففيهم نزلت ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله اي ليصرفوا الناس عن الايمان بالله ورسوله وقيل ينفقون اموالهم على امثالهم من المشركين ليتقووا بهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (فسينفقونها) يعني اموالهم في ذلك الوجه (ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) يعني ما انفقوا من اموالهم يكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة لان اموالهم تذهب ويغلبون ولا يظفرون بما يؤملون (والذين كفروا) يعني منهم لان فيهم من اسلم ولهذا قال والذين كفروا يعني من المنفقين اموالهم (الى جهنم يحشرون) يعني يساقون الى النار (ليميز الله الخبيث من الطيب) يعني ليفرق الله بين فريق الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فانه قال يميز اهل السعادة من اهل الشقاوة وقال ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجازي على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل المراد به انفاق الكفار في سبيل الشيطان وانفاق المؤمنين في سبيل الله (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) يعني بعضه فوق بعض (فيركمه جميعا) يعني فيجمعه جميعا ويضم بعضه الى بعض حتى يتراكم (فيجعله في جهنم) يعني الخبيث (اولئك) اشارة الى المنفقين

السفر في سبيل الله وبذلها في الدين بنية السلوك في الله (والذين كفروا بعضهم اولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا) هم بالخدمة في المنزل ونصرهم بتهيئة ما احتاجوا اليه من الاهبة (اولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم والذين امنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شئ عليم براءة من الله ورسوله) لما لم يمكن الرسول في الاستقامة

فى سبيل الشيطان اوالى الخبيث (هم الخاسرون) يعنى انهم خسروا الدنيا والآخرة لانهم اشتروا باموالهم عقاب الآخرة قوله سبحانه وتعالى (قل) يعنى قل يا محمد (للذين كفروا ان ينتهوا) يعنى عن الشرك (يغفر لهم ماقد سلف) يعنى ماقد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الاسلام (وان يعودوا فقد مضت سنت الاولين) يعنى فى اهلاك اعدائه ونصر اوليائه ومعنى الآية ان هؤلاء الكفار ان انتهوا عن الكفر ودخلوا فى دين الاسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ماقد سلف من كفرهم وشركهم وان عادوا الى الكفر واصروا عليه فقد مضت سنة الاولين باهلاك اعدائه ونصر انبيائه واوليائه واجمع العلماء على ان الاسلام يجب ماقبله واذا اسلم الكافر لم يلزمه شئ من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة اسلامه كيوم ولدته امه يعنى بذلك انه ليس عليه ذنب قال يحيى بن معاذ الرازى التوحيد لم يعجز عن هدم ماقبله من كفر فارجو ان لايعجز عن هدم مابعده من ذنب (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) قال ابن عباس يعنى حتى لايكون شرك وقال الحسن حتى لايكون بلاء (ويكون الدين كله لله) يعنى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره وقال قتادة حتى يقال لا اله الا الله عليها قاتل نبى الله صلى الله عليه وسلم واليها دعا وقال محمد بن اسحق فى قوله وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله يعنى لايفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصا ليس فيه شرك ويخلع مادونه من الانداد والشركاء (فان انتهوا) يعنى عن الشرك وافتتان المؤمنين وايذائهم (فان الله بما يعملون بصير) يعنى فان الله لايخفى شئ من اعمال العباد ونياتهم حتى يوصل اليهم ثوابهم (وان تولوا) يعنى وان اعرضوا عن الايمان واصروا على الكفر وعادوا الى قتال المؤمنين وايذائهم (فاعلموا) يعنى ايها المؤمنون (ان الله موليكم) وناصركم عليهم وحافظكم (نعم المولى ونعم النصير) يعنى ان الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن كان فى حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير * قوله عزوجل (واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول) الغنم الفوز بالشئ يقال غنم يغنم غنما فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفئ اسمان لمسمى واحد ام يختلفان فى التسمية فقال عطاء بن السائب الغنيمة ماظهر المسلمون عليه من اموال المشركين فاخذوه عنوة واما الارض فهى فئ وقال سفيان الثورى الغنيمة ما اصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس واربعة اخماسه لمن شهد الوقعة والفئ ماصولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله وقيل الغنيمة مااخذ من اموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة والفئ مالم يوجف عليه بخيل ولاركاب كالعشور والجزية واموال الصلح والمهادنة وقيل ان الفئ والغنيمة معناهما واحد وهما اسمان لشئ واحد والصحيح انهما يختلفان فالفئ مااخذ من اموال الكفار بغير ايجاف خيل ولاركاب والغنيمة مااخذ من اموالهم على سبيل القهر والغلبة بايجاف خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى واعلموا انما غنمتم من شئ يعنى من اى شئ كان حتى الخيط والمخيط فان لله خمسه وللرسول وقد ذكر اكثر المفسرين والفقهاء ان قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وانما اضافه لنفسه تعالى لانه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه ان سهما منه لله مفردا لان الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وابراهيم النخعى قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم خمسة اخماس اربعة اخماسها لمن قاتل عليها واحرزها والخمس الباقى لخمسة اصناف كما ذكر الله عزوجل وللرسول

لمكان تلوينه بظهور صفاته تارة وبوجود البقية تارة اخرى على مادل عليه القرآن فى موضع العتاب والتثبيت كقوله عبس وتولى وقوله ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا عفا الله عنك لم اذنت لهم ماكان لنبى ان يكون له أسرى ولم يصل اصحابه من المؤمنين الى مقام الوحدة الذاتية لاحتجابهم تارة بالافعال وتارة بالصفات كان بينهم وبين المشركين مناسبة وقرابة جنسية وال فبتلك الجنسية عاهدوهم لوجود الاتصال بينهم ثم لما امتثل النبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنون قوله تعالى

ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وقال ابو العالية يقسم خمس الخمس على ستة اسهم سهم لله عزوجل فيصرف الى الكعبة والقول الاول اصح اى ان خمس الغنيمة يقسم على خمسة اسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان له فى حياته واليوم هو لمصالح المسلمين ومافيه قوة الاسلام وهذا قول الشافعى واحمد وروى الاعمش عن ابراهيم قال كان ابوبكر وعمر رضى الله تعالى عنهما يجعلان سهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الكراع والسلاح وقال قتادة هو للخليفة وقال ابوحنيفة سهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد موته مردود فى الخمس فيقسم الخمس على الاربعة الاصناف المذكورين فى الآية هم ذووا القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل * وقوله سبحانه وتعالى (ولذى القربى) يعنى ان سهما من خمس الخمس لذوى القربى وهم اقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لاتحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلى بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعى رحمه الله تعالى هم بنو هاشم و المطلب وليس لبنى عبدشمس ولا لبنى نوفل منه شئ وان كانوا اخوة ويدل عليه ماروى عن جبير بن مطعم قال جئت انا وعثمان ابن عفان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله اعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وفى رواية اعطيت بنى المطلب من خمس الخمس وتركتنا وفى رواية قال جبير ولم يقسم النبى صلى الله عليه وسلم عبدشمس ولا لبنى نوفل شيأ اخرجه البخارى وفى رواية ابى داود ان جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قسم من الخمس فى بنى هاشم وبنى المطلب فقلت يارسول الله قسمت لاخواننا بنى المطلب ولم تعطنا شيأ وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وفى رواية النسائى قال لما كان يوم خيبر رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوى القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب وترك بنى نوفل وبنى عبدشمس فانطلقت انا وعثمان بن عفان حتى اتينا النبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله هؤلاء بنو هاشم لاننكر فضلهم للموضع الذى وضعك الله به منهم فما بال اخواننا بنى المطلب اعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم انا وبنو المطلب لانفترق فى جاهلية ولا اسلام وانما نحن وهم شئ واحد وشبك بين اصابعه واختلف اهل العلم فى سهم ذوى القربى هل هو ثابت اليوم ام لا فذهب اكثرهم الى انه ثابت فيعطى فقراؤهم واغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين وهو قول مالك والشافعى وذهب ابوحنيفة واصحاب الرأى الى انه غير ثابت قالوا سهم النبى صلى الله عليه وسلم وسهم ذوى القربى مردود فى الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة اصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف الى فقراء ذوى القربى مع هذه الاصناف دون اغنيائهم وحجة الجمهور ان الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوى القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوى القربى ولا يفضلون فقيرا على غنى لان النبى صلى الله عليه وسلم اعطى العباس بن عبدالمطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه والحقه الشافعى بالميراث الذى يستحق باسم القرابة غير انهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذكر على الانثى فيعطى الذكر سهمين والانثى سهما * وقوله سبحانه وتعالى (واليتامى) جمع يتيم يعنى من خمس الخمس لليتامى

فاستقم كما امرت ومن تاب معك وبلغ غاية التمكين وارتفعت الحجب الفعالية والصفاتية والذاتية عن وجه السالكين من اصحابه حتى بلغوا مقام التوحيد الذاتى ارتفعت المناسبة بينهم وبين المشركين ولم تبق بينهم جنسية بوجه ما وتحققت الضدية والمخالفة وحقت الفرقة والعداوة فنزلت براءة من الله ورسوله (الى الذين عاهدتم من المشركين) هذه الحالة حالة الفرقة والمباينة الكلية بيننا والتبرى الحقيقى من الله باعتبار الجمع ورسوله باعتبار التفصيل

واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا اب له فيعطى مع الحاجة اليه (والمساكين) وهم اهل الفاقة والحاجة من المسلمين (وابن السبيل) وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة اليه فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم اربعة اخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة اسهم سهم له وسهمان لفرسه ويعطى الراجل سهما واحدا لما روى عن ابن عمران رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم في النفل للفرس سهمين وللراجل سهما وفي رواية نحوه باسقاط لفظ النفل اخرجه البخاري ومسلم وفي رواية ابي داود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اسهم للرجل ولفرسه ثلاثة اسهم سهما له وسهمين لفرسه وهذا قول اكثر اهل العلم واليه ذهب الثوري والاوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي واحمد واسحق وقال ابو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان اذا حضروا القتال ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند ابي حنيفة يتخير الامام في العقار بين ان يقسمه بينهم وبين ان يجعله وقفا على المصالح وظاهر الآية يدل على انه لا فرق بين العقار والمنقول ومن قتل من المسلمين مشركا في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى عن ابي قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه اخرجه الترمذي واخرجه البخاري ومسلم في حديث طويل والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح والفرس الذي كان راكبه ويجوز للامام ان ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم اسوة الجماعة في سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لانفسهم خاصة سوى عامة الجيش عن حبيب بن سلمة الفهري قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل الربع في البدأة والثلث في الرجعة اخرجه ابو داود واختلف العلماء في ان النفل من اين يعطى فقال قوم من خمس الخمس من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعي وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبادة بن الصامت قال اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال ايها الناس انه لا يحل لي مما افاء الله عليكم قدر هذه الا الخمس والخمس مردود عليكم اخرجه النسائي وقال قوم هو من الاربعة الاخماس بعد افراز الخمس كسهام الغزاة وهو قول احمد واسحق وذهب قوم الى ان النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب للقاتل واما الفيء وهو ما اصابه المسلمون من اموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب بان صالحهم على مال يؤدونه وكذلك الجزية وما اخذ من اموالهم اذا دخلوا دار الاسلام للتجارة او يموت احد منهم في دار الاسلام ولا وارث له فهذا كله فيء ومال الفيء كان خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة حياته وقال عمر ان الله سبحانه وتعالى قد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الفيء بشيء لم يخص به احدا غيره ثم قرأ عمر وما افاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة وكان ينفق على اهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم ما بقي يجعله مجعل مال الله في الكراع والسلاح واختلف اهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هو للائمة بعده وللامام الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه قولان احدهما انه للمقاتلة الذين اثبتت اسماؤهم في ديوان الجهاد لانهم هم القائمون مقام

اليهم فتبرؤا منهم ظاهرا كما تبرؤا منهم باطنا ونبذوا عهدهم في الصورة كما نبذوا عهدهم في الحقيقة (فسيحوا في الارض اربعة اشهر) على عدد مواقفهم في الدنيا والآخرة تنبيها لهم فانهم لما وقفوا في الدنيا مع الغير بالشرك حجبوا عن الدين والافعال والصفات والذات في برزخ الناسوت فلزمهم ان يوقفوا في الآخرة على الله ثم على الجبروت ثم على الملكوت ثم على النار في جحيم الآثار على ما مرت الاشارة اليه في الانعام فيعذبوا بانواع العذاب (واعلموا انكم غير معجزي الله) لوجوب حبسكم في هذه

النبي صلى الله عليه وسلم في ارهاب العدو والقول الثاني انه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفاياتهم ثم بالاهم فالاهم من المصالح واختلف اهل العلم في تخميس الفيء فذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه الى انه يخمس وخمسه لاهل الخمس من الغنيمة على خمسة اسهم واربعة اخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الاكثرون الى انه لا يخمس بل يصرف جميعه مصرفا واحدا ولجميع المسلمين فيه حق * عن مالك بن انس قال ذكر عمر يوما الفيء فقال ما انا احق بهذا الفيء منكم وما احد منا احق به من الآخر الا انا على منازلنا من كتاب الله وقسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل وقدمه والرجل وبلاؤه والرجل وعياله والرجل وحاجته اخرجه ابوداود واخرج البغوي بسنده عنه انه سمع عمر بن الخطاب يقول ماعلى وجه الارض مسلم الاله في هذا الفيء حق الا ماملكت ايمانكم * وقوله سبحانه وتعالى (ان كنتم آمنتم بالله) يعني واعلموا ايها المؤمنون ان خمس الغنيمة مصروف الى من ذكر في هذه الآية من الاصناف فاقطعوا عنه اطماعكم واقنعوا باربعة اخماس الغنيمة ان كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته (وما انزلنا على عبدنا) يعني وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذه اضافة تشريف وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم والذي انزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يسئلونك عن الانفال الآية (يوم الفرقان) يعني يوم بدر قال ابن عباس يوم الفرقان يوم بدر فرق الله عز وجل فيه بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) يعني جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر وهو اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة اولسبع عشرة من رمضان واصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون مابين الالف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين واسر منهم مثل ذلك (والله على كل شيء قدير) يعني على نصركم ايها المؤمنون مع قلتكم وكثرة اعدائكم * قوله سبحانه وتعالى (اذ أنتم) اي اذكروا نعمة الله عليكم يامعشر المسلمين اذ أنتم (بالعدوة الدنيا) يعني بشفير الوادي الادنى من المدينة والدنيا هنا تأنيث الادنى (وهم) يعني المشركين (بالعدوة القصوى) يعني بشفير الوادي الاقصى من المدينة مما يلي مكة والقصوى تأنيث الاقصى (والركب اسفل منكم) يعني ابا سفيان واصحابه وهم عير قريش التي خرجوا لاجلها وكانوا في موضع اسفل من موضع المؤمنين الى ساحل البحر على ثلاثة اميال من بدر (ولو تواعدتم) يعني انتم والمشركون (لاختلفتم في الميعاد) وذلك ان المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد والمعنى ولو تواعدتم انتم والكفار على القتال لاختلفتم انتم وهم لقلتكم وكثرة عدوكم (ولكن) يعني ولكن الله جمعكم على غير ميعاد (ليقضي الله امرا كان مفعولا) يعني من نصر اوليائه واعزاز دينه واهلاك اعدائه واعداء دينه (ليهلك من هلك عن بينة) يعني ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه (ويحيى من حي عن بينة) يعني ويعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة قامت عليه وقال محمد ابن اسحق معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك لان الهلاك هو الكفر والحياة هي الايمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل على بينة ويهتدي

المواقف بسبب وقوفكم مع الغير بالشرك فكيف تفوتونه (وان الله مخزي الكافرين) المحجوبين عن الحق بافتضاحهم عند ظهور رتبة مايعبدون من دون الله ووقوفه معه على النار (واذان) اي اعلام (من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر) اي وقت ظهور الجمع الذاتي في صورة التفصيل كامر (ان الله بريء من المشركين ورسوله) في الحقيقة فيوافق الظاهر الباطن (فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله

من اهتدى على بينة (وان الله لسميع عليم) يعنى يسمع دعائكم ويعلم نياتكم ولا تخفى عليه خافية *قوله عز وجل (اذ يريكهم الله) يعنى واذكر يا محمد نعمة الله عليك اذ يريك المشركين (فى منامك) يعنى فى نومك (قليلا) قال مجاهد اراهم الله فى منامه قليلا فاخبر النبى صلى الله عليه وسلم اصحابه بذلك وكان ذلك تثبيتا وقال محمد بن اسحق فكان ما اراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على عدوهم فكيف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعله بما فيهم وقيل لما ارى الله النبى صلى الله عليه وسلم كفار قريش فى منامه قليلا فاخبر بذلك اصحابه قالوا رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق فصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم وقال الحسن ان هذه الاراءة كانت فى اليقظة والمراد من المنام العين لانها موضع النوم (ولو اراكهم كثيرا لفشلتم) يعنى لجبنتم والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو اراكهم كثيرا فذكرت ذلك لاصحابك لفشلوا وجبنوا عنهم (ولتنازعتم فى الامر) يعنى اختلفتم فى امر الاقدام عليهم اوالاحجام عنهم وقيل معنى التنازع فى الامر الاختلاف الذى تكون معه مخاصمة ومجاذبة كل واحد الى ناحية والمعنى لاضطرب امركم واختلفت كلمتكم (ولكن الله سلم) يعنى ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم وقيل معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل (انه عليم بذات الصدور) يعنى انه تعالى يعلم ما يحصل فى الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع وقال ابن عباس معناه انه عليم بما فى صدوركم من الحب لله عز وجل (واذ يريكموهم اذ التقيتم فى اعينكم قليلا) يعنى ان الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين فى اعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا فى القتال ليتأكد فى اليقظة ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه واخبر به اصحابه قال ابن مسعود لقد قللوا فى اعيننا حتى قلت لرجل الى جنبى تراهم سبعين قال اراهم مائة فاسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال كنا الفا (ويقللكم فى اعينهم) يعنى ويقللكم يامعشر المؤمنين فى اعين المشركين قال السدى قال ناس من المشركين ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال ابو جهل الآن اذ برز لكم محمد واصحابه فلا ترجعوا حتى نستأصلهم انما محمد واصحابه اكلة جزور يعنى لقلتهم فى عينيه ثم قال فلا تقتلوهم واربطوهم فى الحبال يقوله من القدرة التى فى نفسه والحكمة فى تقليل المشركين فى اعين المؤمنين تصديق رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ولتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليهم ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة فى تقليل المؤمنين فى اعين المشركين لئلا يهربوا واذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتاهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين عليهم فان قلت كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل قلت ذلك ممكن فى القدرة الالهية فان الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك (ليقضى الله امرا كان مفعولا) يعنى امرا كائنا من اعلاء كلمة الاسلام ونصر اهله واذلال كلمة الشرك وخذلان اهله فان قلت قد قال فى الآية المتقدمة ولكن ليقضى الله امرا كان مفعولا وقال فى هذه الآية ليقضى الله امرا كان مفعولا فما معنى هذا التكرار قلت المقصود من ذكره فى الآية المقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره فى هذه الآية لانه تعالى قلل عدد الفريقين

ويبشر الذين كفروا بعذاب اليم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ) اى هذه براءة اليهم الا الذين بقيت فيهم مسكة الاستعداد واثر سلامة الفطرة فلم يقدموا على نقض العهد لبقاء المروأة فيهم الدالة على سلامة الفطرة وبقائهم على عهد الله السابق بوجود الاستعداد وامكان الرجوع الى الوحدة (ولم يظاهروا عليكم احدا) لبقاء الوصلة الاصلية والمودة الفطرية بينكم وبينهم وعدم ظهور العداوة الكسبية (فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) اى مدة تراكم الرين وتحقق الحجاب ان لم يرجعوا ويتوبوا (ان الله يحب المتقين فاذا انسلخ الاشهر

فى امين بعضهم بعضا للحكمة التى قضاها فلذلك قال ليقضى الله امرا كان مفعولا (والى الله ترجع الامور) يعنى فى الآخرة فيجازى كل عامل على قدر عمله فالمحسن باحسانه والمسئ باساءته اويغفر * قوله تعالى (ياايها الذين آمنوا اذالقيتم فئة) يعنى جماعة كافرة (فاثبتوا) يعنى لقتالهم وهوان يوطنوا انفسهم على لقاء العدو وقتاله ولايحدثوها بالتولى (واذكروا الله كثيرا) يعنى كونوا ذاكرين الله عندلقاء عدوكم ذكرا كثيرا بقلوبكم والسنتكم امرالله عباده المؤمنين واولياءه الصالحين بان يذكروه فى اشد الاحوال وذلك عندلقاء العدو وقتاله وفيه تنبيه على ان الانسان لايجوز ان يخلوقلبه ولسانه عن ذكر الله وقيل المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لايحصل الابمعونة الله تعالى فأمرالله سبحانه وتعالى عباده ان يسألوه النصر على العدو عنداللقاء ثم قال تعالى (لعلكم تفلحون) يعنى وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر فان قلت ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم انها ناسخة لآية التحرف والتحيز قلت المراد من الثبات هو الثبات عندالمحاربة والمقاتلة فى الجملة وآية التحرف والتحيز لاتقدح فى حصول هذا الثبات فى المحاربة بل ربما كان الثبات لايحصل الابذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكدالذلك (واطيعوا الله ورسوله) يعنى فى امر الجهاد والثبات عندلقاء العدو (ولاتنازعوا فتفشلوا) يعنى ولاتختلفوا فان التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن * وقوله تعالى (وتذهب ريحكم) يعنى قوتكم وقال مجاهد نصرتكم قال وذهبت ريح اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم احد وقال السدى جراءتكم وجدكم وقال مقاتل حدتكم وقال الاخفش وابوعبيدة دولتكم والريح ههنا كناية عن نفاذ الامر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان اذا اقبل امره على مايريد وقال قتادة وابن زيد هى ريح النصر ولم يكن نصر قط الابريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من اول النهار اخر القتال حتى تزول وتهب الرياح وينزل النصر اخرجه ابوداود * وقوله سبحانه وتعالى (واصبروا) يعنى عندلقاء عدوكم ولاتنهزموا عنهم (ان الله مع الصابرين) يعنى بالنصر والمعونة (ق)عن عبدالله بن ابى اوفى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض ايامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال ايها الناس لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتتمنوا لقاء العدو فاذا لقيتموهم فاصبروا * قوله عزوجل (ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا) يعنى فخرا واشرا وقيل البطر الطغيان فى النعمة وذلك ان النعم اذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها فى المفاخرة على الاقران وكاثر بها ابناء الزمان وانفقها فى غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر فى النعمة وان صرفها فى طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان فى النعمة وترك شكرها (ورئاء الناس) الرياء اظهار الجميل ليراه الناس مع ابطان القبيح والفرق بين الرياء والنفاق ان النفاق اظهار الايمان مع ابطان الكفر والرياء اظهار الطاعة مع ابطان المعصية (ويصدون

الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلوة واتوا الزكوة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بانهم قوم لايعلمون كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله الاالذين عاهدتم عندالمسجدالحرام فمااستقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين كيف وان يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم الاولاذمة يرضونكم بافواههم وتابى

عن سبيل الله) يعني ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله نزلت هذه الآية في كفار قريش
حين خرجوا الى بدر ولهم فخر وبغي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم هذه قريش
قد اقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به قال ابن عباس
ان اباسفيان لما راى انه قد احرز عيره ارسل الى قريش انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورحالكم
واموالكم فقد نجاها الله فارجعوا فقال ابو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرا وكان في بدر موسم
من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام قال فنقيم عليها ثلاثا وننحر الجزور ونطعم الطعام
ونسقي الخمور ونعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ابدا فامضوا زاد غيره قال
فلما وافوا بدرا سقوا كؤس الحمام عوضا عن الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله
عباده المؤمنين ان يكونوا مثلهم والمعنى لا يكونن امركم ايها المؤمنون رياء وسمعة ولا لالتماس
ماعند الناس ولكن اخلصوا لله عز وجل النية وقاتلوا حسبة في نصر دينكم وموازرة نبيكم
صلى الله عليه وسلم ولا تعملوا الا لذلك ولا تطلبوا غيره ۞ وقوله تعالى (والله بما يعملون محيط)
فيه وعيد وتهديد يعني انه تعالى عالم بجميع الاشياء لا يخفى عن علمه شيء لانه محيط باعمال العباد
كلها فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين ۞ قوله سبحانه وتعالى (واذ زين لهم الشيطان اعمالهم)
يعني اذكروا ايها المؤمنون نعمة الله عليكم اذ زين لهم الشيطان يريد ابليس للمشركين اعمالهم الخبيثة
(وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم) قال بعضهم كان تزيينه وسوسة القاها في
قلوبهم من غير ان يتحول في صورة غير صورته وقال جمهور المفسرين تصور ابليس في صورة
سراقة بن مالك بن جعشم وكان تزيينه ان قريشا لما اجمعت على المسير الى بدر ذكرت الذي بينها وبين
بني بكر بن الحرث من الحروب فكاد ذلك ان يثنيهم فتبدى لهم ابليس في صورة سراقة بن جعشم
المدلجي وكان من اشراف بني كنانة فقال انا جار لكم من ان يأتيكم من كنانة شيء تكرهونه فخرجوا
سراعا وقال ابن عباس جاء ابليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من رجال بني
مدلج سراقة بن مالك بن جعشم فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما اصطف
الناس اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين
واقبل جبريل عليه السلام الى ابليس لعنه الله فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع ابليس
يده ثم ولى مدبرا وشيعته فقال الرجل ياسراقة اتزعم انك جار لنا فقال اني ارى مالا ترون اني
اخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين راى الملائكة وقوله اني جار لكم من كنانة (فلما تراءت
الفئتان) اى التقى الجمعان راى ابليس الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله ابليس انه لا طاقة له بهم
(نكص على عقبيه وقال اني برئ منكم) يعني رجع القهقرى وولى مدبرا هاربا على قفاه وقال
الكلبي لما التقى الجمعان كان ابليس في صف المشركين على صورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو
آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله على عقبيه فقال له الحرث افرارا من غير قتال وجعل
يمسكه فدفع في صدره وانطلق فانهزم الناس فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك
سراقة فقال بلغني انكم تقولون اني هزمت الناس فوالله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم
فقالوا اما اتيتنا في يوم كذا وكذا فحلف لهم فلما اسلموا علموا ان ذلك كان شيطانا قال الحسن في قوله (اني
ارى مالا ترون) قال راى ابليس جبريل عليه السلام معتجرا ببرد يمشي بين يدي النبي صلى الله

فلو بهم وا كثرهم
فاسقون اشتروا بآيات الله
ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله
انهم ساء ما كانوا يعملون
لا يرقبون في مؤمن الا
ولا ذمة واولئك هم المعتدون
فان تابوا واقاموا الصلوة
وآتوا الزكوة فاخوانكم
في الدين ونفصل الآيات
لقوم يعلمون وان نكثوا
ايمانهم من بعد عهدهم
وطعنوا في دينكم فقاتلوا
ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم
لعلهم ينتهون الا تقاتلون قوما
نكثوا ايمانهم وهموا
باخراج الرسول وهم
بدؤكم اول مرة اتخشونهم
فالله احق ان تخشوه
ان كنتم مؤمنين قاتلوهم

عليه وسلم وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب وقال قتادة قال ابليس انى ارى مالا ترون صدق
وقال انى اخاف الله وكذب مابه مخافة الله ولكن علم انه لا قوة له ولا منعة فاوردهم واسلمهم وتلك
عادة عدو الله ابليس لمن اطاعه اذا التقى الحق والباطل اسلمهم وتبرأ منهم وقيل انه خاف ان
يهلك فيمن هلك وقيل خاف ان يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه وقيل معناه (انى اخاف
الله) اعلم صدق وعده لاوليائه لانه كان على ثقة من امر به وقيل لما راى الملائكة قد نزلت
من السماء خاف ان تكون القيامة (والله شديد العقاب) قيل معناه انى اخاف الله لانه شديد
العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول ابليس وقيل تم كلامه عند قوله انى اخاف الله وقوله تعالى
والله شديد العقاب ابتداء كلام يقول الله سبحانه وتعالى والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به
عن طلحة بن عبيدالله بن كرز ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماروى الشيطان يوما هو فيه
اصغر ولا ادحر ولا احقر ولا اغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك الا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز
الله عن الذنوب العظام الا ما اراى يوم بدر فانه قد راى جبريل يزع الملائكة اخرجه مالك في الموطأ
قوله ولا ادحر هو بالدال والحاء المهملتين من الدحور وهو الابعاد والطرد مع الاهانة وقوله يزع
الملائكة اى يكفهم ويحبسهم لئلا يتقدم بعضهم على بعض والوازع هو الذى يتقدم ويتأخر في الصف
ليصلحه فان قلت كيف يقدر ابليس على ان يتصور بصورة البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف
يسمى شيطانا قلت ان الله عز وجل اعطاه قوة واقدره على ذلك كما اعطى الملائكة قوة واقدرهم على
ان يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة * قوله
عز وجل (اذ يقول المنافقون) يعنى من اهل المدينة (والذين في قلوبهم مرض) اى شك
وارتياب وهم قوم من اهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقو الاسلام في قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج
كفار قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة
المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا (غر هؤلاء دينهم) يعنى ان هؤلاء نفر قليلون يقاتلون اضعافهم
فقد غرهم دينهم الاسلام على ذلك وحملهم على قتل انفسهم رجاء الثواب في الآخرة فقتلوا
جميعا يوم بدر وقال مجاهد ان فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة وابو قيس بن الفاكه بن المغيرة
والحرث بن زمعة بن الاسود بن المطلب وعلى بن امية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج
خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم فلما راوا قلة اصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم قالوا غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى (ومن يتوكل على الله) يعنى ومن يسلم امره
الى الله ويثق بفضله ويعول على احسانه (فان الله) حافظه وناصره لانه (عزيز) لا يغلبه شئ
(حكيم) فيما قضى وحكم فتوصل الثواب الى اوليائه والعقاب الى اعدائه * قوله عز وجل
(ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) يعنى ولو عاينت يا محمد وشاهدت اذ تقبض الملائكة
ارواح الذين كفروا عند الموت لرايت امرا عظيما ومنظرا فظيعا وعذابا شديدا ينالهم في ذلك الوقت
(يضربون وجوههم وادبارهم) اختلفوا في وقت هذا الضرب فقيل هو عند الموت تضرب
الملائكة وجوه الكفار وادبارهم بسياط من نار وقيل ان الذين قتلوا يوم بدر من المشركين
كانت الملائكة تضرب وجوههم وادبارهم وقال ابن عباس كان المشركون اذا اقبلوا بوجوههم
الى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف واذا ولوا ادبارهم ضربت الملائكة ادبارهم وقال

يعذبهم الله بايديكم ويخزهم
وينصركم عليهم ويشف
صدور قوم مؤمنين
ويذهب غيظ قلوبهم
ويتوب الله على من يشاء
والله عليم حكيم ام حسبتم
ان تتركوا ولما يعلم الله الذين
جاهدوا منكم ولم يتخذوا
من دون الله ولا رسوله
ولا المؤمنين وليجة والله
خبير بما تعملون ما كان
للمشركين ان يعمروا
مساجد الله شاهدين على
انفسهم بالكفر اولئك
حبطت اعمالهم وفي النار
هم خالدون انما يعمر مساجد
الله من آمن بالله واليوم
الآخر واقام الصلوة وآتى
الزكوة ولم يخش الا الله
فعسى اولئك ان يكونوا
من المهتدين اجعلتم سقاية
الحاج وعمارة المسجد الحرام

ابن جريج يريد ما اقبل من اجسادهم وادبر يعنى يضربون جميع اجسادهم (وذوقوا عذاب الحريق) يعنى وتقول لهم الملائكة عند القتل ذوقوا عذاب الحريق قيل كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار فى جراحاتهم وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانيه ذوقوا عذاب الحريق (ذلك) يعنى الذى نزل بكم من القتل والضرب والحريق (بما قدمت ايديكم) يعنى انما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت ايديكم من الكفر والمعاصى فان قلت اليد ليست محلا للكفر وانما محله القلب لان الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضى ان فاعل هذا الكفر هى اليد وذلك ممتنع قلت اليد هنا عبارة عن القدرة لان اليد آلة العمل والقدرة هى المؤثرة فى العمل فاليد كناية عن القدرة ※ وقوله تعالى (وان الله ليس بظلام للعبيد) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يعذب احدا من خلقه الا بجرم اجترمه لانه لا يظلم احدا من خلقه وانما نفى الظلم عن نفسه مع انه يعذب الكافر على كفره والعاصى على عصيانه لانه يتصرف فى ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم اليه فلا يتوهم متوهم انه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فلهذا قال الله سبحانه وتعالى وان الله ليس بظلام للعبيد لانهم فى ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء ※ قوله تعالى (كداب آل فرعون) يعنى ان عادة هؤلاء الكفار فى كفرهم كعادة آل فرعون فى كفرهم فجوزى هؤلاء بالقتل والاسر يوم بدر كما جوزى آل فرعون بالاغراق واصل الداب فى اللغة ادامة العمل يقال فلان يداب فى كذا وكذا يداوم ويتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دابا لان الانسان يداوم على عادته ويواظب عليها قال ابن عباس معناه ان آل فرعون ايقنوا ان موسى عليه السلام نبى من الله تعالى فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق كذبوه فانزل الله بهم عقوبته كما انزل بآل فرعون (والذين من قبلهم) يعنى من قبل آل فرعون (كفروا بآيات الله) يعنى ان عادة الامم السالفة هو كفرهم بآيات الله (فاخذهم الله بذنوبهم) يعنى بسبب كفرهم وذنوبهم (ان الله قوى) يعنى فى اخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله (شديد العقاب) يعنى لمن كفر به وكذب رسله (ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعنى ان الله سبحانه وتعالى انعم على اهل مكة بان اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث اليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فقابلوا هذه النعمة بان تركوا شكرها وكذبوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وغيروا ما بأنفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة واخذهم بالعقاب قال السدى نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم انعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى الى الانصار (وان الله سميع) يعنى لاقوال خلقه لا يخفى عليه شئ من كلامهم (عليم) يعنى بما فى صدورهم من خير وشر فيجازى كل واحد على عمله (كداب آل فرعون) يعنى ان هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم) يعنى اهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك اهلكنا كفار قريش بالسيف (واغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) يعنى الاولين والآخرين فان قلت ما الفائدة فى تكرير هذه الاية مرة ثانية قلت فيها فوائد منها ان الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الاول لان الآية الاولى فيها ذكر اخذهم وفى الآية الثانية ذكر

لكن آمن بالله واليوم الاخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين) الذين اجتنبوا الرذائل خصوصا نقض العهد الذى هو ام الرذائل ظاهرا وباطنا (الذين آمنوا) علما (وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم) الرغائب الحسية والمواطن الانسية بالسلوك فى سبيل الله وجاهدوا باموالهم معلوماتهم ومراداتهم ومقدوراتهم بمحو صفاتهم فى صفات الله (وانفسهم) بافنائها فى ذات الله اعظم درجة) فى التوحيد (عند الله واولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة) ثواب الاعمال (منه ورضوان) الصفات

اغراقهم فهذه تفسير للاولى الفائدة الثانية انه ذكر فى الآية الاولى انهم كفروا بايات الله وجحدوها وفى الاية الثانية انهم كذبوا بايات ربهم ففى الاية الاولى اشارة الى انهم انكروا ايات الله وجحدوها وفى الاية الثانية اشارة الى انهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها الفائدة الثالثة ان تكرير هذه القصة للتأكيد وفى قوله كذبوا بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفى ذكر الاغراق بيان للاخذ بالذنوب ❊ قوله تعالى (ان شر الدواب عند الله) يعنى فى علمه وحكمه (الذين كفروا فهم لايؤمنون) والمعنى ان شر الدواب من الانس الكفار المصرون على الكفر نزلت فى يهود بنى قريظة رهط كعب بن الاشرف (الذين عاهدت منهم) قيل من صلة يعنى الذين عاهدتهم وقيل هى للتبعيض لان المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والاشراف (ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) قال المفسرون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاهد يهود بنى قريظة ان لايحاربوه ولايعاونوا عليه فنقضوا العهد واعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ثم قالوا نسينا واخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ايضا ومالوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الاشرف الى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهم لايتقون) يعنى انهم لايخافون الله فى نقض العهد لان عادة من يرجع الى دين وعقل وحزم ان يتقى نقض العهد حتى يسكن الناس الى قوله ويثقون بكلامه فبين الله عز وجل ان من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب (فاما تثقفنهم فى الحرب) يعنى فاما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم فى الحرب (فشرد بهم من خلفهم) قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم وقال سعيد بن جبير انذر بهم من خلفهم واصل التشريد فى اللغة التفريق مع اضطراب ومعنى الآية انك اذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من اهل مكة واليمن (لعلهم يذكرون) يعنى لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد (واما تخافن) يعنى واما تعلمن يا محمد (من قوم) يعنى معاهدين (خيانة) يعنى نقضا للعهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بنى قريظة والنضير (فانبذ) اى فاطرح (اليهم) يعنى عهدهم وارم به اليهم (على سواء) يعنى على طريق ظاهر مستو يعنى اعلمهم قبل حربك اياهم انك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون انت وهم فى العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون انك نقضت العهد اولا بنصب الحرب معهم (ان الله لايحب الخائنين) يعنى فى نقض العهد عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى اذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس اوبرذون وهو يقول الله اكبر الله اكبر وفاء لاغدرا فاذا هو عمرو ابن عنبسة فأرسل اليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلايشد عقدة ولايحلها حتى ينقضى امدها اوينبذ اليهم على سواء فرجع معاوية اخرجه ابوداود واخرجه الترمذى عن سليم بن عامر نفسه بلازيادة رجل من حمير وعنده الله اكبر مرة واحدة وفيه جاء على دابة اوفرس واما حكم الآية فقال اهل العلم اذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادنهم الامام من المشركين بامر ظاهر مستفيض استغنى الامام عن نبذ العهد واعلامهم بالحرب

(وجنات) من الجنان الثلاثة (لهم فيها نعيم) شهود الذات (مقيم) ثابت ابدا (خالدين فيها ابدا ان الله عنده اجر عظيم يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون) اى لايترجح فيكم جهة القرابة الصورية والوصلة الطبيعية على جهة القرابة المعنوية والوصلة الحقيقية فيكون بينكم وبين من آثر الاحتجاب على الكشف من اقربائكم ولاية مسببة عن الاتصال الصورى مع فقد الاتصال المعنوى واختلاف الوجهة

وان ظهرت الخيانة بامارات تلوح وتتضح له من غير امر مستفيض فحينئذ يجب على الامام ان ينبذ اليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لان قريظة كانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ثم اجابوا اباسفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وباصحابه فههنا يجب على الامام ان ينبذ اليهم على سواء ويعلمهم بالحرب واما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للامام الى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم باهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا وجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على اربع فراسخ من مكة * وقوله تعالى (ولا تحسبن) قرئ بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى ولا تحسبن يا محمد (الذين كفروا سبقوا) يعني فاتوا وانهزموا يوم بدر وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا يعني خلصوا من القتل والاسر يوم بدر (انهم لا يعجزون) يعني انهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم اما في الدنيا بالقتل واما في الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فاعلمه الله انهم لا يعجزونه * قوله عز وجل (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الاعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة اليه وفي المراد بالقوة اقوال * احدها انها جميع انواع الاسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم * الثاني انها الحصون والمعاقل * الثالث الرمي وقد جاءت مفسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي ثلاثا اخرجه مسلم (خ) عن ابي اسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش اذا اكثبوكم يعني غشوكم وفي رواية اكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفي رواية اذا اكثبوكم فعليكم بالنبل (م) عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز احدكم ان يلهو باسهمه (م) عن فقيم اللخمي قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وانت شيخ كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم اعانه قال قلت وماذاك قال سمعته يقول من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا او قد عصى عن ابي نجيح السلمي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة فبلغت يومئذ عشرة اسهم قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر اخرجه النسائي والترمذي بمعناه وعنده قال عدل رقبة محررة واخرجه ابوداود ايضا عن عقبة بن عامر بمعناه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في عمله الخير والرامي به والممد به وفي رواية ومنبله فارموا واركبوا وان ترموا احب الي من ان تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمود الا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبته اهله ورميه بقوسه اي نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فانها نعمة تركها او كفرها اخرجه ابوداود واخرجه الترمذي مختصرا الى نبله (خ) عن سلمة بن الاكوع قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من اسلم ينتضلون بالقوس فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارموا بني اسمعيل فان اباكم كان راميا ارموا وانا مع بني فلان فامسك احد الفريقين بايديهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالكم لا ترمون فقالوا كيف نرمي وانت معهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارموا وانا معكم كلكم

الموجب للقطيعة المعنوية والعداوة الحقيقية فان ذلك من ضعف الايمان ووهن العزيمة بل قضية الايمان بخلاف ذلك قال الله تعالى والذين آمنوا اشد حبا لله وقال بعض الحكماء الحق حبيبنا والخلق حبيبنا فاذا اختلفا فالحق احب الينا (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها) قل ان كانت هذه القرابات الصورية والمألوفات الحسية (احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله) فقد ضعف ايمانكم ولم يظهر

* القول الرابع ان المراد بالقوّة جميع مايتقوّى به فى الحرب على العدوّ وكل ماهو آلة يستعان بها فى الجهاد فهو من جملة القوّة المأمور باستعدادها وقوله صلى الله عليه وسلم الا ان القوّة الرمى لاينفى كون غير الرمى من القوّة فهو كقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقوله الندم توبة فهذا لاينفى اعتبار غيره بل يدل على ان هذا المذكور من افضل المقصود واجله فكذا ههنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال فى الحرب وجهاد العدوّ بجميع مايمكن من الآلات كالرمى بالنبل والنشاب والسيف والدروع وتعليم الفروسية كل ذلك مامور به الا انه من فروض الكفايات * وقوله تعالى (ومن رباط الخيل) يعنى اقتناءها وربطها للغزو فى سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفظ وسمى المكان الذى يخص باقامة حفظه فيه رباطا والمرابطة اقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل للجهاد من اعظم مايستعان به روى ان رجلا قال لابن سيرين ان فلانا اوصى بثلث ماله للحصون فقال ابن سيرين يشترى به الخيل ويربطها فى سبيل الله وقال عكرمة القوّة الحصون ومن رباط الخيل يعنى الاناث ووجه هذا ان العرب تربط الاناث من الخيل بالافنية للنسل وروى ان خالد بن الوليد كان لايركب فى القتال الا الاناث لقلة صهيلها وعن ابن محيريز قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند الشتات والغارات وقيل ربط الفحول اولى من الاناث لانها اقوى على الكر والفر والعدو فكانت المحاربة عليها اولى من الاناث وقيل ان لفظ الخيل عام فيتناول الفحول والاناث فأى ذلك ربط بنية الغزاة كان فى سبيل الله (ق) عن عروة ابن الجعد البارقى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والغنيمة (ق) عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل فى نواصيها الخير الى يوم القيامة (خ) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل ثلاثة هى لرجل اجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فاما الذى هى له اجر فرجل ربطها فى سبيل الله زاد فى رواية لاهل الاسلام فاطال لها فى مرج او روضة فما اصابت فى طيلها ذلك من المرج او الروضة كان له حسنات ولو انها قطعت طيلها فاستنت شرفا او شرفين كانت له آثارها وارواثها حسنات ولو انها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد ان يسقيها كان ذلك له حسنات فهى لذلك الرجل اجر ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لاهل الاسلام فهى على ذلك وزر وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما انزل علىّ فيها شئ الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الطيل الحبل الذى يشد به الفرس وقت الرعى والاستنان الجرى والشرف الشوط الذى تجرى فيه الفرس وقوله تغنيا يعنى استغناء بها عن الطلب لما فى ايدى الناس اما حق ظهورها فهو ان يحمل عليها منقطعا الى اهله واما حق رقابها فقيل اراد به الاحسان اليها وقيل اراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله نواء لاهل الاسلام النواء المعاداة يقال ناوات الرجل مناواة اذا عاديته * وقوله تعالى (ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم) يعنى تخوفون بتلك القوّة وبذلك الرباط عدوّ الله وعدوّكم يعنى الكفار من اهل مكة وغيرهم وقال

اثره فى نفوسكم وعلى جوارحكم لتنقاد بحكمه وذلك اوقوفكم مع الآثار الناسوتية الموجب للعذاب والحجاب (فتربصوا حتى يأتى الله بامره والله لايهدى القوم الفاسقين) بعذابه وكيف لاوانتم تسلكون طريق الطبيعة وتنقادون بحكمها مكان سلوك طريق الحق والانقياد لامره وذلك فسق منكم والفاسق محجوب عن الله لايهديه اليه لعدم توجهه وارادته بل لاعراضه وتوليه فهو يستحق العذاب والخذلان والحجاب والحرمان (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة

ابن عباس تحزنون به عدوّ الله وعدوكم وذلك لان الكفار اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الاسلحة وآلات الحرب واعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار في الاسلام او بذل الجزية للمسلمين ※ قوله تعالى (وآخرين من دونهم) يعني وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء فيهم فقال مجاهد هم بنو قريظة وقال السدى هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى (لا تعلمونهم) لانهم معكم يقولون بالسنتهم لا اله الا الله (الله يعلمهم) يعني انهم منافقون واورد على هذا القول المنافقين لا يقاتلون لاظهارهم كلمة الاسلام فكيف يخوّفون باعداد القوّة ورباط الخيل واجيب عن هذا الايراد ان المنافقين اذا شاهدوا قوّة المسلمين وكثرة آلاتهم واسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويحزنهم فكان في ذلك ارهابهم وقال الحسن هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبرى قال لان الله تعالى قال لا تعلمونهم ولا شك ان المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة فارس لعلمهم بانهم مشركون ولانهم حرب للمؤمنين اما الجن فلا يعلمونهم الله يعلمهم يعني يعلم احوالهم واما كنهم دونكم ويعضد هذا القول ماروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال هم الجن وان الشيطان لا يخبل احدا في داره فرس عتيق ذكر هذا الحديث ابن الجزرى وغيره من المفسرين بغير اسناد وقال الحسن صهيل الخيل يرهب الجن ※ وقوله سبحانه وتعالى (وما تنفقوا من شئ في سبيل الله) قيل اراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو امر عام في كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره (يوف اليكم) يعني اجره في الآخرة ويعجل لكم عوضه في الدنيا (وانتم لا تظلمون) يعني وانتم لا تنقصون من ثواب اعمالكم شيأ ※ قوله تبارك وتعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) لما امر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين باعداد القوّة ومارهب العدوّ امرهم بعد ذلك ان يقبلوا منهم الصلح ان مالوا اليه وسألوه فقال تعالى وان جنحوا للسلم يعني مالوا الى السلم يعني المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها اى مل اليها يعني الى المصالحة روى عن الحسن وقتادة ان هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل انها غير منسوخة لكنها تتضمن الامر بالصلح اذا كان فيه مصلحة ظاهرة فان رأى الامام ان يصالح اعداءه من الكفار وفيه قوّة فلا يجوز ان يهادنهم سنة كاملة وان كانت القوّة للمشركين جاز ان يهادنهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح اهل مكة مدة عشر سنين ثم انهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة ※ وقوله تعالى (وتوكل على الله) يعني فوّض امرك الى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك في جميع احوالك (انه هو السميع) يعني لاقوالهم (العليم) يعني باحوالهم ※ قوله عزوجل (وان يريدوا ان يخدعوك) يعني يغدروا بك قال مجاهد يعني بني قريظة والمعنى وان ارادوا باظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم (فان حسبك الله) يعني فان الله كافيك بنصره ومعونته (هو الذى ايدك بنصره) يعني هو الذى قوّاك واعانك بنصره يوم بدر وفي سائر ايامك (وبالمؤمنين) يعني وايدك بالمؤمنين يعني الانصار فان قلت اذا كان الله قد ايده بنصره فاى حاجة الى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين قلت التأييد والنصر من الله عزوجل وحده لكنه يكون باسباب باطنة غير معلومة وباسباب ظاهرة معلومة فاما الذى يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله هو الذى ايدك بنصره لان اسبابه باطنة بغير وسايط معلومة واما الذى يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله وبالمؤمنين لان اسبابه ظاهرة بوسايط

ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم

وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الاسباب وهو الذى اقامهم لنصره ثم بين كيف ايده بالمؤمنين فقال تعالى (والف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الارض جميعا ماالفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم) وذلك العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والانفة العظيمة والانفس القويه والعصبية والانطواء على الضغينة ادنى شئ حتى لو ان رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه اهل قبيلته حتى يدركوا ثارهم لايكاد يأتلف منهم قلبان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وابدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفى الله واتفقوا على الطاعة وصاروا انصار الرسول لله صلى الله عليه وسلم واعوانا يقاتلون منه ويحمونه وهم الاوس والخزرج وكانت بينهم فى الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ثم زالت تلك الحروب وحصلت المحبة والالفة وهذا مما لايقدر عليه الا الله عزوجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرة باهرة دالة على صدقه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يامعشر الانصار الم اجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى وفى الآية دليل على ان القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء واراد وذلك لان تلك الالفة والمحبة انما حصلت بسبب الايمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انه سبحانه وتعالى ختم هذه الآية بقوله (انه عزيز حكيم) يعنى انه تعالى قادر قاهر يمكنه التصرف فى القلوب فيلقبها من العداوة المحبة ومن النفرة الى الالفة وكل ذلك على وجه الحكمة والصواب * قوله سبحانه وتعالى (ياايها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى اسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير اسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم اسلم عمر فنزلت هذه الآية فعلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت فى سورة مدنية بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انها نزلت بالبيداء فى غزوة بدر وقبل القتال على هذا القول اراد بقوله تعالى ومن اتبعك من المؤمنين يعنى الى غزوة بدر وقيل اراد بقوله ومن اتبعك من المؤمنين الانصار وتكون الآية نزلت بالمدينة وقيل اراد جميع المهاجرين والانصار ومعنى الآية ياايها النبى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين وقيل معناه حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين * قوله عزوجل (ياايها النبى حرض المؤمنين على القتال) يعنى حثهم على قتال عدوّهم والتحريض فى اللغة الحث على الشئ بكثرة التزين وتسهيل الخطب فيه كأنه فى الاصل ازالة الحرض وهو الهلاك (ان يكن منكم عشرون) يعنى رجلا (صابرون) يعنى عند اللقاء محتسبين انفسهم (يغلبوا مائتين) يعنى من عدوّهم وظاهر لفظ الآية خبر ومعناه الامر فكانه تعالى قال ان يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا فى قتال عدوّهم حتى يغلبوا مائتين ويدل على ان المراد بهذا الخبر الامر قوله الآن خفف الله عنكم لان النسخ لايدخل على الاخبار انما يدخل على الامر فدل ذلك على ان الله سبحانه وتعالى اوجب اوّلا على المؤمنين هذا الحكم وانما حسن هذا التكليف لان الله وعدهم بالنصر ومن تكفل الله له بالنصر سهل عليه الثبات مع الاعداء (وان يكن منكم مائة) يعنى صابرة (يغلبوا الفا من الذين كفروا) فحاصله وجوب ثبات الواحد من المؤمنين فى مقابلة العشرة من الكفار ذلك (بأنهم قوم لايفقهون) يعنى ان المشركين لايقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب انما يقاتلون حمية فاذا صدقتموهم فى القتال فانهم لايثبتون معكم (الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة

بافواههم يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لااله الا هو سبحانه عما يشركون يريدون ان يطفؤا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ياايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا

صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله) (خ) عن ابن عباس
قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين كتب عليهم ان لايفر واحد
من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت الآن خفف الله عنكم الآية فكتب ان لايفر مائة
من مائتين وفي رواية اخرى عنه قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين
شق ذلك على المسلمين فنزلت الآن خفف الله عنكم الآية فلما خفف الله عنهم من العدة نقص
عنهم من الصبر بقدر ماخفف عنهم فظاهر هذا ان قوله سبحانه وتعالى الآن خفف الله
عنكم ناسخ لما تقدم في الآية الاولى وكان هذا الامر يوم بدر فرض الله سبحانه وتعالى
على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين فثقل ذلك على المؤمنين فنزلت الآن
خفف الله عنكم ايها المؤمنون وعلم ان فيكم ضعفا يعني في قتال الواحد للعشرة فان يكن منكم
مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله فرد من العشرة الى
الاثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لايجوز لهم ان يفروا فايما رجل فر من
ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر (والله مع الصابرين) يعني بالنصر والمعونة قال سفيان قال
ابن شبرمة وارى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك * قوله تعالى (ما كان لنبي ان يكون
له اسرى) روى عن عبد الله بن مسعود قال لما كان يوم بدر وجئ بالاسرى قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ماتقولون في هؤلاء فقال ابو بكر يارسول الله قومك واهلك استبقهم واستأن
بهم لعل الله ان يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وقال عمر يارسول الله
كذبوك واخرجوك فدعهم نضرب اعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة
من العباس فيضرب عنقه ومكني من فلان نسيب لعمر فاضرب عنقه فان هؤلاء ائمة الكفر
وقال عبد الله بن رواحة يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فادخلهم فيه ثم اضرمه عليهم نارا
فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس
يأخذ بقول ابي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون الين من اللبن ويشدد
قلوب رجال حتى تكون اشد من الحجارة وان مثلك ياابابكر مثل ابراهيم قال فمن تبعني فانه مني
ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك ياابابكر مثل عيسى قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم
فانك انت العزيز الحكيم ومثلك ياعمر مثل نوح قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا
ومثلك ياعبد الله بن رواحة كمثل موسى قال ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلايؤمنوا
حتى يروا العذاب الاليم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم انتم عالة فلاينفلتن احد منهم
الابفداء اوضرب عنق قال عبد الله بن مسعود الاسهيل بن بيضاء فاني سمعته يذكر الاسلام
فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فمارأيتني في يوم اخوف ان تقع الحجارة من السماء
من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسهيل بن بيضاء قال ابن عباس قال عمر
بن الخطاب فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقال ابو بكر ولم يهو ماقلت واخذ منهم الفداء فلما كان
من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر قاعدان يبكيان فقلت يارسول الله اخبرني من
اي شئ تبكي انت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم اجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله

ما كنزتم لانفسكم فذوقوا
ما كنتم تكنزون ان عدة
الشهور عند الله اثنا عشر
شهرا في كتاب الله يوم
خلق السموات والارض
منها اربعة حرم ذلك
الدين القيم فلا تظلموا فيهن
انفسكم وقاتلوا المشركين
كافة كما يقاتلونكم كافة
واعلموا ان الله مع المتقين
انما النسئ زيادة في الكفر
يضل به الذين كفروا
يحلونه عاما ويحرمونه عاما
ليواطؤا عدة ماحرم الله
فيحلوا ماحرم الله زين لهم
سوء اعمالهم والله لايهدي
القوم الكافرين يا ايها الذين
آمنوا مالكم اذا قيل لكم
انفروا في سبيل الله اثاقلتم
الى الارض ارضيتم بالحيوة
الدنيا من الآخرة فمتاع
الحيوة الدنيا في الآخرة
الاقليل الاتنفروا يعذبكم

صلى الله عليه وسلم ابكي على اصحابك من اخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم ادنى من هذه الشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عزوجل عليه ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض الآية اخرج هذا الحديث الترمذي مختصرا وقال في الحديث قصة وهي هذه القصة التي ذكرها البغوي واخرج مسلم في افراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس لما اسروا الاسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الاسارى فقال ابو بكر يارسول الله هم بنو العم والعشيرة ارى ان تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى الله ان يهديهم الى الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترى يا ابن الخطاب قال قلت لا والله يارسول الله ما ارى الذي رأى ابو بكر ولكني ارى ان تمكنا فنضرب اعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه وتمكنني من فلان نسيب لعمر فاضرب عنقه فان هؤلاء ائمة الكفر وصناديده فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ابو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر يبكيان فقلت يارسول الله اخبرني من اي شيء تبكي انت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم اجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابكي على اصحابك من اخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم ادنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عزوجل ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض الى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فاحل الله الغنيمة لهم ذكره الحميدي في مسنده عن عمر بن الخطاب من افراد مسلم بزيادة فيه اما تفسير الآية فقوله تعالى ما كان لنبي ان يكون له اسرى يعني ما كان ينبغي ولا يجب لنبي وقال ابو عبيدة معناه لم يكن لنبي ذلك فلا يكون لك يا محمد والمعنى ما كان لنبي ان يحبس كافرا قدر عليه وصار في يده اسيرا للفداء والمن والاسرى جمع اسير واسارى جمع الجمع (حتى يثخن في الارض) الاثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته يقال اثخنه المرض اذا اشتدت قوته عليه والمعنى حتى يبالغ في قتال المشركين ويغلبهم ويقهرهم فاذا حصل ذلك فله ان يقدم على الاسر فيأسر الاسارى (تريدون عرض الدنيا) الخطاب لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعني تريدون ايها المؤمنون عرض الدنيا باخذكم الفداء من المشركين وانما سمى منافع الدنيا عرضا لانه لاثبات لها ولا دوام فكانها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة فانها دائمة لا انقطاع لها * وقوله سبحانه وتعالى (والله يريد الآخرة) يعني انه سبحانه وتعالى يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم الدين لانها دائمة بلا زوال ولا انقطاع (والله عزيز) لا يقهر ولا يغلب (حكيم) يعني في تدبير مصالح عباده قال ابن عباس كان ذلك يوم بدر والمؤمنون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم انزل الله سبحانه وتعالى في الاسارى فاما منا بعد واما فداء فجعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالخيار ان شاؤا قتلوهم وان شاؤا استعبدوهم وان شاؤا فادوهم وان شاؤا اعتقوهم قال الامام فخر الدين ان هذا الكلام يوهم ان قوله فاما منا بعد واما فداء يزيل حكم الآية التي نحن في تفسيرها وليس الامر كذلك لان كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لابد من تقديم الاثخان ثم بعده اخذ الفداء قال العلماء كان الفداء لكل اسير اربعين اوقية والاوقية اربعون درهما فيكون مجموع ذلك الفا وستمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل اسير اربعة آلاف درهم

عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيأ والله على كل شيء قدير الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) جمع المال وكنزه مع عدم الانفاق لا يكون الا لاستحكام رذيلة الشح وحب المال وكل رذيلة كية يعذب بها صاحبها في الآخرة ويخزى

* (فصل) * قد استدل بهذه الآية من يقدح في عصمة الانبياء وبيانه من وجوه الاول ان قوله ما كان لنبي ان يكون له اسرى صريح في النهي عن اخذ الاسارى وقد وجد ذلك يوم بدر الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى امر النبي صلى الله عليه وسلم وقومه بقتل المشركين يوم بدر فلما لم يقتلوهم بل اسروهم دل ذلك على صدور الذنب منهم الوجه الثالث ان النبي صلى الله عليه وسلم حكم باخذ الفداء وهو محرم وذلك ذنب الوجه الرابع ان النبي صلى الله عليه وسلم وابابكر قعدا يبكيان لاجل اخذ الفداء وخوف العذاب وقرب نزوله والجواب عن الوجه الاول ان قوله سبحانه وتعالى ماكان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض يدل على انه كان الاسر مشروعا ولكن بشرط الاثخان في الارض وقد حصل لان الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلا من عظماء المشركين وصناديدهم واسروا سبعين وليس من شرط الاثخان في الارض قتل جميع الناس فدلت الآية على جواز الاسر بعد الاثخان وقد حصل والجواب عن الوجه الثاني ان الامر بالقتل انما كان مختصا بالصحابة لاجماع المسلمين ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه واذا ثبت ان الامر بالقتل كان مختصا بالصحابة كان الذنب صادرا منهم لامن النبي صلى الله عليه وسلم والجواب عن الوجه الثالث وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم حكم بأخذ الفداء وهو محرم فنقول لانسلم ان اخذ الفداء كان محرما واما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه عتاب لطيف على اخذ الفداء من الاسارى والمبادرة اليه ولايدل على تحريم الفداء اذ لو كان حراما في علم الله لمنعهم من اخذه مطلقا والجواب عن الوجه الرابع وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم وابابكر قعدا يبكيان يحتمل ان يكون لاجل ان بعض الصحابة لما خالف الامر بالقتل واشتغل بالاسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبي صلى الله عليه وسلم خوفا واشفاقا من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الاسر واخذ الفداء والله اعلم * قوله عز وجل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم) قال ابن عباس كانت الغنائم محرمة على الانبياء والامم فكانوا اذا اصابوا مغنما جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر اسرع المؤمنون في اخذ الغنائم والفداء فانزل الله عز وجل لولا كتاب من الله سبق يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بانه يحل لكم الغنائم لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير لولا كتاب من الله سبق انه لايعذب احدا ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج لولا كتاب من الله سبق انه لايضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون وانه لاياخذ قوما فعلوا بجهالة لمسكم يعني لاصابكم بسبب ما اخذتم من الفداء قبل ان تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن اسحق لم يكن من المؤمنين احد ممن حضر بدرا الا واحب الغنائم الا عمر بن الخطاب فانه اشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الاسرى وسعد بن معاذ فانه قال يارسول الله كان الاثخان في القتل احب الي من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء مانجا منه غير عمر وسعد بن معاذ * وقوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) يعني فقد احلت لكم الغنائم واخذ الفداء فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا روي انه لما نزلت الآية الاولى كف اصحاب رسول الله

بها في الدنيا ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هي ذلك المال كان هو الذي يحمى عليه في نار جحيم الطبيعة وهاوية الهوى فيكوى به وانما خصت هذه الاعضاء لان الشح مركوز في النفس والنفس تغلب القلب من هذه الجهات لامن جهة العلو التي هي جهة استيلاء الروح وممر الحقائق والانوار ولا من جهة السفل التي هي من جهة الطبيعة الجسمانية لعدم

صلى الله عليه وسلم ايديهم عما اخذوا من الفداء فنزلت فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فاحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الامة وكانت قبل ذلك حراما على جميع الامم الماضية صح من حديث جابر بن عبدالله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال واحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم احل الله لنا الغنائم لاحد قبلنا ثم احل الله لنا الغنائم وذلك بان الله رأى ضعفنا وعجزنا فاحلها لنا ❁ وقوله سبحانه وتعالى (واتقوا الله ان الله غفور رحيم) يعنى وخافوا الله ان تعودوا وان تفعلوا شيأ من قبل انفسكم قبل ان تؤمروا به واعلموا ان الله قد غفر لكم ما اقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم وقيل فى قوله واتقوا الله اشارة الى المستقبل وقوله ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية ❁ قوله سبحانه وتعالى (يا ايها النبى قل لمن فى ايديكم) نزلت فى العباس ابن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان احد العشرة الذين ضمنوا ان يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة الى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون اوقية من ذهب ليطعم بها اذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فأراد ان يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيأ وبقيت العشرون اوقية معه فلما اسر اخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحسب العشرين اوقية من فدائه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا اتركه لك وكلف فداء ابنى اخيه عقيل بن ابى طالب ونوفل بن الحرث فقال العباس يا محمد تتركنى اتكفف قريشا ما بقيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاين الذهب الذى دفنته ام الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها انى لا ادرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فان حدث بى حدث فهذا لك ولعبدالله ولعبيدالله وللفضل وقثم يعنى بنيه فقال العباس وما يدريك يا ابن اخى قال اخبرنى به ربى قال العباس اشهد انك لصادق واشهد ان لا اله الا الله وانك عبده ورسوله لم يطلع عليه احد الا الله وامر ابنى اخيه عقيلا ونوفل بن الحرث فأسلما فذلك قوله سبحانه وتعالى يا أيها النبى قل لمن فى ايديكم (من الاسرى) يعنى الذين اسرتموهم واخذتم منهم الفداء (ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا) يعنى ايمانا وتصديقا (يؤتكم خيرا مما اخذ منكم) يعنى من الفداء (ويغفر لكم) يعنى ما سلف منكم قبل الايمان (والله غفور) يعنى لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه (رحيم) يعنى بأهل طاعته قال العباس فأبدلنى الله خيرا مما اخذ منى عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير ادناهم يضرب بعشرين الف درهم مكان العشرين اوقية واعطانى زمزم وما احب ان لى بها جميع اموال اهل مكة وانا انتظر المغفرة من ربى عز وجل وقوله تعالى (وان يريدوا) يعنى الاسارى (خيانتك) يعنى ان يكفروا بك (فقد خانوا الله) يعنى فقد كفروا بالله (من قبل) وقيل معناه وان نقضوا العهد ورجعوا الى الكفر فقد خانوا الله بذلك (فأمكن) يعنى فأمكن الله المؤمنين (منهم) ببدر حتى قتلوا منهم واسروا منهم وهذا نهاية الامكان وفيه بشارة للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه يتمكن من كل احد يخونه او ينقض عهده (والله عليم) يعنى بما فى بواطنهم وضمائرهم من ايمان وتصديق او خيانة ونقض عهد (حكيم) يعنى حكم بأنه يجازى كلا بعمله الخير بالثواب والشر بالعقاب ❁ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله) يعنى ان الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوا بما جاءهم به وهاجروا يعنى وهجروا ديارهم وقومهم فى ذات الله عز وجل وابتغاء رضوان الله وهم

تمكن الطبيعة من ذلك فبقيت سائر الجهات فيؤذى بها من الجهات الاربع ويعذب كما تراه يعاب بها فى الدنيا ويخزى من هذه الجهات ايضا اما بان يواجه بها جهرا فيفضح او يساربها فى جنبه او يغتاب بها من وراء ظهره (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون لو كان

المهاجرون الاولون وجاهدوا يعنى وبذلوا انفسهم فى سبيل الله يعنى فى طاعة الله وابتغاء رضوانه (والذين آووا ونصروا) يعنى آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من اصحابه من المهاجرين واسكنوهم منازلهم ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الانصار (اولئك) يعنى المهاجرين والانصار (بعضهم اولياء بعض) يعنى فى العون والنصر دون اقربائهم من الكفار وقال ابن عباس فى الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون اقربائهم وذوى ارحامهم وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالارحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخا بقوله تعالى واولو الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله ❋ وقوله تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا) يعنى آمنوا واقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شئ) يعنى من الميراث (حتى يهاجروا) يعنى الى المدينة (وان استنصروكم فى الدين) يعنى ان استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا (فعليكم النصر) يعنى فعليكم نصرهم واعانتهم (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) اى عهد فلا تنصروهم عليهم (والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم اولياء بعض) يعنى فى النصر والمعونة وذلك ان كفار قريش كانوا معادين لليهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا قال ابن عباس يعنى فى الميراث وهو ان يرث الكفار بعضهم من بعض (الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير) قال ابن عباس الا تأخذوا فى الميراث بما امرتكم به وقال ابن جريج الا تعاونوا وتناصروا وقال ابن اسحق جعل الله المهاجرين والانصار اهل ولاية فى الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم اولياء بعض ثم قال سبحانه وتعالى الا تفعلوه وهو ان يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين تكن فتنة فى الارض وفساد كبير فالفتنة فى الارض هى قوة الكفار والفساد الكبير هو ضعف المسلمين (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا) يعنى لا شك فى ايمانهم ولا ريب لانهم حققوا ايمانهم بالهجرة والجهاد وبذل النفس والمال فى نصر الدين (لهم مغفرة) يعنى لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى فى الجنة فان قلت ما معنى هذا التكرار قلت ليس فيه تكرار لانه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية الاولى حكم ولاية المهاجرين والانصار بعضهم بعضا ثم ذكر فى هذه الآية مامن به عليهم من المغفرة والرزق الكريم وقيل ان اعادة الشئ مرة بعد اخرى تدل على مزيد الاهتمام به فلما ذكرهم اوّلا ثم اعاد ذكرهم ثانيا دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلوّ درجاتهم وهذا هو الشرف العظيم لانه تعالى ذكر فى هذه الآية من وجوه المدح ثلاثة انواع احدها قوله اولئك هم المؤمنون حقا وهذا يفيد الحصر وقوله سبحانه وتعالى حقا يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محقين فى طريق الدين ما تحقق هذا القول ان من فارق اهله وداره التى نشأ فيها وبذل النفس والمال كان مؤمنا حقا النوع الثانى قوله سبحانه وتعالى لهم مغفرة وتنكير لفظ المغفرة يدل على ان لهم مغفرة واى مغفرة لا ينالها غيرهم والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة ساترة لجميع ذنوبهم النوع الثالث قوله سبحانه وتعالى ورزق كريم وكل شئ شرف وعظم فى بابه قيل له كريم والمعنى ان لهم فى الجنة رزقا لا تلحقهم فيه غضاضة ولا تعب وقيل ان المهاجرين كانوا على طبقات فمنهم من هاجر اولا الى المدينة وهم المهاجرون الاولون ومنهم من هاجر الى ارض الحبشة ثم هاجر الى المدينة فهم اصحاب الهجرتين ومنهم

عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين انما

من هاجر بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة فذكر الله فى الآية الاولى اصحاب الهجرة الاولى وذكر فى الثانية اصحاب الهجرة الثانية والله اعلم بمراده * وقوله سبحانه وتعالى (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم) اختلفوا فى قوله من بعد فقيل من بعد صلح الحديبية وهى الهجرة الثانية وقيل من بعد نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والاصح ان المراد به اهل الهجرة الثانية لانها بعد الهجرة الاولى لان الهجرة انقطعت بعد فتح مكة لانها صارت دار اسلام بعد الفتح ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية اخرجاه فى الصحيحين وقال الحسن الهجرة غير منقطعة ويجاب عن هذا بأن المراد منه الهجرة المخصوصة من مكة الى المدينة فأما من كان من المؤمنين فى بلد يخاف على اظهار دينه من كثرة الكفار وجب عليه ان يهاجر الى بلد لايخاف فيه على اظهار دينه * وقوله تعالى (فأولئك منكم) يعنى انهم منكم وانتم منهم لكن فيه دليل على ان مرتبة المهاجرين الاولين اشرف واعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لان الله سبحانه وتعالى الحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم منهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا ان المهاجرين الاولين افضل واشرف لما صح هذا الالحاق * وقوله تعالى (واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله) قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض اى فى الميراث فبين بهذه الآية ان سبب القرابة اقوى واولى من سبب الهجرة والاخاء ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث وقوله فى كتاب الله يعنى فى حكم الله وقيل اراد به فى اللوح المحفوظ وقيل اراد به القرآن وهى ان قسمة المواريث مذكورة فى سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وتمسك اصحاب الامام ابى حنيفة بهذه الآية فى توريث ذوى الارحام واجاب عنه الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه بانه لما قال فى كتاب الله كان معناه فى حكم الله الذى بينه فى سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالاحكام التى ذكرها فى سورة النساء من قسمة المواريث واعطاء اهل الفروض فروضهم وما بقى فللعصبات * وقوله سبحانه وتعالى (ان الله بكل شئ عليم) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم بكل شئ لايخفى عليه خافية والله اعلم بمراده واسرار كتابه

* (تفسير سورة التوبة) *

وهى مدنية باجماعهم قال ابن الجوزى سوى آيتين فى آخرها لقد جاءكم رسول من انفسكم فانهما نزلتا بمكة وهى مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون آية واربعة آلاف وثمان وسبعون كلمة وعشرة آلاف واربعمائة وثمان وثمانون حرفا ولهذه السورة اسماء عشرة سورة التوبة وسورة براءة وهذان الاسمان مشهوران وهى المقشقشة قاله ابن عمر سميت بذلك لانها تقشقش من النفاق اى تبرئ منه وهى المبعثرة لانها تبعثر عن اخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها والفاضحة قاله ابن عباس لانها فضحت المنافقين وسورة العذاب قاله حذيفة وهى المخزية لان فيها خزى المنافقين وهى المدمدمة سميت بذلك لان فيها هلاك المنافقين وهى المشردة سميت بذلك لانها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهى المثيرة سميت بذلك لانها اثارت مخازى المنافقين وكشفت عن احوالهم وهتكت استارهم عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة فقال بل هى الفاضحة مازالت تقول ومنهم ومنهم حتى ظنوا ان لايبقى احد الا ذكر

يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) اى كانوا اشقياء لم يبق فى استعدادهم خير فيريده الله منهم فلذلك كره انبعاثهم اى كانوا من الفريق الثانى من الاشقياء المردودين الذين من

فيها قال قلت سورة الانفال قال نزلت فى بدر قال قلت سورة الحشر قال بل سورة بنى النضير اخرجاه فى الصحيحين *(فصل فى بيان سبب ترك كتابة التسمية فى اول هذه السورة)* عن ابن عباس قال قلت لعثمان ما حملكم على ان عمدتم الى الانفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ما حملكم على ذلك قال عثمان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان اذا نزل عليه شئ دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا واذا نزلت عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية وكانت الانفال من الاوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت انها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها او من غيرها من اجل ذلك قرنت بينهما ولما كتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال اخرجه ابو داود و الترمذى وقال حديث حسن قال الزجاج والشبه الذى بينهما ان فى الانفال ذكر العهود وفى براءة نقضها وكان قتادة يقول هما سورة واحدة وقال محمد بن الحنفية قلت لابى يعنى على بن ابى طالب لم لم تكتبوا فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال يا بنى ان براءة نزلت بالسيف وان بسم الله الرحمن الرحيم امان وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال لان التسمية رحمة والرحمة امان وهذه السورة نزلت فى المنافقين وقال المبرد لم تفتتح هذه السورة الشريفة ببسم الله الرحمن الرحيم لان التسمية افتتاح للخير واول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتتح بالتسمية وسئل ابى بن كعب عن هذا فقال انها نزلت فى آخر القرآن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر فى كل سورة بكتابة بسم الله الراحمن الرحيم ولم يأمر فى براءة بذلك فضمت الى الانفال لشبهها بها وقيل ان الصحابة اختلفوا فى ان سورة الانفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة ام سورتان فقال بعضهم سورة واحدة لانهما نزلتا فى القتال ومجموعهما معا مائتان وخمس آيات فكانت هى السورة السابعة من السبع الطوال وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول انهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة اما التفسير فقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) يعنى هذه براءة من الله ورسوله واصل البراءة فى اللغة انقطاع العصمة يقال برئت من فلان ابرأ براءة اى انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علقة وقيل معناها التباعد مما تكره مجاورته قال المفسرون لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم وذلك قوله سبحانه وتعالى واما تخافن من قوم خيانة الآية ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امر به ونبذ اليهم عهودهم قال الزجاج اى قد برئ الله ورسوله من اعطائهم العهود والوفاء بها اذا نكثوا (الى الذين عاهدتم من المشركين) الخطاب مع اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وان كان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى عاهدهم وعاقدهم واصحابه بذلك راضون فكأنهم هم عقدوا وعاهدوا * وقوله سبحانه وتعالى (فسيحوا فى الارض) اى فسيروا فى الارض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين احدا من المشركين

ذكرهم غير مرة (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولاوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور حتى جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى الا فى الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك

واصل السياحة الضرب فى الارض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة قال ابن الانبارى قوله فسيحوا فيه مضمر اى قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الامر بل المقصود منه الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الامان وزوال الخوف يعنى سيحوا فى الارض وانتم آمنون من القتل والقتال (اربعة اشهر) يعنى مدة اربعة اشهر واختلف العلماء فى هذا التأجيل وفى هؤلاء الذين برئ الله ورسوله اليهم من العهود التى كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مجاهد هذا التأجيل من الله للمشركين فمن كانت مدة عهده اقل من اربعة اشهر رفعه الى اربعة اشهر ومن كانت مدته اكثر حطه الى اربعة اشهر ومن عهده بغير اجل معلوم محدود حده باربعة اشهر ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله يقتل حيث ادرك ويؤسر الا ان يتوب ويرجع الايمان وقيل ان المقصود من هذا التأجيل ان يتفكروا ويحتاطوا لانفسهم ويعلموا انه ليس لهم بعد هذه المدة الا الاسلام او القتل فيصير هذا داعيا لهم الى الدخول فى الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد وكان ابتداء هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر فأما من لم يكن له عهد فانما اجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوما وقال الزهرى الاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لان هذه الآية نزلت فى شوال والقول الاول اصوب وعليه الاكثرون وقال الكلبى انما كانت الاربعة اشهر عهد المن كان له عهد دون الاربعة اشهر فأتم له الاربعة اشهر فأما من كان عهده اكثر من اربعة اشهر فهذا امر باتمام عهده بقوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم وقيل كان ابتداؤها فى العاشر من ذى القعدة وآخرها العاشر من ربيع الاول لان الحج فى تلك السنة كان فى العاشر من ذى القعدة بسبب النسئ ثم صار فى السنة المقبلة فى العاشر من ذى الحجة وفيها حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الزمان قد استدار الحديث وقال الحسن امر الله عزوجل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين فقال تعالى قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم فكان لا يقاتل الا من قاتله ثم امره بقتال المشركين والبراءة منهم واجلهم اربعة اشهر فلم يكن لاحد منهم اجل اكثر من اربعة اشهر لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد وكان الاجل لجميعهم اربعة اشهر واحل دماء جميعهم من اهل العهود وغيرهم بعد انقضاء الاجل وقال محمد بن اسحق ومجاهد وغيرهما نزلت فى اهل مكة وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على ان يضعوا الحرب عشر سنين فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر فى عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم واعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال

لاهم انى ناشد محمدا * خلف ابينا وابيه الابلدا

كنت لنا ابا وكنا ولدا * ثمت اسلمنا ولم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصرا ابدا * وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا * فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا

ابيض مثل الشمس يسمو صعدا * ان سيم خسفا وجهه تربدا

ان قريشا اخلفوك الموعدا * ونقضوا ميثاقك المؤكدا

مصيبة يقولوا قد اخذنا امرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بأيدينا فتربصوا انا معكم متربصون قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما

وزعموا ان لست تنجي احدا * وهم اذل واقل عددا
هم بيتونا بالحطيم هجدا * وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانصرت ان لم انصركم وتجهز الى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فلما كانت سنة تسع اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحج فقيل له المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال لا احب ان احج حتى يكون ذلك فبعث ابابكر فى تلك السنة اميرا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه اربعين آية من سورة براءة ليقراها على اهل الموسم ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرا على الناس صدر براءة وامره ان يؤذن بمكة ومنى وعرفة ان قد برئت ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فرجع ابوبكر فقال يارسول الله بأبى انت وامى انزل فى شأنى شئ فقال لا ولكن لا ينبغى لاحد ان يبلغ هذا الا رجل من اهلى اما ترضى ياابابكر انك كنت معى فى الغار وانك معى على الحوض قال بلى يارسول الله فسار ابوبكر اميرا على الحاج وعلى بن ابى طالب يؤذن ببراءة فلما كان قبل التروية بيوم قام ابوبكر فخطب الناس وحدثهم فاقام للناس الحج والعرب فى تلك السنة على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية من امر الحج حتى اذا كان يوم النحر قام على بن ابى طالب رضى الله عنه فأذن فى الناس بالذى امر به وقرا عليهم اول سورة براءة وقال زيد بن تبيع سألنا عليا بأى شئ بعثت فى الحجة قال بعثت بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله اربعة اشهر ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا فى حج النبى صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (ق) عن ابى هريرة ان ابابكر بعثه فى الحجة التى امره رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع فى رهط يؤذنون فى الناس يوم النحر ان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفى رواية ثم اردف النبى صلى الله عليه وسلم بعلى بن ابى طالب فأمره ان يؤذن ببراءة قال ابوهريرة فأذن معنا فى اهل منى ببراءة ان لا يحج بالبيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفى رواية ويوم الحج الاكبر يوم النحر والحج الاكبر الحج وانما قيل الحج الاكبر من اجل قول الناس للعمرة الحج الاصغر قال فنبذ ابوبكر الى الناس فى ذلك فلم يحج فى العام القابل الذى حج فيه النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك وانزل الله فى العام الذى نبذ فيه ابوبكر الى المشركين ياايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله الاية

* (فصل) * قد يتوهم متوهم ان فى بعث على بن ابى طالب بقراءة اول براءة عزل ابى بكر عن الامارة وتفضيله عن ابى بكر وذلك جهل من هذا المتوهم ويدل على ان ابابكر لم يزل اميرا على الموسم فى تلك السنة اول حديث ابى هريرة المتقدم ان ابابكر بعثه فى رهط يؤذنون فى الناس الحديث وفى لفظ ابى داود والنسائى قال بعثنى ابوبكر فيمن يؤذن فى يوم النحر بمنى ان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فقوله بعثنى ابوبكر فيه دليل على ان ابابكر كان هو الامير على الناس وهو الذى اقام للناس حجهم وعلمهم مناسكهم واجاب العلماء عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ليؤذن فى الناس ببراءة بان عادة العرب جرت ان لا يتولى تقرير

فاسقين وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كفرون ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان اعطوا منها

العهد ونقضه الا سيد القبيلة وكبيرها اورجل من اقاربه وكان على بن ابى طالب اقرب الى النبى صلى الله عليه وسلم من ابى بكر لانه ابن عمه ومن رهطه فبعثه النبى صلى الله عليه وسلم ليؤذن عنه ببراءة ازاحة لهذه العلة لئلا يقولوا هذا على خلاف مانعرفه من عادتنا فى عقد العهود ونقضها وقيل لما خص ابابكر بتوليته على الموسم خص عليا بتبليغ هذه الرسالة تطييبا لقلبه ورعاية لجانبه وقيل انما بعث عليا فى هذه الرسالة حتى يصلى خلف ابى بكر ويكون جاريا مجرى التنبيه على امامة ابى بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لان النبى صلى الله عليه وسلم بعث ابابكر اميرا على الحاج وولاه الموسم وبعث عليا خلفه ليقرا على الناس براءة فكان ابوبكر الامام وعلى المؤتم وكان ابوبكر الخطيب وعلى المستمع وكان ابوبكر المتولى امر الموسم والامير على الناس ولم يكن ذلك لعلى فدل ذلك على تقديم ابى بكر على على وفضله عليه والله اعلم * وقوله تعالى (واعلموا انكم غير معجزى الله) يعنى ان هذا الامهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب وقيل معناه فسيحوا فى الارض اربعة اشهر عالمين انكم لاتعجزكم الله بل هو يعجزكم ويأخذكم لانكم فى ملكه وقبضته وتحت قهره وسلطانه وقيل معناه انما امهلكم هذه المدة لانه لايخاف الفوت ولا يعجزه شئ (وان الله مخزى الكافرين) يعنى بالقتل والعذاب فى الاخرة * قوله عزوجل (واذان من الله ورسوله) الاذان فى اللغة الاعلام ومنه الاذان للصلاة لانه اعلام بدخول وقتها والمعنى واعلام صادر من الله ورسوله واصل (الى الناس يوم الحج الاكبر) اختلفوا فى يوم الحج الاكبر فروى عكرمة عن ابن عباس انه يوم عرفة وروى ذلك عن ابن عمر وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وعن على بن ابى طالب قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الاكبر فقال يوم النحر اخرجه الترمذى وقال وروى موقوفا عليه وهو اصح وعن ابن عمران رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال اى يوم هذا فقالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر اخرجه ابوداود وروى ذلك عن عبدالله بن ابى اوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير والسدى وروى ابن جريج عن مجاهد ان يوم الحج الاكبر ايام منى كلها وكان سفيان الثورى يقول يوم الحج الاكبر ايام منى كلها لان اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقولك يوم صفين ويوم الجمل لان الحروب دامت فى تلك الايام ويطلق عليها يوم واحد وقال عبدالله بن الحرث بن نوفل يوم الحج الاكبر الذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن سيرين لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده فعظم ذلك اليوم عند المؤمنين والكافرين قال مجاهد الحج الاكبر القران لانه قرن بين الحج والعمرة وقال الزهرى والشعبى وعطاء الحج الاكبر الحج والحج الاصغر العمرة وانما قيل لها الاصغر لنقصان اعمالها عن الحج وقيل سمى الحج الاكبر لموافقة حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وذكر فى خطبته ان الزمان قد استدار وابطل النسئ وجميع احكام الجاهلية * قوله سبحانه وتعالى (ان الله برئ من المشركين ورسوله) فيه حذف والتقدير واذان من الله ورسوله بان الله برئ من المشركين وانما حذفت الباء لدلالة الكلام عليها وفى رفع رسوله وجوه الاول انه رفع بالابتداء وخبره مضمر والتقدير ان الله برئ من المشركين ورسوله

رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون انما الصدقات للفقراء والمسكين والعملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغرمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هواذن) كانوا يؤذونه ويغتابونه بسلامة القلب وسرعة القبول والتصديق لما يسمع فصدقهم فى ذلك وسلم وقال هو كذلك ولكن بالنسبة الى الخير فان النفس الابية والغليظة الجافية والكرة القاسية التى تصلب فى الامور ولا تتأثر غير

ايضا برئ الثاني تقديره برئ الله ورسوله من المشركين الثالث ان الله في محل الرفع بالابتداء
وبرئ خبره ورسوله عطف على المبتدا فان قلت لافرق بين قوله براءة من الله ورسوله الى الذين
عاهدتم من المشركين وبين قوله ان الله برئ من المشركين ورسوله فما فائدة هذا التكرار قلت المقصود
من الآية الاولى البراءة من العهد ومن الآية الثانية البراءة التي هي نقيض للموالاة الجارية مجرى
الزجر والوعيد والذي يدل على صحة هذا الفرق انه قال في اولها براءة من الله ورسوله الى يعني برئ
اليهم وفي الثانية برئ منهم * وقوله تعالى (فان تبتم) يعني فان رجعتم عن شرككم وكفركم
(فهو خير لكم) يعني من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله في التوبة والاقلاع عن الشرك
الموجب لدخول النار (وان توليتم) يعني اعرضتم عن الايمان والتوبة من الشرك (فاعلموا
انكم غير معجزي الله) فيه وعيد عظيم واعلام لهم بأن الله سبحانه وتعالى قادر على انزال العذاب
بهم وهو قوله تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب اليم) يعني في الآخرة ولفظ البشارة هنا انما ورد
على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب واكرامهم الشتم * قوله سبحانه وتعالى (الا الذين
عاهدتم من المشركين) هذا الاستثناء راجع الى قوله تعالى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم
من المشركين يعني الا من عهد الذين عاهدتم من المشركين وهم بنو ضمرة حي من كنانة امر الله
لرسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة اشهر وكان السبب فيه
انهم لم ينقضوا العهد وهو قوله تعالى (ثم لم ينقصوكم شيأ) يعني من عهودهم التي عاهدتموهم عليها
(ولم يظاهروا) يعني ولم يعاونوا (عليكم احدا) يعني من عدوكم وقال صاحب الكشاف وجهه
ان يكون مستثنى من قوله فسيحوا في الارض لان الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله
ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا في الارض الا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم
(فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) والاستثناء بمعنى الاستدراك كانه قيل لهم بعد ان امروا في الناكثين
لكن الذين لم ينكثوا فأتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر (ان الله
يحب المتقين) يعني ان قضية التقوى تقتضي ان لا يستوي بين القبيلتين يعني الوافي بالعهد والناكث
له والغادر فيه * قوله سبحانه وتعالى (فاذا انسلخ الاشهر الحرم) يعني فاذا انقضت الاشهر الحرم
ومضت وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقال مجاهد ومحمد بن اسحق هي شهور العهد
سميت حرما لحرمة نقض العهد فيها فمن كان له عهد فعهده اربعة اشهر ومن لا عهد له فاجله الى انقضاء
المحرم وذلك خمسون يوما وقيل انما قيل لها حرم لان الله سبحانه وتعالى حرم فيها على المؤمنين دماء
المشركين والتعرض لهم فان قلت على هذا القول هذه المدة وهي الخمسون يوما بعض الاشهر الحرم
والله سبحانه وتعالى قال فاذا انسلخ الاشهر الحرم قلت لما كان هذا القدر من الاشهر متصلا بما مضى
اطلق عليه اسم الجمع والمعنى فاذا مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الاشهر الحرم
(فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) يعني في الحل والحرم وهذا امر اطلاق يعني اقتلوهم في اي
وقت واي مكان وجدتموهم (وخذوهم) يعني واسروهم (واحصروهم) اي واحبسوهم
قال ابن عباس يريد ان تحصنوا فاحصروهم وامنعوهم من الخروج وقيل امنعوهم من دخول
مكة والتصرف في بلاد الاسلام (واقعدوا لهم كل مرصد) يعني على كل طريق والمرصد الموضع
الذي يقعد فيه للعدو من رصدت الشئ ارصده اذا ترقبته والمعنى كونوا لهم رصدا حتى تأخذوهم

(من)

مستعدة للكمال اذ الكمال
الانساني لا يكون الا
بالقبول والتأثر والانفعال
فكلما كانت النفس الين
عريكة واسلم قلبا واسهل
قبولا كانت اقبل للكمال
واشد استعدادا له وليس
هذا اللين هو من باب
الضعف والبلاهة الذي
يقتضي الانفعال من كل
ما يسمع حتى المحال والتأثر
من كل ما يرد عليه ويرا
جئ الكذب والشرور
والضلال بل هو من باب
اللطافة وسرعة القبول لما
يناسبه من الخير والصدق

من اى وجه توجهوا وقيل معناه اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لايدخلوها (فان تابوا) يعنى من الشرك ورجعوا الى الايمان (واقاموا الصلاة) يعنى واتموا اركان الصلاة المفروضة (وآتوا الزكوة) الواجبة عليهم طيبة بها انفسهم (فخلوا سبيلهم) يعنى الى الدخول الى مكة والتصرف فى بلادهم (ان الله غفور) يعنى لمن تاب ورجع من الشرك الى الايمان ومن المعصية الى الطاعة (رحيم) يعنى باوليائه واهل طاعته وقال الحسن بن الفضل نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على اذى الاعداء * قوله تعالى (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) يعنى وان استأمنك يا محمد احد من المشركين الذين امرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم ليسمع كلام الله الذى انزل عليك وهو القرآن فأجره حتى يسمع كلام الله ويعرف ماله من الثواب ان آمن وما عليه من العقاب ان اصر على الكفر (ثم ابلغه مأمنه) يعنى ان لم يسلم ابلغه الى الموضع الذى يأمن فيه وهو دار قومه وان قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله (ذلك بانهم قوم لايعلمون) اى لايعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون الى سماع كلام الله عز وجل قال الحسن هذه الآية محكمة الى يوم القيامة (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) هذا على وجه التعجب ومعناه الجحد اى لايكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى (الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم اهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وقال السدى ومحمد بن عباد ومحمد بن اسحق هم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو الديل قبائل من بنى بكر كانوا دخلوا فى عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية وقال مجاهد هم اهل العهد من خزاعة (فما استقاموا لكم) يعنى على العهد (فاستقيموا لهم) يعنى ما اقاموا على العهد ثم انهم لم يستقيموا ونقضوا العهد واعانوا بنى بكر على خزاعة فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح اربعة اشهر يختارون من امرهم اما ان يسلموا واما ان يلحقوا بأى بلاد شاؤا فأسلموا بعد الاربعة الاشهر والصواب من ذلك قول من قال انهم قبائل من بنى بكر وهم خزيمة وبنو مدلج من ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا فى عهد قريش يوم الحديبية ولم يكن نقض العهد الا قريش وبنو الديل من بنى بكر فأمر باتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وانما كانوا الصواب هذا القول لان هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وذلك قبل فتح مكة لان بعد الفتح كيف يقول لشئ قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وانما هم الذين قال الله عز وجل فيهم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ كما نقصكم قريش ولم يظاهروا عليكم احدا كما ظاهرت قريش بنى بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم * وقوله تعالى (ان الله يحب المتقين) يعنى انه سبحانه وتعالى يحب الذين يوفون بالعهد اذا عاهدوا ويتقون نقضه (كيف وان يظهروا عليكم) قيل هذا مردود على الآية الاولى تقديره كيف يكون لهم عهد وان يظهروا عليكم (لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة) وقال الاخفش معناه كيف لاتقتلونهم وهم ان يظهروا عليكم اى يظفروا بكم ويغلبوكم ويعلو عليكم لا يرقبوا اى لايحفظوا وقيل معناه لاينتظروا وقيل معناه لايراعوا فيكم الا قال ابن عباس يعنى قرابة وقيل رحما وهذا معنى قول ابن عباس ايضا وقال قتادة الال الحلف وقال السدى هو العهد وكذلك الذمة وانما كرر للتأكيد او لاختلاف اللفظين وقال ابو مجلز

فلذلك قال (قل اذن خير) اذ صفاء الاستعداد ولطف النفس يوجب قبول ما يناسبه من باب الخيرات لاما ينافيها من باب الشرور فان الاستعداد الخيرى لايقبل الشر ولا يتأثر به ولا ينطبع فيه لمنافاته اياه وبعده عنه (لكم) اى يسمع ماينفعكم ومافيه صلاحكم دون غيره (يؤمن بالله) هو بيان لينه وقابليته لان الايمان لايكون الامع سلامة القلب ولطافة النفس ولينها (ويؤمن للمؤمنين) يصدق قولهم فى الخيرات

وبجاهد الالّ هو الله عزوجل ومنه قول ابى بكر الصديق رضى الله عنه لما سمع كلام مسيلمة الكذاب ان هذا الكلام لم يخرج من ال يعنى من الله وعلى هذا القول يكون معنى الآية لا يرقبون الله فيكم ولا يحفظونه ولا يراعونه ولا ذمة يعنى ولا يحفظون عهدا (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم) يعنى يطيعونكم بالسنتهم بخلاف مافى قلوبهم (واكثرهم فاسقون) فان قلت ان الموصوفين بهذه الصفة كفار والكفر اخبث واقبح من الفسق فكيف وصفهم بالفسق فى معرض الذم وما الفائدة فى قوله واكثرهم فاسقون مع ان الكفار كلهم فاسقون قلت قد يكون الكافر عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا خبيث الفسق فى دينه فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين انهم نقضوا العهد وبالغوا فى العدواة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم فيكون ابلغ فى الذم وانما قال اكثرهم ولم يقل كلهم فاسقون لان منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه واكثرهم نقضوا العهد فلهذا قال سبحانه وتعالى واكثرهم فاسقون * وقوله تعالى (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى استبدلوا بآيات القرآن والايمان بها عرضا قليلا من متاع الدنيا وذلك انهم نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب اكلة اطعمهم اياها ابو سفيان بن حرب فذمهم الله بذلك قال مجاهد اطعم ابو سفيان حلفاءه وترك حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (فصدوا عن سبيله) يعنى منعوا الناس عن الدخول فى دين الله قال ابن عباس وذلك ان اهل الطائف امدوهم بالاموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (انهم ساء ماكانوا يعملون) يعنى من الشرك ونقضهم العهد ومنعهم الناس عن الدخول فى دين الاسلام (لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة) يعنى ان هؤلاء المشركين لا يراعون فى مؤمن عهدا ولا ذمة اذا قدروا عليه قتلوه فلا تبقوا انتم عليهم كما لم يبقوا عليكم اذا ظهروا عليكم (واولئك هم المعتدون) يعنى فى نقض العهد * قوله عزوجل (فان تابوا) يعنى فان رجعوا عن الشرك الى الايمان وعن نقض العهد الى الوفاء به (واقاموا الصلوة) يعنى المفروضة عليهم بجميع حدودها واركانها (وآتوا الزكوة) يعنى وبذلوا الزكاة المفروضة عليهم طيبة بها انفسهم (فاخوانكم فى الدين) يعنى اذا فعلوا ذلك فهم اخوانكم فى الدين لهم مالكم وعليهم ماعليكم (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى ونبين حجج ادلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه قال ابن عباس حرمت هذه الآية دماء اهل القبلة وقال ابن مسعود امرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما وابى ان يقبل الصلاة الا بالزكاة وقال رحم الله ابابكر ماكان افقهه يعنى بذلك ماذكره ابوبكر فى حق من منع الزكاة وهو قوله والله لا افرق بين شيئين جمع الله بينهما يعنى الصلاة والزكاة (ق) عن ابى هريرة قال لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم واستخلف ابوبكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لابى بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله عزوجل فقال ابوبكر والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها وفى رواية عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها فقال عمر فوالله ماهو الا ان رأيت ان الله

ويسمع كلامهم فيها ويقبله (ورحمة للذين آمنوا منكم) يعطف عليهم ويرق لهم فينجيهم من العذاب بالتزكية والتعليم ويصلح امر معاشهم ومعادهم بالبر والصلة وتعليم الاخلاق من الحلم والشفقة والامر بالمعروف باتباعهم اياه فيها ووضع الشرائع الموجبة لنظام امرهم فى الدارين والتحريض على ابواب البر بالقول والفعل وغير ذلك (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله احق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالدا فيها

شرح صدر ابي بكر للقتال فعرفت انه الحق عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله ❊ وقوله سبحانه وتعالى (وان نكثوا ايمانهم) يعنى وان نقضوا عهودهم (من بعد عهدهم) يعنى من بعد ماعاهدوكم عليه ان لايقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم احدا من اعدائكم (وطعنوا فى دينكم) يعنى وعابوا دينكم الذى انتم عليه وقدحوا فيه وثلبوه وفى هذا دليل على ان الذمى اذا طعن فى دين الاسلام وعابه ظاهرا لايبقى له عهد والمراد بهؤلاء الذين نقضوا العهد كفار قريش وهو قوله تعالى (فقاتلوا ائمة الكفر) يعنى رؤس المشركين وقادتهم قال ابن عباس نزلت فى ابى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وابى جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهدهم وهموا باخراج الرسول وقيل اراد جميع الكفار وانما ذكر الائمة لانهم الرؤساء والقادة ففى قتالهم قتال الاتباع وقال مجاهد هم فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان ماقوتل اهل هذه الآية بعد ولم يأت اهلها ولعل حذيفة اراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود فانهم ائمة الكفر فى ذلك الزمان والله اعلم بمراده ❊ وقوله سبحانه وتعالى (انهم لاايمان لهم) جمع يمين اى لاعهد لهم وقيل معناه انهم لاوفاء لهم بالعهود وقرئ لاايمان لهم بكسر الهمزة ومعناه لادين لهم ولاتصديق وقيل هو من الامان اى اقتلوهم حيث وجدتموهم ولاتؤمنوهم (لعلهم ينتهون) اى لكى ينتهوا عن الطعن فى دينكم ويرجعوا عن الكفر الى الايمان ثم حض المؤمنين على جهاد الكفار وبين السبب فى ذلك فقال تعالى (الاتقاتلون قوما نكثوا ايمانهم) يعنى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية واعانوا بنى بكر على خزاعة (وهموا باخراج الرسول) يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة (وهم بدؤكم) يعنى بالقتال (اول مرة) يعنى يوم بدر وذلك انهم قالوا لانتصرف حتى نستأصل محمدا واصحابه وقيل اراد به انهم بدؤا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتخشونهم) يعنى أتخافونهم ايها المؤمنون فتتركون قتالهم (فالله احق ان تخشوه) يعنى فى ترك القتال (ان كنتم مؤمنين) يعنى ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده ❊ قوله سبحانه وتعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) يريد بالتعذيب القتل يعنى يقتلهم الله بأيديكم فان قلت كيف الجمع بين قوله يعذبهم الله بأيديكم وبين قوله وماكان الله ليعذبهم وانت فيهم قلت المراد بقوله وماكان الله ليعذبهم وانت فيهم عذاب الاستئصال يعنى وماكان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعا وانت فيهم والمراد بقوله قاتلوهم يعنى الذين نقضوا العهد وبدؤا بالقتال فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال من قاتلهم اونقض عهدهم والفرق بين العذابين ان عذاب الاستئصال يتعدى الى المذنب وغير المذنب والى المخالف والموافق وعذاب القتل لايتعدى الا الى المذنب المخالف ❊ وقوله تعالى (ويخزهم) يعنى ويذلهم بالقهر والاسر وينزل بهم الذل والهوان (وينصركم عليهم) يعنى بان يظفركم بهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعنى ويبرئ داء قلوبهم مما كانوا ينالونه من الاذى منهم ومن المعلوم ان من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه فانه يفرح بذلك ويعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة اليقين وثبات العزيمة قال مجاهد والسدى اراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث اعانت قريش بنى بكر على خزاعة حتى قتلوا منهم

ذلك الخزى العظيم يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا ان الله مخرج ماتحذرون ولئن سئلتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل ابالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لاتعتذروا قدكفرتم بعد ايمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين

ثم شفى الله صدور خزاعة من بكر حتى اخذوا ثارهم منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه (ويذهب غيظ قلوبهم) يعني ويذهب وجد قلوبهم بما نالوه من بكر روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة ارفعوا السيف الاخزاعة من بني بكر الى العصر ذكره البغوي بغير سند ❊ ثم قال تعالى (ويتوب الله على من يشاء) هذا كلام مستأنف ليس له تعلق بالاول والمعنى ويهدى الله من يشاء الى الاسلام فيمن عليه بالتوبة من الشرك والكفر ويهديه الى الاسلام كما فعل بابي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فاسلموا (والله عليم) يعني بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الازلية بالسعادة فيتوب عليه ويهديه الى الاسلام (حكيم) يعني في جميع افعاله ❊ قوله عز وجل (ام حسبتم ان تتركوا) هذا من الاستفهام المعترض في وسط الكلام ولذلك ادخلت فيه ام لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدا والمعنى اظننتم ايها المؤمنون ان تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) اراد بالعلم المعلوم لان وجود الشيء يلزمه معلوم الوجود عند الله لاجرم جعل علم الله بوجوده كناية عن وجوده قاله الامام فخر الدين الرازي ونقل الواحدي عن الزجاج اى العلم الذي يجازى عليه لانه انما يجازى على ماعملوا (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون اليهم اسرارهم وقال قتادة وليجة يعني خيانة وقال الضحاك خديعة وقال عطاء اولياء يعني لاتتخذوا المشركين اولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين وقال ابو عبيدة كل شيء ادخلته في شيء ليس منه فهو وليجة والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة من الولوج فوليجة الرجل من يختصه بدخيله امره دون الناس وقال الراغب الوليجة كل مايتخذه الانسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة في القوم اذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهي المؤمنين عن موالاة المشركين وان يفشوا اليهم اسرارهم (والله خبير بما تعملون) يعني من موالاة المشركين واخلاص العمل لله وحده ❊ قوله سبحانه وتعالى (ما كان للمشركين ان يعمروا مسجد الله) يعني به المسجد الحرام وقرئ مساجد الله على الجمع والمراد به المسجد الحرام ايضا وانما ذكره بلفظ الجمع لانه قبلة المساجد كلها وسبب نزول هذه الآية ان جماعة من رؤساء كفار قريش اسروا يوم بدر ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل عليهم نفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيرونهم بالشرك وجعل علي بن ابي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقيل له وهل لكم من محاسن قال نعم نحن افضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني يعني الاسير فنزلت هذه الآية ما كان للمشركين اى ماينبغي للمشركين ان يعمروا مساجد الله اوجب الله على المسلمين منعهم من ذلك لان المساجد انما تعمر لعبادة الله تعالى وحده فمن كان كافرا بالله فليس له ان يعمر مساجد الله واختلفوا في المراد بالعمارة على قولين احدهما ان المراد بالعمارة العمارة المعروفة من بناء المساجد وتشييدها ومرمتها عند خرابها فيمنع منه الكافر حتى لو اوصى ببناء مسجد لم تقبل وصيته والقول الثاني ان المراد بالعمارة دخول المسجد والقعود فيه

هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة واكثر اموالا واولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك هم الخسرون الم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب مدين والمؤتفكات اتتهم

فيه الكافر من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذن لم يعزر ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سوارى المسجد وهو كافر والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها ❊ وقوله تعالى (شاهدين على انفسهم بالكفر) يعنى لايدخلون المساجد فى حال كونهم شاهدين وقيل تقديره وهم شاهدون فلما حذفت وهم نصب وقال ابن عباس شهادتهم على انفسهم بالكفر سجودهم للاصنام وذلك ان كفار قريش كانوا قد نصبوا اصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للاصنام فلم يزدادوا بذلك من الله الا بعدا وقال الحسن انهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم بالكفر وقال السدى شهادتهم على انفسهم بالكفر هو ان النصرانى يسئل من انت فيقول نصرانى واليهودى يقول يهودى والمشرك يقول مشرك وقال ابن عباس فى رواية عنه شاهدين على رسولهم بالكفر لانه من انفسهم (اولئك حبطت اعمالهم) يعنى الاعمال التى عملوها فى حال الكفر من اعمال البر مثل قرى الضيف وسقى الحاج وفك العانى لانها لم تكن لله فلم يكن لها تأثير مع الكفر (وفى النار هم خالدون) يعنى من مات منهم على كفره ❊ وقوله عز وجل (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) لما بين الله عز وجل ان الكافر ليس له ان يعمر مساجد الله بين فى هذه الآية من هو المستحق لعمارة المساجد وهو من آمن بالله فان الايمان بالله شرط فمن يعمر المسجد لان المسجد عبارة عن الموضع الذى يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمنا بالله امتنع ان يعمر موضعا يعبد الله فيه واليوم الآخر يعنى وآمن باليوم الآخر وانه حق كائن لان عمارة المسجد لاجل عبادة الله وجزاء اجره انما يكون فى الآخرة فمن انكر الآخرة لم يعبد الله ولم يعمر له مسجدا فان قلت لم لم يذكر الايمان برسول الله مع ان الايمان به شرط فى صحة الايمان قلت ان الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم داخل فى الايمان بالله فان من آمن بالله واليوم الآخر فقد آمن برسول الله لان من جهته عرف الايمان بالله واليوم الآخر لانه هو الداعى الى ذلك وقيل ان المشركين كانوا يقولون ان محمدا انما ادعى النبوة طلبا للرياسة والملك فاخبر الله عز وجل ان محمدا صلى الله عليه وسلم انما دعا الى الايمان بالله واليوم الآخر لا لطلب الرياسة والملك فلذلك قال سبحانه وتعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وترك ذكر الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انه تبارك وتعالى قال بعد الايمان بالله واليوم الآخر (واقام الصلوة وآتى الزكوة) وكان ذلك مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن اقام الصلاة وآتى الزكاة فقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم ان الاعتبار باقامة الصلاة وايتاء الزكاة فى عمارة المساجد ان الانسان اذا عمر المسجد اقام الصلاة وآتى الزكاة لان عمارة المسجد انما تلزم لاقامة الصلاة فيه ولايشتغل بعمارة المسجد الا اذا كان مؤديا للزكاة لان الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة ولايشتغل الانسان بالنافلة الا بعد اكمال الفريضة الواجبة عليه ❊ وقوله تعالى (ولم يخش الا الله) يعنى ولم يخف فى الدين غير الله ولم يترك امر الله لخشية الناس (فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين) وعسى من الله واجب يعنى واولئك هم المهتدون المتمسكون بطاعة الله التى تؤدى الى الجنة عن ابى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم الرجل يعتاد

رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) وهى جنات النفوس (ومساكن طيبة فى جنات عدن

المساجد فاشهدوا له بالايمان فان الله عز وجل يقول انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية اخرجه الترمذى وقال حديث حسن (ق) عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من غدا الى المسجد اوراح اعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا اوراح النزل مايهيأ للضيف عند نزوله بالقوم (ق) عن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه الله تعالى بنى الله له بيتا فى الجنة وفى رواية بنى الله له فى الجنة مثله وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان اوكبيرا بنى الله له بيتا فى الجنة اخرجه الترمذى عن عمرو بن عبسة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا ليذكر الله فيه بنى الله له بيتا فى الجنة اخرجه النسائى * قوله سبحانه وتعالى (اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) الآية (م) عن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما ابالى ان لا اعمل عملا بعد الاسلام الا ان اعمر المسجد الحرام وقال الآخر الجهاد فى سبيل الله افضل مما قلتم فزجرهم عمر وقال لاترفعوا اصواتكم عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فانزل الله عز وجل اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الى آخرها وقيل قال العباس حين اسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج فانزل الله هذه الآية واخبران عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لاينفعهم مع الشرك بالله وان الايمان والجهاد مع النبى خير مما هم عليه وقال الحسن والشعبى ومحمد بن كعب القرظى نزلت فى على بن ابى طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن ابى شيبة افتخروا فقال طلحة انا صاحب البيت بيدى مفاتيحه وقال العباس وانا صاحب السقاية والقيام عليها وقال على ما ادرى ماتقولون لقد صليت الى القبلة ستة اشهر قبل الناس وانا صاحب الجهاد فانزل الله هذه الآية اجعلتم سقاية الحاج والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهى سقى الحاج وكان العباس بن عبد المطلب بيده سقاية الحاج وكان يليها فى الجاهلية فلما جاء الاسلام واسلم العباس اقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وعمارة المسجد الحرام يعنى بناءه وتشييده ومرمته (كمن آمن بالله واليوم الآخر) فيه حذف تقديره كايمان من آمن بالله واليوم الآخر (وجاهد فى سبيل الله) اى وكجهاد من جاهد فى سبيل الله وقيل السقاية والعمارة بمعنى الساقى والعامر تقديره اجعلتم ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله (لايستوون عند الله) يعنى لايستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره لان الله سبحانه وتعالى لايقبل عملا الامع الايمان به (والله لايهدى القوم الظالمين) (خ) عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى السقاية فاستسقى فقال العباس يافضل اذهب الى امك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال اسقنى فقال يارسول الله انهم يجعلون ايديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم اتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح ثم قال لولا ان تغلبوا لنزلت حتى اضع الحبل على هذا يعنى عاتقه (م) عن بكر بن عبد الله المزنى قال كنت جالسا مع ابن عباس

ورضوان من الله اكبر) مقامات ارباب التوكل فى جنات الافعال بدليل قوله تعالى ورضوان من الله اكبر فان الرضوان من جنات الصفات (ذلك) اى الرضوان (هو الفوز العظيم يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد

عندالكعبة فاتاه اعرابى فقال مالى ارى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وانتم تسقون النبيذامن حاجة بكم ام من بخل فقال ابن عباس الحمدلله مابنا من حاجة ولابخل انماقدم النبى صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه اسامة فاستسقى فاتيناه باناء من نبيذ فشرب وسقى فضله اسامة فقال احسنتم اواجملتم كذا فاصنعوا فلانريد تغييرما امربه رسول الله صلى الله عليه وسلم النبيذ تمر ينقع فى الماء غدوة ويشرب عشاء اوينقع عشاء ويشرب غدوة وهذاحلال فانغلى وحمض حرم ❊ قوله عزوجل (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عندالله) يعنى من كان موصوفابهذه الصفات يعنى الايمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس كان اعظم درجة عندالله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام وانمالم يذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الاطلاق على من سواهم والمراد بالدرجة المنزلة والرفعة عندالله فى الآخرة (واولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم الفائزون) يعنى بسعادة الدنياوالآخرة (يبشرهم ربهم) يعنى يخبرهم ربهم والبشارة الخبر السار الذى يفرح الانسان عند سماعه وتستنير بشرة وجهه عند سماعه ذلك الخبر السار ❊ ثم ذكر الخبر الذى يبشرهم به فقال تعالى (برحمة منه ورضوان) وهذا اعظم البشارات لان الرحمة والرضوان من الله عزوجل على العبد نهاية مقصوده (وجنات لهم فيهانعيم مقيم) يعنى ان نعيم الجنة دائم غير منقطع ابدا (خالدين فيها) يعنى فى الجنان وفى النعيم (ابدا) يعنى لاانقطاع له (ان الله عنده اجر عظيم) يعنى لمن عمل بطاعته وجاهد فى سبيله ❊ قوله سبحانه وتعالى (ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء) قال مجاهد هذه الآية متصلة بماقبلها نزلت فى قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لماامر النبى صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة الى المدينة فنهم من تعلق به اهله واولاده يقولون ننشدك الله ان لاتضيعنا فيرق لهم عليهم ويدع الهجرة فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وانزل ياايها الذين امنوا لاتتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء يعنى بطانة واصدقاء تفشون اليهم اسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة قال بعضهم حمل هذه الآية على ترك الهجرة مشكل لان هذه السورة نزلت بعد الفتح وهى من آخر القرآن نزولا والاقرب ان يقال ان الله سبحانه وتعالى لماامر المؤمنين بالتبرى من المشركين قالوا كيف يمكن ان يقاطع الرجل اباه واخاه وابنه فذكر الله ان مقاطعة الرجل اهله واقاربه فى الدين واجبة فالمؤمن لايوالى الكافر وان كان اباه واخاه وابنه وهو قوله تعالى (ان استحبوا الكفر على الايمان) يعنى ان اختاروا الكفر واقاموا عليه وتركوا الايمان بالله ورسوله (ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون) يعنى ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فقد ظلم نفسه بمخالفة امر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت هذه الآية قال الذين اسلموا ولم يهاجروا ان نحن هاجرنا ضاعت اموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا ارحامنا فانزل الله سبحانه وتعالى (قل) اى قل يامحمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم) وقرئ على الجمع وعشيراتكم العشيرة هم الادنون من اهل الانسان الذين يعاشرونه دون غيرهم (واموال اقترفتموها) يعنى اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) يعنى بفراقكم لها (ومساكن ترضونها) يعنى تستوطنونها راضين بسكناها (احب اليكم من الله ورسوله) يعنى احب اليكم من الهجرة

الى الله ورسوله (وجهاد فى سبيله) فبين الله سبحانه وتعالى انه يجب تحمل جميع المضار فى الدنيا ليبقى
الدين سليما واخبر انه ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم اولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن
المجاهدة فى سبيل الله (فتربصوا) اى فانتظروا (حتى ياتى الله بامره) يعنى بقضائه وهذا امر تهديد
وتخويف وقال مجاهد ومقاتل يعنى بفتح مكة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) يعنى الخارجين
عن طاعته وفى هذا دليل على انه اذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم
ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا * قوله عز وجل (لقد نصركم الله) النصر المعونة على الاعداء
باظهار المسلمين عليهم (فى مواطن كثيرة) يعنى اماكن كثيرة والمراد بها غزوات رسول الله صلى الله عليه
وسلم وسراياه وبعوثه وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماذكر فى الصحيحين
من حديث زيد بن ارقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة فى حديثه قاتل فى ثمان منهن ويقال ان جميع غزواته
وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون وهو قوله تعالى لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة (ويوم
حنين) يعنى ونصركم الله فى يوم حنين ايضا فاعلم الله سبحانه وتعالى انه هو الذى يتولى نصر المؤمنين
فى كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له وحنين اسم واد قريب من الطائف بينه
وبين مكة بضعة عشر ميلا وقال عروة هو الى جنب ذى المجاز وكانت قصة حنين على مانقله الرواة
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وقد بقيت عليه ايام من شهر رمضان فخرج الى حنين
لقتال هوازن وثقيف فى اثنى عشر الفا عشرة آلاف من المهاجرين والانصار والفان من الطلقاء وقال
عطاء كانوا ستة عشر الفا وقال الكلبى كانوا عشرة الاف وكانوا يومئذ اكثر ما كانوا قط وكان المشركون
اربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النصرى وعلى ثقيف كنانة
بن عبد ياليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الانصار يقال له سلمة بن سلامة بن رقيش لن
نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا الى كلمة الرجل وفى
رواية فلم يرض الله قوله ووكلهم الى انفسهم وذكر ابن الجوزى عن سعيد بن المسيب ان القائل
لذلك ابوبكر الصديق وحكى ابن جرير الطبرى ان القائل لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم
واسناد هذه الكلمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بعد لانه صلى الله عليه وسلم كان فى جميع
احواله متوكلا على الله عز وجل لا يلتفت الى كثرة عدد ولا الى غيره بل نظره الى ما يأتى من عند الله
عز وجل من النصر والمعونة قالوا فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن
الذرارى ثم نادوا يا حماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون وقال قتادة ذكر لنا
ان الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا (ق) عن ابى اسحق قال جاء رجل الى البراء
فقال اكنتم وليتم يوم حنين يا ابا عمارة فقال اشهد على نبى الله صلى الله عليه وسلم ما ولى ولكنه انطلق
اخفاء من الناس حسرا الى هذا الحى من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كانها رجل
من جراد فانكشفوا فاقبل القوم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو سفيان بن الحرث يقود به
بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول انا النبى لا كذب انا ابن عبد المطلب اللهم انزل نصرك زاد
ابو خيثمة ثم صفهم قال البراء كنا والله اذا احمر البأس نتقى به وان الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى
النبى صلى الله عليه وسلم ولمسلم عن ابى اسحق قال قال رجل للبراء بن عازب يا ابا عمارة فررتم يوم حنين
قال لا والله ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه خرج شبان اصحابه واخفاؤهم حسرا ليس

عليهم سلاح اوكثير سلاح فلقوا قومارماة لايكاديسقط لهم سهم جمع هوازن وبنى نصر فرشقوهم رشقا مايكادون يخطؤن فأقبلوا هناك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء وابوسفيان بن الحرث بن عبد المطلب يقودبه فنزل ودعا واستنصر وقال انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب ثم صفهم وروى شعبة عن ابى اسحق قال قال البراء ان هوازن كانوا قومارماة ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فاقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر قوله ولكنه انطلق اخفاء من الناس الاخفاء جمع خفيف وهم المسرعون من الناس الذين ليس لهم مايعوقهم والحسر جمع حاسر وهو الذى لادرع عليه يقال اذارمى القوم باسرهم الى جهة واحدة رمينا رشقا والرجل من الجراد القطعة الكبيرة منه وقوله كنا اذا احمر البأس يعنى اذا اشتد الحرب والبأس بالموحدة من تحت الشدة والخوف وقال الكلبي كان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وقال غيره لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ غير عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه ابو سفيان بن الحرث وايمن ابن ام ايمن قتل يوم حنين بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ايمن اخو اسامة بن زيد لامه امهما بركة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته (م) عن العباس بن عبد المطلب قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت انا وابو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء اهداها له فروة بن نفاثة الجذامى فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وانا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم اكفها ارادة ان لاتسرع وابو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اى عباس ناد اصحاب السمرة فقال العباس وكان رجلا صيتا فقلت باعلى صوتى اين اصحاب السمرة قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على اولادها فقالوا لبيك لبيك قال فاقتتلوا والكفار والدعوة فى الانصار يقولون يامعشر الانصار يامعشر الانصار قال ثم قصرت الدعوة على بنى الحرث بن الخزرج فقالوا يابنى الحرث بن الخزرج يابنى الحرث بن الخزرج فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها الى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حين حمى الوطيس قال ثم اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد قال فذهبت انظر فاذا القتال على هيئته فيما ارى قال فوالله ماهو الا ان رماهم بحصياته فمازلت ارى حدهم كليلا وامرهم مدبرا قوله حمى الوطيس اى اشتد الحرب قال الخطابى هذه الكلمة لم تسمع قبل ان يقولها النبي صلى الله عليه وسلم من العرب وهى مما اقتضبه وانشأه والوطيس فى اللغة التنور وقوله حدهم كليلا يعنى لايقطع شيأ (م) عن سلمة بن الاكوع قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا قال فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب الارض ثم استقبل به وجوههم وقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم انسانا الا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله بذلك وقسم رسول الله غنائمهم بين المسلمين اخرجه مسلم بزيادة فيه قال سعيد بن جبير امد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وروى ان رجلا من بنى نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال اين الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا

نراهم فيكم الا كهيئة الشامة وما كان قتلنا الا بأيديهم فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
تلك الملائكة وروى ان رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا واصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب
شاة ان كشفناهم فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا الى صاحب البغلة البيضاء فاذا هو رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه
ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا اكتافنا فكانت اياها واختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم حنين على
قولين والصحيح انها لم تقاتل الا يوم بدر وانما كانت الملائكة يوم حنين مددا وعونا وذكر البغوى
ان الزهرى قال بلغنى ان شيبة بن عثمان قال استدبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وانا
اريد قتله بطلحة بن عثمان بن ابى طلحة وكانا قد قتلا يوم احد فاطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على
ما فى نفسى فالتفت الى وضرب فى صدرى وقال اعيذك بالله يا شيبة فارعدت فرائصى فنظرت
اليه وهو احب الى من سمعى وبصرى فقلت اشهد انك رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اطلعك الله
على ما فى نفسى فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا حتى اتوا اوطاس وبها عيالهم واموالهم
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الاشعريين يقال له ابو عامر وامره على الجيش فسار
الى اوطاس فاقتتلوا بها وقتل دريد بن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيال المشركين
وهرب اميرهم مالك بن عوف النصرى فأتى الطائف فتحصن بها واخذ ماله واهله فيمن اخذ وقتل
ابو عامر امير المسلمين قال الزهرى اخبرنى سعيد بن المسيب انهم اصابوا يومئذ ستة آلاف صبى ثم ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم اتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر
حرام انصرف عنهم واتى الجعرانة فأحرم منهم بعمرة وقسم بها غنائم حنين واوطاس وتألف اناسا
منهم ابو سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو والاقرع بن حابس فأعطاهم (ق)
عن انس بن مالك ان ناسا من الانصار قالوا يوم حنين حين افاء الله على رسوله من اموال هوازن
ما افاء فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى رجالا من قريش المائة من الابل فقالوا يغفر الله
لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال انس فحدث بذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم فأرسل الى الانصار فجمعهم فى قبة من آدم ولم يدع معهم
غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حديث بلغنى عنكم فقال له فقهاء الانصار
اما ذو ورأينا يا رسول الله لم يقولوا شيأ واما اناس منا حديثة اسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى
قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانى اعطى رجالا حديثى
عهد بكفر اتألفهم افلا ترضون ان تذهب الناس بالاموال وترجعوا الى رحالكم برسول الله
صلى الله عليه وسلم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يا رسول الله قد رضينا قال فانكم
ستجدون بعدى اثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض قالوا سنصبر زاد فى رواية
قال انس فلم نصبر (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما افاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم
يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الانصار شيأ فكأنهم وجدوا اذ لم يصبهم ما اصاب
الناس فخطبهم فقال يا معشر الانصار الم اجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فالفكم الله
بى وعالة فأغناكم الله بى كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله امن قال فما منعكم ان تجيبوا رسول الله كلما
قال شيأ قالوا الله ورسوله امن قال لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا اترضون ان تذهب الناس بالشاة

وتذهبوا بالنبي الى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الانصار وشعبهم الانصار شعار والناس دثار (م) عن رافع بن خديج قال اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اباسفيان بن حرب وصفوان بن امية وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس كل انسان مائة من الابل واعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس

اتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والاقرع

فما كان حصن ولا حابس * يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن يخفض اليوم لا يرفع

قال فاتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة (خ) عن المسور ومروان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه ان يرد عليهم مالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان معي من ترون واحب الحديث الى اصدقه فاختاروا احدى الطائفتين اما المال واما السبي وقد كنت استأنيت بكم وفي رواية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راد عليهم الا احدى الطائفتين قالوا انا نختار سبينا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فاثنى على الله بما هو اهله ثم قال اما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاؤا تائبين واني قد رأيت ان ارد اليهم سبيهم فمن احب منكم ان يطيب ذلك لهم فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك لهم يارسول الله فقال لهم في ذلك انا لاندري من اذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم امركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه انهم قد طيبوا واذنوا فهذا الذي بلغنا من سبي هوازن وانزل الله عز وجل في قصة حنين لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين (اذا عجبتكم كثرتكم) يعني حين قلتم لن نغلب اليوم من قلة (فلم تغن عنكم) يعني كثرتكم (شيأ) يعني ان الظفر بالعدو ليس بكثرة العدد ولكن انما يكون بنصر الله ومعونته (وضاقت عليكم الارض بما رحبت) يعني بسعتها وفضائها (ثم وليتم مدبرين) يعني منهزمين (ثم انزل الله سكينته) يعني بعد الهزيمة والسكينة الطمأنينة والامنة وهي فعيلة من السكون وذلك ان الانسان اذا خاف رجف فؤاده فلا يزال متحركا واذا امن سكن فؤاده وثبت فلما كان الامن موجبا للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الامن * وقوله تعالى (على رسوله وعلى المؤمنين) انما كان انزال السكينة على المؤمنين لان الرسول صلى الله عليه وسلم كان ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة والاضطراب في هذه الواقعة ثم من الله عليهم بانزال السكينة عليهم حتى رجعوا الى قتال عدوهم بعد الهزيمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر (وانزل جنودا لم تروها) يعني الملائكة لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم وتخذيل المشركين وتجبينهم لا للقتال لان الملائكة لم تقاتل الا يوم بدر (وعذب الذين كفروا) يعني بالاسر والقتل وسبي العيال والاموال (وذلك جزاء الكافرين) يعني في الدنيا ثم اذا افضوا الى الآخرة كان لهم عذاب اشد من ذلك العذاب واعظم (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) يعني فيهديه الى الاسلام كما فعل بمن بقي من هوازن حيث اسلموا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم تائبين فمن عليهم واطلق سبيهم (والله غفور) لمن تاب (رحيم) بعباده *

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) قيل اراد بالمشركين عبدة الاصنام دون غيرهم من اصناف الكفار وقيل بل اراد جميع اصناف الكفار عبدة الاصنام وغيرهم من اليهود والنصارى والنجس الشئ القذر من الناس وغيرهم وقيل النجس الشئ الخبيث واراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لانجاسة العين سموا نجسا على الذم لان الفقهاء اتفقوا على طهارة ابدانهم وقيل هم انجاس العين كالكلب والخنزير حتى قال الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ وروى هذا عن الزيدية من الشيعة والقول الاوّل اصح وقال قتادة سماهم نجسا لانهم يجنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضؤن (فلا يقربوا المسجد الحرام) المراد منعهم من دخول الحرم لانهم اذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ويؤكد هذا قوله تعالى سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام اراد به الحرم لانه اسرى به صلى الله عليه وسلم من بيت ام هانئ قال العلماء وجملة بلاد الاسلام فى حق الكفار ثلاثة اقسام * احدها الحرم فلا يجوز لكافر ان يدخله بحال ذميا كان او مستأمنا لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعى واحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والامام فى الحرم فلا يأذن له فى دخول الحرم بل يخرج اليه بنفسه او يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز ابو حنيفة واهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم * القسم الثانى من بلاد الاسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامى ونصفها حجازى وقيل كلها حجازى وقال ابن الكلبى حد الحجاز ما بين جبل طيئ وطريق العراق سمى حجازا لانه حجز بين تهامة ونجد وقيل لانه حجز بين نجد والسراة وقيل لانه حجز بين نجد وتهامة والشأم قال الحربى وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول ارض الحجاز بالاذن ولكن لا يقيمون فيها اكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة ايام (م) عن ابن عمر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا اترك فيها الا مسلما زاد فى رواية لغير مسلم واوصى فقال اخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك ابو بكر واجلاهم عمر فى خلافته واجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا عن ابن شهاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب اخرجه مالك فى الموطأ مرسلا (م) عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قد يئس ان يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم قال سعيد بن عبد العزيز جزيرة العرب ما بين الوادى الى اقصى اليمن الى تخوم العراق الى البحر وقال غيره حد جزيرة العرب من اقصى عدن ابين الى ريف العراق فى الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر الى اطراف الشأم عرضا * والقسم الثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر ان يقيم فيها بعهد وامان وذمة ولكن لا يدخلون المساجد الا باذن مسلم * وقوله تعالى (بعد عامهم هذا) يعنى العام الذى حج فيه ابو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على براءة وان لا يحج بعد العام مشرك وهو سنة تسع من الهجرة (وان خفتم عيلة) يعنى فقرا وفاقة وذلك ان اهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يجلبون الى مكة الطعام ويتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خاف اهل مكة من الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وان خفتم عيلة (فسوف يغنيكم الله من فضله) قال عكرمة فاغناهم الله بان انزل المطر مدرارا وكثر خيرهم وقال مقاتل اسلم اهل

جدة وصنعاء وحرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فاغناهم بها (ان شاء) قيل انما شرط المشيئة في الغنى المطلوب ليكون الانسان دائم التضرع والابتهال الى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات وان يقطع العبد امله من كل احد الا من الله عز وجل فانه هو القادر على كل شئ وقيل ان المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الادب كما في قوله تبارك وتعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين (ان الله عليم) يعني بما يصلحكم (حكيم) يعني انه تعالى لا يفعل شيأ الا عن حكمة وصواب فمن حكمته ان منع المشركين من دخول الحرم واوجب الجزية والذل والصغار على اهل الكتاب فقال تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) قال مجاهد نزلت الآية حين امر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبي نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت اول جزية اصابها اهل الاسلام واول ذل اصاب اهل الكتاب بايدي المسلمين وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه المؤمنين والمعنى قاتلوا ايها المؤمنون القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فان قلت اليهود والنصارى يزعمون انهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف اخبر الله عنهم انهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر قلت ايمانهم بالله ليس كايمان المؤمنين وذلك ان اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه والنصارى يعتقدون الحلول ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله وقيل من اعتقد ان عزيرا ابن الله وان المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله وقيل من كذب رسولا من رسل الله فليس بمؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون اكثر الانبياء ليسوا بمؤمنين بالله واما ايمانهم باليوم الآخر فليس كايمان المؤمنين وذلك انهم يعتقدون بعثة الارواح دون الاجساد ويعتقدون ان اهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان زعم انه مؤمن * وقوله تعالى (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) يعني ولا يحرمون الخمر والخنزير وقيل معناه انهم لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله في السنة وقيل معناه لا يعملون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما واتوا باحكام من قبل أنفسهما (ولا يدينون دين الحق) يعني ولا يعتقدون صحة الاسلام الذي هو دين الحق وقيل الحق هو الله تعالى ومعناه ولا يدينون دين الله ودينه الاسلام وهو قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقيل معناه يدينون دين أهل الحق وهم المسلمون ولا يطيعون الله كطاعتهم (من الذين اوتوا الكتاب) يعني اعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى (حتى يعطوا الجزية) وهي ما يعطي المعاهد من اهل الكتاب على عهده وهي الخراج المضروب على رقابهم سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم (عن يد) يعني عن قهر وغلبة يقال لكل من اعطى شيأ كرهاً من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس يعطونها بايديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل يعطونها نقدا لا نسيئة وقيل يعطونها مع اقرارهم بانعام المسلمين عليهم بقبولها منهم (وهم صاغرون) من الصغار وهو الذل والاهانة يعني يعطون الجزية وهم اذلاء مقهورون وقال عكرمة يعطون الجزية وهم قائمون والقابض جالس وقال ابن عباس تؤخذ الجزية من احدهم وتوطأ عنقه وقال الكلبي اذا أعطى يصفع قفاه وقيل هو ان يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه ويقال له أدحق الله يا عدو الله وقال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم * (فصل في بيان احكام الاية) * اجتمعت الامة على جواز

اخذ الجزية من اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى اذا لم يكونوا عربا واختلفوا فى اهل الكتاب العرب وفى غير اهل الكتاب من كفار العجم فذهب الشافعى الى ان الجزية على الاديان لا على الانسان فتؤخذ من اهل الكتاب عربا كانوا او عجما ولا تؤخذ من عبدة الاوثان بحال واحتج بما روى عن انس ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد الى اكيدر دومة فاخذه فاتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية اخرجه ابوداود وقال الشافعى وهو رجل من العرب يقال انه من غسان واخذ من اهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والاوزاعى الى ان الجزية تؤخذ من جميع الكفار الا المرتد وقال ابوحنيفة تؤخذ من اهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركى العجم ولا تؤخذ من مشركى العرب وقال ابويوسف لا تؤخذ من العربى كتابيا كان او مشركا وتؤخذ من العجمى كتابيا كان او مشركا واما المجوس فاتفقت الصحابة على جواز الاخذ منهم ويدل عليه ماروى عن بجالة بن عبيدة ويقال عبدة لم يكن عمر اخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذها من مجوس هجر اخرجه البخارى عن جعفر بن محمد عن ابيه ان عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ماادرى كيف اصنع فى امرهم فقال عبدالرحمن بن عوف اشهد انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سنوا بهم سنة اهل الكتاب اخرجه مالك فى الموطا عن ابن شهاب قال بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذ الجزية من مجوس البحرين وان عمر اخذها من مجوس فارس وان عثمان بن عفان اخذها من البربر اخرجه مالك فى الموطا وفى امتناع عمر من اخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن ان النبى صلى الله عليه وسلم اخذها منهم دليل على ان راى الصحابة كان على انها لا تؤخذ من كل مشرك وانما تؤخذ من اهل الكتاب واختلفوا فى ان المجوس هل هم من اهل الكتاب فروى عن على بن ابى طالب انه قال كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد اسرى على كتابهم فرفع من بين اظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم بخلاف اهل الكتاب واما من دخل فى دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين فينظر فان كانوا قد دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل فانهم يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وان كانوا دخلوا فيه بعد النسخ بمجئ محمد صلى الله عليه وسلم ونسخ شريعتهم بشريعته فانهم لا يقرون بالجزية ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم ومن شككنا فى امرهم هل دخلوا فيه بعد النسخ اوقبله يقرون بالجزية تغليبا لحقن الدم ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم تغليبا للتحريم ومنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبنى تغلب اقرهم عمر بالجزية وقال لا تحل لنا ذبائحهم واما الصابئة والسامرة فسبيلهم سبيل اهل الكتاب فهم فى اهل الكتاب كأهل البدع فى المسلمين واماقدر الجزية فأقلها دينار ولا يجوز ان ينقص عنه ويقبل الدينار من الغنى والفقير والمتوسط ويدل عليه ماروى عن معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وجهه الى اليمن امره ان يأخذ من كل حالم اى محتلم دينارا اوعدله من المعافرية ثياب تكون باليمن اخرجه ابوداود فالنبى صلى الله عليه وسلم امره ان يأخذ من كل محتلم وهو البالغ دينارا ولم يفرق بين الغنى والفقير والمتوسط وفيه دليل على انه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء وانما تؤخذ من الاحرار البالغين وذهب قوم الى ان على كل موسر اربعة دنانير وعلى كل متوسط دينارين وعلى كل فقير دينارا وهو قول اصحاب الراى ويدل عليه ماروى

عن اسلم ان عمر بن الخطاب ضرب الجزية على اهل الذهب اربعة دنانير وعلى اهل الورق اربعين درهما ومع ذلك ارزاق المسلمين وضيافة ثلاثة ايام اخرجه مالك في الموطا قال اصحاب الشافعي اقل الجزية دينار لا يزاد على الدينار الا بالتراضي فاذا رضي اهل الذمة بالزيادة ضربنا على المتوسط دينارين وعلى الغني اربعة دنانير قال العلماء انما اقر اهل الكتاب على دينهم الباطل بخلاف اهل الشرك حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوراة والانجيل قبل النسخ والتبديل وايضا فان بأيديهم كتبا قديمة فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته فأمهلوا لهذا المعنى وليس المقصود من اخذ الجزية من اهل الكتاب اقرارهم على كفرهم بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وامهالهم رجاء ان يعرفوا الحق فيرجعوا اليه بان يؤمنوا ويصدقوا اذا راوا محاسن الاسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه ❊ قوله عز وجل (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة ان اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه في هذه الآية فاخبر عنهم انهم اثبتوا لله ولدا ومن جوز ذلك على الله فقد اشرك به لانه لا فرق بين من يعبد صنما وبين من يعبد المسيح فقد بان بهذا انهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب اخذ الجزية منهم وابقائهم على هذا الشر وهو حرمة الكتب القديمة التي بايديهم ولعلهم يتفكرون فيها ويعرفون الحق فيرجعون اليه روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن اوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وانت لا تزعم ان عزيرا ابن الله فانزل الله هذه الآية وقال عبيد بن عمير انما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذي قال ان الله فقير ونحن اغنياء فعلى هذين القولين القائل لهذه المقالة جماعة من اليهود او واحد وانما نسب ذلك الى اليهود في وقالت اليهود جريا على عادة العرب في ايقاع اسم الجماعة على الواحد تقول العرب فلان يركب الخيل وانما يركب فرسا واحدا منها وتقول العرب فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الا واحدا منهم وروى عطية العوفي عن ابن عباس انه قال انما قالت اليهود ذلك من اجل ان عزيرا كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت وانساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل اليه ان يرد اليه التوراة فبينما هو يصلي مبتهلا الى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه فاذن في قومه وقال يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها الي فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ما شاء الله ثم ان التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما راوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما في التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما اوتي عزير هذا الا انه ابن الله وقال الكلبي ان بختنصر لما غزا بيت المقدس وظهر على بني اسرائيل وقتل من قرا التوراة كان عزير اذ ذاك صغيرا فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرا التوراة بعث الله لهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعد ما اماته الله مائة سنة قال فاتى ملك باناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة في صدره فلما اتاهم قال انا عزير فكذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فامل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم ان رجلا منهم قال ان ابي حدثني عن جدي ان التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم فانطلقوا معه حتى اخرجوها فعارضوها

اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الارض من ولي ولا نصير ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون الم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب الذين يلمزون المطوعين

كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر حرفا فقالوا ان الله لم يقذف التوراة فى قلب عزير الا انه ابنه فعند
ذلك قالت اليهود عزير ابن الله فعلى هذين القولين ان هذا القول كان ذاشيا فى اليهود جميعا ثم انه انقطع
واندرس فاخبر الله تعالى به عنهم واظهره عليهم ولا عبرة بانكار اليهود ذلك فان خبر الله عزوجل
اصدق واثبت من انكارهم واما قول النصارى المسيح ابن الله فكان السبب فيه انهم كانوا على الدين
الحق بعد رفع عيسى عليه السلام احدى وثمانين سنة يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى
وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع يقال بولص قتل جماعة من اصحاب
عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود ان كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن
مغبونون اذ دخلنا النار ودخلوا الجنة فانى سأحتال واضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم انه عمد
الى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه واظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم انه اتى الى
النصارى فقالوا له من انت قال انا عدوكم بولص فقد نوديت من السماء انه ليس لك توبة حتى تتنصر
وقد تبت واتيتكم فادخلوا الكنيسة ونصروه وادخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الانجيل
ثم خرج وقال قد نوديت ان الله قبل توبتك فصدقوه واحبوه وعلا شأنه فيهم ثم انه عمد الى ثلاثة رجال
اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطور ان عيسى مريم والاله
ثلاثة وعلم يعقوب ان عيسى ليس بانسان ولكنه ابن الله وعلم ملكان عيسى هو الله لم يزل ولا يزال
فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم فى الخلوة وقال له انت خالصتى وادع الناس لما علمتك وامره
ان يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم انى رأيت عيسى فى المنام وقد رضى عنى وقال لكل واحد
منهم انى سأذبح نفسى تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه وتفرق اولئك الذين الثلاثة
فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس والآخر الى ناحية اخرى واظهر كل واحد منهم
مقاله ودعا الناس اليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فكان
ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله وقال الامام فخر الدين الرازى بعد ان حكى هذه الحكاية والاقرب
عندى ان يقال لعله ذكر لفظ الابن فى الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل فى حق
ابراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم
وفشا هذا المذهب الفاسد فى اتباع عيسى عليه السلام والله اعلم بحقيقة الحال (ذلك قولهم بافواههم)
يعنى انهم يقولون ذلك القول بالسنتهم من غير علم يرجعون اليه قال اهل المعانى لم يذكر الله قولا
مقرونا بالافواه والالسن الا كان ذلك القول زورا وكذبا لا حقيقة له (يضاهئون) قال ابن
عباس يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون (قول الذين
كفروا من قبل) قال قتادة والسدى معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن
الله كما قالت اليهود عزير ابن الله وقال مجاهد معناه يضاهون قول المشركين من قبل لان المشركين
كانوا يقولون الملائكة بنات الله وقال الحسن شبه الله كفر اليهود والنصار بكفر الذين مضوا
من الامم الخالية الكافرة وقال القتيبى يريد ان من كان فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود
والنصارى يقولون ماقاله اولوهم (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج قتلهم الله
وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب اى حق ان يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة
قولهم كما يقال ان فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما اعجب فعله (انى يؤفكون) يعنى انى يصرفون

من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم استغفر لهم اولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفسقين فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما

من الحق بعد وضوح الدليل واقامة الحجة بان الاله واحد احد فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك
علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله سبحانه وتعالى لا يتعجب من شئ ولكن هذا الخطاب
على عادة العرب فى مخاطباتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق
واصرارهم على الباطل * قوله سبحانه وتعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله)
يعنى اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والاحبار العلماء من اليهود والرهبان اصحاب الصوامع
من النصارى اربابا من دون الله يعنى انهم اطاعوهم فى معصية الله تعالى وذلك انهم احلوا لهم اشياء
وحرموا عليهم اشياء من قبل انفسهم فاطاعوهم فيها فاتخذوهم كالارباب لا انهم عبدوهم
واعتقدوا فيهم الالهية عن عدى بن حاتم قال اتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من
ذهب فقال ياعدى اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ فى سورة براءة اتخذوا احبارهم ورهبانهم
اربابا من دون الله قال اما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا احلوا شيأ استحلوه واذا حرموا
عليهم شيأ حرموه واخرجه الترمذى وقال حديث غريب قال عبدالله بن المبارك

وهل بدل الدين الا الملوك * واحبار سوء ورهبانها

(والمسيح ابن مريم) يعنى اتخذوه الها وذلك لما اعتقدوا فيه البنوة والحلول اعتقدوا فيه الالهية
(وما امروا) يعنى وما امروا فى الكتب القديمة المنزلة عليهم على السنة انبيائهم (الا ليعبدوا
الها واحدا) لانه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لا غيره (لا اله الا هو سبحانه وتعالى عما يشركون)
اى تعالى الله وتنزه عن ان يكون له شريك فى العبادة والاحكام وان يكون له شريك فى الالهية يستحق
التعظيم والاجلال (يريدون) يعنى يريد رؤساء اليهود والنصارى (ان يطفؤا نور الله بأفواههم)
يعنى يريد هؤلاء ابطال دين الله الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبهم اياه وقيل المراد من النور
الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهى امور احدها المعجزات الباهرات الخارقة
للعادة التى ظهرت على يد النبى صلى الله عليه وسلم الدالة على صدقه وثانيها القرآن العظيم الذى
نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الابد دالة على صدقه وثالثها ان دينه الذى امر به وهو
دين الاسلام ليس فيه شئ سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لامره ونهيه واتباع طاعته والامر
بعبادته والتبرى من كل معبود سواه فهذه امور نيرة ودلائل واضحة فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه
وسلم فمن اراد ابطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ثم ان الله سبحانه وتعالى وعد
نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمزيد النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين بقوله (ويأبى الله الا ان
يتم نوره ولو كره الكافرون) يعنى ويأبى الله الا ان يعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذى بعث به
رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ولو كره ذلك الكافرون * قوله عز وجل (هو الذى ارسل
رسوله) يعنى ان الله الذى يأبى الا ان يتم نوره هو الذى ارسل رسوله يعنى محمدا صلى الله عليه
وسلم (بالهدى) يعنى بالقرآن الذى انزله عليه وجعله هاديا اليه (ودين الحق) يعنى دين الاسلام
(ليظهره) يعنى ليعليه (على الدين كله) يعنى على سائر الاديان وقال ابن عباس الهاء ليظهره عائدة
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى
عليه شئ منها وقال غيره من المفسرين الهاء راجعة الى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الاسلام على
الاديان كلها وهو ان لا يعبد الله الا به وقال ابو هريرة والضحاك ذلك عند نزول عيسى عليه السلام

كانوا يكسبون فان
رجعك الله الى طائفة منهم
فاستأذنوك للخروج فقل
لن تخرجوا معى ابدا ولن
تقاتلوا معى عدوا انكم
رضيتم بالقعود اول مرة
فاقعدوا مع الخالفين ولا تصل
على احد منهم مات ابدا
ولا تقم على قبره انهم كفروا
بالله ورسوله وماتوا وهم
فسقون ولا تعجبك اموالهم
واولادهم انما يريد الله
ان يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق
انفسهم وهم كفرون واذا
انزلت سورة ان آمنوا
بالله وجاهدوا مع رسوله
استأذنك اولوا الطول

فلا يبقى اهل دين الا دخلوا فى الاسلام ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن ابى هريرة فى حديث نزول عيسى عليه السلام قال قال النبى صلى الله عليه وسلم ويهلك فى زمانه الملل كلها الا الاسلام عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يبقى على وجه الارض بيت مدر ولا وبر الا ادخله الله كلمة الاسلام امابعز عزيز او بذل ذليل اما ان يعزهم فيجعلهم من اهله فيعزوابه واما ان يذلهم فيدينون له اخرجه البغوى بغير سند (م) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يارسول الله انى كنت اظن حين انزل الله تعالى هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ان ذلك تام قال انه سيكون ذلك ماشاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة تتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون الى دين آبائهم قال الشافعى وقد اظهر الله دين رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاديان كلها بان ابان لكل من سمعه انه الحق وماخالفه من الاديان باطل وقال واظهره على الشرك دين اهل الكتاب ودين الاميين فقهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاميين حتى دانوا بالاسلام طوعا وكرها وقتل اهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالاسلام واعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمة فهذا هو ظهوره على الدين كله ﴿ولو كره المشركون﴾ قوله تعالى ﴿يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان﴾ قد تقدم معنى الاحبار والرهبان وان الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى وفى قوله سبحانه وتعالى ان كثيرا دليل على ان الاقل من الاحبار والرهبان لم يأكلوا اموال الناس بالباطل ولعلهم الذين كانوا قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم وعبر عن اخذ الاموال بالاكل فى قوله تعالى ﴿ليأكلون اموال الناس بالباطل﴾ لان المقصود الاعظم من جمع المال الاكل فسمى الشئ باسم ماهو اعظم مقاصده واختلفوا فى السبب الذى من اجله اكلوا اموال الناس بالباطل فقيل انهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم فى تخفيف الشرائع والمسامحة فى الاحكام وقيل انهم كانوا يكتبون بايديهم كتبا يحرفونها ويبدلونها ويقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمنا قليلا وهى المآكل التى كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبى صلى الله عليه وسلم وصفته فى كتبهم لانهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل وقيل ان التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبى صلى الله عليه وسلم وكان الاحبار والرهبان يذكرون فى تأويلها وجوها فاسدة باطلة ويحرفون معانيها طلبا للرياسة واخذ الاموال ومنع الناس عن الايمان به وذلك قوله تعالى ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ يعنى ويمنعون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والدخول فى دين الاسلام ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ اصل الكنز فى اللغة جعل المال بعضه على بعض وحفظه ومال مكنوز مجموع واختلفوا فى المراد بهؤلاء الذين ذمهم الله بسبب كنز الذهب والفضة فقيل هم اهل الكتاب قاله معاوية بن ابى سفيان لان الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على اخذ اموال الناس بالباطل ثم وصفهم بالبخل الشديد وهو جمع المال ومنع اخراج الحقوق الواجبة منه وقال ابن عباس والسدى نزلت فى مانعى الزكاة من المسلمين وذلك انه سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الاحبار والرهبان فى الحرص على اخذ الاموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر

منهم وقالوا ذرنا نكن مع القعدين رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا باموالهم وانفسهم واولئك لهم الخيرات واولئك هم المفلحون اعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهر خالدين فيها ذلك الفوز العظيم وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين

(وعيد)

وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه وقال ابوذر نزلت في اهل الكتاب وفي المسلمين ووجه
هذا القول ان الله سبحانه وتعالى وصف اهل الكتاب بالحرص على اخذ اموال الناس بالباطل
ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء كان من اهل الكتاب او من
المسلمين (خ) عن زيد بن وهب قال مررت بالربذة فاذا بابي ذر فقلت ما انزلك هذا المنزل قال
كنت في الشام فاختلفت انا ومعاوية في هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها
في سبيل الله فقال معاوية نزلت في اهل الكتاب فقلت نزلت فينا وفيهم فكان بيني وبينه في ذلك
كلام فكتب الى عثمان يشكوني فكتب الى عثمان ان اقدم المدينة فقدمتها فكثر على الناس
حتى كانهم لم يروني قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال ان شئت تنحيت فكنت قريبا فذاك الذي
انزلني هذا المنزل ولو امر على عبد حبشي لسمعت واطعت واختلف العلماء في معنى الكنز
فقيل هو كل مال وجب فيه الزكاة فلم تؤد زكاته وروى عن ابن عمر انه قال له اعرابي اخبرني
عن قول الله عزوجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب
اليم قال ابن عمر من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له هذا كان قبل ان تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله
طهرا للاموال اخرجه البخاري وفي رواية مالك عن عبد الله بن دينار قال سمعت عبد الله بن عمر
وهو يسئل عن الكنز ماهو فقال هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة ورواه الطبري بسنده عن ابن
عمر قال كل ما اديت زكاته فليس بكنز وان كان مدفونا وكل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز الذي
ذكره الله في القرآن يكوى به صاحبه وان لم يكن مدفونا وروى عن علي بن ابي طالب قال
اربعة آلاف فما فوقها كنز ومادونها نفقة وقيل الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه اليه
وروى الطبري بسنده عن ابي امامة قال توفي رجل من اهل الصفة فوجد في مئزره دينار
فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله
عليه وسلم كيتان كان هذا في اول الاسلام قبل ان تفرض الزكاة فكان يجب على كل من فضل
معه شئ من المال اخرجه لاحتياج غيره اليه فلما فرضت الزكاة نسخ ذلك الحكم عن ابن عباس
قال لما نزلت هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة كبر ذلك على المسلمين فقال
عمر انا افرج عنكم فانطلق فقال يانبي الله انه كبر على اصحابك هذه الآية فقال ان الله لم يفرض
الزكاة الا ليطيب مابقي من اموالكم وانما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم قال فكبر عمر ثم
قال له الا اخبرك بخير مايكنز المرأة الصالحة اذا نظر اليها سرته واذا امرها اطاعته واذا غاب عنها
حفظته اخرجه ابوداود عن ثوبان قال لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها
في سبيل الله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره فقال بعض اصحابه انزلت
في الذهب والفضة فلو علمنا اي المال خير اتخذناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افضله لسان
ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على ايمانه اخرجه الترمذي وقال حديث حسن
والصحيح من هذه الاقوال القول الاول وهو ما ذكرنا عن ابن عمر ان كل مال اديت زكاته فليس
بكنز ولا يحرم على صاحبه اكتنازه وان كثر وان كل مالم تؤد زكاته فصاحبه
معاقب عليه وان قل اذا كان مما تجب فيه الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله
الا ان يتفضل الله عزوجل عليه بعفوه وغفرانه ويدل على ذلك ماروى عن ابي هريرة

لايجدون ماينفقون حرج
اذا نصحوا لله ورسوله ماعلى
المحسنين من سبيل والله
غفور رحيم ولا على الذين
اذا ما اتوك لتحملهم قلت
لا اجد ما احملكم عليه
تولوا واعينهم تفيض من
الدمع حزنا الا يجدوا
ماينفقون انما السبيل على
الذين يستأذنونك وهم
اغنياء رضوا بان يكونوا
مع الخوالف وطبع الله على
قلوبهم فهم لايعلمون يعتذرون
اليكم اذا رجعتم اليهم قل
لاتعتذروا لن نؤمن لكم
قد نبأنا الله من اخباركم
وسيرى الله عملكم ورسوله
ثم تردون الى عالم الغيب

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن صاحب ذهب ولا فضة لايؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فاحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت اعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار قيل يارسول الله فالابل قال ولا صاحب ابل لايؤدى منها حقها ومن حقها حلبها يوم ورودها الا اذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر اوفر ما كانت لايفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه اولاها رد عليه اخراها فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار وقيل يارسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولاغنم لايؤدى حقها الا اذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لايفقد منها شيأ ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما مر عليه اولاها رد عليه اخراها فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار اخرجه مسلم بزيادة فيه قوله كلما ردت اعيدت له هكذا هو فى بعض نسخ صحيح مسلم ردت بضم الراء وفى بعضها بردت بالباء وهذا هو الصواب والرواية الاولى هى رواية الجمهور قوله حلبها هو بفتح اللام على المشهور وحكى اسكانها وهو ضعيف قوله بقاع قرقر هو المستوى من الارض الواسع الاملس والعقصاء هى الشاة الملتوية القرنين وانما استثناها لانها لم تؤلم بنطحها وكذا الجلحاء وهى الشاة التى لاقرن لها وكذا العضباء وهى الشاة المكسورة القرن (خ) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل ماله شجاعا اقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى شدقيه ثم يقول انا مالك انا كنزك ثم تلا قوله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم الآية الشجاع الحية والاقرع صفة له بطول العمر لان من طال عمره تمزق شعره وذهب وهى صفة اخبث الحيات والزبيبتان فى الشدقين واللهزمتان عظمان ناتئان فى اللحيين تحت الاذنين * وقوله تعالى (ولا ينفقونها فى سبيل الله) يعنى ولا يؤدون زكاتها وانما قال ولا ينفقونها ولم يقل ينفقونهما لانه رد الكناية الى المال المكنوز وهى اعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية الى الفضة لانها اغلب اموال الناس (فبشرهم بعذاب اليم) يعنى الكافرين الذين لايؤدون زكاة اموالهم (ق) عن ابى ذر قال انتهيت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الاخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم اتقار حتى قمت فقلت يارسول الله فداك ابى وامى من هم قال هم الاكثرون اموالا الا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم مامن صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لايؤدى زكاتها الا جاءت يوم القيامة اعظم ما كانت واسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت اخراها عادت عليه اولاها حتى يقضى بين الناس هذا لفظ مسلم وفرقه البخارى فى موضعين * وقوله تعالى (يوم يحمى عليها) يعنى على الكنوز فتدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة (فى نار جهنم فتكوى بها جباههم) يعنى بالكنوز جباه كانزيها (وجنوبهم وظهورهم) قال ابن عباس لايوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم فى موضع على حدته قال بعض العلماء انما خص هذه الاعضاء بالكى من بين سائر الاعضاء لان الغنى صاحب المال اذا اتاه

والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) لكرامة اهله (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم

السائل فطلب منه شيأ تبدر منه آثار الكراهة والمنع فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح وتجتمع اسارير وجهه فيتجعد جبينه ثم ان كرر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانبا ثم ان كرر الطلب والح فى السؤال ولاه ظهره واعرض عنه واستقبل جهة آخرى وهى النهاية فى الرد والغاية فى المنع الدال على كراهية الاعطاء والبذل وهذا دأب مانعى البر والاحسان وعادة البخلاء فلذلك خص هذه الاعضاء الثلاثة بالكى يوم القيامة * وقوله سبحانه وتعالى (هذا ما كنزتم لانفسكم) اى يقال لهم ذلك يوم القيامة (فذوقوا ما كنتم تكنزون) اى فذوقوا عذاب ما كنزتم فى الدنيا من الاموال ومنعتم حق الله منها (ق) عن الاحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينا انا فى حلقة فيها ملاء من قريش اذ جاء رجل خشن الثياب خشن الجسد خشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم فيوضع على حلمة ثدى احدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل قال فوضع القوم رؤسهم فارأيت احدا منهم رجع اليه شيأ قال فادبر فاتبعته حتى جلس الى سارية فقلت مارأيت هؤلاء الا كرهوا ماقلت لهم فقال ان هؤلاء لايعقلون شيأ هذا لفظ مسلم وفيه زيادة لم اذكرها وزاد البخارى قلت من هذا قالوا ابو ذر قال فقمت اليه فقلت ماشئ سمعتك تقول قبيل فقال ماقلت الاشيا سمعته من نبيهم صلى الله عليه وسلم * قوله عز وجل (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) هى المحرم وصفر وربيع الاول وربيع الآخر وجمادى الاولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم واعيادهم وسائر امورهم واحكامهم وايام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامة وهى ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة ايام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الحج والصوم تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من اجل النسئ الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية فكان يقع حجهم تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من الشهور فاعلم الله عز وجل ان عدة شهور سنة المسلمين التى يعتدون بها اثنا عشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تبارك وتعالى ان عدة الشهور عند الله يعنى فى علمه وحكمه اثنا عشر شهرا (فى كتاب الله) يعنى فى اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه جميع احوال الخلق ومايؤتون ومايذرون وقيل اراد بكتاب الله القرآن لان فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل اراد بكتاب الله الحكم الذى اوجبه وامر عباده بالاخذ به (يوم خلق السموات والارض) يعنى ان هذا الحكم حكم به وقضاه يوم خلق السموات والارض ان السنة اثنا عشر شهرا (منها) يعنى من الشهور (اربعة حرم) وهى رجب فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة متوالية وانما سميت حرما لان العرب فى الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لو ان احدهم لقى قاتل ابيه وابنه واخيه فى هذه الاربعة الاشهر لم يهجه ولما جاء الاسلام لم يزدها الا حرمة وتعظيما ولان الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وكذلك السيآت ايضا اشد من غيرها فلا يجوز انتهاك حرمة الاشهر الحرم (ذلك الدين القيم) يعنى ذلك الحساب

دائرة السوء والله سميع عليم ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم والسابقون الاولون) اى الذين سبقوا الى الوحدة من اهل الصف الاول (من المهاجرين) الذين هاجروا مواطن النفس (والانصار) الذين نصروا القلب بالدوام الحقيقية على النفس (الذين اتبعوهم) فى الاتصاف بصفات الحق (باحسان) اى بمشاهدة من مشاهدات الجمال

المستقيم والعدد الصحيح المستوى فالدين هنا بمعنى الحساب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه يعني حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت وقيل اراد بالدين القيم الحكم الذى لايغير ولايبدل والقيم هنا بمعنى الدائم الذى لايزول فالواجب على المسلمين الاخذ بهذا الحساب والعدد فى صومهم وحجهم واعيادهم وبياعاتهم واجل ديونهم وغير ذلك من سائر احكام المسلمين المرتبة على الشهور (ق) عن ابى بكرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها اربعة حرم ثلاث متواليات ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان اى شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه فقال اليس ذا الحجة قلنا بلى قال أى بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام قلنا بلى قال فاى يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال اليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم واعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم الافلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض الاليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه ان يكون اوعى له من بعض من سمعه ثم قال الاهل بلغت الاهل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد ✻ وقوله تعالى (فلا تظلموا فيهن انفسكم) قيل الكناية فى فيهن ترجع الى جميع الاشهر اى لاتظلموا انفسكم فى جميع اشهر السنة بفعل المعاصى وترك الطاعات لان المقصود منع الانسان من الاقدام على المعاصى والفساد مطلقا فى جميع الاوقات الى الممات وقيل ان الكناية ترجع الى الاشهر الحرم وهو قول اكثر المفسرين وقال قتادة العمل الصالح اعظم اجرا فى الاشهر الحرم والظلم فيهن اعظم منه فيما سواهن وان كان الظلم على كل حال عظيما وقال ابن عباس لاتظلموا فيهن انفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن اسحق بن يسار لاتجعلوا حلالها حراما ولاحرامها حلالا كفعل اهل الشرك وهو النسيء وقيل ان الانفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والامتناع عنه على الاطلاق شاق على النفس لاجرم ان الله خص بعض الاوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الانسان فى تلك الاوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها فى باقى الاوقات فتصير هذه الاوقات الشريفة والاشهر المحرمة المعظمة سببا لترك الظلم وفعل المعاصى فى غيرها من الاشهر فهذا وجه الحكمة فى تخصيص بعض الاشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الامكنة ايضا ✻ وقوله سبحانه وتعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) يعنى قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما انهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولاتخاذلوا ولا تدابروا ولاتفشلوا ولاتجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين فى مقاتلة اعدائكم من المشركين واختلف العلماء فى تحريم القتال فى الاشهر الحرم فقال قوم كان كبيرا حراما ثم نسخ بقوله وقاتلوا المشركين كافة يعنى فى الاشهر الحرم وفى غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخراسانى والزهرى وسفيان الثورى قالوا لان النبى صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف وحاصرهم فى شوال وبعض ذى القعدة وقال آخرون انه غير منسوخ قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن ابى رباح مايحل للناس ان يغزوا فى الحرم ولافى الاشهر الحرم ومانسخت الا

والجلال (رضى الله عنهم) لاشتراكهم فى كشف الصفات والوصول الى مقام الرضا الذى هو باب الله الاعظم (ورضوا عنه واعدلهم جنات) من جنات الافعال والصفات (تجرى تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم) انهار علوم التوكل والرضا ومايناسبهما وذلك لاينافى وجود جنة اخرى للسابقين هى جنة الذات واختصاصهم بها لاشتراك الكل فى هذه (وممن حولكم من الاعراب منافقون

ان يقاتلوا فيها (واعلموا ان الله مع المتقين) يعني بالنصر والمعونة على اعدائهم قوله سبحانه وتعالى (انما النسيء زيادة في الكفر) النسيء في اللغة عبارة عن التأخير في الوقت ومنه النسيئة في البيع ومعنى النسيء المذكور في الآية هو تأخير شهر حرام الى شهر آخر وذلك ان العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة الاشهر الحرم وتعظيمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة وكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة اشهر متوالية وربما وقعت حروب في بعض الاشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم الى الاشهر الحلال فنسؤا يعني اخروا تحريم شهر الى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيحلون المحرم ويحرمون صفر فاذا احتاجوا الى تأخير تحريم صفر اخروه الى ربيع الاول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذا باقي شهور السنة فوافقت حجة ابي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجة شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر بمنى واعلمهم ان اشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الامر الى ما وضع الله عليه حساب الاشهر يوم خلق السموات والارض وهو قوله صلى الله عليه وسلم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وامرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل في مستأنف الايام واختلفوا في اول من نسأ النسيء فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد اول من نسأ النسيء بنو مالك بن كنانة وكان يليه جنادة بن عوف بن امية الكناني وقال الكلبي اول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم على الناس في الموسم فاذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فيقول لا مرد لما قضيت انا الذي لا اعاب ولا اجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه ان ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر في هذا العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة من الرماح وان قال حلال عقدوا اوتار القسي وركبوا الاسنة في الرماح واغاروا ولو كان بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذي ادرك النبي صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم هو رجل من بني كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم * وفينا ناسئ الشهر القلمس * وكانوا يفعلون ذلك اذا اجتمعت العرب في الموسم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ان اول من سن النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف والذي صح من حديث ابي هريرة وعائشة ان عمرو بن لحي اول من سيب السوائب وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار فهذا ما ورد في تفسير النسيء الذي ذكره الله في قوله انما النسيء زيادة في الكفر يعني زيادة كفر على كفرهم وسبب هذه الزيادة انهم امروا بايقاع كل فعل في وقته من الاشهر الحرم ثم انهم بسبب اغراضهم الفاسدة اخروه الى وقت آخر بسبب ذلك النسيء فأوقعوه في غير وقته من الاشهر الحرم فكان ذلك الفعل زيادة في كفرهم (يضل به الذين كفروا) قرئ يضل بفتح الياء وكسر الضاد ومعناه يضل بالنسيء الذين كفروا وقرئ يضل بضم الياء وفتح الضاد ومعناه ان كبارهم اضلوهم وحملوهم

ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم وآخرون اعترفوا بذنوبهم) الاعتراف بالذنب هو ابقاء نور الاستعداد وابن الشكيمة وعدم رسوخ ملكة الذنب فيه لانه ملك الرجوع والتوبة ودليل رؤية قبح الذنب التي لا تكون الا بنور البصيرة وانفتاح عين القلب اذ لو ارتكمت الظلمة ورسخت الرذيلة ما استقبحه ولم يره ذنبا بل رآه فعلا حسنا لمناسبته لحاله فاذا عرف انه ذنب ففيه خير (خلطوا عملا صالحا

عليه وقرئ يضل به الذين كفروا بضم الياء وكسر الضاد ومعناه يضل الله به الذين كفروا او يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم وقيل معناه يضل به الذين كفروا تابعيهم والآخذين بأقوالهم وهذا الوجه اقوى الوجهين فى تفسير قراءة من قرأ يضل بضم الياء وكسر الضاد (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) يعنى يحلون ذلك الانساء عاما ويحرمونه عاما والمعنى يحلون الشهر المحرم عاما فيجعلونه حلالا لايغيروا فيه ويحرمونه عاما فيجعلونه محرما فلا يغيرون فيه (ليواطئوا) يعنى ليوافقوا (عدة ما حرم الله) يعنى انهم ما احلوا شهرا من الحرم الا حرموا شهرا مكانه من الحلال ولم يحرموا شهرا من الحلال الا احلوا مكانه شهرا من الحرام لاجل ان يكون عدد الاشهر الحرم اربعة كما حرم الله فيكون ذلك موافقة فى العدد لا فى الحكم كذلك قوله سبحانه وتعالى (فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء اعمالهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل (والله لا يهدى القوم الكافرين) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يرشد من هو كافر اثيم لما سبق له فى الازل انه من اهل النار * قوله عز وجل (يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض) نزلت هذه الآية فى الحث على غزوة تبوك وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف امر بالجهاد لغزو الروم وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورّى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا وجلى للمسلمين امرهم ليتأهبوا اهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فانزل الله عز وجل هذه الآية يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم يعنى قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم انفروا فى سبيل الله اى اخرجوا الى الجهاد يقال استنفر الامام الناس اذا حثهم على الخروج الى الجهاد ودعاهم اليه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم واذا استنفرتم فانفروا والاسم النفير اثاقلتم اى تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج الى الغزو الى الارض يعنى لزمتم ارضكم ومساكنكم وانما استثقل ذلك الغزو لشدة الزمان وضيق الوقت وشدة الحر وبعد المسافة والحاجة الى كثرة الاستعداد من العدد والزاد وكان ذلك الوقت وقت ادراك ثمار المدينة وطيب ظلالها وكان العدو كثيرا فاستثقل الناس تلك الغزوة فعاتبهم الله تعالى بقوله (ارضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة) يعنى ارضيتم بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة (فما متاع الحيوة الدنيا فى الآخرة الا قليل) يعنى ان لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الابد فلهذا السبب كان متاع الدنيا قليلا بالنسبة الى نعيم الآخرة وفى الآية دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت لان الله سبحانه وتعالى نص على ان تثاقلهم عن الجهاد امر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم على ذلك التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور الآية الآتية وهى قوله تعالى (الا تنفروا) يعنى ان لم تنفروا ايها المؤمنون الى ما استنفركم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه (يعذبكم عذابا اليما) يعنى فى الآخرة لان العذاب الاليم لا يكون الا فى الآخرة وقيل ان المراد به احتباس المطر فى الدنيا قال نجدة بن نفيع سألت ابن عباس عن هذه الآية فقال استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من احياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) يعنى خيرا منكم واطوع قال سعيد بن جبير هم ابناء فارس وقيل هم اهل اليمن نبه سبحانه وتعالى على انه قد تكفل

وآخر سيئا) اى كانوا فى رتبة النفس اللوامة التى لم يصر اتصالها بالقلب وتنورها بنوره ملكة ولم تتذلل بعد فى طاعتها للقلب فتارة يستولى عليها القلب فتتذلل وتنقاد وتتنور بنوره وتعمل اعمالا صالحة وتارة تظهر بصفاتها الحاجبة لنور القلب عنها وتحتجب بظلمتها فتفعل افعالا سيئة فان ترجحت الانوار القلبية والاعمال الصالحة وتعاقبت عليها الخواطر الملكية حتى صار اتصالها بالقلب وطاعتها

بنصره نبيه صلى الله عليه وسلم واعزاز دينه فان سارعوا معه الى الخروج الى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ووقع اجرهم على الله عز وجل وان تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم لئلا يتوهموا ان اعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرته لا تحصل الا بهم وهو قوله تعالى (ولا تضروه شيأ) قيل الضمير راجع الى الله تعالى يعنى ولا تضروا الله شيأ لانه غنى عن العالمين وانما تضرون انفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير راجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ولا تضروا محمدا صلى الله عليه وسلم شيأ فان الله ناصره على اعدائه ولا يخذله (والله على كل شئ قدير) يعنى انه تعالى قادر على كل شئ فهو ينصر نبيه ويعز دينه قال الحسن وعكرمة هذه الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لانها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ * قوله عز وجل (الا تنصروه فقد نصره الله) يعنى الا تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم ايها المؤمنون هذا خطاب لمن تثاقل عن الخروج معه الى تبوك فاعلم الله عز وجل انه هو المتكفل بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم واعزاز دينه واعلاء كلمته اعانوه اولم يعينوه وانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة الاعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدد (اذ اخرجه الذين كفروا) يعنى انه تعالى نصره فى الوقت الذى اخرجه فيه كفار مكة من مكة حين مكروا به وارادوا قتله (ثانى اثنين) يعنى هو واحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر (اذهما فى الغار) يعنى اذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر فى الغار والغار نقب عظيم يكون فى الجبل وهذا الغار فى جبل ثور وهو قريب من مكة (اذ يقول لصاحبه لا تحزن) يعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر الصديق لا تحزن وذلك ان ابا بكر خاف من الطلب ان يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحزن (ان الله معنا) يعنى بالنصر والمعونة قال الشعبى عاتب الله عز وجل اهل الارض جميعا فى هذه الآية غير ابى بكر وقال الحسن بن الفضل من قال ان ابا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكاره نص القرآن وفى سائر الصحابة اذا انكر يكون مبتدعا ولا يكون كافرا عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر انت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب (ق) عن ابى بكر الصديق قال نظرت الى اقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤسنا فقلت يا رسول الله لو ان احدهم نظر الى قدميه ابصرنا تحت قدميه فقال يا ابا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما قال الشيخ محيى الدين النووى معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل فى قوله سبحانه وتعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم توكل النبى صلى الله عليه وسلم حتى فى هذا المقام وفيه فضيلة لابى بكر وهى من اجل مناقبه والفضيلة من اوجه منها اللفظ الدال على ان الله ثالثهما ومنها بذله نفسه ومفارقته اهله وماله ورياسته فى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وملازمته النبى صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه ومنها جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك روى عن عمر بن الخطاب انه ذكر عنده ابو بكر فقال وددت ان عملى كله مثل عمله يوما واحدا من ايامه وليلة واحدة من لياليه اما ليلته فليلة

اياه ملكة صلح امرها ونجت وذلك معنى قوله (عسى الله ان يتوب عليهم) وان ارتكمت عليها الهيآت المظلمة المكتسبة من غلباتها وكثرة اقدامها على السيئات كان الامر بالعكس فزال استعدادها بالكلية وحق عذابها ابدا وترجح احد الجانبين على الآخر لا يكون الا بالصحبة ومجالسة اصحاب كل واحد من الصنفين ومخالطة الاخيار والاشرار فان ادركه التوفيق ساقه القدر الى صحبة الصالحين ومتابعة اخلاقهم واعمالهم فيصير

سارمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار فلما انتهيا اليه قال والله لاتدخله حتى ادخل قبلك فان كان فيه شئ اصابني دونك فدخله فكنسه ووجد في جانبه ثقبا فشق ازاره وسدها به وبقي منها ثقبان فالقمهما رجليه ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع راسه في حجره ونام فلدغ ابوبكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة ان ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك ياابابكر فقال لدغت فداك ابي وامي فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب مايجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته واما يومه فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب وقالوا لانؤدي الزكاة فقال لومنعوني عقالا لجاهدتهم عليه فقلت ياخليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فقال لي اجبار في الجاهلية خوار في الاسلام انه قدانقطع الوحي وتم الدين اينقص وانا حي اخرجه في جامع الاصول ولم يرقم عليه علامة لاحد قال البغوي وروى انه حين انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ياابابكر فقال اذكر الطلب فامشي خلفك واذكر الرصد فأمشي بين يديك فلما انتهيا الى الغار قال مكانك يارسول الله حتى استبرئ الغار فدخل فاستبراه ثم قال انزل يارسول الله فنزل وقال له ان اقتل فأنا رجل واحد من المسلمين وان قتلت هلكت الامة

(ذكر سياق حديث الهجرة وهو من افراد البخاري)

عن عائشة قالت لم اعقل ابوي قط الاوهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم الايأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار بكرة وعشيا فلما ابتلي المسلمون خرج ابوبكر مهاجرا نحو ارض الحبشة حتى اذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال اين تريد ياابابكر فقال ابوبكر اخرجني قومي فاريد ان اسيح في الارض فاعبد ربي فقال ابن الدغنة فان مثلك ياابابكر لايخرج ولايخرج انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانالك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في اشراف قريش فقال لهم ان ابابكر لايخرج مثله ولايخرج اتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وفي رواية فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وامنوا ابابكر وقالوا لابن الدغنة مر ابابكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها وليقرا ماشاء ولايؤذينا بذلك ولايستعلن به فانا نخشى ان يفتن نساءنا وابناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لابي بكر فلبث ابوبكر كذلك يعبد ربه في داره ولايستعلن بصلاته ولايقرا في غير داره ثم بدا لابي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرا القرآن فيتقذف عليه نساء المشركين وابناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه وكان ابوبكر رجلا بكاء لايملك عينيه اذاقرا القرآن فافزع ذلك اشراف قريش من المشركين فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا انا كنا اجرنا ابابكر بجوارك على ان يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وانا قد خشينا ان يفتن نساءنا وابناءنا فانهه فان احب ان يقتصر على ان يعبد ربه في داره فعل وان ابى الا ان يعلن بذلك فسله ان يرد

منهم وان لحقه الخذلان ساقه الى صحبة المفسدين واختلاطه بهم فيصير من الخاسرين اعاذنا الله من ذلك (ان الله غفور) يغفر لهم السيئات المظلمة ويسترها عنهم (رحيم) يرحمهم بالتوفيق للصالحات وقبول التوبة ولما وفقوا للقسم الاول ببركة صحبة الرسول وتزكيته اياهم وتربيته لهم قال (خذ من اموالهم صدقة) اذ المال هو سبب ظهور النفس وغلبة صفاتها ومددقواها ومادة هواها كما قال عليه الصلاة والسلام المال مادة

اليك ذمتك فانا قد كرهنا ان نخفرك ولسنا مقرين لابى بكر الاستعلان قالت عائشة فأتى ابن
الدغنة الى ابى بكر فقال قد علمت الذى عاهدت لك عليه فاما ان تقتصر على ذلك واما ان ترجع
الى ذمتى فانى لا احب ان تسمع العرب انى اخفرت فى رجل عقدت له فقال ابو بكر فانى ارد اليك
جوارك وارضى بجوار الله والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم
للمسلمين انى رايت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل
المدينة ورجع عامة من كان بارض الحبشة الى المدينة وتجهز ابو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم على رسلك فانى ارجو ان يؤذن لى فقال ابو بكر وهل ترجو ذلك بأبى
انت وامى قال نعم فحبس ابو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين
كانتا عنده من ورق السمر وهو الخبط اربعة اشهر قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينا نحن
جلوس يوما فى بيت ابى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا
فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال ابو بكر فداء له ابى وامى والله ما جاء به فى هذه الساعة الا امر قالت
فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فاذن له فدخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لابى
بكر اخرج من عندك فقال ابو بكر انما هم اهلك بأبى انت وامى يارسول الله قال فانى قد اذن لى
فى الخروج قال ابو بكر الصحبة بأبى انت وامى يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
نعم قال ابو بكر فخذ بأبى انت وامى يارسول الله احدى راحلتى هاتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالثمن قالت عائشة فجهزناهما احث الجهاز وصنعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت اسماء بنت ابى بكر
قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق قالت ثم لحق رسول الله صلى الله
عليه وسلم وابو بكر بغار فى جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن ابى بكر وهو
غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع امرا يكادان به
الا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى ابى بكر
منحة من غنم فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل حتى ينعق بهما عامر بن
فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالى الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم
وابو بكر رجلا من بنى الديل وهو من بنى عبد بن عدى هاديا خريتا والخريت الماهر بالهداية
قد غمس حلفا فى آل العاص بن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش فامناه فدفعا اليه راحلتيهما
وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل
الديلى فاخذ بهم طريق السواحل وفى رواية طريق الساحل قال ابن شهاب فاخبرنى عبد الرحمن
بن مالك المدلجى وهو ابن اخى سراقة بن مالك بن جعشم ان اباه اخبره انه سمع سراقة بن مالك بن جعشم
يقول جاءنا رسول كفار قريش يجعلون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابى بكر دية كل واحد
منهما لمن قتله او اسره فبينا انا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج اقبل رجل منهم حتى قام علينا
ونحن جلوس فقال ياسراقة انى قد رايت آنفا اسودة بالساحل اراها محمدا واصحابه قال سراقة
فعرفت انهم هم فقلت له انهم ليسوا بهم ولكنك رايت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة
لهم ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فامرت جاريتى ان تخرج بفرسى وهى من وراء اكمة
فتحبسها علىّ واخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فحططت بزجه الارض وخفضت عاليه

الشهوات فينبغى ان يكون
اول حالهم التجرد عن
الاموال لتنكسر قوى
النفس وتضعف اهواؤها
وصفاتها فتتزكى من
الهيآت المظلمة التى فيها
وتتطهر من خبث الذنوب
ورجس دواعى الشيطان
وذلك معنى قوله (تطهرهم
وتزكيهم بها وصلّ عليهم)
بامداد الهمة وافاضة نور
الصحبة عليهم (ان صلاتك
سكن لهم) اى ان نورك
الذى تفيض عليهم بالتفات
خاطرك اليهم وقوة همتك
وبركة صحبتك سبب نزول
السكينة فيهم تسكن قلوبهم
اليه وتطمئن والسكينة

حتى اتيت فرسى فركبتها فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها فقمت واهوت بيدى الى كنانتى فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها اضرهم ام لافخرج الذى اكره فركبت فرسى وعصيت الازلام تقرب بى حتى اذاسمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لايلتفت وابو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الارض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا الاثر يديها عثان ساطع فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذى اكره فناديتهم بالامان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم ان سيظهر امر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك قد جعلوا فيك الدية واخبرتهم اخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزانى ولم يسألانى الا ان قالا اخف عنا ما استطعت فسألته ان يكتب لى كتاب امن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من اديم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن شهاب فاخبرنى عروة بن الزبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشأم فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وابابكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة الى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد ما اطالوا انتظارهم فلما اووا الى بيوتهم اوفى رجل من يهود على ظهر اطم من آطامهم لامر ينظر اليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودى ان قال بأعلى صوته يامعشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه قال فثار المسلمون الى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام ابو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا فطفق من جاء من الانصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى ابابكر حتى اصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل ابو بكر حتى ظل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة واسس المسجد الذى اسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين فى حجر اسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا ان شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يارسول الله فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول هذا الحمال لاحمال خيبر * هذا ابر ربنا واطهر

ويقول اللهم ان الاجر اجر الآخره فارحم الانصار والمهاجره فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى قال ابن شهاب ولم يبلغنا فى الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت اخرجه البخارى بطوله ❊ شرح غريب الفاظ الحديث قولها لم اعقل ابوى الا وهما يدينان الدين يعنى انهما كانا ينقادان الى الطاعة وبرك الغماد بفتح الباء من برك

نور مستقر فى القلب يثبت معه فى التوجه الى الحق ويتقوى اليقين ويتخلص من الطيش بلمات الشيطان ووساوسه واحاديث النفس وهوا جسها العدم قبوله لها حينئذ (والله سميع) يسمع تضرعهم واعترافهم بذنوبهم (عليم) يعلم نياتهم وعزائمهم ومافى ضمائرهم من الندم والغم (الم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

وكسر الغين المعجمة اسم موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلي ساحل البحر الى المدينة من بلاد غفار وقيل هو قليب ماء لبني ثعلبة قوله تكسب المعدوم فيه قولان احدهما انه لقوة سعده وحظه من الدنيا لا يتعذر عليه كسب كل شئ حتى المعدوم الذى يتعذر كسبه على غيره والقول الثانى انه يملك الشئ المعدوم المتعذر لمن لا يقدر عليه ففيه وصفه بالاحسان والكرم والكل ما يثقل حمله من حقوق الناس وصلة الارحام والقيام بامر العيال واقراء الضيف ونوائب الحق ما ينوب الانسان من المغارم وقضاء الحقوق لمن يقصده انا لك جار اى حام وناصر ومدافع عنك والاستعلان والاعلان اظهار الخفى وقوله فينقذف النساء عليه يعنى يزدحمن عليه والذمة العهد والامان واخفارها نقضها واللابة الجبل والحرة الارض التى تعلوها حجارة سود يقال افعل الشئ على رسلك بكسر الراء اى على هينتك والراحلة البعير القوى على الحمل والسير والظهيرة وقت شدة الحر والنطاق حبل اونحوه تشد به المرأة وسطها وترفع ثوبها من تحته فتعطف طرفا من اعلاه الى اسفله لئلا يصل الى الارض وقولها ثقف لقن يقال ثقف الرجل ثقافة اذا صار حاذقا فطنا واللقن السريع الفهم والادلاج بتخفيف الدال سير اول الليل وبتشديدها سير آخره والمنحة الشاة ذات اللبن والرسل بكسر الراء وسكون السين هو اللبن يقال نعق الراعى بالغنم اذا دعاها لتجتمع اليه والغلس ظلام آخر الليل والخريت تقدم شرحه فى الحديث وهو الماهر بالهداية واراد به هداية الطريق فهو الدليل وقد غمس حلفا يقال غمس فلان حلفا فى آل فلان اذا اخذ بنصيب من عهدهم وحلفهم والاسودة الاشخاص والاكمة التل المرتفع من الارض يقال قرب الفرس يقرب تقريبا اذا عدا عدوا دون الاسراع والكنانة هى الجعبة التى تجعل فيها السهام والازلام القداح التى كانوا يستقسمون بها عند طلب الحوائج كالفال والعثان الغبار يقال ما رزأت فلانا شيأ اى ما اصبت منه شيأ والمراد انهم لم يأخذوا منه شيأ وقوله اوفى اى اشرف واطلع والاطم البناء المرتفع كالحصن وقوله مبيضين هو بكسر الياء اى هم ذو ثياب بياض والمربد الموضع يوضع فيه التمر كالبيدر وقوله هذا الحمال هو بالحاء المهملة يعنى هذا الحمل والمحمول من اللبن ابر عند الله واطهر وابقى ذخرا وادوم منفعة فى الآخرة لا حمال خيبر يعنى ما يحمل من خيبر من التمر والزبيب والطعام المحمول منها والمعنى ان ذلك الحمل الذى تحمله من اللبن لاجل عمارة المسجد افضل عند الله مما يحمل من خيبر وقد روى هذا الجمال بالجيم من التجمل والرواية الاولى اشهر واكثر والله اعلم قال الزهرى لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر الغار ارسل الله سبحانه وتعالى زوجا من حمام حتى باضتا فى اسفل النقب ونسجت العنكبوت بيتا وقيل اتت يمامة على فم الغار وقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم اعم ابصارهم فجعل الطلب يضربون يمينا وشمالا حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت ووجدت فى بعض التفاسير شعرا وقد نسب الى ابى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وهو قوله

قال النبي ولم يجزع يوقرني * ونحن فى سدف فى ظلمة الغار
لا تخش شيأ فان الله ثالثنا * وقد تكفل لى منه باظهار
وانما كيد من تخشى بوادره * كيد الشياطين قد كادت لكفار

وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون وآخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم والله عليم حكيم والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون لا تقم فيه ابدا لمسجد اسس على التقوى) لما كان عالم الملك تحت قهر عالم الملكوت وتسخيره لزم ان يكون لنيات النفوس

والله مهلكهم طرا بما صنعوا * وجاعل المنتهى منهم الى النار

وقوله سبحانه وتعالى (فانزل الله سكينته عليه) يعني فانزل الله الطمأنينة والسكون على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس على ابي بكر لان النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليه السكينة من قبل ذلك * (فصل في الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل سيدى ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه) * منها ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اختفى في الغار من الكفار كان مطلعا على باطن ابي بكر الصديق في سره واعلانه وانه من المؤمنين الصادقين الصديقين المخلصين فاختار صحبته في ذلك المكان المخوف لعلمه بحاله ومنها ان هذه الهجرة كانت باذن الله تعالى فخص الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ابابكر دون غيره من اهله وعشيرته وهذا التخصيص يدل على شرف ابي بكر وفضله على غيره ومنها ان الله سبحانه وتعالى عاتب اهل الارض بقوله تعالى الا تنصروه فقد نصره الله سوى ابي بكر الصديق وهذا دليل على فضله ومنها ان سيدنا ابابكر رضي الله تعالى عنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ولا حضر بل كان ملازما له وهذا دليل على صدق محبته وصحة صحبته له ومنها مؤانسته للنبي صلى الله عليه وسلم في الغار وبذل نفسه له وفي هذا دليل على فضله ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعله ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه وتعالى ثاني اثنين اذهما في الغار وفي هذا نهاية الفضيلة لابي بكر رضي الله تعالى عنه وقد ذكر بعض العلماء ان ابابكر كان ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في اكثر الاحوال ومنها ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا الخلق الى الايمان بالله وكان ابو بكر اول من آمن ثم دعا ابو بكر الى الايمان بالله ورسوله فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير فآمنوا على يدى ابي بكر ثم حملهم الى النبي صلى الله عليه وسلم لم يقف في موقف من غزواته الا وابوبكر معه في ذلك الموقف ومنها انه لما مرض صلى الله عليه وسلم قام مقامه في الامامة فكان ثانيه ومنها انه ثانية في تربته صلى الله عليه وسلم وفي هذا دليل على فضل ابي بكر الصديق ومنها ان الله سبحانه وتعالى نص على صحبة ابي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى اذ يقول لصاحبه لاتحزن ومنها ان الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره منها وانزال السكينة على ابي بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله اعلم وقوله سبحانه وتعالى (وايده بجنود لم تروها) يعني وايد النبي صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة ليصرفوا وجوه الكفار وابصارهم عن رؤيته وقيل القى الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبي اعانه بالملائكة يوم بدر فأخبر الله سبحانه وتعالى انه نصره وصرف عنه كيد الاعداء وهو في الغار في حالة القلة والخوف ثم نصره بالملائكة يوم بدر (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) يعني كلمة الشرك فهي سفلى الى يوم القيامة (وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) قال ابن عباس هي كلمة لا اله الا الله فهي باقية الى يوم القيامة عالية وقيل ان كلمة الذين كفروا هي ماكانوا قدروها فيما بينهم من الكيد للنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه وكلمة الله هي ماوعده من النصر والظفر بهم فكان ماوعد الله سبحانه وتعالى حقا وصدقا * قوله سبحانه وتعالى (انفروا خفافا وثقالا) يعني انفروا على الصفة التي يخف عليكم الجهاد بها وعلى الصفة التي يثقل عليكم فيها وهذان الوصفان يدخل تحتهما اقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال الحسن

وهيآتها تأثير فيما باشرها من الاعمال فكل مافعل بنية صادقة لله تعالى عن هيئة نورانية صحبته بركة ويمن وجمعية وصفا وكل مافعل بنية فاسدة شيطانية عن هيئة مظلمة صحبته تفرقة وكدورة ومحق وشؤم الاترى الكعبة كيف شرفت وعظمت وجعلت متبركة لكونها مبنية على يدى نبي من انبياء الله بنية صادقة ونفس شريفة صافية عن كمال اخلاص لله تعالى ونحن نشاهد اثر ذلك في اعمال الناس ونجد اثر الصفاء والجمعية في بعض

(والضحاك)

مجاهد وقتادة وعكرمة يعنى شبابا وشيوخا وقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال عطية العوفى ركبانا ومشاة وقاله ابو صالح خفافا من المال يعنى فقراء وثقالا يعنى اغنياء وقال ابن زيد الخفيف الذى لاضيعة له والثقيل الذى له الضيعة يكره ان يدع ضيعته ويروى عن ابن عباس قال خفافا اهل اليسرة من المال وثقالا اهل العسرة وقيل خفافا يعنى من السلاح مقلين منه وثقالا يعنى مستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل وقيل اصحاء ومرضى وقيل عزابا ومتاهلين وقيل خفافا من الحاشية والاتباع وثقالا مستكثرين منهم وقيل خفافا يعنى مسرعين فى الخروج الى الغز وساعة سماع النفير وثقالا يعنى بعد التروى فيه والاستعداد له والصحيح ان هذا عام لان هذه الاحوال كلها داخلة تحت قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا يعنى على اى حال كنتم فيهما فان قلت فعلى هذا يلزم الجهاد لكل احد حتى المريض والزمن والفقير وليس الامر كذلك فما معنى هذا الامر قلت من العلماء من حمله على الوجوب ثم انه نسخ قال ابن عباس نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية وقال السدى نسخت بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الامر على الندب قال مجاهد ان ابا ايوب الانصارى شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده فقيل له فى ذلك فقال سمعت الله عزوجل يقول انفروا خفافا وثقالا ولا اجدنى الاخفيفا اوثقيلا وقال الزهرى خرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت احدى عينيه فقيل له انك عليل صاحب ضر فقال استنفر الله الخفيف والثقيل فان لم يمكنى الحرب كثرت السواد اوحفظت المتاع وقال صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من اهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت ياعم انت معذور عندالله فرفع حاجبيه وقال ياابن اخى استنفرنا الله خفافا وثقالا الا انه من يحبه يبتليه والصحيح هو القول الاول انها منسوخة وان الجهاد من فروض الكفايات ويدل عليه ان هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك وان النبى صلى الله عليه وسلم خلف فى المدينة فى تلك الغزاة النساء وبعض الرجال فدل ذلك على ان الجهاد من فروض الكفايات ليس على الاعيان والله اعلم * وقوله سبحانه وتعالى (وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله) فيه قولان الاول ان الجهاد انما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثانى ان من كان له مال وهو مريض اومقعد اوضعيف لايصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بان يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهدا بماله دون نفسه (ذلكم) يعنى ذلكم الجهاد (خير لكم) يعنى من القعود والتثاقل عنه وقيل معناه ان الجهاد خير حاصل لكم ثوابه (ان كنتم تعلمون) يعنى ان ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه ثم نزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قوله عزوجل (لو كان عرضا قريبا) فيه اضمار تقديره لوكان ماتدعوهم اليه عرضا يعنى غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ماعرض لك من منافع الدنيا ومتاعها يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (وسفرا قاصدا) يعنى سهلا قريبا (لاتبعوك) يعنى لخرجوا معك (ولكن بعدت عليهم الشقة)

الموضع والبقاع والكدورة والتفرقة فى بعضها وماهو الاذلك فلهذا قال لمسجد اسس على التقوى (من اول يوم احق ان تقوم فيه) لان الهيآت الجسمانية مؤثرة فى النفوس كان الهيآت النفسانية مؤثرة فى الاجسام فاذا كان موضع القيام مبنيا على التقوى وصفاء النفس تأثرت النفس باجتماع الهم وصفاء الوقت وطيب الحال وذوق الوجدان واذا كان مبنيا على الرياء والضرار تأثرت بالكدورة والتفرقة والقبض (فيه رجال يحبون ان يتطهروا) اى اهل ارادة وسعى فى التطهر

اى المسافة والشقة السفر البعيد لانه يشق على الانسان سلوكها ومعنى الآية لوكان العرض قريبا والغنيمة سهلة والسفر قاصدا لاتبعوك طمعا فى تلك المنافع التى تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيدا وكانوا يستعظمون غزو الروم لاجرم انهم تخلفوا لهذا السبب ثم اخبر الله سبحانه وتعالى عنهم انه اذا رجع النبى عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى (وسيحلفون بالله) يعنى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة (لو استطعنا لخرجنا معكم) يعنى الى هذه الغزوة (يهلكون انفسهم) يعنى بسبب هذه الايمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على ان الايمان الكاذبة تهلك صاحبها (والله يعلم انهم لكاذبون) يعنى فى ايمانهم وهو قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم لانهم كانوا مستطيعين الخروج * قوله عز وجل (عفا الله عنك لم اذنت لهم) قال الطبرى هذا عتاب من الله عز وجل عاتب الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم اى فى اذنه لمن اذن له فى التخلف عنه من المنافقين حين شخص الى تبوك لغزو الروم والمعنى عفا الله عنك يا محمد ما كان منك فى اذنك لهؤلاء المنافقين استأذنوك فى ترك الخروج معك الى تبوك قال عمرو بن ميمون الاودى اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بشئ فيهما اذنه للمنافقين واخذه الفداء من اسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل ان يعيره بالذنب

* (فصل) * استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الانبياء وبيانه من وجهين احدهما انه سبحانه وتعالى قال عفا الله عنك والعفو يستدعى سابقة الذنب الوجه الثانى انه سبحانه وتعالى قال لم اذنت لهم وهذا استفهام معناه الانكار * والجواب عن الاول انا لانسلم ان قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول ان ذلك يدل على المبالغة فى التعظيم والتوقير فهو كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظما له عفا الله عنك ماصنعت فى امرى رضى الله عنك ماجوابك عن كلامى وعافاك الله وغفر لك كل هذه الالفاظ فى ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال على بن الجهم يخاطب المتوكل

عفا الله عنك الا حرمة * تعود بفضلك ان ابعدا * الم تر عبدا عدا طوره

ومولى عفا ورشيدا هدى * اقلنى اقالك من لم يزل * يقيل ويصرف عنك الردى

والجواب عن الثانى انه لايجوز ان يكون المراد بقوله لم اذنت لهم الانكار عليه وبيانه اما ان يكون قد صدر عنه ذنب فى هذه الواقعة اولا فان كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لايليق فقوله عفا الله عنك يدل على حصول العفو وبعد حصول العفو يستحيل ان يتوجه الانكار عليه وان لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الانكار عليه فثبت بهذا ان الانكار يمتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم وقال القاضى عياض فى كتابه الشفاء فى الجواب عن قوله عفا الله عنك لم اذنت لهم انه امر لم يتقدم للنبى صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ولاعده تعالى عليه معصية بل لم يعده اهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك قال نفطويه وقد حاشاه الله من ذلك بل كان مخيرا فى امرين قالوا وقد كان له ان يفعل مايشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحى فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى له فأذن لمن شئت منهم فلما اذن لهم اعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم انه لو لم يأذن لهم لقعدوا وانه لاحرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبى صلى الله

عن الذنوب نبه على ان صحبة الصالحين من اهل الارادة لها اثر عظيم يجب ان تختار وتؤثر على غيرها كما ان المقام له اثر يجب ان يراعى ويتعاهد ولهذا ورد فى اصطلاح القوم يجب مراعاة الزمان والمكان والاخوان فى حصول الجمعية وجعلوها شرطالها وفيه اشعار بان زكاء نفس البانى وصدق نيته مؤثر فى البناء وان تبرك المكان وكونه مبنيا على الخير يقتضى ان يكون فيه اهل

وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط اى لم يلزمكم ذلك ونحوه للقشيرى قال وانما يقول العفو لايكون الاعن ذنب من لايعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك اى لم يلزمك ذنب قال الداودى انها تكرمة وقال مكى هو استفتاح كلام مثل اصلحك الله واعزك وحكى السمرقندى ان معناه عافاك الله وقيل معناه ادام الله لك العفو لم اذنت لهم يعنى فى التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الاولى والاكمل لاسيما وهذه كانت من جنس مايتعلق بالحروب ومصالح الدنيا (حتى يتبين لك الذين صدقوا) يعنى فى اعتذارهم (وتعلم الكاذبين) يعنى فيما يعتذرون به قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة * قوله سبحانه وتعالى (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم) اى فى ان يجاهدوا وانما حسن هذا الحذف لظهوره (والله عليم بالمتقين) يعنى الذين يتقون مخالفته ويسارعون الى طاعته (انما يستأذنك) يعنى فى التخلف عن الجهاد معك يامحمد من غير عذر (الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون لقوله (وارتابت قلوبهم) يعنى شكت قلوبهم فى الايمان وانما اضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان ايضا فاذا دخله الشك كان ذلك نفاقا (فهم فى ريبهم يترددون) يعنى ان المنافقين متحيرون لامع الكفار ولامع المؤمنين وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآية فقيل انها منسوخة بالآية التى فى سورة النور وهى قوله سبحانه وتعالى ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله وقيل انها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان فاذا عرض لاحدهم عذر استأذن فى التخلف فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا فى الاذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم واما المنافقون فكانوا يستأذنون فى التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر (ولو ارادوا الخروج) يعنى الى الغزو معكم (لاعدوا له عدة) لتهيؤا له باعداد آلات السفر وآلات القتال من الكراع والسلاح (ولكن كره الله انبعاثهم) يعنى خروجهم الى الغزو معكم (فثبطهم) يعنى منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى ان الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم فصرفهم عنه وههنا يتوجه سؤال وهو ان خروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم اما ان يكون فيه مصلحة او مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم فى اذنه لهم بالقعود والجواب عن هذا السؤال ان خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيه مفسدة عظيمة بدليل انه تعالى اخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا بقى فلم عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله لم اذنت لهم فنقول انه صلى الله عليه وسلم اذن لهم قبل تمام الفحص واكمال التأمل والتدبر فى حالهم فلهذا السبب قال تعالى لم اذنت لهم وقيل انما عاتبه لاجل انه اذن لهم قبل ان يوحى اليه فى امرهم بالقعود (وقيل اقعدوا مع القاعدين) معناه انهم لما استأذنوه فى القعود قيل لهم اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى واهل الاعذار ثم اختلفوا فى القائل من هو فقيل قال بعضهم لبعض اقعدوا مع القاعدين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما

الخير والصلاح ممن يناسب حاله حال بانيه وان محبة الله واجبة لاهل الارادة والطهارة لقوله (والله يحب المطهرين) كيف لولا محبة الله اياهم لما أحبوا التطهر (افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا

قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأذنوه في القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل ان القائل ذلك هو الله سبحانه وتعالى بان القى في قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين الى الجهاد * ثم بين سبحانه وتعالى ما في خروجهم من المفاسد فقال تعالى (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا) يعني لو خرج هؤلاء المنافقون معكم الى الغزو ما زادوكم الا فسادا وشرا واصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قال بعض النحاة هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لو خرجوا فيكم ما زادوكم قوة لكن خبالا والمراد به هنا الافساد وايقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الامر وشدة السفر وكثرة العدو وقوتهم (ولاوضعوا خلالكم) يعني ولاسرعوا فيكم وساروا بينكم بالقاء النميمة والاحاديث الكاذبة فيكم (يبغونكم الفتنة) يعني يطلبون لكم ما تفتنون به وذلك انهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التي تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر (وفيكم سماعون لهم) قال مجاهد يعني وفيكم عيون لهم يؤدون اليهم اخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس وقال قتادة وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك انهم يلقون اليهم انواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم فان قلت كيف يجوز ان يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين قلت يحتمل ان يكون بعض المؤمنين لهم اقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فاذا قالوا قولا ربما اثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الاحوال (والله عليم بالظالمين) وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين *وقوله سبحانه وتعالى (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) يعني لقد طلبوا صد اصحابك يا محمد عن الدين وردهم الى الكفر وتخذيل الناس عنكم قبل هذا اليوم كما فعل عبد الله بن ابي بن سلول يوم احد حين انصرف باصحابه عنكم (وقلبوا لك الامور) يعني واجالوا فيك وفي امرك وفي ابطال دينك الراى وبالغوا في تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت امرك (حتى جاء الحق) يعني النصر والظفر (وظهر امر الله وهم كارهون) يعني ذلك * قوله عز وجل (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) نزلت في الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما تجهز الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس يا اباوهب هل لك في جلاد بني الاصفر يعني الروم تتخذ منهم سراري ووصفاء فقال الجد يا رسول الله لقد عرف قومي اني رجل مغرم بحب النساء واني اخشى ان رايت بنات بني الاصفر ان لا اصبر عنهن ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن واعينك بمالي قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة الا النفاق فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد اذنت لك فانزل الله عز وجل فيه ومنهم يعني ومن المنافقين من يقول ائذن لي يعني في التخلف والقعود في المدينة ولا تفتني يعني ببنات بني الاصفر وهم الروم (الا في الفتنة سقطوا) يعني انهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهي النفاق ومخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عنه (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) يعني يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها * قوله سبحانه وتعالى (ان تصبك حسنة تسؤهم) يعني ان تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين (وان تصبك مصيبة) يعني من هزيمة اوشدة (يقولوا) يعني المنافقين (قد اخذنا امرنا) يعني اخذنا امرنا بالجد والحزم في القعود عن الغزو (من قبل) يعني من قبل هذه المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) يعني مسرورين

عليه حقا في التورية والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) لما هداهم الى الايمان العلمي وهم مفتونون بمحبة الاموال والانفس استنزلهم لفرط عنايته بهم عن مقام

لما نالك من المصيبة وسلامتهم منها (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) يعني قل يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه لن يصيبنا الا ما قدره الله لنا وعلينا وكتبه في اللوح المحفوظ لان القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر احد ان يدفع عن نفسه مكروها نزل به او يجلب لنفسه نفعا اراده لم يقدر له (هو مولانا) يعني الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو اولى بنا من انفسنا في الموت والحياة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعني في جميع امورهم (قل هل تربصون بنا) يعني قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا ايها المنافقون (الا احدى الحسنيين) يعني اما النصر والغنيمة واما الشهادة والمغفرة وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الغزو والجهاد في سبيل الله اما ان يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والاجر العظيم في الآخرة واما ان يقتل في سبيل الله فتحصل له الشهادة وهي الغاية القصوى ويدل على ذلك ما روى عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله وفي رواية تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الا جهادا في سبيلي وايمانا بي وتصديقا برسلي فهو علي ضامن ان ادخله الجنة او ارجعه الى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من اجر او غنيمة اخرجاه في الصحيحين * وقوله سبحانه وتعالى (ونحن نتربص بكم) يعني ونحن ننتظر بكم احدى السوأيين (ان يصيبكم الله بعذاب من عنده) يعني فيهلككم كما اهلك من كان قبلكم من الامم الخالية (او بايدينا) يعني او يصيبكم بايدي المؤمنين بان يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم (فتربصوا انا معكم متربصون) قال الحسن فتربصوا مواعيد الشيطان انا متربصون مواعيد الله من اظهار دينه واستئصال من خالفه (قل انفقوا طوعا او كرها) نزلت في الجد بن قيس المنافق وذلك انه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود عنه وقال انا اعطيكم مالي فانزل الله عز وجل ردا عليه قل اي قل يا محمد لهذا المنافق وامثاله في النفاق انفقوا طوعا او كرها يعني انفقوا طائعين من قبل انفسكم او مكرهين بالانفاق بالزام الله ورسوله اياكم بالانفاق (لن يتقبل منكم) لان هذا الانفاق انما وقع لغير الله وهذه الآية وان كانت خاصة في انفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من انفق ماله لغير وجه الله بل انفقه رياء وسمعة فانه لا يقبل منه * ثم علل بسبب منع القبول بقوله (انكم) اي لانكم (كنتم قوما فاسقين) والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله) اي المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله (ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى) جمع كسلان يعني متثاقلين في الاتيان الى الصلاة وذلك لانهم لا يرجون على فعلها ثوابا ولا يخافون على تركها عقابا فلذلك ذمهم مع فعلها (ولا ينفقون الا وهم كارهون) لانهم كانوا يعتقدون الانفاق في سبيل الله مغرما ومنع ذلك الانفاق مغنما (فلا تعجبك) يا محمد (اموالهم ولا اولادهم) هذا الخطاب وان كان مختصا بالنبي صلى الله عليه وسلم الا ان المراد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا باموال المنافقين واولادهم والاعجاب السرور بالشيء مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد انه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشيء ويكون سبب انقطاعه عن الله عز وجل فينبغي للانسان ان لا يعجب بشيء من امور الدنيا ولذاتها فان العبد اذا كان من الله عز وجل في استدراج كثر ماله وولده فيكثر اعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر نعمة الله عليه ولهذا

قال سبحانه وتعالى (انما يريد الله ليعذبهم بها في الحيوة الدنيا) فان قلت كيف يكون المال والولد عذابا في الدنيا وفيهما اللذة والسرور في الدنيا قلت قال مجاهد وقتادة في الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة وقيل ان سبب كون المال والولد عذابا في الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق في تحصيلهما فاذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما فعلى هذا القول لا حاجة الى التقديم والتأخير في نظم الآية واورد على هذا القول بان هذا التعذيب حاصل لكل احد من بني آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب في الدنيا واجيب عن هذا الايراد بان المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو ان المؤمن قد علم انه مخلوق للآخرة وانه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذابا في الدنيا واما المنافق فانه لا يعتقد كون الآخرة له وانه ليس فيها ثواب فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه في الدنيا فثبت بهذا الاعتبار ان المال والولد عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين وقيل ان تعذيبهم بهما في الدنيا اخذ الزكاة منهم والنفقة في سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد في الغزو فلا يثاب الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله وقيل يعذبهم بالتعب في جمعه وحفظ والكره في انفاقه والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده ثم يقدم في الآخرة على ملك لا يعذره (وتزهق انفسهم) يعني وتخرج انفسهم (وهم كافرون) والمعنى انهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة * قوله عز وجل (ويحلفون بالله) يعني المنافقين (انهم لمنكم) يعني على دينكم وملتكم (وما هم منكم) يعني انهم كاذبون في ايمانهم (ولكنهم قوم يفرقون) يعني انهم يخافون ان تظهروا على ما هم عليه من النفاق (لو يجدون ملجأ) يعني حرزا وحصنا ومعقلا يلجؤن اليه وقيل لو وجدوا مهربا لهربوا اليه وقيل لو يجدون قوما يأمنون عندهم على انفسهم منكم لصاروا اليهم ولفارقوكم (او مغارات) يعني غيرانا في الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه الانسان اي يستتر (او مدخلا) يعني موضع دخول يدخلون فيه وهو السرب في الارض كنفق اليربوع وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولوا اليه) والمعنى انهم لو وجدوا مكانا بهذه الصفة او على احد هذه الوجوه الثلاثة وهي شر الامكنة واضيقها لولوا اليه اي لرجعوا اليه وتحرزوا فيه (وهم يجمحون) يعني وهم يسرعون الى ذلك المكان والمعنى ان المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لو قدروا ان يهربوا منكم الى احد هذه الامكنة لصاروا اليه لشدة بغضهم اياكم * قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من يلمزك في الصدقات) نزلت في ذي الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير وهو اصل الخوارج (ق) عن ابي سعيد الخدري قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم فيأتاه ذو الخويصرة رجل من بني تميم فقال يارسول الله اعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل اذا لم اعدل وفي رواية قد خبت وخسرت ان لم اعدل فقال عمر بن الخطاب ائذن لي فيه فاضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فان له اصحابا

يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم زاد فى رواية يقرؤن القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الدين وفى رواية من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبي قال رجل من المنافقين يقال له ابو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا ان رجلا من اهل البادية حديث عهد باعرابية اتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة قال يا محمد والله لئن كان الله امرك ان تعدل فاعدلت فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم ويلك فمن ذا يعدل بعدى وقال ابن زيد قال المنافقون والله مايعطيها محمد الامن احب ولايؤثر بها الامن يهواه فانزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات يعنى ومن المنافقين من يعيبك فى قسم الصدقات وفى تفريقها ويطعن عليك فى امرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد اى عابه (فان اعطوا منها) يعنى من الصدقات (رضوا) يعنى رضوا عنك فى قسمتها (وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون) يعنى وان لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا (ولوانهم رضوا) يعنى ولو ان المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا (ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله) اى كافينا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) يعنى مانحتاج اليه (انا الى الله راغبون) يعنى فى ان يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيرها من اموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيرا لهم واعود عليهم * قوله عزوجل (انما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية اعلم ان المنافقين لما لمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعابوه فى قسم الصدقات بين الله عزوجل فى هذه الآية ان المستحقين للصدقات هؤلاء الاصناف الثمانية ومصرفها اليهم ولاتعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها بشئ ولم يأخذ لنفسه منها شيأ فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات عن زياد بن الحرث الصدائى قال اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فاتاه رجل فقال اعطنى من الصدقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يرض بحكم نبي ولاغيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية اجزاء فان كنت من تلك الاجزاء اعطيتك حقك اخرجه ابوداود

* (فصل فى بيان حكم هذه الآية فيه مسائل) * المسئلة الاولى فى بيان وجه الحكمة فى ايجاب الزكاة على الاغنياء وصرفها الى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه الوجه الاول ان المال محبوب بالطبع وسببه ان القدرة صفة من صفات الكمال وصفة الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوبا بالطبع فاذا استغرق القلب فى حب المال اشتغل به عن حب الله عزوجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة الى الله عزوجل فاقتضت الحكمة الالهية ايجاب الزكاة فى ذلك المال الذى هو سبب البعد عن الله فيصير سبب القرب من الله عزوجل باخراج الزكاة منه الوجه الثانى ان كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل الى شهواتها ولذاتها فاوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذى هو سبب لقساوة القلب الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لان التكاليف البدنية غير شاقة على العبد واخراج المال مشق على النفس فأوجب الله عزوجل الزكاة على العباد ليمتحن باخراج الزكاة اصحاب الاموال ليميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصى المانع لها الوجه الرابع ان المال مال الله والاغنياء خزان الله والفقراء

عيال الله فامر الله سبحانه وتعالى خزانة الذين هم اغنياء بدفعه من ماله الى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع امتثال الامر المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله (ق) عن ابي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الخازن المسلم الامين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما امر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه الى الذي امر له به احد المتصدقين الوجه الخامس ان الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالاموال التي بايدي الاغنياء فاوجب الله عزوجل نصيبا للفقراء في ذلك المال تطييبا لقلوبهم الوجه السادس ان المال الفاضل عن حاجة الانسان الاصلية اذا امسك بقي معطلا عن المقصود الذي لاجله خلق المال فامر بدفع الزكاة الى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلا بالكلية * (المسئلة الثانية) * الآية تدل على انه لا حق لاحد في الصدقات الا هؤلاء الاصناف الثمانية وذلك مجمع عليه لان كلمة انما تفيد الحصر وذلك لانها مركبة من ان وما فكلمة ان للاثبات وكلمة ما للنفي فعند اجتماعهما يفيدان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على ان الصدقات لا تصرف الا الى الاصناف الثمانية * (المسئلة الثالثة) * في بيان الاصناف الثمانية فالصنف الاول الفقراء والثاني المساكين وهم المحتاجون الذين لا يفي خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهري الفقير الذي لا يسأل والمسكين السائل وقال ابن عمر ليس بفقير من جمع الدرهم الى الدرهم والتمرة الى التمرة ولكن الفقير من انقى نفسه وثيابه ولا يقدر على شيء يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف وقال قتادة الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان اوغير زمن والمسكين من له مال او حرفة ولكن لا تقع منه موقعا الكفاية سائلا كان او غير سائل فالمسكين عنده احسن حالا من الفقير وقال ابو حنيفة واصحاب الرأي الفقير احسن حالا من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعي ومن وافقه ان الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات الى هؤلاء الاصناف الثمانية دفعا لحاجتهم وتحصيلا لمصلحتهم فبدأ بالفقراء وانما يبدأ بالاهم فالاهم فلو لم تكن حاجتهم اشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم واصل الفقير المكسور الفقار قال لبيد

لما رأى لبد النسور تطايرت * رفع القوادم كالفقير الاعزل

قال ابن الاعرابي الفقير في هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا ان الفقير انما سمي فقيرا لزمانته وحاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب في الكسب ولان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الفقر وقال اللهم احيني مسكينا وامتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة رواه الترمذي من حديث انس فلو كان المسكين اسوأ حالا من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا ان المسكين احسن حالا من الفقير ولان الله سبحانه وتعالى قال اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأثبت لهم ملكا مع اسم المسكنة لان السفينة من سفن البحر تساوي دنانير كثيرة ولان الغنى والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا ان الفقير اسوأ حالا من المسكين وحجة ابي حنيفة ومن وافقه على ان المسكين اسوأ حالا من الفقير قوله او مسكينا ذا متربة وصف المسكين بكونه ذا متربة وهو الذي لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولان الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين اشد حاجة من غيره لما جعلها له

واحتج ايضا بقول الراعى اما الفقير الذى كانت حلوبته * وفى العيال فلم يترك له سبد
واحتج ايضا بقول الاصمعى وابى عمرو بن العلاء ان الفقير الذى له ما يأكل والمسكين الذى لا شئ له وكذا قال القتيبى الفقير الذى له البلغة من العيش والمسكين الذى لا شئ له وقيل الفقير الذى له المسكن والخادم والمسكين الذى لا ملك له وقيل ان كل محتاج الى شئ فهو مفتقر اليه وان كان غنيا عن غيره قال الله سبحانه وتعالى انتم الفقراء الى الله فاثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج اما قوله او مسكينا ذا متربة فهو حجة لمذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه لانه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على انه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة والا لم يبق لهذا القيد فائدة والجواب من جعل الكفارات للمسكين انه هو الفقير الذى اصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعى انه ذكر الفقير وحده وكل فقير افرد بالاسم جاز اطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به واما الروايات المذكورة فهى معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين وبالجملة ان الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذى كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذى ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة فى طلب القوت عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى اخرجه النسائى وابو داود وله فى رواية اخرى ولا لذى مرة قوى عن عبيد الله بن عدى بن الخيار قال اخبرنى رجلان انهما اتيا النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلدين فقال ان شئتما اعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب اخرجه ابو داود والنسائى واخرجه الشافعى ولفظه ان رجلين اتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن الصدقة فقال ان شئتما اعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لذى قوة مكتسب واختلف العلماء فى حد الغنى الذى يمنع من اخذ الصدقة فقال الاكثرون حده ان يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعى وقال اصحاب الرأى حده ان يملك مائتى درهم وقال قوم من ملك خمسين درهما او قيمتها لا تحل له الصدقة لما روى عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسئلته فى وجهه خموش او خدوش او كدوح قيل يا رسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما او قيمتها من الذهب اخرجه ابو داود والترمذى والنسائى وهذا قول الثورى وابن المبارك واحمد واسحق وقالوا لا يجوز ان يعطى الرجل اكثر من خمسين درهما من الزكاة وقيل اربعين درهما لما روى عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة اوقية فقد الحف اخرجه ابو داود وكانت الاوقية فى ذلك الزمان اربعين درهما * الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى (والعاملين عليها) وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من اهلها ووضعها فى جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر اجور اعمالهم سواء كانوا فقراء واغنياء وهذا قول ابن عمر وبه قال الشافعى وقال مجاهد والضحاك يعطون الثمن من الصدقات وظاهر اللفظ مع مجاهد الا ان الشافعى يقول هو اجرة عمل تتقدر بقدر العمل والصحيح ان الهاشمى والمطلبى لا يجوز ان يكون عاملا على الصدقات لما روى عن ابى رافع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من بنى مخزوم على الصدقة فاراد ابو رافع ان يتبعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل

محبة الاموال والانفس بالتجارة المربحة والمعاملة المرغوبة بان جعل جنة النفس ثمن اموالهم وانفسهم ليكون الثمن من جنس المثمن الذى هو مالوفهم لكنه الذواشهى وارغب وابقى فرغبوا فيما عنده وصدقوا القوة اليقين وعده ثم لما ذاقوا بالتجرد عنها لذة الترك وحلاوة نور اليقين رجعوا عن مقام لذة النفس وتابوا عن هواها ومشتهياتها فلم يبق عندهم لجنة النفس قدر فوصفهم بالتائبين بالحقيقة الراجعين من طلب ملاذ النفس وتوقع الاجر اليه العابدين الذين اذا رجعوا من محبة النفس والمال

لنا الصدقة وان مولى القوم منهم اخرجه الترمذى والنسائى * الصنف الرابع قوله تعالى (والمؤلفة قلوبهم) وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فاما قسم المسلمين فقسمان القسم الاول هم قوم من اشراف العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما اعطى عيينة بن حصن والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمى فهؤلاء اسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم لتقوى رغبتهم فى الاسلام وقوم اسلموا وكانت نيتهم قوية فى الاسلام وهم اشراف قومهم مثل عدى بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم تألفا لقومهم وترغيبا لامثالهم فى الاسلام فيجوز للامام ان يعطى امثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفئ من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات ايضا القسم الثانى من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بازاء قوم كفار فى موضع لاتبلغهم جيوش المسلمين الابكلفة كثيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بازائهم من المسلمين لايجاهدونهم لضعف نيتهم او لضعف حالهم فيجوز للامام ان يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة قلوبهم ومن هؤلاء قوم بازاء جماعة من مانعى الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها الى الامام فيعطيهم الامام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله روى ان عدى بن حاتم جاء ابابكر بثلثمائة من الابل من صدقات قومه فأعطاه ابوبكر منها ثلاثين بعيرا واما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم او يرجى اسلامهم فيجوز للامام ان يعطى من يخاف شره او يرجوا اسلامه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من خمس الخمس كما اعطى صفوان بن امية لما كان يرى من ميله الى الاسلام اما اليوم فقد اعز الله الاسلام وله الحمد على ذلك واغناه عن ان يتألف عليه احد من المشركين فلا يعطى مشرك تألفا بحال وقد قال بهذا كثير من اهل العلم وراوا ان المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمر وعكرمة وهو قول الشعبى وبه قال مالك والثورى واصحاب الراى واسحق بن راهويه وقال قوم سهمهم ثابت لم يسقط يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهرى وابى جعفر محمد بن على وابى ثور وقال احمد يعطون ان احتاج المسلمون الى ذلك * الصنف الخامس قوله سبحانه وتعالى (وفى الرقاب) قال الزجاج فيه حذف تقديره وفى فك الرقاب وفى تفسير الرقاب اقوال الاول ان سهم الرقاب موضوع فى المكاتبين فيدفع اليهم ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وهو قول اكثر الفقهاء منهم سعيد بن جبير والنخعى والزهرى والليث بن سعد ويدل عليه ايضا قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم القول الثانى وهو مذهب مالك واحمد واسحق ان سهم الرقاب موضوع لعتق الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ماروى عن ابن عباس انه قال لابأس ان يعتق الرجل من الزكاة القول الثالث وهو قول ابى حنيفة واصحابه انه لايعتق من الزكاة رقبة كاملة ولكن يعطى منها فى عتق رقبة ويعان بها مكاتب لان قوله وفى الرقاب يقتضى التبعيض القول الرابع وهو قول الزهرى ان سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم اسلامهم فيعتقون من الزكاة قال اصحابنا الاحوط فى سهم الرقاب ان يدفع الى السيد باذن المكاتب ويدل عليه انه سبحانه وتعالى اثبت الصدقات للاصناف الاربعة المتقدمة بلام الملك فقال انما الصدقات للفقراء وقال فى الصنف الخامس

وطلب الاجر والثواب عبدوا الله حق عبادته لا رغبة ولا رهبة بل تشبها بملكوته فى القيام بحقه تعالى بالخضوع والخشوع والتذلل ولعظمته كبريائه تعظيما واجلالا ثم حمدوا الله حق حمده باظهار الكمالات العملية الخلقية والعملية المكنونة فى استعداداتهم بالقوة حمدا فعليا حاليا ثم ساحوا اليه بالهجرة من مقام الفطرة ورؤية الكمالات الثابتة وتألفهم

وفى الرقاب فلابد لهذا الفرق من فائدة وهى ان الاصناف الاربعة المتقدم ذكرها يدفع اليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاؤا واما الرقاب فيوضع نصيبهم فى تخليص رقابهم من الرق ولايدفع اليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول فى الغارمين فيصرف نصيبهم فى قضاء ديونهم وفى الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون اليه فى الغزو وكذا ابن السبيل فيصرف اليه مايحتاج اليه فى سفره الى بلوغ غرضه * الصنف السادس * قوله سبحانه وتعالى (والغارمين) اصل الغرم فى اللغة لزوم مايشق على النفس وسمى الدين غرما لكونه شاقا على الانسان والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان قسم ادانوا لانفسهم فى غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم اذا لم يكن لهم مال يفى بديونهم فان كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم ادانوا فى المعروف واصلاح ذات البين فيعطون من مال الصدقات مايقضون به ديونهم وان كانوا اغنياء لما روى عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاتحل الصدقة لغنى الا لخمسة لغاز فى سبيل الله اولعامل عليها اولغارم اولرجل اشتراها بماله اولرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغنى اخرجه ابوداود مرسلا لان عطاء بن يسار لم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم ورواه معمر عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار عن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم متصلا بمعناه امامن كان دينه فى معصية فلايعطى من الصدقات شيأ * الصنف السابع * قوله تعالى (وفى سبيل الله) يعنى وفى النفقة فى سبيل الله واراد به الغزاة فلهم سهم من مال الصدقات فيعطون اذا ارادوا الخروج الى الغزو مايستعينون به على امر الجهاد من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة فيعطون ذلك وان كانوا اغنياء لما تقدم من حديث عطاء وابى سعيد الخدرى ولايعطى من سهم سبيل الله لمن اراد الحج عند اكثر اهل العلم وقال قوم يجوزان يصرف سهم سبيل الله الى الحج روى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن واليه ذهب احمد بن حنبل واسحق بن راهويه وقال بعضهم ان اللفظ عام فلايجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا اجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لان قوله وفى سبيل الله عام فى الكل فلايختص بصنف دون غيره والقول الاول هو الصحيح لاجماع الجمهور عليه * الصنف الثامن * قوله سبحانه وتعالى (وابن السبيل) يعنى المسافر من بلد الى بلد والسبيل الطريق سمى المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر

انا ابن الحرب ربتنى وليدا * الى ان شبت واكتهلت لداتى

وكل مريد سفرا مباحا ولم يكن له مايقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات مايكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال فى البلد الذى يقصده اولم يكن له مال وقال قتادة ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق ابن السبيل هو الحاج المنقطع * وقوله تعالى (فريضة من الله) يعنى ان هذه الاحكام التى ذكرها فى هذه الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه فريضة (والله عليم) يعنى بمصالح عباده (حكيم) يعنى فيما فرض لهم لايدخل فى تدبيره وحكمه نقض ولاخلل * (المسئلة الرابعة) * فى احكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على ان المراد بقوله انما الصدقات للفقراء هى الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من اموالهم صدقة واختلفوا فى كيفية قسمتها

واعتدادهم وابتهاجهم بها فى مفاوز الصفات منازل السبحات ثم ركعوا فى مقام محو الصفات ثم سجدوا بفناء الذات ثم قاموا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر والمحافظة على حدود الله فى مقام البقاء بعد الفناء (وبشر المؤمنين) بالايمان الحقيقى المقيمين فى مقام الاستقامة (ماكان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كان اولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم وما كان استغفار ابرهيم لابيه الاعن

وفى جواز صرفها كلها الى بعض الاصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء الى انه لايجوز صرفها كلها الى بعض الاصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة واليه ذهب الشافعى قال يجب ان يقسم زكاة ماله على الموجودين من الاصناف الستة الذين سماهم ثمانية اقسام قسمة على السواء لان سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط اذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من الاصناف الستة لايجوز ان تصرف الى اقل من ثلاثة منهم ان وجد منهم ثلاثة او اكثر فلو فاوت بين اولئك الثلاثة جاز فان لم يجد من بعض الاصناف الا واحدا دفع حصة ذلك الصنف اليه مالم يخرج من حد الاستحقاق فان انتهت حاجته وفضل شئ رده الى الباقين وذهب جماعة من العلماء الى انه لو صرف الكل الى صنف واحد هذه الاصناف او الى شخص واحد منهم جاز لان الله سبحانه وتعالى انما سمى هذه الاصناف الثمانية اعلاما منه ان الصدقة لاتخرج من هذه الثمانية لا ايجابا منه لقسمتها بينهم جميعا وهذا قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء واليه ذهب سفيان الثورى واصحاب الراى واحمد بن حنبل قال احمد بن حنبل يجوز ان يضعها فى صنف واحد وتفريقها اولى وقال ابرهيم النخعى ان كان المال كثيرا يحتمل الاجزاء قسمه على الاصناف وان كان قليلا وضعه فى صنف واحد وقال مالك نتحرى موضع الحاجة منهم ويقدم الاولى فالاولى من اهل الخلة والحاجة فان راى الخلة فى الفقراء فى عام قدمهم وان رآها فى صنف آخر فى عام حولها اليهم وكل من دفع اليه شيأ من الصدقة لايزيد على قدر الاستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه وهو ما يحتاج اليه فان حصل ادنى اسم الغنى فلا يعطى بعده شيأ وان كان محترفا لكنه لايجد آلة حرفته فيعطى قدر مايحصل به آلة حرفته فالاعتبار عند الامام الشافعى رضى الله عنه مايدفع الحاجة من غير حد وقال احمد بن حنبل لايعطى الفقير اكثر من خمسين درهما وقال ابوحنيفة اكره ان يعطى رجل واحد من الزكاة مائتى درهم فان اعطيته اجزأ فان اعطى من يظنه فقيرا فبان انه غنى فهل يجزئ فيه قولان ولايجوز ان يعطى صدقته لمن تلزمه نفقته وبه قال مالك والثورى واحمد وقال ابوحنيفة والشافعى لايعطى والدا وان علا ولا ولدا وان سفل ولا زوجة ويعطى من عداهم وتحرم الصدقة على ذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب فلا يدفع اليهم من الزكاة شئ لقوله صلى الله عليه وسلم انا آل بيت لاتحل لنا الصدقة وقال ابوحنيفة تحرم على بنى هاشم ولا تحرم على بنى المطلب دليلنا قوله صلى الله عليه وسلم انا وبنو المطلب شئ واحد لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام وتحرم الصدقة على موالى بنى هاشم وبنى المطلب لقوله صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم وقال مالك لاتحرم واختلفوا فى نقل الصدقة من بلد المال الى بلد آخر مع وجود المستحقين فى بلد المال فكرهه اكثر اهل العلم لتعلق قلوب فقراء ذلك البلد بذلك المال ولقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ واعلمهم ان الله سبحانه وتعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم الحديث بطوله فى الصحيحين واتفقوا على انه اذا نقل المال الى بلد آخر واداه الى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض الاماحكى عن عمر بن عبد العزيز فانه رد صدقة حملت من خراسان الى الشام فردها الى مكانها من خراسان والله اعلم ❊ قوله سبحانه وتعالى (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو اذن) نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه ويقولون مالا ينبغى فقال بعضهم لاتفعلوا فانا نخاف ان يبلغه ماتقولون فيقع بنا فقال الجلاس ابن سويد وهو من المنافقين بل نقول

موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حليم) اى لما اطلعوا على سر القدر ووقفوا على ماقضى الله وقدر وعلموا بما ينتهى اليه عواقب الامور لم يكن لهم ان يطلبوا خلاف ذلك ورضوا بما دبر الله من امره وان كان فى طبيعتهم مايقتضى خلافه لانهم قد انسلخوا عن مقتضيات طباعهم فان اقتضت القرابة الطبيعية والحمة الصورية فرط شفقة ورقة على بعض من يناسبهم ويواصلهم فيها وشاهدوا حكم الله عليه

ماشئنا ثم ناتيه وننكر ماقلنا ونحلف فيصدقنا بمانقول فانما محمد اذن اى يسمع كل مايقال له ويقبله وقيل معنى هو اذن اى ذو اذن سامعة وقال محمد بن اسحق نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان ازنم ثائر الشعر احمر العينين اسفع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم من احب ان ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحرث وكان ينم حديث النبى صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فقيل له لاتفعل ذلك فقال انما محمد اذن فمن حدثه شيأ صدقه فنقول ماشئنا ثم ناتيه ونحلف له فيصدقنا فانزل الله هذه الآية ومقصود المنافقين بقولهم هو اذن انه ليس ببعيد غور بل هو سليم سريع الاغترار بكل مايسمع فاجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله (قل اذن خير لكم) يعنى هب انه اذن لكنه اذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى انه مستمع خير وصلاح لامستمع شر وفساد وقرئ اذن خير مرفوعين منونين ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من ان يكذبكم ولايقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) يعنى انه يصدق المؤمنين ويقبل قولهم ولايقبل قول المنافقين وانما عدى الايمان بالله بالباء والايمان للمؤمنين باللام لان الايمان بالله هو نقيض الكفر فلايتعدى الابالباء فيقال آمنت بالله والايمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلايقال الاباللام ومنه قوله تعالى انؤمن لك وقوله آمنتم له (ورحمة) اى هو رحمة (للذين آمنوا منكم) وانما قال منكم لان المنافقين كانوا يزعمون انهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله انه رحمة للمؤمنين المخلصين لاللمنافقين وقيل فى كونه صلى الله عليه وسلم رحمة لانه يجرى احكام الناس على الظاهر ولاينقب عن احوالهم ولايهتك اسرارهم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم) يعنى فى الآخرة ❊ قوله عز وجل (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) قال قتادة والسدى اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم ثم قالوا ان كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الانصار اسمه عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله ان مايقول محمد حق وانتم شر من الحمير ثم اتى النبى صلى الله عليه وسلم واخبره فدعاهم فسألهم فانكروا وحلفوا ان عامرا كذاب وحلف عامر انهم كذبة فصدقهم النبى صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو ويقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل والكلبى نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم اتوه يعتذرون ويحلفون فانزل الله هذه الآية والمعنى يحلف لكم ايها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعنى فيما بلغكم عنهم من اذى رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله ورسوله احق ان يرضوه) اختلفوا فى معنى هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل الضمير عائد على الله تعالى لان فى رضا الله رضا رسوله صلى الله عليه وسلم والمعنى والله ورسوله احق ان يرضوه بالتوبة والاخلاص وقيل يجوز ان يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر احدهما عن الآخر وقيل معناه والله احق ان يرضوه وكذلك رسوله (ان كانوا مؤمنين) يعنى ان كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة ❊ قوله سبحانه وتعالى (الم يعلموا) قال اهل المعانى الم تعلم خطاب لمن علم شيأ ثم نسيه او انكره فيقال له الم تعلم انه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهر المؤمنين

بالقهر والتعذيب حملتهم الحمية الدينية على الصبر ان لم يكن لهم مقام الرضا بل غلبتهم المباعدة الدينية على القرابة الطبيعية فتبرؤا منه ولم يقترحوا على الله خلاف وامره ولهذا قيل لاتؤثر همة العارف بعد كمال عرفانه اى اذا تيقن وقوع كل شئ بقدره وامتناع وقوع خلاف ماقدر الله فى الازل علم ان ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ولا تؤثر همته ولاغيرها فى شئ فلايسلط همته على امر بخلاف المحبوب الذى ينسب التأثير الى غير الله

والمنافقين وعلمهم من احكام الدين مايحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله الم يعلموا يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا (انه من يحادد الله ورسوله) يعني انه من يخالف الله ورسوله واصل المحادة في اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا اذا صار في غير حده وخالفه في امره وقيل معنى يحادد الله ورسوله اي يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله (فان له نار جهنم) اي فحق ان له نار جهنم (خالدا فيها) يعني على الدوام (ذلك الخزي العظيم) يعني ذلك الخلود في نار جهنم هو الفضيحة العظيمة * قوله عز وجل (يحذر المنافقون) يعني يخشى المنافقون (ان تنزل عليهم سورة) يعني على المؤمنين (تنبئهم) يعني تخبر المؤمنين (بما في قلوبهم) يعني بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة ونزول القرآن في شأنهم قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعني انها فضحت المنافقين وبعثرت عن اخبارهم واثارتها واسفرت عن مخازيهم ومثالبهم وقال ابن عباس انزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم واسماء ابائهم ثم نسخ ذكر الاسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لان اولادهم كانوا مؤمنين (قل استهزؤا) امر تهديد فهو كقوله اعملوا ماشئتم (ان الله مخرج) اي مظهر (ماتحذرون) والمعنى ان الله سبحانه وتعالى يظهر الى الوجود ما كان المنافقون يسترونه ويخفونه عن المؤمنين قال ابن كيسان نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذا علاها وتنكروا له في ليلة مظلمة فاخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قد اضمروا له وامره ان يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم اعرف منهم احدا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة هلا بعثت اليهم من يقتلهم فقال اكره ان تقول العرب لما ظفر بأصحابه اقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالدبيلة (م) عن قيس بن عباد قال قلت لعمار ارأيت قتالكم ارأيا رأيتموه فان الرأي يخطئ ويصيب ام عهدا عهده اليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماعهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ لم يعهده الى الناس كافة وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في امتي قال شعبة واحسبه قال حدثني حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في امتي اثني عشر منافقا لايدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة جراح من النار يظهر في اكتافهم حتى ينجم من صدورهم * قوله سبحانه وتعالى (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) الآية وسبب نزولها على ماقال زيد بن اسلم ان رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك مالقرائنا اورغبنا بطونا واكذبنا السنة واجبننا عند اللقاء قال عوف بن مالك كذبت ولكنك منافق ولاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قدسبقه قال زيد قال عبد الله بن عمر فنظرت اليه يعني الى المنافق متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه

ولا يعلم سر القدر (وما كان الله ليضل قوما) ليضلهم عن طريق التسليم والانقياد لامره والرضا بحكمه (بعد اذ هداهم) الى التوحيد العلمي ورؤية وقوع كل شئ بقضائه وقدره (حتى يبين لهم مايتقون) كل مايجب عليهم اتقاؤه في كل مقام من مقامات سلوكهم ومرتبة من مراتب وصولهم فان اقدموا في بعض مقاماتهم على ماتبين لهم وجوب اتقائه فهو يضلهم لكونهم مقدمين على ماهو ذنب حالهم وهو فسق في دينهم

وسلم تنكبه الحجارة يقول انما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم ابالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن مايزيده قال محمد بن اسحق قال هذه المقالة فيما بلغني هو وديعة بن ثابت اخو امية بن زيد بن عمرو بن عوف وقال قتادة بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل ان يفتح قصور الشأم وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يانبي الله انما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ماتسمعون وقال الكلبي ومقاتل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك قيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ماابعده من ذلك وقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه انزل في اصحابنا قرآن انما هو قوله وكلامه فاطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا على الركب فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب ومعنى الآية ولئن سألت يامحمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب يعني كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث واصل الخوض الدخول في مائع كالماء مع الطين ثم كثر استعماله حتى صار يستعمل في كل دخول مع تلويث واذى (قل) اى قل يامحمد لهؤلاء المنافقين (ابالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وانكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على ايقاع الاستهزاء بالله يعني بفرائض الله وحدوده واحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيحتمل ان المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على اخذ حصون الشام قال بعض المسلمين الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاما يشعر بالقدح في قدرة الله وانما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء * قوله عز وجل (لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم) يعني قل لهؤلاء المنافقين لاتعتذروا بالباطل ومعنى الاعتذار محو اثر الموجدة من قلب المعتذر اليه وقيل معنى العذر قطع اللائمة عن الجاني قد كفرتم بعد ايمانكم يعني ان الاستهزاء بالله كفر والاقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال سبحانه وتعالى لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم فان قلت ان المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد ايمانكم قلت معناه اظهرتم الكفر بعد ماكنتم قد اظهرتم الايمان وذلك ان المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الايمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم قد كفرتم بعد ايمانكم وقيل معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد ان كنتم عندهم مؤمنين وقوله سبحانه وتعالى (ان نعف عن طائفة منكم تعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين) ذكر المفسرون ان الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والاثنان طائفة والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا اطلق لفظ الطائفة على الواحد قال محمد بن اسحق الذي عفي عنه رجل واحد وهو مخشن بن حمير الاشجعي يقال انه هو الذي كان يضحك ولايخوض وقيل انه كان يمشي مجانبا لهم وينكر بعض مايسمع فكان ذنبه اخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع الى الاسلام وقال اللهم انى لاازال اسمع آية تقرأ اعني بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلا في سبيلك لايقول احد انا غسلت انا كفنت انا دفنت فاصيب يوم اليمامة ولم يعرف احد من المسلمين مصرعه * قوله سبحانه وتعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) يعني انهم على امر واحد ودين

والعياذ بالله من الضلال بعد الهدى (ان الله بكل شيء عليم) يعلم دقائق ذنوب احوالهم وان لم يتفطن لها احد فيؤخذ بها اهل الهداية من اوليائه كما ورد في الحديث الرباني وانذر الصديقين باني غيور (ان الله له ملك السموات والارض يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولي ولانصير لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم

واحد يجتمعون على النفاق والاعمال الخبيثة كما يقول الانسان لغيره انا منك وانت منى اى امرنا واحد لا مباينة فيه (يأمرون بالمنكر) يعنى يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المعروف) يعنى عن الايمان والطاعة وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم (ويقبضون ايديهم) يعنى عن الانفاق فى سبيل الله تعالى وفى كل خير (نسوا الله فنسيهم) هذا الكلام لا يمكن اجراؤه على ظاهره لانا لو حملناه على النسيان الحقيق لم يستحقوا دما عليه لان النسيان ليس فى وسع البشر دفعه وايضا فان النسيان فى حق الله محال فلا بد من التأويل وقد ذكروا فيه وجهين الاول معناه انهم تركوا امره حتى صاروا بمنزلة الناسين فجازاهم بان صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة الكلام فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الوجه الثانى ان النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الله ذكرهم بالرحمة والاحسان فجعل النسيان عبارة عن ترك الذكر لان من ترك شيأ لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله والايمان به تركهم من توفيقه وهدايته فى الدنيا ومن رحمته فى العقبى (ان المنافقين هم الفاسقون) يعنى هم الخارجون عن الطاعة (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) يقال وعده بالخير وعدا ووعده بالشر وعيدا فالوعد يكون فى الخير والشر (نار جهنم خالدين فيها) فيه حذف تقديره يصلونها خالدين يعنى مقيمين فيها (هى حسبهم) يعنى هى كافيهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الايمان والطاعة (ولعنهم الله) يعنى وابعدهم من رحمته وطردهم عن بابه (ولهم عذاب مقيم) اى دائم لا ينقطع فان قلت قوله خالدين فيها يعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه قلت ليس ذلك تكرارا وبيان الفرق من وجهين الاول ان معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلى بالنار ولقائل ان يقول هذا التأويل مشكل لانه سبحانه وتعالى قال فى النار هى حسبهم وذلك يمنع من ضم شئ آخر الى عذاب النار واجيب عن هذا الاشكال بان قوله هى حسبهم فى الايلام ولا يمتنع ان يحصل النوع الآخر من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة فى عذابهم الوجه الثانى ان العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم فى الدنيا وهو ما يقاسونه من خوف اطلاع المسلمين عليهم وما هم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم ❊ قوله سبحانه وتعالى (كالذين من قبلكم) هذا رجوع من الغيبة الى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كافعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الايدى عن فعل الخير والطاعة وقيل انه تعالى شبه المنافقين فى عدولهم عن طاعة الله واتباع امره لاجل طلب الدنيا بمن قبلهم من الكفار ثم وصف الكفار بانهم كانوا اشد من هؤلاء المنافقين قوة واكثر اموالا واولادا فقال تعالى (كانوا اشد منكم قوة) يعنى بطشا ومنعة (واكثر اموالا واولادا فاستمتعوا بخلاقهم) يعنى فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للانسان وقدره من خير كما يقال قسم له (فاستمتعتم بخلاقكم) وهذا خطاب للحاضرين يعنى فتمتعتم ايها المنافقون والكافرون بخلاقكم (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) فان قلت ما الفائدة فى ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الاولين مرة ثم ذكره فى حق المنافقين ثانيا ثم اعاده ذكره فى حق الاولين ثالثا قلت فائدته انه يذم الاولين بالاستمتاع بما اوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم فى الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين

(والكفار)

الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله) فى جميع الرذائل بالاجتناب عنها خاصة رذيلة الكذب وذلك معنى قوله (وكونوا مع الصادقين) فان الكذب اسوأ الرذائل واقبحها لكونه ينافى المروأة لقوله لا مروأة لكذوب اذ المراد من الكلام الذى يتميز به الانسان عن سائر الحيوان اخبار الغير

والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع الى ذكر حال الاولين ثالثا وهذا كما تريد ان تبكت بعض الظلمة على قبح ظلمه فتقول له انت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فانت تفعل مثل ما كان يفعل فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم فى فعلهم ※ وقوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) معطوف على ماقبله ومستند اليه يعنى وسلكتم فى فعلكم مثل ماسلكوا فى اتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين (اولئك حبطت اعمالهم) يعنى بطلت اعمالهم (فى الدنيا والآخرة) يعنى ان اعمالهم لاتنفعهم فى الدنيا ولا فى الآخرة بل يعاقبون عليها (واولئك هم الخاسرون) والمعنى انه كما بطلت اعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل اعمالكم ايها المنافقون وتخسرون (ق) عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يارسول الله اليهود والنصارى قال فمن ※ وقوله تعالى (ألم يأتهم) رجع من الخطاب الى الغيبة يعنى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير اى قد اتاهم (نبأ) يعنى خبر (الذين من قبلهم) يعنى الامم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف اهلكناهم حين خالفوا امرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى (قوم نوح) يعنى انهم اهلكوا بالطوفان (وعاد) اهلكوا بالريح العقيم (وثمود) اهلكوا بالرجفة (وقوم ابرهيم) اهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة (واصحاب مدين) وهم قوم شعيب اهلكوا بعذاب يوم الظلة (والمؤتفكات) يعنى المنقلبات التى جعل الله عاليها سافلها وهى مدائن قوم لوط وانما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية وبلادهم بالشأم والعراق واليمن وكل ذلك قريب من ارض العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون اخبارهم (اتتهم رسلهم بالبينات) يعنى بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا امرنا كما فعلتم ايها المنافقون والكفار فاحذروا ان يصيبكم مثل ما اصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم (فما كان الله ليظلمهم) يعنى بتعجيل العقوبة لهم (ولكن كانوا انفسهم يظلمون) يعنى ان الذى استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم انفسهم ※ قوله عز وجل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض) لما وصف الله المنافقين بالاعمال الخبيثة والاحوال الفاسدة ثم ذكر بعد ما اعد لهم من انواع الوعيد فى الدنيا والآخرة عقبه بذكر اوصاف المؤمنين واعمالهم الحسنة وما اعد لهم من انواع الكرامات والخيرات فى الدنيا والآخرة فقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يعنى الموالاة فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة فان قلت انه سبحانه وتعالى قال فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف المؤمنين بعضهم اولياء بعض فما الفائدة فى ذلك قلت لما كان نفاق الاتباع وكفرهم انما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والاكابر وحصل بمقتضى الطبيعة ايضا قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بان بعضهم اولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة * وقوله سبحانه وتعالى (يأمرون بالمعروف) يعنى بالايمان بالله ورسوله واتباع امره والمعروف كل ما عرف فى الشرع من خير وبر وطاعة (وينهون عن المنكر) يعنى من الشرك والمعصية والمنكر كل ماينكره

عما لا يعلم فاذا كان الخبر غير مطابق لم تحصل فائدة النطق وتحصل منه اعتقاد غير مطابق وذلك من خواص الشيطنة فالكاذب شيطان وكما ان الكذب اقبح الرذائل فالصدق احسن الفضائل واصل كل حسنة ومادة كل خصلة محمودة وملاك كل خير وسعادة به تحصل كل كمال وتحصل كل حال واصله الصدق فى عهد الله تعالى الذى هو نتيجة الوفاء بميثاق الفطرة او نفسه كما قال رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى عقد العزيمة ووعد الخليقة كما قال فى اسمعيل انه كان صادق الوعد واذا روعى فى المواطن كلها حتى الخاطر والفكر والنية والقول

الشرع وينفرمنه الطبع وهذا فى مقابلة ماوصف به المنافقون وضده (ويقيمون الصلوة) يعنى الصلاة المفروضة ويتمون اركانها وحدودها (ويؤتون الزكاة) يعنى الواجبة عليهم وهو فى مقابلة ويقبضون ايديهم (ويطيعون الله ورسوله) يعنى فيما يأمرهم به وهو فى مقابلة نسوا الله فنسيهم (اولئك) يعنى المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات (سيرحمهم الله) لما ذكر الله ماوعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ماوعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وماأعد لهم فى الجنان والسين فى قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد (ان الله عزيز حكيم) وهذا يوجب المبالغه فى الترهيب لان العزيز هو الذى لا يمتنع عليه شئ اراده فهو قادر على ايصال الرحمة لمن اراد وايصال العقوبة لمن اراد والحكيم هو الذى يدبر عباده على مايقتضيه العدل والانصاف (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) لما ذكر الله فى الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما اعد لهم فى نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية ماوعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التى تجرى من تحتها الانهار البساتين التى يتحير فى حسنها الناظر لانه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة فى جنات عدن والمعطوف يجب ان يكون مغايرا للمعطوف عليه فتكون مساكنهم فى جنات عدن ومناظرهم الجنات التى هى البساتين فتكون جنات عدن هى المساكن التى يسكنونها والجنات الآخر هى البساتين التى يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف عليه والفرق بينهما (ومساكن طيبة) يعنى ومنازل يسكنونها طيبة (فى جنات عدن) يعنى فى بساتين خلد واقامة يقال عدن بالمكان اذا اقام به روى الطبرى بسنده عن عمران بن حصين وابى هريرة قالا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصر من لؤلؤة فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين وفى رواية فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من طعام وفى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة فى غداة واحدة مايأتى على ذلك كله اجمع وروى بسنده عن ابى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدن داره يعنى دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهى مسكنه ولا يسكنها معه من بنى آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله عز وجل طوبى لمن دخلك هكذا رواه الطبرى فان صحت هذه الرواية فلابد من تأويلها فقوله عدن داره يعنى دار الله وهو من باب حذف المضاف تقديره عدن دار اصفياء الله التى اعدها لاوليائه واهل طاعته والمقربين من عباده عن ابى موسى الاشعرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ومابين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الارداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن اخرجه البخارى ومسلم وقال عبد الله بن مسعود عدن بطنان الجنة يعنى وسطها وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ان فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لايدخله الانبى اوصديق اوشهيد وقال عطاء بن السائب عدن نهر فى الجنة خيامه على حافتيه وقال مقاتل والكلبى عدن اعلى درجة فى الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهى مغطاة من حين خلقها الله

(حتى)

والعمل صدقت المنامات والواردات والاحوال والمقامات والمواهب والمشاهدات كأنه اصل شجرة الكمال وبذر ثمرة الاحوال (ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بانهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من

حتى ينزلها اهلها وهم الانبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الابيض قال الامام فخر الدين الرازى حاصل هذا الكلام ان فى جنات عدن قولين احدهما انه اسم علم لموضع معين فى الجنة وهذه الاخبار والآثار تقوى هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله جنات عدن التى وعد الرحمن عباده والقول الثانى انه صفة للجنة قال الازهرى العدن مأخوذ من قولك عدن بالمكان اذا اقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن * وقوله سبحانه وتعالى (ورضوان من الله اكبر) يعنى ان رضوان الله الذى ينزله عليهما اكبر من كل ماسلف ذكره من نعيم الجنة (ذلك هو الفوز العظيم) اشارة الى ماتقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق) عن ابى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا اهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لانرضى ياربنا وقد اعطيتنا مالم تعط احدا من خلقك فيقول الا اعطيكم افضل من ذلك فيقولون واى شئ افضل من ذلك فيقول احل عليكم رضوانى فلا اسخط بعده عليكم ابدا * قوله سبحانه وتعالى (ياايها النبى جاهد الكفار) يعنى بالسيف والمحاربة والقتال (والمنافقين) يعنى وجاهد المنافقين واختلفوا فى صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف ان المنافق هو الذى يبطن الكفر ويظهر الاسلام ولما كان الامر كذلك لم تجز مجاهدته بالسيف والقتال لاظهاره الاسلام فقال ابن عباس امر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان واذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك ايضا وقال ابن مسعود بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه فان لم يستطع فليكفهر فى وجهه وقال الحسن وقتادة باقامة الحدود عليهم يعنى اذا تعاطوا اسبابها وهذا القول فيه بعد لان اقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وانما قال الحسن وقتادة ذلك لان غالب من كان يتعاطى اسباب الحدود فتقام عليهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم المنافقون قال الطبرى واولى الاقوال قول ابن مسعود لان الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس فى الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلابد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة ان الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة عليهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود (واغلظ عليهم) يعنى شدد عليهم بالجهاد والارهاب (ومأواهم جهنم وبئس المصير) يعنى ان جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم اليها فان قلت كيف ترك النبى صلى الله عليه وسلم المنافقين بين اظهر اصحابه مع علمه بهم وبحالهم قلت انما امر الله عزوجل نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقتال من اظهر كلمة الكفر واقام على اظهارها فاما من تكلم بالكفر فى السر فاذا اطلع عليه انكره ورجع عنه وقال انى مسلم فانه يحكم باسلامه فى الظاهر فى حقن دمه وماله وولده وان كان معتقدا غير ذلك فى الباطن لان الله سبحانه وتعالى امر باجراء الاحكام على الظواهر فلذلك اجرى النبى صلى الله عليه وسلم المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم الى الله سبحانه وتعالى لانه العالم باحوالهم وهو يجازيهم فى الآخرة بما يستحقون * قوله عزوجل (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم)

عدّ ونيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لايضيع اجر المحسنين ولاينفقون نفقة صغيرة ولاكبيرة ولايقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله احسن ماكانوا يعملون وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) اى يجب على مستعد من جماعة سلوك طريق طلب العلم اذ لايمكن لجميعهم اما ظاهرا فلفوات المصالح واما باطنا فلعدم الاستعداد والتفقه فى الدين هو من علوم القلب لامن علوم الكسب اذ ليس كل من يكتسب العلم يتفقه كما قال وجعلنا على قلوبهم اكنة

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة بن الزبير نزلت في الجلاس بن سويد اقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس ان كان ماجاء به محمد حقا لنحن شر من حمرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب اما والله ياعدو الله لاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بماقلت وخفت ان ينزل في القرآن اوان تصيبني قارعة وان اخلط بخطيئة فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله اقبلت انا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة ان اخالط بخطيئة اوتصيبني قارعة ما اخبرتك قال فدعا الجلاس فقال له ياجلاس اقلت ماقال مصعب فحلف ماقال فانزل الله عزوجل يحلفون بالله ماقالوا الآية وروى عن مجاهد نحوه وقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل حجرة فقال انه سيأتيكم انسان فينظر اليكم بعين الشيطان فاذا جاء فلاتكلموه فلم يلبثوا ان طلع رجل ازرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علام تشتمني انت واصحابك فانطلق الرجل فجاء باصحابه فحلفوا بالله ماقالوا ومافعلوا حتى تجاوز عنهم فانزل الله عزوجل يحلفون بالله ماقالوا ثم نعتهم جميعا الى آخر الآية وقال قتادة ذكر لنا ان رجلين اقتتلا احدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الانصار فظهر الغفارى على الجهني فقال عبدالله بن ابي ابن سلول للاوس انصروا اخاكم فوالله مامثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فسعى بها رجل من المسلمين الى النبي صلى الله عليه وسلم فارسل اليه فسأله فحلف بالله ماقاله فانزل الله هذه الآية هذه روايات الطبرى وذكر البغوى عن الكلبي قال نزلت في الجلاس بن سويد وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم فقال الجلاس لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة اتاه عامر بن قيس فاخبره بماقال الجلاس فقال الجلاس كذب يارسول الله على فامرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذى لااله الاهو ماقاله ولقد كذب على عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذى لااله الاهو لقد قاله وماكذبت عليه ثم رفع عامر يده الى السماء فقال اللهم انزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل ان يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فان يتوبوا يك خيرا لهم فقام الجلاس فقال يارسول الله اسمع الله قدعرض على التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وانا استغفر الله واتوب اليه فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه فتاب وحسنت توبته فذلك قوله سبحانه وتعالى يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم يعني اظهروا كلمة الكفر بعد اسلامهم وتلك الكلمة هي سب النبي صلى الله عليه وسلم فقيل هي كلمة الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير وقيل هي كلمة عبدالله بن ابي ابن سلول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين ان شاء الله تعالى ❊ قوله سبحانه وتعالى ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ قال مجاهد هم الجلاس بقتل الذى سمع مقالته خشية ان يفشيها عليه وقيل هم عبدالله بن ابي ابن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا الى المدينة فلم ينله وقيل هم اثنا عشر

ان يفقهوه والاكنة هي الغشاوات الطبيعية والحجب النفسانية فمن اراد التفقه فلينفر في سبيل الله وليسلك طريق التزكية والتصفية حتى يظهر العلم من قلبه على لسانه كما نزل على بعض انبياء بني اسرائيل يابني اسرائيل لاتقولوا العلم في السماء من ينزل به ولا في تخوم الارض من يصعد به ولا من وراء البحر من يعبر ويأتي به العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين وتخلقوا

رجلا من المنافقين بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فاخبره وامره ان يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم فارسل حذيفة لذلك وقال السدى قال المنافقون اذا رجعنا الى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن ابى سلول تاجا فلم يصلوا اليه (وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله) يعنى وما انكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله والمعنى ان المنافقين عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النبى صلى الله عليه وسلم ان نقموا عليه وقيل انهم بطروا النعمة فنقموا اشرا وبطرا وقال ابن قتيبة معناه ليس ينقمون شيأ ولا يتعرفون الا الصنع وهذا كقول الشاعر

مانقم الناس من امية* الا انهم يحلمون ان غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وانما اراد ان الناس لا ينقمون عليهم شيأ فهو كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

اى ليس فيهم عيب قال الكلبى كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم فعلى هذا القول يكون الكلام عاما وقال عروة كان الجلاس قتل له مولى فامر له النبى صلى الله عليه وسلم بديته فاستغنى وقال قتادة كانت لعبد الله بن ابى دية فاخرجها رسول الله صلى الله عليه وسلم له وقال عكرمة ان مولى لبنى عدى قتل رجلا من الانصار فقضى له النبى صلى الله عليه وسلم بالدية اثنى عشر الفا وفيه نزلت وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله (فان يتوبوا يك خيرا لهم) يعنى فان يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيرا لهم فى العاجل والآجل (وان يتولوا) يعنى وان يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا اليما فى الدنيا) يعنى بالخزى والاذلال (والآخرة) اى ويعذبهم فى الآخرة بالنار (وما لهم فى الارض من ولى ولا نصير) يعنى وليس لهم احد يمنعهم من عذاب الله او ينصرهم فى الدنيا والآخرة * قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية روى البغوى بسند الثعلبى عن ابى امامة الباهلى قال جاء ثعلبة بن حاطب الانصارى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله ان يرزقنى مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ثم اتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله ان يرزقنى مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امالك فى رسول الله اسوة حسنة والذى نفسى بيده لو اردت ان تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ثم اتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله ان يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لاعطين كل ذى حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما تنمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من اوديتها وهى تنمى كما تنمى الدود فكان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلى فى غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة ايضا حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم جمعة خرج فتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال مافعل ثعلبة فقالوا يارسول الله اتخذ ثعلبة غنما مايسعها

باخلاق الصديقين اظهر العلم من قلوبكم حتى يثمركم ويعطيكم فالراد من التفقه علم راسخ فى القلب ضارب بعروقه فى النفس ظاهر اثره على الجوارح بحيث لا يمكن صاحبه ارتكاب مايخالف ذلك العلم والا لم يكن عالما الا ترى كيف سلب الله الفقه عمن لم تكن رهبة الله اغلب عليه من رهبة الناس بقوله لانتم اشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بانهم قوم لا يفقهون لكون رهبة الله لازمة للعلم كما قال انما يخشى الله من عباده العلماء وسلب العلم عن لم يعمل به فى قوله هل يستوى الذين يعلمون

واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة فانزل الله سبحانه وتعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بنى سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما اسنان الصدقة وكيف يأخذ ان وقال لهما مراعلى ثعلبة بن حاطب ورجل من بنى سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى اتيا ثعلبة فسالاه الصدقة واقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الاجزية ماهذه الااخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الى فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر الى خيار اسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما راياها قالا لاماهذه عليك قال خذاها فان نفسى بذلك طيبة فرا على الناس واخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال اورونى كتابكما فقراه ثم قال ماهذه الاجزية ماهذه الااخت الجزية اذهبا حتى ارى رابى قال فاقبلا فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل ان يتكلما ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ثم دعا للسلمى بخير فاخبراه بالذى صنع ثعلبة فانزل الله سبحانه وتعالى فيه ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الآية الى قوله سبحانه وتعالى وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من اقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى اتاه فقال ويحك ياثعلبة قد انزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى اتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله ان يقبل منه صدقته فقال ان الله منعنى ان اقبل منك صدقتك فجعل يحثو على راسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد امرتك فلم تطعنى فلما ابى ان يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقته رجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتى ابابكر فقال اقبل صدقتى فقال ابو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم فانا لا اقبلها فقبض ابو بكر ولم يقبلها منه فلما ولى عمر اتاه فقال اقبل صدقتى فقال لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ابو بكر فانا لا اقبلها منك فلم يقبلها ثم ولى عثمان فاتاه فلم يقبلها منه وهلك فى خلافة عثمان واخرجه الطبرى ايضا بسنده قال بعض العلماء انما لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة ثعلبة لان الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على اخلافه ما عاهد الله عليه واهانة له على قوله انما هى جزية اواخت الجزية فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه اهانة له وليعتبر غيره به فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس باخراجها ويرى انها واجبة عليه وانه يثاب على اخراجها ويعاقب على منعها وقال ابن عباس ان ثعلبة اتى مجلسا من مجالس الانصار فاشهدهم لئن آتانى الله من فضله آتيت منه كل ذى حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالا فلم يف بما عاهد الله عليه فانزل الله فيه هذه الآية وقال الحسن ومجاهد نزلت فى ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بنى عمرو بن عوف خرجا على ملا قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به وقال ابن السائب ان حاطب بن ابى بلتعة كان له مال بالشام فأبطأ عليه فجهد لذلك جهدا شديدا فحلف بالله لئن آتانى امه من فضله يعنى ذلك المال لاصدقن منه ولاصلن فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية وحاصله ان ظاهر الآية يدل على ان بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه افعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ماسأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من اعطى الله عهدا لئن رزقنا من فضله بأن يوسع علينا فى الرزق لنصدقن يعنى لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته (ولنكونن من الصالين) يعنى ولنعملن فى ذلك المال ما يعمله اهل الصلاح باموالهم

والذين لايعلمون واذا تفقهوا وظهر علمهم على جوارحهم اثر فى غيرهم وتأثروا منه لارتوائهم به وترشحهم منه كما كان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلزم الانذار الذى هو غايته كما قال (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ومن لازم التفقه الجهاد الاكبر ثم الاصغر فلذلك

(من)

الصالحين

من صلة الارحام والانفاق فى سبيل الله وجميع وجوه البر واخراج الزكاة وايصالها الى اهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذى يبخل بما يلزمه فى حكم الشرع وقيل ان المراد بقوله لنصدقن اخراج الزكاة الواجبة وقوله ولنكونن من الصالحين اشارة الى كل مايفعله اهل الصلاح على الاطلاق من جميع اعمال البر والطاعة (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) يعنى فلما رزقهم الله لم يفعلوا من اعمال البر شيأ (وتولوا) يعنى عما عاهدوا الله عليه (وهم معرضون) يعنى عن العهد (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم) يعنى فأعقبهم الله نفاقا بأن صيرهم منافقين يقال اعقبت فلانا ندامة اذ صارت عاقبة امره الى ذلك وقيل معناه انه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم (الى يوم يلقونه) يعنى انه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة الى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه (بما اخلفوا الله ماوعدوه) يعنى الصدقة والانفاق فى سبيله (وبما كانوا يكذبون) يعنى فى قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن خان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة وفى رواية خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا وعد اخلف واذا خاصم فجر قال الشيخ محيى الدين النووى هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث ان هذه الخصال قد توجد فى المسلم المصدق الذى ليس فيه شك وقد اجمع العلماء على ان من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لايحكم عليه بكفر ولا هو منافق مخلد فى النار فان اخوة يوسف عليهم السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف وبعض العلماء بعض هذا اوكله قال الشيخ هذا ليس بحمد الله اشكالا ولكن اختلف العلماء فى معناه فالذى قاله المحققون والاكثرون وهو الصحيح المختار ان معناه ان هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها يشبه المنافقين فى هذه الخصال ويتخلق باخلاقهم فان النفاق هو اظهار مايبطن خلافه وهذا موجود فى صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه فى حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا انه منافق فى الاسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبى صلى الله عليه وسلم بهذا انه منافق نفاق الكفار المخلدين فى الدرك الاسفل من النار وقوله صلى الله عليه وسلم كان منافقا خالصا معناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من ندر ذلك منه فليس ذلك حاصلا فيه هذا هو المختار فى معنى الحديث وقال جماعة من العلماء المراد به المنافقون الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فانهم حدثوا فى ايمانهم فكذبوا واتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا فى امر الدين ونصره فاخلفوا وفجروا فى خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن ابى رباح ورجع اليه الحسن البصرى بعد ان كان على خلافه وهو مروى عن ابن عباس وابن عمر ورواه ايضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال القاضى عياض واليه مال اكثر ائمتنا وحكى الخطابى قولا آخر ان معناه التحذير للمسلم ان يعتاد على هذه الخصال وحكى ايضا عن بعضهم ان الحديث ورد فى رجل بعينه منافق وكان النبى صلى الله عليه وسلم لايواجههم بصريح القول القول فيقول فلان منافق وانما يشير اشارة كقوله صلى الله عليه وسلم مابال اقوام يفعلون كذا والله اعلم وقال الامام فخر الدين الرازى ظاهر هذه الآية يدل على ان نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق

قال بعده (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) من كفار قوى نفوسكم التى هى اعدى عدوكم (وليجدوا فيكم غلظة) اى قهرا وشدة حتى تبلغوا درجة التقوى فينزل عليكم النصر من عند الله كما قال (واعلموا ان الله مع المتقين واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون واما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون اولا يرون انهم يفتنون فى كل عام

فيجب على المسلم ان يبالغ فى الاحتراز عنه فاذا عاهد الله فى امر فليجتهد فى الوفاء به * وقوله سبحانه وتعالى (الم يعلموا) يعنى هؤلاء المنافقين (ان الله يعلم سرهم) يعنى ماتنطوى عليه صدورهم من النفاق (ونجواهم) يعنى ويعلم مايتفاوض به بعضهم بعضا فيما بينهم والنجوهو الخفى من الكلام يكون بين القوم والمعنى انهم يعلمون ان الله يعلم جميع احوالهم لايخفى عليه شئ منها (وان الله علام الغيوب) وهذا مبالغة فى العلم يعنى ان الله عالم بجميع الاشياء فكيف تخفى عليه احوالهم * قوله عز وجل (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات) الآية (ق) عن ابى مسعود البدرى قال لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشئ كثير فقالوا مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا ان الله لغنى عن صاع هذا فنزلت الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لايجدون الاجهدهم الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبدالرحمن بن عوف باربعة آلاف درهم وقال يارسول الله مالى ثمانية آلاف درهم جئتك باربعة آلاف فاجعلها فى سبيل الله وامسكت اربعة آلاف لعيالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما اعطيت وفيما امسكت فبارك الله فى مال عبدالرحمن حتى انه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين الف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدى العجلانى بمائة وسق من تمر وجاء ابو عقيل الانصارى بصاع من تمر قال يارسول الله بت ليلتى اجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فامسكت احدهما لعيالى واتيتك بالآخر فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينثره فى الصدقات فلمزهم المنافقون فقالوا مااعطى عبدالرحمن وعاصم الارياء وان الله ورسوله لغنيان عن صاع ابى عقيل ولكن احب ان يذكر نفسه ليعطى من الصدقة فانزل الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون يعيبون المطوعين يعنى المتبرعين من المؤمنين يعنى عبدالرحمن بن عوف وعاصم بن عدى فى الصدقات والتطوع التنفل بما ليس بواجب عليه (والذين لايجدون الاجهدهم) يعنى اباعقيل الانصارى والجهد بالضم الطاقة وهى لغة اهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وقيل الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة وقد يكون القليل من المال الذى يأتى به فيتصدق به اكثر وقعا عند الله تعالى من الكثير الذى يأتى به فيتصدق به لان الغنى اخرج ذلك المال الكثير عن قدرة وهذا الفقير الذى اخرج القليل انما اخرجه عن ضعف وجهد وقد يؤثر المحتاج الى المال غيره رجاء ماعندالله تعالى كما قال سبحانه وتعالى ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة (فيسخرون منهم) يعنى ان المنافقين كانوا يستهزؤن بالمؤمنين فى انفاقهم المال فى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو قولهم لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيا وكانوا يعيرون الفقير الذى يتصدق بالقليل ويقولون انه فقير محتاج اليه فكيف يتصدق به وجوابهم ان كل من يرجو ماعندالله الخير والثواب يبذل الموجود لينال ذلك الثواب الموعود به * وقوله سبحانه وتعالى (سخر الله منهم) يعنى انه سبحانه وتعالى جازاهم على سخريتهم * ثم وصف ذلك وهو قوله تعالى (ولهم عذاب اليم) يعنى فى الآخرة * قوله سبحانه وتعالى (استغفر لهم اولاتستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) قال المفسرون لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين وبان نفاقهم وظهر للمؤمنين جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه ويقولون استغفرلنا فنزلت استغفر لهم اولاتستغفر لهم وهذا كلام خرج مخرج الامر ومعناه الخبر تقديره

(استغفرت)

مرة او مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون) البلاء فائد من الله تعالى يقود الناس اليه وقد ورد فى الحديث البلاء سوط من سياط الله تعالى يسوق به عباده اليه فان كل مرض وفقر وسوء حال يحل بأحد يكسر سورة نفسه وقواها ويقمع صفاتها وهواها فيلين القلب ويبرز من حجابها وينزع من ركون الدنيا ولذاتها وينقبض منها ويشمئز فيتوجه الى الله واقل درجاته انه اذا اطلع على

استغفرت لهم يا محمد اولم تستغفر فلن يغفر الله لهم وانما خص سبحانه وتعالى السبعين من العدد بالذكر لان العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صلى على عمه حمزة رضى الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولان آحاد السبعين سبعة وهو عدد شريف فان السموات سبع والارضين سبع والايام سبع والاقاليم سبع والبحار سبع والنجوم السيارة سبع فلهذا خص الله تبارك وتعالى السبعين بالذكر للمبالغة فى اليأس من طمع المغفرة لهم قال الضحاك ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد رخص لى فسازيدن على السبعين لعل الله ان يغفر لهم فانزل الله سبحانه وتعالى سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم (ق) عن ابن عمر قال لما توفى عبد الله يعنى ابن ابى ابن سلول جاء ابنه عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ان يعطيه قميصه يكفن فيه اباه ثم سأله ان يصلى عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فقام عمر فاخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك ان تصلى عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما خيرنى الله عز وجل فقال استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على السبعين قال انه منافق فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد فى رواية فترك الصلاة عليهم ❊ وقوله سبحانه وتعالى (ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله) يعنى ان هذا الفعل من الله وهو ترك عفوه عنهم وترك المغفرة لهم من اجل انهم اختاروا الكفر على الايمان بالله ورسوله (والله لا يهدى القوم الفاسقين) يعنى والله لا يوفق للايمان وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ❊ قوله عز وجل (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) يعنى فرح المخلفون عن غزوة تبوك والمخلف المتروك بمقعدهم يعنى بقعودهم فى المدينة خلاف رسول الله يعنى بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لان الانسان اذا توجه الى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معناه مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار الى تبوك واقاموا بالمدينة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد امرهم بالخروج الى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه سبحانه وتعالى (وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله) والمعنى انهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج الى الجهاد وذلك الانسان يميل بطبعه الى ايثار الراحة والقعود مع الاهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لا تنفروا فى الحر) وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر فاجاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى (قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد فى الحر ان نار جهنم التى هى موعدهم فى الآخرة اشد حرا من حر الدنيا لو كانوا يعلمون قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امر الناس ان ينبعثوا معه وذلك فى الصيف فقال رجال يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا فى الحر فقال الله عز وجل قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون فامره الله تعالى بالخروج (فليضحكوا قليلا) يعنى فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحين قليلا فى الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه (وليبكوا كثيرا) يعنى مكان ضحكهم فى الدنيا وهذا وان ورد بصيغة الامر الا ان معناه الاخبار والمعنى انهم وان فرحوا او ضحكوا طول اعمارهم فى الدنيا فهو قليل بالنسبة الى بكائهم فى الآخرة لان الدنيا فانية والآخرة

باقية والمقطع الفانى بالنسبة الى الدائم الباقى قليل (جزاء بما كانوا يكسبون) يعنى ان ذلك البكاء فى الآخرة جزاء لهم على ضحكهم واعمالهم الخبيثة فى الدنيا (خ) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وروى البغوى بسنده عن انس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ايها الناس ابكوا فان لم تستطيعوا ان تبكوا فتباكوا فان اهل النار يبكون فى النار حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كانها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو ان سفنا اجريت فيها لجرت ❊ قوله سبحانه وتعالى (فان رجعك الله) يعنى فان ردك الله يا محمد من غزاتك هذه (الى طائفة منهم) يعنى الى المتخلفين عنك وانما قال منهم لانه ليس كل من تخلف بالمدينة من غزوة تبوك كان منافقا مثل اصحاب الاعذار (فاستأذنوك للخروج) يعنى فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحققت نفاقهم فى الخروج معك الى غزوة اخرى (فقل لن تخرجوا معى ابدا) يعنى فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معى ابدا الى غزوة ولا الى سفر (ولن تقاتلوا معى عدوا انكم) يعنى لانكم (رضيتم بالقعود اول مرة) يعنى انكم رضيتم بالتخلف من غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) يعنى مع المخلفين النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل مع المخالفين يقال صاحبه خالفه اذا كان مخالفا كثير الخلاف وفى الآية دليل على ان الرجل اذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لان الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وهو مشعر باظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وابعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم اذا خرجوا الى الغزوات ❊ قوله عزوجل (ولا تصل على احد منهم مات ابدا) الآية قال قتادة بعث عبد الله بن ابى ابن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض ليأتيه قال فنهاه عمر عن ذلك فأتاه نبى الله صلى الله عليه وسلم فلما دخل عليه نبى الله صلى الله عليه وسلم قال اهلكك حب اليهود فقال يا نبى الله انى لم ابعث اليك لتؤنبنى ولكن بعثت اليك لتستغفر لى وسأله قميصه ان يكفن فيه فأعطاه اياه واستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فكفنه فى قميصه صلى الله عليه وسلم ونفث فى جلده ودلاه فى قبره فانزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره الآية (خ) عن عمر بن الخطاب قال لما مات عبد الله بن ابى ابن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت اليه فقلت يا رسول الله اتصلى على ابن ابى بن سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا اعدد عليه قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اخر عنى يا عمر فلما اكثرت عليه قال انى خيرت فاخترت لو اعلم انى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث الا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره الى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ والله ورسوله اعلم واخرجه الترمذى وزاد فيه فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر قال اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن ابى بعدما ادخل حفرته فأمر به فاخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه والبسه قميصه والله اعلم قال وكان كسا عباس

قميصا قال سفيان وقال ابو هرون وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصان فقال له ابن عبدالله يارسول الله البس عبدالله قميصك الذى يلى جلدك قال سفيان فيرون ان النبى صلى الله عليه وسلم البس عبدالله قميصه مكافأة لما صنع فى رواية عن جابر قال لما كان يوم بدر اتى بالاسارى واتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبى صلى الله عليه وسلم له قميصا فوجدوا قميص عبدالله بن ابى يقدر عليه فكساه النبى صلى الله عليه وسلم اياه فلذلك نزع النبى صلى الله عليه وسلم قميصه الذى البسه

* (فصل) * قد وقع فى هذه الاحاديث التى تتضمن قصة موت عبدالله بن ابى ابن سلول المنافق صورة اختلاف فى الروايات ففى حديث ابن عمر المتقدم انه لما توفى عبدالله بن ابى ابن سلول اتى ابنه عبدالله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ان يعطيه قميصه ليكفنه فيه وان يصلى عليه فاعطاه قميصه وصلى عليه وفى حديث عمر بن الخطاب من افراد البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعى له ليصلى عليه وفى حديث جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم أتاه بعدما ادخل حفرته فامر به فاخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه والبسه قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات انه صلى الله عليه وسلم اعطاه قميصه فكفن فيه ثم انه صلى الله عليه وسلم صلى عليه وليس فى حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله اعلم انه صلى عليه اولا كما فى حديث عمر وابن عمر ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاه ثانيا بعد ما ادخل حفرته فاخرجه منها ونزع عنه القميص الذى اعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم انه صلى الله عليه وسلم البسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبدالله بن ابى تطييبا لقلب ابنه عبدالله فانه كان صحابيا مسلما صالحا مخلصا واما قول قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده فى مرضه وانه سأله ان يستغفر له وان يعطيه قميصه وان يصلى عليه فاعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث فى جلده ودلاه فى حفرته فهذه جمل من القول ظاهرها الترتيب وما المراد بهذا الترتيب الا توفيقا بين الاحاديث فيكون قوله ونفث فى جلده ودلاه فى قبره جملة منقطعة عما قبلها يعنى انه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك بعدما اعطاه القميص وبعد ان صلى عليه والله اعلم وقال القرطبى فى شرح صحيح مسلم له ان عبدالله بن ابى ابن سلول كان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم وانصرف اليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير ان الاسلام غلب عليه فنافق وكان رأسا فى المنافقين واعظمهم نفاقا واشدهم كفرا وكان المنافقون كثيرا حتى لقد روى عن ابن عباس انهم كانوا ثلثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبدالله يعنى ولد عبدالله بن ابى من فضلاء الصحابة واصدقهم اسلاما واكثرهم عبادة واشرحهم صدرا وكان ابر الناس بأبيه ومع ذلك فقد قال يوما للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله انك لتعلم انى من ابر الناس بأبى وان امرتنى ان آتيك برأسه فعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نعفو عنه وكان من احرص الناس على اسلام ابيه وعلى ان ينتفع من بركات النبى صلى الله عليه وسلم بشئ ولذلك لما مات ابوه سأل النبى صلى الله عليه وسلم ان يعطيه قميصه ليكفنه فيه فينال من بركته فاعطاه وسأله ان يصلى عليه فصلى عليه كل ذلك اكراما لابنه عبدالله واسعافا له ولطلبته وقول عمر تصلى عليه وقد نهاك الله ان تصلى عليه يحتمل ان يكون قبل نزول ولا تصل على احد منهم مات ابدا ويظهر من هذا السياق ان عمر وقع فى خاطره

ان الله نهاه عن الصلاة عليه فيكون هذا من قبيل الالهام والتحديث الذى شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون فهمه من سياق قوله استغفر لهم اولا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد قال القرطبي والذى يظهر لى والله اعلم ان البخارى ذكر هذا الحديث من رواية ابن عباس وساقه سياقة هي ابين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبدالله بن ابي ابن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر وثبت اليه الحديث الى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث الا يسيرا حتى انزلت عليه الآيتان من براءة قال القرطبي وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شئ من الاشكال المتقدم فهو الاولى وقوله صلى الله عليه وسلم سأزيد على السبعين وعد بالزيادة وهو مخالف لما فى حديث ابن عباس عن عمر فان فيه لو اعلم انى زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فان الاحاديث يفسر بعضها بعضا ويقيد بعضها بعضا فلذلك قال لو اعلم انى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم انه لا يغفر له وقوله صلى الله عليه وسلم انى خيرت مشكل مع قوله تعالى ماكان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين الآية وهذا يفهم منه النهى عن الاستغفار لمن مات كافرا وهو متقدم على الآية التى فيها التخيير والجواب عن هذا الاشكال ان المنهى عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك واما استغفاره لاولئك المنافقين المخير فيهم فهو قد علم صلى الله عليه وسلم انه لا يقع ولا ينفع وغايته وان وقع كان تطييبا لقلوب الاحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهى عنه من المخير فيه وارتفع الاشكال بحمد الله والله اعلم وقال الشيخ محيي الدين النووى انما اعطاه قميصه ليكفنه فيه تطييبا لقلب ابنه عبدالله فانه كان صحابيا صالحا وقد سأل ذلك فأجابه اليه وقيل بل اعطاه مكافاة لعبدالله بن ابي المنافق الميت لانه البس العباس حين اسر يوم بدر قميصا وفي الحديث بيان مكارم اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم ما كان من هذا المنافق من الايذاء له وقابله بالحسنى والبسه قميصه كفنا وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال البغوى قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحب ان يكافئه بها ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كلم فيما فعل بعبدالله بن ابي فقال صلى الله عليه وسلم وما يغني عنه قميصي وصلاتى من الله والله انى كنت ارجو ان يسلم به الف من قومه فيروى انه اسلم الف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي صلى الله عليه وسلم * وقوله سبحانه وتعالى (ولا تقم على قبره) يعنى لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم قام فلان بأمر فلان اذا كفاه فأمره وناب عنه فيه (انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ماصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها فان قلت الفسق ادنى حالا من الكفر ولما ذكر فى تعليل هذا النهى كونه كافرا دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة فى وصفه بكونه فاسقا بعد ما وصفه بالكفر قلت ان الكافر قد يكون عدلا فى نفسه بأن يؤدى الامانة ولا يضمر لاحد سوأ وقد يكون خبيثا فى نفسه كثير الكذب والمكر والخداع واضمار السوء للغير وهذا امر مستقبح عند كل احد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد ان وصفهم بالكفر

* قوله تعالى (ولا تعجبك اموالهم واولادهم انما يريدالله ان يعذبهم بها في الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون) الكلام على هذه الآية في مقامين * المقام الاول في وجه التكرار والحكمة فيه ان تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل اولا وتأكيده وارادة ان يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وان يعتقد ان العمل به مهم وانما اعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب ان يحذر منه وهو ان اشد الاشياء جذبا للقلوب والخواطر الاشتغال بالاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد اخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأكيد والمبالغة في التحذير من ذلك الشيء الذي وقع الاهتمام به وقيل ايضا انما كرر هذا المعنى لانه اراد بالآية الاولى قوما من المنافقين كان لهم اموال واولاد عند نزولها وبالآية الاخرى اقواما آخرين منهم * المقام الثاني في وجه بيان ما حصل من التفاوت في الالفاظ في هاتين الآيتين وذلك انه قال سبحانه وتعالى في الآية الاولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما انه عطف الآية الاولى على قوله ولا ينفقون الاوهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق لشدة المحبة للاموال والاولاد فحسن العطف عليه بالفاء في قوله فلا تعجبك واما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فاتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى في الآية الاولى فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم واسقط حرف لا هنا فقال سبحانه وتعالى واولادهم والسبب فيه ان حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على انهم كانوا معجبين بكثرة الاموال والاولاد وكان اعجابهم بأولادهم اكثر وفي اسقاط حرف لا هنا دليل على انه لا تفاوت بين الامرين قال سبحانه وتعالى في الآية الاولى انما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا ان يعذبهم بحرف ان والفائدة فيه التنبيه على ان التعليل في احكام الله محال وانه اينما ورد حرف اللام فمعناه ان كقوله سبحانه وتعالى وما امروا الا ليعبدوا الله ومعناه وما امروا الا ان يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى في الآية الاولى في الحياة الدنيا وقال تعالى هنا في الدنيا والفائدة في اسقاط لفظة الحياة التنبيه على ان الحياة الدنيا بلغت في الخسة الى حيث انها لا تستحق ان تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها فهذه جمل في ذكر الفرق بين هذه الالفاظ والله اعلم بمراده واسرار كتابه * قوله عز وجل (واذا انزلت سورة) يحتمل ان يراد بالسورة بعضها لان اطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل ان يراد جميع السورة فعلى هذا المراد بالسورة سورة براءة لانها مشتملة على الامر بالايمان والامر بالجهاد (ان) اي بأن (آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله) فان قلت كيف يامرهم بالايمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل قلت معناه الامر بالدوام على الايمان والجهاد في المستقبل وقيل ان الامر بالايمان يتوجه على كل احد في كل ساعة وقيل ان هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون والمعنى ان اخلصوا الايمان بالله وجاهدوا مع رسوله وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد بغير ايمان لا يفيد اصلا فكانه قيل للمنافقين الواجب عليكم ان تؤمنوا بالله اولا وتجاهدوا مع رسوله ثانيا حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها في الدنيا والآخرة * وقوله سبحانه وتعالى (استأذنك اولوا الطول منهم) قال ابن عباس يعني اهل الغنى وهم اهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم وفي تخصيص اولي الطول بالذكر قولان احدهما ان الذم لهم الزم لكونهم

قادرين على اهبة السفر والجهاد والقول الثانى انما خص اولى الطول بالذكر لان العاجز عن السفر والجهاد لايحتاج الى الاستئذان (وقالوا) يعنى اولى الطول (ذرنانكن مع القاعدين) يعنى فى البيوت مع النساء او الصبيان وقيل مع المرضى والزمنى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) قيل الخوالف النساء اللواتى يتخلفن فى البيوت فلايخرجن منها والمعنى رضوا بأن يكونوا فى تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل خوالف جمع خالفة وهم ادنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم (وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) يعنى وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لايفقهون مراد الله فى الامر بالجهاد * قوله سبحانه وتعالى (لكن الرسول والذين امنوا معه جاهدوا بأموالهم وانفسهم) اى ان تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم يعنى الرسول والمؤمنين (واولئك لهم الخيرات) منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة (واولئك هم المفلحون) اى الفائزون بالمطالب * قوله سبحانه وتعالى (اعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) بيان لما لهم من الخيرات الاخروية * قوله سبحانه وتعـالى (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) يعنى وجاء المعتذرون من اعراب البوادى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه فى التخلف عن الغزو معه قال الضحاك هم رهط عامر بن الطفيل جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذرين اليه دفاعا عن انفسهم فقالوا يانبى الله ان نحن غزونا معك تغير اعراب طيئ على حلائلنا واولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انبأنى الله من اخباركم وسيغنى الله عنكم وقيل هم نفر من بنى غفار رهط خفاف بن ايماء بن رخصة وقيل هم من اسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى الآية وجاء المعذرون اى المقصرون يعنى انهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى ان له عذرا وقيل ان الاصل فى هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون ادغمت التاء فى الذال لقرب مخرجيهما والاعتذار فى كلام العرب على قسمين يقال اعتذر اذا كذب فى عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم فرد الله عليهم بقوله قل لاتعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر اذا اتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر * يعنى فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو من التعذير الذى هو التقصير يقال عذر تعذيرا اذا قصر ولم يبالغ يحتمل انهم كانوا صادقين فى اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكرهم قال بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على انهم ليسوا كاذبين ويروى عن ابى عمرو بن العلاء انه لما قيل له هذا الكلام قال ان قوما تكلفوا عذرا باطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف آخرون لالعذر ولا لشبهة عذر جراة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقوا الاعراب الذين ماجاؤا وما اعتذروا وظهر بذلك انهم كذبوا الله ورسوله يعنى فى ادعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم) يعنى فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار وانما

قال منهم لانه سبحانه وتعالى على ان منهم من سيؤمن ويخلص فى ايمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذين اصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه ❊ قوله عز وجل (ليس على الضعفاء) لماذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا بأعذار باطلة عقبه بذكر اصحاب الاعذار الحقيقية الصحيحة وعذرهم واخبر ان فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح فى بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق فى اصل الخليقة ضعيفا نحيفا ويدل على ان هؤلاء الاصناف هم الضعفاء ان الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى (ولا على المرضى) والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فاما المرضى فيدخل فيهم اهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفا بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو (ولا على الذين لا يجدون ماينفقون) يعنى الفقراء العاجزين عن اهبة الغزو والجهاد فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لان العاجز عن نفقة الغزو معذور (حرج) اى ليس على هؤلاء الاصناف الثلاثة حرج اى اثم فى التخلف عن الغزو وقال الامام فخر الدين الرازى ليس فى الآية انه يحرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة اما بحفظ متاعهم او بتكثير سوادهم بشرط ان لا يجعل نفسه كلا وبالا عليهم فان ذلك طاعة مقبولة ثم انه تعالى شرط على الضعفاء فى جواز التخلف عن الغزو شرطا معينا وهو قوله سبحانه وتعالى (اذا نصحوا لله ورسوله) ومعناه انهم اذا قاموا فى البلد احترزوا عن افشاء الاراجيف واثارة الفتن وسعوا فى ايصال الخير الى اهل المجاهدين الذين خرجوا الى الغزو وقاموا بمصالح بيوتهم واخلصوا الايمان والعمل لله وتابعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فان جملة هذه الامور تجرى مجرى النصح لله ورسوله (ما على المحسنين من سبيل) اى ليس على من احسن فنصح لله ولرسوله فى تخلفه عن الجهاد بعذر قد اباحه الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى انه سد باحسانه طريق العقاب عن نفسه ويستنبط من قوله ما على المحسنين من سبيل ان كل مسلم يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله مخلصا من قلبه ليس عليه سبيل فى نفسه وماله الا ما اباحه الشرع بدليل منفصل (والله غفور) يعنى لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر اباحه الشرع (رحيم) يعنى انه تعالى رحيم بجميع عباده قال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو واصحابه وقال الضحاك نزلت فى عبد الله بن ام مكتوم وكان ضرير البصر ❊ ولما ذكر الله عز وجل هذه الاقسام الثلاثة من المعذورين اتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى (ولا على الذين اذا ما اتوك) يعنى ولا حرج ولا اثم فى التخلف عنك على الذين اذا ما اتوك (لتحملهم) يعنى يسألونك الحملان ليبلغوا الى غزو عدوك وعدوهم والجهاد معك يا محمد قال ابن اسحق نزلت فى البكائين وكانوا سبعة ونقل الطبرى عن محمد بن كعب وغيره قالوا جاء ناس من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه فقال لا اجد ما احملكم عليه فانزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بنى واقف حرمى بن عمير ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن كعب يكنى ابا ليلى ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد وهو الذى تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بنى سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمرو المزنى وقال البغوى هم سبعة نفر سموا البكائين معقل بن

يسار وصخر بن خنساء وعبدالله بن كعب الانصارى وعلبة بن زيد الانصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن عنمة وعبدالله بن مغفل المزنى قال اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله ان الله عزوجل قد ندبنا الى الخروج معك فاحملنا فقال لااجد مااحملكم عليه وقال مجاهد هم بنومقرن من مزينة وكانوا ثلاثة اخوة معقل وسويد والنعمان بنومقرن وقيل نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل انها نزلت فى كل من ذكر قال ابن عباس سألوه ان يحملهم على الدواب وقيل بل سألوه ان يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لااجد مااحملكم عليه فولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين فذلك قوله سبحانه وتعالى (قلت لااجد مااحملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع) قال صاحب الكشاف هو كقولك تفيض دمعا وهو ابلغ من يفيض دمعها لان العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك افديك من رجل (حزنا الايجدوا ماينفقون) يعنى على انفسهم فى الجهاد (انما السبيل) لما قال الله سبحانه وتعالى ماعلى المحسنين من سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولاعذر له انما السبيل يعنى انما تتوجه الطريق بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) يامحمد فى التخلف عنك والجهاد معك (وهم اغنياء) يعنى قادرين على الخروج معك (رضوا بان يكونوا مع الخوالف) يعنى رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم (وطبع الله على قلوبهم) يعنى ختم عليها (فهم لايعلمون) مافى الجهاد من الخير فى الدنيا والآخرة امافى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وامافى الاخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لاينقطع ❊ قوله سبحانه وتعالى (يعتذرون اليكم اذارجعتم اليهم) يعنى يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يامحمد اليك وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم ويحتمل انهم اعتذروا اليه والى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون اليكم يعنى بالاعذار الباطلة الكاذبة اذا رجعتم اليهم يعنى من سفركم (قل) اى قل لهم يامحمد (لاتعتذروا) قال البغوى روى ان المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لاتعتذروا (لن نؤمن لكم) يعنى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به (قد نبأنا الله من اخباركم) يعنى قد اخبرنا الله فيما سلف من اخباركم (وسيرى الله عملكم ورسوله) يعنى فى المستأنف اتتوبون من نفاقكم ام تقيمون عليه وقيل يحتمل انهم وعدوا بان ينصروا المؤمنين فى المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بما قلتم املا (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم) يعنى فيخبركم (بما كنتم تعملون) لانه هو المطلع على مافى ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد ❊ قوله عزوجل (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم) يعنى اذا رجعتم من سفركم اليهم يعنى الى المتخلفين بالمدينة من المنافقين (لتعرضوا عنهم) يعنى لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ولاتوبخوهم بسبب تخلفهم (فاعرضوا عنهم) يعنى فدعوهم ومااختاروا لانفسهم من النفاق وقيل يريد ترك الكلام يعنى لاتكلموهم ولاتجالسوهم فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال لاتجالسوهم ولاتكلموهم قال اهل المعانى ان هؤلاء المنافقين طلبوا اعراض الصفح فاعطوا اعراض المقت ❊ ثم ذكر العلة فى سبب الاعراض عنهم فقال تعالى (انهم رجس) يعنى ان بواطنهم خبيثة نجسة واعمالهم قبيحة (ومأواهم) يعنى مسكنهم فى الآخرة

(جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) يعني من الاعمال الخبيثة في الدنيا قال ابن عباس نزلت في الجد بن قيس ومعتب بن قشير واصحابهما وكانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت في عبد الله بن ابي حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بالله الذي لا اله الا هو انه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم ان يرضى عنه فانزل الله عز وجل هذه الآية والتي بعدها (يحلفون لكم لترضوا عنهم) يعني يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم (فان ترضوا عنهم) يعني فان رضيتم عنهم ايها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) يعني انه سبحانه وتعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم ابدا ❊ وقوله سبحانه وتعالى (الاعراب اشد كفرا ونفاقا) نزلت في سكان البادية يعني ان اهل البدو اشد كفرا ونفاقا من اهل الحضر قال اهل اللغة يقال رجل عربي اذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب ورجل اعرابي اذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلا ويجمع الاعرابي على الاعراب والاعاريب فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الاعراب فالاعرابي اذا قيل له يا عربي فرح بذلك والعربي اذا قيل له يا اعرابي غضب والعرب افضل من الاعراب لان المهاجرين والانصار وعلماء الدين من العرب والسبب في كون الاعراب اشد كفرا ونفاقا بعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى (واجدر) يعني واخلق واحرى (الا يعلموا) يعني بان لا يعلموا (حدود ما انزل الله على رسوله) يعني الفرائض والسنن والاحكام (والله عليم) يعني بما في قلوب عباده (حكيم) فيما فرض من فرائضه واحكامه (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) يعني لا يرجو على انفاقه ثوابا ولا يخاف على امساكه عقابا انما ينفق خوفا ورياء والمغرم التزام ما لا يلزم والمعنى ان من الاعراب من يعتقد ان الذي ينفقه في سبيل الله غرامة لانه لا ينفق ذلك الا خوفا من المسلمين او مراآة لهم ولم يرد بذلك الانفاق وجه الله وثوابه (ويتربص) يعني وينتظر (بكم الدوائر) يعني بالدوائر تقلب الزمان وصروفه التي تاتي مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان بن رباب يعني تقلب الزمان فيموت الرسول وتظهر المشركون (عليهم دائرة السوء) يعني بل ينقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون في محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه ودينه الا ما يسوءهم (والله سميع) يعني لاقوالهم (عليم) يعني بما يخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وارادة السوء للمؤمنين نزلت هذه الآية في اعراب اسد وغطفان وتميم ❊ ثم استثنى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) قال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وقال الكلبي هم اسلم وغفار وجهينة (ق) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارأيتم ان كان جهينة ومزينة واسلم وغفار خيرا من بني تميم وبني اسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة فقال رجل خابوا وخسروا قال انهم خير من بني تميم وبني اسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة وفي رواية ان الاقرع بن حابس قال للنبي صلى الله عليه وسلم

[illegible]

ان لا مفرّ منه الا اليه ولم يجد مهربا ومحيصا من البلاء سواء تضرع اليه وتذلل بين يديه كما قال واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعدا او قائما وبالجملة يوجب رقة الحجاب وارتفاعه فليغتنم وقته وليتعوذ وليتخذ ملكة يعود اليها ابدا حتى يستقر التيقظ والتذكر وتتسهل التوبة والحضور فلا تعود الغفلة عند الخلاص وتقوى النفس عند الامان فتغلب وتسبل الحجاب اغلظ مما كان كما قال فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون فلما كشفنا عنه ضره مر كان لم يدعنا الى ضر مسه

قال خابوا وخسروا قال نعم (ق) عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها زاد مسلم في رواية له اما اني لم اقلها لكن الله قالها (ق) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قريش والانصار وجهينة ومزينة واسلم واشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله * وقوله سبحانه وتعالى (ويتخذ ما ينفق قربات عند الله) جمع قربة اي يطلب بما ينفق القربة الى الله تعالى (وصلوات الرسول) يعني ويرغبون في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل ابي اوفى (الا انها قربة لهم) يحتمل ان يعود الضمير في انها الى صلوات الرسول ويحتمل ان يعود الى الانفاق وكلاهما قربة لهم عند الله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة عند الله لان الله سبحانه وتعالى اكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى الا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها قربة لهم (سيدخلهم الله في رحمته) وهذه النعمة هي اقصى مرادهم (ان الله غفور) للمؤمنين المنفقين في سبيله (رحيم) يعني بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة * قوله سبحانه وتعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) اختلف العلماء في السابقين الاولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن ابي رباح هم اهل بدر وقال الشعبي هم اهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية وقال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لانهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حميد بن زياد قلت يوما لمحمد بن كعب القرظي الا تخبرني عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم واردت الفتن فقال ان الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم واوجب لهم الجنة في كتابه فقلت له في اي موضع اوجب لهم الجنة فقال سبحان الله الا تقرأ والسابقون الاولون الى آخر الآية فاوجب الله الجنة لجميع اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم زاد في رواية في قوله والذين اتبعوهم باحسان قال شرط في التابعين شريطة وهي ان يتبعوهم في اعمالهم الحسنة دون السيئة قال حميد فكأني لم اقرأ هذه الآية قط واختلف العلماء في اول الناس اسلاما بعد اتفاقهم على ان خديجة اول الخلق اسلاما واول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء اول من آمن بعد خديجة علي بن ابي طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا في سنه وقت اسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل اقل من ذلك وقيل اكثر وقيل كان بالغا والصحيح انه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم اول من اسلم بعد خديجة ابو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة بن الزبير اول من اسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اسحق بن ابراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول اول من اسلم من الرجال ابو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن ابي طالب ومن العبيد زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه فهؤلاء الاربعة سباق الخلق الى الاسلام قال ابن اسحق فلما اسلم ابو بكر اظهر اسلامه ودعا الناس الى الله ورسوله وكان رجلا محببا سهلا وكان انسب قريش لقريش واعلمها بما كان فيها وكان رجلا تاجرا وكان ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو الى الاسلام من يثق به من قومه فاسلم على يده عثمن بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص

(وإذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من احد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون لقد جاءكم رسول من انفسكم) ليكون بينكم وبينه جنسية نفسانية بها تقع الالفة بينكم وبينه فتخالطونه بتلك الجنسية وتختلطون به فتتأثر من نورا نيتها المستفادة من نور قلبه انفسكم فتتنور بها وتنسلخ عنها ظلمة الجبلة

وطلحة بن عبيد الله فجاءبهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا على يده وصلوا معه فكان هؤلاء النفر الثمانية اول من سبق الناس الى الاسلام ثم تتابع الناس بعدهم فى الدخول الى الاسلام واما السابقون من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهى العقبة الاولى وكانوا ستة نفر اسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رباب ثم اصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثنى عشر رجلا ثم اصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام وابو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سباق الانصار ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير الى اهل المدينة يعلمهم القرآن فاسلم على يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من اهل المدينة وذلك قبل ان يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وقيل ان المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة والذى يدل عليه ان الله سبحانه وتعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا فبقى اللفظ مجملا فلما قال تعالى من المهاجرين والانصار ووصفهم بكونهم مهاجرين وانصارا اوجب صرف اللفظ المجمل اليه وهو الهجرة والنصرة والذى يدل عليه ايضا ان الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث ان الهجرة امر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة وكذلك النصرة فانها مرتبة عالية ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على اعدائه وآووه وواسوه وآووا اصحابه وواسوهم فلذلك اثنى الله عز وجل عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار ❊ قوله تعالى (والذين اتبعوهم باحسان) قيل هم بقية المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين فعلى هذا القول يكون الجميع من الصحابة وقيل هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والانصار فى الايمان والهجرة والنصرة الى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والانصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا ادرى اذكر بعد قرنه قرنين او ثلاثة (ق) عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا اصحابى فلو ان احدا وفى رواية احدكم انفق مثل احد ذهبا مابلغ مد احدهم ولا نصيفه اراد بالقرن فى الحديث الاول اصحابه والقرن الامة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا فى مدته من الزمان فقيل من عشر سنين الى عشرين وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة والمد المذكور فى الحديث الثانى هو ربع صاع والنصيف نصفه والمعنى لو ان احدا عمل مهما قدر عليه من اعمال البر والانفاق فى سبيل الله مابلغ هذا القدر اليسير التافه من اعمال الصحابة وانفاقهم لانهم انفقوا وبذلوا المجهود فى وقت الحاجة ❊ وقوله سبحانه وتعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) يعنى رضى الله عن اعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة (واعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم) ❊ قوله سبحانه وتعالى (وممن حولكم من الاعراب منافقون) ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوى والواحدى وابن الجوزى انهم من اعراب مزينة وجهينة واشجع وغفار واسلم وكانت منازلهم حول المدينة يعنى ومن هؤلاء الاعراب منافقون وماذكروه مشكل لان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فان صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى وممن حولكم من

والعادة (عزيز عليه ماعنتم) شديد شاق عليه عنتكم مشقتكم ولقاؤكم المكروه لرافتها اللازمة للمحبة الالهية التى له لعباده ورؤيته اياهم بمثابة اعضائه وجوارحه لكونه ناظرا بنظر الوحدة فكما يشق على احدنا تألم بعض اعضائه يشق عليه تعذيب بعض أمته (حريص عليكم) لشدة اهتمامه بحفظكم كما يشتد اهتمام احدنا بكل واحد اجزاء جسده وجوارحه لايرضى بنقص اقل جزء منه ولا بشقائه فكذلك هو بل اشد اهتماما بالدقة

الاعراب منافقون على القليل لان لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم على الاكثر والاغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم واما الطبرى فانه اطلق القول ولم يعين احدا من القبائل المذكورة بل قال في تفسير هذه الآية من القول الذين حول مدينتكم ايها المؤمنون من الاعراب منافقون ومن اهل مدينتكم ايضا امثالهم اقوام منافقون وقال البغوى (ومن اهل المدينة) من الاوس والخزرج منافقون (مردوا على النفاق) فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الاعراب ومن اهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعنى مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه اذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد في معصية اى مرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها قال ابن اسحق لجوا فيه وابوا غيره وقال ابن زيد اقاموا عليه ولم يتوبوا منه (لا تعلمهم) يعنى انهم بلغوا في النفاق الى حيث انك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الاسرار (نحن نعلمهم) يعنى لكن نحن نعلمهم لانه لا تخفى علينا خافية وان دقت (سنعذبهم مرتين) اختلف المفسرون في العذاب الاول مع اتفاقهم على ان العذاب الثانى هو عذاب القبر بدليل قوله (ثم يردون الى عذاب عظيم) وهو عذاب النار في الآخرة فثبت بهذا انه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة في الدنيا ومرة في القبر ومرة في الآخرة اما المرة الاولى وهى التى اختلفوا فيها فقال الكلبى والسدى قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا في يوم جمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق فأخرج من المسجد أناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثانى هو عذاب القبر فان صح هذا القول فيحتمل ان يكون بعد ان اعلمه الله حالهم وسماهم له لان الله سبحانه وتعالى قال لا تعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك اعلمه بهم وقال مجاهد هذا العذاب الاول هو القتل والسبى وهذا القول ضعيف لان احكام الاسلام في الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية اخرى انهم عذبوا بالجوع مرتين وقال قتادة المرة الاولى هى الدبيلة في الدنيا وقد جاء تفسيرها في الحديث بانها خراج من نار تظهر في اكنافهم حتى تنجم من صدورهم يعنى تخرج من صدورهم وقال ابن زيد الاولى هى المصائب في الاموال والاولاد في الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن عباس الاولى اقامة الحدود عليهم في الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن اسحق الاولى هى ما يدخل عليهم من غيظ الاسلام ودخولهم فيه كرها غير حسبة والاخرى عذاب القبر وقيل احداهما ضرب الملائكة وجوههم وادبارهم عند قبض ارواحهم والاخرى عذاب القبر وقيل الاولى احراق مسجدهم مسجد الضرار والاخرى احراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى ثم يردون الى عذاب عظيم يعنى عذاب جهنم يخلدون فيه ❁ قوله عز وجل (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) فيه قولان احدهما انهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم واخلصوا وحجة هذا القول ان قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الاعراب منافقون والعطف يوهم ويعضده ما نقله الطبرى عن ابن عباس انه قال هم الاعراب والقول الثانى وهو قول جمهور المفسرين انها نزلت في جماعة من المسلمين من اهل المدينة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك واختلف المفسرون في عددهم فروى عن ابن عباس انهم كانوا عشرة منهم ابو لبابة وروى عنه انهم كانوا خمسة احدهم ابو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن اسلم كانوا ثمانية احدهم ابو لبابة وقال قتادة والضحاك كانوا سبعة احدهم ابو لبابة وقيل كانوا ثلاثة ابو لبابة

نظره (بالمؤمنين رؤف) ينجيهم من العقاب بالتحذير عن الذنوب والمعاصى برأفته (رحيم) يفيض عليهم العلوم والمعارف الكمالات المقرونة بالتعليم والترغيب عليها برحمته (فان تولوا) واعرضوا عن قبول الرأفة والرحمة لعدم الاستعداد اوزواله وتعرضوا للشقاوة الابدية (فقل حسبى الله) لا حاجة لى بكم ولا باستعدادكم كما لا حاجة للانسان الى العضو المألوم المتعفن الذى يجب قطعه عقلا اى الله كافينى في الوجود الا هو فلا مؤثر

بن عبدالمنذر وأوس بن ثعلبة وودیعة بن حزام وذلك انهم كانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا انكون من الضلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فى الجهاد واللاءواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا والله لنوثقن انفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنا ويعذرنا فربطوا انفسهم فى سوارى المسجد فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم مر بهم فرآهم فقال من هؤلاء فقالوا هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله ان لا يطلقوا انفسهم حتى تكون انت الذى تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اقسم بالله لا اطلقهم ولا اعذرهم حتى اومر باطلاقهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فانزل الله عز وجل هذه الآية فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فاطلقهم وعذرهم فلما اطلقوا قالوا يا رسول الله هذه اموالنا التى خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امرت ان آخذ من اموالكم شيأ فانزل الله خذ من اموالهم صدقة تطهرهم الآية وقال قوم نزلت هذه الآية فى ابى لبابة خاصة واختلفوا فى ذنبه الذى تاب منه فقال مجاهد نزلت فى ابى لبابة حين قال لبنى قريظة ان نزلتم على حكمه فهو الذبح واشار الى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية وقال والله لا احل نفسى ولا اذوق طعاما ولا شرابا حتى اموت او يتوب الله على فمكث سبعة ايام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه فانزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا احل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فحله بيده فقال ابو لبابة يا رسول الله ان من توبتى ان اهجر دار قومى التى اصبت فيها الذنب وان انخلع من مالى كله صدقة الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال يجزيك الثلث يا ابا لبابة قالوا جميعا فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث اموالهم وترك لهم الثلثين لان الله سبحانه وتعالى قال خذ من اموالهم ولم يقل خذ اموالهم لان لفظة من تقتضى التبعيض وقال الحسن وقتادة وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا وسيأتى خبرهم واما تفسير الآية فقوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال اهل المعانى الاعتراف عبارة عن الاقرار بالشئ ومعناه انهم اقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهى انهم لم يعتذروا عن تخلفهم باعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على انفسهم بذنوبهم وندموا على مافعلوا فان قلت الاعتراف بالذنب هل يكون توبة ام لا قلت مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فاذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضى من الذنب والعزم على تركه فى المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة ❊ وقوله سبحانه وتعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ) قيل اراد بالعمل الصالح اقرارهم بالذنب وتوبتهم منه والعمل السيئ هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل العمل الصالح هو خروجهم مع رسول صلى الله عليه وسلم الى سائر الغزوات والسيئ هو تخلفهم عنه فى غزوة تبوك وقيل ان العمل الصالح يعم جميع اعمال البر والطاعة والسيئ ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية فى حق جميع المسلمين والحمل على العموم اولى وان كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وروى الطبرى عن ابى عثمان قال ما فى القرآن آية ارجى عندى لهذه الامة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم فان قلت قد جعلت كل واحد من العمل الصالح والسيئ مخلوطا فما المخلوط به قلت

غيره ولا ناصر الا هو (لا اله الا هو عليه توكلت) لا ارى لاحد فضلا ولا حول ولا قوة الا به (وهو رب العرش العظيم) المحيط بكل شئ يأتى منه حكمه وامره الى الكل

ان الخلط عبارة عن الجمع المطلق فاما قولك خلطته فانما يحسن فى الموضع الذى يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الاصلية كقولك خلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملا صالحا بآخر سيئا ذكره غالب المفسرين وانكره الامام فخر الدين الرازى وقال اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لان العمل الصالح والعمل السيئ اذا حصلا معا بقى كل واحد منهما على حاله كما هو مذهبنا فان عندنا القول بالاحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فيه تنبيه على نفى القول بالمحابطة وانه بقى كل واحد منهما كما كان من غير ان يتأثر احدهما بالآخر فليس الا الجمع المطلق وقال الواحدى العرب تقول خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيدا وعمرا والواو فى الآية احسن من الباء لانه اريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط الا ترى ان العمل الصالح لا يختلط بالسيئ كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما ❊ وقوله سبحانه وتعالى (عسى الله ان يتوب عليهم) قال ابن عباس وجمهور المفسرين عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى فعسى الله ان يأتى بالفتح وقد فعل ذلك وقال اهل المعانى لفظة عسى هنا تفيد الطمع والاشفاق لانه ابعد من الاتكال والاهمال ان الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شئ بل كل ما يفعله على سبيل التفضيل والتطول والاحسان فذكر لفظة عسى التى هى للترجى والطمع حتى يكون العبد بين الترجى والاشفاق ولكن هو الى نيل ما يرجوه منه اقرب لانه ختم الآية بقوله (ان الله غفور رحيم) وهذا يفيد انجاز الوعد ❊ قوله سبحانه وتعالى (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) قال ابن عباس لما اطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا لبابة وصاحبيه انطلق ابو لبابة وصاحباه فأتوا باموالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خذ اموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا آخذ شيأ منها حتى اومر به فأنزل الله عز وجل خذ من اموالهم صدقة الآية وهذا قول زيد بن اسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ثم اختلف العلماء فى المراد بهذه الصدقة فقال بعضهم هو راجع الى هؤلاء الذين تابوا وذلك انهم بذلوا اموالهم صدقة فأوجب الله سبحانه وتعالى اخذها وصار ذلك معتبرا فى كمال توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة واصحاب هذا القول يقولون ليس المراد بها الصدقة الواجبة وقال بعضهم ان الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو وحسن اسلامهم وبذلوا الزكاة امر الله سبحانه وتعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يأخذ منهم وقال بعضهم ان الآية كلام مبتدأ والمقصود منها ايجاب اخذها من الاغنياء ودفعها الى الفقراء وهذا قول اكثر الفقهاء واستدلوا بها على ايجاب اخذ الزكاة اما حجة اصحاب القول الاول فانهم قالوا الآيات لا بد وان تكون منتظمة متناسبة فلو حملناها على اخذ الزكاة الواجبة لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها ولان جمهور المفسرين ذكروا فى سبب نزولها انها نزلت فى شأن التائبين واما اصحاب القول الاخير فانهم قالوا المناسبة حاصلة ايضا على هذا التقدير وذلك انهم لما تابوا واخلصوا واقروا ان السبب الموجب للتخلف هو حب المال امروا باخراج الزكاة التى هى طهرة فلما اخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فان قالوا ان الزكاة قدر معلوم لا يبلغ ثلث المال وقد اخذ منهم ثلث اموالهم قلنا لا يمنع هذا صحة ما قلناه لانهم رضوا ببذل

(سورة يونس عليه السلام)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) اشارة الى الرحمة التى هى الذات المحمدية لقوله وما ارسلناك الا رحمة للعالمين وال مر ذكرهما (تلك) اى ما اشير اليه بهذه الحروف اركان كتاب الكل ذى الحكمة او المحكم المتقن تفاصيله او اقسم بالله باعتبار الهوية الاحدية جمعا وباعتبار الصفة الواحدية تفصيلا فى باطن الجبروت وظاهر الرحموت على ما ذكر اوعلى ان تلك الآيات المذكورة فى السورة (آيات الكتاب الحكيم) ذى الحكمة (اكان للناس

الثلث من اموالهم فلايكونوا راضين باخراج الزكاة اولى ثم فى هذه الآية احكام الاول قوله سبحانه وتعالى خذمن اموالهم صدقة الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم اى خذ يا محمد من اموالهم صدقة فكان النبى صلى الله عليه وسلم يأخذها منهم ايام حياته ثم اخذها من بعده الائمة فيجوز للامام او نائبه ان يأخذ الزكاة من الاغنياء ويدفعها الى الفقراء الحكم الثانى قوله من اموالهم ولفظة من تقتضى التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولا مقدر بنص القرآن فلم يبق الا الصدقة التى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها وصفتها فى اخذ الزكاة الحكم الثالث ظاهر قوله خذ من اموالهم صدقة يفيد العموم فتجب الزكاة فى جميع المال حتى فى الديون وفى مال الركاز الحكم الرابع ظاهر قوله تطهرهم ان الزكاة انما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لا يمكن حصولها الا من البالغ دون الصبى فوجب ان تجب الزكاة فى مال البالغ دون الصبى وهذا قول ابى حنيفة ثم اجاب اصحاب الشافعى بانه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقا وللعلماء فى قوله سبحانه وتعالى تطهرهم اقوال الاول ان معناه خذ يا محمد من اموالهم صدقة فانك تطهرهم باخذها من دنس الآثام القول الثانى ان يكون تطهرهم متعلقا بالصدقة تقديره خذ من اموالهم صدقة فانها طهرة لهم وانما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء ان الصدقة من اوساخ الناس فاذا اخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الاوساخ وكان ذلك الاندفاع جاريا مجرى التطهير فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم بها منقطعا عن قوله تطهرهم ويكون التقدير خذ يا محمد من اموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم انت بها القول الثالث ان تجعل التاء فى قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب ويكون المعنى تطهرهم انت يا محمد بأخذها منهم وتزكيهم انت بواسطة تلك الصدقة القول الرابع ان معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعنى ترفع منازلهم عن منازل المنافقين الى منازل الابرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم اى تنمى اموالهم ببركة اخذها منهم الحكم الخامس قوله سبحانه (وصل عليهم) يعنى ادع لهم واستغفر لهم لان اصل الصلاة فى اللغة الدعاء قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه السنة للامام اذا اخذ الصدقة ان يدعو للمتصدق فيقول آجرك الله فيما اعطيت وبارك لك فيما ابقيت وقال بعضهم يجب على الامام ان يدعو للمتصدق وقال بعضهم يستحب ذلك وقيل يجب فى صدقة الفرض ويستحب فى صدقة التطوع وقيل يجب على الامام ويستحب للفقير ان يدعو للمعطى وقال بعضهم يستحب ان يقول اللهم صل على فلان ويدل عليه ماروى عن عبد الله بن ابى اوفى وكان من اصحاب الشجرة قال كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا اتاه قوم بصدقة قال اللهم صل عليهم فأتاه ابى بصدقته فقال اللهم صل على آل ابى اوفى اخرجاه فى الصحيحين * وقوله سبحانه وتعالى (ان صلاتك) وقرئ صلواتك على الجمع (سكن لهم) يعنى ان دعاءك رحمة لهم وقال ابن عباس طمأنينة لهم وقيل ان الله قد قبل منهم وقال ابو عبيدة تثبيت لقلوبهم وقيل ان السكن ما سكنت اليه النفس والمعنى ان صلواتك توجب سكون نفوسهم اليها والمعنى ان الله قد قبل توبتهم اوقبل زكاتهم (والله سميع) يعنى لاقوالهم اولدعائك لهم (عليم) يعنى بنياتهم (ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده) هذه صيغة استفهام الا ان المقصود منه التقرير فبشر الله عزوجل هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم هؤلاء الذين تابوا ان الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة وقيل ان المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيبا لهم فى التوبة وبذل الصدقات وذلك انه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالامس لا يكلمون

عجبا) انكر عجبهم لكون سنة الله جارية ابدا على هذا الاسلوك فى الايحاء على الرجال وانما كان تعجبهم لبعدهم عن مقام وعدم مناسبة حالهم حاله ومنافاة ما جاء به لما اعتقدوه (ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم) اى سابقة بحسب العناية الاولى عظيمة اومقاما من قربه ليس لاحد مثله خصصهم الله به فى الازل بمحض الاجتباء

ولا يجالسون فابالهم اليوم فانزل الله هذه الآية ترغيبا لهم فى التوبة وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل لافرق بين عن عباده ومن عباده اذلا فرق بين قولك اخذت هذا العلم عنك او منك وقيل بينهما فرق لعل عن فى هذا الموضع ابلغ لان فيه تبشيرا بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها ❊ وقوله سبحانه وتعالى (ويأخذ الصدقات) يعنى يقبلها ويثيب عليها وانما ذكر لفظ الاخذ ترغيبا فى بذل الصدقة واعطائها الفقراء وقيل معنى اخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها ولما كان هو المجازى عليها والمثيب بها اسند الاخذ الى نفسه وان كان الفقير او السائل هو الآخذ لها وفى هذا تعظيم امر الصدقات وتشريفها وان الله سبحانه وتعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصدق احدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا اخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون اعظم من الجبل كما يربى احدكم فلوه او فصيله لفظ مسلم وفى البخارى من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد الى الله الا الطيب وفى رواية ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى احدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل واخرجه الترمذى ولفظه ان الله سبحانه وتعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لاحدكم كما يربى احدكم فلوه حتى ان اللقمة لتصير مثل جبل احد وتصديق ذلك فى كتاب الله سبحانه وتعالى الم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويربى الصدقات وقوله من كسب طيب اى حلال وذكر اليمين والكف فى الحديث كناية عن قبول الصدقة وان الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطى لان من عادة الفقير او السائل اخذ الصدقة بكفه اليمين فكان المتصدق قد وضع صدقته فى القبول والاثابة وقوله فتربو اى تكبر يقال ربا الشئ يربو اذا زاد وكبر والفلو بضم الفاء وفتحها لغتان المهر اول ما يولد والفصيل ولد الناقة الى ان ينفصل عنها ❊ وقوله سبحانه وتعالى (وان الله هو التواب الرحيم) تأكيد لقوله سبحانه وتعالى الم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده وتبشير لهم بان الله هو التواب الرحيم ❊ قوله عز وجل (وقل) اى قل يا محمد لهؤلاء التائبين (اعملوا) يعنى لله بطاعته واداء فرائضه (فسيرى الله عملكم) فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا فى العمل فى المستقبل فان الله تعالى يرى اعمالكم ويجازيكم عليها (ورسوله والمؤمنون) يعنى ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون اعمالكم ايضا اما رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله اياه على اعمالكم واما رؤية المؤمنين فيما يقذف الله عز وجل فى قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المذنبين (وستردون الى عالم الغيب والشهادة) يعنى وسترجعون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شئ من بواطنكم وظواهركم (فينبئكم) اى فيخبركم (بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا من خير او شر فيجازيكم على اعمالكم ❊ قوله سبحانه وتعالى (وآخرون مرجون) اى مؤخرون والارجاء التأخير (لامر الله) يعنى لحكم الله فيهم قال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى قسم المتخلفين على ثلاثة اقسام اولهم المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه والقسم الثانى التائبون وهم الذين سارعوا الى التوبة بعدما [illegible] بذنوبهم وهم ابو لبابة واصحابه فقبل الله توبتهم والقسم الثالث موقوفون ومؤخرون الى ان يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله وآخرون مرجون لامر الله والفرق بين القسم

والملأ آمنوا به (قال الكافرون) الذى عجبوا من الله فلم يطلعوا على ظهور صفاته فى النفس المحمدية (ان هذا الذى جاء به (لساحر مبين ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش) اى شئ خارج عن قدرة البشر ليس الامن عمل الشياطين قالوا ذلك لغلبة الشيطنة عليهم واحتجابهم بها عن الله

الثانى والقسم الثالث ان القسم الثانى سارعوا الى التوبة فقبل الله توبتهم والقسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا الى التوبة فاخر الله امرهم نزلت هذه الآية فى الثلاثة الذين تخلفوا وهم كعب ابن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع وستأتى قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك انهم لم يبالغوا فى التوبة والاعتذار كما فعل ابو لبابة واصحابه فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من اهل بدر فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول عسى الله ان يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى (اما يعذبهم واما يتوب عليهم) يعنى ان امرهم الى الله تعالى ان شاء عذبهم بسبب تخلفهم وان شاء غفر لهم وعفا عنهم (والله عليم) يعنى بما فى قلوبهم (حكيم) يعنى بما يقضى عليهم ❋ قوله سبحانه وتعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) نزلت فى جماعة من المنافقين بنوا مسجدا يضارون به مسجد قباء وكانوا اثنى عشر رجلا من اهل النفاق وديعة بن ثابت وحذام بن خالد ومن داره اخرج هذا المسجد ودعلبة بن حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف اخو سهل بن حنيف وابو حبيبة بن الاذعر ونبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان وبحزج بنوا هذا المسجد ضرارا يعنى مضارة للمؤمنين وكفرا يعنى ليكفروا فيه بالله ورسوله (وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا جميعا يصلون فى مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم فيؤدى ذلك الى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلى بهم فيه مجمع بن جارية وكان شابا يقرأ القرآن ولم يدر ما ارادوا ببنائه فلما فرغوا من بنائه اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز الى تبوك فقالوا يا رسول الله انا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وانا نحب ان تأتينا وتصلى فيه وتدعو بالبركة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى على جناح سفر ولو قدمنا ان شاء الله تعالى اتيناكم فصلينا فيه ❋ وقوله سبحانه وتعالى (وارصادا لمن حارب الله ورسوله) يعنى انهم بنوا هذا المسجد للضرار والكفر وبنوه ارصادا يعنى انتظارا واعدادا لمن حارب الله ورسوله (من قبل) يعنى من قبل بناء هذا المسجد وهو ابو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة وكان ابو عامر قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال له ابو عامر ما هذا الدين الذى جئت به فقال له النبى صلى الله عليه وسلم جئت بالحنيفية دين ابراهيم فقال ابو عامر فانا عليها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم انك لست عليها قال ابو عامر بلى ولكنك ادخلت فى الحنيفية ما ليس منها فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال ابو عامر امات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمين وسماه الناس اباعامر الفاسق فلما كان يوم احد قال ابو عامر الفاسق للنبى صلى الله عليه وسلم لا اجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس ابو عامر وخرج هاربا الى الشام وارسل الى المنافقين ان استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لى مسجدا فانى ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فاخرج محمدا واصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قباء فذلك قوله سبحانه وتعالى وارصادا يعنى انتظارا لمن حارب الله ورسوله يعنى اباعامر الفاسق ليصلى فيه اذا رجع من الشام من قبل يعنى ان اباعامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار (وليحلفن) يعنى الذين بنوا المسجد (ان اردنا) يعنى ما اردنا ببنائه (الا الحسنى) يعنى

وعبادتهم الشيطان بحيث لم يصلوا الى طور من الروحانيات ووراءه فى القدرة فلذلك نسبوا ما يتجاوز عن حد البشرية اليه بالطبع (يدبر) امر السموات والارضين على وفق حكمته بقدرته (ما من شفيع) يشفع لاحد بافاضة كمال وامداد نور يقربه الى الله وينجيه من ظلمات النفس ويطهره من رجز صفاتها (الا من بعد) ان يأذن بموهبة الاستعداد ثم توفيق الاسباب (ذلكم) الموصوف بهذه الصفات (الله ربكم فاعبدوه) الذى ربيكم ويدبر امركم فخصصوه بالعبادة واعرفوه بهذه الصفات

الا الفعلة الحسنى وهى الرفق بالمسلمين والتوسعة على اهل الضعف والعجز عن الصلاة فى مسجد قباء او مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله يشهد انهم لكاذبون) يعنى فى قيلهم وحلفهم روى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما انصرف من تبوك راجعا نزل بذى اوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه ان يأتى مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية واخبره خبر مسجد الضرار وماهموا به فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ابن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم اهله فاهدموه واحرقوه فخرجوا مسرعين حتى اتوا بنى سالم بن عوف وهم مالك بن الدخشم فقال مالك انظرونى حتى اخرج اليكم بنار فدخل اهله فأخذ من سعف النخل فاشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه اهله فاحرقوه وهدموه وتفرق عنه اهله وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة ومات ابو عامر الراهب بالشام غريبا وحيدا وروى ان بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء اتوا عمر بن الخطاب فى خلافته فسألوه ان يأذن لمجمع بن جارية ان يؤمهم فى مسجدهم فقال لا ولا نعمة عين اليس هو امام مسجد الضرار قال مجمع يا امير المؤمنين لا تعجل على فوالله لقد صليت فيه وانما لا اعلم ما اضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرؤن فصليت بهم ولا احسب الا انهم يتقربون الى الله ولم اعلم ما فى انفسهم فعذره عمر فصدقه وامره بالصلاة فى مسجد قباء قال عطا لما فتح الله على عمر بن الخطاب الامصار امر المسلمين ان يبنوا المساجد وامرهم ان لا يبنوا فى موضع واحد مسجدين يضار احدهما الآخر ❊ وقوله سبحانه وتعالى (لا تقم فيه ابدا) قال ابن عباس معناه لا تصل فيه ابدا منع الله عزوجل نبيه صلى الله عليه وسلم ان يصلى فى مسجد الضرار (لمسجد اسس على التقوى) اللام فيه لام الابتداء وقيل لام القسم تقديره والله لمسجد اسس يعنى بنى اصله ووضع اساسه على التقوى يعنى على تقوى الله عزوجل (من اول يوم) يعنى من اول يوم بنى ووضع اساسه كان ذلك البناء على التقوى (احق ان تقوم فيه) يعنى مصليا واختلفوا فى المسجد الذى اسس على التقوى فقال عمر وزيد بن ثابت وابو سعيد الخدرى هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى مسجد المدينة ويدل عليه ما روى عن ابى سعيد الخدرى قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله اى المسجدين اسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصى فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة اخرجه مسلم (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى (ق) عن عبد الله بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة عن ام سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان قوائم منبرى هذا رواتب فى الجنة اخرجه النسائى قوله رواتب يعنى ثوابت يقال رتب بالمكان اذا قام فيه وثبت وفى رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة انه مسجد قباء ويدل عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين ويدل على انهم اهل قباء ما روى عن ابى هريرة قال نزلت هذه الآية فى اهل قباء فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم اخرجه ابو داود

ولا تعبدوا الشيطان ولا تحجبوا عنه ببعض صفاته فتنسبوا قوله وفعله الى الشيطان افلا تتذكرون ما فى انفسكم من آياته فتتفكروا فيها وتنزجروا عن الشرك به (اليه مرجعكم جميعا) بالعود الى عين الجمع المطلق فى القيامة الصغرى كما هو الآن او الى عين جمع الذات بالفناء فيه عند القيامة الكبرى (وعد الله حقا انه يبدؤا الخلق) فى النشأة الاولى (ثم يعيده) فى النشأة الثانية (ليجزى)

والترمذى وقال حديث غريب هكذا ذكره صاحب جامع الاصول من رواية ابى داود والترمذى موقوفا عن ابى هريرة ورواه البغوى من طريق ابى داود مرفوعا عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية فى اهل قبا فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ومما يدل على فضل مسجد قباء ماروى عن ابن عمر قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يزور قباء اويأتى قباء راكبا وماشيا زاد فى رواية فيصلى فيه ركعتين وفى رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى مسجد قباء كل سبت راكبا وماشيا وكان ابن عمر يفعله اخرج الرواية الاولى والزيادة البخارى ومسلم واخرج الرواية الثانية البخارى عن سهل بن حنيف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج حتى يأتى هذا المسجد مسجد قباء فيصلى فيه كان له كعدل عمرة اخرجه النسائى عن اسيد بن ظهير ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الصلاة فى مسجد قباء كعمرة اخرجه الترمذى * وقوله سبحانه وتعالى (فيه رجال يحبون ان يتطهروا) يعنى من الاحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول اكثر المفسرين قال عطاء ولما كانوا يستنجون بالماء ولاينامون بالليل على الجنابة وروى الطبرى بسنده عن عويمر بن ساعدة وكان من اهل بدر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهل قباء انى اسمع الله عزوجل قد احسن عليكم الثناء فى الطهور فما هذا الطهور قالوا يارسول الله مانعمل شيأ الا ان جيرانا لنا من اليهود رأيناهم يغسلون ادبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وعن قتادة قال ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء ان الله سبحانه وتعالى قد احسن عليكم الثناء فى الطهور فما تصنعون قالوا انا نغسل عنا اثر الغائط والبول وقال الامام فخر الدين الرازى المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب والمعاصى وهذا القول متعين لوجوه الاول ان التطهر من الذنوب هو المؤثر فى القرب من الله عزوجل واستحقاق ثوابه ومدحه الوجه الثانى ان الله سبحانه وتعالى وصف اصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والتفريق بينهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعنى اهل قباء بالضد من صفتهم وماذاك الا لكونهم مبرئين من الكفر والمعاصى وهى الطهارة الباطنية الوجه الثالث ان طهارة الظاهر انما يحصل لها اثر عند الله اذا حصلت الطهارة الباطنية من الكفر والمعاصى وقيل يحتمل انه محمول على كلا الامرين يعنى طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصى وطهارة الظاهر من الاحداث والنجاسات بالماء (والله يحب المطهرين) فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضاء عنهم بما اختاروه لانفسهم من المداومة على محبة الطهارة * قوله سبحانه وتعالى (افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان) يعنى طلب ببنائه المسجد الذى بناه تقوى الله ورضاه والمعنى ان البانى لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثوابه (خير ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار) الشفاء هو الشفير وشفا كل شئ حرفه ومنه يقال اشفى على كذا اذا دنا منه وقرب ان يقع فيه والجرف المكان الذى اكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب وقال ابو عبيد الجرف هو الهوة وما يجرفه السيل من الاودية فينحفر بالماء فيبقى واهيا هار اى هائر وهو الساقط فهو من هار يهور فهو هائر وقيل من هار يهار اذا تهدم وسقط وهو الذى تداعى بعضه فى اثر بعض كما يهار الرمل والشئ الرخو (فانهار به) يعنى سقط بالبانى (فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين) والمعنى ان بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور باهله فيها وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد

الذين آمنوا وعملوا الصالحات) المؤمن والكافر على حسب ايمانهم وعملهم الصالح وكفرهم وعملهم الفاسد وهذا على التأويل الاول وعلى الثانى يبدا الخلق باختفائه واظهارهم ثم يعيدهم بافنائهم وظهوره ليجزى الذين امنوا به وعملوا الصالحات ما يصلحهم للقائه من الاعمال الرافعة لحجبهم المقربة اياهم (بالقسط) بحسب ما بلغوا من المقامات بأعمالهم من مواهبه الحالية والذوقية التى يقتضيها مقامهم وشوقهم او ليجزى الذين آمنوا الايمان الحقيقى وعملوا بالله الاعمال التى تصلح العباد

الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء او مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى المثل انمن اسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه خير ام من اسس دينه على اضعف القواعد واقلها بقاء وثباتا وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل بناء على غير اساس ثابت وهو شفا جرف هار واذا كان كذلك كان اسرع الى السقوط فى نار جهنم ولان البانى الاوّل قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه اشرف البناء والبانى الثانى قصد ببنائه الكفر والنفاق واضرار المسلمين فكان بناؤه اخس البناء وكانت عاقبته الى نار جهنم قال ابن عباس صيرهم نفاقهم الى النار وقال قتادة والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع فى النار ولقد ذكر لنا انه حفرت بقعة منه فرؤى الدخان يخرج منها وقال جابر بن عبد الله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار (لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة) يعنى شكا ونفاقا (فى قلوبهم) والمعنى ان ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة فى قلوبهم لان المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم فلما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازدادوا غما وحزنا وبغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك سبب الريبة فى قلوبهم وقيل انهم كانوا يحسبون انهم محسنون فى بنائه كما حبب العجل الى بنى اسرائيل فلما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه بقوا شاكين مرتابين لاى سبب امر بتخريبه وقال السدى لايزال هدم بنيانهم ريبة اى حرارة وغيظا فى قلوبهم (الا ان تقطع قلوبهم) اى تجعل قلوبهم قطعا وتفرق اجزاء امابالسيف واما بالموت والمعنى ان هذه الريبة باقية فى قلوبهم الى ان يموتوا عليها (والله عليم) يعنى باحوالهم واحوال جميع عباده (حكيم) يعنى فيما حكم به عليهم * قوله عز وجل (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة) الآية قال محمد بن كعب القرظى لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال اشترط لربى ان تعبدوه ولا تشركوا به شيأ واشترط لنفسى ان تمنعونى مما تمنعون منه انفسكم واموالكم قالوا اذا فعلنا ذلك فمالنا قال الجنة قالوا ربح البيع لانقيل ولا نستقيل فنزلت ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة قال ابن عباس بالجنة قال اهل المعانى لايجوز ان يشترى الله شيأ هو له فى الحقيقة لان المشترى انما يشترى مالا يملك والاشياء كلها ملك الله عز وجل ولهذا قال الحسن انفسنا هو خلقها واموالنا هو رزقنا اياها لكن جرى هذا مجرى التلطف فى الدعاء الى الطاعة والجهاد وذلك لان المؤمن اذا قاتل فى سبيل الله حتى يقتل او انفق ماله فى سبيل الله عوّضه الله الجنة فى الآخرة جزاء لما فعل فى الدنيا فجعل ذلك استبدالا واشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة والمراد باشتراء الاموال انفاقها فى سبيل الله وفى جميع وجوه البر والطاعة (يقاتلون فى سبيل الله) هذا تفسير لتلك المبايعة وقيل فيه معنى الامر اى قاتلوا فى سبيل الله (فيقتلون ويقتلون) يعنى فيقتلون اعداء الله ويقتلون فى طاعة الله وسبيله (وعدا عليه حقا) يعنى ذلك الوعد بان لهم الجنة وعدا على الله حقا (فى التوراة والانجيل والقرآن) يعنى ان هذا الوعد الذى وعده الله تعالى للمجاهدين فى سبيله قد اثبته فى التوراة والانجيل كما اثبته فى القرآن وفيه دليل على ان الامر بالجهاد موجود فى جميع الشرائع ومكتوب على جميع اهل الملل (ومن اوفى بعهده من الله) يعنى لا احد اوفى بالعهد من الله (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) يعنى فاستبشروا ايها المؤمنون بهذا البيع الذى

اى جزاء بالتكميل بقسطهم اى بسبب عدلهم فى زمان الاستقامة اوجزاء بحسب رتبتهم ومقاماتهم فى الاستقامة (والذين كفروا) حجبوا فى اى مقام كان (لهم شراب من حميم) لجهلهم بما فوقه وشكهم واضطرابهم اذلو وصلوا الى اليقين لذاقوا برده (وعذاب اليم بما كانوا يكفرون) من الحرمان والهجران وفقدان روح الوجدان بسبب احتجابهم (هو الذى جعل الشمس ضياء) شمس الروح ضياء الوجود وقمر القلب

بايعتم الله به (وذلك) يعنى هذا البيع (هو الفوز العظيم) لانه رابح فى الآخرة قال عمر بن الخطاب ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن اسمعوا الى بيعة ربحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه قال ان الله سبحانه وتعالى اعطاك الدنيا فاشترى الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فاغلى لهم ❊ قوله سبحانه وتعالى (التائبون) قال الفراء استؤنف لفظ التائبون بالرفع لتمام الآية الاولى وانقطاع الكلام وقال الزجاج التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر والمعنى التائبون الى آخره لهم الجنة ايضا وان لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين لترك الجهاد وهذا وجه حسن فكانه وعد بالجنة جميع المؤمنين كما قال تعالى وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعا للاول كان الوعد بالجنة خاصا بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات فيكون رفع التائبون على المدح يعنى المؤمنين المذكورين فى قوله ان الله اشترى واما التفسير فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعنى الذين تابوا من الشرك وبرؤا من النفاق وقيل التائبون من كل معصية فيدخل فيه التوبة من الكفر والنفاق وقيل التائبون من جميع المعاصى لان لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل واعلم ان التوبة المقبولة انما تحصل بامور اربعة اولها احتراق القلب عند صدور المعصية وثانيها الندم على فعلها فيما مضى وثالثها العزم على تركها فى المستقبل ورابعها ان يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فان كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح الناس له ودفع مذمتهم فليس بمخلص فى توبته (العابدون) يعنى المطيعين الله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين اتوا بالعبادة على اقصى وجوه التعظيم لله تعالى وهى ان تكون العبادة خالصة له تعالى (الحامدون) يعنى الذين يحمدون الله تعالى على كل حال فى السراء والضراء روى البغوى بغير سند عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء وقيل هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا واخرى (السائحون) قال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال سفيان بن عيينة انما سمى الصائم سائحا لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح وقال الازهرى قيل للصائم سائح لان الذى يسيح فى الارض متعبدا لا زاد معه فكان ممسكا عن الاكل وكذلك الصائم ممسك عن الاكل وقيل اصل السياحة استمرار الذهاب فى الارض كالماء الذى يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهى وقال عطاء السائحون هم الغزاة المجاهدون فى سبيل الله ويدل عليه ما روى عن عثمان بن مظعون قال قلت يا رسول الله ائذن لى فى السياحة فقال ان سياحة امتى الجهاد فى سبيل الله ذكره البغوى بغير سند وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم لانهم ينتقلون من بلد الى بلد فى طلبه وقيل ان السياحة لها اثر عظيم فى تهذيب النفس وتحسين اخلاقها لان السائح لا بد ان يلقى انواعا من الضر والبؤس ولا بد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين فى سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وآثار قدرة الله تعالى فيتفكر فى ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته (الراكعون الساجدون) يعنى المصلين وانما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لانهما معظم اركانها وبهما يتميز المصلى من غير المصلى بخلاف حالة القيام والقعود لانهما حالة المصلى وغيره (الآمرون بالمعروف) يعنى يأمرون الناس بالايمان بالله وحده (والناهون عن المنكر) يعنى عن الشرك بالله وقيل انهم يأمرون الناس بالحق فى اديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه او نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم

نوره وقدره مسير فى سلوكه (والقمر نورا وقدره منازل) ومقامات (لتعلموا عدد عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) سنى مراتبكم و الطوار كم فى السير الى الله وفى الله وحساب درجاتكم ومواقع اقدامكم فى كل مقام ومرتبة (ان فى اختلاف الليل والنهار) ليل غلبة ظلمة النفس على القلب ونهار اشراق ضوء الروح عليه ما خلق الله فى سموات الارواح وارض الاجساد (وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) حجب صفات

قال الحسن اما انهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من اهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه
واما دخول الواو فى والناهون عن المنكر فان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه
وتعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى فى صفة الجنة وفتحت ابوابها وقيل فيه وجه آخر وهو ان الموصوفين
بهذه الصفات الست هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فعلى هذا يكون قوله تعالى
التائبون الى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعنى هم الآمرون بالمعروف والناهون
عن المنكر (والحافظون لحدود الله) قال ابن عباس يعنى القائمين بطاعة الله وقال الحسن الحافظون
لفرائض الله وهم اهل الوفاء ببيعة الله وقيل هم المؤدون فرائض الله المنتهون الى امره ونهيه
فلا يضيعون شيأ من العمل الذى الزمهم به ولا يرتكبون منهيا نهاهم عنه (وبشر المؤمنين) يعنى
بشر يا محمد المصدقين بما وعدهم الله به اذا وفوا الله تعالى بعهده فانه موف لهم بما وعدهم من ادخال
الجنة وقيل وبشر من فعل هذه الافعال التسع وهو قوله تعالى التائبون الى آخر الآية بأن له
الجنة وان لم يغز * قوله عز وجل (ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا
اولى قربى) الآية واختلف اهل التفسير فى سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت فى شأن ابى
طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم والد على وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم اراد ان يستغفر له
بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ماروى عن سعيد بن المسيب عن ابيه المسيب بن حزن
قال لما حضرت اباطالب الوفاة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده اباجهل وعبد الله
بن ابى امية بن المغيرة فقال اى عم قل لا اله الا الله كلمة احاج لك بها عند الله فقال ابو جهل وعبد الله
بن ابى امية بن المغيرة اترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه
ويعود ان لتلك المقالة حتى قال ابو طالب آخر ما كلمهم انا على ملة عبد المطلب وابى ان يقول
لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك مالم انه عنك فأنزل الله
تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى وانزل الله فى ابى
طالب انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء اخرجاه فى الصحيحين فان قلت قد استبعد
بعض العلماء نزول هذه الآية فى شأن ابى طالب وذلك ان وفاته كانت بمكة اول الاسلام ونزول
هذه السورة بالمدينة وهى من آخر القرآن نزولا قلت الذى نزل فى ابى طالب قوله تعالى انك
لا تهدى من احببت فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لك مالم انه عنك كما فى الحديث فيحتمل
انه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر له فى بعض الاوقات الى ان نزلت هذه الآية فمنع من الاستغفار
والله اعلم بمراده واسرار كتابه (م) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه عند
الموت قل لا اله الا الله اشهد لك بها يوم القيامة فأبى فأنزل الله انك لا تهدى من احببت ولكن الله
يهدى من يشاء الآية وفى رواية قال لولا تعيرنى قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لاقررت
بها عينك فأنزل الله الآية (ق) عن ابى سعيد الخدرى انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر
عنده عمه ابو طالب فقال لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلى منه ام
دماغه وفى رواية يغلى منه دماغه من حرارة نعليه (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ما اغنيت عن عمك فانه كان يحوطك ويغضب لك قال هو فى ضحضاح
من نار ولولا انا لكان فى الدرك الاسفل من النار وفى رواية قال قلت يا رسول الله ان اباطالب

النفس الامارة ولم نوا الى
رتبة النفس اللوامة فعرفوا
تلك الآيات ان الذين لا
يرجون لقاءنا ورضوا
بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها
والذين هم عن اياتنا غافلون
اولئك مأواهم النار بما
كانوا يكسبون ان الذين
امنوا وعملوا الصالحات
يهديهم ربهم بايمانهم
تجرى من تحتهم الانهار
فى جنات النعيم دعواهم فيها)
اى دعاؤهم الاستعدادى
فى الجنات الثلاث التى

كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح
وقال ابو هريرة وبريدة لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة اتى قبر امه آمنة فوقف حتى حميت الشمس
رجاء ان يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ماكان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين الآية
وروى الطبرى بسنده عن بريدة ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة اتى رسم قال واكثر
ظنى انه قال قبر امه فجلس اليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبرا فقلنا يارسول الله انارابنا ماصنعت
قال انى استأذنت ربى فى زيادة قبر امى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يؤذن لى فمارؤى
باكيا اكثر من يومئذ وحكى ابن الجوزى عن بريدة قال ان النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر امه
فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف اليهم فقالوا ما ابكاك قال مررت
بقبر امى فصليت ركعتين ثم استأذنت ربى ان استغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين
فاستأذنت ربى ان استغفر لها فزجرت زجرا فأبكانى ثم دعا براحلته فركبها فما سار الا هنيهة
حتى قامت الناقة لثقل الوحى فنزلت ماكان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو
كانوا اولى قربى الآية (ق) عن ابى هريرة قال زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر امه فبكى وابكى
من حوله فقال استأذنت ربى فى ان استغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى ان ازور قبرها فأذن لى
فزوروا القبور فانها تذكركم الموت وقال قتادة قال النبي صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لابى
كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله هذه الآية وروى الطبرى بسنده عنه قال ذكر لنا ان رجالا
من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يانبي الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار
ويصل الارحام ويفك العانى ويوفى بالذمم افلا نستغفر لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى والله
لاستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله عز وجل ماكان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا
للمشركين الآية ثم عذر الله ابراهيم فقال تعالى وما كان استغفار ابرهيم لابيه الاعن موعدة وعدها
اياه الآية عن على بن ابى طالب قال سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت له اتستغفر
لابويك وهما مشركان فقال استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي صلى الله
عليه وسلم فنزلت ماكان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين الآية اخرجه النسائى
والترمذى وقال حديث حسن واخرجه الطبرى وقال فيه فانزل الله عز وجل وما كان
استغفار ابرهيم لابيه الاعن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه الآية ومعنى الآية
ماكان ينبغى للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لان الله سبحانه وتعالى
لايغفر للمشركين ولايجوز ان يطلب منه مالا يفعله ففيه النهى عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا
اولى قربى لان النهى عن الاستغفار للمشركين عام فيستوى فيه القريب والبعيد ❊ ثم ذكر الله
عز وجل سبب المنع فقال تعالى (من بعد ماتبين لهم انهم اصحاب الجحيم) يعنى تبين لهم انهم ماتوا
على الشرك فهم من اصحاب الجحيم وايضا فقد قال تبارك وتعالى ان الله لايغفر ان يشرك به والله
تعالى لايخلف وعده ❊ اما قوله سبحانه وتعالى (وماكان استغفار ابرهيم لابيه الاعن موعدة
وعدها اياه) فمعناه وما كان طلب ابراهيم لابيه المغفرة من الله الامن اجل موعدة وعدها ابراهيم
اياه ان يستغفر له رجاء اسلامه قال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه لما انزل الله خبرا عن ابراهيم
انه قال سلام عليك سأستغفر لك ربى سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت اتستغفر

يهديهم الله اليها بحسب نور ايمانهم (سبحانك اللهم) اى تنزيه فى الاولى عن الشرك فى الافعال بالبراءة عن حولهم وقوتهم وفى الثانية عن الشرك فى الصفات بالانسلاخ عن صفاتهم وفى الثالثة عن الشرك فى الوجود بفنائهم و(تحيتهم فيها سلام) اى تحية بعضهم لبعض فى كل مرتبة منها افاضة انوار التزكية وامداد التصفية من بعضهم على بعض او تحية الله لهم فيها اشراقات التجليات وامداد التجريد وازالة الآفات من الحق تعالى عليهم (وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين)

لابويك وهما مشركان فقال اولم يستغفر ابراهيم لابيه فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فانزل الله عزوجل قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم الى قوله الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك يعني ان ابراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار لانه انما استغفر لابيه وهو مشرك لمكان الموعد الذي وعده ان يسلم ﴿ فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ﴾ فعلى هذا الهاء في اياه راجعة الى ابراهيم والوعد كان من ابيه وذلك ان ابا ابراهيم وعد ابراهيم ان يسلم فقال ابراهيم سأستغفر لك ربي يعني اذا اسلمت وقيل ان الهاء راجعة الى الاب وذلك ان ابراهيم وعد اباه ان يستغفر له رجاء اسلامه ويؤكد هذا قوله سأستغفر لك ربي ويدل عليه ايضا قراءة الحسن وعدها اباه بالباء الموحدة فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه يعني فلما ظهر لابراهيم وبان له ان اباه عدو لله يعني بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل ان الله سبحانه وتعالى اوحى الى ابراهيم ان اباه عدو له فتبرأ منه وقيل لما تبين له في الآخرة انه عدو لله تبرأ منه ويدل على ذلك ماروى عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه السلام اباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة فيقول ابراهيم الم اقل لك لا تعصني فيقول ابوه فاليوم لا اعصيك فيقول ابراهيم يارب انك وعدتني ان لا تخزني يوم يبعثون فاي خزي اخزى من ابي فيقول الله تبارك وتعالى اني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال ياابراهيم ماتحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار اخرجه البخاري زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بذال معجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والانثى ذيخة * وقوله تبارك وتعالى ﴿ ان ابراهيم لاواه حليم ﴾ جاء في الحديث ان الاواه الخاشع المتضرع وقال ابن مسعود الاواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو المؤمن التواب وقال الحسن وقتادة الاواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد الاواه الموقن وقال كعب الاحبار هو الذي يكثر التأوه وكان ابراهيم صلى الله عليه وسلم يكثر ان يقول اوه من النار قبل ان لا ينفع اوه وقال عقبة بن عامر الاواه الكثير الذكر لله عزوجل وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه انه المعلم للخير وقال عطاء هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار وقال ابو عبيدة هو المتأوه شفقا وفرقا المتضرع ايقانا ولزوما للطاعة وقال الزجاج انتظم في قول ابي عبيدة جميع ماقيل في الاواه واصله من التأوه وهو ان يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء والفعل منه اوه وهو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه اوه والسبب فيه ان عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشتد حرها فالانسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخف بعض مابه من الحزن والشدة واما الحليم فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه اوآتاه بمكروه ثم يقابله بالاحسان واللطف كما فعل ابراهيم بابيه حين قال له لئن لم تنته لارجمنك فاجابه ابراهيم بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي وقال ابن عباس الحليم السيد وانما وصف الله عزوجل ابراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف والوجل والشفقة على عباد الله ليبين سبحانه وتعالى انه مع هذه الصفات الجليلة الحميدة تبرأ من ابيه لما ظهر له اصراره على الكفر فاقتدوا به انتم في هذه الحالة ايضا * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم ﴾ يعني وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد ان رزقكم الهداية ووفقكم للايمان به وبرسوله وذلك انه لما منع المؤمنين من الاستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم

اي اخر مايقتضي استعداداتهم وسؤال الله تعالى بالطلب والاستفاضة قيامهم بالله في ظهور كمالاته وصفات جلاله وجماله عليهم الذي هو الحمد الحقيقي منه وله وتخصيص ذلك الحمد به مجملا ثم مفصلا او لا باعتبار هويته المطلقة ثم باعتبار ربوبيته للعالمين (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) لما كانت الاستعدادات مفطورة على الخير الاضافي الصوري او المعنوي بحسب درجاتها في الازل كان كل دعاء منها وطلب

قبل المنع خافوا ماصدر منهم فاعلمهم ان ذلك ليس بضائرهم (حتى يبين لهم مايتقون) يعني مايأتون ومايذرون وهو ان يقدم اليهم النهي عن ذلك الفعل فماقبل النهي فلاحرج عليهم في فعله وقيل ان جماعة من المسلمين كانوا قدماتوا قبل النهي عن الاستغفار للمشركين فلما منعوا من ذلك وقع في قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك فانزل الله عز وجل هذه الآية وبين انه لايؤاخذهم بعمل الابعد ان يبين لهم مايجب عليهم ان يتقوه ويتركوه وقال مجاهد بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة وقال الضحاك وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم مايأتون ومايذرون وقال مقاتل والكلبي هذا في امر المنسوخ وذلك ان قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم واسلموا قبل تحريم الخمر وصرف القبلة الى الكعبة ورجعوا الى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة الى الكعبة ولاعلم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك الى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت الى الكعبة فقالوا يارسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن على ضلال فانزل الله عز وجل وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم يعني وما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ (ان الله بكل شئ عليم) يعني انه سبحانه وتعالى عليم بماخالط نفوسكم من الخوف عند مانهاكم عن الاستغفار للمشركين ويعلم مايبين لكم من اوامره ونواهيه (ان الله له ملك السموات والارض) يعني انه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والارض ومافيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بمايشاء (يحيي ويميت) يعني انه تعالى يحيي من يشاء على الايمان ويميته عليه ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه لااعتراض لاحد عليه في حكمه وعبيده (ومالكم من دون الله من ولي ولانصير) يعني انه تعالى هو وليكم وناصركم ليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم ❊ قوله عز وجل (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار) الآية تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والانصار ومعنى توبته على النبي صلى الله عليه وسلم عدم مؤاخذته باذنه للمنافقين بالتخلف في غزوة تبوك وهو كقوله سبحانه وتعالى عفا الله عنك لم اذنت لهم فهو من باب ترك الافضل لانه ذنب يوجب عقابا وقال اصحاب المعاني هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فان لله خمسه ومعنى هذا ان ذكر النبي بالتوبة عليه تشريف للمهاجرين والانصار في ضم توبتهم الى توبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم الرسول الى اسم الله في قوله فان لله خمسه وللرسول فهو تشريف له واما معنى توبة الله على المهاجرين والانصار فلاجل ماوقع في قلوبهم من الميل الى القعود عن غزوة تبوك لانها كانت في وقت شديد وربما وقع في قلوب بعضهم انا لانقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ماوقع في قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية وقيل ان الانسان لايخلو من زلات وتبعات في مدة عمره امامن باب الصغائر وامامن باب ترك الافضل ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التي حصلت لهم في ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لاجل ماتحملوه من الشدائد العظيمة في تلك الغزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم وانما ضم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الى ذكرهم تنبيها على عظم مراتبهم في الدين وانهم قد بلغوا الى الرتبة التي لاجلها ضم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم الى ذكرهم (الذين

اتبعوه) فى تلك الغزوة من المهاجرين والانصار وقدذكر بعض العلماء ان النبى صلى الله عليه وسلم سار الى تبوك فى سبعين الفا مابين راكب وماش من المهاجرين والانصار وغيرهم من سائر القبائل (فى ساعة العسرة) يعنى فى وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش الذى سار فيه يسمى جيش العسرة لانه كان عليهم عسرة فى الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العسرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوّس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم الا التمرات اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من احدهم اخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يخرجها من فيه ويعطيها صاحبه ثم يشرب عليها جرعة من الماء ويفعل صاحبه كذلك حتى تأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة الا النواة فمضوا مع النبى صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم وقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا اصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا ان رقابنا ستقطع وحتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده وحتى ان الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن ان رقبته ستقطع فقال ابو بكر الصديق يارسول الله ان الله عز وجل قد عوّدك فى الدعاء خيرا فادع الله قال اتحب ذلك قال نعم فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعا حتى ارسل الله سحابة فمطرت فملؤا ما معهم من الاوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر اسنده الطبرى عن عمر * قوله تعالى (من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم) يعنى من بعد ما قارب ان تميل قلوب بعضهم عن الحق من اجل المشقة والشدة التى نالتهم والزيغ فى اللغة الميل وقيل هم بعضهم ان يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلك الشدة التى نالتهم لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما خطر فى قلوبهم فلاجل ذلك قال تعالى (ثم تاب عليهم) يعنى انه سبحانه وتعالى علم اخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الانابة والتوبة فان قلت قد ذكر التوبة اوّلا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار قلت انه سبحانه وتعالى ذكر التوبة اوّلا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك واردفه بذكر التوبة مرة اخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا انه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم اتبعه بقوله (انه بهم رؤف رحيم) تأكيدا لذلك ومعنى الرؤف فى صفة الله تعالى انه الرفيق بعباده لم يحملهم مالا يطيقون من العبادات وبين الرؤف والرحيم فرق لطيف وان تقاربا فى المعنى قال الخطابى قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة * قوله سبحانه وتعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) هذا معطوف على ما قبله تقديره لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهم كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع كلهم من الانصار وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون مرجون لامر الله وفى معنى خلفوا قولان احدهما انهم خلفوا عن توبة ابى لبابة واصحابه وذلك انهم لم يخضعوا كما خضع ابو لبابة واصحابه فتاب الله على ابى لبابة واصحابه واخر امر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب عليهم بعد ذلك والقول الثانى انهم تخلفوا عن غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها واما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه فقد روى عن ابن شهاب

(الزهرى)

الزهرى قال اخبرنى عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك ان عبدالله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال وكان اعلم قومه واوعاهم لاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب بن مالك بن عبدالله بن مالك بن كعب يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال لم اتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط الا فى غزوة تبوك غير انى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب احدا تخلف عنها انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توانقنا على الاسلام وما احب ان لى بها مشهد بدر وان كانت بدر اذكر فى الناس منها وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك انى لم اكن قط اقوى ولا ايسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الاورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عدوّا كثيرا فجلا للمسلمين امرهم ليتأهبوا اهبة غزوهم فاخبرهم بوجههم الذى يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب فقل رجل يريد ان يتغيب الاظن ان ذلك سيخفى له مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا اليها اصعر فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت اغدو لكى اتجهز معهم فأرجع ولم اقض شيأ فأقول فى نفسى انا قادر على ذلك اذا اردت فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم اقض من جهازى شيا ثم غدوت فرجعت ولم اقض شيأ فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى اسرعوا وتفارط الغزو فهممت ان ارتحل فأدركهم فياليتنى فعلت ثم لم يقدر لى ذلك فطفقت اذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى انى لا ارى لى اسوة الا رجلا مغموصا عليه فى النفاق او رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك مافعل كعب بن مالك فقال رجل من بنى سلمة يارسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه فقال له معاذ بن جبل بئس ماقلت والله يارسول الله ماعلمنا عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا هو كذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن ابا خيثمة فاذا هو ابو خيثمة الانصارى وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب فلما بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت اتذكر الكذب واقول بم اخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من اهلى فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت انى لن انجو منه بشئ ابدا فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله

عز وجل حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لى تعال فجئت امشي حتى جلست
بين يديه فقال ماخلفك المتكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يارسول الله انى والله لوجلست عند
غيرك من اهل الدنيا لرأيت انى سأخرج من سخطه بعذر لقد اعطيت جدلا ولكنى والله لقد
علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله ان يسخطك على ولئن حدثتك
حديث صدق تجد على فيه انى لارجو فيه عقبى الله وفى رواية عفو الله عز وجل والله ماكان لى
عذر والله ماكنت قط اقوى ولا ايسر منى حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم اما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك فقمت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى
فقالوا لى والله ماعلمناك اذنبت ذنبا قبل هذا لقد عجزت ان لاتكون اعتذرت الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله
عليه وسلم لك قال فوالله مازالوا يؤنبوننى حتى اردت ان ارجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأكذب نفسى قال ثم قلت لهم هل لقى هذا احد معى قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ماقلت
وقيل لهما مثل ماقيل لك قلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن امية الواقفى
قال فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما اسوة قال فمضيت حين ذكروهما لى ونهى
رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا ايها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا
الناس اوقال اوتغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الارض فما هى بالارض التى اعرف فلبثنا على
ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان واما انا فكنت اشب القوم
واجلدهم فكنت اخرج فأشهد الصلاة واطوف فى الاسواق ولايكلمنى احد وآتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد
السلام ام لا ثم اصلى قريبا منه واسارقه النظر فاذا اقبلت على صلاتى نظر الى واذا التفت
نحوه اعرض عنى حتى اذا طال على ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط
ابى قتادة وهو ابن عمى واحب الناس الى فسلمت عليه فوالله مارد على السلام فقلت ياابا قتادة
انشدك بالله هل تعلم انى احب الله ورسوله قال فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته
فقال الله ورسوله اعلم ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا انا امشى فى سوق
المدينة اذا نبطى من نبط اهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن
مالك قال فطفق الناس يشيرون له الى حتى جاءنى فدفع الى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا
فقرأته فاذا فيه اما بعد فانه قد بلغنا ان صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق
بنا نواسك قال فقلت حين قرأتها وهذه ايضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته حتى اذا مضت
اربعون من الخمسين واستلبث الوحى واذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك ان تعتزل امرأتك قال فقلت اطلقها ام ماذا افعل قال لا بل
اعتزلها ولاتقربها قال وارسل الى صاحبى مثل ذلك قال فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى
عندهم حتى يقضى الله فى هذا الامر قال فجاءت امرأة هلال بن امية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقالت يارسول الله ان هلال بن امية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره ان اخدمه قال لا ولكن
لايقربك فقالت انه والله مابه حركة الى شئ ووالله مازال يبكى منذ كان من امره ما كان الى

يومه هـذا قال فقـال لى بعض اهلى لواستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى امراتك فقداذن لامراة هلال بن امية ان تخدمه قال فقلت لااستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني مايقول رسول الله صـلى الله عليه وسلم اذا استأذنته فيها وانارجل شاب قال فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلا منا قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا اناجالس على الحال التى ذكرالله عزوجل عناقد ضاقت على نفسى وضاقت على الارض بمارحبت سمعت صوت صارخ اوفى على سلع يقول باعلى صوته يا كعب بن مالك ابشر قال فخررت ساجدا وعرفت انه قدجاء فرج قال وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينـا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننـا فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل الى فرسا وسعى ساع من اسلم قبلى واوفى على الجبل فكان الصوت اسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما اياه ببشارته والله ماا ملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت اتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقانى الناس فوجافوجا يهنؤنى بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله النـاس فقـام الى طلحة بن عبيدالله يهرول حتى صافحنى وهنانى والله ماقام الى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لاينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك امك قال قلت امن عندك يارسول الله من عندالله فقال لا بل من عندالله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سر استنـار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر قال وكنانعرف ذلك منه قال فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله ان من توبتى ان انخلع من مالى صدقة الى الله والى رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فانى امسك سهمى الذى بخيبر قال وقلت يارسول الله ان الله انما انجانى بالصدق وان من توبتى ان لااحدث الا صدقا مابقيت قال فوالله ماعلمت ان احدا من المسلمين ابلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم احسن مما ابلانى الله ووالله ماتعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يوم هذا وانى لارجو ان يحفظنى الله فيما بقى قال فانزل الله عزوجل لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة حتى بلغ انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بمارحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب والله ماانعم الله على من نعمة قط بعد ان هدانى للاسلام اعظم فى نفسى من صدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لااكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ان الله عزوجل قال للذين كذبوا حين انزل الوحى شرما قال لاحد فقال سبحانه وتعالى سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين قال كعب كنا خلفنا ايها الثلاثة عن امر اولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وارجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم امرنا حتى قضى الله تعـالى فيه فبذلك قال الله عزوجل وعلى الثلاثة الذين خلفوا

وليس الذى ذكرنا خلفنا عن الغزو وانما هو تخليفه ايانا وار جاؤه امرنا عمن خلف له واعتذر اليه فقبل منه وفى رواية ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كلامى وكلام صاحبى ولم ينه عن كلام احد من المخلفين غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال على الامر فما من شئ اهم الى من ان اموت فلا يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم او يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمنى احد منهم ولا يصلى على ولا يسلم على قال وانزل الله عزوجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقى الثلث الاخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند ام سلمة وكانت ام سلمة محسنة فى شأنى معتنية بأمرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياام سلمة تيب على كعب بن مالك قالت افلا ارسل اليه فابشره قال اذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى اذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة الفجر آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا اخرجه البخارى ومسلم * شرح غريب هذا الحديث قوله حين تواثقنا على الاسلام التوثق تفاعل من الميثاق وهو العهد والراحلة الجمل او الناقة القويان على الحمل والسفر وقوله ورى بغيرها يقال ورى عن الشئ اذا اخفاه واظهر غيره والمفازة البرية القفراء سميت بذلك تفاؤلا بالفوز والنجاة منها قوله فجلا هو بالتخفيف يعنى لهم مقصدهم واظهره لهم والاهبة الجهاز ومايحتاج اليه المسافر قوله فأنااليها اصعر هو بالعين المهملة اى اميل والصعر الميل قوله وتفارط الغزو اى تباعد مابينى وبين الجيش من المسافة وطفق مثل جعل والمغموص المعيب المشار اليه بالعيب يقال فلان ينظر فى عطفيه اذا كان معجبا بنفسه ويقال زال به السراب يزول اذا ظهر شخص الانسان خيالا فيه من بعد والسراب هو ما يظهر للانسان فى البرية فى وقت الهاجرة كانه ماء والمبيض بكسر الياء لابس البياض قوله كن اباخيثمة معناه انت ابوخيثمة وقيل معناه اللهم اجعله اباخيثمة اى لتوجد ياهذا الشخص اباخيثمة حقيقة قوله الذى لمزه المنافقون يعنى عابوه واحتقروه والقافل الراجع من سفره الى وطنه قوله حضرنى بثى البث اشد الحزن كانه لشدته يظهر قوله زاح عنى الباطل اى زال وذهب عنى واجمعت صدقه اى عزمت عليه لقد اعطيت جدلا اى فصاحة وقوة فى الكلام بحيث اخرج عن عهدة مااردت بما شاء من الكلام والمغضب بفتح الضاد هو الغضبان قوله فمازالوا يؤنبوننى اى يلوموننى اشد اللوم قوله حتى تنكرت لى فى نفسى الارض فماهى بالارض التى اعرف معناه تغير على كل شئ من الارض وتوحشت على وصارت كانها ارض لااعرفها وقوله فاماصاحباى فاستكانا يعنى خضعا وسكنا قوله تسورت حائط ابى قتادة اى علوته وصعدت سوره وهو اعلاه والانباط الفلاحون والزراعون وهم من العجم والروم والمضيعة مفعلة من الضياع والاطراح قوله فتيممت بهاالتنور فسجرته بها اى فقصدت بالصحيفة التى ارسل بها ملك غسان فأحرقتها فى التنور وسلع جبل بالمدينة معروف وقوله وانطلقت اتأمم يعنى اقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم والفوج الجماعة من الناس يقال برق وجهه اذا لمع وظهر عليه امارات الفرح والسرور قوله انخلع من مالى اى اخرج منه جميعه واتصدق به كما يخلع الانسان قميصه قوله ماعلمت احدا من المسلمين ابلاه الله فى صدق الحديث احسن مما ابلانى البلاء والابتلاء يكون فى الخير وفى الشر واذا اطلق كان فى الشر غالبا فاذا اريد به الخير قيد به كما قيدها بقوله احسن مما ابلانى اى انعم على قوله

(ان)

ان لا اكون كذبته هكذا هو فى جميع روايات الحديث بزيادة لفظ لا قال بعض العلماء لفظة لا زائدة ومعناه ان اكون كذبته وقوله فاهلك هو بكسر اللام وارجاؤه امرنا تاخيره وقوله فى الرواية الاخرى يحطمكم الناس اى يطؤكم ويزدحون عليكم واصل الوطاء الكسر وقوله سائر الليل يعنى باقى الليل وقوله وآذن بتوبة الله علينا اى اعلم والاذان الاعلام والله اعلم * قوله عزوجل (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى انه ضاق عليهم المكان بعد ان كان واسعا (وضاقت عليهم انفسهم) يعنى من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وترك كلامهم (وظنوا) يعنى وايقنوا وعلموا (ان لا ملجأ) يعنى لا مفزع ولا مفر (من الله الا اليه) ولا عاصم من عذابه الا هو (ثم تاب عليهم) فيه اضمار وحذف تقديره وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه فرحمهم ثم تاب عليهم وانما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لانه قد ذكر توبتهم فى قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا كما تقدم بيانه وانه عطف على قوله لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار اى وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا * وقوله تعالى (ليتوبوا) معناه ان الله سبحانه وتعالى تاب عليهم فى الماضى ليكون ذلك داعيا لهم الى التوبة فى المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل ان اصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا الى حالتهم الاولى يعنى الى عادتهم فى الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك (ان الله هو التواب) يعنى على عباده (الرحيم) بهم وفيه دليل على ان قبول بمحض الرحمة والكرم والفضل والاحسان وانه لا يجب على الله تعالى شئ * قوله عزوجل (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله) يعنى فى مخالفة امر الرسول صلى الله عليه وسلم (وكونوا مع الصادقين) يعنى مع من صدق النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه فى الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا فى البيوت وتركوا الغزو وقال سعيد بن جبير مع الصادقين يعنى مع ابى بكر وعمر وقال ابن جريج مع المهاجرين وقال ابن عباس مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم واعمالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك باخلاص نية وقيل كونوا مع الذين صدقوا الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لان الصدق يهدى الى الجنة والكذب الى الفجور كما ورد فى الحديث وقال ابن مسعود الكذب لا يصلح فى جد ولا هزل ولا ان يعد احدكم صاحبه شيأ ثم لا ينجزه اقرؤا ان شئتم وكونوا مع الصادقين وروى ان ابابكر الصديق احتج بهذه الآية على الانصار فى يوم السقيفة وذلك ان الانصار قالوا منا امير ومنكم امير فقال ابوبكر يا معشر الانصار ان الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه للفقراء المهاجرين الى قوله اولئك هم الصادقون من هم قالت الانصار انتم هم فقال ابوبكر ان الله تعالى يقول يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فامركم ان تكونوا معنا ولم يامرنا ان نكون معكم نحن الامراء وانتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين * قوله سبحانه وتعالى (ما كان لاهل المدينة) يعنى لساكنى المدينة من المهاجرين والانصار (ومن حولهم من الاعراب) يعنى سكان البوادى من مزينة وجهينة واسلم واشجع وغفار وقيل هو عام فى كل الاعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم اولى (ان يتخلفوا عن رسول الله) يعنى اذا غزا وهذا ظاهره خبر ومعناه النهى اى ليس ان يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يرغبوا)

يعني ولا ان يرغبوا (بانفسهم عن نفسه) يعني ليس لهم ان يكرهوا لانفسهم مايختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم و يرضاه لنفسه ولا يختاروا لانفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه في حال الشدة والمشقة وقال الحسن لا يرغبوا بانفسهم بان يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مشقة السفر ومقاساة التعب (ذلك بانهم لا يصيبهم) في سفرهم وغزواتهم (ظمأ) اي عطش (ولا نصب) اي تعب (ولا مخمصة) يعني مجاعة شديدة (في سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار) يعني ولا يضعون قدما على الارض يكون ذلك القدم سببا لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم (ولا ينالون من عدو نيلا) يعني اسرا اوقتلا اوهزيمة اوغنيمة اونحو ذلك قليلا كان اوكثيرا (الا كتب لهم به عمل صالح) يعني الا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم (ان الله لا يضيع اجر المحسنين) يعني ان الله سبحانه وتعالى لا يدع محسنا من خلقه قد احسن في عمله واطاعه فيما امره به اونهاه عنه ان يجازيه على احسانه وعمله الصالح وفي الآية دليل على ان من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله ومن قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيآت الا ان يغفرها الله بفضله وكرمه واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا بنفسه لم يكن لاحد ان يتخلف عنه الا بعذر فاما غيره من الائمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين ان يتخلف عنه اذا لم يكن للمسلمين اليه ضرورة وقال الوليد ابن مسلم سمعت الاوزاعي وابن المبارك وابن جابر وسعيدا يقولون في هذه الآية انها لاول هذه الامة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ وقال ابن زيد هذا حين كان اهل الاسلام قليلا فلما كثروا نسخها الله عز وجل واباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدي عن عطية انه قال وما كان لهم ان يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعاهم وامرهم وقال هذا هو الصحيح لانه لا تتعين الطاعة والاجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا اذا امر وكذا غيره من الائمة والولاة قالوا اذا ندبوا اوعينوا لانا لو سوغنا المندوب ان يقعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لادى ذلك الى تعطيل الجهاد والله اعلم ❊ وقوله عز وجل (ولا ينفقون) يعني في سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) يعني تمرة فادونها اواكثر منها حتى علاقة سوط (ولا يقطعون واديا) يعني ولا يجاوزون في مسيرهم واديا مقبلين اومدبرين (الا كتب لهم) يعني كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم (ليجزيهم الله) يعني يجازيهم (احسن ما كانوا يعملون) قال الواحدي معناه باحسن ما كانوا يعملون وقال الامام فخر الدين الرازي فيه وجهان الاول ان الاحسن من صفة افعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الاحسن وهو الواجب المندوب دون المباح والثاني ان الاحسن صفة للجزاء اي يجزيهم جزاء هو احسن من اعمالهم واجل وافضل وهو الثواب وفي الآية دليل على فضل الجهاد وانه من احسن اعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط احدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله اوالغدوة خير من الدنيا وما عليها وفي رواية وما فيها (ق) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الا جهادا في سبيلي وايمانا بي وتصديقا برسلي فهو علي ضامن

(ان)

ان ادخله الجنة او ارجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من اجر او غنيمة والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله الاجاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا ان اشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله ابدا ولكن لااجد سعة فاحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم ان يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت ان اغزو فى سبيل الله فاقتل ثم اغزو فاقتل ثم اغزو فاقتل لفظ مسلم وللبخارى بمعناه (ق) عن ابى سعيد الخدرى قال اتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اى الناس افضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله وفى رواية يتقى الله ويدع الناس من شره (خ) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامه يعنى حسنات (خ) عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مااغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار (م) عن ابن مسعود الانصارى البدرى قال جاء رجل بناقة مخطومة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من انفق نفقة فى سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف اخرجه الترمذى والنسائى

❋ قوله سبحانه وتعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية قال عكرمة لما نزلت هذه الآية ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين هلك من تخلف فنزلت هذه الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال ابن عباس انها ليست فى الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين اجدبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل باسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واجهدوهم فانزل الله عز وجل الآية يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم انهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عشائرهم وحذر قومهم ان يفعلوا فعلهم اذا رجعوا اليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم وفى رواية اخرى عن ابن عباس انه قال كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسألون عما يريدون من امر دينهم ويتفقهون فى دينهم ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ماتأمرنا ان نفعله واخبرنا عما نقول لعشائرنا اذا انطلقنا اليهم فيأمرهم نبى الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم الى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا اذا اتوا قومهم نادوا ان من اسلم فهو منا وينذرونهم حتى ان الرجل ليفارق اباه وأمه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بما يحتاجون اليه من امر الدين وان ينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ويدعوهم الى الاسلام وينذروهم النار ويبشروهم بالجنة وقال مجاهد ان ناسا من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا فى البوادى فأصابوا من الناس معروفا ومن الحطب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم مانراكم الا قد تركتم اصحابكم وجئتمونا فوجدوا فى انفسهم تحرجا واقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله عز وجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبتغون الخير وقعد طائفة (ليتفقهوا فى الدين) ليسمعوا

للخير بتهيئة قابليتها وتصفيتها وشوقها اليه يوجب حصول ذلك له عاجلا وفيضانه عليه من المبدا الفياض الذى هو منبع الخيرات والبركات كقوله وآتاكم من كل ماسألتموه وكلما فاض عليه خير باستحقاقه لوجود تصفية وتزكية زاد استعداده بانضمام هذا الخير اليه فصار اقوى واقبل من الاول فيكون المبدأ تعالى اسرع اجابة له واكثر افاضة عليه وعلى هذا يزداد الاستعداد فيزداد الفيض حتى يبلغ مداه وهو معنى تضاعف الحسنات ومعنى قوله من جاء بالحسنة فله خير منها واما الشرور فليست الا بحسب الاستعداد وموانع القبول وحواجز الفيض فلما حصلت ماوقع بسببها الاعدم القبول للخيرات فمنعت فيضا نها وبقى الاستعداد فى حجاب ماحصل منها ليس الاوان اقتضى بحسب المناسبة فيضان الشر ليس فى فيض المبدا ما يجانسه ولا يفيض عليه شئ من

ماانزل الله (ولينذروا قومهم) من الناس (اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) وقال ابن عباس ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعنى عصبة يعنى السرايا ولايسيرون الا باذنه فاذا رجعت السرايا وقد نزل فى بعضهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان الله قد انزل على نبيكم من بعدكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ماانزل الله على نبيهم بعدهم وتبعث سرايا اخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا فى الدين يقول ليتعلموا ماانزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا اذا رجعت اليهم لعلهم يحذرون نقل هذه الاقوال كلها الطبرى واما تفسير الآية فيمكن ان يقال انها من بقية احكام الجهاد ويمكن ان يقال انها كلام مبتدأ لاتعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الاول فقد قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج الى الغزو لم يتخلف عنه الامنافق اوصاحب عذر فلما بالغ الله فى الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم فى تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لانتخلف عن شئ من الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاعن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث السرايا نفر المسلمون جميعا الى الغزو وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى ما كان ينبغى للمؤمنين ولايجوز لهم ان ينفروا بكليتهم الى الجهاد ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يجب ان ينقسموا قسمين فطائفة يكونون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطائفة ينفرون الى الجهاد لان ذلك الوقت كانت الحاجة داعية الى انقسام اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قسمين قسم للجهاد وقسم لتعلم العلم والتفقه فى الدين لان الاحكام والشرائع كانت تتجدد شيأ بعد شئ فالملازمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظون مانزل من الاحكام وماتجد د من الشرائع فاذا قدم الغزاة اخبروهم بذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا يعنى فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم الذين نفروا الى الجهاد اذا رجعوا اليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعنى مخالفة امر الله وامر رسوله وهذا معنى قول قتادة وقيل ان التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ومعنى ذلك ان الفرقة النافرة اذا شاهدوا نصر الله لهم على اعدائهم وان الله يريد اعلاء دينه وتقوية نبيه صلى الله عليه وسلم وان الفئة القليلة قد غلبت جمعا كثيرا فاذا رجعوا من ذلك النفير الى قومهم من الكفار انذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لهم لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق واورد على هذا القول ان هذا النوع لايعد تفقها فى الدين ويمكن ان يجاب عنه بانهم اذا علموا ان الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة فى ايمانهم فيكون ذلك فقها فى الدين واما الاحتمال الثانى وهو ان يقال ان هذه الاية كلام مبتدأ لاتعلق له بالجهاد وهو ماذكرناه عن مجاهد ان ناسا من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا الى البوادى فأصابوا معروفا ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم مانراكم الا قد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا فى انفسهم من ذلك حرجا فاقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقال طائفة ليتفقهوا فى الدين وبلغوا ذلك الى النافرين لينذروا قومهم اذا رجعوا

جنسه وهذا معنى قوله ومن جاء بالسيئة فلايجزى الامثلها اللهم الااذا أفرط وتجاوز حد الرحمة وازال الاستعداد بالكلية فناسب الشيطنة واستمد من عالمها كما قال هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم (لقضى اليهم أجلهم) لقطع مدى استعدادهم فانقطع مدد الحياة الحقيقية عنهم ومدد الخير عن استعدادهم بالكلية وأزيل امكان التصفية منه لاقتضائه الشر فلم يصل اليهم بعد ذلك خير صورى ولا معنوى ولكن نمهلهم مابقى فيهم أدنى مسكة من استعدادهم وامكان قبول لادنى خير (فنذر الذين لايرجون لقاءنا) من جملتهم اى لايرفعون رأسا من انهما كهم فى الشرور ولا يتوقعون نورا من أنوارنا ولا ينتبهون قط من غفلتهم بالرجوع الينا وطلب رحمتنا (فى طغيانهم يعمهون) وتماديهم فى الشرور يتحيرون وينقطع

اليهم لعلهم يحذرون يعني بأس الله ونقمته اذا خالفوا امره وفي الآية دليل على انه يجب ان يكون
المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق الى الحق وارشادهم الى الدين القويم والصراط المستقيم
فكل من تفقه وتعلم بهذا القصد كان على المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم العلم
لطلب الدنيا كان من الاخسرين اعمالا الآية (ق) عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وانما انا قاسم ويعطي الله ولم يزل امر هذه الامة
مستقيما حتى تقوم الساعة وحتى يأتي امر الله (ق) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا عن ابن عباس ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال فقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد اخرجه الترمذي واصل الفقه
في اللغة الفهم يقال فقه الرجل اذا فهم وفقه فقاهة اذا صار فقيها وقيل الفقه هو التوصل الى
علم غائب بعلم شاهد فهو اخص من العلم وفي الاصطلاح الفقه عبارة عن العلم بأحكام الشرائع
واحكام الدين وذلك ينقسم الى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين معرفة احكام الطهارة
واحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة
على كل مسلم ذكره البغوي بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب
عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة اذا صار له مال يجب في مثله الزكاة وعلم احكام الحج اذا وجب
عليه واما فرض الكفاية من الفقه فهو ان يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا واذا قعد
اهل بلد عن تعلمه عصوا جميعا واذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط
الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث عن ابي امامة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم اخرجه الترمذي مع زيادة فيه عن
ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له
طريقا الى الجنة اخرجه الترمذي عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من خرج
في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع اخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة او سنة قائمة او فريضة
عادلة اخرجه ابو داود الآية المحكمة هي التي لا اشتباه فيها ولا اختلاف في حكمها او ليس بمنسوخ
والسنة القائمة هي المستمرة الدائمة التي العمل بها متصل لا يترك والفريضة العادلة هي التي لا جور
فيها ولا حيف في قضائها قال الفضيل بن عياض عالم عامل معلم يدعى عظيما في ملكوت السموات
واخرجه الترمذي موقوفا وقال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه طلب العلم افضل من صلاة
النافلة * قوله سبحانه وتعالى (يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) امروا بقتال
الاقرب فالاقرب اليهم في الدار والنسب قال ابن عباس مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها
وقال ابن عمر هم الروم لانهم كانوا مكان الشام والشام اقرب الى المدينة من العراق وقال بعضهم
هم الديلم وقال ابن زيد كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فأمروا بقتال
اهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا او يعطوا الجزية عن يد ونقل عن بعض العلماء انه قال نزلت
هذه الآية قبل الامر بقتال المشركين كافة فلما نزلت وقاتلوا المشركين كافة صارت ناسخة
لقوله سبحانه وتعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وقال المحققون من العلماء لا وجه للنسخ

مدد الخيرات الصورية التي
يسألها استعدادهم بلسان
حاله عنهم حتى يزول
بانغماسهم وانهماكهم
في الطبيعيات نور استعداد
هم بالكلية لحصول الرين
ويحق الطمس فانتكسوا على
رؤسهم الى اسفل سافلين
(واذا مس الانسان الضر
دعانا لجنبه او قاعدا او قائما
فلما كشفنا عنه ضره مر
كأن لم يدعنا الى ضر مسه
كذلك زين للمسرفين
ماكانوا يعملون ولقد
أهلكنا قرون من قبلكم
لما ظلموا وجاءتهم رسلهم
بالبينات وما كانوا ليؤمنوا
كذلك نجزي القوم المجرمين
ثم جعلناكم خلائف
في الارض من بعدهم لننظر
كيف تعملون واذا تتلى
عليهم آياتنا بينات قال الذين
لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن
غير هذا او بدله قل ما يكون
لي ان ابدله من تلقاء نفسي
ان اتبع الا ما يوحى الي اني
اخاف ان عصيت ربي عذاب
يوم عظيم قل لو شاء الله
ما تلوته عليكم ولا ادراكم
به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله

لانه سبحانه وتعالى لما امرهم بقتال المشركين كافة ارشدهم الطريق الاصوب الاصلح وهو ان يبدؤا بقتال الاقرب فالاقرب حتى يصلوا الى الابعد فالابعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لان قتالهم فى دفعة واحدة لا يتصور ولهذا السبب قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم اولا قومه ثم انتقل منهم الى قتال سائر العرب ثم انتقل الى قتال اهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل الى غزو الروم فى الشأم فكان فتح الشام فى زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك الى سائر الامصار لانه اذا قاتل الاقرب تقوى بما نال منهم من الغنائم على الابعد * وقوله سبحانه وتعالى (وليجدوا فيكم غلظة) يعنى شدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة وقال الحسن صبرا على جهادهم (واعلموا ان الله مع المتقين) يعنى بالعون والنصرة * قوله عزوجل (واذا ما انزلت سورة فنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا) يعنى واذا انزل الله سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول يعنى يقول بعضهم لبعض ايكم زادته هذه يعنى السورة ايمانا يعنى تصديقا ويقينا وانما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين فقال الله سبحانه وتعالى (فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) يعنى تصديقا ويقينا وقربة من الله ومعنى الزيادة ضم شئ الى آخر من جنسه مما هو فى صفته فالمؤمنون اذا اقروا بنزول سورة من القرآن عن ثقة واعترفوا انها من عند الله عزوجل زادهم ذلك الاقرار والاعتراف ايمانا وقد تقدم بسط الكلام على زيادة الايمان فى اول سورة الانفال (وهم يستبشرون) يعنى ان المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيأ بعد شئ لانهم كلما نزل ازدادوا ايمانا وذلك يوجب مزيد الثواب فى الآخرة وكما تحصل الزيادة فى الايمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة فى الكفر وهو قوله سبحانه وتعالى (واما الذين فى قلوبهم مرض) اى شك ونفاق سمى الشك فى الدين مرضا لانه فساد فى القلب يحتاج الى علاج كالمرض فى البدن اذا حصل يحتاج الى العلاج (فزادتهم) يعنى السورة من القرآن (رجسا الى رجسهم) يعنى كفرا الى كفرهم وذلك انهم كلما جحدوا نزول سورة اواستهزؤا بها ازدادوا كفرا مع كفرهم الاول وسمى الكفر رجسا لانه اقبح الاشياء واصل الرجس فى اللغة الشئ المستقذر (وماتوا) يعنى هؤلاء المنافقين (وهم كافرون) يعنى وهم جاحدون لما انزل الله عزوجل على رسوله صلى الله عليه وسلم قال مجاهد فى هذه الآية الايمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من اصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد ايمانا وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه ان الايمان يبدو لمعة بيضاء فى القلب وكلما ازداد الايمان عظما ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله وان النفاق يبدو لمعة سوداء فى القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه ابيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه اسود * قوله سبحانه وتعالى (اولا يرون) قرئ ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرئ بالياء على انه خبر عن المنافقين المذكورين فى قوله فى قلوبهم مرض (انهم يفتنون) يعنى يبتلون (فى كل عام مرة اومرتين) يعنى بالامراض والشدائد وقيل بالقحط والجدب وقيل بالغزو والجهاد وقيل انهم يفتضحون باظهار نفاقهم وقيل انهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل انهم ينقضون عهدهم فى السنة مرة اومرتين (ثم لا يتوبون) يعنى من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون الى الله (ولا هم يذكرون) يعنى

(ولا يتعظون)

افلا تعقلون فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب باياته انه لا يفلح المجرمون ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبؤن الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون وما كان الناس الأمة واحدة فاختلفوا) على الفطرة التى فطر الله الناس عليها متوجهين الى الوحدة متنورين بنور الهداية الاصلية (فاختلفوا) بمقتضيات النشأة واختلاف الامزجة والاهوية والعادات والمخالطات (ولولا كلمة سبقت من ربك) اى قضاء سبق فى الازل بتعيين الاجال والارزاق وتادى كل واحد من الشقى والسعيد الى حيث قدر له فيما يزاوله (لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) عاجلا ولميز السعيد من الشقى والحق من الباطل من اديانهم واحوالهم ولكن حكمة الله اقتضت ان يبلغ كل منهم وجهته

ولا يتعظون بما يرون من صدق وعدالله بالنصروا لظفر للمسلمين (واذاماانزلت سورة) يعني فيها عيب المنافقين وتوبيخهم (نظر بعضهم الى بعض) يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض اشارة (هل يراكم من احد) يعني هل احد من المؤمنين يراكم ان قمتم من مجلسكم فان لم يرهم احد خرجوا من المسجد وان علموا ان احدا يراهم من المؤمنين اقاموا ولبثوا على تلك الحال (ثم انصرفوا) يعني عن الايمان بتلك السورة النازلة وقيل انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها مايكرهون (صرف الله قلوبهم) يعني عن الايمان وقال الزجاج اضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم (بانهم قوم لايفقهون) يعني لايفقهون عن الله دينه ولاشيأ فيه نفعهم ❊ قوله سبحانه وتعالى (لقدجاءكم رسول من انفسكم) هذا خطاب للعرب يعني لقدجاءكم ايها العرب رسول من انفسكم تعرفون نسبه وحسبه وانه من ولد اسمعيل بن ابراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس قبيلة من العرب الاوقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شئ من ولادة الجاهلية عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى خرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح هكذا ذكره الطبرى وذكر البغوى باسناد الثعلبي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماولدني من سفاح اهل الجاهلية شئ ماولدني الانكاح كنكاح اهل الاسلام قال قتادة جعله الله من انفسهم فلايحسدونه على مااعطاه الله من النبوة والكرامة قال بعض العلماء في تفسير قول ابن عباس ليس قبيلة من العرب الاوقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم يعني من مضرها وربيعتها ويمانها فاماربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان واليه تنسب قريش وهو منهم واما نسبه الى عرب اليمن وهم القحاطنة فان آمنة لها نسب بالانصار وان كانت من قريش والانصار اصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبا فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله لقد جاءكم رسول من انفسكم ترغيب العرب في نصره والايمان به فانه تم شرفهم بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والامانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والاخلاق الحميدة وقرأ ابن عباس والزهرى من انفسكم بفتح الفاء ومعناه انه من اشرفكم وافضلكم (خ) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت من خير قرون بني آدم قرنافقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت منه (م) عن واثلة بن الاسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفانى من بني هاشم عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يارسول الله ان قريشا جلسوا تذاكروا احسابهم بينهم فقالوا مثلك كمثل نخلة في كدية من الارض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق الخلق فجعلني من خير فريقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فانا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا اخرجه الترمذى وقيل ان قوله سبحانه وتعالى لقدجاءكم رسول من انفسكم عام فحمله على العموم اولى فيكون المعنى على هذا القول لقدجاءكم ايها الناس رسول من انفسكم يعني من جنسكم بشر مثلكم اذ لوكان من الملائكة لضعفت قوى البشر من سماع كلامه والاخذ عنه ❊ وقوله سبحانه وتعالى (عزيز

التي ولى وجهه اليها باعدائه التي نزاولها هو واظهار ماخفي في نفسه (ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين واذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم)قدمر ان انواع البلاء من الضراء والبأساء وصنوف اللأواء تكسر شرة النفس وتلطف القلب بكشف حجب صفات النفس وترقيق كثافات الطبع ورفع غشاوات الهوى فلذا تنزع قلوبهم بالطبع الى مبدئها في تلك الحالة لرجوعها الى مقتضى فطرتها حينئذ وعودها الى نوريتها الاصلية وقوتها الفطرية وميلها الى العروج الذى هو في منحها لزوال المانع بل الميل الى الجهة العلوية والمبادئ النورية مفطور في طباع القوى الملكوتية كلها حتى النفس الحيوانية اوتركت عن الهيآت البدنية الظلمانية فان التسفل من العوارض الجسمانية حتى ان البهائم والوحوش اذا اشتدت

عليه ماعنتم) اى شديد عليه عنتكم يعنى مكروهكم وقيل يشق عليه ضلالكم (حريص عليكم) يعنى حريص على ايمانكم وايصال الخير اليكم وقال قتادة حريص على هدايتكم وان يهديكم الله (بالمؤمنين رؤف رحيم) يعنى انه صلى الله عليه وسلم رؤف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لى خمسة اسماء انا محمد وانا احمد وانا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وانا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وانا العاقب والعاقب الذى ليس بعده نبى وقد سماه الله رؤفا رحيما قال الحسن بن الفضل لم يجمع الله سبحانه وتعالى لاحد من انبيائه بين اسمين من اسمائه الا للنبى صلى الله عليه وسلم فسماه رؤفا رحيما وقال سبحانه وتعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم * قوله سبحانه وتعالى (فان تولوا) يعنى فان اعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الايمان بالله ورسوله وناصبوك للحرب (فقل حسبى الله) يعنى يكفينى الله وينصرنى عليكم (لا اله الا هو عليه توكلت) يعنى لا على غيره وبه وثقت (وهو رب العرش العظيم) انما خص سبحانه وتعالى العرش بالذكر لانه اعظم المخلوقات فيدخل مادونه فى الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه اويكون خصه بالذكر تشريفا له كما قال بيت الله روى عن ابى بن كعب انه قال هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من انفسكم الى آخر السورة آخر القرآن نزولا وفى رواية عنه قال احدث القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من انفسكم الى آخر الايتين والله سبحانه وتعالى اعلم

(تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام)

نزلت بمكة الاثلاث آيات وهى قوله سبحانه وتعالى فان كنت فى شك مما انزلنا اليك الى آخر الثلاث آيات قاله ابن عباس وبه قال قتادة وفى رواية اخرى عن ابن عباس ان فيها من المدنى قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به الآية وقال مقاتل هى مكية الا آيتين وهى قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته والتى تليها وهى مائة وتسع آيات والف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

* قوله عزوجل (الر) قال ابن عباس والضحاك معناه انا الله ارى وقال ابن عباس فى رواية اخرى عنه الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وبه قال سعيد بن جبير وسالم بن عبد الله وقال قتادة الر اسم من اسماء القرآن وقيل هى اسم للسورة وقد تقدم الكلام فى معنى الحروف المقطعة فى اول سورة البقرة بما فيه كفاية (تلك آيات الكتاب) المراد من لفظ تلك الاشارة الى الآيات الموجودة فى هذه السورة ويكون التقدير تلك الايات هى آيات الكتاب وهو القرآن الذى انزله الله اليك يا محمد وذلك ان الله عزوجل وعده ان ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماء ولا تغيره الدهور وقيل ان لفظة تلك للاشارة الى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن والمعنى ان تلك الآيات هى آيات الكتاب الحكيم وفى قول آخر ان المراد بآيات الكتاب الكتب التى قبل القرآن حكاه الطبرى عن قتادة وروى عن مجاهد انها التوراة والانجيل فعلى هذا القول يكون التقدير ان الآيات المذكورة فى هذه السورة هى الآيات المذكورة فى التوراة والانجيل والمراد من الآيات القصص المذكورة فى هذه السورة وهذا وان كان له وجه فهو ضعيف لان التوراة

الحال عليها فى اوقات الحل وايام الجدب اجتمعت رافعة رؤسها الى السماء كان ملكوتها يشعر بنزول الفيض من الجهة العلوية فتستمد منها فكذا اذا توافرت على الناس النعم الظاهرة وتكاملت عليهم الامداد الطبيعية والمرادات الجسمانية قويت النفس من مدد الجهة السفلية واستطالت قواها بالترفع على القلب وتكاثف الحجاب وغلظ وتسلط الهوى وغلب وصارت السلطنة للطبيعة الجسمانية وارتكمت الهيآت البدنية الظلمانية فتشكل القلب بهيئة النفس وقسا وغلظ وطغى وابطرته النعمة فكفر وعمى ومال الى الجهة السفلية لبعده عن الهيئة النورية حينئذ وبقدر استيلاء النفس على القلب يستولى الوهم على العقل فتستولى الشيطنة لكون القوة العاقلة اسيرة فى قيد الوهم مأمورة له يستعملها فى مطالبه ويستعبها فى مآربه من تحصيل لذات النفس

والانجيل لم يجر لهما ذكر قريب حتى يشار اليهما وقيل المراد من الآيات حروف الهجاء التى منها الر سميت آيات لانها افتتاح السور وسر القرآن (الحكيم) يعنى المحكم الحلال والحرام والحدود والاحكام فعيل بمعنى مفعول وقيل الحكيم بمعنى الحاكم فعيل بمعنى فاعل لان القرآن حاكم يميز بين الحق والباطل ويفصل الحلال من الحرام وقيل حكيم بمعنى المحكوم فيه فعيل بمعنى مفعول قال الحسن حكم فيه بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وقيل ان الحكيم هو الذى يفعل الحكمة والصواب فمن حيث انه يدل على الاحكام صار كانه هو الحكيم فى نفسه * قوله سبحانه وتعالى (اكان للناس عجبا) قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية ان الله عز وجل لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا انكرت العرب ذلك ومن انكر منهم قال الله اعظم ان يكون له رسول بشر مثل محمد فقال الله سبحانه وتعالى اكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم وقال سبحانه وتعالى وما ارسلنا من قبلك الارجالا الآية والهمزة فى اكان همزة استفهام ومعناه الانكار والتوبيخ والمعنى لايكون ذلك عجبا (ان اوحينا الى رجل منهم) والعجب حالة تعترى الانسان من رؤية شئ على خلاف العادة وقيل العجب حالة تعترى الانسان عند الجهل بسبب الشئ ولهذا قال بعض الحكماء العجب مالايعرف سببه والمراد بالناس هنا اهل مكة وبالرجل محمد صلى الله عليه وسلم منهم يعنى من اهل مكة من قريش يعرفون نسبه وصدقه وامانته (ان انذر الناس) يعنى خوفهم بعقاب الله تعالى ان اصروا على الكفر والمخالفة والانذار اخبار مع تخويف كما ان البشارة اخبار مع سرور وهو قوله سبحانه وتعالى (وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم) اختلف عبارات المفسرين واهل اللغة فى معنى قدم صدق فقال ابن عباس اجرا حسنا بما قدموا من اعمالهم وقال الضحاك ثواب صدق وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح اسلفوه يقدمون عليه وفى رواية اخرى عن ابن عباس انه قال سبقت لهم السعادة فى الذكر الاول يعنى فى اللوح المحفوظ وقال زيد بن اسلم هو شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول قتادة وقيل لهم منزلة رفيعة عند ربهم واضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقوله مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد والفائدة فى هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لان كل شئ اضيف الى الصدق فهو ممدوح ومثله فى مقعد صدق ومدخل صدق وقال ابو عبيدة كل سابق فى خير اوشر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم فى الاسلام وقدم فى الخير ولفلان عندى قدم صدق وقدم سوء قال حسان بن ثابت

لنا القدم العليا اليك وخلفنا * لاولنا فى طاعة الله تابع

وقال الليث وابو الهيثم القدم السابق والمعنى انه قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة

وانت امرؤ من اهل بيت ذؤابة * لهم قدم معروفة ومفاخر

والسبب فى اطلاق لفظ القدم على هذه المعانى ان السعى والسبق لايحصل الا بالقدم فسمى المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد وقال ذو الرمة

لكم قدم لاينكر الناس انها * مع الحسب العادى طمت على البحر

معناه لكم سابقة عظيمة لاينكرها الناس وقال آخر

صل لذى العرش واتخذ قدما * تنجيك يوم العثار والزلل

وامدادها من عالم الرجس وتقوية صفاتها باهب عالم الطبع وعدد مواد الحظ بالفكر فيحتجب القلب بالرين عن قبول صفات الحق بالكلية وذلك معنى قوله (اذا لهم مكر فى آياتنا قل الله اسرع مكرا) باخفاء القهر الحقيقى فى هذا اللطف الصورى وتعبية عذاب نيران الحرمان وحيات هيآت الرذائل والعقارب السود ولباس القطران فى هذه الرحمة الظاهرة (ان رسلنا يكتبون ماتمكرون هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما انجاهم اذاهم يبغون فى الارض بغير الحق) قد علمت ان الملكوت السماوية تنتقش بكل حادثة تقع

﴿ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ قال الكافرون ان هذا لسحر مبين ﴾ وقرئ لساحر مبين وفيه حذف تقديره اكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم فلما جاءهم بالوحي وانذرهم قال الكافرون ان هذا الساحر يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم انما نسبوه الى السحر لما اتاهم بالمعجزات الباهرات التي لايقدر احد من البشر ان يحصل مثلها او من قرا السحر فانهم عنوا به القرآن المنزل عليه وانما نسبوه الى السحر لان فيه الاخبار بالبعث والنشور وكانوا ينكرون ذلك ﴿ قوله عز وجل ﴿ ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش ﴾ تقدم تفسير هذا في سورة الاعراف بمافيه كفاية ﴿ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ يدبر الامر ﴾ قال مجاهد يقضيه وحده وقيل معنى التدبير تنزيل الامور في مراتبها وعلى احكام عواقبها وقيل انه سبحانه وتعالى يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو النظر في ادبار الامور وعواقبها لئلا يدخل في الوجود مالاينبغي وقيل معناه انه سبحانه وتعالى يدبر احوال الخلق واحوال ملكوت السموت والارض فلايحدث حدث في العالم العلوي وفي العالم السفلي الا بارادته وتدبيره وقضائه وحكمته ﴿ مامن شفيع الامن بعد اذنه ﴾ يعني لايشفع عنده شافع يوم القيامة الامن بعد ان يأذن له في الشفاعة لانه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة في تدبيرهم فلايجوز لاحد ان يسأله ماليس له به علم فاذا اذن له في الشفاعة كان له ان يشفع فيمن ياذن له فيه وفيه رد على كفار قريش في قولهم ان الاصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة فاخبر الله سبحانه وتعالى انه لايشفع احد عنده الا باذنه لان له التصرف المطلق في جميع العالم ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ يعني الذي خلق هذه الاشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لارب لكم سواه ﴿ فاعبدوه ﴾ اي فاجعلوا عبادتكم له لالغيره لانه المستحق للعبادة بما انعم عليكم من النعم العظيمة ﴿ افلاتذكرون ﴾ يعني افلاتتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ اليه مرجعكم جميعا ﴾ يعني الى ربكم الذي خلق جميع المخلوقات مصيركم جميعا ايها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع ﴿ وعد الله حقا ﴾ يعني وعدكم الله ذلك وعدا حقا ﴿ انه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ اي يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فانه قال يحييه ثم يميته ثم يحييه وفي هذه الآية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة اخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الاولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة اخرى واذاثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ يعني بالعدل لاينقص من اجورهم شيأ ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم ﴾ هو ماء حار قد انتهى حره ﴿ وعذاب اليم بما كانوا يكفرون هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ يعني ذات ضياء ﴿ والقمر نورا ﴾ يعني ذا نور واختلف اعلام اصحاب الكلام في ان الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم او عرض والحق انه عرض وهو كيفية مخصوصة فالنور اسم لاصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية اذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا خص الشمس بالضياء لانها اقوى واكمل من النور وخص القمر

في هذا العالم من كل عمل حسن اوقبيح يصدر عن احد نقد كتب عليه في تلك الالواح وقد اتصل ملكوت كل بدن بتلك المبادي الملكوتية فتي هممنا بحسنة اوسيئة ارتسمت صورته في ملكوت ابداننا على سبيل الخاطر اولا ثم اخذنا في الفكر فيه فان استحكم النقش وانبعث منه العزيمة حتى امتثلنا الخاطر الاول بالارادة الجازمة انطبع باقدامنا على الفعل الا انه ان كان حسنة انطبع في الحال في جهة القلب التي تلي الروح ولوح الفؤاد المنور بنوره وكتبته القوة العاقلة العملية التي هي صاحب اليمين من الملكين الموكلين المشار اليهما بقوله عن اليمين وعن الشمال فميدان الفؤاد هو الجانب الاقوى منه وان كان سيئة لاينطبع في الحال ابدا لهيئة ظلمانية من القلب وعدم مناسبته

بالنور لانه اضعف من الضياء ولانهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على ان الضياء المختص بالشمس اكمل واقوى من النور المختص بالقمر (وقدره منازل) قيل الضمير فى وقدره يرجع الى الشمس والقمر والمعنى قدر لهما منازل اوقدر اسيرهما منازل لايجاوزانهما فى السير ولايقصران عنها وانما وحد الضمير فى وقدره للايجاز اواكتفى بذكر احدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه وتعالى والله ورسوله احق ان يرضوه وقيل الضمير فى وقدره يرجع الى القمر وحده لان سير القمر فى المنازل اسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لان الشهور المعتبرة فى الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشرع هى السنة القمرية لاالشمسية ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة وهى الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت فهذه منازل القمر وهى مقسومة على اثنى عشر برجا وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت لكل برج منزلان وثلث وينزل القمر كل ليلة منزلا منها الى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين اختفى ليلة واحدة (لتعلموا عدد السنين) يعنى قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين ووقت دخولها وانقضائها (والحساب) يعنى ولتعلموا حساب الشهور والايام والساعات ونقصانها وزيادتها (ماخلق الله ذلك الا بالحق) يعنى للحق واظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلا ولاعبثا (يفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته (ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) تقدم تفسير هذه الآية فى نظيرها (ان الذين لايرجون لقاءنا) يعنى لايخافون لقاءنا يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب فلان لايرجو فلانا يعنى لايخافه ومنه قوله سبحانه وتعالى مالكم لاترجون لله وقارا ومنه قول ابى ذؤيب الهذلى * اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * اى لم يخفه والرجاء يكون بمعنى الطمع فيكون المعنى لايطمعون فى ثوابنا (ورضوا بالحيوة الدنيا) يعنى اختاروها وعملوا فى طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها (واطمأنوا بها) يعنى وسكنوا اليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التى حصلت فى قلوب الكفار من الميل الى الدنيا ولذاتها ازالت عن قلوبهم الوجل والخوف فاذا سمعوا الانذار والتخويف لم يصل ذلك الى قلوبهم (والذين هم عن آياتنا غافلون) قيل المراد بالآيات ادلة التوحيد وقال ابن عباس عن آياتنا يعنى عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن غافلون اى معرضون (اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) يعنى من الكفر والتكذيب والاعمال الخبيثة * قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) يعنى يهديهم ربهم الى الجنان ثوابا لهم بايمانهم واعمالهم الصالحة وقال مجاهد يهديهم على الصراط الى الجنة يجعل لهم نورا يمشون به وقال قتادة بلغنا ان المؤمن اذا خرج من قبره يصور له عمله فى صورة حسنة فيقول له من انت فيقول انا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة

اياها بالذات فان ادركه التوفيق وتلألأ عليه نور من انوار الهداية الروحانية ندم واستغفر فمحى عنه وعفى له وان لم يتداركه بقى متلجلجا حتى امدته النفس بظلمة صفاتها فاستقر فى لوح الصدر الذى هو وجه القلب الذى يلى النفس المظلم بظلمة النفس الغالبة عليه فى صدور هذا الفعل منه وكتبته القوة المتخيلة التى هى صاحب الشمال اذ هذا الجانب هو الاضعف وهذا هو المراد من قولهم صاحب الشمال لايكتب السيئة حتى تمضى ست ساعات فان استغفر فيها صاحبها لم تكتب وان اصر كتبت ويفهم من هذا الامر ايتاء الكتاب بيمين المسلم وشمال الكافر واما صورة الايتاء وكيفيته فقد يجىء فى موضعها ان شاء الله تعالى (يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحيوة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون انما مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به

والكافر بالضد فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الانبارى يجوز ان يكون المعنى ان الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم ويزيل بها الشكوك عنهم ويجوز ان يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بايمانهم يهديهم ربهم لدينه اى بتصديقهم هداهم (تجرى من تحتهم الانهار) يعنى بين ايديهم ينظرون اليها من اعالى اسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى قد جعل ربك تحتك سريا لم يرد به انه تحتها وهى قاعدة عليه بل اراد بين يديها وقيل تجرى بامرهم (فى جنات النعيم) يعنى ذلك لهم فى جنات النعيم (دعواهم فيها) اى قولهم وكلامهم فيها وقيل الدعوى بمعنى الدعاء اى دعاؤهم فيها (سبحانك اللهم) وهى كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة قال اهل التفسير هذه الكلمة علامة بين اهل الجنة والخدم فى الطعام فاذا ارادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم فيأتونهم فى الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون الف صحيفة فى كل صحيفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما اعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين وقيل ان المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال اهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عز وجل والثناء عليه بما هو اهله وفى هذا الذكر والتحميد سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم ويدل عليه ما روى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفى رواية التسبيح والحمد اخرجه مسلم قوله جشاء اى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا * وقوله سبحانه وتعالى (وتحيتهم فيها سلام) يعنى يحيى بعضهم بعضا وقيل وتحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام (وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) قد ذكرنا ان جماعة من المفسرين حملوا التسبيح والتحميد على احوال اهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وانهم اذا اشتهوا شيأ قالوا سبحانك اللهم فيحضر ذلك الشئ واذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك وقال الزجاج اعلم الله ان اهل الجنة يبتدؤن بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه وقيل انهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر فى الحديث * قوله سبحانه وتعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) يعنى ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم فى الشر بما لهم فيه مضرة ومكروه فى نفس او مال قال ابن عباس هذا فى قول الرجل لاهله وولده عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وماله واهله وولده بما يكره ان يستجاب له فيه (استعجالهم بالخير) يعنى كما استعجالهم بالخير وكما يحبون ان يعجل لهم اجابة دعائهم بالخير (لقضى اليهم اجلهم) يعنى لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعا والتعجيل تقديم الشئ قبل وقته والاستعجال طلب العجلة وقال ابن قتيبة ان الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على انفسهم واهاليهم واولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة واعطاء السؤل يقول لو اجابهم الله اذا دعوه بالشر الذى يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضى اليهم اجلهم يعنى لفرغ من هلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعى بالخير ولا يستجيب له فى الشر وقيل ان هذه الآية نزلت فى النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء فعلى هذا يكون المعنى ولو يعجل الله

نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) البغى ضد العدل فكما ان العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل وهيئة وحدانية لها فائضة من نور الوحدة على النفس فالبغى لا يكون الا عن غاية الانهماك فى الرذائل بحيث يستلزمها جميعا فصاحبها فى غاية البعد عن الحق ونهاية الظلمة كما قال الظلم ظلمات يوم القيامة فلهذا قال على انفسكم لا على المظلوم لان المظلوم سعد به وشقى الظالم غاية الشقاء وهو ليس الا متاع الحياة الدنيا اذ جميع الافراطات والتفريطات المقابلة للعدالة تمتعات طبيعية ولذات حيوانية تنقضى بانقضاء الحياة الحسية التى مثلها فى سرعة الزوال وقلة البقاء هذا المثل الذى مثل به من تزين الارض بزخرفها من ماء المطر ثم فسادها

للكافرين العذاب كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعا ويدل على صحة هذا القول قوله سبحانه وتعالى (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) يعني فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت (في طغيانهم) يعني في تمردهم وعتوهم (يعمهون) يعني يترددون (ق) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فانما انا بشر اغضب كما يغضب البشر فايما رجل من المسلمين سببته او لعنته او جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة ❊ قوله عز وجل (واذا مس الانسان الضر) اى الشدة والجهد والمراد بالانسان في هذه الآية الكافر (دعانا لجنبه) اى على جنبه مضطجعا (او قاعدا او قائما) يريد جميع حالاته لان الانسان لا ينفك عن احدى هذه الحالات الثلاث والمعنى ان المضرور لا يزال داعيا في جميع حالاته الى ان يكشف ضره سواء كان مضطجعا او قاعدا او قائما وقال الزجاج وجائز ان يكون المعنى اذا مس الانسان الضر لجنبه او مسه قاعدا او مسه قائما وهذا القول فيه بعد لان ذكر الدعاء الى هذه الاحوال اقرب من ذكر الضر (فلما كشفنا عنه ضره) يعني فلما ازلنا عنه ما نزل به من الضر ودفعناه عنه (مر) يعني على طريقته الاولى قبل مس الضر (كأن لم يدعنا) فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا وانما اسقط الضمير على سبيل التخفيف (الى ضر مسه) والمعنى انه استمر على حالته الاولى قبل ان يمسه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) يعني مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك باقدار الله اياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد في كل شيء وانما سمي الكافر مسرفا لانه اتلف نفسه وضيعها في عبادة الاصنام واتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الاصنام وسدنتها يعني خدامها وقال ابن جريج في قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء وقيل كما زين لكم اعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم اعمالهم وبيان مقصود الآية ان الانسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فاذا مسه الضر اقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهدا في الدعاء طالبا من الله ازالة ما نزل به من المحنة والبلاء فاذا كشف الله ذلك عنه اعرض عن الشكر ورجع الى ما كان عليه اولا وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما المؤمن العاقل فانه بخلاف ذلك فيكون صابرا عند البلاء شاكرا لله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء في جميع اوقات الراحة والرفاهية وههنا مقام اعلى من هذا وهو ان المؤمن اذا ابتلي ببلية او نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضيا بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكون شاكرا لله عز وجل في جميع احواله وليعلم العبد المؤمن ان الله تبارك وتعالى مالك الملك على الاطلاق حكيم في جميع افعاله وله التصرف في خلقه بما يشاء ويعلم انه ابقاه على تلك المحنة فهو عدل وان ازالها عنه فهو فضل ❊ قوله سبحانه وتعالى (ولقد اهلكنا القرون من قبلكم) يعني اهلكنا الامم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة (لما ظلموا) يعني لما اشركوا (وجاءتهم رسلهم بالبينات) يعني وكذبوا (وما كانوا ليؤمنوا) يعني هذه الامم برسلهم ويصدقوهم بما جاؤا به من عند الله (كذلك نجزي القوم المجرمين) يعني كما اهلكنا الامم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم ايها المشركون

بعض الآفات سريعا قبل الانتفاع بنباتها ثم تتبعها الشقاوة الابدية والعذاب الاليم الدائم وفي الحديث اسرع الخير ثوابا صلة الرحم واعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة لان صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذي يحتمله حق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول قلما يموت الظالم حتف انفه وقلما يبلغ الفاسق أوان الشيخوخة وذلك لمبارزتهما الله تعالى في هدم النظام المصروف عنايته تعالى الى ضبطه ومخالفتهما اياه في حكمته وعدله (والله يدعوا الى دار السلام) يدعوا الكل الى دار سلام العالم الروحاني الذي لا آفة فيه ولا نقص ولا فقر ولا فناء بل فيه السلامة عن كل عيب والامان من كل خوف (ويهدي من يشاء) من جملتهم من اهل الاستعداد (الى صراط مستقيم) صراط الوحدة (للذين احسنوا)

بكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم) الخطاب لاهل مكة الذين ارسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ثم جعلناكم ايها الناس خلفاء في الارض من بعد القرون الماضية الذين اهلكناهم (لننظر كيف تعملون) يعني خيرا وشرا فنعاملكم على حسب اعمالكم والنظر هنا بمعنى العلم يريد لنختبر اعمالكم وهو يعلم مايكون قبل ان يكون قال اهل المعاني معنى النظر هو طلب العلم وجاز في وصف الله سبحانه وتعالى اظهارا للعدل لانه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بمايكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا ذكره الواحدي والرازي (م) عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء اخرجه مسلم قوله فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة الدنيا واحذروا فتنة النساء ❊ قوله سبحانه وتعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعني واذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي انزلناه اليك يامحمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لايرجون لقاءنا) يعني قال هؤلاء المشركون الذين لايخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لايؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث فانه لايرجو ثوابا ولايخاف عقابا (ائت بقرآن غير هذا او بدله) قال قتادة قال ذلك مشركو مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبدالله بن امية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبدالله بن ابي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام قال هؤلاء للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد ان نؤمن بك فات بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله عليك فقل انت من عند نفسك او بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالا ومكان حلال حراما قال الامام فخر الدين الرازي اعلم ان اقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين احدهما انهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن او بدلته لآمنا بك وغرضهم السخرية والاستهزاء الثاني ان يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كان كاذبا في قوله ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله ومعنى قوله ائت بقرآن غير هذا او بدله يحتمل ان يأتي بقرآن آخر مع وجود هذا القرآن والتبديل لايكون الامع وجوده وهو ان يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوه ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم امره الله ان يجيبهم بقوله (قل) اي قل يامحمد لهؤلاء (مايكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي) يعني ان هذا الذي طلبتموه من التبديل ليس الي ومايتبغي لي ان اغيره من قبل نفسي ولم اومر به (ان اتبع الا مايوحى الي) يعني فيما آمركم به او انهاكم عنه وما اخبركم الا مايخبرني الله به وان الذي اتيتكم به هو من عند الله لامن عندي (اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) اي قل لهم يامحمد اني اخشى من الله ان خالفت امره او غيرت احكام كتابه او بدلته فعصيته بذلك ان يعذبني بعذاب عظيم في يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت ❊ قوله سبحانه وتعالى (قل) اي قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لوشاء الله ماتلوته عليكم) يعني لوشاء الله لم ينزل على هذا القرآن ولم يامرني بقراءته عليكم (ولا ادراكم به) قال ابن عباس ولا ادراكم الله به ولا اعلمكم به (فقد

اي جاؤا بما يحسن به حالهم من خير فعلي اوقولي او على ماهو سبب كالهم المثوبة (الحسنى) من الكمال الذي يفيض عليهم بسبب ذلك الخير (وزيادة) مرتبة على ماكان قبله بالترقي اوزيادة في استعداد قبول الخيرات والكمالات بانضمام هذا الكمال والنور الفائض عليهم الى استعدادهم الاول على ماذكر (ولايرهق وجوههم قتر) وجوه قلوبهم غبار من كدورات صفات النفس وقيام غلباتها ولاذلة) من ميل قلوبهم الى الجهة السفلية (اولئك اصحاب الجنة) التي يقتضيها حالهم وارتقاؤهم من الجنان المذكورة (هم فيها خالدون والذين كسبوا) اجناس (السيئات) من اعمال واقوال وعقائد تحجب استعدادهم عن قبول الكمال (جزاء سيئة بمثلها) من الهيئة التي ارتكبت على قلوبهم من سيئاتهم فنعتها الصفاء والنور (وترهقهم ذلة)

لبثت فيكم عمرا من قبله) يعنى فقد مكثت فيكم قبل ان يوحى الى القرآن مدة اربعين سنة لم آتكم بشئ ووجه هذا الاحتجاج ان كفار مكة كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وعلموا احواله وانه كان اميا لم يطالع كتابا ولا تعلم من احد مدة عمره قبل الوحى وذلك اربعون سنة ثم بعد الاربعين جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم واخبار الماضين وفيه من الاحكام والآداب ومكارم الاخلاق والفصاحة والبلاغة ما اعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفهم ثاقب يعلم ان هذا لم يحصل الا بوحى من الله تعالى لا من عند نفسه وهو قوله (افلا تعقلون) يعنى ان هذا القرآن من عند الله اوحاه الى لا من قبل نفسى (ق) عن ابن عباس قال انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن اربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى اليه ثم امر بالهجرة فهاجر الى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفى صلى الله عليه وسلم وفى رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى اليه وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة وفى رواية ان النبى صلى الله عليه وسلم اقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيأ وثمان سنين يوحى اليه واقام بالمدينة عشرا وتوفى وهو ابن خمس وستين سنة اخرجاه فى الصحيحين (ق) عن عائشة قالت توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة اخرجاه فى الصحيحين (م) عن انس قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين وابو بكر وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين اخرجه مسلم (ق) عن ربيعة بن ابى عبد الرحمن قال سمعت انس بن مالك يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ازهر اللون ليس بالابيض الامهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل انزل عليه الوحى وهو ابن اربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحى وبالمدينة عشرا وتوفاه الله على راس ستين سنة وليس فى راسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء اخرجاه فى الصحيحين قال الشيخ محيى الدين النووى ورد فى عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها انه صلى الله عليه وسلم توفى وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنه والثالثة ثلاث وستون سنة وهى اصحها واشهرها رواها مسلم من حديث انس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على ان اصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقى عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة ايضا بأنها حصل فيها اشتباه قوله يسمع الصوت يعنى صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعنى نور الملائكة او نور آيات الله حتى راى الملك بعينه وشافهه بالوحى من الله عز وجل وقوله ليس بالابيض الامهق المراد به الشديد البياض كلون الجص وهو كريه المنظر وربما توهم الناظر انه برص والمراد انه كان ازهر اللون بين البياض والحمرة ❊ قوله عز وجل (فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى فزعم ان له شريكا وولدا والمعنى انى لم افتر على الله كذبا ولم اكذب عليه فى قوله ان هذا القرآن من عند الله وانتم قد افتريتم على الله الكذب فزعمتم ان له شريكا وولدا والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل معناه ان هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان احد فى الدنيا اظلم على نفسه منى من حيث انى افتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله اوحاه الى وجب ان يقال ليس احد فى الدنيا اجهل ولا اظلم على نفسه منكم من حيث انكم انكرتم ان يكون هذا القرآن من عند الله فقد

الميل الى الجهة السفلية (مالهم من الله من عاصم) يعصمهم من تلك الذلة والخذلان لوجود الحجاب وعدم قبول نور العصمة لبوت الكدورة (كأنما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) لفرط ارتكاب الهيئة المظلمة من الميول الطبيعية والاعمال الردية عليها (اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) التى يقتضيها حالهم فى التسفل من نيران الآثار والافعال (ويوم نحشرهم جميعا) فى الجمع الاكبر عين جمع الوجود المطلق (ثم نقول للذين اشركوا) منهم اى المحجوبين الواقفين مع الغير بالمحبة والطاعة (مكانكم) اى الزموا مكانكم (انتم وشركاؤكم) ومعناه وقفوا مع ماوقفوا معه فى الموقف مع قطع الوصل بالاسباب التى هى سبب محبتهم وعبادتهم وتبرؤا المعبود من العابد لانقطاع الآلات البدنية والاعراض الطبيعية التى توجب تلك الوصل وهو معنى قوله

كذبتم بآياته وهو قوله تعالى (او كذب بآياته) يعني جحد بكون القرآن من عند الله وانكر دلائل
التوحيد (انه لا يفلح المجرمون) يعني المشركين وهذا وعيد وتاكيد لما سبق (ويعبدون من دون
الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) يعني ويعبد هؤلاء المشركون الاصنام التي لا تضرهم ان عصوها
وتركوا عبادتها ولا تنفعهم ان عبدوها لانها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وان العبادة اعظم انواع
التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع ويحيي ويميت وهذه الاصنام جمادات لا تضر ولا تنفع (ويقولون
هؤلاء) يعني الاصنام التي يعبدونها (شفعاؤنا عند الله) قال اهل المعاني توهموا ان عبادتها اشد في
تعظيم الله من عبادتهم اياه وقالوا لسنا بأهل ان نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الاصنام فانها
تكون شافعة لنا عند الله ومنه قوله سبحانه وتعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى
وفي هذه الشفاعة قولان احدهما انهم يزعمون انها تشفع لهم في الآخرة قاله ابن جريج عن ابن عباس
والثاني انها تشفع لهم في الدنيا في اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعثا بعد الموت
(قل) اي قل لهم يا محمد (اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض) يعني اتخبرون الله
ان له شريكا ولا يعلم الله لنفسه شريكا في السموات ولا في الارض وهذا على طريق الالزام والمقصود
نفي علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لعلمه الله وحيث لم يكن معلوما لله
وجب ان لا يكون موجودا ومثل هذا مشهور في العرف فان الانسان اذا اراد نفي شئ حصل
في نفسه يقول ما علم الله ذلك مني مقصوده انه ما حصل ذلك الشئ منه قط ولا وقع (سبحانه وتعالى
عما يشركون) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والاضداد والانداد وتعالى ان يكون له
شريك في السموات والارض ولا يعلمه * قوله سبحانه وتعالى (وما كان الناس الا امة واحدة
فاختلفوا) يعني فتفرقوا الى مؤمن وكافر يعني كانوا جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام
ويدل على ذلك ان آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الاسلام الى ان قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا
وقيل بقوا على ذلك الى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحا وقيل انهم كانوا على دين
الاسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين
الاسلام من عهد ابراهيم الخليل عليه السلام الى ان غيره عمرو بن لحي فعلى هذا القول يكون
المراد من الناس في قوله وما كان الناس الا امة واحدة العرب خاصة وقيل كان الناس امة واحدة
يعني في الكفر وهذا القول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة
البقرة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وتقديره انه لا مطمع في ان يصير الناس على دين واحد
فانهم كانوا اولا على الكفر وانما اسلم بعضهم ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل كان الناس امة
واحدة وليس في الآية ما يدل على اي دين كانوا من ايمان او كفر فهو موقوف على دليل من خارج
وقيل معناه انهم كانوا في اول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا في الاديان واليه الاشارة
بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه
والمراد بالفطرة في الحديث فطرة الاسلام * قوله سبحانه وتعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك)
يعني انه سبحانه وتعالى جعل لكل امة اجلا وقضى بذلك في سابق الازل قال الكلبي هي امهال
هذه الامة وانه لا يهلكهم بالعذاب (لقضي بينهم) يعني بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين
وكان ذلك فصلا بينهم (فيما فيه يختلفون) وقال الحسن ولولا كلمة سبقت من ربك يعني مضت
في حكمة الله انه لا يقضي عليهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة لقضي بينهم

(فزيلنا بينهم) اي مع كونهم في الموقف معا فرقنا بينهم في الوجهة وذلك هو علو رتبة المعبود ودنو رتبة العابد وتباين حاليهما اذا كان المعبود شريفا كالملائكة والمسيح وعزير وامثالهم ممن له السابقة عند الله كما قال ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون (وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون) بل تعبدون الشيطان بطاعتكم اياه وما اخترعتموه في اوهامكم من اباطيل فاسدة واماني كاذبة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين) اي الله يعلم انا ما امرناكم بذلك وما اردنا عبادتكم ايانا (هنالك تبلوا) اي عند ذلك الموقف تختبرون وتذوق (كل نفس ما اسلفت) في الدنيا (وردوا الى الله) في موقف الجزاء بالانقطاع عن الآلهة وانفرادهم عنها (مولاهم الحق) المتولي جزاءهم بالعدل والقسط (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من اختراعاتهم

فى الدنيا فادخل المؤمنين الجنة بايمانهم وادخل الكافرين النار بكفرهم ولكم سبق من الله الاجل بجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله انى لايواخذ احد الا بعد اقامة الحجة عليه وقيل الكلمة التى سبقت من الله هى قوله ان رحمتى سبقت غضبى ولولا رحمته لعجل لهم العقوبة فى الدنيا ولكن اخرهم برحمته الى يوم القيامة ثم يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعنى فى الدنيا (ويقولون) يعنى كفار مكة (لولا انزل عليه آية من ربه) يعنى هلا نزل على محمد ما نقترحه عليه من الآيات (فقل) اى فقل لهم يا محمد (انما الغيب لله) يعنى ان الذى سألتمونيه هو من الغيب وانما الغيب لله لايعلم احد ذلك الا هو والمعنى لايعلم احد متى نزل الآية الا هو (فانتظروا) يعنى نزولها (انى معكم من المنتظرين) وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا باظهار الحق على المبطل انى معكم من المنتظرين * قوله عز وجل (واذا اذقنا الناس رحمة) يعنى رخاء ونعمة (من بعد ضراء مستهم) يعنى من بعد شدة وبلاء وضيق فى العيش اصابهم والمراد بالناس هنا كفار مكة وذلك ان الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم ان الله سبحانه وتعالى رحمهم فأنزل عليهم المطر الكثير حتى اخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك الضر فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى الفساد والكفر والمكر وهو قوله سبحانه وتعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا) قال مجاهد اى تكذيب واستهزاء وقال مقاتل بن حيان لايقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا ويدل على صحة هذا القول ماروى عن زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل فلما انصرف اقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله اعلم قال قال اصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فامامن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب واما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب اخرجاه فى الصحيحين قوله على اثر سماء كانت من الليل اى مطر كان وقع فى الليل وسمى المطر سماء لانه يقطر من السماء والانواء عند العرب هى منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون فى الجاهلية انه لابد عند ذلك من وجود مطر اوريح كما زعم المنجمون ايضا فمن العرب من يجعل ذلك التأثير للطالع لانه ناء اى ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبى عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفر معتقده اذا اعتقد ان النجم فاعل ذلك التأثير واما من يجعل دليلا فهو جاهل بمعنى الدلالة واما من اسند ذلك الى العادة التى يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله اعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكرا لان المكر عبارة عن صرف الشئ عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون فى دفع آيات الله بكل مايقدرون عليه من المفاسد (قل الله اسرع مكرا) اى قل لهم يا محمد الله اعجل عقوبة واشد اخذا واقدر على الجزاء وان عذابه فى هلاككم اسرع اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بمكر اشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا يكتبون ماتمكرون) يعنى الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون ويحفظون عليهم الاعمال القبيحة السيئة الى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها ويجزون على مكرهم * قوله تعالى (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) يعنى هو الله الذى يسيركم يعنى يحملكم فى البر على ظهور الدواب وفى البحر على الفلك وقيل معناه هو الله الهادى لكم فى المسير فى البر والبحر طلبا للمعاش او هو المهيئ لكم اسباب السير فى البر والبحر (حتى اذا كنتم

واصول دينهم ومذهبهم وتوهماتهم الكاذبة واما نيهم الباطله (قل من يرزقكم من السماء والارض امن يملك السمع والابصار ومن ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانى تصرفون كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا انهم لايؤمنون قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فانى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق افمن يهدى الى الحق احق ان يتبع امن لايهدى الا ان يهدى فمالكم كيف تحكمون ومايتبع اكثرهم الا ظنا ان الظن لايغنى من الحق شيأ ان الله عليم بما يفعلون وما كان هذا القرآن ان يفترى) اختلاقا (من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه) ن اللواح المحفوظ (وتفصيل

فى الفلك) يعنى السفن ولفظة الفلك تطلق على الواحد والجمع وتقدير هما مختلفان فان اريدبها الواحد كان كبناء قفل وان اريدبها الجمع كان كبناء اسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى (وجرين بهم) يعنى وجرت السفن بركابها فان قلت مافائدة صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة قلت قال صاحب الكشاف المقصود منه المبالغة كانه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم مزيد الانكار والتقبيح وقال غيره ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من اقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده الى الغائب وقيل ان الالتفات فى الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب (بريح طيبة) يعنى وجرت السفن بريح طيبة ساكنة (وفرحوا بها) يعنى وفرح ركاب تلك الفلك بتلك الريح الطيبة لان الانسان اذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود حصل له النفع التام والمسرة العظيمة بذلك (جاءتها ريح عاصف) قيل ان الضمير فى جاءتها يرجع الى الريح فيكون المعنى جاءت الريح الطيبة ريح عاصف شديدة فاقلبتها وقيل الضمير فى جاءتها يرجع الى الفلك يعنى جاءت الفلك ريح عاصف يقال ريح عاصف وعاصفة ومعنى عصفت الريح اشتدت واصل العصف السرعة وانما قال عاصف لانه اراد به ذات عصوف ولاجل ان لفظ الريح قد يذكر (وجاءهم الموج من كل مكان) يعنى وجاء ركاب السفينة الموج وهو ماارتفع وعلا من غوارب الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (وظنوا انهم احيط بهم) يعنى وظنوا ان الهلاك قد احاط بهم واحدق وقيل المراد من الظن اليقين اى وايقنوا انه الهلاك وقيل بل المراد منه مقاربة من الهلاك والدنو منه والاشراف عليه (دعوا الله مخلصين له الدين) يعنى انهم اخلصوا فى الدعاء لله عز وجل ولم يدعوا احدا سواه من آلهتهم وقيل فى معنى هذا الاخلاص العلم الحقيقى لا اخلاص الايمان لانهم كانوا يعلمون حقيقة انه لا ينجيهم من جميع الشدائد والبلايا الا الله تعالى فكانوا اذا وقعوا فى شدة وضر وبلاء اخلصوا الله الدعاء (لئن انجيتنا) اى قائلين لئن انجيتنا يا ربنا (من هذه) يعنى من هذه الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) يعنى من الشاكرين لك على انعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما انجاهم) يعنى فلما انجى الله هؤلاء الذين ظنوا انها احيط بهم من الشدة التى كانوا فيها (اذاهم يبغون فى الارض بغير الحق) يعنى انهم اخلفوا الله ماوعدوه وبغوا فى الارض فتجاوزوا فيها الى غير ماامر الله به من الكفر والعمل بالمعاصى على ظهرها واصل البغى مجاوزة الحد قال صاحب المفردات البغى على ضربين احدهما محمود وهو مجاوزة العدل الى الاحسان والفرض الى التطوع والثانى مذموم وهو مجاوزة الحق الى الباطل او الى الشبهة قال صاحب الكشاف فان قلت مامعنى قوله بغير الحق والبغى لا يكون بحق قلت بلى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على ارض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع اشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة (يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم) يعنى ان وبال بغيكم راجع عليكم (متاع الحيوة الدنيا) قيل هو كلام مبتدأ والمعنى ان بغى بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لا يصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم لا يتهيأ ان يبغى بعضكم على بعض الا اياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها فى سرعة انقضائها والبغى من منكرات الذنوب العظام قال بعضهم لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعرا وكان المأمون يتمثل به فقال

الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) الذى هو الام كقوله وانه فى ام الكتاب لدينا لعلى حكيم اى كيف يكون مختلقا وقد اثبت قبله فى كتابين من عند الله لا كما هو فى اللوح المحفوظ ومجملا فى ام الكتاب الذى هذا تفصيله (ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) اى لما جهلوا كيفية ثبوته فى علم الله ونزوله على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وقصر علمهم عن ذلك كذبوا به (ولما يأتهم تأويله) اى ظهور ما اشار اليه فى مواعيده وامدله مما يؤل امره وعلما اليه فلا يمكنهم لتكذيب لانه اذا ظهرت حقائقه لا يمكن لاحد تكذيبه * مثل ذلك التكذيب العظيم (كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) عاقبتهم لما ظلموا بالتكذيب (ومنهم من يؤمن به) اى سيؤمن به لرقة حجابه (ومنهم من لا يؤمن به وربك اعلم

يا صاحب البغي ان البغي مصرعة * فارجع فخير مقاتل المرء اعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل * لاندك منه اعاليه واسفله

* وقوله سبحانه وتعالى (ثم الينا مرجعكم) يعني يوم القيامة (فننبئكم) اى فنخبركم (بما كنتم تعملون) يعني في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها * قوله عز وجل (انما مثل الحيوة الدنيا) يعني في فنائها وزوالها (كماء انزلناه من السماء) يعني المطر (فاختلط به) اى بالمطر (نبات الارض) قال ابن عباس نبت بالماء من كل لون (مما يأكل الناس) يعني من الحبوب والثمار (والانعام) يعني ومما يأكل الانعام من الحشيش ونحوه (حتى اذا اخذت الارض زخرفها) يعني حسنها ونضارتها وبهجتها واظهرت الوان زهرها من ابيض واحمر واصفر وغير ذلك من الزهور (وازينت) اى وتزينت (وظن اهلها) يعني اهل تلك الارض (انهم قادرون عليها) يعني على جدادها وقطافها وحصادها رد الكناية الى الارض والمراد النبات اذ كان مفهوما وقيل رده الى الثمرة والغلة وقيل الى الزينة (اتاها امرنا) اى قضاؤنا بهلاكها (ليلا او نهارا) يعني في الليل او النهار (فجعلناها حصيدا) يعني محصودة مقطوعة (كان لم تغن بالامس) يعني كان لم تكن تلك الاشجار والنبات والزروع نابتة قائمة على ظهر الارض واصله من غنى فلان بالمكان اذا اقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين في زهرتها وحسنها وذلك انه تعالى لما قال يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحيوة الدنيا اتبعه بهذا المثل لمن بغى في الارض وتجبر فيها وركن الى الدنيا واعرض عن الآخرة لان النبات في اول بروزه من الارض ومبدا خروجه يكون ضعيفا فاذا نزل عليه المطر واختلط به قوي وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت يعني بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشئ وجعلت الارض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس اذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولاشك ان الارض متى كانت على هذه الصفة فانه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه في الانتفاع بها وبما فيها ثم ان الله سبحانه وتعالى ارسل على هذه الارض صاعقة او بردا او ريحا فجعلها حصيدا كان لم تكن من قبل قال قتادة ان المتشبث بالدنيا يأتيه امر الله وعذابه اغفل ما يكون ووجه التمثيل ان غاية هذا الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ولان المتمسك بالدنيا اذا نال منها بغيته اتاه الموت بغتة فسلبه ماهو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها وقيل يحتمل ان يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك لان الزرع اذا انتهى وتكامل في الحسن الى الغاية القصوى اتته آفة فتلف بالكلية ثم ان الله سبحانه وتعالى قادر على اعادته كما كان اول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على ان من قدر على اعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادرا على اعادة الاموات احياء في الآخرة ليجازيهم على اعمالهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصي (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) يعني كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفناكم حكمها كذلك نبين حججنا وادلتنا لمن تفكر واعتبر ليكون ذلك سببا موجبا لزوال الشك والشبهة من القلوب * قوله سبحانه وتعالى (والله يدعو الى دار السلام) لما ذكر الله زهرة الحياة الدنيا وانها فانية زائلة لا محالة دعا الى داره دار السلام قال قتادة الله هو السلام وداره الجنة فعلى هذا السلام اسم من

بالمفسدين وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا برئ مما تعملون) ابدا الغلظ جوابه (ومنهم من يستمعون اليك افانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) ولكن لا يفهمون اما لعدم الاستعداد في الاصل واما لرسوخ الهيآت المظلمة الحاجبة لنور الاستعداد فيهم واما لاجتماع الامرين كالاصم الذي لا عقل له فلا يسمع ولا يتفطن الاشارة فكيف يمكن افهامه (ومنهم من ينظر اليك افانت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) ولكن لا يبصر الحق ولا حقيقتك لاحد الامرين المذكورين او كليهما كالاعمى الذي انضم الى فقد ان بصره فقدان البصيرة فلا يبصر ولا يستبصر فكيف تمكن هدايته (ان الله لا يظلم الناس شيأ) لما ذكر الصمم والعمى اللذين يدلان على عدم استعداد الادراك اشعر الكلام بوقوع الظلم لوجود الاستعداد لبعض وعدمه لبعض فسلب الظلم عن نفسه لان عدم الاستعداد في الاصل ليس ظلما اذ عدم

اسماالله عزوجل ومعناه انه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغير وقيل انه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لان الخلق سلموا من ظلمه وقيل انه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذى السلام اى لايقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات الاهو وقيل دارالسلام اسم للجنة وهو جمع سلامة والمعنى ان من دخلها فقدسلم من جميع الآفات كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد وقيل سميت الجنة دارالسلام لان الله سبحانه وتعالى يسلم على اهلها او تسلم الملائكة عليهم قيل ان من كال رحمة الله وجوده وكرمه على عباده ان دعاهم الى جنته التى هى دارالسلام وفيه دليل على ان فيها مالاعين رات ولااذن سمعت ولاخطر على قلب بشر لان لان العظيم لايدعو الا الى عظيم ولايصف الاعظيما وقدوصف الله سبحانه وتعالى الجنة فى آيات كثيرة من كتابه (ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم) يعنى والله يهدى من يشاء من خلقه الى صراطه المستقيم وهو دين الاسلام عم بالدعوة اولا اظهارا للحجة وخص بالدعوة ثانيا استغناء عن الخلق واظهارا للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين (خ) عن جابر قال جاءت ملائكة الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم انه نائم وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان فقالوا ان لصاحبكم مثلا فاضربوا له مثلا فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مادبة وبعث داعيا فمن اجاب الداعى دخل الدار واكل من المأدبة ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا اولوها يفقهها فان العين نائمة والقلب يقظان فقال بعضهم الدار الجنة والداعى محمد فمن اطاع محمدا فقد اطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس وفى رواية خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى رايت فى المنام كان جبريل عليه السلام عندراسى وميكائيل عند رجلى يقول احدهما لصاحبه اضرب له مثلا وعن النواس بن سمعان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ضرب مثلا صراطا مستقيما على كتفى الصراط داران لهما ابواب مفتحة على الابواب ستور وداع يدعو على راس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو الى دارالسلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم والابواب التى على كتفى الصراط حدود الله فلا يقع احد فى حدود الله حتى يكشف الستر والذى يدعو من فوقه واعظ ربه اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب ❊ قوله عزوجل (للذين احسنوا الحسنى) قال ابن عباس للذين شهدوا ان لا اله الا الله الجنة وقيل معناه للذين احسنوا عبادة الله فى الدنيا من خلقه واطاعوه فيما امرهم به ونهاهم عنه الحسنى قال ابن الانبارى الحسنى فى اللغة تأنيث الاحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها وقيل معناه للذين احسنوا المثوبة الحسنى (وزيادة) اختلف المفسرون فى معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على اقوال القول الاول ان الحسنى هى الجنة والزيادة هى النظر الى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم ابوبكر الصديق وحذيفة وابوموسى الاشعرى وعبادة بن الصامت وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدى ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول اما المنقول فروى عن صهيب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل اهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى اتريدون شيا ازيدكم فيقولون الم تبيض وجوهنا الم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما اعطوا شيأ احب اليهم من النظر الى ربهم تبارك وتعالى زاد فى رواية ثم تلا هذه الآية للذين احسنوا الحسنى وزيادة اخرجه مسلم وروى الطبرى بسنده عن كعب بن عجرة عن

امكان ماهو اجود منه بالنسبة الى خصوصية ذلك وهويته فكان عينه مقتضيا له فى رتبة من مراتب الامكان كالا يمكن للحمار مع جارته استعداد الادراك الانسانى وكان عينه مستدعيا لماهو عليه من الاستعداد الجارى ولايطلب منه وراء ما فى استعداده فلا ظلم هذا اذا لم يكن فى الاصل اواما اذا بطل برسوخ الهيآت المظلمة فلا كلام فيه اوكلاهما ظالم لنفسه امالاول فلقصوره فى درجات الامكان ونقصانه بالاضافة الى مافوقه كقصور الحمار مثلا عن الانسان ونقصانه بالاضافة اليه لافى نفسه لانه فى حد نفسه ليس بقاصر ولاناقص واما الثانى فظاهر وعلى هذا معنى (ولكن الناس انفسهم يظلمون) ينقصون حظها اوان الله لايظلم الناس شيأ بان يطلب منهم ماليس فى استعدادهم فيعاقبهم على ذلك ولكن الناس انفسهم يظلمون فيستعملون استعداداتهم فيمالم تخلق لاجله (ويوم نحشرهم كان لم يلبثوا الاساعة من النهار) لعدم احساسهم بالحركة

النبي صلى الله عليه وسلم في قوله للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال الزيادة النظر الى وجه الله الكريم وعن ابي بن كعب انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله سبحانه وتعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم وعن ابي بكر الصديق رضي الله عنه للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال النظر الى وجه الله وعن ابي موسى الاشعري قال اذا كان يوم القيامة بعث الله الى اهل الجنة مناديا ينادي هل انجزكم ماوعدكم به فينظرون الى مااعدالله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول الله للذين احسنوا الحسنى وزيادة النظر الى وجه الرحمن تبارك وتعالى وفي رواية رفعها ابو موسى قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث يوم القيامة وذكره بمعناه وعن عبدالرحمن بن ابي ليلى قال اذا دخل اهل الجنة الجنة قال الله لهم هل بقي من حقكم شئ لم تعطوه قال فيتجلى لهم عزوجل قال فيصغر عندهم كل شئ اعطوه ثم قال للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة هي النظر الى وجه ربهم فهذه الاخبار والآثار قددلت على ان المراد بهذه الزيادة هي النظر الى وجه الله تبارك وتعالى واما المعقول فنقول ان الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرفت الى المعهود السابق وهو الجنة في قوله سبحانه وتعالى والله يدعو الى دار السلام فثبت بهذا ان المراد من لفظة الحسنى هي الجنة واذا ثبت هذا وجب ان يكون المراد من الزيادة امرا مغايرا لكل مافي الجنة من النعيم والالزم التكرار واذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فأثبت لاهل الجنة امرين احدهما النضارة وهو حسن الوجوه ذلك من نعيم الجنة والثاني النظر الى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضا فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى وقالت المعتزلة لايجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية لان الدلائل العقلية دلت على ان رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة ولان الزيادة يجب ان تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله ليست من جنس نعيم الجنة ولان الاخبار التي تقدمت توجب التشبيه ولان جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ماقلتم اجاب اصحابنا عن هذه الاعتراضات بان الدلائل العقلية قددلت على امكان وقوع رؤية الله تعالى في الآخرة واذا لم يوجد في العقل مايمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الاحاديث الصحيحة باثبات الرؤية وجب المصير اليها واجراؤها على ظواهرها من غير تشبيه ولااحاطة واجيب عن قولهم ولان الزيادة يجب ان تكون من جنس المزيد عليه بان المزيد عليه اذا كان بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه واذا لم يكن بمقدار معين وجب ان تكون الزيادة مخالفة له فالمذكور في الآية لفظ الحسنى وهي الجنة ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب ان الزيادة عليها تكون شيأ مغايرا لنعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية واجيب عن قولهم ولان جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بانه معارض بقول جماعة من المفسرين بان الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي والله اعلم القول الثاني في معنى هذه الزيادة ماروى عن علي بن ابي طالب انه قال الزيادة غرفة من لؤلؤ واحدة لها اربعة ابواب القول الثالث ان الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف الى تمام العشرة والى سبعمائة قال ابن عباس هو مثل قوله سبحانه وتعالى ولدينا مزيد يقول يجزيهم بعملهم

المستلزم لذهولهم عن الزمان اذ الذاهل عن الحركة ذاهل عن الزمان فسوا عندهم الساعة الواحدة والدهور المتطاولة (يتعارفون بينهم) بحكم سابقة الصحبة وذعية الهوى اللازمة للجنسية الاصلية بدلالة التشاؤم ثم ان بقيت الجنسية الاصلية والمناسبة الفطرية لاتحادهم في الوجهة واتفاقهم في المقصد بقي التعارف بينهم وان لم يبق بسبب اختلاف الاهواء وتباين الآراء وتفاوت الهيآت المستفادة من لواحق النشأة وعوارض المادة انقلب الى التناكر (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) لوقوعهم في وحشة التناكر حينئذ واحتجابهم بحجب عاداتهم الفاسقة وهيآت اعتقاداتهم الفاسدة (وماكانوا مهتدين) وبطل نور استعدادهم فلا يهتدون الى الله ولاالى التعارف فخسؤا مبغوضين مطرودين لايألفون انسا ولايؤلفون الفا (واما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على مايفعلون ولكل امة رسول) يجانسهم في الاحوال

ويزيدهم من فضله قال قتادة كان الحسن يقول الزيادة الحسنة بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف القول الرابع ان الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد القول الخامس قول ابن زيد ان الحسنى هي الجنة والزيادة ما اعطاهم في الدنيا لايحاسبهم به يوم القيامة ※ وقوله سبحانه وتعالى (ولا يرهق وجوههم) يعني ولا يغشى وجوه اهل الجنة (قتر) اى كآبة ولا كسوف ولا غبار وقال ابن عباس سواد الوجوه (ولا ذلة) يعني ولا هو ان قال ابن ابي ليلى هذا بعد نظرهم الى ربهم تبارك وتعالى (اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون) يعني ان هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم اصحاب الجنة لاغيرهم وهم فيها مقيمون لايخرجون منها ابدا ※ قوله سبحانه وتعالى (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) اعلم انه لما شرح الله سبحانه وتعالى احوال المحسنين وما اعدلهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من اقدم على السيآت والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى والذين كسبوا السيئات يعني والذين عملوا السيئات والمراد بها الكفر والمعاصي جزاء سيئة بمثلها يعني فلهم جزاء السيئة التي عملوها مثلها من العقاب والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيآت لان الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة وذلك تفضلا منه وتكرما واما السيآت فانه يجازى عليها بمثلها عدلا منه سبحانه وتعالى (وترهقهم ذلة) قال ابن عباس يغشاهم ذل وشدة وقيل يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله اياهم (مالهم من الله من عاصم) يعني مالهم مانع يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم (كأنما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) يعني كأنما ألبست وجوههم سوادا من الليل المظلم (اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم جميعا) الحشر الجمع من كل جانب وناحية الى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعا لموقف الحساب وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين اشركوا مكانكم) اى الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسئلوا وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين (انتم وشركاؤكم) يعني انتم ايها المشركون والاصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله (فزيلنا بينهم) يعني ففرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا فان قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضي بعد قوله ثم نقول للذين اشركوا وهو منتظر في المستقبل فما وجهه قلت السبب فيه ان الذي حكم الله فيه بانه سيكون صار كالكائن الآن ※ قوله (وقال شركاؤهم) يعني الاصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله وانما سماهم شركاءهم لانهم جعلوا لهم نصيبا من اموالهم او لانه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله مكانكم فقد صاروا شركاء في هذا الخطاب (ما كنتم ايانا تعبدون) تبرأ المعبودون من العابدين فان قلت كيف صدر هذا الكلام من الاصنام وهي جماد لاروح فيها ولاعقل لها قلت يحتمل ان الله سبحانه وتعالى خلق لها في ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام فان قلت اذا احياهم الله في ذلك اليوم فهل يفنيهم او يبقيهم قلت الكل محتمل ولااعتراض على الله في شئ من افعاله واحوال القيامة غير معلومة الا ما دل عليه الدليل من كتاب او سنة فان قلت ان الاصنام قد انكرت ان الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها قلت قد تقدمت هذه المسئلة وجوابها في تفسير سورة

(الانعام)

النفسانية ليكن بينهم الالفة الموجبة للاستفادة منه ويمكنه النزول الى مبالغ عقولهم ومراتب فهومهم فيزكيهم بما يصلح احوالهم ويكشف حجبهم ويعلمهم بما يوجب ترقيهم عن مقاماتهم ويهديهم الى الله (فاذا جاء رسولهم قضى بينهم) بهداية من اهتدى منهم وضلالة من ضل وسعادة من سعد وشقاوة من شقى لظهور ذلك بوجوده وطاعة بعضهم اياه لقربه منه وانكار بعضهم له لبعده عنه (بالقسط) اى بالعدل الذى هو الغالب على حال النبي لكونه ظاهر توحيده وسيرته وطريقته (وهم لايظلمون) بنسبة خلاف ماهو حالهم اليهم ومجازاتهم به او قضى بينهم بانجاء من اهتدى به واثابته واهلاك من ضل وتعذيبه لظهور اسباب ذلك بوجوده (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) انكار لاحتجابهم عن القيامة وعدم وقوفهم على معناها اذ لو علموا كيفيته بارتفاع حجبهم بالتجرد عن ملابس النفس صدقوهم في ذلك وما انكروا (قل لااملك

الانعام ونقول هنا قال مجاهد تكون في يوم القيامة ساعة تكون فيها شدة تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله فتقول الآلهة والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولانعقل ولا نعلم انكم تعبدوننا فيقولون والله اياكم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين) والمعنى قدعلم الله وكفى به شهيدا اناما علمنا انكم كنتم تعبدوننا وماكنا عن عبادتكم ايانا من دون الله الاغافلين مانشعر بذلك اماقوله سبحانه وتعالى (هنالك تبلوا كل نفس ماسلفت) فهو كالتتمة للآية المتقدمة والمعنى في ذلك المقام اوذلك الموقف اوذلك الوقت على معنى استعارة اطلاق اسم المكان على الزمان وفي قوله تبلوا قراآت قرئ بتاءين ولها معنيان احدهما انه من تلاه اذا تبعه اى تتبع كل نفس ماسلفت لان العمل هو الذى يهدى النفس الى الثواب اوالعقاب الثانى ان يكون من التلاوة والمعنى ان كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير اوشر وقرئ تبلو بالتاء المثناة والباء الموحدة ومعناه تخبر وتعلم والبلوا لاختبار ومعناه اختبار هاما اسلفت يعنى انه ان قدم خيرا اوشرا قدم عليه وجوزى به (وردوا الى الله مولاهم الحق) الرد عبارة عن صرف الشئ الى الموضع الذى جاء منه والمعنى وردوا الى مايظهر لهم من الله الذى هو مالكهم ومتولى امرهم فان قلت قد قال الله سبحانه وتعالى في آية اخرى وان الكافرين لامولى لهم فما الفرق قلت المولى في اللغة يطلق على المالك ويطلق على الناصر فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين (وضل عنهم ماكانوا يفترون) يعنى وبطل وذهب ماكانوا يكذبون فيه في الدنيا وهو قولهم ان هذه الاصنام تشفع لنا ❊ قوله عزوجل (قل من يرزقكم من السماء والارض) اى قل يامحمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعنى المطر والارض يعنى النبات (امن يملك السمع والابصار) يعنى ومن اعطاكم هذه الحواس التى تسمعون بها وتبصرون بها (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) يعنى انه تعالى يخرج الانسان حيا من النطفة وهى ميتة وكذلك الطير من البيضة وكذلك يخرج النطفة الميتة من الانسان الحى ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحى وقيل معناه انه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والقول الاول اقرب الى الحقيقة (ومن يدبر الامر) يعنى ان مدبر امر السموات ومافيها ومدبر امر الارض ومافيها هو الله تعالى وذلك قوله (فسيقولون الله) يعنى انهم يعترفون ان فاعل هذه الاشياء هو الله واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) اى قل لهم يامحمد (افلاتتقون) يعنى افلاتخافون عقابه حيث تعبدون هذه الاصنام التى لاتضر ولاتنفع ولاتقدر على شئ من هذه الامور (فذلكم الله ربكم الحق) يعنى فذلكم الذى يفعل هذه الاشياء ويقدر عليها هو الله ربكم الحق الذى يستحق العبادة لاهذه الاصنام (فماذا بعد الحق الاالضلال) يعنى اذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطعية ان الله هو الحق وجب ان يكون ماسواه ضلالا وباطلا (فانى تصرفون) يعنى اذا عرفتم هذا الامر الظاهر الواضح فكيف تستجيزون العدول عن الحق الى الضلال الباطل (كذلك) اى كما ثبت انه ليس بعد الحق الاالضلال (حقت) اى وجبت (كلمت ربك) فى الازل (على الذين فسقوا انهم لايؤمنون) قيل المراد بكلمة الله قضاؤه عليهم فى اللوح المحفوظ انهم لايؤمنون وقضاؤه لايرد ولايدافع (قل هل من شركائكم) اى قل يامحمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعنى هذه الاصنام التى تزعمون انها آلهة (من يبدا الخلق) يعنى من يقدر على ان

لنفسى ضرا ولانفعا الاماشاء الله) درجهم الى شهود الافعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ووجوب وقوع ذلك عنه بمشيئة الله ليعرفوا آثار القيامة ثم اوح الى ان القيامة الصغرى هى بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله (لكل امة اجل اذاجاء اجلهم فلايستأخرون ساعة ولايستقدمون قل ارايتم ان اتاكم عذابه بياتا اونهارا ماذا يستعجل منه المجرمون اثم اذا ماوقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الابما كنتم تكسبون ويستنبؤنك احق هو قل اى وربى انه لحق وماانتم بمعجزين ولو ان لكل نفس ظلمت مافى الارض لافتدت به واسروا الندامة لمارأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون الا ان لله مافى السموات والارض الا ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لايعلمون هو يحيى ويميت واليه ترجعون ياايها الناس قدجاءتكم موعظة من ربكم) اى تزكية لنفوسكم بالوعد والوعيد

يبتدئ الخلق على غير مثال سبق (ثم يعيده) اى ثم يعيده بعد الموت كهيئته اول مرة وهذا السؤال استفهام انكار (قل) اى قل انت يا محمد (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) يعنى ان الله هو القادر على ابتداء الخلق واعادته (فانى تؤفكون) يعنى فانى تصرفون عن قصد السبيل والمراد من هذا التعجب من احوالهم كيف تركوا هذا الامر الواضح وعدلوا عنه الى غيره (قل) اى قل يا محمد (هل من شركائكم من يهدى الى الحق) يعنى هل من هذه الاصنام من يقدر على ان يرشد الى الحق فاذا قالوا لا ولابد لهم من ذلك (قل) اى قل لهم انت يا محمد (الله يهدى للحق) يعنى ان الله هو الذى يرشد الى الحق لا غيره (افمن يهدى الى الحق احق ان يتبع امن لا يهدى الا ان يهدى) يعنى ان الله هو الذى يهدى الى الحق فهو احق بالاتباع لا هذه الاصنام التى لا تهدى الا ان تهدى فان قلت الاصنام جماد لا تتصور هدايتها ولا ان تهدى فكيف قال الا ان يهدى قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوها الاول ان معنى الهداية فى حق الاصنام الانتقال من مكان الى مكان فيكون المعنى انها لا تنتقل من مكان الى مكان آخر الا ان تحمل وتنقل فبين سبحانه وتعالى بهذا عجز الاصنام الوجه الثانى ان ذكر الهداية فى حق الاصنام على وجه المجاز وذلك ان المشركين لما اتخذوا الاصنام آلهة وانزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ويعلم ووصفها بهذه الصفة وان كان الامر ليس كذلك الوجه الثالث يحتمل ان يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الاصنام والمراد من قوله هل من شركائكم من يهدى الى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق الى الدين بما اظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته واما رؤساء الكفر والضلالة فانهم لا يقدرون على هداية غيرهم الا اذا هداهم الله الى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته اولى من اتباع غيره * وقوله سبحانه وتعالى (فما لكم كيف تحكمون) قال الزجاج فما لكم كلام تام كانه قيل لهم اى شئ لكم فى عبادة هذه الاصنام ثم قال كيف تحكمون يعنى على اى حال تحكمون وقيل معناه كيف تقضون لانفسكم بالجور حين تزعمون ان مع الله شريكا وقيل معناه بئسما حكمتم اذ جعلتم لله شريكا من ليس بيده منفعة ولا مضرة ولا هداية (وما يتبع اكثرهم الا ظنا) يعنى وما يتبع اكثر هؤلاء المشركين الا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته بل هم فى شك منه وريبة وقيل المراد بالاكثر الكل لان جميع المشركين يتبعون الظن فى دعواهم ان الاصنام تشفع لهم وقيل المراد بالاكثر الرؤساء (ان الظن لا يغنى من الحق شيأ) يعنى ان الشك لا يغنى عن اليقين شيأ ولا يقوم مقامه وقيل فى الآية ان قولهم ان الاصنام آلهة وانها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا رسول يعنى انها لا تدفع عنهم من عذاب الله شيأ (ان الله عليم بما يفعلون) يعنى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين * قوله تعالى (وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله) يعنى وما كان ينبغى لهذا القرآن ان يختلق ويفتعل لان معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شئ يمكن ان يفترى به على الله لان المفترى هو الذى يأتى به البشر وذلك ان كفار مكة زعموا ان محمدا صلى الله عليه وسلم اتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله عز وجل ان هذا القرآن وحى انزله الله عليه وانه مبرأ عن الافتراء والكذب وانه لا يقدر عليه احد الا الله تعالى ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يؤكد هذا بقوله (ولكن تصديق الذى بين يديه) يعنى ولكن الله انزل هذا القرآن مصدقا لما قبله من الكتب التى

(انزلها)

والانذار والبشارة والزجر عن الذنوب المورطة فى العقاب والتحريض على الاعمال الموجبة للثواب لتعلوا على الخوف والرجاء (وشفاء لما فى الصدور) اى القلوب من امراضها كالشك والنفاق والغل والغش وامثال ذلك بتعليم الحقائق والحكم الموجبة لليقين وتصفيتها لقبول المعارف والتنور بنور التوحيد والتهيئ لتجليات الصفات (وهدى) لارواحكم الى الشهود الذاتى (ورحمة) بافاضة الكمالات اللائقة بكل مقام من المقامات الثلاث بعد حصول الاستعداد فى مقام النفس بالموعظة ومقام القلب بالتصفية ومقام الروح بالهداية (للمؤمنين) بالتصديق اولا ثم باليقين ثانيا ثم بالعيان ثالثا (قل بفضل الله) اى بتوفيقه للقبول فى المقامات الثلاثة (وبرحمته) بالمواهب الخلقية والعلية والكشفية فى المراتب الثلاث فليعتنوا وان كانوا يفرحون (فبذلك فليفرحوا) لا بالامور الفانية القليلة المقدار الدنيئة القدر والوقع (هو خير مما يجمعون)

انزلها على انبيائه كالتوراة والانجيل وتقرير هذا ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان اميا لايقرأ ولا يكتب ولم يجتمع باحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم اتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه اخبار الاولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما فى التوراة والانجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لقدحوا فيه لعداوة اهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه احد من اهل الكتاب علم بذلك ان مافيه من القصص والاخبار مطابقة لما فى التوراة والانجيل مع القطع بانه ماعلم مافيها فثبت بذلك انه وحى من الله انزله عليه وانه مصدق لما بين يديه وانه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل فى معنى قوله ولكن تصديق الذى بين يديه يعنى من اخبار الغيوب الآتية فانها جاءت على وفق ما اخبر (وتفصيل الكتاب) يعنى وتبيين مافى الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والاحكام (لاريب فيه من رب العالمين) يعنى ان هذا القرآن لاشك فيه انه من رب العالمين وانه ليس مفترى على الله وانه لايقدر احد من البشر على الاتيان بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى (ام يقولون افتراه) يعنى ام يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن واختلقه من قبل نفسه وهو استفهام انكار وقيل ام بمعنى الواو اى ويقولون افتراه (قل) اى قل لهم يامحمد ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) يعنى بسورة شبيهة به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثلى فى الفصاحة والبلاغة فان قلت قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فاتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما قلت لما كان محمد صلى الله عليه وسلم اميا لم يقرأ ولم يكتب واتى بهذا القرآن العظيم كان معجزا فى نفسه فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعنى من انسان امى مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه فى عدم الكتابة والقراءة واما قوله سبحانه وتعالى فاتوا بسورة مثله اى فاتوا بسورة تساوى سور القرآن فى الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعنى ان السورة فى نفسها معجزة فان الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) يعنى وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه (ان كنتم صادقين) يعنى فى قولكم ان محمدا افتراه ثم قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يعنى القرآن اى كذبوا بما لم يعلموه قال عطاء يريد انه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن وقيل معناه بل كذبوا بما فى القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه لانهم كانوا ينكرون ذلك كله وقيل انهم لما سمعوا مافى القرآن من القصص واخبار الامم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك انكروها لجهلهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لان القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة لايقدر احد على استيعابها وتحصيلها (ولما يأتهم تأويله) يعنى انهم كذبوا به ولم يأتهم بعد بيان مايؤل اليه ذلك الوعيد الذى توعدهم الله فى القرآن به من العقوبة والمعنى انهم لم يعلموا ماتؤل اليه عاقبة امرهم وقيل معناه انهم لم يعلموه تنزيلا ولا علموه تأويلا فكذبوا به وذلك لانهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعنى كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الامم الماضية انبياءهم فيما وعدوهم به (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم اى فانظر يامحمد كيف كان عاقبة من ظلم من الامم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم

من الخسائس الفاسدة والمحقرات الزائلة من جملة الحطام ان كانوا اصحاب دراية وفطنة وارباب قدر وهمة (قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق) الى آخره اى اخبرونى ماأنزل الله من رزق معنوى كالحقائق والمعارف والاحوال والمواهب وكالآداب والشرائع والمواعظ والنصائح (فجعلتم منه) بعضه (حراما) كالقسم الاول (و) بعضه (حلالا) كالقسم الثانى (قل الله أذن لكم) فى الحكم بالتحريم والتحليل (أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيمة) الوسطى بتجرد القلب عن ملابس النفس وحصول اليقين اويوم القيامة الكبرى بالتوحيد الذاتى وظهور العيان اى لايبقى ظنهم وليس شيأ حينئذ اويوم القيامة الصغرى بالموت وحصول الحرمان اى يكون ظنهم وبالا عذابا حينئذ (ان الله لذو فضل على الناس) بصنفى العلمين وافاضتهما وتوفيق القبول لهما وتهيئة الاستعداد لقبولهما (ولكن اكثرهم لايشكرون) نعمته

وقيل يحتمل ان يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر ايها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر ان تفعل مثل فعله ❊ قوله عزوجل (ومنهم من يؤمن به) يعني ومن قومك يا محمد من سيؤمن بالقرآن (ومنهم من لا يؤمن به) لعلم الله السابق فيه انه لا يؤمن (وربك اعلم بالمفسدين) يعني الذين لا يؤمنون (وان كذبوك) يعني وان كذبك قومك يا محمد (فقل) اي فقل لهم (لي عملي) يعني الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) يعني الشرك وجزاء عقابه (انتم بريؤن مما اعمل وانا برئ مما تعملون) قيل المراد منه الزجر والرجوع وقال مقاتل والكلبي هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الامام فخر الدين الرازي وهو بعيد لان شرط الناسخ ان يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول الآية اختصاص كل واحد بافعاله وبثمرات افعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا ❊ قوله تعالى (ومنهم) يعني ومن هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) يعني باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك (افانت تسمع الصم) يعني كما انك لا تقدر على اسماع الصم فكذلك لا تقدر على اسماع من اصمه الله سمع قلبه (ولو كانوا لا يعقلون) يعني ان الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال اذا لم يتنفعوا بما يسمعوه اهم ايضا كالصم الذين لا يعقلون شيأ ولا يفهمونه لعدم التوفيق (ومنهم من ينظر اليك) يعني بابصارهم الظاهرة (افانت تهدي العمي) يريد عمي القلوب (ولو كانوا لا يبصرون) لان الله اعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيأ من الهدى وفي هذا تسلية من الله عزوجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يقول الله عزوجل انك لا تقدر ان تسمع من سلبته السمع ولا تقدر ان تهدي من سلبته البصر ولا تقدر ان توفق للايمان من حكمت عليه ان لا يؤمن (ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس انفسهم يظلمون) قال العلماء لما حكم الله عزوجل على اهل الشقوة بالشقاوة لقضائه وقدره السابق فيهم اخبر في هذه الآية ان تقدير الشقاوة عليهم ما كان ظلما منه لانه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالما وانما قال ولكن الناس انفسهم يظلمون لان الفعل منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم ❊ قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم) يعني واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب واصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم (كان لم يلبثوا الا ساعة من النهار) يعني كانهم لم يلبثوا في الدنيا الا قدر ساعة من النهار وقيل معناه كانهم لم يلبثوا في قبورهم الا قدر ساعة من النهار والوجه الاول اولى لان حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمقدار لبثهم في القبور الى وقت الحشر فتعين حمله على امر يختص بحال الكافر وهو انهم لما لم ينتفعوا باعمارهم في الدنيا استقلوها والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله وسبب استقلال الكفار مدة مقامهم في الدنيا انهم لما ضيعوا اعمارهم في طلب الدنيا والحرص على ما فيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه وقيل انهم لما شاهدوا اهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك استقلوا مدة مقامهم في الدنيا لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جدا يتعارفون بينهم يعني يعرف بعضهم بعضا اذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا ثم تنقطع المعرفة بينهم اذا عاينوا اهوال

فليستعملوا ما وهب لهم من الاستعداد والعلوم في تحصيل المنافع الجزئية والمطالب الحسية ويكفرون نعمته فيحرمون عن الزيادة (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين) الا ان اولياء الله) المستغرقين في عين الهوية الاحدية بفناء الانية (لا خوف عليهم) اذ لم يبق منهم بقية خافوا بسببها من حرمان ولا غاية وراء ما بلغوا فيخافوا من حجبه (ولا هم يحزنون) لامتناع فوات شئ من الكمالات واللذات منهم فيحزنوا عليه وعن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل منهم فقال هم الذين يذكرون الله برؤيتهم وهذا رمز لطيف منه عليه السلام وعن عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ما هم بانبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة

يوم القيامة وفى بعض الآثار ان الانسان يوم القيامة يعرف من تحبه ولايقدر ان يكلمه هيبة
وخشية وقيل ان احوال يوم القيامة مختلفة ففى بعضها يعرف بعضهم بعضا وفى بعضها ينكر
بعضهم بعضا لهول مايعاينون فى ذلك اليوم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعنى ان من باع
آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفانى على الباقى (وما كانوا مهتدين) يعنى الى
مايصلحهم وينجيهم من هذا الخسار (واما نرينك) يعنى يا محمد (بعض الذى نعدهم) يعنى
مانعدهم به من العذاب فى الدنيا فذاك (او نتوفينك) قبل ان نريك ذلك الوعد فى الدنيا فانك ستراه
فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى (فالينا مرجعهم) يعنى فى الآخرة وفيه دليل على ان الله
يرى رسوله صلى الله عليه وسلم انواعا من عذاب الكافرين وذلهم وخزيهم فى حال حياته فى الدنيا
وقد اراه ذلك فى يوم بدر وغيره من الايام وسيريه مااعدلهم من العذاب فى الآخرة بسبب كفرهم
وتكذيبهم (ثم الله شهيد على مايفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم يعنى انه سبحانه وتعالى شاهد
على افعالهم التى فعلوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة * قوله عز وجل (ولكل امة رسول)
لما بين الله عز وجل حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال الانبياء مع اممهم كذلك
فقال تعالى ولكل امة يعنى قد خلت وتقدمت قبلكم رسول يعنى مبعوثا اليهم يدعوهم الى الله
والى طاعته والايمان به (فاذا جاء رسولهم) فى هذا الكلام اضمار تقديره فاذا جاءهم رسولهم
وبلغهم ماارسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون (قضى بينهم بالقسط) يعنى حكم بينهم
بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان احدهما انه فى الدنيا وذلك ان الله سبحانه
وتعالى ارسل الى كل امة رسولا لتبليغ الرسالة واقامة الحجة وازالة العذر فاذا كذبوا رسلهم
وخالفوا امر الله قضى بينهم وبين رسلهم فى الدنيا فيهلك الكافرين وينجى رسلهم والمؤمنين
ويكون ذلك عدلا لاظلما لان قبل مجئ الرسول لايكون ثواب ولاعقاب * القول الثانى ان وقت
القضاء فى الآخرة وذلك ان الله اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم والفصل بين
المؤمن والكافر والطائع والعاصى جئ بالرسل لتشهد عليهم والمراد من ذلك المبالغة فى اظهار
العدل وهو قوله تعالى (وهم لايظلمون) يعنى من جزاء اعمالهم شيأ ولكن يجازى كل احد على
قدر عمله وقيل معناه انهم لايعذبون بغير ذنب ولايؤاخذون بغير حجة ولاينقص من حسناتهم
ولايزاد على سيآتهم (ويقولون) يعنى هؤلاء الكفار (متى هذا الوعد) يعنى الذى تعدنا به
يا محمد من نزول العذاب وقيل قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد
(ان كنتم صادقين) يعنى فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع لان كل امة قالت لرسولها كذلك
اويكون المعنى ان كنتم صادقين انت واتباعك يا محمد اوذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم (قل)
اى قل لهم يا محمد (لااملك لنفسى ضرا ولانفعا) يعنى لااملك لنفسى دفع ضر اوجلب نفع
ولااقدر على ذلك (الاماشاء الله) نعنى ان اقدر عليه اواملكه والمعنى ان انزال العذاب على
الاعداء واظهار النصر للاولياء وعلم قيام الساعة لايقدر عليه الا الله فتعيين الوقت الى الله سبحانه
وتعالى بحسب مشيئته ثم اذا حضر ذلك الوقت الذى وقته الله لحدوث هذه الاشياء فانه يحدث
لامحالة وهو قوله سبحانه وتعالى (لكل امة اجل) اى مدة مضروبة ووقت معين
(اذا جاء اجلهم) يعنى اذا انقضت مدة اعمارهم (فلايستأخرون ساعة ولايستقدمون)

لمكانهم من الله قالوا
يارسول الله خبرنا من هم
وما اعمالهم فلعلنا نحبهم قال
هم قوم تحابوا فى الله على
غير ارحام بينهم ولا اموال
يتعاطونها فوالله ان وجوههم
لنور وانهم لعلى منابر
من نور لايخافون اذا
خاف الناس ولايحزنون
اذا حزن الناس ثم قرأ الآية
قوله وانهم لعلى منابر
من نور يريد به اتصالهم
بالمبادى العالية الروحانية
كالعقل الاول ومايليه
(الذين آمنوا وكانوا
يتقون) ان جعل صفة
لاولياء الله فمعناه الذين
آمنوا الايمان الحق وكانوا
يتقون بقاياهم وظهور
تلويناتهم (لهم البشرى
فى الحيوة الدنيا) بوجود
الاستقامة فى الاعمال
والاخلاق المبشرة بجنة
النفوس (وفى الآخرة)
بظهور انوار الصفات
والحقائق الروحانية
والمعارف الحقانية عليهم
المبشرة بجنة القلوب
وحصول الذوق بهما
واللذة (لاتبديل لكلمات
الله ذلك هو الفوز العظيم)
لحقائقه الواردة عليهم
واسمائه المنكشفة لهم
واحكام تجلياته النازلة بهم

يعني لا يتأخرون عن ذلك الاجل الذي اجل لهم ولا يستقدمونه (قل) اى يامحمد لهؤلاء المشركين
من قومك (ارايتم ان اتاكم عذابه بياتا) يعني ليلا يقال بات يفعل كذا اذا فعله بالليل
والسبب فيه ان الانسان في الليل لا يكون الا في البيت غالبا فجعل الله هذه اللفظة كناية عن الليل
(او نهارا) يعني في النهار (ماذا يستعجل منه المجرمون) يعني ما الذي يستعجلون من نزول
العذاب وقد وقعوا فيه وحقيقة المعنى انهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كما اخبر الله سبحانه وتعالى
عنهم بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب
اليم فاجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله ماذا يستعجل منه المجرمون يعني اى شئ يعلم المجرمون
مايطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لغيره وقد فعل فعلا قبيحا ماذا جنيت على نفسك (اثم اذا
ما وقع) يعني اذا ما نزل العذاب ووقع (آمنتم به) يعني آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت
اليأس وقيل معناه صدقتم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع
(آلآن) فيه اضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون اى حين وقع العذاب (وقد كنتم به تستعجلون)
يعني تكذيبا واستهزاء (ثم قيل للذين ظلموا) يعني ظلموا انفسهم بسبب شركهم وكفرهم بالله
(ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) يعني في الدنيا من الاعمال * قوله
سبحانه وتعالى (ويستنبئونك احق هو) يعني ويستخبرونك يا محمدا حق ما تعدنا به من نزول العذاب
وقيام الساعة (قل اى وربي) اى قل لهم يا محمد نعم وربي (انه لحق) يعني ان الذي اعدكم به حق لاشك فيه
(وما انتم بمعجزين) يعني بفائتين من العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته (ولو ان لكل نفس ظلمت) يعني
اشركت (ما في الارض) يعني من شئ (لافتدت به) يعني يوم القيامة والافتداء بمعنى البذل لما ينجو به
من العذاب الا انه لا ينفعه الفداء ولا يقبل منه (واسروا الندامة) يعني يوم القيامة وانما جاء بلفظ
الماضي والقيامة من الامور المستقبلة لان احوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع جعل الله
مستقبلها كالماضي والاسرار يكون بمعنى الاخفاء وبمعنى الاظهار فهو من الاضداد فلهذا
اختلفوا في قوله واسروا الندامة فقال ابو عبيدة معناه واظهروا الندامة لان ذلك اليوم ليس يوم
تصبر وتصنع وقيل معناه اخفوا يعني اخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والاتباع خوفا من
ملامتهم اياهم وتعييرهم لهم (لما راوا العذاب) يعني حين عاينوا العذاب وابصروه (وقضى
بينهم بالقسط) يعني وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل بين الرؤساء والاتباع وقيل
بين الكفار لاحتمال ان بعضهم قد ظلم بعضا فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى
(وهم لا يظلمون) يعني في الحكم لهم وعليهم بأن يخفف من عذاب المظلوم ويشدد في عذاب
الظالم (الا ان لله ما في السموات والارض) يعني ان كل شئ في السموات والارض لله ملك له لا يشركه
فيه غيره فليس للكافر شئ يفتدى به من عذاب الله يوم القيامة لان الاشياء كلها لله وهو ايضا ملك لله
فكيف يفتدي من هو مملوك لغيره بشئ لا يملكه (الا ان وعد الله حق) يعني ما وعد الله به على لسان
نبيه صلى الله عليه وسلم من ثواب الطائع وعقاب العاصي حق لاشك فيه (ولكن اكثرهم لا يعلمون)
يعني حقيقة ذلك (هو يحيي ويميت) يعني الذي يملك ما في السموات والارض قادر على الاحياء والاماتة
لا يتعذر عليه شئ مما اراد (واليه ترجعون) يعني بعد الموت للجزاء * قوله عزوجل (يا ايها الناس
قد جاءتكم موعظة من ربكم) قيل اراد بالناس قريشا وقيل هو على العموم وهو الاصح وهو

وان جعل كلاما برأسه مبتدأ
فمعناه الذين آمنوا الايمان
اليقيني و كانوا يتقون
حجب صفات النفس وموانع
الكشف من التشكيكات
الوهمية والوساوس
الشيطانية لهم البشرى
في الحيوة الدنيا بوجدان
لذة برد اليقين في النفس
واطمئنانها بنزول السكينة
وفي الآخرة بوجدان
ذوق تجليات الصفات
أثر انوار المكاشفات
لاتبديل لكلمات الله من
علومهم اللدنية وحكمهم
اليقينية او فطرتهم التي
فطرهم الله عليها فان كل نفس
كلمة (ولا يحزنك قولهم
ان العزة لله جميعا) اى لا تتأثر به
فانه مراء وشاهد عزة الله
وقهره لتنظر اليهم بنظر
الفناء وترى اعمالهم واقوالهم
وما يهددونك به كالهباء
فمن شاهد قوة الله وعزته
يرى كل القوة والعزة له
لاقوة لاحد ولاحول
(انه هو السميع) لاقوالهم
فيك فيجازيهم (العليم) لما
ينبغي ان يفعل بهم من تبين
ضعفهم وعجزهم وامتناع
غلبتهم عليه بقوله (الا
ان لله من في السموات
ومن في الارض) كلهم
تحت ملكته وتصرفه

اختيار الطبرى قدجاءتكم موعظة من ربكم يعنى القرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب وقيل الموعظة مايدعو الى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة والقرآن داع الى كل خير وصلاح بهذا الطريق (وشفاء لما فى الصدور) يعنى ان القرآن ذو شفاء لما فى القلوب من داء الجهل وذلك لان داء الجهل اضر للقلب من داء المرض للبدن وامراض القلب هى الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة فالقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغلافه وهو اعز موضع فى بدن الانسان لمكان القلب فيه (وهدى) يعنى وهو هدى من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) يعنى ونعمة على المؤمنين لانهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم (قل بفضل الله وبرحمته) الباء فى بفضل الله متعلقة بمضمر استغنى عن ذكره لدلالة ماتقدم عليه وهو قوله قدجاءتكم موعظة من ربكم والفضل هنا بمعنى الافضال ويكون معنى الآية على هذا ياايها الناس قدجاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهو القرآن بافضال الله عليكم ورحمته بكم وارادته الخير لكم ※ثم قال سبحانه وتعالى (فبذلك فليفرحوا) اشار بذلك الى القرآن لان المراد بالموعظة والشفاء القرآن فترك اللفظ واشار الى المعنى وقيل فبذلك فليفرحوا اشارة الى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والانعام فليفرحوا قال الواحدى الفاء فى قوله تعالى فليفرحوا زائدة كقول الشاعر * فاذاهلكت فعند ذلك فاجزعى * فالفاء فى قوله فاجزعى زائدة وقال صاحب الكشاف فى معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ماعداهما من فوائد الدنيا فحذف احد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط وكانه قيل ان فرحوا بشئ فليخصوهما بالفرح فانه لامفروح به احق منهما والفرح لذة فى القلب بادراك المحبوب والمشتهى يقال فرحت بكذا اذا ادركت المأمول ولذلك اكثر ما يستعمل الفرح فى اللذات البدنية الدنيوية واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته اى بما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالايمان وسكون النفس اليه (هو خير مما يجمعون) يعنى من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب اهل المعانى فى هذه الآية واما مذهب المفسرين فغيرهذا قال ابن عباس والحسن وقتادة قالوا فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وقال ابوسعيد الخدرى فضل الله القرآن ورحمته ان جعلنا من اهله وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن وعلى هذا الباء فى بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره مابعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (قل) اى قل يامحمد لكفار مكة (ارايتم ماانزل الله لكم من رزق) يعنى من زرع وضرع وغيرهما وعبر عما فى الارض بالانزال لان جميع مافى الارض من خير ورزق فانما هو من بركات السماء (فجعلتم منه) يعنى من ذلك الرزق (حراما وحلالا) يعنى ماحرموه على انفسهم فى الجاهلية من الحرث والانعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى قال الضحاك وهو قوله سبحانه وتعالى وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والانعام نصيبا (قل آلله اذن لكم)

وقهره ولايقدرون على شئ بغير اذنه ومشيئته واقداره اياهم (ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) واى شئ يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء اى اذا كان الكل تحت قهره وملكته فما يتبعون من دون الله ليس بشئ ولا تأثيرله ولاقوة (ان يتبعون الا الظن) ماتتوهمونه فى ظنهم ويتخيلونه فى خيالهم وماهم الا يقدرون وجود شئ لاوجودله فى الحقيقة (هوالذى جعل لكم الليل) ليل الجسم (لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) ونهار الروح لتبصروا به حقائق الاشياء وماتهتدون به اليه (ان فى ذلك الآيات لقوم يسمعون) كلام الله به فيفهمون بواطنه وحدوده ويطلعون به على صفاته واسمائه فيشاهدونه موصوفا ومتسميا (قالوا اتخذ الله ولدا) اى معلولا يجانسه (سبحانه) انزهه عن مجانسة شئ (هو الغنى) الذى وجوده بذاته وبه وجود كل شئ فكيف يماثله شئ ومن له الوجود كله فكيف يجانسه شئ (له ما فى السموات ومافى الارض ان عندكم من سلطان بهذا

أتقولون على الله ما تعلمون قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون واتل عليهم نبأ نوح) فى صحة توكله على الله ونظره الى قومه والى شركائهم بعين الفناء وعدم مبالاته بهم وبمكايدهم ليعتبروا به حالك فان الانبياء كلهم فى ملة التوحيد والقيام بالله وعدم الالتفات الى الخلق سواء اذ قال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجرى الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا

يعنى قل لهم يامحمد آلله اذن لكم فى هذا التحريم والتحليل (ام على الله تفترون) يعنى بل انتم كاذبون على الله فى ادعائكم ان الله امرنا بهذا (وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) يعنى اذا لقوه يوم القيامة أيحسبون انه لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على اعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفترى على الله الكذب (ان الله لذو فضل على الناس) يعنى ببعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام (ولكن اكثرهم لا يشكرون) يعنى لا يشكرون الله على ذلك الفضل والاحسان * قوله سبحانه وتعالى (وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وحده والشأن الخطب والحال والامر الذى يتفق ويصلح ولا يقال الا فيما يعظم من الاحوال والامور والجمع الشؤن تقول العرب ماشأن فلان اى ماحاله والشأن اسم اذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدرا اذا كان معناه القصد والذى فى هذه الآية يجوز ان يكون المراد به الاسم قال ابن عباس معناه وماتكون يامحمد فى شأن يريد من اعمال البر وقال الحسن فى شأن من شؤن الدنيا وحوائجك ويجوز ان يكون المراد منه القصد يعنى قصد الشئ وماتتلو منه من قرآن اختلفوا فى الضمير فى منه الى ماذا يعود فقيل يعود الى الشأن اذ تلاوة القرآن شأن من شؤن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو اعظم شؤنه فعلى هذا يكون داخلا تحت قوله تعالى وما تكون فى شأن الا انه سبحانه وتعالى خصه بالذكر لشرفه وعلو مرتبته وقيل انه راجع الى القرآن لانه قد تقدم ذكره فى قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته فعلى هذا يكون المعنى وماتتلو من القرآن من قرآن يعنى من سورة وشئ منه لان لفظ القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه وقيل الضمير فى منه راجع الى الله والمعنى وماتتلو من الله من قرآن نازل عليك * واما قوله سبحانه وتعالى (ولا تعملون من عمل) فانه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وامته داخلون فيه ومرادون به لان من المعلوم انه اذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ولا تعملون من عمل على صيغة الجمع فدل على انهم داخلون فى الخطابين الاولين * وقوله سبحانه وتعالى (الا كنا عليكم شهودا) يعنى شاهدين لاعمالكم وذلك لان الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شئ وعالم بكل شئ لانه لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل مايدخل فى الوجود من احوال العباد واعمالهم الظاهرة والباطنة داخل فى علمه وهو شاهد عليه (اذ تفيضون فيه) يعنى ان الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون فى ذلك العمل والافاضة الدخول فى العمل على جهة الانصباب اليه والانبساط فيه وقال ابن الانبارى معناه اذ تدفعون فيه وتنبسطون فى ذكره وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنتشرون فيه يقال افاض القوم فى الحديث اذا انتشروا فيه (وما يعزب عن ربك) يعنى ومايبعد ويغيب عن ربك يامحمد من عمل خلقه شئ لانه عالم به وشاهد عليه واصل العزوب البعد يقال منه كلام عازب اذا كان بعيد المطلب (من مثقال ذرة) يعنى وزن ذرة والمثال الوزن والذرة النملة الصغيرة الحمراء وهى خفيفة الوزن جدا (فى الارض ولا فى السماء) فان قلت لم قدم ذكر الارض على السماء هنا وقدم ذكر السماء على الارض فى سورة سبأ وما فائدة ذلك قلت كان حق السماء ان يقدم على الارض كما فى سورة سبأ الا انه تعالى لما ذكر فى هذه الآية شهادته على اهل الارض واحوالهم واعمالهم ثم وصل ذلك بقوله ومايعزب عن

(ربك)

ربك حسن تقديم الارض على السماء فى هذا الموضع لهذه الفائدة (ولا اصغر من ذلك) يعنى من الذرة (ولا اكبر) يعنى منها (الا فى كتاب مبين) يعنى فى اللوح المحفوظ * قوله سبحانه وتعالى (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) اعلم اننا نحتاج اولا فى تفسير هذه الآية ان نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولى فنقول اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس فى هذه الآية هم الذين يذكرون الله لرؤيتهم وروى الطبرى بسنده عن سعيد بن جبير مرسلا قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اولياء الله فقال هم الذين اذا رؤا ذكر الله وقال ابن زيد هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الايمان الا بالتقوى وقال قوم هم المتحابون فى الله ويدل على ذلك ماروى عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله لاناسا ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يارسول الله تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير ارحام بينهم ولا اموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس وقرأ هذه الآية الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون اخرجه ابو داود عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة اين المتحابون بجلالى اليوم اظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى اخرجه مسلم عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى المتحابون بجلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء اخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن ابى مالك الاشعرى قال كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان لله عبيدا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة قال وفى ناحية القوم اعرابى فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال حدثنا يارسول الله عنهم من هم قال فرأيت فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم البشر فقال هم عباد من عباد الله ومن بلدان شتى وقبائل شتى ولم يكن بينهم ارحام يتواصلون بها ولا دنيا يتباذلون بها يتحابون بروح الله يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى ان اوليائى من عبادى الذين يذكرون بذكرى واذكر بذكرهم هكذا ذكره البغوى بغير سند وروى الطبرى بسنده عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله عبادا يغبطهم الانبياء والشهداء قيل من هم يارسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله من غير اموال ولا انساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الغبطة نوع من الحسد الا ان الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة ان الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هى ان يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التى هى على المغبوط من غير زوال عنه وقال ابو بكر الاصم اولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة اليه واصل الولى من الولاء وهو القرب والنصرة فولى الله هو الذى يتقرب الى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتغلا بالله مستغرق القلب فى معرفة نور جلال الله فان رأى رأى دلائل قدرة الله وان سمع سمع آيات الله وان نطق نطق بالثناء على الله وان تحرك

وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا ولا يفلح الساحرون قالوا اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الارض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون فلما القوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم وان فرعون لعال فى الارض وانه لمن المسرفين وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) اى ايمانا يقينيا (فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) جعل التوكل من لوازم الاسلام وهو اسلام الوجه لله تعالى ولم يجعل الاسلام لوازم الايمان اى ان كل ايمانكم ويقينكم بحيث اثر فى نفوسكم وجعلها خالصة لله فانية فيه لزم التوكل عليه فان اول مرتبة الفناء هو فناء الافعال ثم الصفات ثم الوجود فان

ثم الفناء لزم التوكل الذى هو فناء الافعال وان اريد الاسلام بمعنى الانقياد كان شرطا فى التوكل لاملزوماله وحينئذ يكون معناه ان صح ايمانكم يقينا فعليه توكلوا بشرط ان لايكون لكم فعل ولا تروا لانفسكم ولالغير كم قوة وتاثيرا بل تكونوا منقدين كالميت فان شرط صحة التوكل فناء بقايا الافعال والقوى كما تقول ان كرهت هذا الشجر فاقامه ان قدرت والباقى الى آخر السورة بعضه لايقبل التاويل وبعضه معلوم مما مر (فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين واوحينا الى موسى واخيه ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلوة وبشر المؤمنين وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلايؤمنوا حتى يروا العذاب اليم قال قد اجيبت دعوتكما

تحرك فى طاعة الله وان اجتهد اجتهد فيما يقربه الى الله لايفتر عن ذكر الله ولايرى بقلبه غير الله فهذه صفة اولياء الله واذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى الله ولى الذين آمنوا وقال المتكلمون ولى الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ويكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ماوردت به الشريعة واليه الاشارة بقوله الذين آمنوا وكانوا يتقون وهو ان الايمان مبنى على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو ان يتقى العبد كل مانهى الله عنه وقوله سبحانه وتعالى لاخوف عليهم يعنى فى الآخرة اذا خاف غيرهم ولاهم يحزنون يعنى على شئ فاتهم من نعيم الدنيا ولذا انها قال بعض المحققين زوال الخوف والحزن عنهم انما يحصل لهم فى الآخرة لان الدنيا لاتخلو من هم وغم وانكار وحزن قال بعض العارفين ان الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله واذا كان العبد بهذه الحالة فلايخاف من شئ ولايحزن على شئ لان مقام الولاية والمعرفة منعه من ان يخاف او يحزن * واما قوله سبحانه وتعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) فقد تقدم تفسيره وانه صفة لاولياء الله * وقوله سبحانه وتعالى (لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة) اختلفوا فى هذه البشرى فروى عن عبادة بن الصامت قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى لهم البشرى فى الحياة الدنيا قال هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن او ترى له اخرجه الترمذى وله عن رجل من اهل مصر قال سألت ابا الدرداء عن هذه الآية لهم البشرى فى الحياة الدنيا قال ماسألنى عنها احد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وقال ماسألنى عنها احد غيرك منذ نزلت هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم او ترى له قال الترمذى حديث حسن (خ) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يبق بعدى من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة واربعين جزأ من النبوة لفظ البخارى ولمسلم اذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب واصدقكم رؤيا اصدقكم حديثا ورؤيا المسلم جزء من خمسة واربعين جزء من النبوة والرؤيا ثلاث الرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه قال بعض العلماء ووجه هذا القول انا اذا حملنا قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضى ان لاتحصل هذه الحالة الا لهم وذلك لان ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل ومن كان كذلك فانه عند النوم لايبقى فى قلبه غير ذكر الله ومعرفته ومن المعلوم ان معرفة الله فى القلب لاتفيد الا الحق والصدق فاذا رأى الولى رؤيا اورؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولى قال الخطابى فى هذه الاحاديث توكيد لامر الرؤيا وتحقيق منزلتها وانما كانت جزأ من اجزاء النبوة فى حق الانبياء دون غيرهم وكان الانبياء عليهم السلام يوحى اليهم فى منامهم كما يوحى اليهم فى اليقظة قال الخطابى قال بعض العلماء معنى الحديث ان الرؤيا تأتى على موافقة النبوة لانها جزء من النبوة وقال الخطابى وغيره فى معنى قوله الرؤيا جزء من ستة واربعين جزأ من النبوة اقام النبى صلى الله عليه وسلم فى النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح وكان قبل ذلك بستة اشهر يرى فى المنام الوحى فهى جزء من ستة واربعين جزأ وقيل ان المنام لعل ان يكون فيه اخبار بغيب وهو احد مراتب النبوة وهو يسير فى جانب النبوة لانه لايجوز ان يبعث الله بعد

محمد صلى الله عليه وسلم نبيا يشرع الشرائع ويبين الاحكام ولا يخبر بغيب ابدا فاذا وقع لاحد في المنام الاخبار بغيب يكون هذا القدر جزأ من النبوّة لانه نبي واذا وقع ذلك لاحد في المنام يكون صدقا والله اعلم وقيل في تفسير الآية ان المراد بالبشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة ويدل على ذلك ماروى عن ابي ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن اخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين النووي قال العلماء معنى هذا البشرى المعجلة له بالخير وهي دليل للبشرى المؤخرة له في الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه الى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول في الارض هذا كله اذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم والا فالتعرض مذموم قال بعض المحققين اذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نورا فيفيض من ذلك النور الذي في قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع فيحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه وقال الزهري وقتادة في تفسير البشرى هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون وقال عطاء عن ابن عباس البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة في الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها الى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هي ما بشر الله به المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى (لا تبديل لكلمات الله) يعني لا خلف لوعد الله الذي وعده اولياءه واهل طاعته في كتابه وعلى السنة رسله ولا تغيير لذلك الوعد (ذلك هو الفوز العظيم) يعني ما وعدهم به في الآخرة (ولا يحزنك قولهم) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين لك ولا يغمك تخويفهم اياك (ان العزة لله جميعا) يعني ان القهر والغلبة والقدرة لله جميعا هو المنفرد بها دون غيره وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم وقال سعيد بن المسيب ان العزة لله جميعا فيعز من يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى في آية اخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولا منافاة بين الآيتين فان عزة الرسول صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين باعزاز الله اياهم فثبت بذلك ان العزة لله جميعا وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة اموالهم واولادهم وعبيدهم فاخبر الله سبحانه وتعالى ان جميع ذلك لله وفي ملكه فهو قادر على ان يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع) لاقوالكم ودعائكم (العليم) بجميع احوالكم لا تخفى عليه خافية * قوله سبحانه وتعالى (الا ان لله من في السموات ومن في الارض) الا كلمة تنبيه ومعناه انه لا ملك لاحد في السموات ولا في الارض الا الله عز وجل فهو يملك من في السموات ومن في الارض فان قلت قال سبحانه وتعالى في الآية التي قبل هذه الا ان لله ما في السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى في هذه الآية بلفظة من فما فائدة ذلك قلت ان لفظة ما تدل على ما لا يعقل ولفظة من تدل على من يعقل فمجموع الآيتين يدل على ان الله عز وجل يملك جميع من في السموات ومن في الارض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفي ملكه وقيل ان لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن في السموات الملائكة العقلاء ومن في الارض الانس والجن وهم العقلاء ايضا وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا كان هؤلاء

فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ان الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم

العقلاء المميزون فى ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الاولى ان يكونوا فى ملكه اذا ثبت هذا فتكون الاصنام التى يعبدها المشركون ايضا فى ملكه وتحت قبضته وقدرته ويكون ذلك قدحا فى جعل الاصنام شركاء لله معبودة دونه (ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) لفظة ما استفهامية معناه واى شئ يتبع الذين يدعون من دن الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعنى انهم ليسوا على شئ لانهم يعبدونها على انها شركاء لله تشفع لهم وليس الامر على مايظنون وهو قوله سبحانه وتعالى (ان يتبعون الا الظن) يعنى ان فعلهم ذلك ظن منهم انها تشفع لهم وانها تقربهم الى الله وذلك ظن منهم لاحقيقة له (وان هم الا يخرصون) يعنى ان هم الا يكذبون * قوله عزوجل (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) يعنى هو الله ربكم الذى خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه وليزول التعب والكلال بالسكون فيه واصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصرا وجعل النهار مضيئا لتهتدوا فيه لحوائجكم واسباب معايشكم واضاف الابصار الى النهار وانما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوما من كلام العرب معناه خاطبهم بلغتهم ومايفهمونه قال جرير * لقد لمتنا ياام عيلان فى السرى * ونمت وما ليل المطى بنائم فاضاف النوم الى الليل ووصفه به وانما عنى نفسه وانه لم يكن نائما هو ولا بعيره وهذا من باب نقل الاسم من المسبب الى السبب قال قطرب تقول العرب اظلم الليل وابصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء * قوله تعالى (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) يعنى يسمعون سمع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذى خلق هذه الاشياء كلها هو الاله المعبود المنفرد بالوحدانية فى الوجود (قالوا) يعنى المشركين (اتخذ الله ولدا) يعنى به قولهم الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد (هو الغنى) يعنى انه سبحانه وتعالى هو الغنى عن جميع خلقه فكيف يليق بجلاله اتخاذ الولد وانما يتخذ الولد من هو محتاج اليه والله تعالى هو الغنى المطلق وجميع الاشياء محتاجة اليه وهو غنى عنها (له مافى السموات ومافى الارض) يعنى انه مالك مافى السموات ومافى الارض وكلهم عبيده وفى قبضته وتصرفه وهو محدثهم وخالقهم ولما نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد عطف على من قال ذلك بالانكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى (ان عندكم من سلطان بهذا) يعنى انه لاحجة عندكم على هذا القول البتة ثم بالغ فى الانكار عليهم بقوله تعالى (اتقولون على الله مالا تعلمون) يعنى اتقولون على الله قولا لاتعلمون حقيقته وصحته وتضيفون اليه مالايجوز اضافته اليه جهلا منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان (قل ان الذين يفترون على الله الكذب) اى قل يامحمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل ويزعمون ان له ولدا (لايفلحون) يعنى لايسعدون وان اغتروا باطول السلامة والبقاء فى النعمة والمعنى ان قائل هذا القول لاينجح فى سعيه ولايفوز بمطلوبه بل خاب وخسر قال الزجاج هذا وقف تام يعنى قوله لايفلحون ثم ابتدا فقال تعالى (متاع فى الدنيا) وفيه اضمار تقديره لهم متاع فى الدنيا يتمتعون به مدة اعمارهم وانقضاء آجالهم فى الدنيا وهى ايام يسيرة بالنسبة الى طول مقامهم فى العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى (ثم الينا مرجعهم) يعنى بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) يعنى ذلك العذاب بسبب ما كانوا يجحدون فى الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه

عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا ومتعناهم الى حين ولوشاء ربك لامن من فى الارض كلهم جميعا افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لايعقلون قل انظروا ماذا فى السموات والارض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون فهل ينتظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين قل ياايها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم وامرت ان اكون من المؤمنين وان اقم وجهك للدين حنيفا ولاتكونن من المشركين ولاتدع من دون الله مالاينفعك ولايضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الاهو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم قل

بمالايليق بجلاله * قوله سبحانه وتعالى (واتل عليهم نبأنوح) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه
السورة احوال كفارقريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعدذلك فى بيان قصص
الانبياء وماجرى لهم مع اممهم ليكون فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة بمن سلف
من الانبياء وتسلية له ليخف عليه مايلقى من اذى قومه وان الكفار من قومه اذا سمعوا هذه
القصص وما جرى لكفار الامم الماضية من العذاب والهلاك فى الدنيا كان ذلك سببا لخوف
قلوبهم وداعيالهم الى الايمان ولما كان قوم نوح اول الامم هلاكا واعظمهم كفراوجحوداذكر الله
قصتهم وانه اهلكهم بالغرق ليصيرذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال سبحانه وتعالى واتل
عليهم نبأنوح يعنى واقراعلى قومك يامحمد خبرقوم نوح (اذقال لقومه ياقوم) وهم بنوقابيل
(ان كان كبر) يعنى ثقل (عليكم مقامى) يعنى فيكم (وتذكيرى بآيات الله) يعنى ووعظى
اياكم بآيات الله وقيل معناه ان كان ثقل وشق عليكم طول مقامى فيكم وذلك انه عليه الصلاة
والسلام اقام فيهم الف سنة الاخمسين عاما يدعوهم الى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله
وتذكيرى بآيات الله يعنى ووعظى بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلى وطردى (فعلى
الله توكلت) يعنى فهو حسبى وثقتى (فاجمعوا امركم) يعنى فاحكموا امركم واعزموا عليه قال الفراء
الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر وقال ابن الانبارى المراد من الامر هنا وجوه كيدهم ومكرهم
فالتقدير لاتدعوا من امركم شيأ الا احضرتموه (وشركاءكم) يعنى وادعوا شركاءكم يعنى آلهتكم
فاستعينوا بها لتجتمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وانما حثهم على الاستعانة بالاصنام بناء على مذهبهم
واعتقادهم انها تضر وتنفع مع اعتقاده انها جماد لاتضر ولاتنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم (ثم
لايكن امركم عليكم غمة) يعنى لايكن امركم عليكم خفيا مبهما ولكن امركم ظاهرا منكشفا من قولهم
غم الهلال فهو مغموم اذاخفى والتبس على الناس (ثم اقضوا) ثم امضوا (الى) بما فى انفسكم من مكروه
وماتوعدونى به من قتل وطرد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان اذامات ومضى وقيل
معناه ثم اقضوا ماانتم قاضون (ولاتنظرون) اى ولاتؤخرونى ولاتمهلونى بعد اعلامكم اياى
ماانتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم اخبر الله عزوجل عن نوح
عليه السلام انه كان قدبلغ الغاية فى التوكل على الله وانه كان واثقا بنصره اياه غير خائف
من كيدهم علما منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولاضر وان مكرهم لايصل اليه (فان توليتم)
يعنى فان اعرضتم عن قولى وقبول نصحى (فماسألتكم من اجر) يعنى من جعل وعوض على
تبليغ الرسالة فاذالم يأخذ على تبليغ الدعوة الى الله شيأ كان اقوى تأثيرا فى النفس (ان اجرى الا
على الله) اى ماثوابى وجزائى على تبليغ الرسالة الا على الله (وامرت ان اكون من المسلمين) يعنى
انى امرت بدين الاسلام وانا ماض فيه غير تارك له سواء قبلتموه ام لم تقبلوه وقيل معناه وامرت
ان اكون من المستسلمين لامر الله ولكل مكروه يصل الى منكم لاجل هذه الدعوة (فكذبوه) يعنى
فكذبوا نوحا عليه السلام (فنجيناه ومن معه فى الفلك) يعنى فى السفينة (وجعلناهم خلائف)
يعنى وجعلنا الذين نجيناهم معه فى الفلك سكان الارض بعد الهالكين (واغرقنا الذين كذبوا
بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) اى فانظر يامحمد ويا ايها الانسان كيف كان آخر امر من
انذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك (ثم بعثنا من بعده) يعنى من بعد نوح (رسلا الى قومهم) لم يسم

يا ايها الناس قدجاءكم الحق
من ربكم فمن اهتدى فانما
يهتدى لنفسه ومن ضل فانما
يضل عليها وماانا عليكم
بوكيل واتبع مايوحى
اليك واصبر حتى
يحكم الله وهو خير الحاكمين

* سورة هود *

* بسم الله الرحمن الرحيم *
(الر كتاب) مرّ ذكره
(احكمت آياته) اى اعيانه
وحقائقه فى العالم الكلى
بأن اثبتت دائمة على حالها
لاتتبدل ولاتتغير ولاتفسد
محفوظة عن كل نقص
وآفة (ثم فصلت) فى العالم
الجزئى وجعلت مبينة
فى المظاهر معينة بقدر
معلوم (من لدن حكيم)
اى احكامها وتفصيلها
من لدن حكيم بناها على
علم وحكمة لايمكن احسن
منها واشد احكاما
(خبير) بتفاصيلها على
ماينبغى فى النظام الحكمى
فى تقديرها وتوقيتها وترتيبها
(الاتعبدوا الاالله) اى
ينطق عليكم بلسان الحال
والدلالة ان لاتشركوا بالله
فى عبادته وخصوصه
بالعبادة (اننى لكم منه نذير
وبشير) كلام على لسان
الرسول اى اننى انذركم

هنامن كان بعدنوح من الرسل وقدكان بعد نوح هود وصالح وغيرهم من الرسل (فجاؤهم
بالبينات) يعنى بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التى تدل على صدقهم (فما كانوا
ليؤمنوا بما كذبوابه من قبل) يعنى ان اولئك الاقوام والامم التى جاءتهم الرسل جرواعلى منهاج قوم
نوح فى التكذيب ولم يزجرهم ماجاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عماهم فيه من التكفر والتكذيب
(كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يعنى مثل اغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحا كذلك
نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم فى التكذيب * قوله عزوجل (ثم بعثنا من بعدهم)
يعنى من بعد الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) يعنى اشراف قومه (بآياتنا فاستكبروا)
يعنى عن الايمان بما جاءبه موسى وهرون (وكانوا قومامجرمين) يعنى مستكسبين للاثم (فلما جاءهم
الحق من عندنا) يعنى فلما جاء فرعون وقومه الحق الذى جاءبه موسى من عندالله (قالوا ان
هذا لسحر مبين) يعنى ان هذا الذى جاءبه موسى سحر مبين يعرفه كل احد (قال موسى اتقولون
للحق لما جاءكم اسحر هذا) فيه حذف تقديره اتقولون للحق لما جاءكم هو اسحر هذا فحذف السحر
الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال اسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار يعنى انه ليس
بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال (ولا يفلح الساحرون) يعنى حاصل السحر تمويه وتخييل
وصاحب ذلك لا يفلح ابدا (قالوا) يعنى قال قوم فرعون لموسى (اجئتنا لتلفتنا) يعنى لتصرفنا
وتلوينا (عما وجدنا عليه آباءنا) يعنى من الدين (وتكون لكما الكبرياء) يعنى الملك والسلطان
(فى الارض) يعنى فى ارض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمى الملك كبرياء
لانه اكبر ما يطلب من امر الدنيا (ومانحن لكما بمؤمنين) يعنى بمصدقين (وقال فرعون ائتونى
بكل ساحر عليم) يعنى ان فرعون اراد ان يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهرا
ان ماأتى به موسى سحر (فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون) انما امرهم
موسى بالقاء مامعهم من الحبال والعصى التى فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل
ويتبين ان ما اتوابه فاسد (فلما القوا) يعنى مامعهم من الحبال والعصى (قال موسى
ماجئتم به السحر) يعنى الذى جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم (ان
الله سيبطله) يعنى يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) يعنى لا يقويه
ولا يكمله ولا يحسنه (ويحق الله الحق) يعنى ويظهر الله الحق ويقويه ويعليه (بكلماته) يعنى
بوعد الصادق لموسى انه يظهره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى انه يغلب السحرة (ولو كره
المجرمون) * قوله سبحانه وتعالى (فما آمن لموسى الاذرية من قومه) لما ذكر الله عزوجل ماأتى
به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة اخبر الله سبحانه وتعالى انه مع مشاهدة هذه
المعجزات ماآمن لموسى الاذرية من قومه وانما ذكر الله عزوجل هذا تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه
وسلم لانه كان كثير الاهتمام بايمان قومه وكان يغتم بسبب اعراضهم عن الايمان به واستمرارهم
على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى ان له اسوة بالانبياء عليهم الصلاة والسلام لان الذى
جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان امرا عظيما ومع ذلك فما آمن معه الاذرية والذرية اسم يقع
على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا فى هاء
الكناية فى قومه فقيل انها راجعة الى موسى واراد بهم قوم موسى وهم بنو اسرائيل الذين كانوا معه

من الحكيم الخبير عقاب
الشرك وتبعته وابشركم
منه بثواب التوحيد وفائدته
(وان استغفروا ربكم)
اى وحدوه واطلبوا منه
ان يغفر هيآت النظر الى
الغير والاحتجاب بالكثرة
والتقيد بالاشياء والوقوف
معها حتى افعالكم وصفاتكم
(ثم توبوا اليه) ارجعوا
اليه بالفناء فيه ذاتا (يمتعكم
متاعا) فى الدنيا تمتيعا (حسنا
الى اجل مسمى) على وفق
الشريعة والعدالة حالة
البقاء بعد الفناء الى وقت
وفاتكم (ويؤت كل ذى
فضل) فى الاخلاق والعلوم
والكمالات (فضله)
فى الثواب والدرجات
او يمتعكم بلذات تجليات
الافعال والصفات عند
تجردكم الى وقت فنائكم
او يؤت كل ذى فضل
فى الاستعداد فضله فى الكمال
والمرتبة عند الترقى والتدلى
(وان تولوا) اى تعرضوا
عن التوحيد والتجريد (فانى
اخاف عليكم عذاب يوم
كبير) شاق عليكم وهو
يوم الرجوع الى الله القادر
على كل شئ اى يوم ظهور
عجزكم وعجز ما تعبدون
بظهوره تعالى فى صفة

بمصر من اولاده قال مجاهدهم اولاد يعقوب الذين ارسل اليهم موسى هلك الآباء وبقى الابناء وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون وذلك ان فرعون لما امر بقتل ابناء بنى اسرائيل كانت المراة فى بنى اسرائيل اذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا عليه من القتل فنشؤا بين القبط فلما كان اليوم الذى غلب موسى فيه السحرة آمنوا به وقال ابن عباس ذرية من قومه يعنى من بنى اسرائيل وقيل انها راجعة الى فرعون يعنى الاذرية من قوم فرعون روى عطية عن ابن عباس قال هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امراة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامراة خازنه وماشطته قال الفراء سموا ذرية لان آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وامهاتهم من بنى اسرائيل فكان الرجل يتبع امه واخواله فى الايمان وذلك كما يقال لاولاد فارس الذين دخلوا الى اليمن الابناء لان امهاتهم من غير جنس الآباء (على خوف من فرعون وملئهم) الملاء الاشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن اشرافهم وهم ملاء الذرية لانه كان آباؤهم من القبط وامهاتهم من بنى اسرائيل وقيل اراد بالملاء ملاء فرعون وانما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له (ان يفتنهم) اى يصرفهم ويصدهم عن الايمان وانما قال ان يفتنهم ولم يقل ان يفتنوهم لان قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لامره (وان فرعون لعال فى الارض) يعنى انه لغالب قهار متكبر فيها (وانه لمن المسرفين) يعنى من المجاوزين الحد لانه كان عبدا فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبنى اسرائيل (وقال موسى) يعنى لقومه (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) يعنى فيه فثقوا الامره فسلموا فانه ناصر اوليائه ومهلك اعدائه (ان كنتم مسلمين) يعنى ان كنتم مستسلمين لامره قيل انما اعيد قوله ان كنتم مسلمين بعد قوله ان كنتم آمنتم بالله لارادة ان كنتم موصوفين بالايمان القلبى وبالاسلام الظاهرى ودلت الآية على ان التوكل على الله والتفويض لامره من كمال الايمان وان من كان يؤمن بالله فلا يتوكل الا على الله لا على غيره (فقالوا) يعنى قال موسى مجيبين له (على الله توكلنا) يعنى عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) يعنى لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا انا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا وكفرا وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ويظنوا انهم خير منا فيفتتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) يعنى وخلصنا برحمتك من ايدى قوم فرعون الكافرين لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الاعمال الشاقة ※ قوله عز وجل (واوحينا الى موسى واخيه) هرون (ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) يعنى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتا اذا اتخذه مباءة اى وطنا والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتا ترجعون اليها للصلاة والعبادة (واجعلوا بيوتكم قبلة) اختلف اهل التفسير فى معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال اراد بالبيوت المساجد التى يصلى فيها وفسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة فعلى هذا يكون معنى الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم الى القبلة واختلفوا فى هذه القبلة وظاهر القرآن لا يدل على تعينها الا انه قد نقل عن ابن عباس انه قال كانت الكعبة قبلة لموسى وهرون وهو قول مجاهد ايضا قال ابن عباس قالت بنو اسرائيل لموسى لا نستطيع ان نظهر صلاتنا

قادرته فيقهركم بالعذاب (الى مرجعكم وهو على كل شئ قدير الا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون انه عليم بذات الصدور وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام) اى خلق العالم الجسمانى فى ست جهات (وكان عرشه على الماء) اى عرشه الذى هو العقل الاول مبتنيا على العلم الاول مستندا اليه مقدما بالوجود على عالم الاجسام وان اولها الابا السنة بمدة الخفاء كما مر وخلق السموات والارض باختفائه تعالى بتفاصيل الموجودات فمعنى كون عرشه على الماء كونه قبل بداية الاختفاء ظاهرا معلوما للناس كقولك فعلته على علم اى فى حال كونه معلوما لى او كونى عالما به اى على المعلومية كما قال حارثة حين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف

مع الفراعنة فاذن الله لهم ان يصلوا فى بيوتهم وان يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة الى جهة بيت المقدس وقيل اراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة اى مقابلة يعنى يقابل بعضها بعضا وقيل معناه واجعلوا فى بيوتكم قبلة تصلون اليها فان قلت انه سبحانه وتعالى خص موسى وهرون بالخطاب فى اول الآية بقوله سبحانه وتعالى واوحينا الى موسى واخيه ان تبوآ لقومكما ثم انه عم بهذا الخطاب فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة فما السبب فيه قلت انه سبحانه وتعالى امر موسى وهرون بان يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يخص به الانبياء فخصا بالخطاب لذلك ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عم الخطاب الجمع فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة ﴿ واقيموا الصلاة ﴾ يعنى فى بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بنى اسرائيل من فرعون وقومه اذا صلوا فى الكنائس والبيع الجامعة ان يؤذوهم فامرهم الله سبحانه وتعالى ان يصلوا فى بيوتهم خفية من فرعون وقومه وقيل كانت بنو اسرائيل لا يصلون الا فى الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما ارسل موسى امر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فامروا ان يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما ارسل موسى وهرون واظهرهما على فرعون امرهم باتخاذ المساجد ظاهرة على رغم الاعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ يعنى بانه لا يصل اليهم مكروه * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا فى الحياة الدنيا ﴾ لما اتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى ان القوم مصرون على الكفر والعناد والانكار لما جاء به اخذ فى الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير ان يذكر اولا سبب اقدامه على الجرائم التى كانت سبب اصراره على ما يوجب الدعاء عليه ولما كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها لاجرم ان موسى لما اخذ فى الدعاء قدم هذه المقالة فقال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا فى الحياة الدنيا والزينة عبارة عما يتزين به كاللباس والدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر والاشياء الجميلة والمال مازاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ اختلفوا فى هذه اللام فقال الفراء هى لام كى فعلى هذا يكون المعنى ربنا انك جعلت هذه الاموال سببا لضلالهم لانهم بطروا وطغوا فى الارض واستكبروا عن الايمان وقال الاخفش انما هى لما يؤول اليه الامر والمعنى انك آتيت فرعون وملأه زينة فى الحياة الدنيا فضلوا فعلى هذا هى لام العاقبة يعنى فكان عاقبتهم الضلال وقال ابن الانبارى هى لام الدعاء وهى لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا انك ابتليتهم بالضلال عن سبيلك ﴿ ربنا اطمس على اموالهم ﴾ الطمس ازالة اثر الشئ بالمحو ومعنى الطمس على اموالهم ازل صورها وهيآتها وقال مجاهد اهلكها وقال اكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة بلغنا ان اموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة وقال محمد بن كعب القرظى صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع اهله فى فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرا وهذا فيه ضعف لان موسى عليه السلام دعا على اموالهم ولم يدع على انفسهم بالمسخ وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا واثلاثا وقيل ان عمر بن عبد العزيز دعا

اصبحت ياحارثة اصبحت مؤمنا حقا قال لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك قال رأيت اهل الجنة يتزاورون ورأيت اهل النار يتعاوون ورأيت عرش ربى بارزا قال اصبت فالزم وقد عبر فى الشرع عن المادة الهيولانية بالماء فى مواضع كثيرة منها ما ورد فى الحديث ان الله خلق اول ما خلق جوهرة فنظر اليها بعين الجلال فذابت حياء نصفها ماء ونصفها نار فان اولنا بها فهماء وكان عرشه قبل السموات والارض بالذات لا بالزمان مستعليا على المادة فوقها بالرتبة وان شئت التطبيق على تفاصيل وجودك فمعناه خلق سموات القوى الروحانية وارض الجسد فى الاشهر الستة التى هى اقل مدة الحمل وكان عرشه الذى هو قلب المؤمن على ما مادة الجسد مستوليا عليه متعلقا به تعلق التصوير والتدبير ﴿ ليبلوكم ايكم احسن عملا ﴾ جعل غاية خلق الاشياء ظهور اعمال الناس اى خلقناهم لنعلم العلم التفصيلى التابع للوجود الذى يترتب عليه

بخريطة فيها شئ من بقايا آل فرعون فاخرج منها البيضة منقوشة والجوز مشقوقة وهي حجارة
وقال السدى مسخ الله اموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والاطعمة وهذا الطمس هو احد
الآيات التسع التي اوتيها موسى عليه السلام (واشدد على قلوبهم) اربط على قلوبهم واطبع
عليها وقسها حتى لاتلين ولاتنشرح للايمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى
لايدخلها الايمان قال الواحدى وهذا دليل على ان الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لمن يشاء
ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم)
يعنى الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس فى رواية اخرى عنه قال موسى قبل ان يأتى
فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم فاستجاب الله له دعاءه فحال
بين فرعون وبين الايمان حتى ادركه الغرق فلم ينفعه الايمان قال بعض العلماء انما دعا عليهم موسى
بهذا الدعاء لما علم ان سابق قضاء الله وقدره فيهم انهم لايؤمنون وذلك ان الله سبحانه وتعالى
كتب عليهم فى الازل انهم لايؤمنون فوافق دعاء موسى ماقدر وقضى عليهم (قال) الله
عزوجل لموسى وهرون (قد اجيبت دعوتكما) انما نسب الدعاء اليهما وان الداعى هو موسى
وحده لان هرون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لانه طلب وسؤال ايضا ومعناه اللهم
استجب فصار بذلك شريك موسى فى الدعاء فلذلك قال تعالى قد اجيبت دعوتكما (فاستقيما)
يعنى على تبليغ الرسالة وامضيا لامرى الى ان يأتيهم العذاب (ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون)
يعنى ولاتسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدى فان وعدى لاخلف فيه ووعيدى نازل
بفرعون وقومه فلا تستعجلا قيل كان بين دعاء موسى عليه السلام وبين الاجابة اربعون سنة
قال الامام فخر الدين الرازى واعلم ان هذا النهى لايدل على ان ذلك قد صدر من موسى
وهرون كما ان قوله لئن اشركت ليحبطن عملك لايدل على صدور الشرك منه ❊ قوله عزوجل
(وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) اى وقطعنا ببنى اسرائيل البحر وعبرناهم اياه حتى جاوزوه
وعبروه (فاتبعهم فرعون وجنوده) يعنى لحقهم وادركهم (بغيا وعدوا) اى ظلما وعدوانا
وقيل البغى طلب الاستعلاء بغير حق والعدوا لظلم وقيل بغيا فى القول وعدوا فى الفعل قال
اهل التفسير اجتمع يعقوب وبنوه الى يوسف وهم اثنان وسبعون وخرجوا مع موسى من
مصر وهم ستمائة الف وذلك انه لما اجاب الله دعاء موسى وهرون امرهما بالخروج ببنى اسرائيل
من مصر فى الوقت الذى امرهما ان يخرجا فيه بهم ويسر لهم اسباب الخروج وكان فرعون
غافلا عنهم فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده فى طلبهم فلما ادركهم قالوا لموسى
اين الخلاص والمخرج البحر امامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم
فاوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق
كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الارض وايبس لهم البحر فلحقهم فرعون وكان على حصان
ادهم وكان معه فى عسكره ثمانمائة الف حصان على لون حصانه سوى سائر الالوان وكان
مقدمهم جبريل وكان على فرس انثى ودبق وميكائيل يسوقهم حتى لايشذ منهم احد فلما خرج
آخر بنى اسرائيل من البحر دنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون
من امره شيأ فنزل البحر وتبعه جنوده حتى اذا اكتملوا جميعا فى البحر وهم اولهم بالخروج التطم

الجزاء أيكم احسن عملا فان علم الله قسمان قسم يتقدم وجود الشئ فى اللوح وقسم ويتأخر وجوده فى مظاهر خلق والبلاء الذى هو الاختيار هو هذا القسم (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة ليقولن مايحبسه الا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور) واتقا بالله متوكلا عليه ينبغى للانسان ان يكون فى الفقر والغنى والشدة والرخاء والمرض والصحة لايحتجب عنه بوجود نعمة ولا بسعيه وتصرفه فى الكسب ولا بقوته وقدرته فى الطلب ولا بسائر الاسباب والوسائط لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الاسباب والكفران والبطر والاشر عند وجودها فيبعد بها عن الله تعالى وينساه فينساه الله بل يرى الاعطاء والمنع منه دون غيره فان

البحر عليهم فلما ادرك فرعون الغرق اتى بكلمة الاخلاص ظنا منه انها تنجيه من الهلاك وهو قوله تعالى (حتى اذا ادركه الغرق قال) يعني فرعون (آمنت انه لااله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين) قال ابن عباس لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان به في مهل قال العلماء ايمانه غير مقبول وذلك ان الايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وقيل انه قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده بها الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لاجرم لم ينفعه ما قال في ذلك الوقت وقيل ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى فلهذا قال آمنت انه لااله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في ايمانه ولما رجع فرعون الى الايمان والتوبة حين اغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) يعني آلآن تتوب وقد اضعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل الملائكة وقيل ان القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الارض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم ننجيك ببدنك والقول الاول اشهر ويعضده ماروى عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما اغرق الله فرعون قال آمنت انه لااله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رايتني وانا آخذ من حال البحر فادسه في فيه مخافة ان تدركه الرحمة اخرجه الترمذى وقال حديث حسن وفي رواية اخرى عنه عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ذكر احدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر ان جبريل عليه السلام جعل يدس في في فرعون الطين خشية ان يقول لااله الا الله فيرحمه الله او خشية ان يرحمه الله اخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

* (فصل في الكلام على هذا الحديث) * لانه في الظاهر مشكل فيحتاج الى بيان وايضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس ففي الطريق الاول عن ابن زيد بن جدعان وهو وان كان قد ضعفه يحيى بن معين وغيره فانه كان شيخا نبيلا صدوقا ولكنه كان سيء الحفظ ويغلط وقد احتمل الناس حديثه وانما يخشى من حديثه اذا لم يتابع عليه اوخالفه فيه الثقات وكلاهما منتف في هذا الحديث لان في الطريق الآخر شعبة عن عدى بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الاسناد على شرط البخارى ورواه ايضا شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب ثقة قد اخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وان كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فانما يخاف منه ما انفرد به اوخولف فيه وكلاهما منتف فقد علم بهذا ان لهذا الحديث اصلا وان رواته ثقات ليس فيهم متهم وان كان فيهم من هو سيء الحفظ فقد تابعه عليه غيره فان قلت ففي الحديث الثاني شك في رفعه لانه قال فيه ذكر احدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قلت ليس بشك في رفعه انما هو جزم بان احد الرجلين رفعه وشك شعبة في تعيينه هل هو عطاء بن السائب اوعدى بن ثابت وكلاهما ثقة فاذا رفعه احدهما وشك في تعيينه لم يكن هذا علة في الحديث وقوله من حال البحر اى من طين البحر كما في الرواية الآخرى

اتاه رحمة من صحة اونعمة شكره اولا برؤية ذلك منه وشهود المنعم في صورة النعمة وذلك بالقلب ثم بالجوارح باستعمالها في مراضيه وطاعته والقيام بحقوقه تعالى فيها ثم باللسان بالحمد والثناء متيقنا بانه القادر على سلبها محافظا عليها بشكرها مستزيدا اياها اعتمادا على قوله تعالى لئن شكرتم لازيدنكم قال امير المؤمنين عليه السلام اذا وصلت اليكم اطراف النعم فلا تنفروا اقصاها بقلة الشكر ثم ان نزعها منه فليصبر ولا يتأسف عليها عالما بانه هو الذى نزع دون غيره لمصلحة تعود اليه فان الرب تعالى كالوالد المشفق في تربيته اياه بل ارأف وارحم فان الوالد محجوب عما يعلمه تعالى اذ لايرى الا عاجل مصالحه وظاهرها وهو العالم بالغيب والشهادة فيعلم ما فيه صلاحه عاجلا واجلا راضيا بفعله راجيا اعادة احسن ما نزع منها اليه اذ القانط من رحمته بعيد منه لايستوسع رحمته لضيق وعائه محجوب عن ربوبيته لايرى عموم فيض رحمته ودوامه ثم اذا اعادها

* (فصل) * ووجه اشكاله مااعترض به الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره فقال هل يصح ان
جبريل اخذ بملاء فمه بالطين لئلا يتوب غضبا عليه والجواب الاقرب انه لا يصح لان فى تلك
الحالة اما ان يقال التكليف هل كان ثابتاً ام لا فان كان ثابتا لا يجوز لجبريل ان يمنعه
من التوبة بل يجب عليه ان يعينه وعلى التوبة على كل طاعة وان كان التكليف زائلا عن فرعون
فى ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذى نسب الى جبريل فائدة وايضا لو منعه من التوبة لكان
قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وايضا فكيف يليق بجلال الله ان يأمر جبريل بان يمنعه
من الايمان ولو قيل ان جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بامر الله فهذا يبطله قول جبريل وما
نتنزل الا بامر ربك فهذا وجه الاشكال الذى اورده الامام على هذا الحديث فى كلام اكثر من
هذا والجواب عن هذا الاعتراض ان الحديث قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا اعتراض
عليه لاحد واما قول الامام ان التكليف هل كان ثابتا فى تلك الحالة ام لا فان كان ثابتا لم يجز لجبريل ان
يمنعه من التوبة فان هذا القول لا يستقيم على اصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الافعال لله وان الله
يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهذا قول اهل السنة المثبتين للقدر فانهم يقولون ان الله يحول
بين الكافر والايمان ويدل على ذلك قوله تعالى واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وقوله تعالى
وقالوا قلوبنا غلف طبع الله عليها بكفرهم وقال تعالى ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به
اول مرة فاخبر الله سبحانه وتعالى انه قلب افئدتهم مثل تركهم الايمان به اول مرة وهكذا فعل
بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان اولا فدس الطين فى فم فرعون من جنس
الطبع والختم على القلب ومنع الايمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول
طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الافعال لله ومن المنكرين لخلق الافعال من اعترف ايضا ان
الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه ان يضله ويطبع على قلبه
ويمنعه من الايمان فاما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فانها من هذا الباب فان غاية ما يقال فيه
ان الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الايمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق ورده للايمان
لما جاءه واما فعل جبريل من دس الطين فى فيه فانما فعل ذلك بامر الله لا من تلقاء نفسه فاما قول
الامام لم يجز لجبريل ان يمنعه من التوبة بل يجب عليه ان يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا اذا كان
تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا واما اذا كان جبريل انما يفعل ما امره الله به والله
سبحانه وتعالى هو الذى منع فرعون من الايمان وجبريل منفذ لامر الله فكيف لا يجوز له منع
من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه اعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه واخبر عنه انه لا يؤمن حتى
يرى العذاب الاليم حين لا ينفعه الايمان وقد يقال ان جبريل عليه السلام اما ان يتصرف بأمر الله فلا يفعل
الا ما امره الله به واما ان يفعل ما يشاء من تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب
عليه اعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لانه انما يجب عليه فعل ما امر به ويحرم عليه فعل
ما نهى عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر انه امره باعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة
وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا واما قوله وان كان التكليف زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ
لا يبقى لهذا الذى نسب الى جبريل فائدة فجوابه ان يقال ان للناس فى تعليل افعال الله قولين احدهما
ان افعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يرد هذا السؤال اصلا وقد زال الاشكال والقول الثانى

لم يفرح بوجودها كما لم يحزن
بفقدانها ولا يفخر بهـا على
الناس فان ذلك من الجهل
وظهور النفس والا لما ان
ذلك ليس منه وله فبأى
سبب يسوغ له فخر بما ليس
له ومنه بل لله ومن الله (الا
الذين صبروا) استثناء من
الانسـان اى هـذا النوع
يؤس كفور فرح فخور
فى الحالين الا الذين صبروا
مع الله واقفين معه فى حالة
الضراء والنعماء والشدة
والرخاء كما قال عمر رضى الله
عنه الفقر والغنى مطيتـان
لا ابالى ايهما امتطى (وعملوا
الصالحات) فى الحالين ما فيه
صلاحهم مما ذكر (اولئك
لهـم مغفرة) من ذنوب
ظهور النفس باليـأس
والكفران والفرح والفخر
فى الحالين (واجر كبير)
من ثواب تجليات الافعال
والصفات وجنانها (فلعلك
تارك بعض ما يوحى اليك)
لما لم يقبلوا كلامه صلى الله
عليه وسلم بالارادة وانكروا
قوله بالاقتراحات الفاسدة
وقابلوه بالعناد والاستهزاء
ضاق صـدره ولم ينبسـط
للكلام اذ الارادة تجذب
الكلام وقبول المستمع يزيد
نشـاط المتكلم ويوجب

ان افعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لاجلها فعلها وكذا اوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لاجلها امر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون امنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وقد علم جبريل انه ممن حقت عليه كلمة العذاب وان ايمانه لا ينفعه دس الطين فى فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وانه وان كان قالها فى وقت لا ينفعه فدس الطين فى فيه تحقيقا لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ماقد قضى عليه وسد الباب عنه سدا محكما بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للايمان فان موسى عليه السلام لما دعا ربه بان فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الاليم والايمان عند رؤية العذاب غير نافع اجاب الله دعاءه فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين فى فيه ليياس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتحقق اجابة الدعوة التى وعد الله موسى بقوله قد اجيبت دعوتكما فيكون سعى جبريل فى تكميل ماسبق فى حكم الله انه يفعله فيكون سعى جبريل فى مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذا لما امره به وقدره وقضاه على فرعون واما قوله او منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر فجوابه ما تقدم من ان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وجبريل انما يتصرف بأمر الله ولا يفعل الا ما امره الله به واذا كان جبريل قد فعل ما امره الله به نفذه فانما رضى بالامر لا بالمأمور به وأى كفر يكون هنا وايضا فان الرضا بالكفر انما يكون كفرا فى حقنا لانا مأمورون بازالته بحسب الامكان فاذا اقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا فى حقنا لمخالفتنا ما امرنا به واما من ليس مأمورا كامرنا ولا مكلفا كتكليفنا بل يفعل ما يأمره به ربه فانه اذا نفذ ما امره به لم يكن راضيا بالكفر ولا يكون كفرا فى حقه على هذا التقدير فان جبريل لما دس الطين فى فى فرعون كان ساخطا لكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق اعمال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر غاية امر جبريل مع فرعون ان يكون منفذا لقضاء الله وقدره فى فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله ان يأمر جبريل بان يمنعه من الايمان فجوابه ان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل واما قوله وان قيل ان جبريل انما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فجوابه انه انما فعل ذلك بأمر الله منفذا لامر الله والله اعلم بمراده واسرار كتابه ✲ قوله سبحانه وتعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) اى نلقيك على نجوة من الارض وهى المكان المرتفع قال اهل التفسير لما اغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه اخبر موسى قومه بهلاك فرعون فقالت بنو اسرائيل ما مات فرعون وانما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل فى قلوبهم من الرعب لاجله فأمر الله عز وجل البحر فألقى فرعون على الساحل احمر قصيرا كانه ثور فرآه بنو اسرائيل فعرفوه فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا ابدا ومعنى ننجيك وانت جسد لا روح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كانه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لا لروحك وقيل اراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف به فلما رأوه فى درعه ذات عرفوه (لتكون لمن خلفك آية) يعنى عبرة وموعظة وذلك انهم ادعوا ان مثل فرعون لا يموت ابدا فاظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لزوال الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لانه كان فى غاية العظمة فصار الى نهاية الخسة والذلة ملقى على الارض لا يهابه احد (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) ✲ قوله عز وجل (ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) يعنى

ليبطله بفيه ولذا لم يجد المتكلم مخلصا قابلا لم يتسهل له وبقى ليكن ما عنده فشجعه الله تعالى بذلك وهيج قوته ونشاطه بقوله (ان يقولوا لولا انزل عليه كنز او جاء معه ملك انما انت نذير) فلا يخلوا تداركك من احدى الفائدتين اما رفع الحجاب بان يجمع فيمن وفقه الله تعالى لذلك واما الزام الحجة لمن لم يوفق لذلك (والله على كل شىء وكيل) وكل الهداية اليه (ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل انتم مسلمون من كان يريد الحيوة الدنيا) اى كل من يعمل عملا من كان من اعمال الآخرة فى الظاهر بنية الدنيا لا يريد به الا حظا من حظوظها يوفيه الله تعالى اجره فيها ولا يصل اليه من ثواب الآخرة شىء فان لكل احد نصيبا من الدنيا بمقتضى نشأته التى هو عليها ونصيبا من الآخرة بمقتضى فطرته التى فطر عليها فاذا لم يرد بعمله الا الدنيا فقد اقبل بوجهه اليها واعرض

اسكناهم مكان صدق وانزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر واغراق عدوهم فرعون
والمعنى انزلناهم منزلا محمودا صالحا وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت
شيأ اضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه ان الشئ اذا كان
كاملا صالحا لابد ان يصدق الظن فيه وفى المراد بالمكان الذى بوؤا قولان احدهما انه مصر فيكون
المراد ان الله اورث بنى اسرائيل لجميع ما كان تحت ايدى فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع
وغيره والقول الثانى أنه ارض الشأم والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم
من الطيبات) يعنى تلك المنافع والخيرات التى رزقهم الله تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) يعنى
فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك
انهم كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه
مكتوبا عندهم فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام
واصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا
حتى جاءهم المعلوم الذى كانوا يعلمونه حقا فوضع العلم مكان المعلوم وقيل المراد من العلم القرآن
النازل على محمد صلى الله عليه وسلم وانما سماه علما لانه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور
وفى كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان الاول ان اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد
صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث كذبوه بغيا وحسدا
وايثارا لبقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم والوجه الثانى ان اليهود كانوا
على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم آمن به طائفة وكفر به
آخرون * وقوله تعالى (ان ربك) يعنى يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)
يعنى من امرك وامر نبوتك فى الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجحد
نبوتك النار * قوله سبحانه وتعالى (فان كنت فى شك مما انزلنا اليك) الشك
فى موضوع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند الانسان لوجود
امارتين او لعدم الامارة والشك ضرب من الجهل وهو اخص منه فكل شك جهل وليس كل جهل
شكا فاذا قيل فلان شك فى هذا الامر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب او خلافه وظاهر هذا
الخطاب فى قوله فان كنت فى شك انه للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فان كنت يا محمد فى شك مما
انزلنا اليك يعنى من حقيقة ما اخبرناك به وانزلناه يعنى القرآن (فاسئل الذين يقرؤن الكتاب
من قبلك) يعنى علماء اهل الكتاب يخبروك انك مكتوب عندهم فى التوراة والانجيل وانك نبى
يعرفونك بصفتك عندهم وقد توجه ههنا سؤال واعتراض وهو ان يقال هل شك النبى صلى الله
عليه وسلم فيما انزل عليه او فى نبوته حتى يسأل اهل الكتاب عن ذلك واذا كان شاكا فى نبوة نفسه
كان غيره اولى بالشك منه قلت الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضى عياض فى كتابه
الشفاء فانه اورد هذا السؤال ثم قال احذر ثبت الله قلبك ان يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين
عن ابن عباس او غيره من اثبات شك النبى صلى الله عليه وسلم فيما اوحى اليه فانه من البشر فمثل هذا
لا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم جملة بل قال ابن عباس لم يشك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يسأل
ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصرى وحكى عن قتادة انه قال بلغنا ان النبى صلى الله عليه

من الآخرة وجعل النصيب
الدنيوى بانجذابه وتوجهه
الى الجهة السفلية حجاب
النصيب الاخروى حتى
انتكست فطرته وتبعت
النشأة واستخدمت نفسه
القلب فى طلب حظوظها
فصار نصيبه من الآخرة
منضما الى النصيب الدنيوى
وزينتها نوف اليهم اعمالهم
فيها وهم فيها لا يبخسون)
لا ينقصون اى
لا ينقص من ثواب أعمالهم
فى الدنيا شئ لانه لما تشكل
القلب بهيئة النفس تمثل
حظه بصورة حظ النفس
(اولئك الذين ليس لهم
فى الاخرة الا النار) لتعذب
قلوبهم بالحجب الدنيوية
وحرمانها عن مقتضى
استعدادها تألمها بالايلام
من مكسوباتها (وحبط
ما صنعوا فيها وباطل
ما كانوا يعملون) من أعمال
البر فى الآخرة لكونها بنية
الدنيا لقوله الاعمال بالنيات
ولكل امرئ ما نوى الى
آخر الحديث (أفمن كان
على بينة من ربه) اى
من كان يريد الحياة الدنيا

وسلم قال ماشك ولا اسأل وعامة المفسرين على هذاتم كلام القاضي عياض رحمه الله ثم اختلفوا في معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب على قولين احدهما ان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن اشركت ليحبطن عملك ومعلوم ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرك فثبت ان المراد به غيره ومن امثلة العرب * اياك اعني واسمعي ياجاره * فعلى هذا يكون معنى الآية قل يامحمد ياايها الانسان الشاك ان كنت في شك مما انزلنا اليك على لسان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فاسأل الذين يقرؤن الكتاب يخبروك بصحته ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر هذه السورة قل ياايها الناس ان كنتم في شك من ديني الآية فبين ان المذكور في هذه الآية على سبيل الرمز هو المذكورة في تلك الآية على سبيل التصريح وايضا لو كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكا في نبوته لكان غيره اولى بالشك في نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك وقيل ان الله سبحانه وتعالى علم ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فانه صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذا الكلام يقول لا اشك يارب ولا اسأل اهل الكتاب بل اكتفي بما انزلته على من الدلائل الظاهرة وقال الزجاج ان الله خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله فان كنت في شك وهو شامل للخلق فهو كقوله ياايها النبي اذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو ان يقال متى كان الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا في هذا الخطاب كان الاعتراض موجودا والسؤال واردا وقيل ان لفظة ان في قوله فان كنت في شك للنفي ومعناه وما انت في شك مما انزلنا اليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقينا والقول الثاني ان هذا الخطاب ليس هو للنبي صلى الله عليه وسلم البتة ووجه هذا القول ان الناس كانوا في زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون في امره الشاكون فيه فخاطبهم الله عز وجل بهذا الخطاب فقال تمجد وتعالى فان كنت ايها الانسان في شك مما انزلنا اليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فاسأل اهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وانما وحد الله الضمير في قوله فان كنت وهو يريد الجمع لانه خطاب لجنس الانسان كما في قوله تعالى ياايها الانسان ماغرك بربك الكريم لم يرد في الآية انسانا بعينه بل اراد الجمع واختلفوا في المسؤل عنه في قوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك من هم فقال المحققون من اهل التفسير هم الذين آمنوا من اهل الكتاب كعبدالله بن سلام واصحابه لانهم هم الموثوق بأخبارهم وقيل المراد كل اهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لان المقصود من هذا السؤال الاخبار بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانه مكتوب عندهم صفته ونعته فاذا اخبروا بذلك فقد حصل المقصود والاول اصح وقال الضحاك يعني اهل التقوى واهل الايمان من اهل الكتاب ممن ادرك النبي صلى الله عليه وسلم (لقد جاءك الحق من ربك) هذا كلام مبتدأ مقطوع عما قبله وفيه معنى القسم تقديره اقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بانك رسول الله حقا وان اهل الكتاب يعلمون صحة ذلك (فلا تكونن من الممترين) يعني من الشاكين في صحة ما انزلنا اليك (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) يعني بدلائله وبراهينه الواضحة (فتكون من الخاسرين) يعني الذين خسروا انفسهم واعلم ان هذا كله على ما تقدم من ان ظاهره خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ممن عنده شك وارتياب فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يرتب ولم يكذب بآيات الله فثبت بهذا ان المراد

أفمن كان على بينة من ربه يعني بعد ما بينهما في المرتبة بعد اعظيما من كان على بينة اي يقين برهاني عقلي او وجداني كشفي ويتبع ذلك اليقين (ويتلوه شاهد منه ومن قبله) من ربه اي القرآن المصدق للبرهان العقلي في التوحيد وصحة النبوة واصول الدين ومن قبل هذا القرآن (كتاب موسى) اي يتبع البرهان من قبل هذا الكتاب كتاب موسى في حال كونه (اماما ورحمة) يؤتم به وقدوة يتمسك بها في تحقيق المطالب ورحمة رحيمية تهدي الناس وتزكيهم وتعلمهم الحكم والشرائع (اولئك يؤمنون به) بالحقيقة دون الطالبين لحظوظ الدنيا (ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لا يؤمنون ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) باثبات وجود غيره واسناد صفته من الكلام ونحوه الى الغير (اولئك يعرضون على ربهم) بالوقف

به خيره والله اعلم * قوله سبحانه وتعالى (ان الذين حقت عليهم) يعني وجبت عليهم (كلمت ربك) يعني حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى خلقت هؤلاء للنار ولاابالى وقال قتادة سخط ربك وقيل لعنة ربك وقيل هو ماقدره عليهم وقضاه في الازل (لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية) فانهم لايؤمنون بها (حتى يروا العذاب الاليم) فحينئذ لاينفعهم الايمان لان الله سبحانه وتعالى قد حكم عليهم وصرفهم عن الايمان فلا ينفعهم شئ * قوله سبحانه وتعالى (فلولا) يعني فهلا (كانت قرية) وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لان في الاستفهام معنى الجحد والمراد هل كانت قرية (آمنت) يعني عند معاينة العذاب (فنفعها ايمانها) يعني في حال اليأس (الا قوم يونس) هذا استثناء منقطع يعني لكن قوم يونس فانهم آمنوا فنفعهم ايمانهم في ذلك الوقت وهو قوله (لما آمنوا) يعني لما اخلصوا الايمان (كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحيوة الدنيا ومتعناهم الى حين) الى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عيانا ام لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب فآمنوا وقال الاكثرون انهم رأوا العذاب عيانا بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزى والكشف لايكون الابعد الوقوع اواذا قرب وقوعه

(ذكر القصة في ذلك)

على ماذكره عبدالله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم قالوا ان قوم يونس كانوا بقرية نينوى من ارض الموصل وكانوا اهل كفر وشرك فأرسل الله سبحانه وتعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان بالله وترك عبادة الاصنام فدعاهم فأبوا عليه فقيل له اخبرهم ان العذاب مصبحهم الى ثلاث فأخبرهم بذلك فقالوا انا لم نجرب عليه كذبا قط فانظروا فان بات فيكم الليلة فليس بشئ وان لم يبت فاعلموا ان العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين اظهرهم فلما اصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قال ابن عباس ان العذاب كان اهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك وقال مقاتل قدر ميل وقال سعيد بن جبير غشي قوم يونس العذاب كما يغشي الثوب القبر وقال وهب غامت السماء غيما اسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت اسطحتهم فلما رأوا ذلك ايقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح واظهروا الاسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض الى البعض فحن الاولاد الى الامهات والامهات الى الاولاد وعلت الاصوات وعجوا جميعا الى الله وتضرعوا اليه وقالوا آمنا بما جاء يونس وتابوا الى الله واخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم مانزل بهم من العذاب بعدما ظللهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة قال ابن مسعود بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم فيما بينهم حتى ان كان الرجل ليأتي الى الحجر وقد وضع اساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده وروى الطبري بسنده عن ابي الجلد خيلان قال لما غشي قوم يونس العذاب مشوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له انه قد نزل بنا العذاب فما ترى قال قولوا ياحي حين لاحي يحي الموتى وياحي لااله الا انت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا الى حين وقال الفضيل بن عياض انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وانت اعظم واجل فافعل بنا ما انت اهله ولاتفعل

في الموقف الاول محجوبين مخذولين ويقول الاشهاد) الموحدون (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين) بالشرك ثم طردوا ولعنوا بسبب شركهم الذى هو اعظم الظلم (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) الناس عن سبيل التوحيد ويصفونها بالاعوجاج مع استقامتها وهم مع احتجابهم عن الحق محجوبون عن الآخرة دون غيرهم من اهل الاديان (اولئك لم يكونوا معجزين في الارض وما كان لهم من دون الله من اولياء يضاعف لهم العذاب ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون اولئك الذين خسروا انفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون لاجرم انهم في الآخرة هم الاخسرون ان الذين آمنوا) الايمان اليقيني الغيبي (وعملوا الصالحات) الاعمال التي تصلحهم للقاء الله وتقربهم اليه من التوبة والزهد

بينما نحن اهله قال وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم يرشيأ فقيل له ارجع الى قومك قال وكيف ارجع اليهم فيجدونى كذابا وكان من كذب ولا بينة له قتل فانصرف عنهم مغاضبا فالتقمه الحوت وستأتى القصة فى سورة والصافات ان شاءالله تعالى فان قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد ما نزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته قلت اجاب العلماء عن هذا بأجوبة احدها ان ذلك كان خاصا بقوم يونس والله يفعل مايشاء ويحكم مايريد الجواب الثانى ان فرعون ما آمن الا بعدما باشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم يونس دنا منهم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية الجواب الثالث ان الله عزوجل علم صدق نياتهم فى التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه ماصدق فى ايمانه ولا اخلص فلم يقبل منه ايمانه والله اعلم ❊ قوله سبحانه وتعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا) يقول الله عزوجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولو شاء ربك يامحمد لآمن بك وصدقك من فى الارض كلهم جميعا ولكن لم يشأ ان يصدقك ولم يؤمن بك الا من سبقت له السعادة فى الازل قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص ان يؤمن به جميع الناس ويتابعوه على الهدى فاخبره الله عزوجل انه لا يؤمن به الا من سبقت له من الله السعادة فى الذكر الاول ولم يضل الا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر الاول وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فأخبره الله انه لا يؤمن به الا من سبقت له العناية الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى (افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يعنى ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه او تحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس ذلك لاحد سوانا (وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله) يعنى وما كان ينبغى لنفس خلقها الله تعالى ان تؤمن وتصدق الا بقضاء الله لها بالايمان فان هدايتها الى الله وهو الهادى المضل وقال ابن عباس معنى باذن الله بامر الله وقال عطاء بمشيئة الله ❊ قوله تعالى (ويجعل) قرئ بالنون على سبيل التعظيم اى ونجعل نحن وقرئ بالياء ومعناه ويجعل الله (الرجس) يعنى العذاب وقال ابن عباس يعنى السخط (على الذين لا يعقلون) يعنى لا يفهمون عن الله امره ونهيه ❊ قوله عزوجل (قل انظروا) اى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعنى انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر (ماذا فى السموات والارض) يعنى ماذا خلق الله فى السموات والارض من الآيات الدالة على وحدانيته ففى السموات الشمس والقمر وهما دليلان على النهار والليل والنجوم سخرها طالعة وغاربة وانزال المطر من السماء وفى الارض الجبال والبحار والمعادن والانهار والاشجار والنبات كل ذلك آية دالة على وحدانية الله تعالى وانه خالقها كما قال الشاعر

وفى كل شئ له آية ❊ تدل على انه واحد

(وما تغنى الآيات والنذر) يعنى الرسل (عن قوم لا يؤمنون) وهذا فى حق اقوام علم الله انهم لا يؤمنون لما سبق لهم فى الازل من الشقاء (فهل ينتظرون) يعنى مشركى مكة (الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم) يعنى من مضى من قبلهم من الامم السالفة المكذبة للرسل قال قتادة يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود والعرب تسمى العذاب اياما والنعم اياما كقوله تعالى وذكرهم بايام الله والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يامحمد الا يوما يعاينون فيه

الحقيقى والانابة والعبادة والصبر والشكر ومايناسبها من اعمال اهل السلوك ومقاماتهم (واخبتوا الى ربهم) وتذللوا واطمأنوا اليه بالشوق وانقطعوا اليه متفانين فيه (اولئك اصحاب الجنة) جنة القلوب (هم فيها خالدون مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون ولقد ارسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ان لا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه) اى الاشراف المليؤن بامور الدنيا القادرون عليها الذين حجبوا بعقلهم ومعقولهم عن الحق (مانراك الا بشرا مثلنا) لكونهم ظاهريين واقفين على حد العقل المشوب بالوهم المتحير بالهوى الذى هو عقل المعاش لا يرون لاحد طورا وراء مابلغوا اليه من العقل غير مطلعين على مراتب الاستعدادات والكمالات طورا بعد طور ورتبة فوق

العذاب مثل مافعلنا بالامم السالفة المكذبة اهلكناهم جميعا فان كانوا ينتظرون ذلك العذاب (فقل فانتظروا) يعني قل لهم يامحمد فانتظروا العذاب (اني معكم من المنتظرين) يعني هلاككم قال الربيع بن انس خوفهم عذابه ونقمته ثم اخبرهم انه اذا وقع ذلك بهم انجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا) يعني من العذاب والهلاك (كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين) يعني كما انجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يامحمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب قال بعض المتكلمين المراد بقوله حقا علينا الوجوب لان تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب واجيب عن هذا بانه حق واجب من حيث الوعد والحكم لانه واجب بسبب الاستحقاق لانه قد ثبت ان العبد لايستحق على خالقه شيأ * قوله سبحانه وتعالى (قل ياايها الناس) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي قل يامحمد لهؤلاء الذين ارسلتك اليهم فشكوا في امرك ولم يؤمنوا بك (ان كنتم في شك من ديني) يعني الذي ادعوكم اليه وانما حصل الشك لبعضهم في امره صلى الله عليه وسلم لما رأى الآيات التي كانت تظهر على يد النبي صلى الله عليه وسلم فحصل له الاضطراب والشك فقال ان كنتم في شك من ديني الذي ادعوكم اليه فلا ينبغي لكم ان تشكوا فيه لانه دين ابراهيم عليه السلام وانتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وانما ينبغي لكم ان تشكوا في عبادتكم لهذه الاصنام التي لا اصل لها البتة فان اصررتم على ما انتم عليه (فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله) يعني هذه الاوثان وانما وجب تقديم هذا النفي لان العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لاخس الاشياء وهي الحجارة التي لاتنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الاماتة والاحياء وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم) والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة ان المراد ان الذي يستحق العبادة فاعبده انا وانتم هو الذي خلقكم اولا ولم تكونوا شيأ ثم يميتكم ثانيا ثم يحييكم بعد الموت ثالثا فاكتفى بذكر الوفاة تنبيها على الباقي وقيل لما كان الموت اشد الاشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون اقوى في الزجر والردع وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب اجابهم بقوله ولكن اعبد الله الذي هو قادر على اهلاككم ونصري عليكم (وامرت ان اكون من المؤمنين) يعني وامرني ربي ان اكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من اعمال الجوارح اتبعها بذكر الايمان لانه من اعمال القلوب (وان اقم وجهك للدين حنيفا) الواو في قوله وان اقم واو عطف معناه وامرت ان اقيم وجهي يعني اقم نفسك على دين الاسلام حنيفا يعني مستقيما عليه غير معوج عنه الى دين آخر وقيل معناه اقم عملك على الدين الحنيفي وقيل اراد بقوله وان اقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته الى طلب الدين الحنيفي غير مائل عنه (ولا تكونن من المشركين) يعني ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه غيره فيهلك وقيل ان النهي عن عبادة الاوثان قد تقدم في الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهي على معنى زائد وهو ان من عرف الله عزوجل وعرف جميع اسمائه وصفاته وانه المستحق للعبادة لاغيره فلا ينبغي له ان يلتفت الى غيره بالكلية وهذا هو الذي تسميه اصحاب القلوب بالشرك الخفي (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك) يعني ان عبدته ودعوته (ولا يضرك) يعني ان تركت

رتبة الى مالايعلمه الا الله فلم يشعروا بمقام النبوة ومعناها (ومانراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا) فقراؤنا الادنون منا اذ المرتبة والرفعة عندهم بالمال والجاه ليس الا كما قال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (بادي الرأي) اي بديهة الرأي واوله لانهم ضعاف العقول عاجزون عن كسب المعاش ونحن اصحاب فكر ونظر قالوا ذلك لاحتجابهم بعقلهم القاصر عن ادراك الحقيقة والفضيلة المعنوية لقصر تصرفه على كسب المعاش والوقوف على حده واما اتباع نوح عليه السلام فانهم اصحاب همم بعيدة وعقول حائمة حول القدس غير متصرفة في المعاش ولا ملتفتة الى وجوه كسبه وتحصيله فلذلك استنزلوا عقولهم واستحقروها (ومانرى لكم علينا من فضل) وتقدم فيما نحن بصدده لكون الفضل عندهم محصورا في التقدم بالغنى والمال والجاه (بل

عبادته (فان فعلت) يعنى مانهيتك عنه فعبدت غيرى او طلبت النفع ودفع الضر من غيرى (فانك اذا من الظالمين) يعنى لنفسك لانك وضعت العبارة فى غير موضعها وهذا الخطاب وان كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم فالمراد به غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يدع من دون الله شيأ البتة فيكون المعنى ولاتدع ايها الانسان من دون الله مالاينفعك الآية * قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر) يعنى وان يصبك الله بشدة وبلاء (فلا كاشف له) يعنى لذلك الضر الذى انزله بك (الاهو) يعنى لاغيره (وان يردك بخير) يعنى بسعة ورخاء (فلاراد لفضله) يعنى فلا دافع لرزقه (يصيب به) يعنى بكل واحد من الضر والخير (من يشاء من عباده) قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر الاوثان وبين انها لاتقدر على نفع ولاضر بين تعالى انه هو القادر على ذلك كله وان جميع الكائنات محتاجة اليه وجميع الممكنات مستندة اليه لانه هو القادر على كل شئ وانه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله (وهو الغفور الرحيم) وفى الآية لطيفة اخرى وهى ان الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك انه تعالى لما ذكر امساس الضر بين انه لا كاشف له الاهو وذلك يدل على انه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها لان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير قال فيه فلاراد لفضله يعنى ان جميع الخيرات منه فلا يقدر احد على ردها لانه هو الذى يفيض جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعنى الساتر لذنوب عباده الرحيم يعنى بهم * قوله سبحانه وتعالى (قل ياايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) يعنى القرآن والاسلام وقيل الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله عز وجل (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لان نفع ذلك يرجع اليه (ومن ضل فانما يضل عليها) اى على نفسه لان وباله راجع اليه فمن حكم الله له بالاهتداء فى الازل انتفع ومن حكم عليه بالضلال ضل ولم ينتفع بشئ ابدا (وماانا عليكم بوكيل) يعنى وماانا عليكم بحفيظ احفظ عليكم اعمالكم قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية السيف (واتبع مايوحى اليك) يعنى الامر الذى يوحيه الله اليك يامحمد (واصبر) يعنى على اذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك (حتى يحكم الله) يعنى ينصرك عليهم باظهار دينك (وهو خير الحاكمين) يعنى انه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه واظهار دينه وبقتل المشركين واخذ الجزية من اهل الكتاب وفيها اذلالهم وصغارهم والله تعالى اعلم بمراده واسرار كتابه

* (تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام) *

وهى مكية فى قول ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة وفى رواية عن ابن عباس انها مكية غير آية وهى قوله سبحانه وتعالى واقم الصلاة طرفى النهار وعن قتادة نحوه وقال مقاتل هى مكية الا قوله سبحانه وتعالى فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وقوله اولئك يؤمنون به وقوله سبحانه وتعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وهى مائة وثلاث وعشرون آية والف وستمائة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا عن ابن عباس قال قال ابوبكر يارسول الله قد شبت قال شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت واخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وفى رواية غيره قال قلت يارسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود واخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل اتاك حديث الغاشية قال بعض العلماء سبب شيبه صلى الله عليه وسلم من هذه السور المذكورة فى الحديث لما فيها من حكم القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله اعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم

(بسم الله)

تطلكم كاذبين) لعدم ادراك ماتثبتون وفهم ماتقولون مع وفور كياستنا (قال ياقوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربى) يجب عليكم من طريق العقل الاذعان له (وآتانى رحمة) اى هداية خاصة كشفية متعالية عن درجة البرهان (من عنده) اى فوق طور العقل من العلوم اللدنية ومقام النبوة (فعميت عليكم انلزمكموها) لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن وبالخليقة عن الحقيقة ولا يمكن تلقيها الا بالارادة لاهل الاستعداد فكيف نلزمكموها ونجبركم عليها (وانتم لها كارهون) اى ان شئتم تلقيها زكوا نفوسكم وصفوا استعداد كم ان وهب لكم واتركوا انكاركم حتى يظهر عليكم أثر نور الارادة فتقبلوها ان شاء الله (وياقوم لاأسألكم عليه مالا) أى الغرض عندكم من كل أمر محصور فى حصول المعاش وأنا لاأطلب ذلك منكم فتنبهوا الغرضى وأنتم عقلاء بزعمكم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

* قوله عز وجل (الر كتاب احكمت آياته) قال ابن عباس لم ينسخها كتاب كما نسخت هي الكتب والشرائع (ثم فصلت) يعني بينت وقال الحسن احكمت آياته بالامر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب وفي رواية عنه بالعكس قال احكمت بالثواب والعقاب وفصلت بالامر والنهي وقال قتادة احكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فيها وقيل احكمها الله فليس فيها تناقض ثم فصلها وبينها وقيل معناه نظمت آياته نظما رصينا محكما بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم الذي ليس فيه خلل ثم فصلت آياته سورة سورة وقيل ان آيات هذا الكتاب دالة على التوحيد وصحة النبوة والمعاد واحوال القيامة وكل ذلك لا يدخله النسخ ثم فصلت بدلائل الاحكام والمواعظ والقصص والاخبار من المغيبات وقال مجاهد فصلت بمعنى فسرت وثم في قوله ثم فصلت ليست هي للتراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة احسن الاحكام ثم مفصلة احسن التفصيل فان قلت كيف عم الآيات هنا بالاحكام وخص بعضها في قوله منه آيات محكمات قلت ان الاحكام الذي عم به هنا غير الذي خص به هناك فمعنى الاحكام العام هنا انه لا يتطرق الى آياته التناقض والفساد كاحكام البناء فان هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه والمراد بالاحكام الخاص المذكور في قوله منه آيات محكمات ان بعض آياته منسوخة نسخها بآيات منه ايضا لم ينسخها غيره وقيل احكمت آيات اي معظم آياته محكمة وان كان قد دخل النسخ على بعض فاجرى الكل على البعض لان الحكم للغالب واجراء الكل على البعض مستعمل في كلامهم تقول اكلت طعام زيد وانما اكلت بعضه * وقوله تعالى (من لدن حكيم) يعني احكمت آيات الكتاب من عند حكيم في جميع افعاله (خبير) يعني باحوال عباده وما يصلحهم (الا تعبدوا الا الله) هذا مفعول له معناه كتاب احكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله والمراد بالعبادة التوحيد وخلع الانداد والاصنام وما كانوا يعبدون والرجوع الى الله تعالى والى عبادته والدخول في دين الاسلام (انني لكم منه) اي قل لهم يا محمد اني لكم من عند الله (نذير) ينذركم عقابه ان ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه (وبشير) يعني وابشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله واطاع واخلص العمل لله وحده (وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) اختلفوا في بيان الفرق بين هذين المرتبتين فقيل معناه اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ارجعوا اليه لان الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك او معصية الى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا اليه في المستقبل وقال الفراء ثم هنا بمعنى الواو لان الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد (يمتعكم متاعا حسنا) يعني انكم اذا فعلتم ما امرتم به من الاستغفار والتوبة واخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا واسباب الرزق ما تعيشون به في امن وسعة وخير قال بعضهم المتاع الحسن هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور (الى اجل مسمى) يعني يمتعكم متاعا حسنا الى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم فان قلت قد ورد في الحديث ان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقد يضيق على الرجل في بعض اوقاته حتى لا يجد ما ينفعه على نفسه وعياله فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعا حسنا الى اجل مسمى قلت اما قوله صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن

(ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم آمنوا) لانهم أهل القربة والمنزلة عند الله فان طردتهم كنت عدوا لله مناويا لاوليائه لست بنبي حينئذ (ولكني اراكم قوما تجهلون) ما يصلح به المرء للقاء الله ولا تعرفون الله ولا لقاءه لذهاب عقولكم في الدنيا او تسفهون تؤذون المؤمنين بسفهكم (وياقوم من ينصرني من الله) الذي هو القاهر فوق عباده (ان طردتهم) واستوجبت قهره بطردهم (افلا تذكرون) مقتضيات الفطرة الانسانية فتنزجرون عما تقولون (ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب) اي انا ادعي افضل بالنبوة لا بالغنى وكثرة المال ولا بالاطلاع على الغيب ولا بالملكية حتى تنكروا فضلي بفقدان ذلك (ولا اقول اني ملك ولا اقول للذين تزدري

فهو بالنسبة الى مااعدالله ما فى الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فانه فى سجن فى الدنيا حتى يفضى الى ذلك المعدّ له واما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة الى مااعدالله له فى الآخرة من العذاب الاليم الدائم الذى لاينقطع فهو فى الدنيا فى جنة حتى يفضى الى مااعدالله له فى الآخرة واما ما يضيق على الرجل المؤمن فى بعض الاوقات فانما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيآت وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن فى جميع احواله فى عيشة حسنة لانه راض عن الله فى جميع احواله * وقوله سبحانه وتعالى (ويؤت كل ذى فضل فضله) اى ويعط كل ذى عمل صالح فى الدنيا اجره وثوابه فى الآخرة قال ابو العالية من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت حسناته ودرجاته فى الجنة لان الدرجات تكون على قدر الاعمال وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت حسناته وسيآته كان من اهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها فى الدنيا من حسناته العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلبت آحاده اعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله فى المستقبل لطاعته (وان تولوا) يعنى وان اعرضوا عما جئتهم به من الهدى (فانى اخاف عليكم) اى فقل لهم يا محمد انى اخاف عليكم (عذاب يوم كبير) يعنى عذاب النار فى الآخرة (الى الله مرجعكم) يعنى فى الآخرة فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسيء على اساءته (وهو على كل شئ قدير) يعنى من ايصال الرزق اليكم فى الدنيا وثوابكم وعقابكم فى الآخرة * قوله سبحانه وتعالى (الا انهم يثنون صدورهم) قال ابن عباس نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر وكان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على مايكره فنزلت الا انهم يثنون صدورهم يعنى يخفون مافى صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب اذا طويته وقال عبدالله بن شداد بن الهاد نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لايراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم كى لايسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى ثوبه ويقول هل يعلم الله مافى قلبى وقال السدى يثنون صدورهم اى يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى (ليستخفوا منه) يعنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد من الله عز وجل ان استطاعوا (الا حين يستغشون ثيابهم) يعنى يغطون رؤسهم بثيابهم (يعلم مايسرون ومايعلنون انه عليم بذات الصدور) ومعنى الآية على ماقاله الازهرى ان الذين اضمروا عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لايخفى علينا حالهم فى كل حال وقد نقل عن ابن عباس غير هذا التفسير وهو ما اخرجه البخارى فى افراده عن محمد بن عباد بن جعفر المخزومى انه سمع ابن عباس يقرأ الا انهم يثنون صدورهم قال فسألته عنها فقال كان اناس يستحيون ان يتخلوا فيفضوا الى السماء وان يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء فنزل ذلك فيهم * وقوله سبحانه وتعالى (ومامن دابة فى الارض) الدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض والمطلق لفظ الدابة على كل ذى اربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه

اعينكم) للفقراء المؤمنين الذين تستحقرونهم وتنظرون اليهم بعين الحقارة (لن يؤتيهم الله خيرا) كما تقولون اذ الخير عندى ماعند الله لا المال (الله اعلم بما فى انفسهم) من الخير منى ومنكم وهو اعرف بقدرهم وخطرهم ومايعلم احد قدر خيرهم لعظمه (انى اذا) اى اذ نفيت الخير عنهم اوطردتهم (لمن الظالمين قالوا يانوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصدقين قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون ام يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى اجرامى وانا برىء مما تجرمون واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك باعيننا

الاطلاق فيدخل فيه الآدمي وغيره من جميع الحيوانات (الا على الله رزقها) يعني هو المتكفل برزقها فضلا منه لا على سبيل الوجوب فهو الى مشيئته ان شاء رزق وان شاء لم يرزق وقيل ان لفظة على بمعنى من اى من الله رزقها وقال مجاهد ماجاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا (ويعلم مستقرها ومستودعها) قال ابن عباس مستقرها المكان الذى تأوى اليه في ليل او نهار ومستودعها المكان الذى تدفن فيه بعد الموت وقال مسعود مستقرها ارحام الامهات والمستودع المكان الذى تموت فيه وقيل المستقر الجنة او النار والمستودع القبر (كل في كتاب مبين) اى كل ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل خلقها * قوله عز وجل (وهو الذى خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء) يعني قبل خلق السموات والارض قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال ضمرة ان الله سبحانه وتعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما خالق وما هو خالق وما هو كائن من خلقه الى يوم القيامة ثم ان ذلك الكتاب سبح الله ومجده الف عام قبل ان يخلق شيأ من خلقه وقال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء على اى شئ كان الماء قال على متن الريح وقال وهب بن منبه ان العرش كان قبل ان يخلق الله السموات والارض ثم قبض الله قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات في يومين ثم اخذ سبحانه وتعالى طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الارض منها ثم خلق الاقوات في يومين والسموات في يومين والارض في يومين ثم فرغ آخر الخلق اليوم السابع قال بعض العلماء وفي خلق جميع الاشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة لان البناء الضعيف اذا لم يكن له اساس على ارض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم وهو العرش والسموات والارض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران بن حصين قال دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب فاتى ناس من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم فقالوا ابشرتنا فاعطنا مرتين فتغير وجهه ثم دخل عليه ناس من اهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا اهل اليمن اذ لم يقبلها بنو تميم قالوا اقبلنا يا رسول الله ثم قالوا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن اول هذا الامر ما كان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شئ قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وكتب في الذكر كل شئ ثم اتاني رجل فقال يا عمران ادرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت اطلبها فاذا السراب يقطع دونها وايم الله اوددت انها ذهبت ولم اقم عن ابي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله اين كان ربنا قبل ان يخلق خلقه قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء اخرجه الترمذى وقال قال احمد يريد بالعماء انه ليس معه شئ قال ابو بكر البيهقي في كتاب الاسماء والصفات له قوله صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن شئ قبله يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله وكان عرشه على الماء يعني وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب في الذكر كل شئ وقوله في عماء وجدته في كتاب عماء مقيدا بالمد فان كان في الاصل ممدودا فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله في عماء اى فوق سحاب مدبر اله وعاليا عليه كما قال سبحانه وتعالى ءامنتم من في السماء يعني من فوق السماء وقال تعالى لاصلبنكم في جذوع النخل يعني على جذوعها وقوله ما فوقه هواء اى ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله

و وحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ونصنع الفلك) الاية تفسيره على ما دل عليه الظاهر حق يجب الايمان به وصدق لابد من تصديقه كما جاء في التواريخ من بيان قصة الطوفان وزمانه وكيفيته وكميته واما التأويل فمحتمل بان يؤول الفلك بشريعة نوح التي نجا بها هو ومن آمن معه من قومه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام مثل اهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق والطوفان باستيلاء بحر الهيولى واهلاك من لم يتجرد عنها بمتابعة نبي وتزكية نفس كما جاء في كلام ادريس النبي عليه

وما تحته هواء اى ما تحت السحاب هواء وقد قيل ان ذلك العمى مقصور والعمى اذا كان مقصورا فمعناه لا شئ ثابت لانه مما عمى عن الخلق لكونه غير شئ فكانه قال فى جوابه كان قبل ان يخلق خلقه ولم يكن شئ غيره ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء اى ليس فوق العمى الذى هو لا شئ موجود هواء ولا تحته هواء لان ذلك اذا كان غير شئ فليس يثبت له هواء بوجه والله اعلم وقال الهروى صاحب الغريبين قال بعض اهل العلم معناه اين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصارا كقوله واسأل القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء هذا آخر كلام البيهقى وقال ابن الاثير العماء فى اللغة السحاب الرقيق وقيل الكثيف وقيل هو الضباب ولابد فى الحديث من حذف مضاف تقديره اين كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى وكان عرشه على الماء وحكى عن بعضهم فى العمى المقصور انه قال هو كل امر لا يدركه الفطن وقال الازهرى قال ابو عبيد انما تأولنا هذا الحديث كلام على العرب المعقول عنهم والا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء قال الازهرى فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء وفى رواية فرغ الله من المقادير وامور الدنيا قبل ان يخلق السموات والارض وكان عرشه على الماء بخمسين الف سنة قوله فرغ يريد اتمام خلق المقادير لانه كان مشغولا ففرغ منه لان الله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن فانما امره اذا اراد شيأ ان يقول له كن فيكون * وقوله سبحانه وتعالى (ليبلوكم) يعنى ليختبركم وهو اعلم بكم منكم (ايكم احسن عملا) يعنى بطاعة الله واورع عن محارم الله (ولئن قلت) يعنى ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (انكم مبعوثون من بعد الموت) يعنى للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) يعنون القرآن (ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة) يعنى الى اجل محدود واصل الامة فى اللغة الجماعة من الناس وكأنه قال سبحانه وتعالى الى انقراض امة ومجئ امة اخرى (ليقولن ما يحبسه) يعنى اى شئ يحبس العذاب وانما يقولون ذلك استعجالا بالعذاب واستهزاء يعنون انه ليس بشئ قال الله عز وجل (الا يوم يأتيهم) يعنى العذاب (ليس مصروفا عنهم) اى لا يصرفه عنهم شئ (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) يعنى ونزل بهم وبال استهزائهم * قوله سبحانه وتعالى (ولئن اذقنا الانسان منا رحمة) يعنى رخاء وسعة فى الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا (ثم نزعناها منه) يعنى سلبناه ذلك كله واصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به (انه ليؤس كفور) يعنى يظل قانطا من رحمة الله آيسا من كل خير كفور اى جحود لنعمتنا عليه او لا قليل الشكر لربه قال بعضهم يا ابن آدم اذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها فان نزعت عنك فينبغى لك ان تصبر ولا تيأس من رحمة الله فانه العواد على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى (ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته) يعنى ولئن نحن انعمنا على الانسان وبسطنا عليه من العيش (ليقولن) يعنى الذى اصابه الخير والسعة (ذهب السيآت عنى) يعنى ذهب الشدائد والعسر والضيق وانما قال ذلك غرة بالله عز وجل وجراءة عليه لانه لم يضف الاشياء كلها الى الله وانما اضافها الى العوائد فلهذا ذمه الله تعالى فقال (انه لفرح فخور)

بالسلام ومخاطباته لنفسه بلمعناه ان هذه الدنيا بحر عميق وماء فان اتخذت سفينة تركبها عند خراب البدن نجوت منها الى عالمك والا غرقت فيها وهلكت فعلى هذا يكون معنى ويصنع الفلك يتخذ شريعة من الواح الاعمال الصالحات ودسر العلوم التى تنظم بها الاعمال وتحكم (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) كما ترى من عادة الشطار وذوى الخلاعة

اى انه اشر بطر والفرح لذة تحصل فى القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهى عنه ❊ ثم استثنى فقال تبارك وتعالى (الا الذين صبروا وعملوا الصالحات) قال الفراء هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فانهم ليسوا كذلك فانهم ان نالتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا عليها (اولئك) يعنى من هذه صفتهم (لهم مغفرة) يعنى لذنوبهم (واجر كبير) يعنى الجنة ❊ قوله عز وجل (فلعلك تارك بعض مايوحى اليك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فلعلك يامحمد تارك بعض مايوحى اليك ربك ان تبلغه الى من امرك ان تبلغ ذلك اليه (وضائق به صدرك) يعنى ويضيق صدرك بما يوحى اليك فلا تبلغه اياهم وذلك ان كفار مكة قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا فهم النبى صلى الله عليه وسلم ان يترك ذكر آلهتهم ظاهرا فأنزل الله عز وجل فلعلك تارك بعض مايوحى اليك يعنى من ذكر آلهتهم هذا ماذكره المفسرون فى معنى هذه الآية واجمع المسلمون على انه صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ فانه معصوم فيه من الاخبار عن شئ منه بخلاف ماهو به لاخطأ ولاعمدا ولاسهوا ولا غلط وانه صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ماانزل الله عليه الى امته ولم يكتم منه شيأ واجمعوا على انه لايجوز على رسول الله صلى الله عليه وسلم خيانة فى الوحى والانذار ولايترك بعض ماأوحى اليه لقول احد لان تجويز ذلك يؤدى الى الشك فى اداء الشرائع والتكاليف لان المقصود من ارسال الرسول التبليغ الى من ارسل اليه فاذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبى صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك كله واذا ثبت هذا وجب ان يكون المراد بقوله تعالى فلعلك تارك بعض مايوحى اليك شيأ آخر سوى ماذكره المفسرون وللعلماء فى ذلك اجوبة احدها قال ابن الانبارى قد علم الله سبحانه وتعالى ان النبى صلى الله عليه وسلم لايترك شيأ مما يوحى اليه اشفاقا من موجدة احد وغضبه ولكن الله تعالى اكد على رسوله صلى الله عليه وسلم فى متابعة البلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال ياايها الرسول بلغ ماانزل اليك من ربك الآية الثانى ان هذا من جنه سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وتحريضه على اداء ماانزله اليه والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك فى عصمته مما يخافه ويخشاه الثالث ان الكفار كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لذلك وان يلقى اليهم مالايقبلونه ويستهزؤن به فامره الله سبحانه وتعالى بتبليغ مااوحى اليه وان لايلتفت الى استهزائهم وان تحمل هذا الضرر اهون من كتم شئ من الوحى والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لان الانسان اذا علم ان كل واحد من طرفى الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم ان الضرر فى باب الترك اعظم سهل عليه الاقدام على الفعل وقيل ان الله سبحانه وتعالى مع علمه بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايترك شيأ من الوحى هيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم وردهم الى قبول قوله بقوله فلعلك تارك بعض مايوحى اليك اى لعلك تترك ان تلقيه اليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك اى بأن تتلوه عليهم (ان يقولوا) يعنى مخافة ان يقولوا (لولا انزل عليه كنز) يعنى يستغنى به وينفقه (او جاء معه ملك) يعنى يشهد بصدقه وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن ابى امية المخزومى والمعنى انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت صادقا فى قولك بأنك رسول الله

المشتهرين بالاباحة يستهزؤن بالمتشرعين والمتقيدين بقيودها (قال ان تسخروا منا) بجهلكم (فانا نسخر منكم) عند ظهور وخامة عاقبة كفركم واحتجابكم (كما تسخرون فسوف تعلمون) عند ذلك (من يأتيه عذاب يخزيه) فى الدنيا من هلاك وموت اومرض وضر اوشدة وفقر كيف يضطرب ويتحسر على مايفوت منه (ويحل عليه عذاب مقيم) دائم فى الآخرة من استيلاء نيران الحرمان وهيآت الرذائل المظلمة والخسران (حتى اذا جاء امرنا) باهلاك امتك (وفار التنور) تنور البدن باستيلاء الاخلاط الفاسدة والرطوبات

الذى تصفه بالقدرة على كل شئ وانت عزيز عنده مع انك فقير فهلا انزل عليك ماتستغنى به انت واصحابك وهلا انزل عليك ملكا يشهدلك بالرسالة فتزول الشبهة فى امرك فاخبرالله عزوجل انه صلى الله عليه وسلم نذير بقوله عزوجل (انماانت نذير) تنذر بالعقاب لمن خالفك وعصى امرك وتبشر بالثواب لمن اطاعك وآمن بك وصدقك (والله على كل شئ وكيل) يعنى انه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ اقوالهم واعمالهم فيجازيهم عليهما يوم القيامة * قوله سبحانه وتعالى (ام يقولون افتراه) يعنى بل تقول كفار مكة اختلقه يعنى ماأوحى اليه من القرآن (قل) اى قل لهم يامحمد (فاتوا بعشر سور مثله مفتريات) لما قالوا له افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك وليس هو من عندالله تحداهم وارخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم فقال صلى الله عليه وسلم هبوا انى اختلقته من عند نفسى ولم يوح الى شئ وان الامر كماقلتم وانتم عرب مثلى من اهل الفصاحة وفرسان البلاغة واصحاب اللسان فأتوا انتم بكلام مثل هذا الكلام الذى جئتكم به مختلق من عند انفسكم فانكم تقدرون على مثل ماقدر عليه من الكلام فلهذا قال سبحانه وتعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فى مقابلة قولهم افتراه فان قلت قد تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قال فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة اعجز قلت قد قال بعضهم ان سورة يونس وانه تحداهم اولا بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وانكر المبرد هذا القول وقال ان سورة يونس نزلت اولا قال ومعنى قوله فى سورة يونس فاتوا بسورة مثله فى الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد وفى قوله سورة هود فاتوا بعشر سور مثله يعنى فى مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولاذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام امره بان يقول لهم (وادعوا من استطعتم من دون الله) حتى يعينوكم على ذلك (ان كنتم صادقين) يعنى فى قولكم انه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم) اعلم انه لما اشتملت الآية المتقدمة على امرين وخطابين احدهما امر وخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات والثانى امر وخطاب للكفار وهو قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم اتبعه بقوله تبارك وتعالى فان لم يستجيبوا لكم احتمل ان يكون المراد ان الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لعجزهم عنها واحتمل ان يكون المراد ان من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار فى المعارضة فلهذا السبب اختلف المفسرون فى معنى الآية على قولين احدهما انه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فان لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم اليه من المعارضة وعجزوا عنه (فاعلموا انما انزل بعلم الله) يعنى فاثبتوا على العلم الذى انتم عليه وازدادوا يقينا وثباتا لانهم كانوا عالمين بانه منزل من عندالله وقيل الخطاب فى قوله فان لم يستجيبوا لكم للنبى صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم القول الثانى ان قوله سبحانه وتعالى فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك انه سبحانه وتعالى لما قال فى الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله عزوجل فى هذه الآية فان لم يستجيبوا لكم ايها الكفار ولم يعينوكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وانه ليس مفترى على الله بل هو انزله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وان لا اله الا هو) يعنى الذى انزل القرآن هو الله الذى لا اله الا هو لا من تدعون من دونه (فهل انتم مسلمون) فيه والمعنى الامر اى اسلموا

(واخلصوا)

الفصيلة على الحرارة الغريزية وقوة طبيعة ماء الهيولى على نار الروح الحيوانية واهل كهم المعنوى وفار التنور باستيلاء ماء هوى الطبيعة على القلب واغراقه فى بحر الهيولى الجسمانى (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) اى من كل صنفين من نوع اثنين هماصورتاهما النوعية والصنفية الباقيتان عند فناء الاشخاص ومعنى حملهما فيها علمه بقيتهما مع

واخلصوا العبادة وان حملنا معنى الآية على انه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل انتم مسلمون
الترغيب اى دوموا على ما انتم عليه من الاسلام * قوله عز وجل ﴿ من كان يريد الحيوة الدنيا
وزينتها ﴾ يعنى بعمله الذى يعمله من اعمال البر نزلت فى كل من عمل عملا يبتغى به غير الله عز وجل
﴿ نوف اليهم اعمالهم فيها ﴾ يعنى اجور اعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا وذلك ان الله سبحانه وتعالى
يوسع عليهم فى الرزق ويدفع عنهم المكاره فى الدنيا ونحو ذلك ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ يعنى انهم
لا ينقصون من اجور اعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا بل يعطون اجور اعمالهم كاملة موفرة ﴿ اولئك
الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها ﴾ يعنى وبطل ما عملوا فى الدنيا من اعمال البر
﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ لانه لغير الله واختلف المفسرون فى المعنى بهذه الآية فروى قتادة
عن انس انها فى اليهود والنصارى وعن الحسن مثله وقال الضحاك من عمل عملا صالحا فى غير تقوى
يعنى من اهل الشرك اعطى على ذلك اجرا فى الدنيا وهو ان يصل رحما او يعطى سائلا او يرحم مضطرا
او نحو هذا من اعمال البر فيعجل الله له ثواب عمله فى الدنيا يوسع عليه فى المعيشة والرزق ويقر عينه فيما
خوله ويدفع عنه المكاره فى الدنيا وليس له فى الآخرة نصيب ويدل على صحة هذا القول سياق الآية
وهو قوله اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار الآية وهذه حالة الكافر فى الآخرة
وقيل نزلت فى المنافقين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم لانهم كانوا
لا يرجون ثواب الآخرة وقيل ان حمل الآية على العموم اولى فيندرج الكافر والمنافق الذى هذه
صفته والمؤمن الذى يأتى بالطاعات واعمال البر على وجه الرياء والسمعة قال مجاهد فى هذه الآية
اهل الرياء وهذا القول مشكل لان قوله سبحانه وتعالى اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار لا يليق
بحال المؤمن الا اذا قلنا ان تلك الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد
الشديد وهو عذاب النار ويدل على هذا ما روى عن ابى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى انا اغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا اشرك فيه معى غيرى تركته
وشركه اخرجه مسلم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما لغير الله او اراد
به غير الله فليتبوأ مقعده من النار اخرجه الترمذى عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه الا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة
يوم القيامة يعنى ريحها اخرجه ابو داود عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا
بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم
الف مرة قيل يا رسول الله من يدخله قال القراء المراؤن باعمالهم اخرجه الترمذى وقال حديث
حسن غريب قال البغوى وروينا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك
الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء اخرجه بغير سند والرياء هو ان يظهر الانسان
الاعمال الصالحة ليحمده الناس عليها او ليعتقدوا فيه الصلاح او ليقصدوه بالعطاء فهذا العمل
هو الذى لغير الله نعوذ بالله من الخذلان قال البغوى وقيل هذا فى الكفار يعنى قوله من كان يريد
الحيوة الدنيا وزينتها اما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته
فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة روينا عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم
المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة واما الكافر فيطعم بحسناته

بقاء الارواح الانسية فان
علمه جزء من سفينته الحاوية
لكل لتركبها من العلم
والعمل فمعلوميتهما محو
ليتهما وطالبيته بهما حاملية
اياهما فيها ﴿واهلك﴾ ومن
يتصل بك فى دينك وسيرتك
من اقاربك ﴿الا من سبق عليه
القول﴾ اى الحكم باهلاكه
فى الازل لكفره ﴿ومن آمن﴾
بالله من امتك ﴿وما آمن معه
الا قليل وقال اركبوا فيها
بسم الله مجريها ومرساها﴾
اى باسم الله الاعظم الذى
هو وجود كل عارف كامل
من افراد نوع الانسان

فى الدنيا حتى اذا افضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا اخرجه البغوى بغير سند ❊ قوله سبحانه وتعالى (افمن كان على بينة من ربه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة الذين يريدون باعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر فى هذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى افمن كان على بينة من ربه اى كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار وانما حذف هذا الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه افمن كان على بينة من ربه وهو النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه كمن هو فى ضلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الذى امر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالبينة اليقين يعنى انه على يقين من ربه انه على الحق (ويتلوه شاهد منه) يعنى ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا فى الشاهد من هو فقال ابن عباس وعلقمة وابراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك واكثر المفسرين انه جبريل عليه السلام يريد ان جبريل يتبع النبى صلى الله عليه وسلم ويؤيده ويسدده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبى صلى الله عليه وسلم وروى عن محمد بن الحنفية قال قلت لابى يعنى على بن ابى طالب رضى الله عنه انت التالى قال وماتعنى بالتالى قلت قوله سبحانه وتعالى ويتلوه شاهد منه قال وددت انى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول ان اللسان لما كان يعرب عما فى الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لان اللسان هو آلة الفضل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبى صلى الله عليه وسلم ويسدده وقال الحسين بن الفضل الشاهد هو القرآن لان اعجازه وبلاغته وحسن نظمه يشهد النبى صلى الله عليه وسلم بنبوته ولانه اعظم معجزاته الباقية على طول الدهر وقال الحسين بن على وابن زيد الشاهد منه هو محمد صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول ان من نظر الى النبى صلى الله عليه وسلم بعين العقل والبصيرة علم انه ليس بكذاب ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون وقال جابر بن عبد الله قال على بن ابى طالب مامن رجل من قريش الا وقد نزلت فيه الآية والآيتان فقال له رجل وانت اى آية نزلت فيك فقال على ماتقرأ الآية التى فى هود ويتلوه شاهد منه فعلى هذا القول يكون الشاهد على بن ابى طالب وقوله منه يعنى من النبى صلى الله عليه وسلم والمراد تشريف هذا الشاهد وهو على لاتصاله بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل يتلوه شاهد منه يعنى الانجيل وهو اختيار الفراء والمعنى ان الانجيل يتلو القرآن فى التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والامر بالايمان به وان كان قد نزل قبل القرآن ❊ قوله سبحانه وتعالى (ومن قبله) يعنى ومن قبل نزول القرآن وارسال محمد صلى الله عليه وسلم (كتاب موسى) يعنى التورة (اماما ورحمة) يعنى انه كان اماما لهم يرجعون اليه فى امور الدين والاحكام والشرائع وكونه رحمة لانه الهادى من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة ❊ وقوله تعالى (اولئك يؤمنون به) يعنى ان الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم هم المشار اليهم بقوله اولئك يؤمنون به يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل اراد الذين اسلموا من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام واصحابه (ومن يكفر به) يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم (من الاحزاب) يعنى من جميع الكفار واصحاب الاديان المختلفة فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاوثان وغيرهم والاحزاب الفرق الذين تحزبوا وتجمعوا على مخالفة الانبياء (فالنار موعده) يعنى فى الآخرة روى البغوى بسنده عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده لايسمع بى احد

انفاذها واجراء احكامها وترويجها فى بحر العالم الجسمانى واقامتها واثباتها كما ترى من اجراء كل شريعة وانفاذ امرها وتثبيتها واحكامها بوجود نبى اوامام من ائمتها اوحبر من احبارها (ان ربى لغفور) بغفر هيئات نفوسكم البدنية المظلمة وذنوب ملابس الطبيعة المهلكة اياكم المغرقة فى بحرها بمتابعة الشريعة (رحيم) يرحم بافاضة

من هذه الامة ولا يهودى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى ارسلت به الا كان من اصحاب النار قال سعيد بن جبير ما بلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه الا وجدت مصداقه فى كتاب الله عز وجل حتى بلغنى هذا الحديث لا يسمع بى احد من هذه الامة الحديث قال سعيد فقلت اين هذا فى كتاب الله حتى اتيت على هذه الآية ومن قبله كتاب موسى الى قوله سبحانه وتعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال فالاحزاب اهل الملل كلها * ثم قوله سبحانه وتعالى (فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك) فيه قولان احدهما ان معناه فلا تك فى شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله فعلى هذا القول يكون متعلقا بما قبله من قوله تعالى ام يقولون افتراه والقول الثانى انه راجع الى قوله ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده يعنى فلا تك فى شك من ان النار موعد من كفر من الاحزاب والخطاب فى قوله فلا تك فى مرية للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره لان النبى صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويعضد هذا القول سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن اكثر الناس لا يؤمنون) يعنى لا يصدقون بما اوحينا اليك او من ان موعد الكفار النار * قوله عز وجل (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى اى الناس اشد تعديا ممن اختلق على الله كذبا فكذب عليه وزعم ان له شريكا او ولدا وفى الآية دليل على الكذب على الله من اعظم انواع الظلم لان قوله تعالى ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا ورد فى معرض المبالغة (اولئك) يعنى المفترين على الله الكذب (يعرضون على ربهم) يعنى يوم القيامة فيسألهم عن اعمالهم فى الدنيا (ويقول الاشهاد) يعنى الملائكة الذين يحفظون اعمال بنى آدم قاله مجاهد وقال ابن عباس هم الانبياء والرسل وبه قال الضحاك وقال قتادة الاشهاد الخلائق كلهم (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) يعنى فى الدنيا وهذه الفضيحة تكون فى الآخرة لكل من كذب على الله (الا لعنة الله على الظالمين) يعنى يقول الله ذلك يوم القيامة فيلعنهم ويطردهم من رحمته (ق) عن صفوان بن محرز المازنى قال بينما ابن عمر يطوف بالبيت اذ عرض له رجل فقال يا اباعبد الرحمن اخبرنى ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النجوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول اعرف رب اعرف مرتين فيقول سترتها عليك فى الدنيا وانا اغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وفى رواية ثم تطوى صحيفة حسناته واما الكفار والمنافقون فيقول الاشهاد فى رواية فينادى بهم على رؤس الاشهاد من الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين * قوله سبحانه وتعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) هذه الآية متصلة بما قبلها والمعنى الا لعنة الله على الظالمين ثم وصفهم فقال الذين يصدون عن سبيل الله يعنى يمنعون الناس من الدخول فى دين الله الذى هو دين الاسلام (ويبغونها عوجا) يعنى ويطلبون القاء الشبهات فى قلوب الناس وتعويج الدلائل الدالة على صحة دين الاسلام (وهم بالآخرة هم كافرون) يعنى وهم مع صدهم عن سبيل الله يجحدون البعث بعد الموت وينكرونه (اولئك) يعنى من هذه صفتهم (لم يكونوا معجزين فى الارض) قال ابن عباس يعنى سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين فى الارض والمعنى انهم لا يعجزون الله اذا ارادهم بالعذاب والانتقام منهم ولكنهم فى قبضته وملكه لا يقدرون على الامتناع منه اذا طلبهم (وما كان لهم من دون الله من اولياء) يعنى وما كان لهؤلاء المشركين من انصار يمنعونهم من دون الله اذا اراد بهم سوأ

المواهب العلية والكشفية والهبات النورانية التى ينجيكم بها لولا مغفرته ورحمته لغرقتم وهلكتم مثل اخوانكم (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) من فتن بحر الطبيعة الجسمانية واستيلاء دواعيها على الناس وغلبة اهوائها باتفاقهم على مقتضياتها كالجبال الحاجبة للنظر المانعة للسير او موج من انحرافات المزاج وغلبات الاخلاط المردية (ونادى نوح ابنه) المحجوب بعقله المغلوب

او دنايا (يضاعف لهم العذاب) يعني في الآخرة يزاد عذابهم بسبب صدهم عن سبيل الله وانكارهم البعث بعد الموت (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) قال قتادة صموا عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به ولا يبصرون خيرا فيأخذون به وقال ابن عباس اخبر الله سبحانه وتعالى انه احال بين اهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة اما في الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهي طاعته وما كانوا يبصرون واما في الآخرة فانه قال لا يستطيعون خاشعة ابصارهم (اولئك الذين خسروا انفسهم) يعني ان هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا انفسهم حظوظها من رحمة الله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعني وبطل كذبهم وافكهم وفريتهم على الله وادعاؤهم ان الملائكة والاصنام تشفع لهم (لاجرم) يعني حقا وقال الفراء لا محالة (انهم في الآخرة هم الاخسرون) لانهم باعوا منازلهم في الجنة واشتروا عوضها منازل في النار وهذا هو الخسران المبين *قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم) لما ذكر الله عز وجل احوال الكفار في الدنيا وخسرانهم في الاخرة اتبعه بذكر احوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الاخرة والاخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الاخبات يتعدى بالى وباللام فاذا قلت اخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت اخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع اعمال الجوارح وقوله اخبتوا اشارة الى اعمال القلوب وهي الخضوع والخشوع لله عز وجل يعني ان هذه الاعمال الصالحة لاتنفع في الاخرة الا بحصول اعمال القلب وهي الخشوع والخضوع فاذا فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام انهم يأتون بالاعمال الصالحة مطمئنين الى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الاعمال او يكونون مطمئنين الى ذكره سبحانه وتعالى واذا فسرنا الاخبات بالخشوع والخضوع كان معناه انهم يأتون بالاعمال الصالحة خائفين وجلين ان لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع (اولئك) يعني الذين هذه صفتهم (اصحاب الجنة هم فيها خالدون) اخبر عن في الاخرة بأنهم من اهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال * قوله سبحانه وتعالى (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع) لما ذكر الله سبحانه وتعالى احوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر احوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصير وسماع الحق والانقياد للطاعة ضرب لهم مثلا فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعني فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالاعمى وهو الذي لا يهتدي لرشده والاصم وهو الذي لا يسمع شيأ البتة والبصير وهو الذي يبصر الاشياء على ماهيتها والسميع وهو الذي يسمع الاصوات ويجيب الداعي فمثل المؤمنين كمثل الذي يسمع ويبصر وهو الكامل في نفسه ومثل الكافر كمثل الذي لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص في نفسه (هل يستويان مثلا) قال الفراء لم يقل هل يستوون الاعمى والاصم في حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد وهما من وصف المؤمن (افلا تذكرون) يعني فتتعظون * قوله عز وجل (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين) يعني ان نوحا عليه السلام قال لقومه حين ارسله الله اليهم انى لكم ايها القوم نذير مبين يعني بين النذارة اخوف بالعقاب من خالف امر الله وعبد

بالوهم الذي هو عقل المعاش عن دين ابيه وتوحيده (وكان في معزل) من دينه وشريعته (يا بنى اركب معنا) اى ادخل في ديننا (ولا تكن مع الكافرين) المحجوبين عن الحق الهالكين بموج هوى النفس المغرقين في بحر الطبع (قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء) يعنى به الدماغ الذي هو محل العقل اى سأعتصم بالعقل والمعقول ليعصمنى من استيلاء بحر الهيولى فلا اغرق فيه (قال

غيره وهو قوله سبحانه وتعالى (ان لاتعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم) يعنى مؤلم موجع قال ابن عباس بعث نوح بعد اربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره الفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره الفا واربعمائة وخمسين سنة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يعنى الاشراف والرؤساء من قوم نوح (مانراك) يانوح (الا بشرا مثلنا) يعنى آدميا مثلنا لافضل لك علينا لان التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان من حق الرسول ان يباشر الامة بالدعوة الى الله تعالى باقامة الدليل والبرهان على ذلك ويظهر المعجزة الدالة على صدقه ولا يتأتى ذلك الا من آحاد البشر وهو من اختصه الله بكراماته وشرفه بنبوته وارسله الى عباده * ثم قال سبحانه وتعالى اخبارا عن قوم نوح (ومانراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا) يعنى سفلتنا والرذل الدون من كل شئ قيل هم الحاكة والاساكفة واصحاب الصنائع الخسيسة وانما قالوا ذلك جهلا منهم ايضا لان الرفعة فى الدين ومتابعة الرسول لاتكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الخاملين وهم اتباع الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم اذا حسنت سيرتهم فى الدين (بادى الرأى) يعنى انهم اتبعوك فى اول الرأى من غير تثبت وتفكر فى امرك ولو تفكروا مااتبعوك وقيل معناه ظاهر الرأى يعنى اتبعوك ظاهرا من غير ان يتفكروا باطنا (وما نرى لكم علينا من فضل) يعنى بالمال والشرف والجاه وهذا القول ايضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة (بل نظنكم كاذبين) قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم (قال) يعنى نوحا (ياقوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربى) يعنى على بيان ويقين من ربى بالذى انذرتكم به (وآتانى رحمة من عنده) يعنى هديا ومعرفة ونبوة (فعميت عليكم) يعنى خفيت والتبست عليكم (انلزمكموها) الهاء عائدة على الرحمة والمعنى انلزمكم ايها القوم قبول الرحمة يعنى انا لانقدر ان نلزمكم ذلك من عند انفسنا (وانتم لها كارهون) وهذا استفهام معناه الانكار اى لااقدر على ذلك والذى اقدر عليه ان ادعوكم الى الله وليس لى ان اضطركم الى ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك (وياقوم لااسئلكم عليه مالا) يعنى لااسألكم ولا اطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا (ان اجرى الا على الله وما انا بطارد الذين آمنوا) وذلك انهم طلبوا من نوح ان يطرد الذين آمنوا وهم الارذلون فى زعمهم فقال مايجوز لى ذلك لانهم يعتقدون (انهم ملاقو ربهم) فلا اطردهم (ولكنى اراكم قوما تجهلون) يعنى عظمة الله ووحدانيته وربوبيته وقيل معناه انكم تجهلون ان هؤلاء المؤمنين خير منكم (وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم) يعنى من يمنعنى من عذاب الله ان طردتهم عنى لانهم مؤمنون مخلصون (افلا تذكرون) يعنى فتتعظون (ولا اقول لكم عندى خزائن الله) هذا عطف على قوله لااسئلكم عليه مالا والمعنى لااسألكم عليه مالا ولا اقول لكم عندى خزائن الله يعنى التى لايفنى منها شئ فأدعوكم الى اتباعى عليها لاعطيكم منها وقال ابن الانبارى الخزائن هنا بمعنى

عاصم اليوم من امر الله الا) الذى (رحم) بدين التوحيد والشرع (وحال بينهما الموج) موج هوى النفس واستيلاء ماء بحر الطبيعة اى حجبه عن ابيه ودينه وتوحيده (فكان من المغرقين) فى بحر الهيولى الجسمانية (وقيل ياارض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى) اى نودى من جهة الحق على لسان الشرع ارض الطبيعة الجسمانية اى ياارض انقصى أمر الشريعة وامتثال احكامها من غلبة هواك واستيلائه بفوران موادك على القلب وقفى على حد الاعتدال الذى به قوامه وياسماء العقل المحجوبة بالعادة والحس المشوبة بالوهم المغيمة بغيم الهوى التى تمد النفس والطبيعة بتهيئة موادها واسبابها بالفكر اقلعى عن مددها (وغيض الماء) ماء قوة

غيوب الله وما هو منطو من الخلق وانما وجب ان يكون هذا جوابا من نوح عليه السلام لهم لانهم قالوا ومانراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الراى وادعوا ان المؤمنين انما اتبعوه فى ظاهر ما يرى منهم وهم فى الحقيقة غير متبعين له فقال مجيبا لهم ولا اقول لكم عندى خزائن الله التى لا يعلم منها ماينطوى عليه عباده ومايظهرونه الا هو وانما قيل للغيوب خزائن لغموضها عن الناس واستتارها عنهم والقول الاول اولى ليحصل الفرق بين قوله ولا اقول لكم عندى خزائن الله وبين قوله (ولا اعلم الغيب) يعنى ولا ادعى علم مايغيب عنى مما يسرونه فى نفوسهم فسبيلى قبول ايمانهم فى الظاهر ولا يعلم مافى ضمائرهم الا الله (ولا اقول انى ملك) وهذا جواب لقولهم مانراك الا بشرا مثلنا اى لا ادعى انى من الملائكة بل انا بشر مثلكم ادعوكم الى الله وابلغكم ما ارسلت به اليكم

(فصل) استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء قال لان نوحا عليه السلام قال ولا اقول انى ملك لان الانسان اذا قال انا لا ادعى كذا وكذا لا يحسن الا اذا كان ذلك الشئ اشرف وافضل من احوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام هذه المقالة وجب ان يكون الملك افضل منه والجواب ان نوحا عليه السلام انما قال هذه المقالة فى مقابلة قولهم مانراك الا بشرا مثلنا لما كان فى ظنهم ان الرسل لا يكونون من البشر انما يكونون من الملائكة فاعلمهم ان هذا ظن باطل وان الرسل الى البشر انما يكونون من البشر فلهذا قال سبحانه وتعالى ولا اقول انى ملك ولم يرد ان درجة الملائكة افضل من درجة الانبياء والله اعلم * وقوله سبحانه وتعالى (ولا اقول للذين تزدرى اعينكم) يعنى تحتقر وتستصغر اعينكم يعنى المؤمنين وذلك لما قالوا انهم اراذلنا من الرذالة وهى الخسة (لن يؤتيهم الله خيرا) يعنى توفيقا وهداية وايمانا واجرا (الله اعلم بما فى انفسهم) يعنى من الخير والشر (انى اذا لمن الظالمين) يعنى ان طردتهم مكذبا لظاهرهم ومبطلا لايمانهم يعنى ان فعلت هذا فأكون قد ظلمتهم وانا لا افعله فانا من الظالمين (قالوا يانوح قد جادلتنا) يعنى خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) يعنى خصومتنا (فأتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (ان كنت من الصادقين) يعنى فى دعواك انك رسول من الله الينا (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) يعنى قال نوح لقومه حين استعجلوه بانزال العذاب ان ذلك ليس الى انما هو الى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء ان اراد انزال العذاب بكم (وما انتم بمعجزين) يعنى وما انتم بفائتين ان اراد الله نزول العذاب بكم (ولا ينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم) يعنى ولا ينفعكم انذارى وتحذيرى اياكم عقوبته ونزول العذاب بكم (ان كان الله يريد ان يغويكم) يعنى يضلكم وقيل يهلككم وهذا معنى وليس بتفسير لان الاغواء يؤدى الى الهلاك (هو ربكم) يعنى انه سبحانه وتعالى هو مالككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه (واليه ترجعون) يعنى فى الآخرة فيجازيكم باعمالكم (ام يقولون افتراه) اى اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود الى الوحى الذى جاءهم به (قل ان افتريته) اى اختلقته (فعلى اجرامى) اى اثم اجرامى والاجرام اقتراف السيئة واكتسابها يقال جرم وجرم واجرم بمعنى انه اكتسب الذنب وافتعله (وانا برئ مما تجرمون) يعنى من الكفر والتكذيب واكثر المفسرين على ان هذا من محاورة نوح قومه فهى من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل ام يقولون يعنى المشركين من كفار مكة افتراه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة فى قصة نوح

الطبيعة الجسمانية ومدد الرطوبة الحاجبة لنور الحق المانعة للحياة الحقيقية (وقضى الامر) امر الله بانجاء من نجا واهلاك من هلك (واستوت) اى استقامت شريعته (على الجودى) جودى وجود نوح واستقرت (وقيل بعدا) اى هلاكا (للقوم الظالمين) الذين كذبوا بدين الله وعبدوا الهوى مكان الحق ووضعوا طريق الطبيعة مكان الشريعة (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من اهلى) حمله شفقة الابوة وتعطف الرحم والقرابة على طلب نجاته لشدة تعلقه به واهتمامه بامره وراعى مع ذلك ادب

ثم رجع الى القصة فقال سبحانه وتعالى (واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الامن قدآمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون انه قدمات فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم الى الله وروى ان شيخامنهم جاء متكئا على عصاه ومعه ابنه فقال يابنى لايغرنك هذا الشيخ المجنون فقال يا ابت امكنى من العصا فأخذها من ابيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الامن قدآمن (فلاتبتئس) يعنى فلاتحزن عليهم فانى مهلكهم (بما كانوا يفعلون) يعنى بسبب كفرهم وافعالهم فحينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبدالله بن عمير الليثى انه بلغه انهم كانوا يبطشون نوحا فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا افاق قال رب اغفر لقومى فانهم لايعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلايأتى قرن الا كان انحس من الذى قبله ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قدكان هذا الشيخ مع آبائنا واجدادنا هكذا مجنونا فلايقبلون منه شيأ فشكا نوح الى الله عزوجل فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات حتى بلغ رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا فأوحى الله سبحانه وتعالى اليه (واصنع الفلك) يعنى السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع (بأعيننا) قال ابن عباس بمراى مناوقيل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) يعنى بامرنا (ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) يعنى بالطوفان والمعنى ولاتخاطبنى فى امهال الكفار فانى قدحكمت باغراقهم وقيل ولاتخاطبنى فى ابنك كنعان وامرائك واعلة فانهما هالكان مع القوم وقيل ان جبريل اتى نوحا فقال له ان ربك يأمرك ان تصنع الفلك فقال كيف اصنعها ولست نجارا فقال ان ربك يقول اصنع فانك باعيننا فاخذ القدوم وجعل ينجر ولايخطئ فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى (ويصنع الفلك) يعنى كما امره الله سبحانه وتعالى قال اهل السير لما امر الله سبحانه وتعالى نوحا بعمل السفينة اقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ القار وكل مايحتاج اليه فى عمل الفلك وجعل قومه يمرون به وهو فى عمله فيسخرون منه ويقولون يانوح قد صرت نجارا بعد النبوة واعقم الله ارحام النساء فلايولد لهم ولقد قال البغوى وزعم اهل التوراة ان الله امره ان يصنع الفلك من خشب الساج وان يطليه بالقار من داخله وخارجه وان يجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا وطوله فى السماء ثلاثين ذراعا والذراع الى المنكب وان يجعله ثلاث طباق سفلى ووسطى وعليا وان يجعل فيه كوى فصنعه نوح كما امره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة فى سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وطولها فى السماء ثلاثين ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل فى البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وركب هو ومن معه فى البطن الاعلى وجعل معه مايحتاج اليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها فى عرضها وروى عن الحسن انه كان طولها الفاومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الاول اشهر وهو ان طولها ثلثمائة ذراع وقال زيد بن اسلم مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ويقطعها ومائة سنة يعمل الفلك وقال كعب الاحبار عمل نوح عليه السلام السفينة فى ثلاثين سنة وروى انه ثلاثة اطباق الطبقة

الحضرة وحسن السؤال فقال (وان وعدك الحق) ولم يقل لاتخلف وعدك بانجاء اهلى وانما قال ذلك اوجود تلوين وظهور بقية منه اذ فهم من الاهل ذوى القرابة الصورية والرحم الطبيعة وغفل لفرط التأسف على ابنه عن استثنائه تعالى بقوله الامن سبق عليه القول لم يتحقق ان ابنه هو الذى سبق عليه القول ولا استعطف ربه بالاسترحام وعرض بقوله (وانت احكم الحاكمين) الى ان العالم العادل والحكيم لايخلف وعده (قال يانوح انه ليس من اهلك) اى ان اهلك فى الحقيقة هو الذى بينك وبينه القرابة الدينية واللحمة المعنوية والاتصال الحقيقى لاالصورى كما قال

السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى للانس والطبقة العليا للطير فلما كثرت ارواث
الدواب اوحى الله سبحانه وتعالى الى نوح عليه السلام ان اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير
وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفأر فاقبلوا على الروث فاكلوه فلما افسد الفار فى السفينة
فجعل يقرضها ويقرض حبالها اوحى الله سبحانه وتعالى اليه ان اضرب بين عينى الاسد فضرب
فخرج من منخره سنور وسنورة وهى القطة والقط فاقبلا على الفار فاكلاه * قوله سبحانه
وتعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه) اى جماعة من قومه (سخروا منه) يعنى استهزؤا به
وذلك انهم قالوا ان هذا الذى كان يزعم انه نبى قد صار نجارا وقيل قالوا يا نوح ماذا تصنع قال
اصنع بيتا يمشى على الماء فضحكوا منه (قال) يعنى نوحا قومه (ان تسخروا منا فانا نسخر
منكم كما تسخرون) يعنى ان تستجهلونا فى صنعنا فانا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله
وعذابه فان قلت السخرية لا تليق بمنصب النبوة فكيف قال نوح عليه السلام ان تسخروا منا
فانا نسخر منكم كما تسخرون قلت انما سمى هذا الفعل سخرية على سبيل الازدواج فى مشاكلة
الكلام كما فى قوله سبحانه وتعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى انا نرى غب سخريتكم بنا اذا نزل
بكم العذاب وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون) يعنى فسترون (من يأتيه) يعنى اينا يأتيه نحن
او انتم (عذاب يخزيه) يعنى يهينه (ويحل عليه عذاب مقيم) يعنى فى الآخرة فالمراد بالعذاب
الاول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثانى عذاب الآخرة وهو عذاب النار الذى
لا انقطاع له * قوله عز وجل (حتى اذا جاء امرنا وفار التنور) يعنى وغلى والفور الغليان
وفارت القدر اذا غلت والتنور فارسى معرب لا تعرف له العرب اسما غير هذا فلذلك جاء
فى القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل ان لفظ التنور جاء هكذا بكل لفظ عربى وعجمى
وقيل ان لفظ التنور اصله اعجمى فتكلمت به العرب فصار عربيا مثل الديباج ونحوه واختلفوا
فى المراد بهذا التنور فقال عكرمه والزهرى هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام
اذا رايت الماء قد فار على وجه الارض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور
علامة لنوح على هذا الامر العظيم وقال على فار التنور اى طلع الفجر ونور الصبح شبه نور الصبح
بخروج النار من التنور وقال الحسن ومجاهد والشعبى ان التنور هو الذى يخبز فيه وهو قول
اكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس ايضا وهذا القول اصح لان اللفظ اذا دار بين الحقيقة
والمجاز كان حمله على الحقيقة اولى ولفظ التنور حقيقة فى اسم الموضع الذى يخبز فيه فوجب حمل
اللفظ عليه فان قلت الالف واللام فى لفظ التنور للعهد وليس هنا معهود سابق عند السامع فوجب
حمله على غيره وهو شدة الامر والمعنى اذا رايت الماء يشتد نبوعه ويقوى فانج بنفسك ومن
معك قلت لا يبعد ان يكون ذلك التنور معلوما عند نوح عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة
وكانت حواء تخبز فيه ثم صار الى نوح وقيل له اذا رايت الماء يفور من التنور فاركب انت
واصحابك واختلفوا فى موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فاخبرته
وكان ذلك فى ناحية الكوفة وكان الشعبى يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة قال الشعبى
اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان
فوران التنور علامة لنوح عليه السلام وقال مقاتل كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام

امير المؤمنين عليه السلام
الاوان ولى محمد من
اطاع الله وان بعدت لحمته
الاوان عدو محمد من
عصى الله وان قربت لحمته
(انه عمل غير صالح) بين
انتفاء كونه من اهله بانه
غير صالح تنبيها على ان اهله
هم الصلحاء اهل دينه
وشريعته وانه لتاديه فى الفساد
والغى كان نفسه عمل غير
صالح وان سبب النجاة
ليس الا الصلاح لا قرابته
منك بحسب الصورة فمن
لا صلاح له لا نجاة له ولوح
الى انه صورة من صور
الخطايا صدرت منك كما
قيل انه سر من اسرار ابيه
على ما قال النبى عليه الصلاة
والسلام الولد سر ابيه وذلك
انما بالغ فى الدعوة وبلغ
الجهد فى المدة المتطاولة وما
اجابه قومه غضب ودعا

١ (بموضع)

بموضع يقال له عين وردة وروى عن ابن عباس انه كان بالهند قال والفوران الغليان (قلنا احمل فيها) يعنى قلنا لنوح احمل فى السفينة (من كل زوجين اثنين) الزوجان كل اثنين لا يستغنى احدهما عن الآخر كالذكر والانثى يقال لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكرا وانثى فحشر الله سبحانه وتعالى اليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب بيديه فى كل جنس منها فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى يده اليسرى فيحملهما فى السفينة (واهلك) اى واحمل اهلك وولدك وعيالك (الا من سبق عليه القول) يعنى بالهلاك واراد به امرأته واعلة وولده كنعان (ومن آمن) يعنى واحمل معك من آمن من قومك (وما آمن معه الا قليل) اختلفوا فى عدد من حمل نوح معه فى السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظى لم يكن فى السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال الاعمش كانوا سبعة نوحا وبنيه وثلاث كنائن له وقال محمد بن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة نفر آمنوا بنوح وازواجهم جميعا وقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وقال ابن عباس كان فى السفينة ثمانون رجلا احدهم جرهم قال الطبرى والصواب من القول فى ذلك ان يقال كما قال الله عز وجل وما آمن معه الا قليل فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغى ان يجاوز فى ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك فى كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مقاتل حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوحا جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس اول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما اراد ان يدخل الحمار ادخل صدره فتعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال له ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما ادخلك على يا عدو الله قال الم تقل ادخل وان كان الشيطان معك قال اخرج عنى يا عدو الله قال لابد من ان تحملنى معك فكان فيما يزعمون على ظهر السفينة هكذا نقله البغوى وقال الامام فخر الدين الرازى واما الذى روى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى اوهوائى فكيف يفر من الغرق وايضا فان كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيه قال البغوى وروى عن بعضهم ان الحية والعقرب اتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا احملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك ان لا نضر احدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح معه فى السفينة الا ما يلد ويبيض واما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيأ * قوله سبحانه وتعالى (وقال اركبوا فيها) يعنى وقال نوح لمن حمل معه اركبوا فى السفينة (بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم) يعنى بسم الله اجراؤها وارساؤها وقال الضحاك كان نوح اذا اراد ان تجرى السفينة قال بسم الله فجرى وكان اذا اراد ان ترسو يعنى تقف قال بسم الله فترسو اى تقف وهذا تعليم من الله لعباده انه من اراد امرا فلا ينبغى له ان يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون

عليهم بقوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا فذهل عن شهود قدرة الله وحكمته و انه يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى وكانت دعوته تلك ذنب حاله فى خطيئة مقامه فابتلاه الله بالفاجر الكفار الذى زعم حال غضبه انهم لا يلدون الا مثله وحكم على الله بظنه فزكاه عن خطيئة بتلك العقوبة وفى الحديث خلق الكافر من ذنب المؤمن (فلا تسألنى ما ليس لك به علم) من المجادلة

ذلك سببا للنجاح والفلاح فى سائر الامور (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) الموج ماارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح شبهه سبحانه وتعالى بالجبال فى عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء بالسير ارسل الله المطر اربعين يوما وليلة خرج الماء من الارض فذلك قوله سبحانه وتعالى ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر يعنى صار الماء نصفين نصفا من السماء ونصفا من الارض وارتفع الماء على اعلى جبل واطوله اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى اغرق كل شئ وروى انه لما كثر الماء فى السكك خافت ام صبي على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما لحقها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء الى رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فاغرقهما فلو رحم الله منهم احدا لرحم ام الصبي (ونادى نوح ابنه) يعنى كنعان وكان كافرا (وكان فى معزل) يعنى عن نوح لم يركب معه (يابنى اركب معنا) يعنى فى السفينة (ولاتكن مع الكافرين) يعنى فتهلك معهم (قال) يعنى قال كنعان (سآوى) يعنى سألتجئ واصير (الى جبل يعصمنى) يعنى يمنعنى (من الماء قال) يعنى قال له نوح (لاعاصم) يعنى لامانع (اليوم من امر الله) يعنى من عذابه (الامن رحم) يعنى الامن رحمه الله فينجيه من الغرق (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) يعنى كنعان (وقيل) يعنى بعد ما تناهى الطوفان واغرق الله قوم نوح (ياارض ابلعى ماءك) اى اشربيه (وياسماء اقلعى) اى امسكى (وغيض الماء) اى نقص ونضب يقال غاض الماء اذا نقص وذهب (وقضى الامر) يعنى وفرغ من الامر وهو هلاك قوم نوح (واستوت) يعنى واستقرت السفينة (على الجودى) وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل (وقيل بعدا) يعنى هلاكا (للقوم الظالمين) قال العلماء بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع اليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون فى منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح ان الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لاياًلف البيوت وطوّق الحمامة بالخضرة التى فى عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تالف البيوت وروى ان نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة اشهر ومرت بالبيت الحرام وقد رفعه الله من الغرق وبقى موضعه فطافت السفينة به سبعا واودع الحجر الاسود جبل ابى قبيس وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وامر جميع من معه بصيامه شكر الله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهى اوّل قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج احد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وسبب نجاته من الهلاك ان نوحا عليه السلام احتاج الى خشب ساج لاجل السفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج بن عنق من الشام الى نوح فنجاه الله من الغرق لذلك فان قلت كيف اقتضت الحكمة الالهية والكرم العظيم اغراق من لم يبلغوا الحلم من الاطفال ولم يدخلوا تحت التكليف بذنوب غيرهم قلت ذكر بعض المفسرين ان الله عز وجل اعقم ارحام نسائهم اربعين سنة فلم يولد لهم ولد تلك المدة وهذا الجواب ليس بقوى لانه رد عليه اغراق جميع الدواب والهوام والطير وغير ذلك من الحيوان ورد على ذلك ايضا

من ليس بصالح ولا من اهلك واعلم ان الصلاح هو سبب النجاة دون غيره وان اهلك هو ذو القربة المعنوية لاالصورية (انى اعظك ان تكون من الجاهلين) الواقفين مع ظواهر الامور المحجوبين عن حقائقها فتنبه عليه السلام عند ذلك التأديب الالهى والعتاب الربانى وتعوذ بقوله (قال رب انى اعوذ بك ان اسالك ماليس لى به علم والاتغفرلى) تاويناتى وظهور بقاياى (وترحمنى) بالاستقامة والتمكن (اكن من الخاسرين) الذين خسروا انفسهم بالاحتجاب عن علمك وحكمتك (قيل يانوح اهبط) اى اهبط من محل الجمع وذروة مقام

اهلاك اطفال الامم الكافرة مع آبائهم غير قوم نوح والجواب الشافي عن هذا كله ان الله سبحانه وتعالى متصرف في خلقه وهو المالك المطلق يفعل مايشاء ويحكم مايريد لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ❊ قوله عز وجل (ونادى نوح ربه) اى دعاه وسأله (فقال رب ان ابني من اهلي) يعني وقد وعدتني ان تنجيني واهلي (وان وعدك الحق) يعني الصدق الذي لاخلف فيه (وانت احكم الحاكمين) يعني انك حكمت لقوم بالنجاة وحكمت على قوم بالهلاك (قال) يعني قال الله تعالى (يا نوح انه) يعني هذا الابن الذي سألتني نجاته (ليس من اهلك) اختلف علماء التفسير هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه ام لا فقال الحسن ومجاهد كان ولد حدث من غير نوح ولم يعلم به فلذلك قال انه ليس من اهلك وقال محمد بن جعفر الباقر كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من اهلي ولم يقل مني وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك واكثر المفسرين انه ابن نوح من صلبه وهذا القول هو الصحيح والقولان الاولان ضعيفان بل باطلان ويدل على صحة هذا نقل الجمهور لما صح عن ابن عباس انه قال مابغت امرأة نبي قط ولان الله سبحانه وتعالى نص عليه بقوله سبحانه وتعالى ونادى نوح ابنه ونوح صلى الله عليه وسلم ايضا نص عليه بقوله يا بني اركب معنا وهذا نص في الدلالة وصرف الكلام عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة لايجوز وانما خالف هذا الظاهر من خالفه لانه استبعد ان يكون ولد نبي كافرا وهذا خطأ من قاله لان الله سبحانه وتعالى خلق خلقه فريق في الجنة وهم المؤمنون وفريق في السعير وهم الكفار والله سبحانه وتعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولافرق في ذلك بين الانبياء وغيرهم فان الله سبحانه وتعالى اخرج قابيل من صلب آدم عليه السلام وهو نبي وكان قابيل كافرا واخرج ابراهيم من صلب آزر وهو نبي وكان آزر كافرا فكذلك اخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبي فهو المتصرف في خلقه كيف يشاء فان قلت فعلى هذا كيف ناداه نوح فقال اركب معنا وسأل له النجاة مع قوله رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا قلت قد ذكر بعضهم ان نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم بكون ابنه كان كافرا فلذلك ناداه وعلى تقدير انه يعلم كفره انما حمله على ان ناداه رقة الابوة ولعله اذا رأى تلك الاهوال ان يسلم فينجيه الله بذلك من الغرق فاجابه الله عز وجل بقوله انه ليس من اهلك يعني انه ليس من اهل دينك لان اهل الرجل من يجمعه واياهم نسب اودين اومايجرى مجراهما ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب في كثير من الاحكام بين المسلم والكافر قال الله سبحانه وتعالى لنوح انه ليس من اهلك (انه عمل غير صالح) قرأ الكسائي ويعقوب عمل بكسر الميم وفتح اللام غير بفتح الراء على عود الفعل على الابن ومعناه انه عمل الشرك والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح وقرأ الباقون من القراء عمل بفتح الميم ورفع اللام مع التنوين وغير بضم الراء ومعناه ان سؤالك اياى ان انجيه من الغرق عمل غير صالح لان طلب نجاة الكافر بعد ماحكم عليه بالهلاك بعيد فلهذا قال سبحانه وتعالى انه عمل غير صالح ويجوز ان يعود الضمير في انه على ابن نوح ايضا ويكون التقدير على هذه القراءة ان ابنك ذو عمل اوصاحب عمل غير صالح فحذف المضاف كما قالت الخنساء ❊ فانما هي اقبال وادبار ❊ قال الواحدي وهذا قول ابي اسحق يعني الزجاج وابي بكر بن الانباري وابي على الفارسي قال ابو علي ويجوز ان يكون ابن نوح عمل عملا غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك منه كما يقال الشعر زهير والعلم فلان

الولاية والاستغراق في التوحيد الى مقام التفصيل وتشريع النبوة بالرجوع الى الخلق ومشاهدة الكثرة في عين الوحدة لاغضبا بالاحتجاب بهم عن الحق ولاراضيا بكفرهم بالاحتجاب بالحق عنهم (بسلام) اى سلامة عن الاحتجاب بالكثرة وظهور النفس بالغضب ووجود التلوين وحصول التعلق بعد التجرد والضلال بعد الهدى (منا) اى صادر منا وبنا (وبركات) بتقنين قوانين الشرع وتأسيس قواعد العدل الذي ينمو به كل شيء ويزيد (عليك وعلى امم) ناشئة (ممن معك) وعلى دينك وطريقتك الى آخر الزمان (وامم) اى

اذا كثر منه فعلى هذا لا حذف (فلا تسألني ما ليس لك به علم) وذلك أن نوحا عليه السلام سأل ربه انجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده وهو لا يعلم ان ذلك محظور لاصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسئلة واعلمه ان ذلك لا يجوز فكان المعنى فلا تسألني ما ليس لك به علم بجواز مسئلته (اني اعظك) يعني انهاك (ان تكون من الجاهلين) يعني لمثل هذا السؤال (قال) يعني قال نوح (رب اني اعوذ بك) يعني التجأ اليك واعتذر اليك (ان اسألك ما ليس لي به علم) يعني انك انت علام الغيوب وانا لا اعلم ما غاب عني فاعتذر اليك من مسئلتي ما ليس لي به علم (والا تغفر لي) يعني جهلي واقدامي على سؤالي ما ليس لي به علم (وترحمني) يعني برحمتك التي وسعت كل شئ (اكن من الخاسرين)

* (فصل وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الانبياء) * وبيانه ان قوله انه عمل غير صالح المراد منه السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلا تسألني ما ليس لك به علم وقوله سبحانه وتعالى اني اعظك ان تكون من الجاهلين يدل على ان ذلك السؤال كان جهلا ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه والجواب ان الله عز وجل كان قد وعد نوحا عليه السلام بان ينجيه واهله فاخذ نوح ظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك في وعد الله سبحانه وتعالى فاقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم وبين له انه ليس من اهله الذين وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح واعلمه الله سبحانه وتعالى انه مغرق مع الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فاشفق نوح من اقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ الى ربه عز وجل وخشع له وعاذ به وسأله المغفرة والرحمة لان حسنات الابرار سيآت المقربين وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تأويله واقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية والله اعلم * قوله سبحانه وتعالى (قيل يا نوح اهبط) اي انزل من السفينة او من الجبل الى الارض (بسلام) اي بامن وسلامة (منا وبركات عليك) البركة هي ثبوت الخير ونموه وزيادته وقيل المراد بالبركة هنا ان الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين الى يوم القيامة فكل العالم من ذرية اولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم (وعلى امم ممن معك) يعني وعلى ذرية امم ممن كانوا معك في السفينة والمعنى وبركات عليك وعلى قرون تجئ من بعدك من ذرية اولادك وهم المؤمنون قال محمد بن كعب القرظي دخل في هذا كل مؤمن الى يوم القيامة (وامم سنمتعهم) هذا ابتداء كلام اي وامم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا الى منتهى آجالهم (ثم يمسهم منا عذاب اليم) يعني في الآخرة (تلك من انباء الغيب) هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ان هذه القصة التي اخبرناك يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من انباء الغيب يعني من اخبار الغيب (نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا) يعني من قبل نزول القرآن عليك فان قلت ان قصة نوح كانت مشهورة معروفة في العالم فكيف قال ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا قلت يحتمل ان يكون كانوا يعلمونها مجملة فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها وجواب آخر وهو انه صلى الله عليه وسلم كان اميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت امته فصح قوله ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل نزول

(القرآن)

وينشأ ممن معك امم (سنمتعهم) في الحياة الدنيا الا احتجابهم بها وقواهم (ثم يمسهم منا عذاب اليم) باهلاكهم بكفرهم واحراقهم بنار الآثار وتعذيبهم بالهيآت وان شئت التطبيق اولت نوحا بروحك والفلك بكمالك العلمي والعملي الذي به نجاتك عند طوفان بحر الهيولى حتى اذا فار تنور البدن باستيلاء الرطوبة الغريبة والاخلاط الفاسدة واذن بالخراب ركب هو فيها وحمل معه من كل صنفين من وحوش القوى الحيوانية والطبيعية وطيور القوى الروحانية اثنين اي اصليهما وبنيه الثلاثة حام القلب وسام العقل النظري ويافث العقل العملي وزوجه النفس المطمئنة واجراها باسم الله الاعظم فنجا بالبقاء السرمدي من الهلاك الابدي بالطوفان وغرقت زوجه الاخرى التي هي الطبيعة الجسمانية وابنه منها الذي هو الوهم الآوي الى جبل الدماغ واولت استواءها على الجودي

القرآن بها (فاصبر) يا محمد على اذى مشركى قومك كما صبر نوح على اذى قومه (ان العاقبة) يعنى النصر والظفر على الاعداء والفوز بالسعادة الاخروية (للمتقين) يعنى للمؤمنين * قوله عز وجل (والى عاد) يعنى وارسلنا الى عاد (اخاهم هودا) يعنى اخاهم فى النسب لا فى الدين (قال يا قوم اعبدوا الله) يعنى وحدوا الله ولا تشركوا معه شيئا فى العبادة (مالكم من اله غيره) يعنى انه تعالى هو الهكم لا هذه الاصنام التى تعبدونها فانها حجارة لا تضر ولا تنفع (ان انتم الا مفترون) يعنى ما انتم الا كاذبون فى عبادتكم غيره (يا قوم لا اسئلكم عليه) يعنى على تبليغ الرسالة (اجرا) يعنى جعلا آخذه منكم (ان اجرى) يعنى ما ثوابى (الا على الذى فطرنى) يعنى خلقنى فانه هو الذى يرزقنى فى الدنيا ويثيبنى فى الآخرة (افلا تعقلون) يعنى فتتعظون (ويا قوم استغفروا ربكم) اى آمنوا به فالاستغفار هنا بمعنى الايمان لانه هو المطلوب اولا (ثم توبوا اليه) يعنى من شرككم وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم (يرسل السماء عليكم مدرارا) يعنى ينزل المطر عليكم متتابعا مرة بعد مرة فى اوقات الحاجة اليه وذلك ان بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم فامسك الله عنهم المطر مدة ثلاث سنين فاجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم واخبرهم هود عليه السلام انهم ان آمنوا بالله وصدقوه ارسل الله اليهم المطر فأحيا به بلادهم كما كانت اول مرة (ويزدكم قوة الى قوتكم) يعنى شدة مع شدتكم وقيل معناه انكم ان آمنتم يقوكم بالاموال والاولاد وذلك انه سبحانه وتعالى اعقم ارحام نسائهم فلم تلد فقال لهم هود عليه السلام ان آمنتم ارسل الله المطر فتزدادون مالا ويعيد ارحام الامهات الى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوة بالاموال والاولاد وقيل تزدادون قوة فى الدين الى قوة الابدان (ولا تتولوا مجرمين) يعنى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حال كونكم مشركين (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) اى ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) يعنى وما نترك عبادة آلهتنا لاجل قولك (وما نحن لك بمؤمنين) يعنى بمصدقين (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يعنى انك يا هود لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا الا ان بعض آلهتنا اصابك بخبل وجنون لانك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولا نحمل امرك الا على هذا (قال) يعنى قال هود مجيبا لهم (انى اشهد الله) يعنى على نفسى (واشهدوا) يعنى واشهدوا انتم ايضا علىّ (انى برئ مما تشركون من دونه) يعنى هذه الاصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى جميعا) يعنى احتالوا فى كيدى وضرى انتم واصنامكم التى تعتقدون انها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع (ثم لا تنظرون) يعنى ثم لا تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك انه كان وحيدا فى قومه فقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت الا لثقته بالله عز وجل وتوكله وهو قوله تعالى (انى توكلت على الله ربى وربكم) يعنى انه فوض امره الى الله واعتمد عليه (ما من دابة) يعنى تدب على الارض ويدخل فى هذا جميع بنى آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) يعنى انه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لان من اخذت بناصيته فقد قهرته والناصية مقدم الراس وسمى الشعر الذى عليه ناصية للمجاورة قيل انما خص الناصية بالذكر لان العرب تستعمل ذلك كثيرا

وهبوطه بمثل نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان (تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان انتم الا مفترون يا قوم لا اسئلكم عليه اجرا ان اجرى الا على الذى فطرنى افلا تعقلون ويا قوم استغفروا ربكم) من ذنوب حجب صفات النفس والوقوف مع الهوى بالشرك (ثم توبوا اليه يرسل السماء) بالتوجه الى التوحيد والسلوك فى طريقه بالتجرد والتنور يرسل سماء الروح (عليكم مدرارا) بماء العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية (ويزدكم قوة) قوة الكمال (الى قوتكم ولا تتولوا) قوة الاستعداد ولا تعرضوا عنه (مجرمين) بظهور صفات نفوسكم وتوجهكم الى الجهة السفلية بمحبة الدنيا ومتابعة الطبيعة (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) لقصور فهمهم وعمى

في كلامهم فاذا وصفوا انسانا بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا اذا اسروا
اسيرا وارادوا اطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتقدوا بذلك فخرا عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى
بما يعرفون من كلامهم (ان ربي على صراط مستقيم) يعني ان ربي وان كان قادرا وانتم في قبضته
كالعبد الذليل فانه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف والعدل فيجازي
المحسن باحسانه والمسيء بعصيانه وقيل معناه ان دين ربي هو الصراط المستقيم وقيل فيه اضمار تقديره
ان ربي يحملكم على صراط مستقيم (فان تولوا) يعني تتولوا بمعنى تعرضوا عن الايمان بما
ارسلت به اليكم (فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم) يعني اني لم يقع مني تقصير في تبليغ ما ارسلت
به اليكم انما التقصير منكم في قبول ذلك (ويستخلف ربي قوما غيركم) يعني انكم ان اعرضتم
عن الايمان وقبول ما ارسلت به اليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم اطوع منكم يوحدونه
ويعبدونه وفيه اشارة الى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد (ولا تضرونه شيأ) يعني بتوليكم
انما تضرون انفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيأ اذا اهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء
(ان ربي على كل شيء حفيظ) يعني انه تعالى حافظ لكل شيء فيحفظني من ان تنالوني بسوء * قوله
سبحانه وتعالى (ولما جاء امرنا) يعني باهلاكهم وعذابهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه)
وكانوا اربعة آلاف (برحمة منا) وذلك ان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما انجى
الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) يعني الريح التي
اهلكت عادا وذلك ان الله سبحانه وتعالى ارسل على عاد ريحا شديدة غليظة سبع ليال وثمانية ايام حسوما
وهي الايام النحسات فاهلكتهم جميعا وانجى الله المؤمنين جميعا فلم تضرهم شيأ وقيل المراد بالعذاب
الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى انه تعالى كما انجاهم من
عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظ لانه اعظم
من عذاب الدنيا (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب
امة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد رده الى القبيلة وفيه اشارة الى قبورهم وآثارهم كانه
قال سيروا في الارض فانظروا اليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم
يعني المعجزات التي اتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعني هودا وحده وانما اتى به بلفظ الجمع
اما للتعظيم اولان من كذب برسول فقد كذب كل الرسل (واتبعوا امر كل جبار عنيد) يعني
ان السفلة منهم اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع في نفسه المتمرد على الله والعنيد المعاند الذي
لا يقبل الحق ولا يتبعه (واتبعوا في هذه الدنيا لعنة) يعني اردفوا لعنة تتبعهم وتلحقهم وتنصرف
معهم واللعنة الطرد والابعاد من رحمة الله (ويوم القيامة) يعني وفي يوم القيامة ايضا تتبعهم اللعنة
كما تتبعهم في الدنيا ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الذي استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى
(الا ان عادا كفروا ربهم) اي كفروا بربهم (الا بعدا لعاد) يعني هلاكا لهم وقيل بعدا
عن الرحمة فان قلت اللعنة معناها الابعاد والهلاك فما الفائدة في قوله الابعدا لعاد لان الثاني هو
الاول بعينه قلت الفائدة فيه ان التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على نهاية التأكيد وانهم كانوا
مستحقين له (قوم هود) عطف بيان لعاد فان قلت هذا البيان حاصل مفهوم فما الفائدة في قوله
قوم هود قلت ان عادا كانوا قبيلتين عادا الاولى القديمة التي هم قوم هود وعادا الثانية وهم ارم

بصيرتهم عن ادراك البرهان
لمكان الغشاوات الطبيعية
واذا لم يدركوه انكروه
بالضرورة (انى توكلت
على الله ربي وربكم ما من
دابة الا هو آخذ بناصيتها)
بين وجوب التوكل
على الله وكونه حصنا
حصينا اولا بان ربوبيته
شاملة لكل احد ومن يرب
يدبر امر المربوب ويحفظه
فلا حاجة له الى كلاءة غيره
وحفظه ثم بان كل ذي
نفس تحت قهره وسلطانه
اسير في يد تصرفه ومملكته
وقدرته عاجز عن الفعل
والقوة والتأثير في غيره
لا حراك به بنفسه كالميت
فلا حاجة الى الاحتراز منه
والتحفظ ثم بانه (ان ربي
على صراط مستقيم) اي
على طريق العدل في عالم
الكثرة الذي هو ظل
وحدته فلا يسلط احدا
على احد الا عن استحقاق له
لذلك بسبب ذنب وجرم
ولا يعاقب احدا من غير
زلة ولو صغيرة وقد يكون
لتزكية ورفع درجة
كالشهادة وفي ضمن ذلك
كله نفي القدرة على النفع
والضر عنهم وعن التهم
(فان تولوا فقد ابلغتكم
ما ارسلت به اليكم ويستخلف

ذات العماد وهم العماليق فاتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه وجواب آخر وهوان المبالغة
فى التنصيص تدل على تقوية التأكيد * قوله عزوجل (والى ثمود اخاهم صالحا) يعنى وارسلنا
الى ثمود وهم سكان الحجر اخاهم صالحا يعنى فى النسب لا فى الدين (قال ياقوم اعبدوا الله) وخصوه
بالعبادة (مالكم من اله غيره) يعنى هو الهكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر سبحانه
وتعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى (هو انشأكم من الارض) يعنى انه هو
ابتدا خلقكم من الارض وذلك انهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض (واستعمركم فيها) يعنى
وجعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك اطال اعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة
الى الف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد اعمركم من العمرى اى جعلها لكم ماعشتم (فاستغفروه)
يعنى من ذنوبكم (ثم توبوا اليه) يعنى من الشرك (ان ربى قريب)يعنى من المؤمنين (مجيب)
لدعائهم (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) يعنى هذا القول الذى جئت به
والمعنى انا كنا نرجو ان تكون فينا سيدا لانه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويعنى
فقيرهم وقيل معناه انا كنا نطمع ان تعود الى ديننا فلما اظهر دعاهم الى الله وعاب الاصنام انقطع
وجاهم منه (اتنهانا ان نعبد مايعبد آباؤنا) يعنى الآلهة (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) يعنى من
عبادة الله (مريب) يعنى انا مرتابون فى قولك من ارابه اذا اوقعه فى الريبة وهى قلق النفس
ووقوعها فى التهمة (قال) يعنى قال صالح مجيبا لقومه (ياقوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربى)
يعنى على يقين وبرهان (وآتانى منه رحمة) يعنى نبوة وحكمة (فمن ينصرنى من الله) اى
فمن يمنعنى من عذاب الله (ان عصيته) يعنى ان خالفت امره (فما تزيدوننى غير تخسير) قال ابن
عباس معناه غير بصارة فى خسارتكم وقال الحسن بن الفضل لم يكن صالح فى خسارة حتى يقول
فما تزيدوننى غير تخسير وانما المعنى فما تزيدوننى بما تقول الانسبتى الى الخسارة (وياقوم
هذه ناقة الله لكم آية) وذلك ان قومه طلبوا ان يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك اشاروا اليها
فدعا الله عزوجل فاخرج لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصيلا يشبهها وقوله ناقة
الله اضافة تشريف كبيت الله وعبد الله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح
عليه السلام (فذروها تأكل) يعنى من العشب والنبات (فى ارض الله) يعنى فليس عليكم
مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) يعنى بعقر (فيأخذكم) يعنى ان قتلتموها (عذاب قريب) يعنى
فى الدنيا (فعقروها) يعنى فخالفوا امر ربهم فعقروها (فقال) يعنى فقال لهم صالح (تمتعوا)
يعنى عيشوا (فى داركم) اى فى بلدكم (ثلاثة ايام) يعنى ثم تهلكون (ذلك) يعنى العذاب الذى
اوعدهم به بعد ثلاثة ايام (وعد غير مكذوب) اى هو غير كذب روى انه قال لهم يأتيكم العذاب
بعد ثلاثة ايام فتصبحون فى اليوم الاول ووجوهكم مصفرة وفى اليوم الثانى محمرة وفى اليوم الثالث
مسودة فكان كما قال واتاهم العذاب فى اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاء امرنا) يعنى
العذاب (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) اى بنعمة منا بان هديناهم الى الايمان فآمنوا
(ومن خزى يومئذ) يعنى ونجيناهم من عذاب يومئذ سمى خزيا لان فيه خزى الكافرين (ان
ربك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى ان ربك يا محمد (هو القوى) يعنى هو القادر على
انجاء المؤمنين واهلاك الكافرين (العزيز) يعنى القاهر الذى لا يغلبه شئ ثم اخبر عن عذاب قوم

ربى قوما غيركم ولا تضرونه
شيأ ان ربى على كل شئ
حفيظ ولما جاء امرنا نجينا
هودا والذين امنوا معه
برحمة منا ونجيناهم من
عذاب غليظ وتلك عاد
جحدوا بايات ربهم وعصوا
رسله واتبعوا امر كل جبار
عنيد واتبعوا فى هذه الدنيا
لعنة ويوم القيمة الا ان عادا
كفروا ربهم الا بعدا لعاد
قوم هود والى ثمود اخاهم
صالحا قال ياقوم اعبدوا الله
مالكم من اله غيره
هو انشأكم من الارض
واستعمركم فيها فاستغفروه
ثم توبوا اليه ان ربى قريب
مجيب قالوا ياصالح قد كنت
فينا مرجوا قبل هذا اتنهانا
ان نعبد مايعبد اباؤنا واننا لفى
شك مما تدعونا اليه مريب
قال ياقوم ارأيتم ان كنت
على بينة من ربى واتانى منه
رحمة فمن ينصرنى من الله
ان عصيته فما تزيدوننى غير
تخسير وياقوم هذه ناقة الله
لكم آية) قد مر تأويل
الناقة واما انجاء صالح ومن
معه على التأويل المذكور
فكانجاء عيسى عليه السلام
من الصلب كما جاء فى قوله
وماقتلوه وماصلبوه ولكن
شبه لهم وفى قوله وماقتلوه
يقينا بل رفعه الله اليه وكانجاء

مؤمن آل فرعون على
ماأشار اليه بقوله فوقاه الله
سيئات ما مكروا (فذروها
تأكل في ارض الله ولا تمسوها
بسوء فيأخذكم عذاب قريب
فعقروها فقال تمتعوا في داركم
ثلاثة ايام ذلك وعد غير
مكذوب فلما جاء امرنا نجينا
صالحا والذين آمنوا معه
برحمة منا ومن خزي يومئذ
ان ربك هو القوي العزيز
واخذ الذين ظلموا الصيحة
فاصبحوا في ديارهم جاثمين
كأن لم يغنوا فيها الا ان ثمودا
كفروا ربهم الا بعدا لثمود
ولقد جاءت رسلنا ابراهيم
بالبشرى قالوا سلاما قال سلام
فما لبث ان جاء بعجل حنيذ
فلما رأى ايديهم لا تصل اليه
نكرهم واوجس منهم
خيفة قالوا لا تخف انا ارسلنا
الى قوم لوط وامرأته قائمة
فضحكت فبشرناها باسحق
ومن وراء اسحق يعقوب
قالت ياويلتى األد وأنا عجوز
وهذا بعلي شيخا ان هذا
لشيء عجيب قالوا أتعجبين
من امر الله رحمت الله وبركاته
عليكم اهل البيت انه حميد
مجيد فلما ذهب عن ابراهيم
الروع وجاءته البشرى
يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم
لحليم اواه منيب يا ابراهيم
اعرض عن هذا انه قد جاء

صالح فقال سبحانه وتعالى (واخذ الذين ظلموا) يعني انفسهم بالكفر (الصيحة) وذلك ان جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا وقيل اتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت لكل شيء في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا (فاصبحوا في ديارهم جاثمين) يعني صرعى هلكى (كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا اتيته واقمت به (الا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود) وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة في تفسير سورة الاعراف * قوله عز وجل (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) اراد بالرسل الملائكة واختلفوا في عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبريل وميكائل واسرافل وقال الضحاك كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة املاك وقال السدي كانوا احد عشر ملكا على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس هو الاولى لان اقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جمع فيحتمل على الاقل وما بعده غير مقطوع به بالبشرى يعني بالبشارة باسحق ويعقوب وقيل باهلاك قوم لوط (قالوا سلاما) يعني ان الملائكة سلموا سلاما (قال) يعني لهم ابراهيم (سلام) اي عليكم او امركم سلام (فما لبث ان جاء بعجل حنيذ) يعني مشويا والحنوذ هو المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الارض وهو من فعل اهل البادية وكان سمينا يسيل منه الودك قال قتادة كان عامة مال ابراهيم عليه السلام البقر وقيل مكث ابراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءت الملائكة رأى اضيافا لم ير مثلهم قط فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوي (فلما رأى ايديهم) يعني ايدي الاضياف (لا تصل اليه) يعني الى العجل المشوي (نكرهم) يعني انكرهم وانكر حالهم وانما انكر حالهم لامتناعهم من الطعام (واوجس منهم خيفة) يعني ووقع في قلبه خوف منهم والوجس هو رعب القلب وانما خاف ابراهيم صلى الله عليه وسلم منهم لانه كان ينزل ناحية من الناس فخاف ان ينزلوا به مكروها لامتناعهم من طعامه ولم يعرف انهم ملائكة وقيل ان ابراهيم عرف انهم ملائكة وانما خاف ان يكونوا نزلوا بعذاب قومه فخاف من ذلك والاقرب ان ابراهيم عليه السلام لم يعرف انهم ملائكة في اول الامر ويدل على صحة هذا انه عليه السلام قدم اليهم الطعام ولو عرف انهم ملائكة لما قدمه اليهم لعلمه ان الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولانه خافهم ولو عرف انهم ملائكة لما خافهم فلما رأت الملائكة خوف ابراهيم عليه السلام (قالوا لا تخف) يا ابراهيم (انا) ملائكة الله (ارسلنا الى قوم لوط وامرأته) يعني سارة زوجة ابراهيم وهي ابنة هاران بن ناحورا وهي ابنة عم ابراهيم (قائمة) يعني من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت قائمة في خدمة الرسل وابراهيم جالس معهم (فضحكت) اصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد ايضا وللعلماء في تفسير هذا الضحك قولان احدهما انه الضحك المعروف وعليه اكثر المفسرين ثم اختلفوا في سبب هذا الضحك فقال السدي لما قرب ابراهيم الطعام الى اضيافه فلم يأكلوا خاف ابراهيم منهم فقال الا تأكلون فقالوا انا لا نأكل طعاما الا بثمن قال فان له ثمنا قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله على اوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل الى ميكائيل وقال حق لهذا ان يتخذه ربه خليلا فلما رأى ابراهيم وسارة ايديهم

(لاتصل)

لاتصل اليه ضحكت سارة وقالت ياعجبا لاضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لايأكلون طعامنا وقال قتادة ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم وقال مقاتل والكلبي ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن ابراهيم وذلك انها خافت لخوفه فحين قالوا لاتخف ضحكت سرورا وقيل ضحكت سرورا بالبشارة وقال ابن عباس ووهب ضحكت تعجبا من ان يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فبشرناها باسحق فضحكت يعني تعجبا من ذلك وقيل انها قالت لابراهيم اضمم اليك ابن اخيك لوطا فان العذاب نازل بقومه فلما جاءت الرسل وبشرت بعذابهم سرت سارة بذلك وضحكت لموافقة ماظنت القول الثاني في معنى قوله فضحكت قال عكرمة ومجاهد اى حاضت في الوقت وانكر بعض اهل اللغة ذلك قال الراغب وقول من قال حاضت ليس ذلك تفسيرا لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين فقال ضحكت بمعنى حاضت وانما ذكر ذلك تخصيصا لحالها فان جعل ذلك امارة لما بشرت به فحيضها في الوقت لتعلم ان حملها ليس بمنكر لان المرأة مادامت تحيض فانها تحمل وقال الفراء ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال الزجاج ليس بشئ ضحكت بمعنى حاضت وقال ابن الانباري قد انكر الفراء وابو عبيدة ان يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد عرفه غيرهم وانشد

تضحك الضبع لقتلى هذيل * وترى الذئب بها يستهل

قال اراد انها تحيض فرحا وقال الليث في هذه الآية فضحكت اى طمثت وحكى الازهري عن بعضهم في قوله فضحكت اى حاضت قال ويقال اصله من ضحاك الطلعة اذا انشقت قال وقال الاخطل فيه بمعنى الحيض

تضحك الضبع من دماء سليم * اذ رأتها على الحراب تمور

وقال في المحكم ضحكت المرأة حاضت وبه فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها باسحق وضحكت الارنب ضحكا يعني حاضت حيضا قال وضحك الارانب فوق الصفا * كمثل دم الخوف يوم اللقا يعني الحيض فيما زعم بعضهم واجاب عن هذا من انكر ان يكون الضحك بمعنى الحيض قال كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع عند كشرها علم انها تحيض وانما اراد الشاعر تكشر لاكل اللحوم وهذا سهو منه لانه جعل كشرها حيضا وقيل معناه انها تستبشر بالقتلى فتهز بعضها على بعض فجعل هزيزها ضحكا وقيل لانها تسر بهم فجعل سرورها ضحكا فان قلت اى القولين اصح في معنى الضحك قلت ان الله عز وجل حكى عنها انها ضحكت وكلا القولين محتمل في معنى الضحك فالله اعلم اى ذلك كان * وقوله سبحانه وتعالى (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) يعني ومن بعد اسحق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بانها تعيش حتى ترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد صكت وجهها اى ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعادتهن وانما فعلت ذلك تعجبا (قالت ياويلتى) نداء ندبة واصلها ياويلاه وهي كلمة يستعملها الانسان عند رؤية مايتعجب منه مثل ياعجبا (ءالد وانا عجوز) وكانت بنت تسعين سنة في قول ابن اسحق وقال مجاهد كانت بنت تسع وتسعين سنة (وهذا بعلي) يعني زوجي والبعل هو المستعلي على غيره ولما كان زوج المرأة مستعليا عليها قائما بامرها

امر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتي هن اطهر لكم فاتقوا الله ولاتخزون في ضيفي اليس منكم رجل رشيد) ان للنفوس الشريفة الانسانية اتصالات بالمبادي المجردة العالية والارواح المقدسة الفلكية من الانوار القاهرة العقلية والنفوس المدبرة السماوية واختلاطات بالملأ الاعلى من اهل الجبروت وانخراطات في سلك الملكوت ولكل نفس بحسب فطرتها مبدأ يناسبها من عالم الجبروت ومدبر يربها من عالم الملكوت تستمد من الاول فيض العلم والنور ومن الثاني مدد القوة والعمل كما اشار اليه قوله وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ومقر أصلي تأوي اليه من جناب اللاهوت ان تجردت كما قال عليه الصلاة والسلام ارواح الشهداء تأوي الى قناديل من نور معلقة تحت العرش وكلما انجذبت الى الجهة السفلية بالميل الى اللذات الطبيعية احتجبت بغشاوتها

سمى بعلا لذلك (شيخا) وكان سن ابراهيم يومئذ مائة وعشرين فى قول محمد بن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة (ان هذا لشئ عجيب) لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وانما تعجبت من كون الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يولد لهما (قالوا) يعنى قالت الملائكة لسارة (اتعجبين من امر الله) معناه لاتعجبى من ذلك فان الله سبحانه وتعالى قادر على كل شئ فاذا اراد شيأ كان سريعا (رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت) يعنى بيت ابراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على ان ازواج الرجل من اهل بيته (انه حميد) يعنى هو المحمود الذى يحمد على افعاله كلها وهو المستحق لان يحمد فى السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال (مجيد) ومعناه المنيع الذى لايرام وقال الخطابى المجيد الواسع الكرم واصل المجد فى كلامهم السعة يقال رجل ماجد اذا كان سخيا كريما واسع العطاء وقيل الماجد والشرف والكرم * قوله سبحانه وتعالى (فلما ذهب عن ابرهيم الروع) يعنى الفزع والخوف الذى حصل له عند امتناع الملائكة من الاكل (وجاءته البشرى) يعنى زال عنه الخوف بسبب البشرى التى جاءته وهى البشارة بالولد (يجادلنا) فيه اضمار تقديره اخذ يجادلنا اوجعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا (فى قوم لوط) لان العبد لايقدر ان يخاصم ربه وقال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا فى قوم لوط وكانت مجادلة ابراهيم مع الملائكة ان قال لهم ارأيتم لوكان فى مدائن قوم لوط خمسون رجلا من المؤمنين اتهلكونها قالوا لاقال فاربعون قالوا لاقال فثلاثون قالوا لاقال فمازال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لاقال ارأيتم لوكان فيها رجل واحد مسلم اتهلكونهـا قالوا لاقال ابراهيم فان فيهـا لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الاامرأته كانت من الغابرين وقيل انما طلب ابراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون اويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى قال ابن جريج كان فى قرى قوم لوط اربعة آلاف مقاتل (ان ابرهيم لحليم اواه منيب) تقدم تفسيره فى سورة التوبة فعند ذلك قالت الملائكة لابراهيم (ياابرهيم اعرض عن هذا) يعنى اعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال (انه قد جاء امر ربك) يعنى ان ربك قد حكم بعذابهم فهو نازل بهم وهو قوله سبحانه وتعالى (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) يعنى ان العذاب الذى نزل بهم غير مصروف ولامدفوع عنهم * قوله عزوجل (ولما جاءت رسلنا لوطا) يعنى هؤلاء الملائكة الذين كانوا عند ابراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسـان الوجوه (سئ بهم) يعنى احزن لوط بمجيئهم اليه وساء ظنه بقومه (وضاق بهم ذرعا) قال الازهرى الذرع يوضع موضع الطاقة والاصل فيه ان البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فاذا حمل عليه اكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومدعنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة والمعنى وضاق بهم ذرعا اذلم يجد من المكروه فى ذلك الامر مخلصا وقال غيره معناه ضاق بهم قلبا وصدرا لايعرف اصله الاان يقال ان الذرع كناية عن الوسع والعرب تقول ليس هذا فى يدى يعنون ليس هذا فى وسعى لان الذراع من اليد ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا اذا وقع فى مكروه ولايطيق الخروج منه وذلك ان لوطا عليه السلام لما نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم اشفق عليهم من قومه وخاف ان يقصدوهم بمكروه اوفاحشة وعلم

(انه)

من ذلك الجنـاب وانقطع مددهـا من تلك الجهة من الانوار الجبروتية والقوى الملكوتيـة فضعفت فى الادراكات لاحتجابهـا عن قبول تلك الاشراقات وفى المنة والقوة لانقطـاع مددها من تلك القوة وكلما توجهت الى الجهة العلوية بالتنزه عن الهيآت البدنية والتجرد عن الملابس المادية والتقرب الى الله تعالى مبدا المبادى ونور الانوار بالزهد والعبادة والتشبث فى المبادى بالنظافة والنزاهة مقرنا عمله بالصدق فى النية واخلاص الطوية امده الله تعالى لمناسبته سكان حضرته من عالمهم امداد النور والقوة فتعلم مالايعلمه غيرها من ابناء جنسها وتقدر على مالايقدر عليه مثلها من بنى نوعها ويكون لها اوقات تنخرط فيها فى سلكها بالانخلاع عن بدنها واوقات تبعد فيها عنها عاهى ممنوة به من تدبير جسدها فى اوقات اتصالها بها وانخراطها فى سلكها قد تتلقى الغيب منها اماكما هو على سبيل الوحى والالهام والالقاء فى الروح والاعلام بمطالعة صورة الغيب المنتقشة هى بها منها واماعلى طريق الهتـاف والانهاء واماعلى صـورة

سيحتاج الى المدافعة عنهم (وقال) يعنى لوطا (هذا يوم عصيب) اى شديد كانه قدعصب به الشر والبلاء اى شدبه مأخوذ من العصابة التى تشدبها الرأس قال قتادة والسدى خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو يعمل فى ارض له وقيل انه كان يحتطب وقد قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط اربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم امابلغكم امر هذه القرية قالوا وماامرهم قال اشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك اربع مرات فمضوا معه حتى دخلوا منزله وقيل انه لماحمل الحطب ومعه الملائكة مر على جماعة من قومه فتغامزوا فيما بينهم فقال لوط ان قومى شر خلق الله تعالى فقال جبريل هذه واحدة فمر على جماعة اخرى فتغامزوا فقال مثله ثم مر على جماعة اخرى ففعلوا ذلك وقال لوط مثل ماقال اولا حتى قال ذلك اربع مرات وكلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا وقيل ان الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه فى داره فدخلوا عليه ولم يعلم احد بمجيئهم الا اهل بيت لوط فخرجت امرأته الخبيثة فأخبرت قومها وقال ان فى بيت اوط رجالا مارأيت مثل وجوههم قط ولا احسن منهم (وجاء قومه يهرعون اليه) قال ابن عباس وقتادة يسرعون اليه وقال مجاهد يهرولون وقال الحسن الاهراع هو مشى بين مشيين وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز (ومن قبل) يعنى ومن قبل مجئ الرسل اليهم قيل ومن قبل مجيئهم الى اوط (كانوا يعملون السيئات) يعنى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهى اتيان الرجال فى ادبارهم (قال) يعنى قال لوط لقومه حين قصدوا اضيافه وظنوا انهم غلمان من بنى آدم (ياقوم هؤلاء بناتى) يعنى ازوجكم اياهن وفى اضيافه بناته قيل انه كان فى ذلك الوقت وفى تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر وقال الحسن بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الاسلام وقال مجاهد وسعيد بن جبير اراد بناته نساء قومه واضافهن الى نفسه لان كل نبى ابو امته وهو كالوالد لهم وهذا القول هو الصحيح واشبه بالصواب ان شاء الله تعالى والدليل عليه ان بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة ان يعرض الرجل بناته على اعدائه ليزوجهن اياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الانبياء ان يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل انما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لاعلى سبيل التحقيق * وفى قوله (هن اطهر لكم) سؤال وهو ان يقال ان قوله هن اطهر لكم من باب افعل التفضيل فيقتضى ان يكون الذى يطلبونه من الرجال طاهرا ومعلوم انه محرم فاسد نجس لاطهارة فيه البتة فكيف قال هن اطهر لكم والجواب عن هذا السؤال ان هذا جار مجرى قوله ذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم ومعلوم ان شجرة الزقوم لاخير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم احد اعل هبل قال الله اعلى واجل اذ لامماثلة بين الله عز وجل والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة * وقوله (فاتقوا الله) يعنى خافوه وراقبوه واتركوا ماانتم عليه من الكفر والعصيان (ولاتخزون فى ضيفى) يعنى ولاتسوؤنى فى اضيافى ولاتفضحونى معهم (اليس منكم رجل رشيد) اى صالح سديد عاقل وقال عكرمة رجل يقول لااله الا الله وقال محمد بن اسحق رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح (قالوا لقدعلمت مالنا فى بناتك من حق) يعنى ليس لنا بهن حاجة ولالنا فيهن شهوة وقيل معناه ليست

كتابة فى صحيفة تطالعه منها وذلك بحسب جهة قبول لوح حسها المشترك واختصاصه بنوع بعض المحسوسات دون بعض للاحوال السابقة والاتفاقات العارضة وقد يتراءى لها صور منها تناسبها فى الحسن واللطافة فيتجسد لها ما بقوة تخيلها وظهورها فى حسها المشترك لاستحكام الاتصال واستقراره ربما تحاكيها المتخيلة واما بتمثلها فى متخيلة الكل التى هى السماء الدنيا وانطباعها فى متخيلتها بالانعكاس كما فيما بين المرايا المتقابلة فتخاطبها بصورة الغيب شفاها على مايرى فى المنامات الصادقة من غير فرق فان الرؤيا الصادقة والوحى كلاهما من واد واحد لاتباين بينهما الا بالنوم واليقظة فان صاحب الوحى يقدر على الغيبة من الحواس وادراكاتها وعزلها عن افعالها وتعطيلها فى استعمالها فيتصل بالمجردات العلوية لقوة نفسه وحصول ملكة الاتصال لها وصاحب الرؤيا الصادقة يقع له ذلك بحكم الطبع وتلك الرؤيا هى التى لاتحتاج الى تعبير كما اشار اليه من رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن

بنـاتك لنا بازواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه مالنا فى بناتك من حاجة لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ولا نريد ذلك (وانك لتعلم مانريد) يعنى من اتيان الرجال فى ادبارهم فعند ذلك (قال) لوط عليه السلام (لوان لى بكم قوّة) اى لو انى اقدر ان اتقوّى عليكم (اوآوى الى ركن شديد) يعنى او انضم الى عشيرة يمنعونى منكم وجواب لو محذوف تقديره لو وجدت قوّة لقاتلتكم او او وجدت عشيرة لانضممت اليهم قال ابو هريرة مابعث الله نبيا بعده الا فى منعة من عشيرته (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله لوطا لقد كان يأوى الى ركن شديد ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف ثم اتانى الداعى لاجبته قال الشيخ محيي الدين النووى رحمه الله المراد بالركن الشديد هو الله عزوجل فانه اشد الاركان واقواها وامنعها ومعنى الحديث ان لوطا عليه السلام لما خاف على اضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال فى تلك الحال لو ان لى بكم قوّة فى الدفع بنفسى اوآوى الى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط اظهار العذر عند اضيافه وانه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقى الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتى فى موضعه من سورة يوسف ان شاء الله تعالى قال ابن عباس واهل التفسير اغلق لوط بابه والملائكة معه فى الدار وجعل يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وقومه يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة مالقى لوط بسببهم (قالوا يالوط) ركنك شديد (انا رسل ربك لن يصلوا اليك) يعنى بمكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه عزوجل فى عقوبتهم فاذن له فتحول الى صورته التى يكون فيها ونشر جناحيه وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا اجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كانه الثلج بياضا وقدماه الى الخضرة فضرب بجناحيه وجوههم فطمس اعينهم واعماهم فصاروا لايعرفون الطريق ولايهتدون الى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء فى بيت لوط اسحر قوم فى الارض قد سحرونا وجعلوا يقولون يا لوط كما انت حتى تصبح وسترى ماتلقى منا غدا يوعدونه بذلك (فاسر باهلك) يعنى ببنتك (بقطع من الليل) قال ابن عباس بطائفة من الليل وقال الضحاك ببقية من الليل وقال قتادة بعد مضى اوله وقيل انه السحر الاول (ولايلتفت منكم احد) يعنى ولايلتفت منكم احد الى ورائه ولاينظر الى خلفه (الاامرأتك) فانها من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى (انه مصيبها مااصابهم) فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا (ان موعدهم الصبح) قال لوط انه بعيد اريد اسرع من ذلك فقالوا له (اليس الصبح بقريب) فلما خرج لوط من قريته اخذ اهله معه وامرهم ان لايلتفت منهم احد فقبلوا منه الا امرأته فانها لما سمعت هدة العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت واقوماه فاخذتها حجارة فاهلكتها معهم (فلما جاء امرنا) يعنى امرنا بالعذاب (جعلنا عاليها سافلها) وذلك ان جبريل عليه السلام ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهى خمس مدائن اكبرها سدوم وهى المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة ويقال كان فيها اربعمائة الف وقيل اربعة آلاف الف فرفع جبريل المدائن كلها حتى سمع اهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينتبه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها (وامطرنا عليها) يعنى على شذاذها ومن كان خارجا عنها من مسافريها وقيل بعد ماقلبها امطر عليهم (حجارة من سجيل)

بقوله لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون ولهذا جعل الرؤيا الصادقة جزأ من ستة واربعين جزأ من النبوّة وكانت مقدمة وحيه المنامات الصادقة ستة اشهر ثم استحكمت وصارت الى اليقظة وقد تنتقل المنزلة اى الحالتين اى النوم واليقظة الى اللوازم فيقع الاحتياج الى التعبير والتأويل وقد يظهر على تلك النفس المتدربة بملكة الاتصال المتمرّنة فيها من خوارق العادات وانواع الكرامات والمعجزات لوصول المدد من عالم القدرة ماينكر من لايعلمه من المحجوبين بالعادة واصحاب قسوة القلوب والجفوة والمحجوبين بالعقول الناقصة المشوبة بالوهم القاصرة عن بلوغ الحد وادراك الحق ويقبله من تنور قلبه بنور الهداية وعصم من الضلالة والغواية استبصارا وايقانا او سلمت فطرته من الحجب المظلمة والغباوة وحصلت من الجهالة والغشاوة تقليدا وايمانا للين قلبه بالارادة

قال ابن عباس وسعيد بن جبير معناه سنك كل فارسي معرب لان العرب اذا تكلمت بشئ من الفارسي صارلغة للعرب ولايضاف الى الفارسي مثل قوله سندس واستبرق ونحو ذلك فكل هذه الفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في الفاظهم فصارت عربية قال قتادة وعكرمة السجيل الطين دليله قوله في موضع اخر حجارة من طين وقال مجاهد اولها حجر وآخرها طين وقال الحسن اصل الحجارة طين فشدت وقال الضحاك يعني الآجر وقيل السجيل اسم سماء الدنيا وقيل هو جبل في سماء الدنيا (منضود) قال ابن عباس متتابع يتبع بعضها بعضا مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه فوق بعض (مسوّمة عند ربك) صفة للحجارة يعني معلمة قال ابن جريج عليها سيما لاتشاكل حجارة الارض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن والسدي كانت مختومة عليها امثال الخواتيم وقيل كان مكتوبا عليها اي على كل حجر اسم صاحبه الذي يرمى به (وماهي) يعني تلك الحجارة (من الظالمين) يعني مشركي مكة (ببعيد) قال قتادة وعكرمة يعني ظالمي هذه الامة والله ماجار الله منها ظالما بعده وفي بعض الآثار مامن ظالم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل ان الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى ان واحدا منهم دخل الحرم فوجد الحجر معلقا في السماء اربعين يوما حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فاهلكه ❊ قوله عزوجل (والى مدين) يعني وارسلنا الى مدين (اخاهم شعيبا) مدين اسم لابن ابراهيم الخليل عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة من اولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين بن ابراهيم فعلى هذا يكون التقدير وارسلنا الى اهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعني وحدوا الله ولاتعبدوا معه غيره كانت عادة الانبياء عليهم الصلاة والسلام يبدؤن بالاهم فالاهم ولما كانت الدعوة الى توحيد الله وعبادته اهم الاشياء قال شعيب اعبدوا الله مالكم من اله غيره ثم بعد الدعوة الى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من اهل مدين البخس في الكيل والوزن دعاهم الى ترك هذه العادة القبيحة وهي تطفيف الكيل والوزن فقال (ولاتنقصوا المكيال والميزان) النقص في الكيل والوزن على وجهين احدهما ان يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون ويزنون للغير ناقصا والوجه الآخر هو استيفاء الكيل والوزن لانفسهم زائدا عن حقهم فيكون نقصا في مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله ولاتنقصوا المكيال والميزان (اني اراكم بخير) قال ابن عباس كانوا موسرين في نعمة وقال مجاهد كانوا في خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحصول النقمة ان لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله (واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط) يعني يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال في الدنيا اوحذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين (وياقوم اوفوا المكيال والميزان) اي اتموهما ولا تطففوا فيهما (بالقسط) اي بالعدل وقيل بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال (ولاتبخسوا الناس) اي ولاتنقصوا الناس (اشياءهم) يعني اموالهم فان قلت قد وقع التكرار في هذه القصة من ثلاثة اوجه لانه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان ثم قال اوفوا المكيال والميزان وهذا عين الاول ثم قال ولاتبخسوا الناس اشياءهم وهذا عين ماتقدم فما الفائدة في هذا التكرار قلت ان القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع

وقوّة قبوله للصقالة وذلك اما بتأيد نفسه من عالم الملكوت وتقويها بمبدالايد والقوّة كما قال علي عليه السلام عند قلعه باب خيبر والله ماقلعت باب خيبر بقوّة جسدانية ولكن قلعته بقوّة ملكوتية ونفس بنور ربها مضية وامابصدور ذلك عن تلك النفوس الملكوتية والمبادي الجبروتية التي اتصل هو بها لاجابة دعوته بالطاعة الملكوت له باذن الله تعالى وامره وتقديره وحكمه وتسخيره وقد دلت الآية على تمثل الملائكة لخليل الله عليه الصلاة والسلام وتجسدها على الحالات اللاتي مخاطبتها اياه بالغيب الذي هو البشرى بوجود الولد واهلاك قوم لوط وانجائه وتأييدهم في خرق العادة من ولادة العجوز لعقيم من الشيخ الفاني وتأثيرهم في اهلاك قوم لوط وتدميرهم بدعائه والله اعلم بحقائق الامور (قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وانك لتعلم مانريد قال لو ان لي بكم قوة واوى الى ركن شديد قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر باهلك بقطع

الناس حقوقهم احتيج في المنع منه الى المبالغة في التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ولان قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله اوفوا المكيال والميزان امر بايفاء العدل وهذا غير الاول ومغاير له ولقائل ان يقول النهي ضد الامر فالتكرار لازم على هذا الوجه قلنا الجواب عن هذا قد يجوز ان ينهى عن التنقيص ولا يأمر بايفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما فهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها تريد المبالغة في الامر والنهي واما قوله ثانيا ولا تبخسوا الناس اشياءهم فليس بتكرير ايضا لانه سبحانه وتعالى لما خص النهي عن التنقيص والامر بايفاء الحق في الكيل والوزن عمم الحكم في جميع الاشياء التي يجب ايفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن والذرع وغير ذلك فظهر بهذا البيان فائدة التكرار والله اعلم * وقوله سبحانه وتعالى (ولا تعثوا في الارض مفسدين) يعني بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم (بقيت الله خير لكم) قال ابن عباس يعني ما ابقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعني طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعني ما ابقاه لكم من الثواب الآخرة خير لكم مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام (ان كنتم مؤمنين) يعني مصدقين بما قلت لكم وامرتكم به ونهيتكم عنه (وما انا عليكم بحفيظ) يعني احفظ اعمالكم قال بعضهم انما قال لهم شعيب ذلك لانه لم يؤمر بقتالهم (قالوا يا شعيب اصلوتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا) يعني من الاصنام (او ان نفعل في اموالنا ما نشاء) يعني من الزيادة والنقصان قال ابن عباس كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل انهم كانوا يرونه فيرونه يصلي فيستهزؤن به ويقولون هذه المقالة وقال الاعمش اقراءتك لان الصلاة تطلق على القراءة والدعاء وقيل المراد بالصلاة هنا الدين يعني ادينك يأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل في اموالنا ما نشاء وذلك انهم كانوا ينقصون الدراهم والدنانير وكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك ويخبرهم انه محرم عليهم وانما ذكر الصلاة لانها من اعظم شعائر الدين (انك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس ارادوا السفيه الغاوي لان العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة وقيل هو على حقيقته وانما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية وقيل معناه انك لأنت الحليم الرشيد في زعمك وقيل هو على بابه من الصحة ومعناه انك يا شعيب فينا حليم رشيد فلا يحمد بك شق عصا قومك ومخالفتهم في دينهم (قال) يعني قال لهم شعيب (يا قوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربي) يعني على بصيرة وهداية وبيان (ورزقني منه رزقا حسنا) يعني حلالا قيل كان شعيب كثير المال الحلال والنعمة وقيل الرزق الحسن ما آتاه الله من العلم والهداية والنبوة والمعرفة وجواب ان الشرطية محذوف تقديره ارأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني المال الحلال والهداية والمعرفة والنبوة فهل يسعني مع هذه النعمة ان اخون في وحيه او ان اخالف امره او اتبع الضلال او ابخس الناس اشياءهم وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك انهم قالوا له انك لأنت الحليم الرشيد والمعنى فكيف يليق بالحليم الرشيد ان يخالف امر ربه وله عليه نعم كثيرة * وقوله (وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه) قال صاحب الكشاف يقال خالفني فلان الى كذا اذا قصده وانت مول عنه وخالفني عنه اذا ولى عنه وانت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول

من الليل ولا يلتفت منكم احد الا امرأتك انه مصيبها ما اصابهم ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد والى مدين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان اني اراكم بخير) بالرأي (واني اخاف عليكم يوم محيط) شعيب عليه السلام ضلالتهم بالشرك واحتجابهم عن الحق بالجبت وتهالكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل وتماديهم في الحرص على جمع المال بأسوا الخصال منعهم عن ذلك وقال اني اراكم بخير في استعدادكم من امكان حصول كمال وقبول هداية فاني اخاف عليكم احاطة خطيئاتكم لاحتجابكم عن الحق ووقوفكم مع الغير وصرف افكاركم بالكلية الى طلب المعاش واعراضكم عن المعاد وقصور هممكم على احراز الفاسدات الفانيات عن تحصيل الباقيات الصالحات وانجذابكم الى الجهة

خالفنى الى الماء يريدانه قدذهب اليه واراد وانا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله وماريدان اخالفكم الى ماانهاكم عنه اى ان اسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لاستبدبها دونكم قال الامام فخرالدين الرازى وتحقيق الكلام فيه ان القوم اعترفوا فيها بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الاصوب الاصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا ان الذى اخترته لنفسى هو اصوب الطرق واصلحها وهو الدعوة الى توحيد الله وترك البخس والنقصان فأنا مواظب عليها غير تارك لها فاعلموا ان هذه الطريقة خير الطرق واشرفها لاماانتم عليه وقال الزجاج معناه انى لست انهاكم عن شئ وادخل فيه انما اختارلكم مااختارلنفسى وقال ابن الانبارى بين ان الذى يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو مايرتضيه لنفسه ولاينطوى الاعليه فكان هذا محض النصيحة لهم (ان اريد) يعنى مااريد فيما آمركم به وانهاكم عنه (الاالاصلاح) يعنى فيما بينى وبينكم (مااستطعت) يعنى مااستطعت الا الاصلاح وهو الابلاغ والانذار فقط ولااستطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله فانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء (وماتوفيقى الابالله) التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولايقدر على ذلك الاالله تعالى فلذلك قال تعالى وماتوفيقى الابالله (عليه توكلت) يعنى على الله اعتمدت فى جميع امورى (واليه انيب) يعنى واليه ارجع فيما ينزل من النوائب وقيل اليه ارجع فى معادى روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذاذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه ✽ وقوله تعالى (وياقوم لايجرمنكم شقاقى) اى لايحملنكم خلافى وعداوتى (ان يصيبكم) يعنى عذاب العاجلة على كفركم وافعالكم الخبيثة (مثل مااصاب قوم نوح) يعنى الغرق (اوقوم هود) يعنى الريح اهلكتهم (اوقوم صالح) يعنى مااصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعا (وماقوم لوط منكم ببعيد) وذلك انهم كانوا احدث عهدبهلاكهم وقيل معناه ومادياز قوم لوط منكم ببعيد وذلك انهم كانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم (واستغفروا ربكم) يعنى من عبادة الاصنام (ثم توبوا اليه) يعنى من البخس والنقصان فى الكيل والوزن (ان ربى رحيم) يعنى بعباده اذا تابوا واستغفروا (ودود) قال ابن عباس الودود المحب لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل اوده اذا احببته وقيل يحتمل ان يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه ان عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة افضاله واحسانه وقال الحليمى هو الواد لاهل طاعته اى الراضى عنهم باعمالهم والمحسن اليهم لاجلها والمادح لهم بها وقال ابو سليمان الخطابى وقد يكون معناه من تودد الى خلقه (قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مماتقول) يعنى مانفهم ماتدعونا اليه وذلك ان الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصارت لاتعى ولاتفهم ماينفعها وان كانوا فى الظاهر يسمعون ويفهمون (وانالنراك فينا ضعيفا) قال ابن عباس وقتادة كان اعمى قال الزجاج ويقال ان حمير كانوا يسمون المكفوف ضعيفا وقال الحسن وابو روق ومقاتل يعنى ذليلا قال ابو روق ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيا اعمى ولانبيا به زمانة وقيل كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذى يتعذر عليه المنع من نفسه ويدل على صحة هذا القول مابعده وهو قوله (ولولا رهطك) يعنى جماعتك وعشيرتك قيل الرهط مابين الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة (لرجمناك) يعنى لقتلناك بالحجارة

السفلية عن الجهة العلوية واشتغالكم بالخواص البهيمية عن الكمالات الانسية فلازموا التوحيد والعدالة واعتزلوا عن الشرك والظلم الذى هو جماع الرذائل والفواحش (وياقوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولاتعثوا فى الارض مفسدين) فى افسادكم اى ولا تبالغوا ولاتتمادوا فى غاية الافساد فان الظلم هو الغاية فى ذلك كما ان العدل هو الغاية فى الصلاح وجماع الفضائل (بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وماانا عليكم بحفيظ) اى ان كنتم مصدقين ببقاء شئ فمايبقى لكم عندالله من الكمالات والسعادات الاخروية والمقتنيات العقلية والمكاسب العلمية والعملية خير لكم من تلك المكاسب الفانية التى تشقون بها وتشقون على انفسكم فى كسبها وتحصيلها ثم تتركونها بالموت ولايبقى منها معكم شئ الاوبال التبعات والعذاب اللازم لمافى نفوسكم من رواسخ الهيآت ولما شاهد انكارهم وعتوهم فى العصيان واستهزاءهم

والرجم بالحجارة اسوأ القتلات وشرها وقيل معناه لشتمناك واغلظنا لك القول (وما انت علينا بعزيز) يعني بكريم وقيل بممتنع منا والمقصود من هذا الكلام وحاصله انهم بدؤا شعيب عليه السلام انه لاحرمة له عندهم ولا وقع له في صدورهم وانهم انما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لاجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لانهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قالوا لشعيب عليه السلام هذه المقالة اجابهم بقوله (قال ياقوم ارهطي اعز عليكم من الله) يعني اهيب عندكم من الله وامنع حتى تركتم قتلي لمكان رهطي عندكم فالاولى ان تحفظوني في الله ولاجل الله لا لرهطي لان الله اعز واعظم (واتخذتموه وراءكم ظهريا) يعني ونبذتم امر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشيء الملقى الذي لايلتفت اليه (ان ربي بما تعملون محيط) يعني انه سبحانه وتعالى عالم بأحوالكم جميعا لايخفى عليه منها شيء فيجازيكم بها يوم القيامة (وياقوم اعملوا على مكانتكم) يعني على تؤدتكم وتمكنكم من اعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة من الشر (اني عامل) يعني ماقدر عليه من الطاعة والخير وهذا الامر في قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى (سوف تعلمون) اينا الجاني على نفسه المخطئ في فعله فان قلت اي فرق بين ادخال الفاء ونزعها في قوله سوف تعلمون قلت ادخال الفاء في قوله فسوف تعلمون وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها في قوله سوف تعلمون وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كانهم قالوا فمايكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت انت فقال سوف تعلمون يعني عاقبة ذلك فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب واقوى الوصلين وابلغهما الاستئناف وهو باب من ابواب علم البيان تتكاثر محاسنه والمعنى سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) يعني بسبب عمله السيء او اينا الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه (ومن هو كاذب) يعني فيما يدعيه (وارتقبوا) يعني وانتظروا العاقبة ومايؤل اليه امري وامركم (اني معكم رقيب) اي منتظر الرقيب بمعنى المراقب (ولما جاء امرنا) يعني بعذابهم واهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) يعني بفضل منا بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (واخذت الذين ظلموا) يعني ظلموا انفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) وذلك ان جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت ارواحهم وماتوا جميعا (فاصبحوا في ديارهم جاثمين) يعني ميتين وهو استعارة من قولهم جثم الطير اذا قعد ولطأ بالارض (كان لم يغنوا فيها) يعني كان لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر ماخوذ من قولهم غني بالمكان اذا اقام فيه مستغنيا به عن غيره (الا بعدا) يعني هلاكا (لمدين كما بعدت) ثمود قال ابن عباس لم تعذب امتان قط بعذاب واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فاخذتهم الصيحة من فوقهم * قوله عزوجل (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا) يعني بحججنا والبراهين التي اعطيناه الدالة على صدقه ونبوته (وسلطان مبين) يعني ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه ايضا قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه كالسلطان يقهر غيره وقال الزجاج السلطان هو الحجة وسمي السلطان سلطانا لانه حجة الله في الارض (الى فرعون وملئه) يعني اتباعه واشراف قومه (فاتبعوا امر فرعون) يعني ماهو عليه من الكفر وترك الايمان بما جاءهم به موسى (وما امر فرعون برشيد) يعني وما طريق فرعون وماهو

(عليه)

بطاعته وزهده وتوحيده وتنزهه بقولهم (قالوا ياشعيب اصلواتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا او ان نفعل في اموالنا مانشؤ انك لانت الحليم الرشيد قال ياقوم ارايتم) اي اخبروني (ان كنت على بينة) برهان يقيني على التوحيد (من ربي ورزقني منه رزقا حسنا) من الحكمة العلمية والعملية والكمال والتكميل بالاستقامة في التوحيد هل يصح لي ان اترك النهي عن الشرك والظلم والاصلاح بالتزكية والتحلية وحذف جواب ارايتم لما دل عليه في مثله كما مر في قصة نوح وصالح عليهما السلام وعلى خصوصيته ههنا من قوله (وما اريد ان اخالفكم الى ماانهاكم عنه) اي ان اقصد الى جر المنافع الدنيوية الفانية بارتكاب الظلم الذي انهاكم عنه (ان اريد الا الاصلاح مااستطعت) اصلاح نفسي ونفوسكم بالتزكية والتهيئة لقبول الحكمة مادمت مستطيعا وما كوني موفقا للاصلاح (وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب وياقوم لايجرمنكم شقاقي ان يصيبكم مثل مااصاب قوم نوح اوقوم

هود او قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز قال ياقوم ارهطى اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) انما لم يفقهوا لوجود الرين على قلوبهم بما كسبوا من الآثام وانما منعهم خوف رهطه من رجمه دون خوف الله تعالى لاحتجابهم بالخلق عن الحق المسبب عن عدم الفقه كقوله لانتم اشد رهبة فى صدرهم من الله ذلك بانهم قوم لا يفقهون (ولقد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملئه فاتبعوا امر فرعون وما امر فرعون برشيد يقدم

عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو الى خير (يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار) يعنى كما تقدم قومه فادخلهم البحر فى الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم القيامة فيدخلهم النار ويدخل هو امامهم والمعنى كما كان قدوتهم فى الضلال والكفر فى الدنيا فكذلك هو قدوتهم وامامهم فى النار (وبئس الورد المورود) يعنى وبئس المدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون فى تقدمه على قومه الى النار بمن يتقدم على الوارد الى الماء وشبه اتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محمودا عند الواردين لانه يكسر العطش قال فى حق فرعون واتباعه فاوردهم النار وبئس الورد المورود لان الاصل فيه قصد الماء واستعمل فى ورود النار على سبيل الفظاعة (واتبعوا فى هذه) يعنى فى هذه الدنيا (لعنة) يعنى طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة) يعنى واتبعوا لعنة اخرى يوم القيامة مع اللعنة التى حصلت لهم فى الدنيا (بئس الرفد المرفود) يعنى بئس العون المعان وذلك ان اللعنة فى الدنيا رفد للعنة فى الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك انه ترادف عليهم لعنتان لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة *وقوله سبحانه وتعالى (ذلك من انباء القرى) يعنى من اخبار اهل القرى وهم الامم السالفة والقرون الماضية (نقصه عليك) يعنى نخبرك به يا محمد لتخبر قومك اخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم او ينزل بهم مثل ما نزل بهم من العذاب (منها) يعنى من القرى التى اهلكنا اهلها (قائم وحصيد) يعنى منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعنى الحيطان بغير سقوف ومنها ماقد محى اثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذى بعضه قائم على سوقه وبعضه قد حصد وذهب اثره والحصيد بمعنى المحصود (وما ظلمناهم) يعنى بالعذاب والاهلاك (ولكن ظلموا انفسهم) يعنى بالكفر والمعاصى (فما اغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ لما جاء امر ربك) يعنى بعذابهم اى لم تنفعهم اصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب (وما زادوهم غير تتبيب) يعنى غير تخسير وقيل غير تدمير (وكذلك اخذ ربك) يعنى وهكذا اخذ ربك (اذا اخذ القرى وهى ظالمة) الضمير فى وهى عائد على القرى والمراد اهلها (ان اخذه اليم شديد) (ق) عن ابى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليملى للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد فالآية الكريمة والحديث دليل على ان من اقدم على ظلم فانه يجب ان يتدارك ذلك بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى اهلها ان كان الظلم للغير لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية حكمها مختص بظالمى الامم الماضية بل هو عام فى كل ظالم ويعضده الحديث والله اعلم *قوله عز وجل (ان فى ذلك لآية) يعنى ماذكر من عذاب الامم الخالية واهلاكهم لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب الآخرة) يعنى ان اهلاك اولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه فى الآخرة لانه اذا نظر ما احل الله باولئك الكفار فى الدنيا من اليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالانموذج مما اعد لهم فى الآخرة اعتبر به فيكون زيادة فى خوفه وخشيته من الله (ذلك يوم مجموع له الناس) يعنى يوم القيامة تجمع فيه الخلائق من الاولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدى رب العالمين (وذلك يوم مشهود) يعنى يشهده اهل السماء واهل الارض (وما نؤخره الا لاجل معدود) يعنى وما نؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيامة الا الى وقت معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه احد الا الله تعالى (يوم يأت) يعنى ذلك اليوم (لا تكلم نفس الا باذنه) قيل ان جميع الخلائق يسكتون فى ذلك

اليوم فلا تكلم احد فيه الا باذن الله تعالى فان قلت كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله
سبحانه وتعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله اخبارا عن محاجة الكفار والله ربنا
ما كنا مشركين والاخبار ايضا تدل على الكلام في ذلك قلت يوم القيامة يوم طويل وله احوال مختلفة
وفيه اهوال عظيمة ففي بعض الاحوال لا يقدرون على الكلام لشدة الاهوال وفي بعض الاحوال
يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون وفي بعضها تخفف عنهم تلك الاهوال فيحاجون ويجادلون
وينكرون وقيل المراد من قوله لا تكلم نفس الا باذنه الشفاعة يعني لا تشفع نفس لنفس شيأ الا ان
يأذن الله لها في الشفاعة (فمنهم) يعني فمن اهل الموقف (شقي وسعيد) الشقاوة خلاف السعادة
والسعادة هي معاونة الامور الالهية للانسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها
ثم السعادة على ضربين سعادة دنيوية وسعادة اخروية وهي السعادة القصوى لان نهايتها الجنة
وكذلك الشقاوة على ضربين ايضا شقاوة دنيوية وشقاوة اخروية وهي الشقاوة القصوى لان
نهايتها النار فالشقي من سبقت له الشقاوة في الازل والسعيد من سبقت له السعادة في الازل (ق)
عن علي بن ابي طالب قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد
وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من احد الا وقد كتب
مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله افلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر
لما خلق له اما من كان من اهل السعادة فسيصير لعمل اهل السعادة واما من اهل الشقاوة فسيصير لعمل
اهل الشقاوة ثم قرأ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية بقيع الغرقد هو
مقبرة اهل المدينة الشريفة ومدفنهم والمخصرة كالسوط والعصا ونحو ذلك مما يمسكه بيده الانسان
والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة اوباليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه
واستدل بعض العلماء بهذه الآية وهذا الحديث على ان اهل الموقف قسمان شقي وسعيد لا ثالث لهما
وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته
وسيآته وهم اصحاب الاعراف في قول والاطفال والمجانين الذين لا حسنات لهم ولا سيآت فهؤلاء
مسكوت عنهم فهم تحت مشيئة الله عز وجل يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء وتخصيص هذين القسمين
بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث (فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها) اي في النار من العذاب
والهوان (زفير وشهيق) اصل الزفير ترديد النفس في الصدر حتى تنتفخ منه الضلوع والشهيق
رد النفس الى الصدر اوالزفير مده واخراجه من الصدر وقال ابن عباس الزفير الصوت الشديد
والشهيق الصوت الضعيف وقال الضحاك ومقاتل الزفير اول صوت الحمار والشهيق آخره اذا رده
الى صدره وقال ابو العالية الزفير في الحلق والشهيق في الجوف (خالدين فيها) يعني لابثين مقيمين
في النار (مادامت السموات والارض) قال الضحاك يعني مادامت سموات الجنة والنار وارضهما
ولابد لاهل الجنة واهل النار من سماء تظلهم وارض تقلهم وكل ما علاك فاظلك فهو سماء وكل
ما استقر عليه قدمك فهو ارض وقال اهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد وذلك على عادة العرب فانهم
يقولون لا آتيك مادامت السموات والارض وما اختلف الليل والنهار يريدون بذلك التأبيد
* وقوله سبحانه وتعالى (الا ماشاء ربك) اختلف العلماء في معنى هذين الاستثناءين فقال ابن عباس
والضحاك الاستثناء الاول المذكور في اهل الشقاء يرجع الى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار

قومه يوم القيمة فاوردهم
النار وبئس الورد المورود
واتبعوا في هذه لعنة ويوم
القيمة بئس الرفد المرفود
ذلك من انباء القرى نقصه
عليك منها قائم وحصيد
وما ظلمناهم ولكن ظلموا
انفسهم فما اغنت عنهم
آلهتهم التي يدعون
من دون الله من شيء لما جاء
امر ربك وما زادوهم
غير تتبيب وكذلك اخذ
ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة
ان اخذه اليم شديد ان في
ذلك لآية لمن خاف عذاب
الآخرة ذلك يوم مجموع له
الناس وذلك يوم مشهود
وما نؤخره الا لاجل
معدود يوم يأت لا تكلم
نفس الا باذنه فمنهم شقي
وسعيد فاما الذين شقوا ففي
النار لهم فيها زفير وشهيق
خالدين فيها مادامت
السموات والارض) لما
اطلق السعيد منكرين
للتعظيم دل على الشقي
والسعيد الازليين الابديين
ولما وصفهم في التقسيم
التفصيلي استثنى عن خلود
الشقي في النار وخلود السعيد
في الجنة بقوله (الا ماشاء
ربك) لان المراد بالنار
والجنة عذاب النفس بر

بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لان الذين اخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة وفي رواية ان الله يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة اخرجه البخارى ومسلم عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار قوم بعدما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم اهل الجنة الجهنميين وفي رواية ليصيبن اقواما سفع من النار بذنوب اصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته فيقال لهم الجهنميون (خ) عن عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين واما الاستثناء الثاني المذكور في اهل السعادة فيرجع الى مدة لبث هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك ان يخرجهم منها فيدخلهم الجنة (ان ربك فعال لما يريد واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) ان يدخله النار اولا ثم يخرجه منها فيدخله الجنة فحاصل هذا القول ان الاستثناءين يرجع كل واحد منهما الى قوم مخصوصين هم في الحقيقة سعداء اصابوا ذنوبا استوجبوا بها عقوبة يسيرة في النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لان اجماع الامة على ان من دخل الجنة لايخرج منها ابدا وقيل ان الاستثناءين يرجعان الى الفريقين السعداء والاشقياء وهو مدة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو مابين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه الا ماشاء ربك سوى ماشاء ربك فيكون المعنى خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان على الف الا الفين اي سوى الفين وقيل الا بمعنى الواو يعني وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وخلود هؤلاء في الجنة فهو كقوله تمجد وتعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا اي ولا الذين ظلموا وقيل معناه ولو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لم يشأ لانه حكم لهم بالخلود فيها قال الفراء وهذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقوله والله لاضربنك الا ان ارى غير ذلك وعزمه ان يضربه فهذه الاقوال في معنى الاستثناء ترجع الى الفريقين والصحيح هو القول الاول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ان ربك فعال لما يريد يعني من اخراج من اراد من النار وادخالهم الجنة فهذا على الاجمال في حال الفريقين فاما على التفصيل فقوله الا ماشاء ربك في جانب الاشقياء يرجع الى الزفير والشهيق وتقريره ان يفيد حصول الزفير والشهيق مع خلود لانه اذا دخل الاستثناء عليه وجب ان يحصل فيه هذا المجموع والاستثناء في جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعني الا ماشاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود وقيل ان الاستثناء الاول في جانب الاشقياء معناه الا ماشاء ربك من ان يخرجهم من حر النار الى البرد والزمهرير وفي جانب السعداء معناه الا ماشاء ربك ان يرفع بعضهم الى منازل اعلى منازل الجنان ودرجاتها والقول الاول هو المختار ويدل على خلود اهل الجنة في الجنة ان الامة مجمعة على ان من دخل الجنة لايخرج منها بل هو خالد فيها * وقوله سبحانه وتعالى في جانب السعداء (عطاء غير مجذوذ) يعني

الحرمان عن المراد وآلام الهيآت والآثار وثواب النفس بجنة حصول المراد والالتذاذات وبالاستثناء عن الخلود فيهما خروج الشقي منها الى ماهو اشد منه من نيران القلب في حجب الصفات والافعال بالسخط والطرد والاذلال والاهانة ونيران الروح بالحجب واللعن والقهر وخروج السعيد منها الى ماهو الذ واطيب من جنان القلب في مقام تجليات الصفات بالرضوان واللطف والاكرام والاعزاز وجنان الروح في مقام الشهود باللقاء وظهور سبحات الجلال ومالاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لكون الشقي في مقابلة السعيد وخروج السعيد من الجنة الى النار محال وقد دل عليه بقوله (ان ربك فعال لما يريد واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك

غير مقطوع قال ابن زيد اخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذى يشاء لاهل الجنة فقال تعالى عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لاهل النار وروى عن ابن مسعود انه قال ليأتين على جهنم زمان ليس فيها احد وذلك بعد مايلبثون فيها احقابا وعن ابى هريرة نحوه وهذا ان صح عن ابن مسعود وابى هريرة فمحمول عند اهل السنة على اخلاء اماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد اخراجهم منها لانه ثبت بالدليل الصحيح القاطع اخراج جميع الموحدين وخلود الكفار فيها او يكون محمولا على اخراج الكفار من حر النار الى برد الزمهرير ليزدادوا عذابا فوق عذابهم والله اعلم ❊ قوله سبحانه وتعالى (فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء) يعنى فلاتك فى شك يا محمد فى هذه الاصنام التى يعبدها هؤلاء الكفار فانها لاتضر ولاتنفع (مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل) يعنى انه ليس لهم فى عبادة هذه الاصنام مستند الا انهم راوا آباءهم يعبدونها فعبدوها مثلهم (وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) يعنى وانا مع عبادتهم هذه الاصنام نرزقهم الرزق الذى قدرناه لهم من غير نقص فيه ويحتمل ان يكون المراد من توفية نصيبهم يعنى من العذاب الذى قدر لهم فى الآخرة كاملا موفرا غير ناقص ❊ قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (فاختلف فيه) يعنى فى الكتاب فمنهم مصدق به ومكذب به كما فعل قومك يا محمد بالقرآن ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (ولولا كلمة سبقت من ربك) يعنى بتأخير العذاب عنهم الى يوم القيامة لكان الذى يستحقونه من تعجيل العقوبة فى الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى (لقضى بينهم) يعنى لعذبوا فى الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم (وانهم لفى شك منه) يعنى من القرآن ونزوله عليك يا محمد (مريب) يعنى انهم قد وقعوا فى الريب والتهمة (وان كلا) يعنى من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب (لما ليوفينهم ربك اعمالهم) اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء اعمالهم فى القيامة فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار (انه بما يعملون خبير) يعنى انه سبحانه وتعالى لايخفى عليه شئ من اعمال عباده وان دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين ❊ قوله سبحانه وتعالى (فاستقم كما امرت) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى فاستقم يا محمد على دين ربك والعمل به والدعاء اليه كما امرك ربك والامر فى فاستقم للتأكيد لان النبى صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك اى دم على ما انت عليه من القيام حتى آتيك (ومن تاب معك) يعنى ومن آمن معك من امتك فليستقيموا ايضا على دين الله والعمل بطاعته قال عمر بن الخطاب الاستقامة ان تستقيم على الامر والنهى ولاتروغ منه روغان الثعلب (م) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يارسول الله قل لى فى الاسلام قولا لااسأل عنه احدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم (ولاتطغوا) يعنى ولاتجاوزوا امرى الى غيره ولاتعصونى وقيل معناه ولاتغلوا فى الدين فتجاوزوا ما امرتكم به ونهيتكم عنه (انه بما تعملون بصير) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم باعمالكم لايخفى عليه شئ منها قال ابن عباس مانزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هى اشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتنى هود واخواتها (خ) عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة قوله ان الدين يسر اليسر ضد العسر

لقضى بينهم وانهم لفى شك منه مريب وان كلا لما ليوفينهم ربك اعمالهم انه بما يعملون خبير) اى غير مقطوع وكذا مايقابله على ان قوله تعالى فعال لما يريد يشعر بذلك لكونه وعيدا شديدا هذا لسان الادب ومراعاة الظواهر فى تحقيق البواطن واما الحقيقة فتحكم بان الشقى لما كان فى المراتب المذكورة فى النار لم يخرج منها بل انتقل من طبقة منها الى طبقة اخرى ومن دركة الى دركة فكان فى حكم الخلود فالمراد بالاستثناء غيره وهو انه من حيث الاحدية مع ربه والرب آخذ بناصيته على صراط مستقيم يقوده ريح الدبور التى هى هوى نفسه يسوقه الى جهنم فهو هالك فى عين القرب مع هوى نفسه فيتلذذ بانواع عذاب يصير عين النعيم فزال معنى النار فى حقه وصارت جنة للمذوب وان كان بعيدا عن نعيم السعيد كما جاء فى الحديث سينبت فى قعر جهنم الجرجير وفيه يأتى على جهنم زمان يصفق ابوابها ليس فيها احد وكذا السعيد فان انتقاله فى الجنان ودرجاتها والخروج بحكم الاستثناء

والرادبه التسهيل فى الدين وترك التشدد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فلن يغالب ولن يقاوى فسددوا اى اقصدوا السداد من الامور وهو الصواب وقاربوا اى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشيا والمراد منه اعلموا اطراف النهار وقتا وقتا والدلجة سير الليل والمراد منه اعلموا بالنهار واعلوا بالليل ايضا وقوله شئ من الدلجة اشارة الى تقليله * وقوله تعالى (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) قال ابن عباس ولا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب وقال ابو العالية لا ترضوا باعمالهم وقال السدى لا تداهنوا الظلمة وعن عكرمة لا تطيعوهم وقيل معناه ولا تسكنوا الى الذين ظلموا (فتمسكم النار) يعنى فتصيبكم النار بحرها (ومالكم من دون الله من اولياء) يعنى اعوانا وانصارا يمنعونكم من عذابه (ثم لا تنصرون) يعنى ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غدا فى القيامة ففيه وعيد لمن ركن الى الظلمة اورضى باعمالهم اواحبهم فكيف حال الظلمة فى انفسهم نعوذ بالله من الظلم * قوله عز وجل (واقم الصلوة طرفى النهار) سبب نزول هذه الآية ماروا ه الترمذى عن ابى اليسر قال اتتنى امرأة تبتاع تمرا فقلت ان فى البيت تمرا هو اطيب منه فدخلت معى البيت فاهويت اليها فقبلتها فاتيت ابابكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر احدا فلم اصبر فاتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر احدا فلم اصبر فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال اخلفت غازيا فى سبيل الله فى اهله بمثل هذا حتى تمنى انه لم يكن اسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من اهل النار قال واطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى اوحى الله اليه واقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الى قوله ذلك ذكرى للذاكرين قال ابو اليسر فاتيته فقراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اصحابه يارسول الله الهذا خاصة ام للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وابو اليسر هو كعب بن عمرو (ق) عن عبد الله بن مسعود ان رجلا اصاب من امرأة قبلة فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت واقم الصلوة طرفى النهار وزلفا من الليل الآية فقال الرجل يارسول الله الى هذه الآية قال لمن عمل بها من امتى وفى رواية فقال رجل من القوم يانبى الله هذه له خاصة قال بل للناس كافة عن معاذ بن جبل قال اتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يارسول الله ارايت رجلا لقى امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتى الرجل الى امرأته شيأ الا قد اتى هو اليها الا انه لم يجامعها قال فانزل الله عز وجل واقم الصلوة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين فامره النبى صلى الله عليه وسلم ان يتوضأ ويصلى قال معاذ فقلت يارسول الله اهى له خاصة ام للمؤمنين عامة فقال بل للمؤمنين عامة اخرجه الترمذى وقال هذا الحديث ليس بمتصل لان عبد الرحمن بن ابى ليلى لم يسمع من معاذ اما التفسير فقوله سبحانه وتعالى واقم الصلوة طرفى النهار يعنى صلاة الغداة والعشى وقال مجاهد طرفى النهار يعنى صلاة الصبح والظهر والعصر وزلفا من الليل يعنى صلاة المغرب والعشاء وقال مقاتل صلاة الصبح والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل يعنى صلاة العشاء وقال الحسن طرفى النهار الصبح والعصر وزلفا من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفى النهار الغداة والعشى يعنى صلاة الصبح والمغرب قال الامام فخر الدين الرازى كثرت المذاهب فى تفسير طرفى النهار والاشهر ان الصلاة التى فى طرفى النهار هى الفجر والعصر وذلك لان احد طرفى النهار هو طلوع الشمس والثانى هو غروبها فالطرف

غير ذلك فهو بفنائه فى احدية الذات واحتراقه بلوعة العشق فى سبحات الجلال حيث كان الحق شاهدا ومشهودا الا فى مقام المشاهدة بوجود الروح بل بالشهود الذاتى الاحدى الذى لم يبق فيه لغيره عين ولا اثر ولا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وان جعل التنكير فى قوله شقى وسعيد للنوعية لا للتعظيم جاز تأويل خروج الشقى من النار بالترقى الى الجنة من مقامه بزكاة نفسه عن الهيآت المظلمة وتبعات المعاصى وحينئذ لا يكون شقى الابد (فاستقم كما امرت) فى القيام بحقوق الله بالله فانه عليه الصلاة والسلام مأمور بمحافظة حقوق الله والتعظيم لامره والتسديد لخلقه بضبط احكام التجليات الصفاتية بعد الرجوع الى الخلق مع شهود الوحدة الذاتية بحيث لا يتحرك ولا يسكن ولا ينطق ولا يتفكر لا به من غير ظهور تلوين من بقايا صفاته اوذاته ولا يخطر له خاطر بغيره من غير اخلال بشرط مامن شرائط التعظيم كما قال افلا اكون عبدا شكورا حين تورمت قدماه من قيام الليل

الاوّل هو صلاة الفجر والطرف الثاني لايجوز ان يكون صلاة المغرب لانها داخله تحت قوله تعالى وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر (وزلفا من الليل) يعني واقم الصلاة في زلف من الليل وهي ساعاته واحدتها زلفة واصل الزلفة المنزلة والمراد بها صلاة المغرب والعشاء (ان الحسنات يذهبن السيئات) يعني ان الصلاة الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارات لما بينهن زاد في رواية مالم تغش الكبائر وزاد في رواية اخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر (ق) عن ابي هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ارأيتم لو ان نهرا بباب احدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شئ قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحوا الله بها الخطايا (خ) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات كمثل نهر جار غمر على باب احدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات قال الحسن ومايبقى من الدرن قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحات مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من اعمال البر واما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط الشرط الاوّل الاقلاع عن الذنب بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث العزم التام لايعود اليه في المستقبل فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى وقال مجاهد في تفسير الحسنات انها قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر والقول الاوّل اصح انها الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومجاهد في احدى الروايتين عنه والقرظي والضحاك وجمهور المفسرين (ذلك) اشارة الى ماتقدم ذكره من الاستقامة والتوبة وقيل هو اشارة الى القرآن (ذكرى للذاكرين) يعني عظة للمؤمنين المطيعين (واصبر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني واصبر يامحمد على اذى قومك وماتلقاه منهم وقيل معناه واصبر على الصلاة (فان الله لايضيع اجر المحسنين) يعني اعمالهم قال ابن عباس يعني المصلين * قوله سبحانه وتعالى (فلولا كان من القرون) يعني فهلا كان من القرون التي اهلكناهم (من قبلكم) يعني ياامة محمد (اولو بقية) يعني اولو تمييز وطاعة وخير يقال فلان ذو بقية اذا كان فيه خير وقيل معناه اولو بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير اذا كان على خصلة محمودة (ينهون عن الفساد في الارض) يعني يقومون بالنهي عن الفساد في الارض والآية للتقريع والتوبيخ يعني لم يكن فيهم من فيه خير ينهى عن الفساد في الارض فلذلك اهلكناهم (الا قليلا) هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلا (ممن انجينا منهم) يعني من امن من الامم الماضية وهم اتباع الانبياء كانوا ينهون عن الفساد في الارض (واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه) يعني واتبع الذين ظلموا انفسهم بالكفر والمعاصي ماتنعموا فيه والترف التنعم والمعنى انهم اتبعوا ماتعودوا به من النعم واشار اللذات على الآخرة ونعيمها (وكانوا مجرمين) يعني كافرين (وماكان ربك) يعني وماكان ربك يامحمد (ليهلك القرى بظلم) يعني لايهلكهم بظلم منه (واهلها مصلحون) يعني في اعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات وقيل في معنى الآية وماكان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين يعني يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا اما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء ان حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد * قوله عزوجل (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) يعني كلهم على دين واحد وشريعة واحدة (ولايزالون

(مختلفين)

وقيل له امابشرك الله بقوله ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ولابدقيقة من باب النهي عن المنكر والامر بالمعروف والانذار والدعوة وذلك في غاية الصعوبة ولهذا قال شيبتني سورة هود قيل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض العرفاء في المنام فسأله عن ذلك وقال لماذا يارسول الله القصص الانبياء ومانزل باممهم المكذبين من العذاب وماكانوا يقاسون من اممهم قال لابل لقوله فاستقم كما أمرت (ومن تاب) عن انيته وذنب وجوده (معك) من الموحدين الواصلين الى الشهود الكثرة في عين الوحدة ومقام البقاء بعد الفنا (ولاتطغوا) بالاحتجاب بحجاب الانانية ونسبة الكمالات الالهية المطلقة الى انانيتكم لتشخصه المقيدة برؤيتها لكم الموجبة للاحتجاب بالتقيد عن الاطلاق فان الهوية الالهية لاتتقيد باشارة الهذية والانانية (انه بما تعملون بصير) انعملونه بي ام بانفسكم (ولاتركنوا الى الذين ظلموا) اي اشركوا بهوى كامن ناشئ من وجود بقيتها خفية اوالتفات خفي

مختلفين) يعنى على اديان شيء مابين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك ومسلم فكل اهل دين من هذه الاديان قداختلفوا فى دينهم ايضا اختلافا كثيرا لاينضبط * عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة اواثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق امتى على ثلاث وسبعين فرقة اخرجه ابوداود والترمذى بنحوه عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الا ان من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة اخرجه ابوداود قال الخطابى قوله صلى الله عليه وسلم وستفترق امتى فيه دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين اذجعلهم من امته وقال غيره المراد بهذه الفرق اهل البدع والاهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهر وابعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من اهل البدع والاهواء والمراد بالواحدة هى فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى اقواله وافعاله * وقوله سبحانه وتعالى (الا من رحم ربك) يعنى لكن من رحم ربك فمن عليه بالهداية والتوفيق الى الحق وهداه الى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لايختلفون (ولذلك خلقهم) قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم قال اشهب سالت مالك بن انس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وللرحمة خلقهم يعنى الذين رحمهم وقال الفراء خلق اهل الرحمة للرحمة وخلق اهل الاختلاف للاختلاف وقيل خلق الله عزوجل اهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق اهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها اهلا وخلق النار وخلق لها اهلا فحاصل الآية ان الله خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق اهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالرحمة وهم اهل الاتفاق ومصيرهم الى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى (وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين)وهذا صريح بان الله سبحانه وتعالى خلق اقواما للجنة وللرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال اهل الجنة وخلق اقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية * قوله سبحانه وتعالى (وكلا نقص عليك من انباء الرسل ماتثبت به فؤادك) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة الكريمة قصص الامم الماضية والقرون الخالية وماجرى لهم مع انبيائهم خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله وكلا نقص عليك يامحمد من انباء الرسل يعنى من اخبار الرسل وماجرى لهم مع قومهم ماتثبت فؤادك يعنى ماتقوى به قلبك لتصبر على اذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وامكنه الصبر عليه (وجاءك) يامحمد (فى هذه الحق) اختلفوا فى هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك فى هذه الدنيا الحق وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليها وقيل فى هذه الآية وقيل فى هذه السورة وهو الاقرب وهو قول الاكثرين فان قلت قدجاءه الحق فى سور القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لايلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر ان لايكون قدجاءه الحق فى غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وانما خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) اى وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون اذا تذكروا احوال الامم الماضية ومانزل بهم (وقل للذين

الى اثبات غيره فانه هو الزيغ المقارن للطغيان فى قوله مازاغ البصر وماطغى (فتمسكم النار) نار السخط والحرمان بالاحتجاب والتعذيب بالفراق من نيران غيرة المحبوب كما قال لحبيبه بشر المذنبين بانى غفور وانذر الصديقين بانى غيور ولهذا المعنى قال والمخلصون على خطر عظيم فان دقائق ذنوب احوالهم ادق من ان تدرك بالعقل واشد عقابا من ان تتوهم بالوهم (ومالكم) حينئذ (من دون الله من اولياء) تتولونكم من عقابه ويدبرون اموركم ويربونكم (ثم لاتنصرون) من بأسه وهذا تهديد لاوليائه فكيف باعدائه (واقم الصلوة طرفى النهار وزلفا من الليل) لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يرد عليه من الهيآت الجسمانية وتجذبه عن الحضرة الروحانية وتحجبه عن النور والحضور بالاعراض عن جناب القدس والتوجه الى معدن الرجس وتبدله الوحشة بالانس والكدورة بالصفاء فرضت خمس صلوات يتفرغ فيها العبد المحصور ويسد ابواب الحواس لئلا يرد على القلب

شاغل يشغله ويفتح باب القلب الى الله تعالى بالتوجه والنية لوصول مدد النور ويجمع همه من التفرق ويستأنس بربه عن التوحش مع اتحاد او جهة وحصول الجمعية فتكون تلك الصلوات خمسة ابواب مفتوحة للقلب على جناب الرب يدخل بها عليه النور بازاء تلك الخمسة المفتوحة الى جناب الغرور ودار اللعين الغرور التي تدخل بها الظلمة ليذهب النور الوارد آثار ظلماتها ويكسح غبار كدوراتها وهذا معنى قوله (ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) وقد ورد في الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر وامر باقامتها في طرفي النهار لينسحب حكمها ببقاء الجمعية واستيلاء الهيئة النورية في اوله الى سائر الاوقات فعسى ان يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون لدوام ذلك الحضور وبقاء ذلك النور ويكسح ويزيل في آخره ما حصل في سائر الاوقات من التفرقة والكدورة ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لامر الغذاء سلطانها في الليل وهي تجذب النفس الى تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحاني وتحجزها عن شأنها الخاص بها الذي هو مطالعة الغيب ومشاهدة عالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء لعمارة الجسد فتسلبها اللطافة والطراوة وتكدرها بالغشاوة واحتيج الى تلطيفها وتصفيتها باليقظة وتنويرها وتطريتها بالصلاة فقال وزلفا من الليل ذلك الذي ذكر من اقامة الصلاة في الاوقات المذكورة واذهاب السيئات بالحسنات تذكير لمن يذكر حاله عند الحضور مع الله في الصفاء والجمعية والانس والذوق (واصبر) بالله في الاستقامة ومع الله في الحضور في الصلاة وعدم الركون الى الغير (فان الله لا يضيع اجر المحسنين) الذين يشاهدونه في حال القيام بحقوق الاستقامة ومراعاة العدالة والقيام بشرائط التعظيم في العبادة ﴿٤١٢﴾ (فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) متساوية في الاستعداد متفقة على دين التوحيد ومقتضى الفطرة (ولا يزالون مختلفين) في الوجهة والاستعداد (الا من رحم ربك) بهدايته الى التوحيد وتوفيقه للكمال فانهم متفقون في المذهب والمقصد موافقون في السيرة والطريقة قبلتهم الحق ودينهم التوحيد والمحبة (ولذلك) الاختلاف (خلقهم) ليستعد كل منهم لشأن وعمل ويختار بطبعه امرا وصنعة ويستتب بهم نظام العالم ويستقيم امر المعاش فهم عوامل لامر الله حمل عليهم حمول الاسباب والارزاق وما يعيش به الناس ورتب بهم قوام الحياة الدنيا كما ان الفئة المرحومة مظاهر لكماله اظهر الله بهم صفاته وافعاله وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه واسراره (وتمت كلمة ربك) اى احكمت وابرمت وثبتت وهي هذه (لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين) لان جهنم رتبة من مراتب الوجود لا يجوز في الحكمة تعطيلها وابقاؤها في كتم العدم مع امكانها (وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك) اى لما اطلعناك على مقاساتهم للشدائد من اممهم مع ثباتهم في مقام الاستقامة وعدم تزلزلهم عنه وعلى معاتباتهم عند تلويناتهم وظهور شيء من بقياتهم كما في قصة نوح من سؤال انجاء الولد وعلى قوة ثباتهم وشجاعتهم في يقينهم وتوكلهم كما في قصة هود من قوله اني اشهد الله واشهدوا اني برئ مما تشركون الى قوله على صراط مستقيم وعلى كمال كرمهم وفضيلتهم في الفتوة كما في قصة لوط من تفدية البنات لحفظ الاضياف من السوء ثبت قلبك في ذلك كله واستحكمت استقامتك وقوى تمكينك بذهاب آثار التلوين عنك وقوى توكلك ورضاك ويقينك وشجاعتك وكمل خلقك وكرمك (وجاءك في هذه السورة الحق) اى ما يحقق به اعتقاد المؤمنين (وموعظة وذكرى للمؤمنين وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) لهم يحترزون بها عما اهلك به الامم وتذكير لما يجب ان يتدينوا به ويجعلوه طريقهم وسيرتهم والله اعلم

لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) فيه وعيد وتهديد يعني اعملوا ما انتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العامل فهو كقوله اعملوا ما شئتم (انا عاملون) يعني ما امرنا به ربنا (وانتظروا) يعني ما يعدكم به الشيطان (انا منتظرون) يعني ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه اما في الدنيا واما في الآخرة (ولله غيب السموات والارض) يعني يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعني ان علمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع الاشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء (واليه يرجع الامر كله) يعني الى الله يرجع امر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة (فاعبده) يعني ان كان كذلك كان مستحقا للعبادة لا غيره فاعبده ولا تشتغل بعبادة (وتوكل عليه) يعني وثق به في جميع امورك فانه يكفيك (وما ربك بغافل عما تعملون) قال اهل التفسير هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم والمعنى انه سبحانه وتعالى يحفظ على العباد اعمالهم لا يخفى عليه منها شيء فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود والله اعلم بمراده واسرار كتابه

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث اوله سورة يوسف)

* (فهرست الجزء الثانى من تفسير القرآن) *

* (فهرست الجزء الاول من تفسير الشيخ الاكبر) *

* (فهرست الجزء الثانى من تفسير الشيخ الاكبر) *